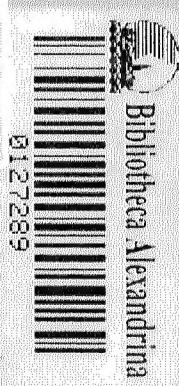


أعمال
نصالة



ثربانتس

دون كيخوته ٢



ترجمة
عبد الرحمن بدوي

إصدارات
المجمع
في الثقافة

٩١

ثريانتس دون كيخوته ٢



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران

دون کيخوته

الهيئة العامة	المستند رقم
رقم التصنيف	362
رقم التسجيل	49701

أعمال خالدة

١

دون كيخوته

ثريانتس

(الجزء الثاني)

ترجمه عن الاسبانية

د. عبد الرحمن بدوي



Organization of the Alexandria
Publications, S.C.



Author : Miguel de Cervantes
Title : Don Quijote de la Mancha
Translator: Dr. Abdel-Rahman Badawi
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998
Copyright ©

اسم المؤلف : ثريانتس
عنوان الكتاب : دون كيخوته ٢
ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي / أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص.ب. : ٢٣٨١
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Cultural Foundation

U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

دار المدا للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

الفصل الثالث والثلاثون

ويروي حكاية المستطلع الفاسد الراي^(١)

في فيرنستة ، وهي مدينة ايطالية شهيرة ثرية ، بمقاطعة توسكانيا ، كان يعيش سيدان غنيان ممتازان ، هما أنسامو ولوتريو ، وكان صاحبين بلغا من الصحة جداً جعل الذين يعرفونهما يسميانهما «الصاحبين» . كانا في ميعة الصبا من سن واحدة ، وذوي مزاج مشترك ، وهذا التوافق زاد في توثيق عرى الصداقة بينهما . وكان أنسلمو يسعى الى لذات الحب باهتمام أكبر من اهتمام لوتريو الذي كان يفضل عليها لذات القنص ، لكن كثيراً ما كان أنسلمو يرى وهو يضحي بأهوائه ابتغاء اتباع لوتريو في الأحراش ، كما كان لوتريو ينسى القنص ليصحب أنسلمو . وهكذا اتحدت إرادتهما ، كما تسير تروس الساعة الدقيقة .

كان أنسلمو يهوى بجنون فتاة تقطن نفس المدينة ، وكانت من الجمال والحكمة وطيب الأرومة بحيث قرّر أن يخطبها الى أهلها ، وفقاً لمشورة لوتريو الذي لم يكن يفعل شيئاً دون أن يسأله النصيحة . وتولّى لوتريو السفارة بينه وبين أهلها ، ونجح في ذلك المسعى بمهارة حتى صار أنسلمو بعد قليل من الزمان ينعم بالسعادة التي كان يرنو اليها . ورضيت كميلاً هي الأخرى عن هذا الزواج فلم تكف عن حمد الله ثم شكر لوتريو الذي اليه يرجع الفضل في سعادتها .

وإبان الأيام الأولى من الزواج ، وهي في العادة تنقضي في أعياد ، استمر لوتريو في التردد على صديقه كدأبه تكريماً له واحتفالاً به ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فلمّا تمّت مراسم الزفاف وهدأت الزيارات ، إلا وبدأ يقلل من زوراته ، مقتنعاً بأن الرجل الحصيف

(١) هذه الحكاية مستوحاة من «أورلندو الغاضب» لاريوستو . نشيد ٤٢ ، ٤٣ .

ينبغي ألا يتردد على أصدقائه بعد الزواج مثلما كان يفعل قبله حينما كانوا قتياناً . لأنه على الرغم من أن الصداقة الصادقة الحقيقية لا يمكن ولا ينبغي أن تحيك في صدرها الظنة ، فإن شرف الزوج من الدقة بحيث يمكن أن يخدشه حتى الأخوة أنفسهم ، فما بالك بالأصدقاء ! ومالبت أنسلمو أن أدرك الفتور من جانب لوتريو ، وشكا إليه منه شكوى حارة قائلاً إنه لو قدر مقدماً أن زواجه سيقف عثرة في سبيل التقائهما المعتاد ، لما أقدم عليه ، وإذا كانت الصلة الوثيقة قد ربطت بينهما منذ ريق الصبا حتى أطلق عليهما اسم «الصاحبين» الرقيق ، فلا ينبغي ، بسبب تحوط لامحلّ له ، فقدان هذا اللقب الكريم الجميل ، وتوسّل إليه ، لو جاز للصداقة أن تستخدم هذه العبارات ، أن يعود إليه ، وأن يكون هو ربّ البيت ، يخرج منه ويدخله كما كان يفعل من قبل ، مؤكداً له أن زوجته كميل لا يس لها من رضا ولا مشيئة إلا ذلك اللذان يلهمها إياهما ، وأنها لما علمت مدى صحبتها دهشت من هذا الفتور . وعن هذه الأسباب التي ساقها أنسلمو لإقناع لوتريو بالعودة إليه والتردد كما كان يفعل من قبل أجاب هذا الأخير بلباقة وفطنة واحتشام جعلت أنسلمو يقتنع بطيب مقصده . فاتفقا على أن يأتي لوتريو - من الآن فصاعداً - لتناول طعام العشاء مرتين كل اسبوع وفي أيام الأعياد . لكن بالرغم من هذا الإتفاق فقد صمّم لوتريو ألا يأتي أمراً من شأنه أن يمس شرف صديقه ، ذلك الشرف الذي كان عنده أغلى من شرف نفسه . وكثيراً ما كان يقول له - وبحق - إن أولئك الذين وهبهم العناية الإلهية امرأة جميلة ، ينبغي عليهم أن يدققوا كثيراً في اختيار الأصدقاء الذين يسمحون لهم بزيارة بيوتهم ، وفي اختيار النسوة اللواتي يختلطن بها ، لأنّ ما لا يمكن أن يتم التفاهم عليه ولا عمله في الكنائس والمحال العامة والأعياد وأماكن العبادة (وهي أماكن لا يستطيع الزوج دائماً أن يمنع زوجته من ارتيادها) يمكن أن يتم بسهولة في بيت صديقة أو صاحبة سر ، وبينّ له أن يكون للأزواج صديق صدوق أمين ، ينههم إلى ماعسى أن تصدر عنهم من أخطاء في إدارة بيوتهم ، إذ كثيراً ما يعميهم حبهم لزوجاتهم فلا يسدون اليهن - خوفاً من إغضابهن - ما ينبغي من نصائح ليفعلوا هذا وليجنبوا ذاك من الأمور التي قد تهين الشرف وتجلب العار والمذمة ، أمّا إذا نبههم إلى ذلك صديق ففي وسعهما أن يعالجوا الأمر بالدواء الناجع . لكن أننى له بالصديق الأمين الفطن الذي ينشده له لوتريو ؟ لست أدري . إن لوتريو وحده هو الذي يمكن أن يكون له ذلك الصديق ، وهو الساهر على شرف أنسلمو ، والذي كان ينتحل مختلف الأعذار ليتجنّب زيارة صديقه حتى لا يعطي الفرصة للمتبطّلين والأشرار ليلغوا في شرف صديقه ، حين يرون فتى ثرياً نبيلاً متحلياً بآلاف المناقب يتردد على بيت زوجة رائعة الجمال مثل كميل ، وعلى

الرغم من أن ما عرف عن هذه السيِّدة الشابة من رزائة وحكمة من شأنه أن يضع حدًا لسوء المقال ، فإنه لم يشأ أن يدع سمعتها وسمعة أنسلمو تحت رحمة الصدف . وتبعاً لذلك كان ينتحل مختلف الأعذار ، في غالب الأحوال ، حتى لا يأتي في الأيام المتفق عليها ، ولهذا فإن الصاحبين حين كانا يجتمعان كانا يمضيان الشطر الأكبر من النهار في الشكاية واللوم من جانب ، والإعتذارات من الجانب الآخر .

و ذات يوم كان الصاحبان يتريضان في مرج خارج المدينة ، فقال أنسلمو مخاطباً لوتريو : « لاشك ، يا صديقي لوتريو ، أنّ عليّ أن أحمد الله كثيراً على أن جعلني أولد لأبوين مبجلين مثل والديّ ، وأن أغدق عليّ من خيرات الطبيعة وخيرات الثراء بملء كفيه . كما أحمده كذلك على أن قيّض لي صديقاً مثلك ، وزوجة مثل كميلا . وأنا أقدر هذه النعم تقديراً إن لم يكن كفاء ما يجب ، فعلى الأقل قدر ما أستطيع ومع كل هذه المواهب التي تؤلف - في العادة - السعادة الإنسانية فأنا أشد الناس قلقاً ، وحزناً . ومنذ مدة لأدري مداها وأنا فريسة رغبة غريبة خارقة للعادة إلى حد يجعلني أدهش من نفسي ، وأنحني باللائمة على هذه الرغبة وأودّ لو أخفيتها عن أفكاري ، لكنني أعاني نصباً في إبعادها مثلما سأعاني لو أتي كشفت عنها لكل الناس . ولما كنت لأملك كتمانها في صدري زماناً أطول ، فأني أود أن أفضي بها إلى فطنتك ، وأنا مقتنع بأن ماستبدله من حرص تمليه صداقتك لتجد له العلاج ، سيخلصني عما قريب من القلق الذي يمسك بمخنقي ، فأتحول من الألم الذي يسببه لي جنوني إلى الرضا الذي سيوفر لي اهتمامك بأمري » .

ولوتريو ، وقد أدهشه حديث أنسلمو ، لم يدر إلى أين تفضي هذه المقدمة الطويلة . فتش في رأسه عما عسى أن تكون رغبة صديقه هذه ، لكنه لم يستطع أن يبلغ شيئاً . وحتى يضع حدّاً لهذا العذاب قال لأنسلمو إنّ من الإهانة إلى صداقتهم الوثيقة أن يسلك هذه المسالك الملتوية ليكشف له عن أخفى أسرار فكره ، لأنّ عليه أن يثق أنه سيتلقّى منه إمّا نصائح يستهدي بها ، أو نجدة لعلاج علله . فأجاب أنسلمو : « أنت على حق ، وبهذا تشجّعني على أن أعترف لك بأن الرغبة التي تعذبني هي أن أعرف هل كميلا من الكمال والأمانة والإخلاص بقدر ما أعتقد . والوسيلة الوحيدة التي تجعلني أعتقد بهذا ، هي أن أضعها موضع الإمتحان بحيث تتجلّى أمانتها ، مثلما تتجلّى جودة الذهب بفعل النار ، لأنني أرى أنّ المرأة لا يمكن أن يقال عنها أنها فاضلة إلا بعد إغرائها ، والمرأة الأمانة هي تلك التي لا تؤثر فيها الوعود ولا الهدايا ولا الدموع ولا الحاح العشاق باستمرار . وهل يعرف المرء للمرأة جميلها من حيث هي صالحة ، إن لم يهتئ لها الفرصة لتكون فاسدة ؟ وهل من

عجب في أن تكون هتابة محتشمة ، إذا لم تهياً لها الفرصة لتفجر ، وإذا عرفت ، من ناحية أخرى ، أن زوجها قادر على أن ينتزع حياتها لدى أول خطيئة ترتكبها ؟ إن المرأة التي لاتكون عاقلة إلا عن رهبة أو انعدام فرصة ، لا يمكن أن تقارن بالمرأة التي تغري ، وتلاحق وتخرج من المعركة وعلى هامتها إكليل النصر . لهذه الأسباب ، وأخرى كثيرة أستطيع أن أسوقها لتبرير رأيي ، أرغب بحرارة في أن تمر زوجتي كميلاً بهذه المحن ، وأن تتطهر على نار الإغراءات والمطارادات الذي يبذلها شخص فيه من الفضل ما يثير رغائبها . فإن خرجت من هذا الإمتحان ظافرة ، كما هو أملي ، فستكون سعادتي بغير نظير ، وأبلغ قمة أمانتي ، وسأقول أن الحظ حبائي بالمرأة القوية التي قال عنها الحكيم^(١) ، من ذا الذي سيعثر عليها ؟ أما إن حدث ما ليس في الحساب فإن لذة الإقتناع بصحة رأيي ستخفف من الألم الذي لا بد سيحدثه مثل هذا الإمتحان القاسي . والآن ، أي صديقي لوتريو ، لما لم يكن في مقدور أي سبب تنتحله أن يصرفني عن خطتي ، فإن الرجاء الوحيد الذي ألتمس منك تحقيقه هو أن تستعد لتكون أداة لهذه العملية ، وهذه رغبتني . وسأزودك بكل الأسباب المؤدية الى تنفيذها دون أن أهمل كل ما أظنه قادراً على إثارة امرأة شريفة ، متواضعة ، هادئة منزهة عن الهوى . وما يجعلني أختار أنت خصوصاً لأداء هذه المهمة الشاقة هو أنك إذا أفلحت في التغلب على حكمة كميلاً فإنني واثق كل الثقة أنك لن تندفع حتى النهاية ، بل ستعتبر أنه قد تم ما يمنعك الإحترام الإنساني من ارتكابه : بحيث لن أهان إلا من حيث النية ، وتظل الإهانة مدفونة في طوايا صمتك الذي ينبغي أن يكون ، فيما يتعلق بنفسي ، أبدياً مثل صمت الموت . وهكذا يا صديقي إن شئت أن أنعم بعد بما يمكن أن يسمى الحياة ، فلا بد أن تبادل فتبدأ هذه المعركة الغرامية ، لابتغور ويطء ، بل بكل الحرارة والحرص اللذين تقتضيهما ثقتي فيك والصدقة التي تربط بيننا .

هكذا كان حديث أنسلمو الى لوتريو الذي كان يصغي اليه دون أن ينطق بكلمة . فلما توقّف أنسلمو عن الكلام ، تفرّس صديقه فيه طويلاً ، كما يتطلع المرء في شيء لم يره أبداً ، يبدده فيقف مشدوهاً حياله . ثم قطع لوتريو الصمت قائلاً :
 «لأستطيع أن أقنع نفسي ، أي صديقي أنسلمو ، بأن كل ماقلته ليس إلا نسيجاً من المداعبات ، لأنني لو حسبت أنك كنت تتكلم جاداً لما أرعيت إليك سمعي ، ووضعت بذلك حدّاً لخطابك الطويل . إنني واثق أنك لاتعرفني . أو لاتعرف أنني أنا لوتريو ، وأنت أنت

(١) سليمان في « سفر الأمثال » اصحاح ٢١ .

أنسلمو ؟ لكن ، وا أسفاه ! إني أخشي ألا تكون بعد أنسلمو الأمس ، وأنت ، هل ظننت أنني لم أعد إنسانا الأمس ، لأن الآراء التي أبديتها لا يمكن أبداً أن تكون آراء من يدعو نفسه صديقي ، وهل الإقتراحات التي أبديتها يمكن أن توجه الى لوتريو الذي تعرفه ؟ إن المرء يمتحن أصدقاءه ، كما يقول الشاعر ، حتى المذبح ، ومعنى هذا أنه يجب عليه ألا يستخدمهم في نقض الشرائع الإلهية . فإن كانت هذه الحقيقة بيّنة عند الوثني^(١) فكم بالأحرى ينبغي أن تكون بيّنة عند المسيحي ، الذي يعرف أنه لا ينبغي أن يصرفنا أي حب عن حب الله ، وأنه إذا كان الإنسان قادراً على نسيان ما يدين به للسماء من أجل الاشتغال بصديقه ، فيجب أن يكون ذلك في أمور تتعلق بالشرف أو بالحياة ، لأبأمور هزلية تافهة . فقل لي إذن يا أنسلمو ماهو الخطر الذي يهدّد شرفك أو حياتك ، حتى استلزم باسترضائك بارتكاب أمر كرهه كهذا الذي سألتني ؟ لاشيء ، أبداً . بل أراك على العكس من ذلك تطلب إليّ أن أسلبك الشرف والحياة ، وأن أسلب نفسي كليهما في الوقت نفسه ، أو ليس سلبك الشرف هو سلبك الحياة لأن الإنسان بغير شرف إنسان ميت ؟ وأنا الذي تطلب إليه أن يكون أداة لإحداث هذا الشر العظيم سيسرل بالعار ، وتبعاً لهذا سأعد نفسي آنذاك ميتاً أو كالميت أصغ إلي ، يا عزيزي أنسلمو ، ولا تقاطعني قبل أن أفصي إليك بكل ما يخطر ببالي لإجابة عما تسألني عنه ، وبعد ذلك سيكون لك الوقت كله للرد ، وسأصني اليك بدوري . فقال أنسلمو ، موافق ، تحدث ماحلا لك الحديث .

فقال لوتريو ، يبدو لي أن عقلك الآن كعقل من ليسوا على ديننا^(٢) ، إذ لا يمكن أن يبتن لهم أخطاء مذهبهم بشواهد من الكتاب المقدس ، وبراهين نظرية أو مبنية على مواد الإيمان ، ولا بحجج منطقية ؛ بل لابد من أن نسوق إليهم أمثلة محسوسة ، سهلة ، مفهومة ، بيّنة ، لاشك فيها مع براهين رياضية لا يمكن إنكارها ، مثل أن أقول إذا نزعنا من كميتين متساويتين جزئين متساويين فالباقي متساو . فإن لم يفهموا كلامنا ، وهم في الواقع لا يفهمونه ، فلابد أن نبين لهم ذلك بالأيدي ، وأن نضعه تحت أنظارهم ، وفي نهاية الأمر لانستطيع أبداً أن تقنعهم بحقائق ديننا المقدس . كذلك سيكون أمري معك وأنا مضطر الى ذلك ؛ لأن وجدانك قد أضلك ، ورغبتك أبعد ماتكون عن سمة العقل ، بحيث سأضيق وقتي في تفهيمك سذاجتك ولن أسميها بعد باسم آخر ، ولولا الصداقة التي أكتنها لك ، وتمنعني من استخدام الشدة معك ، ومن تركك في الخطر البين الذي أنت فيه ، لتركك تتحمل وزر

(١) هذه العبارة نسبها فلوطرخس الى فرقليس في كتابه « العارالدي » .

(٢) من ليسوا على ديننا ، تصرفنا في هذه الكلمة .

أحلامك ونهاويلك . تأمل ماذا تطلب مني ! إنك تريد مني أن أغري بالحب امرأة هادئة مقتصرة ، وأن أغرر بسيّدة شريفة ، وأن أقدم الهدايا الى زوجة نزيهة ، وأن أضايق امرأة ذات فطنة وحصافة هذا هو ماقلت له لي . لكن إذا كنت ترى أن زوجتك تتحلّى بكل هذه الصفات ، فلم تبحث إذن ؟ وإذا كنت تعتقد بأنها ستخرج ظافرة من هجومي وهذا أمر لاريب عندي فيه ، فأى ألقاب أشرف تريد أن تعطيتها إياها غير تلك التي تملكها هي بالعقل الآن ، وأيّة كمالات ستحظى بها أكثر مما عندها ؟ أمّا أنّك لاتعتقد أنها كما تقول ، أو أنّك لاتدري ماتطلب . إن كنت لاتؤمن بفضائلها ، فلماذا تمتحنها ؟ أليس الأفضل أن تبادر على الفور فتصنع معها ماتراه ؟ لكن إذا كنت ترى أنها كاملة ، أليس من سوء التدبير أن تريد امتحان حقيقة لن تغيّر شيئاً في الرأي الذي كوّنته بالفعل ؟ إن القيام بعمل لايمكن إلا أن يجلب الضرر لنا ، دون أن يعود علينا بأدنى عائدة ، أليس هذا من شأن الشخص المتهوّر المضطرب ، خصوصاً إذا لم يلجئنا الى ذلك ضرورة ، وكان أقل تفكير كافياً لتبصيرنا بحماقتنا ؟ إننا نقوم بالأمر الصعبة أما في سبيل الله أو في سبيل الدنيا ، أو في سبيل كليهما ، فذلك التي تتم في سبيل الله هي أعمال القديسين ، الذين بأبدان بشرية يعيشون عيشة الملائكة ، وتلك التي تتم في سبيل الدنيا تشابه جهود المسافرين الذين يخترقون البحار ، ويجوبون خلال البلاد ، ويزورون مئات الأمم الأجنبية ابتغاء تحصيل الأموال ، وأمّا الأمور الصعبة التي تتم في سبيل الله والدنيا معاً فهي مغامرات الجنود الشجعان الذين مايكادون يلمحون في أسوار العدو ثغرة سعتها سعة قنبلة المدفع حتى يحطموا عنهم كل خوف ولايقفهم الخطر الداهم الذي يتهدهم بل يلقون بأنفسهم ورأسهم مخفوض خلال آلاف الموتى ، ولقد ألهمتهم الحماسة للدفاع عن إيمانهم ، تلك هي الأعمال التي تحقّق لأصحابها المجد والشرف ، والكسب أيضاً أيّاً كانت مصاعبها ومخاطرها . ولكن ماتفكر أنت فيه لا يمكن أن يجلب لك مجداً في نظر الله ، ولاشرفاً عند الناس ، ولاكسباً لنفسك ، ولو نفّذته فلن تزداد رضا ولاثراء ولا احتراماً ، وإذا لم تكن النتيجة سعيدة ، فسترى نفسك أشقى الناس ، دون أن يجديك في شيء أن تعرف أن شقاءك مجهول ، إذ يكفي لعذابك أن تعرفه أنت . وحتى أؤيّد لك هذه الحقيقة ، أسوق اليك مقطوعة للشاعر الشهير^(١) لويس تنسيلو Luis Tunsilo ، وردت في نهاية القسم الأول من « عبرات القديس بطرس » :

(١) لويديجي تنسيلو (١٥١٠ - ١٥٦٨) من أكبر شعراء نابلي في القرن السادس عشر . وقد كتب هذه القصيدة الشهيرة ليكفر بها في أخريات عمره عن شعر الغزل الذي نظمّه في شبابه . وقد ترجمها الى الاسبانية لويس جلّفز دي مونتلفو Luis Galvez de Montlvo الذي كان صديقاً حميماً لكرياتس ، ونشرها سنة ١٥٨٧ .

« زاد الألم ، وزاد العار ، في قلب بطرس ، لما أن طلع النهار . وعلى الرغم من أنه لا يرى أحداً فإنه خجل من نفسه حين فكّر في أنه أخطأ ، لأن العار لا يأتي القلب الكريم من كونه قد شاهده ، فلو لم يبصره غير السماء والأرض لأحمرّ خجلاً من نفسه حين يقع في الخطيئة » .

وهكذا لن يخفف الكتمان من ألمك ، بل ستدرف العبرات تلو العبرات ، وإذا أبت العيون ، زدك القلب بعبرات من الدماء ، مثل تلك التي ذرفها ذلك الطبيب البالغ السذاجة الذي جرب تجربة الإناء المسحور الذي رفض رينلدو الفطن أن يقوم بها لأنه كان عاقلاً^(١) . وهذا المثل وإن أخذ من خرافة شعبية ، فإنه ينطوي على حكمة أخلاقية يجب أن تتخذ رأياً وموضوعاً للتأمل وقاعدة السلوك . ولكنّي أريد أن أجعلك تقتنع بخطأ رأيك . قل لي يا عزيزي أنسلمو ، لو وهبتك السماء أو الحظ السعيد ماسة ثمينة ، صفاؤها ولمعانها وقيمتها ترضي أمهر تجار الأحجار الكريمة حتى ليظنوها أكمل جوهرة في نوعها ، وكان هذا رأيك أنت أيضاً ، فهل من الفطنة وهل من العقل أن يخطر ببالك أن تضعها على سندان وأن تقرعها بمطرقة مرات ومرات ، كي تحقّق هل هي صلبة متينة كما تظن ، لأنه مع افتراض أن الماسة تقوى على احتمال هذا الإمتحان العنيف ومقاومته ، فهل هذا من شأنه أن يزيد شيئاً في قيمتها وثمنها ؟ وإذا انكسرت الجوهرة ، وهو أمر من الممكن أن يقع أفلا تفقد بهذا كل شيء . وينظر الى مبتكر هذه التجربة العجيبة على أنه أحمق ؟ نعم ، يا أنسلمو ، إنّ هذه الماسة هي كميلا ، في نظرك وفي الواقع ، فهل من الحكمة أن تعرضها للكسر ؟ وإذا قاومت فهل يزيد ذلك في قيمتها ؟ وإذا استسلمت ، فانظر منذ الآن ماذا سيصير إليه أمرك بغيرها ، وكم ستشكو نفسك عن حق لأنك تسببت في ضياعها وضياعك . واعتبر أنّ لاماسة في الدنيا أئمن من المرأة العفيفة ، وأنّ شرف النساء إنّما هو في الرأي الذي لدينا عنهم ، وأنّ سمعة المرأة من الطهارة بمقدار ما يمكن أن تتمناها ، وإن كان يبدو أنّك ترتاب في هذه الحقيقة . وتذكّر أنّ المرأة حيوان ناقص ، وأنه يجب ألا تنصب الجبال تحت أقدامها حتى تترنّح وتسقط ، بل على العكس يجب أن نزيلها لنخلي طريقها من كل عقبة حتى تصل بسهولة الى الكمال الذي ينقصها ، والذي يتلخّص في الفضيلة . وعلماء التاريخ الطبيعى يقولون أن السمور حيوان صغير فراؤه أبيض كل

(١) حكاية وردت في ملحمة أريوستو « أورندو الغاضب » النشيدان ٤١ ، ٤٢ . وهذا الإناء المسحور كان يمكن بواسطته اكتشاف أمانة النساء . وهذه الحكاية هي التي أوحى الى ثربانتس بفكرة الحكاية التي يرويها هذا الفصل ، كما ستوحى الى لافرتين بموضوع قصيدة « الكائنات المسحورة » .

البياض ، وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة : يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها ، ويضعون فيها طيناً ثم يأخذون في مطاردته ، وحين يصل السمرور الى الموضع الذي وسخه الطين ، يتوقف دفعة واحدة ، ويفضل أن يؤخذ ويقتل على أن يمر في الطين ويوسخ ببياض فرائه الذي يقدره أكثر من الحرية والحياة . والمرأة الشريفة الأمانة العفيفة - هي هذا السمرور ، وفضيلتها وحيائها يجعلانها أظهر وأشد بياضاً وشفافاً من الثلج ، وللمحافظة على هذا البياض ومنعه من التدنس ، لابد من حيلة أخرى غير تلك التي يستخدمها الصياد ، فبدلاً من وضع طين الهدايا واغراءات العشاق ، لأنه ربما ليس فيها من القوة والفضيلة الطبيعيّتين ما يمكنها من تجنب مثل هذه الأحاييل ، ينبغي ألا نبين لها غير جمال الفضيلة ، والبريق الناشئ عن السمعة الطيبة . إنّ المرأة الشريفة مرآة من البلور اللامع المصقول ، يغشى عليها ويجعلها صدئة أقل نفس يمرّ عليها . وينبغي أن نعاملها معاملة الذخائر ، نعبدها ولا نهمسّها ، ونعدها كبستان جميل حافل بالأزهار ، لا يمكن أن نخطو فيه ولا أن نقطف ورده ، بل نعجب ، من خلال سوره المعشق ، بأناقته ونضارته . وبهذه المناسبة أودّ أن أشدك بعض أشعار مأخوذة من ملهاة حديثة يبدو لي أنّ موضوعها قريب من الموضوع الذي نبحث فيه ، ها هو ذا شيخ حكيم ينصح والداً بأن يحرس ابنته ويسهر عليها جيّداً ، ومن بين مايسوقه من حجج يقول :

النساء كالزجاج ،

لا ينبغي أن نجرّب

هل ينكسر أو لا ينكسر إذا رمي به على الأرض ،

لأننا لا ندري ماذا يمكن أن يحدث .

ولمّا كان سينكسر ، في غالب الظن ،

أفليس من الجنون أن نجازف

بمثل هذه التجربة

في جسم لا يمكن شعبه ؟

هذا رأي يستند الى العقل .

ولا يزال العالم يعتقد

أنه طالما يشاهد داناوات في العالم
فسيشاهد الذهب يساقط^(١) .

« إنني لم أحدثك حتى الآن ، أي عزيزي أنسلمو ، إلا عما يمسك أنت . فاسمح لي
الآن أن أقول « كلمة » عن مصلحتي أنا ، وإن بدت لك أحاديثي طويلة جداً فأستميحك
المعذرة ، فهذا أقل ما يجب من أجل استنقاذك من التيه الذي ألقيت بنفسك في أعماقه . أنت
تعدني صديقك ولكنك تريد أن تسلبني الشرف ، وهذا أمر يضاد الصداقة ، ولست فقط
تريد أن تسلبني إتياء ، بل تسألني أيضاً أن أسلبك شرفك أنت . أما أنك تريد أن تشوه
شرفي فهذا أمر ثابت محقق ، لأن كميلاً حين ترى أنني أسعى لافسادها ، كما تريد أنت ،
فإنها ستنظر إليّ كرجل ضال ، لأمانة عنده ولا أخلاق ، إذ خطر بباله مثل هذه الخطة
الكريهة المنافية لصداقتنا المشتركة ، وأما أنك تريد مني أن أثلم شرفك ، فالأمر ليس أقل
ثباتاً وتحققاً لأن كميلاً سيكون أمامها مجال الظن أنني اكتشفت فيها عيباً ما ، مادمت من
الجسارة بحيث تحدثت إليها عن حبي ، والعار الذي ساءبته عليها أولن يسقط عليك أنت ،
لأنها امرأتك ، من هنا ينشأ ازدراء الناس بزواج المرأة الزانية . فحتى لو جهل مصيبتك ، ولم
يتسبب فيها بسلوكه ، ولم يكن في وسعه أن يمنعها ، فإن الرأي العام رغم ذلك يحقّره ،
تقتحمه العيون ولا يتحدث عنه إلا باستهزاء ، ولا يوقّره أحد ، وإن كانت هذه البلية إنما
صدرت عن سوء ميول زوجته لاعتنا إهماله ، . وأودّ هنا أن أستقصي الأسباب التي من أجلها
يتسربل بالعار زوج المرأة الخائنة ، على الرغم ، كما قلت لك ، من أنه يجهل بليته ، وليس
هو السبب فيها ، ولم يهيء لها الفرصة أبداً . وأحسب أن هذا الاستطراد لن يبعث في
نفسك الملل أبداً ، لأنه لا هدف له إلا إسداء المعروف لك » .

« ورد في الكتاب المقدس أنه لما خلق الله أبانا الأول ووضعه في الجنة التي على
الأرض ، أرسل النوم الى آدم ، وبينما كان هذا نائماً انتزع الله منه ضلعاً في الجانب
الأيسر ، ومن هذا الضلع خلق أمنا جميعاً حواء . فلما استيقظ آدم ورآها وصاح : « هذا
اللحم من لحمي ، وهذا العظم من عظامي » . فقال الله : « ولهذا يترك الإنسان أباه وأمه ،
وكلاهما يؤلفان لحماً واحداً » .

« وهكذا أنشئ مرسوم الزواج المقدس ، بروابط وثيقة لا يستطيع إلا الموت وحده
حلّها ، وهذا المرسوم له من العزّة والفضل بحيث يجعل شخصين مختلفين يكونان لحماً واحداً

(١) ربّما كان هذا الشعر لثريانتس ، ويروي رودريجت مارين أنه مستخرج من إحدى كوميديات ثريانتس المفقودة وعنوانها :
« المرتبكة » ، وكان المؤلف يقدّمها فوق سائر كوميدياته .

(جسداً واحداً) ، وفي القرانات السعيدة لاتكون للنفسين غير إرادة واحدة : ولهذا فلأن جسد المرأة وجسد زوجها جسد واحد ، فإن عيوب المرأة ونقائصها تقع على الرجل وإن لم يتسبب فيها ، وكما أن الألم في القدم أو في أي عضو آخر يشعر به سائر الجسم ، حتى الرأس ، لأنه ليس كله غير جسد واحد ، فكذلك الزوج يشارك في عار زوجته لأنه هو وهي شخص واحد . ولما كان كل شرف أو عار في العالم ، وتبعاً لذلك لما كانت أفعال المرأة الزانية تصدر عن الدم والجسد ، فلا مندوحة عن أن يكون للزوج فيها نصيب وأن يتسربل بالعار وإن جهلها . فانظر . أي أنسلمو ، لأي خطر تعرض نفسك وأنت تسعى الى تعكير صفو الهدوء الذي تنعم به زوجتك ، الفاضلة ، وتأمل ما في استطلاعك هذا الذي يدفعك إلى إثارة مزاج زوجتك العفيفة الهادي ، ما فيه من خرق بدون نفع ولا جدوى ، وتأمل كيف أنك ، في هذه المغامرة ، لن تكسب إلا القليل ، أما ما تخسر فيفوق الوصف . فإن كان كل هذا الذي قلته لك غير كافٍ لصرفك عن خطتك الفاسدة ، اذن فابحث عن أداة أخرى لشقائق وعارك ، أما أنا فلا أريد أن أكون تلك الأداة أبداً حتى لو أدى ذلك الى فقدان صداقتك ، وبإلها من خسارة كبرى» .

وسكت لوتريو الفاضل العاقل ، وبقي أنسلمو مبلساً يفكر ، وظلّ على هذه الحال طويلاً دون أن يستطيع أن يقول كلمة ، ثم قال أخيراً : « رأيت ياعزيزي لوتريو بأي اهتمام أروعك سمعي . وتعرفت في حججك وشواهدك ، ومقارناتك حكمتك الكبرى ، وما تحمله لي من صداقة حميمة مخلصه ، وأعترف لك بأنني إذا لم أتبع نصائحك ، وإذا انسقت وراء أفكارى ، فسأفر من الخير عادياً الى الشر ، ولكن يجب عليك أن تتصور أن بي داء شبيهاً بداء بعض النسوة اللواتي يأكلن الطين ، والرماد ، والفحم ، وأشياء أخرى أسوأ مما يمكن تصوّره ، ولهذا ينبغي أن تتلطّف في الحيلة من أجل شقائي ، وهو أمر ميسور لو أردت فقط أن تحاول إغراء كميلا ، ولو قليلاً وعن تظاهر . إنها ليست من الضعف بحيث يسقط شرفها لدى أول محاولة ، أما عن نفسي فسأظل راضياً عن هذه المحاولة . أما عن نفسك فستكون قد قمت بما يقتضيه حق الصداقة منك ، ليس فقط بإعطائك إياي الحياة ، بل وأيضاً بإقناعي بأنني لست عديم الشرف . وسبب واحد يجب أن يحملك على ألا ترفض طلبي هذا وهو أنني وقد صممت على محاولة هذه التجربة فإنك لن توافق على أن أفضي بجنوني هذا الى إنسان آخر مما من شأنه أن يحطّم شرفي الذي أراك تخشى عليه من كل خدش . أما عن كميلا فينبغي عليك ألا تتوقف عند الفكرة السيئة التي يمكن أن تكونها عنك وهي تراك تغازلها وتراودها ، إذ بمجرد أن تعرف نتيجة التجربة التي تحاولها ستكون في حل أن تكشف لها

عن الحيلة ، وهنالك سترد إليك كل ما لك من تقدير لديها ، وهكذا مادمت لن تصاب بشيء في هذه المحاولة ، وسترضيني بها ، فأبني أتوسل اليك ألا ترفضها ، رغم ماتجد فيها من مشقة ، لأنني كما قلت لك أرى أنك كلما بادرت عددت أنا الأمر منتهياً » .

فلما رأى لوتريو عزم أنسلمو ، ولم يدر ماذا يستطيع بعد أن يعترض عليه به ، وأي تأنيب يوجهه إليه ، وقدّر أيضاً أنّ صديقه قادر أيضاً على أن يفضي بجنونه هذا الى أي شخص آخر ، قرر إرضاءه ، تجنباً لشر أكبر ، لكن مع نية صادقة في أن يسلك مسلكاً ليس من شأنه أن يغير من عواطف كميلا الشريفة وفي الوقت نفسه يرضي صديقه . وطلب إليه ألا يفضي بمشروعه الى أحد ، وأنه سيتولى الأمر بنفسه ، وسيبدأ متى شاء أنسلمو فعائقه هذا بحرارة ، وشكر له صنيعه هذا شكراً جزيلاً ، وكأنه أسدى اليه أجل خدمة في الدنيا . واتفقا على أن يبدأ العمل في اليوم التالي ، وأن يهيئ أنسلمو له الفرصة للتحدث مع كميلا في خلوة ، ويزوده بالمال والحلي لتقديمها إليها ، ونصح صديقه بأن يهيئ لكميلا أغاني غرام مسائية ، وأن يوجه إليها القصائد ، وإن لم يشأ أن يعنى نفسه بنظمها فسيستولى هو ، أي أنسلمو ، نظمها له . ووافق لوتريو على كل شيء ، لكن بنية مخالفة لنية أنسلمو . ولما تمّ الاتفاق على هذا النحو ، عاد الصديقان الى بيت أنسلمو ، فوجدا كميلا شديدة القلق لتأخر زوجها في العودة .

ولما عاد كل منهما الى بيته كان أنسلمو راضياً ، بينما ظل لوتريو مفكراً حائراً لا يدري كيف يخلص من هذه المسألة الحمقاء ، وكيف يخدع أنسلمو دون أن يهين كميلا . وفي الغداة غدا لتناول العشاء عند صديقه ، فتلقته زوجته بالترحاب ، وأبدت له من مظاهر الحفاوة ما يتفق مع ماتعرفه من وثاقة الصلة بينه وبين زوجها أنسلمو . وبعد الفراغ من العشاء التمس هذا من لوتريو أن يظل في صحبة كميلا حتى يعود من مكان له فيه بعض الشؤون إبان ساعة ونصف . وأرادت كميلا منعه من الخروج ، وسعى لوتريو الى اللحاق به ومصاحبته ، ولكنه مضى ، وموصياً زوجته بالألا تترك لوتريو وحده ، وموصياً هذا بأن ينتظره لأن لديه أموراً مهمة يريد أن يحادثه بشأنها . وبالجملّة فقد عرف كيف يتظاهر بضرورة غيابه ، بحيث كان من العسير إدراك السبب . وهكذا بقيت كميلا ولوتريو وحدهما لدى المائدة ، لأن خدم البيت مضوا لتناول عشاءهم . فأصبح لوتريو ، وفقاً لرغبة أنسلمو ، في حضرة عدو يستطيع بجماله وحده أن يتغلب على فرقة من الخيالة المدججين بالسلاح من الرأس حتى القدم . وكان الموقف يثير الإرتباك . ووضع لوتريو يده على خده ، واستند الى كرسيه ، وادّعى أنه يرغب في النوم رغبة شديدة ، وسأل كميلا أن تأذن له بالقليل من

الراحة حتى يعود صديقه . فأجابته كميلا قائلة أن الأفضل أن يستريح على أريكة بدلاً من الكرسي ، لكنه لم يأخذ بنصيحتها ، وأخذ في النوم .

ولمّا عاد أنسلمو وجد كميلا في غرفتها ، ووجد لوتريو نائماً في قاعة الطعام ؛ ففكر أنه لما طالبت غيبته كان عند لوتريو من الوقت مايسمح له بالتحدث مع كميلا ثم بالنوم بعد ذلك . وانتظر نافد الصبر أن يستيقظ لوتريو ليخرج معه ، ويستعلم منه عما جرى . فلما صارا وحدهما قال له لوتريو أن لم ير من اللائق أن يكشف عن نفسه منذ أول يوم ، وأنه لم يفعل أكثر من أن يمتدح جمال كميلا قائلاً لها إنه لاجديث للمدينة إلا عن جمالها ومفاتها وصفاتها النادرة . وأضاف قائلاً : « أرى أن هذه هي الوسيلة الصحيحة للنفوذ الى رضاها وتهيتها للإصغاء الي ، وأن من المناسب اللجوء الى حيلة الشيطان الذي حين يريد أن يخدع فانيا متنبهاً لأحاييله يتحول الى ملك نوراني ، وإن كان هو ملكاً ظلمانياً ، وبغريه تحت مظاهر المقاصد النبيلة ، ثم يكشف عن نفسه في النهاية ، ويحقق مقصده ، إذا لم يفسد عليه المرء حيله هذه منذ البداية » .

واغتبط أنسلمو لهذه التفاصيل . وقال للوتريو إنه ، دون أن يخرج من بيته ، سيهيء له الفرصة لرؤية كميلا كل يوم ، وسيحتاط بحيث لا تدرك كميلا شيئاً من هذه الحيلة ولا يتيقن في صدرها بشأنها أي شك أو ظنة . ومضت أيام عديدة ؛ ولم يقل لوتريو شيئاً لكميلا ، ثم راح يروي لأنسلمو أنه أغراها وراودها دون أن يستطيع اكتشاف أي مظهر لجعلها تستجيب لأي شيء مستقبح ، وبالجملّة دون أدنى أمل في النجاح ، بل بالعكس هدّته بتبليغ زوجها إن لم يغيّر مسلكه .

فقال أنسلمو : هذا حسن ، حتى الآن استطاعت كميلا أن تقاوم الكلام ، ولابد أن نعرف الآن هل ستقاوم الأفعال . وسأعطيك غداً ألفين من القطع الذهبية لتقدمها إليها ، وألفين آخرين لشراء حلي تهديها إليها . إن النسوة لا يحببن شيئاً قدر حبهن للحلي ؛ ولا جدوى من عفتن ، بل كلما ازددن جمالاً ازددن حرصاً على الزينة . فإن قاومت كميلا هذا الإغراء ، فسأكون راضياً ولن أعذبك بهذا الأمر بعد » .

فأجاب لوتريو بأنه مادام قد بدأ فإنه يريد أن يستمر في المغامرة حتى النهاية ، وهو يأمل في أن يخرج منها متعباً مقهوراً . وفي اليوم التالي أخذ مبلغ الأربعة آلاف قطعة من الذهب ، التي سببت له أربعة آلاف هم ، لأنه لم يعرف بعد أي أكاذيب يخترع ، وأخيراً قرّر أن يقول أن كميلا قاومت الهدايا والوعود كما رفضت عبارات الغرام ، وأنه لاجدوى من مضايقتها أكثر من ذلك ، لأن كل هذه المحاولات تضيع سدى . لكن يشاء الحظ أن يقدر

أمراً آخر ، فذات يوم ترك أنسلمو ، كالعادة ، كميلا ولوتريو وحدهما ، وانحاز الى غرفة مجاورة للغرفة التي تركهما فيها ، وراح يتسمع وينظر من خلال خرق المغلاق الى مايقولان ويفعلان ، فرأى أن لوتريو لم يفتح فاه طوال أكثر من نصف ساعة ، ولم يقل كلمة واحدة ولن يقول حتى لو بقيا معاً أطول من قرن . فأدرك حينئذ أن كل ماقاله لوتريو عن أجوبة كميلا المزعومة لم يكن إلا تمويهاً وكذباً ، ولكي يتم إقناعه خرج من الغرفة التي كان فيها وجاء لينتحي بلوتريو ناحية وأن يسأله هل من جديد ، وماذا كان مزاج كميلا . فقال لوتريو إنه لا يظن أنه يستطيع الاستمرار في هذه المغامرة الأليمة أطول من هذا ، وأن كميلا أجابته بامتعاض وحدة وغضب بحيث لم يستطع أن يجد كلمة واحدة يوجهها اليها .

فقال أنسلمو : آه يا لوتريو ، آه يا لوتريو يا لسوء استجابتك لما سألتك إياه وللثقة البالغة التي أوليتك إياها ! إني خارج لتوي من الغرفة المجاورة لهذه : وتسمعت لك ، إنك لم تقل لكميلا كلمة واحدة ، وهذا يجعلني أظن أنك لم تتحدث اليها أبداً . فإذا كان الأمر كذلك ، وهو مالا أشك فيه ، فلماذا تخدعني ، وتنتزع مني بحيلتك هذه الوسيلة لبلوغ غرضي ؟

ولم يزد أنسلمو على هذا ، بل تركه في حيرة وارتهاب لأن كذبه افترض ثم أقسم لوتريو لأنسلمو أنه من الآن فصاعداً سيضع كل اهتمامه في خدمة ارضائه ، ولن يكذب عليه بعد أبداً ، وأن حماسه ستبدد الظنون التي ظنّها أنسلمو ، فوثق هذا بكلامه ، ولكي يزيد في تيسير الأمر على لوتريو قرّر أن يتغيب عن أهله ثمانية أيام . فطلب الى أحد أصدقائه وهو يقطن في الريف أن يستضيفه ، حتى يعتذر بذلك لدى كميلا عن ابتعاده .

يالك من أحمق شقي! ماذا تريد أن تفعل ؟ وماذا تقصد ؟ وأي خطة جسرت أن تدبرها ؟ إنك تعمل ضد نفسك ، وتتأمر على شرفك ، وتسعى الى ختفك بظلفك! إن زوجتك شريفة ، وأنت تنعم في سلام بمناعم الحياة الزوجية ، ولاشيء يعكّر ملذاتك ، وأفكار كميلا لاتخرج من أسوار بيتك ، أنت سماؤها على الأرض ، ومطمع أمانيتها ، والغاية الوحيدة لمشاعرها الرقيقة ، والقاعدة لإرادتها والتحكم في مشيئتها ، وهي لاتريد إلا ماتريده أنت ، وماتأمر به السماء . فإذا كنت بغير أدنى عناء تسحب من شرفها وجمالها وأمانتها كل الثروة التي يمكن أن تريدها ، فلاي هدف تريد أن تحفر الأرض وتبحث عن مناجم جديدة في كنز مجهول ، معرضاً نفسك لخطر أن تراها تذوب في يديك ، لأنها لاتستند إلا الى الدعامات الضعيفة لطبيعتها الهشة ؟ وفكر أن من يطلب المستحيل من العدل أن يحرم من الممكن ، كما يقول الشاعر :

في الموت أنشد الحياة
وفي المرض أنشد الصحة
وفي السجن أنشد الحرية
وفي الهلاك أنشد النجاة
وعند الخائن أنشد الأمانة ؟
ولكن قرار القدر الرهيب
يقضي على إرادتي ،
إذا طلبت المستحيل
حرمت من الممكن^(١)

وفي الغداة ارتحل أنسلمو الى الريف ، قائلاً لكميلا أنه أثناء غيابه سيأتي لوتريو ليرعى شؤون البيت ويتعشى معها ، وأوصاها بأن تعامله معاملتها لزوجها أي لنفسه . فحزنت كميلا من أمر زوجها وهي المرأة الحكيمة الحصيفة ، وبيّنت له أنه من غير اللائق أن يحل محله على المائدة شخص آخر أثناء غيابه ، وأنه إذا كان يفعل ذلك عن عدم ثقة بمهارتها في إدارة البيت ، فليضعها موضع الإمتحان وستريه أنها كفء للقيام بمهام أعظم . فقال أنسلمو أن هذه هي رغبته وما عليها إلا أن تسايروها ، فوعده كميلا ، ولكن على الرغم منها . ورحل أنسلمو ، وذهب لوتريو الى بيت صديقه . فاستقبلته كميلا كما يليق ، ولكنها حرصت على ألا تكون معه وحدها ، فكان ثمّ دائماً ناس من خدم البيت يغدون ويروحون ، وخصوصاً امرأة تدعى ليونلا ، أتت بها من عند أبيها حينما تزوجت أنسلمو ، وكانت تؤثرها بحبّها لأنهما كانت لهما ظئر واحدة . وطوال الأيام الثلاثة الأولى لم يقل لها لوتريو شيئاً ، وإن كان في وسعه أن يتحدث إليها أثناء وجبات الطعام ، حين يغدو الخدم للأكل . والحق أن كميلا أوصت ليونلا بأن تسبق بتناول الطعام حتّى تكون دائماً بالقرب منها . ولكن هذه الفتاة ، التي كانت تدور برأسها خواطر أخرى ، وكانت تستفيد من ذلك الوقت لكي تخلو الى ملذّاتها ، لم تحسب حساباً لأوامر سيّدها ، وكثيراً ما تركتها هي ولوتريو وحدهما ، وكأثماً أوصاها بذلك أحد . ولكن أمانة كميلا ، وسمتها الجاد ، والحياء الذي

(١) ربّما كان هذا الشعر أيضاً لثريانتس ، ويقارن رودريجت مارين هذا الشعر بفقرة في ملهاة للمؤلف بعنوان « الفتى الاسباني » في اليوم الثالث ، قالتها دونيا مرجريتا ، يانسة من الحياة ، وضاق بها الميش حتّى أنها تبحث عمياء عن الحرية في السجن ، وعن المخرج من المستحيل » .

فاض على كل شخصها ، كل ذلك أغلق فم لوتريو . ولكن هذه البدايات السعيدة لم تستطع أن تحميها من الدمار : لأنه إذا كان اللسان قد التزم الصمت ، فإن الأفكار كانت تأخذ مجراها ، وكانت لدى لوتريو الفرصة كلها لتأمل مفاتن كميلا بتفاصيلها ، وهي مفاتن قادرة على أن تبعث الحياة في تمثال من المرمر ، وبالأحرى في قلب كائن فان ، كان يتأمل في عجب بدلاً من أن يتكلم ، ورأى كم هي خليقة بأن تعشق ، وهذه التأملات أضعفت بكل شك شعور الإحترام الواجب لأنسلمو . وكم مرة فكّر في أن يغادر المدينة ، وأن يعتكف في مكان لا يرى فيه أنسلمو ولا كميلا ، ولكن المتعة التي كان يستشعرها في النظر إليها كانت سرعان ماتحطم قراراته . بذل وسعه وكافح ضد نفسه ليحطم سحر مرآها فلا يستشعره ، واتهم نفسه ، وقال لنفسه أنه صديق سيئ ، ومسيحي طالح ، وراح يقارن بين نفسه وبين أنسلمو ، وقادته هذه المقارنات كلها الى هذه النتيجة ، ألا وهي أن جنون الواحد فاق كثيراً خيانة الآخر ، وأنه إذا كان أثم قليلاً في نظر الله وفي نظر الناس ، فليس عليه أن يخشى عقاباً عن خطيئته . وأخيراً تغلبت مفاتن كميلا وجمالها ، مضافة الى الفرصة التي هياها زوج أحرق ، تغلبت على إخلاص لوتريو ، ودون أن يصغي الى شيء غير وجدانه ، وبعد مرور ثلاثة أيام في كفاح لنفسه متواصل ، شرع في استرضاء أهواء كميلا ، باهتمام واضطراب وجعله مرتبكاً لم يستطع أن يفعل أكثر من أن يترك كرسيه وينحاز الى غرفته ، دون أن ينطق بكلمة . ولكن هذا الإحتقار ، بدلاً من أن يبعث اليأس في نفس لوتريو ، لم يستطع أن يسلبه الأمل الذي يتولد دائماً مع الحب ، بل بالعكس لم يفعل هذا الإحتقار (من جانبها) إلا أن يزيده اشتعالاً نحو كميلا ، التي شدها هذا المسلك غير المتوقع فلم تعرف ماذا تقرر . ولما رأت أنه ليس من اللائق ولا من المأمون أن تعطي لوتريو فرصة أخرى لرؤيتها ، قررت أن ترسل في الليلة نفسها أحد رجال أنسلمو اليه بهذه الرسالة ، ونصها ،

الفصل الرابع والثلاثون

تلاوة حكاية المستطلع الفاسد الرأي

« كما اعتاد الناس أن يقولوا أن الجيش لا يمكن أن يبقى بغير قائد ولا القصر بغير ربة ، كذلك أقول أن امرأة شابة متزوجة ينبغي ألا تحرم من زوجها ، حينما لا يضطرهما شأن مهم الى أن يبتعد أحدهما عن الآخر . إني من دونك استشعر الكرب ، وغيابك عني يؤلمني ويقلقني إلى حد أنه إذا لم تعد بسرعة فسأرى نفسي مضطرة الى الانسحاب الى منزل والدي ، حتى لو ظل بيتك بغير حارس ، لأن من تركته لي ، إذا كان لا يزال يستحق هذا اللقب (حارس) ، يبدو لي أنه أكثر انشغالا ببلذته منه بما يتعلق بشؤونك . أنت فطين ، وهذا يكفي ، ولن أقول أكثر من ذلك»^(١) .

فهم أنسلمو من هذه الرسالة أن لوتريو قد بدأ المحاولة ، وأن كميلا قد أجابت وفقاً لرغباته ، فسر بهذه الأنباء السعيدة وردّ على زوجته طالباً منها ألا تترك البيت أبداً لأي سبب كائن ما كان ، لأنه لن يتأخر في العودة ودهشت كميلا من ردّ زوجها ولم تدر ماذا تقرر . فالبقاء في البيت معناه وضع شرفها في خطر ، والذهاب الى بيت أبيها معناه مخالفة مشيئة أنسلمو ، فاختارت من بين هذين الأمرين أسوأهما وهو أن تبقى في بيت زوجها ، بل وألا تتجنب حضور لوتريو ، حتى لا تدع الظنون تتسرّب الى خدم البيت . وندمت على كتابتها لزوجها ، خشية أن يتخيّل أن يكون لوتريو قد اكتشف فيها نقيصة ظاهرة سمحت له بأن يتخلّى عن الإحترام الواجب . ووضعت ثقّتها في الله وفي شرف مشاعرهما ونبل عواطفها التي بفضلها كانت تأمل في أن تقاوم كل اغراءات لوتريو وكذلك بالصمت تستعينه في المقاومة ، دون أن تكون بحاجة الى تنبيه زوجها ، حتى لا يقلق وتساوره

(١) هذه الرسالة موجودة بنصّها في الكوميديا التي ألفها جيبين دي كاسترو وموضوعها الموضوع نفسه ، وعنوانها نفس العنوان لهذه الحكاية .

الهموم ، بل فكّرت في الوسيلة التي بها تبري، لوتريو في نظر أنسلمو ، حينما يسألها هذا عن الداعي الى إرسال رسالتها تلك .

وبهذه القرارات ، التي تستحق الإطراء أكثر من أن تُنعت بالسلامة والأمن ، راحت تصغي الى مراودات لوتريو في اليوم التالي ، وكانت هذه المراودات من الإلحاح والمهارة بحيث أخذت تزعزع ثباتها : حتى استظهرت صعوبة في منع عينيها من إظهار العطف الرقيق على ما أوحى به عبرات لوتريو وزفراته . وأدرك هذا نجاحه ، فزاد حبه اشتعالاً ، ورأى أنه لابد من الانتفاع بغيبة أنسلمو للإستيلاء على هذه القلعة . وكانت هجماته الأولى عبارة عن مدائح مبالغ فيها يطري بها جمالها ، لأنه لا شيء أفعل في تقويض أبراج غرور امرأة جميلة من هذا الغرور نفسه إذا وضع في خدمة التملق ، وأخيراً قوّض صخرة عفافها بمهارة حتى لو كانت من البرونز لتداعت وانهارت : الدموع ، والتوستلات ، والوعود ، وألوان الملق ، وأنواع التظاهر - كل هذا استغلّه بمهارة وبراعة في التظاهر بالحب الحقيقي حتى أسقط فضيلة كميلا وظفر بما كان يرجوه أعظم الرجاء وليس لديه إلا أقل أمل في الفوز به . استسلمت كميلا ، ولم تستطع فضيلتها أن تقاوم حبّ لوتريو ، وهذا مثل خالد ، يبرهن على أنّ الفرار وحده هو الذي يستطيع أن يتغلّب على الحب ، وعلى أنه يجب ألا يحاول أحد أن يقوم بالنضال ضد هذا العدو الجبار (الحب) ، وأنّ لابد من قوى إلهية للتغلّب على الضعف الانساني . وليونلا هي وحدها التي عرفت سقطة سيّدها ، فإن الحبيين الغادرين والعاشقين الجديدين لم يستطيعوا الاستخفاء منها . بيد أنّ لوتريو لم يشأ أبداً أن يكشف لكميلا عن جنون أنسلمو ولأنه هو الذي هيأ له أن يراها في خلوة ، خوفاً من أن تقلل من شأن حبه لها وأن تظن أنه راودها بالصدفة لاعتن قصد كامل .

وبعد أيام قليلة عاد أنسلمو ، ولم يتفطن لما أضاعته كميلا ، وهو أعز ما يقدر وأقل ما استطاع المحافظة عليه . وأسرع الى لوتريو وبعد العناق الأول سأله عن أنباء حياته أو موته ، فأجابه لوتريو : « إن الأنباء التي أستطيع أن أخبرك بها يا عزيزي أنسلمو هي أنّ لك زوجة تصلح قدوة ونموذجاً لكل النساء الشريفات . لقد ضاعت كلماتي أدراج الرياح ، ومحاولاتي لم تقم هي لها أي وزن ، وهداياي نبذتها ، والعبرات المصطنعة التي سفحتها سخرت هي منها ، والخلاصة أنها نموذج الجمال وهيكل الأمانة والفتانة والحياء وكل الفضائل التي يمكن أن تهياً السعادة والمجد لامرأة أمينة عاقلة . أسترد نقودك ، فلم تتح لي أية فرصة لاستخدامها ، وإن نفس كميلا أنبل من أن تستسلم لأشياء وضيعة مثل الهدايا والوعود . فكن راضياً إذن يا أنسلمو ، ولاتبحث عن براهين جديدة ، ومادامت قد عبرت

بقدم جافة هذا البحر من الشبهات والظنون التي تحيط بالمرأة عادة ، فلا تحاول مرة أخرى أن تبحر فيه ، ولا تجرّب بواسطة بخار آخر متانة السفينة التي وهبتك السماء إياها لتعبر بها هذه الدنيا ، وعد نفسك في مرفأ أمين ، لا يمكنك أن تخشى بعد فيه أي غرق .

رضي أنسلمو عن حديث لوتريو كل الرضا ، وصدق كلامه وكأنه وحي منزل . ولكن استحلطه ألا يترك المغامرة نهائياً ، ولو من أجل التلهية ومن باب حب الاستطلاع ، وأضاف قائلاً أنه ليس ثم ضرورة لمعاناة النصب كما حدث له من قبل ، ويكفيه أن يوجّه إليها بعض أشعار باسم كلوريس ، وسيقول أنسلمو لكميلاً أن لوتريو يعشق سيده يتغزل فيها تحت اسم كلوريس حتى لا يسيء إلى سمعتها ، وإذا لم يشأ لوتريو أن يعذب نفسه بقرض الشعر فسيؤلى هو ذلك بنفسه ويجتبه هذا العناء .

فأجاب لوتريو : ليس هذا بالأمر الضروري : فربّات الشعر لسن من القسوة بحيث لا يزرني أحياناً . وأخبر كميلاً إذن بما تخيلته عن غرامياتي المصطنعة ، وأنا سأنظم لها الأشعار فإن لم تكن من الجودة بقدر ما يستحق الموضوع ، فأني سأبذل قصارى جهدي .

ولمّا ترافاً الصديق الساذج مع الصديق الغادر على هذه الأمور هكذا ، عاد أنسلمو إلى بيته ، وسأل زوجته كميلاً ماذا دعاها إلى أن تكتب إليه . فأجبت - وقد أدهشها أن زوجها لم يسألها بعد هذا السؤال - أنه بدا لها أن لوتريو كان ينظر إليها باحترام أقل مما كان يفعل بحضرة زوجها ، لكنّه مالبث أن تاب إلى رشده واعترف بأن ذلك كان تخيلاً من ناحيته ، لأن لوتريو تجنّب دائماً أن نوجد وحدنا في خلوة .

فقال أنسلمو أنه ما كان ينبغي لها أن تستشعر أي خوف من هذه الناحية ، وأنه يعرف من مصدر وثيق أن لوتريو يعشق سيّدة من أكابر سيدات المدينة ، وأنه يتغزل فيها تحت اسم كلوريس ، وأنه حتى لو لم يكن هذا صحيحاً فينبغي الإعتماد على أمانته وصداقته لأنسلمو . وكان لوتريو قد أبلغ كميلاً بهذا الحب المزعوم لسيّدة مزعومة اسمها كلوريس ، مما أعطاه الحرية في أن يتغنى بها كما يشاء : حتى أنها لم تشعر بأية غيرة . وذات يوم كانوا يتحدّثون ثلاثتهم بعد الطعام ، فطلب أنسلمو من لوتريو أن ينشده بعض الأشعار التي نظمها في كلوريس حبيبته ، وقال أن في وسعه أن يقول ما يشاء ، لأن كميلاً لا تعرفها .

فأجاب لوتريو : وحتى لو كانت تعرفها ، فلن أتخلّى عن إنشاد هذه الأشعار : لأن العاشق لا يمكن أن يسيء إلى سمعة سيّده إذا شكّا من صدها ، وفي الوقت نفسه امتدح جمالها . وهذه هي مقطوعة (سوناته) نظمته منذ قليل أتحدّث فيها عن جودها :

« في صمت الليل لما أن استولى النوم على نفوس الأحياء ، أعرض على السماء وعلى كلوريس الحساب الحزين لآلامي العديدة .
 « وفي اللحظة التي تبدأ الشمس فيها تطلع على أبواب المشرق الوردية أجدد شكاتي القديمة مصحوبة بزفرات ونبرات متقطعة .
 « وحينما ترمي الشمس ، من أعلى عرشها البراق ، بنار أشعتها على الأرض ، تزداد عبراتي وتتوالى منانحي .
 « ويعود الليل ، وأعود الى شكاياتي الحزينة ، ودائماً ، في هذا النضال القتال ، أجد السماء صماء وكلوريس لا تتأثر»^(١) .
 وأعجبت كميلاً بالسوناتات ، وزاد أنسلمو في إطرائها ، وأردف قائلاً ،
 إن هذه السيدة لابد أن تكون من القسوة بحيث لا يرق قلبها لمثل هذا الحب الصادق .
 وقالت كميلاً ، وهل كل مايقوله الشعراء العاشقون حق ؟
 فأجاب لوتريو ، لا بوصفهم شعراء ، بل بوصفهم عشاقاً فإن وجدانهم أقوى من أن يستطيعوا التعبير عنه .
 فقال أنسلمو ، « لاشك في ذلك » — وهو يقصد أن يزيد عواطف لوتريو قبل كميلاً التي من جانبها استمتعت كل الاستمتاع بهذه الحيلة ، لأنها لما كانت مولعة بحب لوتريو ، فإنها كانت تحب كل ما يأتي منه ، وهي تعلم جيداً أن هذه الأشعار موجهة اليها ، لأنها هي كلوريس الحقيقية . ولهذا سألته إن كان يذكر سوناتات أخرى أو أشعاراً .
 فقال لوتريو ، أذكر سوناتات أخرى ، لكنني أعتقد أنها أضعف من الأولى ، وأترك لك الحكم على ذلك .
 « أعرف أنني أموت ، وإذا لم تصدقيني فإن موتي محقق بقدر ما هو محقق ، أيتها الجاحدة الجميلة ، أن تريني ميتاً عند قدميك أولى من أن تريني نادماً على عشقك .
 « وقد أجد نفسي في زاوية النسيان و هجرتني الحياة والمجد والحظ ، هنالك يمكن أن يرى ، في قلبي المفتوح ، كيف انتقش وجهها الجميل في أعماقه .
 « وإنني لأحتفظ بهذا الذخر للشقاء الذي يهددني به إخلاصي ، الذي يتقوى بصدك نفسه .
 « يا ويلته لمن يبحر ، والجو مكفهز مظلم ، في بحر مجهول ، متخذاً سبيلاً محفوفة بآلاف المخاطر ، لانجم يهديه ولا مرفأ يلوح لناظريه » .

(١) أدرج ثريانتس هذه السوناتات في ملهاته بعنوان « بيت الغيرة » في بداية اليوم الثاني .

فامتدح أنسلمو هذه السوناتات الثانية بما لا يقل عن امتداحه للأولى ، وهكذا مضى بصنع ، حلقة تلو حلقة ، السلسلة التي قيّده إلى عاره . وكلّما زاد لوتريو في جرح كرامتها ، ازداد تقديره له ، والدرجات التي نزلتها كميلا نحو العاروسوء السمعة ، كانت في نظر زوجها صعوداً نحو قمة الفضيلة والسمعة الطيبة .

وذات يوم كانت كميلا وحدها مع خادمتها فقالت لها : آسف بالغ الأسف يا عزيزتي ليونلا ، لأنّي استسلمت للوتريو بسرعة ، ولم أجعله يشتري امتلاك شخصي وسلطانه على إرادتي بمقاومة أكبر وخدمات أطول . وأخشى أن يزدري عمّا قليل هذه المتعة السهلة ، ويعزوها إلى طيشي ، دون أن يتذكر القوة التي كان عليه أن يستخدمها من أجل التغلب على مقاومتي .

فأجابت ليونلا : لا تقلقي لهذا ، فما يعطيه الإنسان لا يفقد من قيمته لأنه أعطاه بسرعة ، مادام حسناً وخليقاً بالتقدير ، بل اعتاد الناس أن يقولوا أن من يعط بسرعة مرتين (خير البر عاجله) .

فقالت كميلا : نعم! لكن يقال أيضاً إن ما لا يكلف قليلاً يُقدّر أقل .

فقالت ليونلا : هذا لا يمكن أن ينطبق على حالك ، فلقد طالما سمعتهم يقولون أن الحب أحياناً يطير وأحياناً يمشي ، مع البعض يعدو ، ومع البعض الآخر يسير على قدميه ، يشعل هؤلاء ، ويدفئ أولئك ، أحياناً يجرّح ، وأخرى يقتل ، رغباته تتولّد في لحظة ، وفي اللحظة نفسها تشبع ، إذا هجم في الصباح على قلعة حصينة ، في المساء نفسه يضطر إلى التسليم ، إذ لا توجد قوة تستطيع مقاومته . مم تدهشين إذن وماذا تخشين ؟ ولابد أن لوتريو قد ساءل نفسه نفس الأسئلة ، لأن الحب اختار ، أداة لهزيمتك غياب سيدي . ألم يكن من المحتوم أن يتم ما قدره ، دون أن يعطي الوقت للوقت كما يقال ، إذ كان من الممكن أن يعود أنسلمو في أية لحظة ، وبحضوره يقف نجاحه ، إن الفرصة هي خير وزير اصطنعه الحب لتنفيذ قراراته ، وهو يستغلّها في كل مغامراته ، وخصوصاً في البدايات . وكل ما أقوله لك قد تعلمته بالتجربة أكثر مما تعلمته بالسماع . وسأحدثك يوماً عن تجاربي ، لأنّي في نهاية الأمر من لحم وعظم مثل أي إنسان آخر .

أما أنت يا سيّدي ، فلا أرى أنك استسلمت بسرعة كما تقولين ، إن ذلك لم يحدث إلا بعد أن شاهدت روح لوتريو كلّها في عينيه ، وفي زفراته ، وفي هداياه ووعوده ، وبعد أن تبين لك كيف أن كل مناقبه تجعله خليقاً بالحب . فإن كان الأمر كذلك ، فلماذا تملأين خيالك بوساوس زائفة وخواطر سيّئة ؟ كوني واثقة أنه يقدرك كما تقدرينه ، وأنه يعيش

راضياً بأغلال غرامه ، وأنه ليس فقط يملك الواوات الأربعة التي يجب أن يتّصف بها ، فيما يقولون ، كل العشاق الكامل^(١) ، بل يملك أبجدية بأكملها . فإذا لم تصدّقني فاسمعي لي ، لأنّي أعرفها عن ظهر قلب ، وها هي ذي فيما يبدو وفيما أعتقد : أمين ، بشوش ، تقي ، ثابت ، جري ، حليم ، خدوم ، دمث ، ذكي ، رصين ، سري ، شهير ، صادق ، ضابط ، طيّب ، ظريف ، عاشق ، غني ، فارس ، قوي ، كريم ، مطيع ، نبيل ، هادئ ، والواوات الأربعة ، يقط^(٢) .

فضحكت كميلاً كثيراً من أبجدية ليونلا ، وأدركت أنها تعرف عن مكائد الحب أكثر مما أرادت أن تقول . ولم تنكر ليونلا ذلك ، بل اعترفت بأنها تمارس الحب مع شاب من أسرة عريقة في المدينة نفسها . فاضطربت كميلاً لهذا الاعتراف ، لما خشيت من نتائج على سمعتها ، وأرادت أن تعرف على الأقل إلى أي حد وصل غرامهما ، وهل ليس بينهما غير أحاديث الغرام ، ولكن ليونلاً ، بقليل من الحياء وكثير من الوقاحة ، اعترفت بأن عاشقها سعيد . وهكذا يخلع خطايا السيّدات حياء الخادِمات ، فلا يحفلن أبداً بالسقوط ، ولا بأن يعلم أمرهن ، حين يرون من يأمرنهن قد ارتكبن خطيئة . فلا تستطيع كميلاً من أن تفعل أكثر من أن ترجو ليونلاً ألا تقول شيئاً لعاشقها عما يخصّها ، وأن تسلك الفطنة... حتّى لا يلاحظ أنسلمو ولوتريو شيئاً . فوعدت ليونلاً بذلك ، لكنها سلكت مسلكاً رديئاً سرعان ما برّز مخاوف كميلاً من أن تفقد سمعتها . لقد كانت ليونلاً وقحة فاسدة ، فتجاسرت على أن تأتي بعاشقها إلى بيت سيّدتها ، وهي واثقة أن كميلاً لن تقول شيئاً حتّى لو شاهدت هذا الرجل . وهذا هو جزاء النسوة اللواتي يفقدن فضيلتهن ، وهي أن يرين أنفسهن وقد أصبحن عبيدات لخادماتهن وأن يتسترن على جرائمهن . وهذا ما حدث لكميلاً ، فلقد طالما شاهدت ليونلاً مع عاشقها في إحدى غرفات جناحها فلم تجرؤ على تقيعها ، بل أكثر من هذا ساعدتها في إخفائه حتّى لا يراه زوجها .

(١) في الإسبانية ، حروف الـ S الأربعة ، وهي التي تبدأ بها الكلمات ، كتوم Secreto ولوع Solicito وحيد Solo عاقل Sabio وقد اخترنا بالعربية المرادفات الأربعة التالية التي تبدأ بحرف الواو ، واعي - وحيد - ولوع - وثيق .

وفي النص أغفل حرفي X ، Y « لأن حرف X حرف خشن فلا يحسب له حساب ، وحرف Y حرف عطف فقط » . وأبجدية الحب تذكّرنا بالأبجدية المشهورة في مسرحية « يربانيت وقائد أركانيا » للوبة دي بيجا .

(٢) في الإسبانية Agrdecido (لطيف) ، Bueno (طيب) ، Caballero (فارس مهذب) ، Dadivoso (كتوم) ، Enamorado (عاشق) ، Firme (ثابت) ، Gallardo (كريم) ، Honrado (محترم) ، Illustre (شهير) ، Leal (مخلص) ، Mozo (متواضع) ، Noble (نبيل) ، Oneato (أمين) ، Principal (قوي) ، Quantioso (ذو مشاقب) ، Rico (غني) ، Tacito (صمت) ، Verdadero (صادق) ، Zelador (غيور على شرفك) .

وأخيراً حدث ذات صباح ، في الفجر ، أن أبصر لوتريو رجلاً يخرج من عند كميلا ، فحسبه في البدء شبحاً ، لكن لما رآه يمشي متخفياً في معطفه ، غيّر رأيه فوراً ، وظن ظناً كان سيضيّعهم جميعاً ، لولا أن كميلا عالجت الأمر . لم يخطر بباله أبداً أن في العالم امرأة تدعى ليونلا ، فاعتقد أن كميلا من السهولة والطيش بالنسبة الى الغير كما كانت بالنسبة إليه ، لأن هذه هي مصيبة المرأة التي استسلمت مرة ، وهي أنها تفقد حتى ثقة ذلك الذي غرّر بها بتوسلاته وتضرعاته ، فإنه يعتقد دائماً أن غيره يمكن أن يفعل فعلته نفسها . فأسرع لوتريو - وقد أعماه هذا الشك ، ولم يصغ الى أي تعقل ولا الى أي شعور حكيم - أسرع في الحال الى أنسلمو وكان لم يبق من نومه بعد ، متلهّفاً على إشباع الغيرة التي تمزّق قلبه ، وعلى الإنتقام من كميلا التي لم توجه اليه أية إهانة . وقال له ،

- يا صديقي! منذ أيام عديدة وأنا أكره نفسي على ألا أبوح لك بشيء لا أستطيع ولا ينبغي أن اكتمه عنك أطول من ذلك . ألا فلتعلم إذن أن كميلا الأنوف قد استسلمت أخيراً وصار في وسعي أن أفعل بها ما يحلو لي . وإذا كنت لم أكشف لك عن هذه الحقيقة قبل الآن ، فذلك لأنني أردت أن أتأكد أن مآقالتة لي لم يكن نزوة طارئة ، أو من أجل امتحاني ومعرفة هل أنا جاد في مرادتها . وإثني واثق أنه لو كانت كميلا كما ينبغي أن تكون ، وكما اعتقدنا نحن ، لأنباتك بمحاولاتي ، لكن مادامت قصر على الصمت ، فإثني أحسب أن عليّ الظن أن وعدا لي حقيقي صادق ، بأن تطارحني في الغرفة التي تحفظ فيها الملابس ، حينما تغيب عن البيت (والواقع أن هذا كان مكان لقاءهما المعتاد) . ومع ذلك فلا أريد منك أن تستولي عليك أية فكرة في الإنتقام ، لأن الجريمة لم تتجاوز بعد حد النية ، وربما ندمت كميلا وثابت عنها . وهكذا فما دمت قد اتبعت نصائحي حتى الآن ، كلياً أو جزئياً ، فإثني أريد منك أن تتبّع النصيحة التي سأسديها اليك الآن ، حتى تستطيع أن تتخذ قرارك المناسب دونما غلط وبعد تفكير ناضج . فتظاهر ، كالعادة ، بأنك ستغيب يومين أو ثلاثة ، لكن حاول أن تتسلّل الى الغرفة التي ذكرتها لك ، فالأبسطة الجدرانية والملابس يمكن أن تختبئ فيها بسهولة ، وسيرى كلانا بأعيننا ماهي نية كميلا ، فإن كانت آثمة ، وثم من الخوف من ذلك أكثر من الرجاء ، فسيكون في وسعك بسهولة أن تنتقم منها ، دون لغط ولاضوضاء ، وفي ظل الأسرار .

ولما سمع أنسلمو هذا الكلام صمت حائراً مبلساً مستغرقاً في خواطره ، وعرف فجأة آخر ما كان يتوقعه ، لأنه بدا له أن انتصار كميلا صار أمراً مؤكداً ، وبدأ يفخر بذلك وبتيه . ولبث وقتاً طويلاً مطرقاً وعيناه مثبتتان في الأرض ، لا يقول حرفاً ، وأخيراً قال ،

- ياعزيزي لوتريو لقد فعلت ما ارتقبته من صداقتك ، وقد أخذت بنصائحك كلها ، فافعل الآن ماتراه مناسباً ، وفكر خصوصاً في كتمان السر في أمر كهذا .

فوعده لوتريو بذلك ومضى . ولكنه ماكاد يخرج حتى راح يعضّ بنان الندم على فعلته البغيضة النكراء ، ويجيل في نفسه أنه كان في وسعه أن ينتقم من كميلا على نحو أقل قسوة وامتهاناً لكرامتها ، وراح يتهم نفسه بالطيش ، لاعناً تسرعته ، ولم يدر كيف ينقض ما أبرم ، أو على الأقل يمنع من وقوع آثاره المدمرة ، وأخيراً قرّر أن يعترف لكميلا بكل شيء ، ولم تعوزه الفرصة للقاءها فلقبها وحدها في اليوم نفسه . فقالت له في الحال :

- ياعزيزي لوتريو إن وقاحة ليونلا فاقت الحدود حتى أنها في كل ليلة تدخل في بيتي رجلاً يبيت فيه حتى مطلع النهار . فماذا ستؤول اليه سمعتي إذا شوهد هذا الرجل يدخل أو يخرج في أوقات غير عادية ؟ وإنّ مايؤلمني أكثر وأكثر هو أنني لست أستطيع تقريرها ولا عقابها ، ذلك أنها هي المطلعة على أسرار غرامنا ، فلا أملك إذن أن ألومها على غرامياتها هي ، وأخشى أن يقع شر مستطير لهذا السبب .

فظن لوتريو أن هذه ربّما كانت حيلة من كميلا لتخدعه عن أمر الرجل الذي لمحّه يخرج من البيت ، لكنّ لما رآها تذرّف العبرات وتحرق الأرم وتسأل النجدة ، لم يشك بعد في صدقها ولم يزد إلا ارتباكاً وشعوراً بالندم . وقال لها أن عليها ألا تحزن ، وأنه سيستطيع أن يضع حداً لوقاحة ليونلا ، وبعد ذلك اعترف لها بما جعلته الغيرة يقوله لأنسلمو ، وأنّ هذا سيختبئ في صوآن الملابس ليتجسس عليها . وسألها المغفرة عن حماقة هذه ، واستحلفها بالله أن تساعد على الخروج من هذا التيه اللعين الذي أوقعه فيه طيشه . فلبثت كميلا في ذهول من كلام لوتريو ، وراحت توجّه اليه اللوم الرقيق على سوء ظنه بها ، والقرار اليأس الذي اتخذته ، وكما أن أرواح النساء أسرع الى أرواحنا وإلى الخير أو الى الشر ، وأنهن أقدر على الفعل منهن على الكلام برزانه ، فسرعان ما وجدت كميلا الوسيلة لعلاج ما بدا أنّه لا علاج له . وقالت للوتريو أن يعمل بحيث يختبئ أنسلمو في اليوم التالي كما قرّر قراره من قبل ، وهي من ناحيتها ستبحث عن وسيلة ليتمكنّا من أن يلتقيا بكل حرية ، ودون أن تكشف له عن مشروعها ، أضافت قائلة أن عليه أن يتأهب ليأتي اليها حين تغدو ليونلا لطلبه ، وأنّ يجيب عن كل ما تقوله له وكأنّ أحداً لا يسمعه . وأراد لوتريو أن يزداد بالخطّة علماً حتى يكون مسلكه باطمئنان أكبر ، ولا يبدر عنه شيء غير مناسب .

فقالت كميلا ،

- يكفيك أن تجيب علي كما اتفقنا .

ولم تشأ أن تدخل في تفاصيل أدق ، حتى لا تتراءى خطتها من الإحكام بقدر ما بدا لها ، ولا يبيح عن خطط أخرى أقل مهارة .

وفي الغداة تظاهر أنسلمو بالذهاب الى الريف عند بعض أصدقائه ، وخرج من المنزل ، ثم عاد اليه دون أن يراه أحداً ، خصوصاً وقد سهلت له كميلا وليونلا الوسيلة لذلك ، واختبأ في صوان الملابس ورأسه حافل بآلاف الخواطر المهتاجة ، شبه إنسان ينتظر أن يرى بعينه البراهين على عاره ، وأن يضيّع الثروة الوحيدة التي يقدّر لها وتتوقف على هذه الخائنة . ولما تأكدت هذه (كميلا) من أنه اختبأ في صوان الملابس ، دخلت الغرفة تتبّعها ليونلا ، وأطلقت زفرة حارة عميقة وقالت :

- وا أسفاه يا صديقتي ليونلا! أليس من الأفضل ، بدلاً من تنفيذ الخطة التي لا أريد أن أفضي إليك بسرّها ، خوفاً من اعتراضك عليها ، أن تأخذي خنجر أنسلمو الذي طلبته منك وتطعني به قلبي الدنيء ؟ لكن كلا ، ليس من العدل أن أحمل عبء خطيئة الغير ، أريد قبل هذا أن أعرف ماذا رأيت عينا لوتريو الفاجرتان اللئيمتان في مما أعطاه الجراءة عن الكشف عن وجدانه الشرير ، جلباً للعار على وجه صديقه الحميم . تطلعي من النافذة يا ليونلا ، وأنا متأكّدة أنه في الشارع ينتظر الوقت المحدّد لتنفيذ خطته البشعة ، التي سأتمكّن تماماً من إفسادها .

فأجابت ليونلا الماكرة : آه ، ياسيديتي ، ماذا تريد أن تصنعي بهذا الخنجر ؟ هل تنوين أن تطعني به نفسك أو تعاقبي لوتريو ؟ على كلا الحالين ستضيعين شرفك وسمعتك ، وأليس من الأفضل أن تستري إهاتك أولى من أن تدخل في هذا الرجل الشرير الى هذه الغرفة التي نحن فيها الآن وحدنا ؟ مانحن إلا نسوة ضعيفات ، أمّا هو فرجل شديد العزم . خصوصاً في هذه اللحظة التي يأتي فيها بنوايا سيئة وقلب موله الغرام ، وقبل أن تستطيعي تنفيذ خطتك فلربّما قضي على حياتك . ملعونة ثقة سيدي أنسلمو الذي فتح بيته لهذا الرجل الشرير! لكن لو أنك قتلت يا سيدتي ، لأنّي أدرك أن هذه هي خطتك ، فماذا سنصنع بجثته ؟ فقالت كميلا : ماذا سنصنع بجثته ؟ سنتركها هنا ليدفنها أنسلمو . أليس من العدالة أن يتحمّل هذا العناء ، في مقابل ما سأكون قد فعلته سترأ لعاره في أحشاء الأرض ؟ أسرع ، ناديه حالاً ، يبدو لي أن الوقت الذي يضيع قبل أن أنتصف لإهاتتي بانتقام عادل هو إهانة للأمانة التي أحملها لزوجي .

وسمع أنسلمو كل هذه الأحاديث ، وكل كلمة من كلمات كميلا قلبت كل أفكاره ، لكن حين أدرك أنها مصمّمة على قتل لوتريو كان على وشك أن يخرج من مخبأه ويظهر

ليمنع هذه الكارثة : لكنه كان يود أن يشاهد كيف ستتم هذه العزيمة الشريفة الشجاعة ، متهيئاً للظهور في الوقت المناسب . وفي هذه اللحظة انتاب كميلا ضعف شديد ، فارتمت على سريرها الموجود هناك ، وأنشأت ليونلا في البكاء ، قائلة : مأسقاني ! لم يبق إلا أن أشاهد زهرة الشرف في هذا العالم تموت بين أحضاني ، سيديتي تاج النسوة الفاضلات ، ومثل العفاف ، ثم ألقاً أخرى من الصفات الحميدة التي تجعل منها أخلق الفتيات بالاحترام ، ومن سيدتها كميلا فلوقاً أخرى وهي هدف لمطارادات العشاق . وما لبثت كميلا أن أفاقت من إغمائها ، وصاحت :

– لماذا لا تذهبين إذن يا ليونلا لدعوة هذا الصديق ، أخون خائن أضاءته الشمس بنورها وستره الليل بظلامه ؟ أسرعي ، اجري ، طيري ، لا تدعي نار الغضب المتقد في قلبي تنطفئ ، تلك النار التي تحرق انتقامي العادل وتحيله الى لعنات عاجزة .
فأجابت ليونلا : إنني ذاهبة ، لكن قبل ذلك أعطيني هذا الخنجر حتى لا تفعلني في غيبيتي أمراً يورث الأسف الأبدي لكل أولئك الذين يحبونك .

فقال كميلا ، ذهبي ، لا تخشي شيئاً ، وإن كنت ترينني جسورة مصممة على الانتقام الذي قررت ، ومع ذلك فلست مثل لوكرتيا التي انتحرت ، ولم تكن آثمة ، قبل أن تذبح المتسبب في عارها ، لاشك في أنني أريد أن أموت ، لكن ذلك لن يتم قبل أن أنتقم من ذلك الذي أرغمني على المجيء الى هذا المكان لأبكي على إهانة لم أجلبها على نفسي .

وطال رجا ليونلا قبل أن تقرّر الذهاب ، وأخيراً خرجت ، وفي أثناء غيابها قالت كميلا وهي تتظاهر بأنها تخاطب نفسها : « يا إلهي ! ألم يكن الأفضل أن أدفع لوتريو عن رغبته كما فعلت في المرات السابقة ، أولى من أعرض نفسي ، كما أفعل الآن ، لأن يكون عني فكرة سيئة ؟ لاشك أن ذلك كان سيكون التصرف الحسن ، ولكن ، ماذا ؟ لن أنتقم لنفسي ولن يوقر بذلك شرف زوجي ، لو أنه انسحب سليماً معافى من مكان ساقه اليه نواياه الشريرة نعم ! ليدفع الشرير الخائن حياته ثمناً لمقاصده الخسيسة ! لابد أن يعلم الناس جميعاً أن كميلا ليست فقط أمينة على الثقة التي أولاها إيها زوجها بل وأنها عرفت كيف تنتصف لنفسها ممن أراد إهانتها... ومع ذلك ، أوليس الأولى أن أبلغ أنسلمو ؟ لقد مسست الموضوع مسأ رقيقاً في الرسالة التي كتبتها اليه وهو في الريف ، وأظن أنه إذا كان قد أهمل الإصغاء الى شكاتي ، فقد كان ذلك عن ثقة وطيب قلب ، لأنه لم يستطيع أن يصدق أن صديقاً كاملاً مثل لوتريو يمكن أن تخطر بباله خواطر منافية للشرف . وقد رجعت أنا

الأخرى الى هذا الرأي ، بعد ذلك بزمان ، ولأزال عند هذا الرأي لولأن وقاحة هذا الغدار ، وهداياه ووعوده المعسولة وعبراته المتواصلة قد أقنعتني بأنه خائن ، لكن ما الفائدة في كل هذه الكلمات ، هل لا يزال ثمّ مجال للنصائح ، إذا كنت قد اتخذت قراراً كريماً ؟ كلا ، وأيم الله ، الإنتقام ، الإنتقام ! ألا فليأت الخائن ! وليقترب ، وليمت ! وليكن ما يكون . لقد دخلت طاهرة في حوزة من وهبه السماء لي زوجاً ، وأريد أن أخرج منها طاهرة أيضاً ، لن يلوثنني إلا دمي الزكي العفيف ودم ذلك الصديق الأفاك الدم الدنس لأخسّ صديق في الدنيا ! » .

وكانت تذرع الغرفة وهي تنطق بهذه العبارات ، والخنجر المسلول في يدها ، تخطو بخطى واسعة ، ، دون نظام ولا إيقاع ، وتبدر عنها حركات غريبة حتى لتبدو وكأنها قد فقدت عقلها ، ويظنها المرء شاباً يائساً لا امرأة لطيفة رقيقة .

وكان أنسلمو يصغي اليها ويتأمل في كل ماتقول ، وهو مخبئ وراء سجادة الحائط ، كان معجباً أيما إعجاب ، ووجد أن كل ماكان شاهداً عليه فيه الكفاية وزيادة لتبديد أخطر الظنون والإتهامات ، وود لو لم يأت لوتريو ، لأنه خشي أن يقع حادث أليم . بل كان على استعداد لأن يظهر ويبذّر مخاوفها ، حينما شاهد ليونلاً قادمة بصحبة لوتريو . ولما شاهدت كميلا لوتريو رسمت على الأرضية فرقاً كبيراً وقالت له « حذار يا لوتريو ، لو تجاسرت على تخطئي هذا الخط أو مجرد الإقتراب منه ، لأسرعت فأغمدت هذا الخنجر في صدرك . وقبل أن تنطق بكلمة أريد منك أن تسمع ما أقوله لك ، ثمّ تجيب بعد ذلك . قل لي ، هل تعرف زوجي أنسلمو ، وتعرفني ؟ أي رأي كوتته عنا ؟ أجب قبل أن تضطرب وتسلعثم ، لأن ما أسألك عنه ليس فيه صعوبة » .

ولم يكن لوتريو من السذاجة بحيث لا يدرك من أول كلمة ماذا تريد كميلا أن تفعله ، خصوصاً وهو يعلم أن أنسلمو يتسمع ، ولهذا أجاب ببطنة وتمييز حتى لم يكن لأحد أن يظن أن حديثهما حديث خرافة . قال لها : « أي كميلا الجميلة ! لم أكن أحسب أنك دعوتني الي المجيء هنا لتسأليني عن هذه الأمور الغريبة عن الموضوع الذي دعاني الى الحضور ، فإذا كنت تفعلين ذلك للتهرب من وعودك فقد كان ينبغي عليك ألا تعطيني الأمل ، لأن الخير يغرينا بقدر ما تقترب لحظة الاستمتاع به ، ولكن حتى لا تهمني بعدم الرد على طلباتك فأني أقول لك إنني أعرف زوجك أنسلمو وقد توقفت عرى الصلات بيننا منذ الصبا ، ولن ألح في تأكيد صداقة أنت تعرفينها خير المعرفة ، وإذا كنت أبدو في هذه اللحظة أنني أهين شرفك ، فالذنب في ذلك ذنب الحب ، والحب يغتفر ذنباً أقطع . أما أنت يا كميلا فأني أعرفك أيضاً ، وأنت عندي عزيزة مثله ، وكان لابد من صفاتك المتمازة

لتجعلني أنسى واجبي نحو نفسي ونحو ناموس الصداقة المقدس الذي يرغمني الحب ، وهو طاغية القلوب ، على انتهاكه .

فقلت كميلاً : بعد هذا الاعتراف الفظيع أجب أيها العدو القاتل لكل ما هو خليق بأن يحب ، وبأي وجه تجرؤ على الظهور أمام المرأة التي يتأمل فيها ذلك الذي أهنت شرفه أبلغ إهانة ؟ ولكن وأسفاه ! ما أشقاني إنني أدرك السبب الذي جعلك تنحرف عن جادة الواجب : ذلك أنني سمحت لنفسي أمامك ببعض الحرية ، التي لن أسميها عدم حياء لأنني لم أفعل ذلك عن قصد ، بل عن غفلة وإهمال مما يبدر عن النساء حينما لا يأخذن حذرهن فإن لم يكن السبب هو هذا فقل لي ، أيها الخائن ، هل شاهدتني أبداً أستجيب لمرآوداتك بكلمة أو حركة قد توحى إليك بأقل أمل في نجاح نواياك الوضيعة ؟ وهل أصغيت أحياناً الى كلماتك الغرامية دون أن أدفعها بغضب واحتقار ؟ وهل شاهدتني أحد أصدق وعودك أو أقبل هداياك ؟ ومع ذلك ، فإنه لما لم يكن من الطبيعي أن يثابر المرء على مغامرة غرامية إن لم تلح له بارقة أمل ، فإنني أعزو الى نفسي السبب في وقاحتك ، وأريد أن أعاقب نفسي على ذلك ، وأوقع على نفسي العقاب الذي تستحقه أنت ، لأنه لا شك في أن بعض عدم التحفظ من جانبي قد هدهد آمالك ، وحتى تعلم أنني لن أكون أقل قسوة على نفسي مني عليك ، فإنني أريد أن تكون شاهداً على التضحية التي أريد أن أقدمها قرباناً للشرف المهان لزوجي المبجل ، الذي أهانه كلانا ، أنت بمطارداتك الإجرامية عن عمد ، وأنا لقلة اهتمامي بتجنب المناسبات التي يمكن أن تساعد نواياك الأثمة . نعم ، إن هذه الفكرة التي كوتتها أنا عن نفسي هي التي تعذبني أشد العذاب وتحملني على أن أعاقب نفسي بيدي ، خوفاً من أن يكون من شأن استعارة يد غيري أن تصبح خطيئتي أشهر ، لكن قبل أن أموت ، أريد أن أذبح فاعل كل مصانبي ، وأن أملّي عيوني بمنظر انتقام تفضي به وتسمح به العدالة التامة » .

وما قالت هذه الكلمات حتى انقضت على لوتريو والخنجر في يدها ، بقوة هائلة وخفة زائدة ، متظاهرة بالرغبة في طعنه ، حتى أنه لم يكذب يعرف هل هذه المظاهرات حقيقية أو مصنعة ، وحتى اضطر الى استخدام القوة والبراعة ليمنع كميلاً من جرحه ، والواقع أن ملامح اليأس ارتسمت على وجهها بقوة بالغة حتى أنها أرادت أن تزيد من ترويعها بأن تسيل دمها هي . فلما رأت أنها لا تستطيع أن تطعن لوتريو ، أو على الأقل تظاهرت بهذا ، صاحت : « لما كان القدر يأبى أن يساعدني في خطتي ، فإنه على الأقل لن يكون من القسوة بحيث يمنعني من أن أنفذ بعض هذه الخطة » . هنالك استخلصت يدها بقوة من قبضة لوتريو ، وطعنت نفسها في موضع لا يمكن أن يكون فيه الجرح عميقاً ، بين النهدين

والكتف اليسرى ، ثم خزت على الأرض وكأنه أغمي عليها ، فلما شاهدتها ليونلا ولوتريو راقدة على الأرض مضرجة في دماثها ، انتابهما فزع بالغ ؛ وأسرع لوتريو لينتزع الخنجر من الجرح ، ولما رأى الجرح بسيطاً إطمأن ولم يملك نفسه من الإعجاب مرة أخرى بهذه الحيلة وبمهاراة كميلا وفطنتها . ولكي يلعب هو الآخر دوره أخذ في الصراخ والشكاة العالية وكأنها قد ماتت ، صاباً على نفسه اللعنات ، وليس فقط على نفسه بل وعلى السبب في كل هذه الكارثة ، ولما كان يعلم أن أنسلمو يتسمع ، كان ينفث من الزفرات العميقة ما يجعله يثير الشفقة أكثر من كميلا نفسها ، مهما بدت ميتة .

وأخذت ليونلا سيدتها بين ذراعيها وأرقدتها على السرير ، متوسلة الى لوتريو أن يمضي ليبحث عن شخص يستطيع أن يضمّد جراحها في السر . وسألته فيما ينبغي أن يقال لأنسلمو لو عاد قبل أن يتم شفاء كميلا . فقال لها لوتريو إن لها أن تقول ماتشاء ، وإنه هو في حالة لا تسمح له بإسداء النصيح ، وأن المهم هو وقف هذا الدم المنهمر ، أما عن نفسه فإنه سيغدو الى مكان لا يمكن أن يراه فيه أحد . ومضى وهو يبدي المزيد من مظاهر التألم ، ولما أصبح وحده لم يكف عن رسم علامات الصليب ، والتعجب من براعة كميلا ولباقة ليونلا ، ورأى أن أنسلمو ينبغي له أن يعد زوجته كأنها^(١) بورشيا أخرى ، وود أن يكون معه ليحتفلا معاً بما لم يكن إلا ثمرة أعمق تخييل وتمويه وبراعة كاملة . ووقفت ليونلا دم الجرح ، ولم يكن قد خرج منه إلا القدر اللازم لتلوين الحيلة ، وصبت عليها النييد ، وضمتد الجرح على قدر ما استطاعت ، وكانت تصحب أعمالها بمناجيات لنفسها لو لم يسمع أنسلمو غيرها لظن أن زوجته نموذج الإخلاص والشرف . أما هذه - أي كميلا - فهي من ناحيتها راحت تقول عن نفسها أنها جبانة ، هيابة ، ولامت نفسها على فقدانها الشجاعة ، في لحظة مهمة كهذه ، الشجاعة على القضاء على حياة صارت تفزع منها . وسألت ليونلا هل من اللائق إخبار زوجها بما جرى ، فنصحتها ليونلا ألا تفعل ، خوفاً من أن يرى أنسلمو نفسه مضطراً الى أن ينتصف من لوتريو ، وهذا ما لا يمكنه أن يقوم به دون أن يعرض حياته للخطر ، وأردفت قائلة أن النسوة العاقلات الحصيفات ينبغي عليهن أن يجعلن كل همهن في أن يبعدن عن أزواجهن كل أسباب النزاع . ووافقت كميلا على هذه النصيحة ووعدت بالتزامها ، لكنها لاحظت أنه لابد ، على كل حال ، من إيجاد تبرير لجرحها هذا الذي لا يمكنها إخفاؤه عنه . فأجابت ليونلا قائلة إنها لاتعرف الكذب ، حتى في المزاح .

(١) بنت كاتوالوتيكي وزوجة مركس بروتس ، ولما علمت بموت زوجها بعد معركة ليليب ، انتحرت بأن ابتلعت حجراً محترقاً .

فقال كميلا : وأنا أيضاً مع الأسف ، لن يكون عندي من رباطة الجأش مايمكنني من اختراع كذبة وتأبيدها ، حتى لو تعلّق الأمر بحياتي نفسها ، فإن لم نجد أي مبرر وتعلة ، فلا بد من الاعتراف بالحقيقة كاملة عارية ، حتى لا يظن بنا الظنون .

فقال ليونلاً : لاتقلقي ، فمنذ الآن حتى الغد سأفكر ، وربما أمكن أن يختفي جرحك دون أن يراه ، ولتفضل السماء بإنجاح مساعينا الشريفة . لاتهتمي الان ، ياسيديتي ، إلا بتسكين إنفعالاتك ، حتى لا يجذك سيدي مضطربة . وعلى كل حال فاعتمدي علي وعلى رحمة الله الذي يساعد دائماً ذوي النوايا الطيبة .

وكان أنسلمو قد أرهف سمعه وشاهد تمثيل مأساة موت شرفه ، وقد تمّ التمثيل والإخراج بصورة طبيعية مؤثرة بحيث يظن المرء أنها الحقيقة عينها ، وانتظر الليل بصبر نافذ كي يستطيع الخروج من بيته والذهاب للقاء صديقه الحميم لوتريو ، ويغتنب معه لهذه الدرة اليتيمة التي وجدها في شرف زوجته وعفافها . ويسرّت الإمرأتان له كل سبل الخروج ، ودون أن يضيّع وقتاً جرى الى لوتريو . ولايمكن التعبير عن فرحته وكم مرة عانقه وقتله ، وماذا قال مدحاً لكميلا . وأصنى إليه لوتريو دون أن يستطيع التعبير عن سرور كبير ، لأنه تصوّر الى أي حد خدع أنسلمو وكم خدعه هو على نحو شائن . ولاحظ أنسلمو قلّة سرور لوتريو ، لكنه عزا ذلك الى جرح كميلا الذي اعتقد صديقه (لوتريو) أنه السبب فيه ، ولهذا : فتعزية له ، قال أنه لامحل للقلق ، وأن الجرح خفيف من غير شك مادامت المرأتان (كميلا وليونلاً) اتفقتا على ألا يخبرانه به ، ولهذا ينبغي طرد كل حزن ، وعدم التفكير إلا في السرور ، لأنه بفضل مغامرة لوتريو شعر أنسلمو كأنه بلغ قمة السعادة ، وماعلى صديقه (لوتريو) إلا أن ينظّم شعراً على شرف كميلا ، ليخلّد اسمها بين الأجيال المقبلة . وأثنى لوتريو على مقصده ، ووعد بالإسهام في تشييد هذا التمثال المجيد .

وهكذا استمرّ أنسلمو أكبر مخدوع في الدنيا ، وهو نفسه ، بيديه ، قد شيّد في بيته تمثال عاره وهو يعتقد أنه إنما أقام صرح مجده . واستقبلته كميلا حزينة الوجه ، في الظاهر ، وإن تكن في قلبها راضية . واستمر الوهم فترة من الزمان ، الى أن أدار الحظ عجلته ، فهذه الخديعة التي بذل في إخفائها كل عناية اكتشفت ، وكلفت أنسلمو حياته جزاءً وفاقاً عن استطلاع الأخرق .

الفصل الخامس والثلاثون

في المعركة الدامية الرهيبة التي أثارها دون كيخوته
ضد خوابي النبذ، وتتمه حكاية المستطلع الفاسد الرأي

لم يبق لإتمام قراءة القصة غير صفحات قليلة حينما خرج سنشو پنثا من الغرفة التي كان يستريح فيها دون كيخوته ، وهو في فزع يصيح :
- أسرعوا ياسادة ، هبوا لنجدة مولاي فإنه يخوض أفظع معركة شاهدها . الحمد لله
لقد طعن بالسكين المارد العدو للسيدة الأميرة ميكوميكونا ، طعنة نجلاء ، حتى قطع رأسه
عند حَزَّ الكتفين ، وكأنه لفتة .

فقال القسيس ، وقد قطع القراءة ، ماذا تقول يا أخي ؟ هل أنت بعقلك ياسنشو ؟ كيف
يمكن أن يحدث مثل هذا ، مادام ذلك المارد على بعد ألفي فرسخ من هاهنا ؟
وفي الوقت نفسه سمعت ضوضاء شديدة من الغرفة المجاورة ، وسمع دون كيخوته
وهو يصرخ ، « كف أيها اللص ، الصعلوك ، الخسيس ، أنت في قبضتي ، وسيفك لن يفيدك
شيئاً » . وفي الوقت نفسه أهوى بضربات شديدة على الجدار . فقال سنشو : « كيف تتلهون
بالسماع ياسادتي ، ادخلوا ، وافصلوا بين المحاربين ، أو انجدوا مولاي وإن كنت لاأظنه في
حاجة الى نجدة ، إذ لاشك أن المارد قد قتل فعلاً ومات ، والله يحاسبه الآن على سوء
أفعاله . لقد شاهدت دمه يسيل على الأرض ، رأسه مجندلاً الى جواره ، ورأسه كبير مثل
خابية النبذ .

فقال صاحب الفندق : ليقتلني من شاء إن كان دون كيخوته أو دون شيطان لم يطعن
بسيفه خوابي النبذ الأحمر المألئى كلها والمرصوطة هناك عند رأس سريريه ، وأن النبذ
الذي سال منها هو ما حاسبه هذا المأفون دماء!

هنالك دخلوا الغرفة ، ووجدوا دون كيخوته في أغرب لباس في الدنيا ، كان يلبس
قميصه ، ولكن هذا القميص كان قصيراً الى حد أنه لم يغطي حتى منتصف وركيه ، ومن

الخلف كان أقصر بطول ستة أصابع ، وكان ساقا دون كيخوته الطويلين المعروفتين ، يغطيهما شعر كثيف ملوث وعلى ذراعه اليسرى ملاءة السرير ، هدف غيظ سنشو لسبب يعرفه هو جيداً ، وكان يمسك بيده اليمنى بسيفه مسلولاً ، ملوحاً به ، عن يمين مهدداً نفس التهديدات وكأنه فعلاً كان يحارب مارداً من المردة . والطريف في المسألة أن عينيه كانتا مغمضتين ، لأنه كان ناعساً يحلم بأنه يصارع المارد وتسَلَّطت المفامرة على خياله حتى راح ينفذها ، وخيل إليه أنه قد وصل فعلاً إلى مملكة ميكوميكونا ، وأنه صار في مواجهة عدوه . وفي اندفاعه سدّد الى خوابي النبيذ طعنات متواليات وهو يعتقد أنه يسددها الى المارد حتى فاضت الغرفة كلها بالنبيذ . فلمّا شاهد صاحب الفندق هذه الخسائر استولت عليه سورة غضب شديدة جعلته ينقضّ على دون كيخوته ويهوي عليه باللكمات العنيفة الى حد أنه لو لم ينتزعه القستيس وكردنيو من بين يديه لانتهدت حرب المارد . وعلى الرغم من هذا الوابل من اللكمات فإن الفارس المسكين لم يستيقظ من نومه ، وكان سيستمر في نومه من غير شك لولا أنّ الحلاق أتى بدلو ماء بارد من البئر وصبّه على جسم دون كيخوته . ففتح هذا عينيه ، لكنه لم يبق الى الحد الذي يتبين له معه الحالة التي صار إليها . ودخلت دوروثيه ولكنها لما شاهدت أن المدافع عنها يلبس لباساً قصيراً جداً ، لم تشأ البقاء لتشهد المعركة . وفُتّش سنشو في كل مكان عن رأس المارد ، فلمّا لم يجده صاح :

- نعم ، إنني أرى تماماً أن كل شيء في هذا المنزل سحر ، في المرة الأخرى ، في نفس المكان الذي أنا فيه ، تلقّيت لكمات وتطويحات عديدة دون أن أعرف من الذي يسددها الي ودون أن أبصر أحداً ، والآن هذا الرأس الذي شاهدته بعينيّ يقطع ، وشاهدت الدم يهراق منه كالنافورة ، قد اختفى .

فقال صاحب الفندق : عن أي دم وأية نافورة تتكلّم ياعدو الله وأوليائه ؟ ألا ترى أيها الوغد أن هذه النافورة وهذا الدم ليسا غير خوابي تراها مخروقة والنبيذ الأحمر الذي نعيم نحن الآن فيه هنا ؟ ألا ليت روح من خرقتها تعوم كذلك في الجحيم .

فقال سنشو : لست أدري شيئاً ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنني إذا كنت من تعاسة الحظ بحيث لأعثر على ذلك الرأس ، فإن كونيّتي ستذوب مثل الملح في الماء .

ولقد كان سنشو صاحباً أسوأ من مولاه نائماً ، لأن وعود هذا قد أدارت رأسه . وبرح اليأس بصاحب الفندق وهو يرى برود السانس وجنون المولى : فأقسم بالآ يحدث هذه المرة ماحدث في المرة السابقة حين رحلا دون أن يدفعوا الأجرة ، وأن امتيازاتهما المزعومة

الناجمة عن الفروسية لاتمنعهما من دفع الإجرة والتعويض عن الخسائر ، بل وعن الخرق التي سترتق بها الخوابي المخروقة .

وأمسك القستيس بيدي دون كيخوته ، وظنّ هذا أنه أتم المغامرة ، وصار عند قدمي الأميرة ميكوميكونا ، فجثا على ركبتيه أمام القستيس وقال له : « عظمتك ، أيتها السيدة العالية المقام القوية السلطان ، يمكنها أن تعيش الآن في أمان تام دون أن تخشى السوء من تلك المخلوقات الشريرة وقد أصبحت منذ اليوم وفيّاً بالعهد الذي قطعته لك ، لأنّي بعون الله جلّت قدرته ، ولطف تلك التي من أجلها أحيا وأنتفس ، قد نفذت وعدي خير تنفيذ » .

فقاطعه سنشو حين سمع هذه الكلمات قائلاً : ألم أقل لكم ؟ لم أكن سكران ، انظروا هل ألقى مولاي بالمارد في الملح! أمسك بالثيران^(١) وكسب كوتيتي .

من ذا الذي كان يستطيع أن يمسك نفسه عن الضحك وهو يستمع الى جنون المولى والسائس ؟ لهذا أخذ الجميع في الضحك ، فيما عدا صاحب الفندق الذي استبد به الغضب والغيط . وأخيراً قام كردنيو والحلاق والقستيس بإرقاد دون كيخوته على السرير ، بعد مشقة ، وكان نائماً وعليه مظاهر الإعياء الشديد . وتركوه يستريح ، ثم عادوا الى باب الفندق ليواسوا سنشو الذي كان لا يزال مهموماً لأنه لم يستطع العثور على رأس المارد ، ولكنهم وجدوا مشقة أكبر في تهدئة صاحب الفندق الذي استبدّ به اليأس لضياح خوابيه .

وصاحت صاحبة الفندق بدورها : « يالحنس الساعة التي دخل الفندق فيها هذا الفارس الجوال! ألا ليتني لم أشاهد طلعه أبداً لأنه طالما كلّفنا حضوره في المرة الأخيرة مضى دون أن يدفع ثمن المبيت ليلة وثمان العشاء والغرفة والتبن والشعير عن نفسه وعن سائسه والحمار والفرس ، قائلاً أنه فارس جوال يخوض المخاطر والمغامرات (بعث الله له بالمغامرات السيئة هو وكل المغامرين في هذا العالم) ، وأنه بهذه الصفة معفى من الدفع ، كما هو مكتوب في لوائح الفروسية الجوال . والآن وبمناسبتة ، يأتي شخص آخر يسرق ذيل بقرتي ويعيده إليّ بأكثر من مرابطين حلواناً ، وقد نحل وبره بحيث لم يعد يصلح لزوجي . وثالثة الأثافي أن يأتي هذا الفارس اللعين ليفقأ خوابي ويهرق نبيذي . بودي لورأيت دمه يهرق! ولكن لا يحسن أن سيخلص من هذه الحكاية بثمان بخس ، قسماً بعظم أبي وعمر أمي أنه سيدفع ثمن هذا كله عدداً ونقداً ، وإلا فقدت سمعتي ولم أعد بنت أبي » . وهكذا نقست صاحبة الفندق عن غضبها وصاحبيتها في ذلك خادمها ماري تورنس . أما

(١) تعبير مأخوذ من لغة مصارعة الثيران ، معناه : لاشك في ذلك .

البنّت فلم تقل شيئاً ، مكتفية بالإبتسام بين الحين والحين . وأخيراً سكّن القسيس كل الضجة ، بعد أن وعد بدفع الخسارة التي وقعت للخوابي والنيذ وذيل البقرة الذي تعلّقت به كل هذا التعلّق . وواست دوروتيه سنشو وأكّدت له وعدها بأن تعطيه خير كونتيسته في مملكتها حينما تستقر في سلطانها ، بشرط إثبات أنّ مولاه احتزّ رأس المارد ، وبناء على هذا الوعد طاب خاطر سنشو وأكد للأميرة أنه شاهد بعيني رأسه سقوط رأس المارد ، وأمارة ذلك أنه كان لهذا الرأس لحية طويلة تنزل حتّى النطاق ، وإذا لم يعثر على الرأس فذلك لأن كل شيء في هذا النزول يتم بالسحر ، كما جرّب هو ذلك في المرة الأخيرة . فقالت له دوروتيه أنها تعتقد ذلك أيضاً ، ولكن عليه ألا يقلق ، وسيجري كل شيء على مايرام . فلمّا هدأت الضوضاء هكذا ، رأى القسيس أنه لم يبق إلا القليل في الحكاية فأراد إتمامها . ورجاه كردنيو ودوروتيه والآخرين أن يتمّها وشاء هو أن يرضيهم ويرضي نفسه ، فتابع القراءة هكذا ،

واليقين الذي استقرّ في نفس أنسلمو بفضيلة زوجته جعله أشد من في الدنيا رضى وهناءة . وكانت كميلا تتجهم في وجه لوتريو كي تخفي أفكارها ، ولوتريو ابتغاء توكيد مارآه أنسلمو من رأي ، التمس منه الإذن بالانسحاب ، لأن حضوره صار بغيضاً في عيني كميلا . لكن أنسلمو المخدوع دائماً ، لم يشأ الموافقة ، وهكذا أسهم هو نفسه في عاره دون أن يدري . وفي هذه الأثناء كانت ليونلا - وقد أعمتها الملذات التي ذاقها في الغرام - اندفعت فيه بغير أدنى تحفّظ ، معتمدة على سيّدها التي كانت تسترها ، فتستّر عليها ، وتقدّم لها الوسائل لإرضاء شهواتها بدون ضوضاء . وأخيراً ذات ليلة سمع أنسلمو وقع أقدام في غرفة ليونلا ، فأراد أن يدخلها ليرى ماذا هناك ، فأحس بأن ثمّ من يضغط على الباب من خلف . فزادته هذه المقاومة رغبة في فتحه ، وبذل جهداً كبيراً حتّى استطاع دفع الباب ، فلمّا دخل أبصر رجلاً يقفز من النافذة . فاندفع بسرعة للإمسك به أو على الأقل لتبيّن من هو ، لكنّ ليونلا اعترضت أمامه وقالت له : «قف ، يا سيّدي ولا تضطرب ، ولا تحاول اللحاق بالهارب . إن هذا الأمر يعنيني أنا وحدي ، إنه زوجي » . لكنّ أنسلمو لم يشأ تصديقها ، واستلّ خنجراً وهدّد بقتلها إن لم تخبره بالحقيقة . فأفقدتها الخوف رشدها وأجابت : «لا تقتلني ، سأخبرك بأمر أهم بكثير مما تظن » . فقال أنسلمو : «قولي في الحال وإلا قتلتك » . فقالت له : «من المستحيل أن أقول لك شيئاً الآن ، إذا استولى الاضطراب عليّ انتظر حتّى صبيحة الغد ، وسأكشف لك عن أمور ستدهشك ، ولكنني أقسم لك بأن هذا الذي قفز من النافذة شاب من هذه المدينة ، وعدني بالزواج » .

فسكنت ثائرة أنسلمو ، وقرّر الإنتظار حتى الغد ، وهو لم يخطر بباله أبداً أنه سينبأ بشيء ، يشين كميلا ، لأنه كان واثقاً كل الثقة بأمانتها . وخرج من الغرفة ، وحبس فيها ليونلا ، قائلاً أنه لن يطلق سراحها إلا بعد أن تبوح له بكل ماتعرف . وعاد في الحال الى جناح كميلا ، وقصّ عليها ماجرى ، ووعد ليونلاً بأن تبوح له بسر عظيم . أمّا أن كميلا قد اضطربت لما قال ، فهذا هو المتوقع ، أليس من المحتمل جداً أن يكون هذا السر خاصاً بها ، وأن ليونلا ستكشف عن كل ماتعرفه عن قلة أمانة سيدتها ؟ ولهذا فإن أنسلمو لم يكذب . ونام حتى أخذت نقودها وأثمن حليها ، ثم خرجت من البيت دون أن يراها أحد ، وخرجت الى لوتريو وروت له ماحدث ، متوسلة اليه أن يهرب معها أو على الأقل يؤويها بأمان من مطاردات أنسلمو . فاضطرب لوتريو أيما اضطراب ، حتى لم يستطع أن يجير جواباً وماذا يستطيع أن يقرّر ، وأخيراً قرّر أن يقتاد كميلا الى دير كانت أخته رئيسته ، ونقذ هذا الأمر بسرعة ، أمّا هو فقد خرج لفوره من المدينة ، دون أن يودّع أحداً . وفي الغداة صباحاً استيقظ أنسلمو دون أن يفكر في كميلا ولم يكن يشغله غير السر الذي ستبوح به ليونلاً ، فجرى الى الغرفة التي حبسها فيها ، وفتحها ودخل فلم يعثر على أحد ، لكن ملايات السرير كانت مربوطة في النافذة ، فأدرك من ذلك أنها قد هربت من النافذة . فتضايق لذلك كثيراً ومضى الى جناح كميلا فلم يجدها لافي مخدعها ولافي البيت كله . نادى على الخدم فلم يظفر من أحد منهم بأنباء ، وشاهد خزائنها مفتوحة وليس بها حليها ، مما أكد له نهائياً محنته وأن ليونلا ليست السبب الوحيد في هذا كله . وأراد ، حزيناً مفكراً ، أن يذهب ليروي مأساته للوتريو ، ودون أن يتم لبس ملابسه أسرع اليه ، فلم يجده هو الآخر ، وعلم من خدمه أنه رحل أثناء الليل وحمل معه كل نقوده . وعند هذه العلامة الأخيرة كاد يفقد أنسلمو رشده ، وفقده نهائياً لما أن عاد الى بيته فلم يجد خدماً ، ولاخادماً ، لقد كان البيت خاوياً . فلم يدر ماذا يفكر ، أو ماذا يقول أو ماذا يفعل ، وطارت قواه العقلية شيئاً فشيئاً ، لقد وجد نفسه فجأة بغير زوجة ولاصديق ولاخدم ، مجرداً من شرفه الذي أزاله فرار كميلا . وأخيراً قرّر الذهاب الى ذلك الصديق الذي كان قد ذهب اليه حينما يسر للوتريو كل الوسائل لخيانته . فأغلق باب البيت ، وامتنى فرسه ومضى لسبيله محطماً بأفكاره الحزينة ، مضطراً الى النزول عن صهوة فرسه وربطه الى شجرة انهار عند جذورها تخنقه الزفرات . وظلّ في هذا الموضع حتى المساء . وهنالك مرّ رجلاً يركب فرساً قادماً من المدينة ، فحيّاه ، وسأله أي جديد يتحدّث عنه الناس في فيررتسة فأجابه المسافر : « إنهم يتناقلون أغرب الأنباء ، إذ يقولون علناً أن لوتريو ذلك الصديق الحميم لأنسلمو الغني ،

ويسكن في سان خوفاني ، قد رحل هذه الليلة مع زوجة أنسلمو هذا الذي اختفى هو الآخر . وقد عرف نبأ ذلك عن طريق خادمة لكميلا أوقفها الحراس حين نزلت بملايات من نافذة البيت . إنني لا أعرف جيداً كل ظروف هذه الحادثة ، بيد أنني أعلم فقط أن المدينة كلها في دهشة بالغة جداً ، بسبب الرابطة الوثيقة التي جمعت بين هذين الرجلين بحيث كانا يسميان « الصاحبين » .

فسأله أنسلمو : وهل تعرف ، بالصدفة ، الطريق التي سلكها لوتريو وكميلا ؟ فأجاب المسافر : كلا ، إن الحاكم قد بذل مساعي لا فائدة منها حتى الآن في تتبع آثارهما .

فقال أنسلمو : وداعاً يا سيدي !

فأجاب المسافر : « في رعاية الله » - ومضى في طريقه .

هذه الأنباء الأليمة أرهقت أنسلمو حتى أوشك أن يفقد العقل والحياة معاً . نهض ما وسعه النهوض ، وراح الى صديقه الذي لم يكن قد عرف بعد أنباء مصيبتة ، لكنه لما رآه شاحباً مهلهلاً حكم فوراً أنه لابد وقع له حادث أليم . فرجاء أنسلمو أن يهتئ له سريراً ، ويبعث اليه بورق وحبر . ونام ، وأراد أن يكون وحده ، ورجاء إغلاق الباب عليه . أسلم نفسه الى نفسه ، وجثت عليه الهموم من محنته ، فاستشعر الى جانب المخاوف بأن الحياة تغادره ، وحتى يعرف الناس السبب في موته ، أخذ يكتب ، لكن قواه خائته قبل أن يتم الرسالة ، وفاضت روحه من الألم الذي أحدثه استطلاع خبر ما أصابه ، فوجده ونصف جسمه خارج أنسلمو لم يناد أحد ، دخل في غرفته ليستطلع خبر ما أصابه ، فوجده ونصف جسمه خارج السرير منحنيّاً على المنضدة ، والقلم في يده وهو يستند الى ورقة مكتوبة مفتوحة أمامه . نادى عليه ، لكن لما لم يجده يرد عليه ، أخذه من يده وتبين له أنه مات . فاستولى عليه الفزع ، ونادى الخدم ليكونوا شهوداً على هذا الحادث الفظيع ، وأخذ يقرأ ما في الورقة ، فوجد مكتوباً فيها ما يلي :

« إن رغبة حمقاء رعناء قد كلفتني حياتي . فإذا بلغ نبأ موتي الى مسامع كميلا فلتعلم أنني عفوت عنها ، إنها لم تكن مضطرة أبداً الى صنع معجزات ، ولم يكن في وسعي أن أطلبها بذلك ، ومادمت قد كنت أداة عاري ، فمن العدل أن... » .

هذا كل ما كتب ، ولا شك في أنه قد لفظ نفسه الأخير قبل أن يستطيع المضي في الكتابة . وفي الغداة أعلن صديق أنسلمو نبأ وفاته لأقاربه وكانوا قد علموا بالمغامرة الحزينة . أمّا كميلا فقد كانت في دبرها ، مستعدة للحاق بأنسلمو في رحلته الأخيرة ، لا

أسفاً على موته ولكن لأنه لم تكن لديها أية أنباء عن لوتريو . وهم يؤكدون أنها لم ترد أن تنخرط في سلك الرهبنة ولا أن تخرج من الدير إلا حين علمت أن لوتريو قد قتل في معركة وقعت في مملكة نابلي بين م . دي لوتريك وبين جونغالبه فرنندث القرطبي الملقب بـ«القائد العظيم»^(١) ، وتلك كانت نهاية الصديق الذي تاب بعد فوات الأوان . هنالك نذرت كميلاً نفسها لحياة الرهبنة ، ولكنها لم تعش طويلاً فقد حطّمها الحزن ووخز الضمير والتأنيب . وهكذا هلك ثلاثة أشخاص لأن أحدهما اندفع في رغبة حمقاء .

فقال القسيس : «هذه الحكاية تبدو لي حسنة ، لكنني لأستطيع الإقتناع بأنها حدثت فعلاً ، فإن لم تكن إلا من صنع الخيال ، فإنني أجدها رديئة ، فمن ذا الذي يستطيع أن يفترض وجود زوج أحقق بلغت به الحماقة الى حد الرغبة في إجراء امتحان خطير مثل هذا ؟ لو كان الأمر بين عاشق وعشيقتة لهان الخطب ، ولكن بين الزوج وزوجته هذا أمر من المستحيل أن يقع . أمّا بناء الحكاية من الناحية الفنية فإنه يعجبني كثيراً» .

(١) هنا خطأ تاريخي ، لأن جونغالبه (غنصالبه) القرطبي ترك إيطاليا في سنة ١٥٠٧ ، وتوفي في غرناطة سنة ١٥١٥ ، بينما لوتريك لم يكن قائداً للقوات الفرنسية إلا في سنة ١٥٢٧ ، وكان أمير أورانج قائداً لقوات شارلكان (كارلوس الخامس) . ولكن رودريجت مارين يرد على ملاحظة كليمنثين هذه قائلاً : إن لوتريك حضر معارك «القائد العظيم» في إيطاليا ، واشترك في معركة ثرنولا (وهذه مدينة في مملكة نابلي القديمة على مسافة ٣٧ كم من جنوب شرقي فودجيا) التي انتصر فيها غنصالبه القرطبي على دوق نيمور سنة ١٥٠٢ ، مما نتج عنه ضياع ممتلكات لويس الثاني عشر في مملكة نابلي .

فأجاب الخادم : لست أدري أيضاً ، لأنني لم أر وجهها طوال الرحلة . لقد سمعتها فقط تزفر زفرات حارة مرات عديدة وتنوح كما لو كانت ستلفظ أنفاسها الأخيرة ، وعلى كل حال فليس من الغريب ألا نعرف عنهم أكثر من ذلك ، لأننا في صحبتهم منذ يومين فقط ، أنا ورفيقي . لقد التقوا بنا كلينا في الطريق وأقنعونا بمصاحبتهم حتى الأندلس ، ووعدونا بأجر سخي .

فسأله القسيس : ولم تسمع اسم أحد منهم ؟

فأجاب الخادم : كلا ، لأنهم يسировون في صمت عجيب ، ولا يسمع المرء غير الزفرات والتنهّات التي تنبعث من السيّدة المسكينة التي تهبث في نفوسنا شفقة بالغة . ونحن مقتنعون أنهم يسوقونها على الرغم منها ، وإذا كان لي أن أحكم بحسب لباسها فإنها راهبة ، أو ستصير إلى الإنخراط في الرهبنة ، وهذا هو الأكثر احتمالاً ، وربما كان هذا هو السبب في حزنها .

فأجاب القسيس وهو يمضي : هذا ممكن جداً .

وأراد القسيس أن يلحق بدوروثيه التي لما سمعت السيّدة الشابة تتنهّد اقتربت منها متأثرة بشفقة رقيقة وقالت لها ،

- ماذا أصابك ياسيّدتي ؟ إن كان داؤك من النوع الذي اعتاد النسوة الإصاّبة به ، ويعرفن كيف يعالج ، فأفضي بسرّك إليّ وثقي بي ، فإنّي أعرض عليك خدماتي عن طيب خاطر .

ولكنّ السيّدة الشابة المجهولة اعتصمت بالصمت ، وجدّدت دوروثيه محاولتها . وأخيراً اقترب الفارس الذي أشار الخادم إلى القسيس بأنه هو السيّد الأمر ، وقال لدوروثيه : - لاتلخّي ياسيّدتي في تقديم خدماتك إلى هذه السيّدة ، لأنها لاتعرف الجميل الذي يسدى إليها ، ولاتأملني منها أن تردّ عليك اللهم إلا من أجل أن تلقي بالأكاذيب .

فقالّت المجهولة حينئذ : لم أقل كذباً أبداً بل على العكس ، إنني لا أجد نفسي في هذه الحال السيّئة إلا لفرط أمانتي وصدقي . وإنّي لأحكم اليك أنت نفسك ، لأن أمانتي هي التي تجعلك كذاباً أفاقاً .

سمع كردنيو كل هذه الكلمات ، ولم يكن يفصله عن تلك التي تكلمت غير باب دون كيخوته . فصاح : يا إلهي ! ماذا أسمع ؟ أي صوت رنّ في أذني ؟

ولدى هذه الصيحات اضطربت السيّدة وأدارت رأسها ، ولما لم تر من تكلم نهضت وأرادت أن تدخل الغرفة ، لكنّ الفارس القاسي منعها . وفي لحظة الاضطرابات هذه سقط

نقابها ، وأبدى عن جمال رائع ، ووجه سماوي ، وإن يكن شاحباً مشعثاً . تلفتت في كل ناحية بحركة سريعة حتى ليظن بها الجنون ، مما أشاع في نفس دوروتيه والأخرون شفقة عليها . وكان الفارس يمسك بها من كتفيها بشدة وكان مشغولاً بإمسакها الى حد أنه لم يستطع معها أن يرفع قناعه لما أن سقط ، وقد سقط فعلاً على الأرض .

وفي هذه اللحظة رفعت دوروتيه طرفها وتعرفت زوجها دون فرنندو . فأطلقت صرخة مدوية وأغمي عليها ، وكانت ستسقط على الأرض لولا أن الحلاق أمسك بها بين ذراعيه . واقترب القسيس لنجدتها ، ولما أراد أن يصب الماء على وجهها خلع نقابها ، هنالك تعرفها دون فرنندو . فلما رآها أصبح شاحباً كالمت . لكن لم يترك لوسنده التي بذلت كل مافي وسعها من جهد للتخلص منه ، لأنها تعرفت صوت كردنيو ، كما تعرف هذا على صوتها . كذلك سمع كردنيو الصرخة التي أطلقتها دوروتيه وهي تسقط ، وخيل إليه أنها لوسنده ، فخرج من الغرفة فرعاً ، وكان أول من رأى هو دون فرنندو الذي كان يمسك بها . فتعرفه هذا الأخير ، حتى أن الثلاثة ، لوسنده ، ودوروتيه ، وكردنيو ظلوا صامتين لا يتحركون ، ولا يستطيعون أن يفهموا ماذا جرى لهم ، كانت دوروتيه تتطلع في دون فرنندو ، وهذا يتطلع في كردنيو ، وهذا يتطلع في لوسنده ولوسنده في كردنيو . وقطعت لوسنده حبل الصمت ، وقالت لدون فرنندو : «دعني ياسيدي ، بحق مايجب عليك نحو نفسك ، مادام أي اعتبار آخر لا يؤثر فيك ، دعني أستند الى الجدار الذي أنا كالعليقة عليه ، والذي لم تستطع أن يفصلني عنه مضايقاتك ولا تهديداتك ولا وعودك ولا هداياك . أنظر عجباً أية طرق مستسرة غريبة جعلتني السماء أعثر من جديد على زوجي الحقيقي ، أنت تعلم ، من آلاف التجارب التي كلفتنا غالياً ، أن الموت وحده هو القادر على أن يمحوه من ذاكرتي . وإلا فلتحل خيبات الأمل الواضحة هذه حبك الى غضب جنوني (لأنك لاتقدر على استشعار عواطف أخرى) ورغباتك الى حنق انتزع مني الحياة ، فأني إذا فقدت الحياة بحضور زوجي أكون قد استخدمت الحياة استخداماً حسناً ، وموتي سيكون بالنسبة اليه شهادة على إخلاصي له حتى القبر» .

وخلال هذا الكلام عادت دوروتيه الى رشدها ، وسمعت توسلات لوسنده ، تلك التوسلات التي عرفتها بواسطتها . فلما رأت أن دون فرنندو لم يكف عن احتجازها دون أن يجيب عليها ، نهضت وألقت بنفسها عند قدميه ، وانهمرت الدموع من مآقيها كالسيل وإن زادت جمالاً ، وقالت له : «إذا لم يبهز عينيك لمعان الشمس التي تحملها بين ذراعيك ، لكنت قد تبينت أن التعيسة الساجدة أمامك هي دوروتيه الحزينة البائسة : إني تلك الفلاحة

البسيطة التي أراد حبك أو كرمك أن يرفعها الى شرف الإنتساب اليك ، وأنا تلك التي كنت أعيش عيشة راضية ، في حدود حياة شريفة ، الى أن تجاوزت من أجلك حدود الإحتشام ، مستسلمة لمضايقاتك ولما بدا أنه حبك ، ووضعت بين يديك حرّيتي ، تلك الهبة التي أسأت أنت فهمها ، كما تدل على ذلك الضرورة التي تلجّني الى الوجود في هذا المكان ، والحالة التي أراك عليها . لكن حذار أن تعتقد أن فكرة عاري هي التي قادتني الى هنا ، مع أن ما ساقني الى هذا المكان هو الألم والغيظ من رؤية نفسي منسية . لقد رغبت في أن أكون لك ، وكانت أمانيك كذلك ، وعلى الرغم من أنها تبدلت فإنّي لا أملك الكف عن الإنتساب إليك . تأمل يا سيدي ، إن المحبة الزائدة التي أحملها لك يمكن أن توازن نبالة وجمال تلك التي من أجلها هجرتني . إنك لا يمكن أن تنتسب الى لوسنده ، لأنك لي ، ولوسنده هي الأخرى لا يمكن أن تستجيب لأمانيك لأنها أسلمت نفسها الى كردنيو ، والأيسر لك أن تعود الى تلك التي تعبدك ، من أن تكره على حبك امرأة لاتشعر نحوك بغير الكراهية والنفور . لقد استحلقتني أن أصغي لك ، ونشدت هزيمتي ؛ وأنت لم تجهل وضعي الإجتماعي ، وتعرف تماماً بأية طرق استسلمت لشهواتك ، وليس لك أن تشكو من كونك قد وقعت فريسة الخيانة . فإن كان الأمر هكذا حقاً ، وإن كنت مسيحياً صالحاً بقدر ما أنت فارس ، فلماذا تؤجّل جعلي سعيدة في النهاية كما كنت سعيدة في البداية ؟ إن لم تشأ أن تتخذني زوجة شرعية ، فاسمح على الأقل أن أكون عبدتك ، فساعد نفسي سعيدة جداً طالما كنت أنتسب إليك . لا تسمح بأن أصبح - من جزاء إهمالك وهجرك - مضغة في أفواه الناس ، ولاتأمل بالمرارة أيام والديّ العجوزين ، جزاء حزيناً عن الخدمات المخلصة التي أسديها إليك كتابعين من أتباعك . فإذا كنت تظن بأنك تدنس دمك بامتزاجه بدمي ، فتذكر أنه لا توجد نبالة في العالم سلكت طريقاً واحدة ، وليست نبالة النساء هي التي تفيد في تكوين الأجناس الشهيرة . والنبالة الحقيقية هي نبالة الفضيلة ، فإن لم تسمع لصوتها وتطعه بأن ترد اليّ ماهو حقّي ، فسأظل إذن أنبل منك . والخلاصة ، ياسيدي ، شئت أو لم تشأ ، فأنا زوجتك ، وضمائني على ذلك أيمانك ، التي لايمكن أن تكون كاذبة زائفة ، إذا كنت لاتزال تتيه بما يحملك على احتقاري ، وكذلك الوعد الذي قطعت له كتابة ، والسماء التي تلتق كلمتك ، وحتى لو أعوزتني كل هذه الأدلة ، فإن ضميرك سيعكّر عليك ملذاتك ، وسيدوي صوته في نفسك ، شاهداً على شقائي وبراءتي » .

وكانت دوروتيه وهي تقول هذه العبارات تذرف العبرات ، حتى إن كل الذين كانوا في صحبة دون فرندو ، والباقيين ، لم يتمالكوا من البكاء معها .

وكان دون فرنندو يسمع كلامها دون أن يجيب بكلمة واحدة حتى توقفت عن الكلام لتطلق من الزفرات والتنهدات ما لا بد للمرء معه من قلب من البرونز حتى لا يتأثر ويرق لآيات هذا الألم البالغ . نظرت إليها لوسنده ، ولم تكن أقل تأثراً لحزنها منها اندهاشاً لجمالها وعقلها ، وكانت تود لو اقتربت من المسكينة التعيسة كي تواسيها ، ولكن دون فرنندو كان يحتجزها دائماً . وأخيراً وبعد أن ظل هذا وقتاً طويلاً يتأمل دوروتيه ، وكله اضطراب وارتباك ، فتح ذراعيه وأطلق سراح لوسنده ، وصاح : « لقد انتصرت يا دوروتيه ، لقد انتصرت » من المستحيل إنكار كل هذه الحقائق مدة أطول . وكانت لوسنده لم تشف تماماً من ضعفها فكادت أن تسقط على الأرض لولأن كردنيو ، وكان واقفاً وراء دون فرنندو حتى لا يرى ، أسرع مبدداً كل مخاوفه وأمسك بها بين ذراعيه . وقال لها : « إذا تفضلت السماء الرحيمة بأن تهبك بعض الراحة ، أي زوجتي الشجاعة المخلصة الجديرة بالتقدير ، فأين تكونين في مكان أكثر أماناً من هذين الذراعين اللذين تلتقيان قديماً حينما كان مسموحاً لي بأن أدعوك حبيبتي ؟ » .

فرفعت لوسنده عينيها الى كردنيو ، وهي في نصف إغماء ، وتعرفته جيداً ، ودون أن يزعجها أي اعتبار ، ألقت بنفسها على رقبتة وصاحت : « أنت ، أنت المتحكم وحدك في مصيري ، نعم ، أنا أسيرتك ، رغم كل التهديدات والمصاعب التي يضعونها في طريق حياتي » .

أثر هذا المنظر في كل الحاضرين ، وأدهش دون فرنندو الى أقصى حد . وشاهدته دوروتيه يشحب لونه ويمد يده الى سيفه وكأنه يريد الإتيان من كردنيو . وبسرعة البرق جثت على ركبتيه ، ومنعته من التحرك وقالت له : « ماذا تريد أن تفعل ، ياملاذي الوحيد ، في هذا اللقاء غير المنتظر ؟ إنك ترى زوجتك عند قدميك ، وتلك التي أردت إكراهها هي بين ذراعي زوجها ، وهل يناسبك ، بل هل من الممكن أن تنقض ما أبرمته السماء ؟ أليس من الأفضل أن ترفع الى منزلتك تلك التي طالما تعذبت من أجلك ، وفي هذه اللحظة تفرق بدموعها الرقيقة صدر زوجها الحقيقي ؟ أستحلفك بالله ، كف عن غضبك ، ووافق على أن يجتمع هذان العاشقان بعد أن طال عذابهما ، وأبن عن نبل دمك النبيل العريق ، وليعلم الناس جميعاً أن للعقل سلطاناً عليك أكبر من سلطان الهوى » . وكان كردنيو في تلك الأثناء يحتضن لوسنده ، وينظر دائماً الى دون فرنندو ، حتى يكون مستعداً للدفاع عن نفسه إذا بدرت منه أدنى بادرة ، بل وأن يحارب كل من يريدون الاضرار به ، حتى لو كلفه ذلك حياته ، ولكن أصحاب دون فرنندو ، والقستيس ، والحلاق وكل الحاضرين ، فضلاً عن

سنشو پڻا الطيب ، كل هؤلاء أحاطوا بدون فرنندو ، واستحلفوه أن يرق لمدام دوروتيه ، وألا يخيّب آمالها ، لأنها لم تقل له غير الحق ، وأن يعتبر أنه ليست الصدفة ، بل عناية السماء هي التي جمعتهم كلهم في هذا المكان الذي لم يخطر ببالهم أبداً أن يتلاقوا فيه ، وأن الموت وحده - هكذا قال القستيس - يمكن أن يفصل بين لوسنده وكردنيو ، وهذا الموت ، لو أصابهما معاً ، لحسبوه موتاً سعيداً ، وأن من كرم الشجاعة أن تحترم الروابط التي لا يمكن انفصامها وأن تمكن بإرادتها وحدها من أن ينعم العاشقان بالخير الذي أرسلته إليهما السماء .

وتوسلوا إليه في أن يتطلع في جمال دوروتيه ، الذي لم يكن له نظير ، وفي تواضعها والحب الغامر الذي يتأجج في صدرها ، وأن يتذكر أنه إذا كان يهتم بلقب مسيحي وفارس فلا يمكن أن ينكث العهد الذي قطعه ، وهو الوسيلة الوحيدة لإرضاء واجبه نحو ربه ونحو العقلاء الذين يعرفون والذين يوقرون مزايا الجمال ، والجمال حتى لو كان في شخص من أصل متواضع فإنه إذا كان مصحوباً بالأمانة يمكن أن يسمو إلى أعلى المراتب ، دون أن يحط من قدر من يقتصر به ، وإن من يطع القوانين الجبارة لرغباته ، إذا فعل ذلك دون خطيئة لا يمكن أن يلومه في ذلك لائم .

والى هذه الأسباب أضافوا أخرى قوية ، وأخيراً لم يكذب قلب دون فرنندو الكريم الدم العريق الذي يجري فيه : فلم يستطع أن يقاوم الحقائق التي أرقهوه بها ، واستسلم . أنهض دوروتيه ، وقتلها برقة وقال لها : « انهضي ، ياسيدتي ، ليس من العدل أن ترى عند قدمي تلك التي تسيطر في نفسي . وإذا كنت حتى الآن لم أهد من المظاهر ما يدل على ذلك ، فهذا من غير شك بقرار من السماء التي شاءت أن أكون شاهداً على إيمانك بحبي ليزداد تقديري لك . ففضلتي بالعفو عن مسلكي السيء قبلك . إن سحراً لا يقاوم قد ألقى بي بين ذراعيك ، ولكن كرامة ليست أقل قوة قد أبعدتني عنك . تأملي لوسنده هذه ، وهي اليوم راضية كل الرضا ، وستجدين في عينيها عذري . لكن لما كانت قد التقت بمن تهواه ، وأنا أجد فيك كل ما يرضيني ، فلتحيى هي سعيدة هائلة مطمئنة ولتقض مع حبيبها كردنيو أياماً طوالاً راغبة : وإني لأرجو من السماء أن تهني مع دوروتيه نفس السعادة » .

ولما أتم هذه الكلمات قبلها مرة أخرى قبلة حنوناً ، وكان عليه أن يضبط نفسه بجهد شديد ليمنع الدموع من الإنهمار من عينيه وليخفي حبه وتوبته وندمه . ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى كردنيو ولوسنده والآخرين : فلم يستطيعوا أن يحبسوا الدموع : بعضهم من الفرح ، والآخر من فرط التأثر ، حتى لكان وقع لكل منهم حادث عظيم . وحتى

سنشو نفسه بكى ، لكن عرف فيما بعد أن السبب في بكائه هو أنه شاهد تماماً أن دوروتيه ليست الملكة ميكوميكونا ، التي رجي من ورائها مكافآت عظيمة! واستمر الصمت والدهشة فترة من الزمان ، وأخيراً مضت لوسنده وكردنيو وألقيا بنفسيهما عند ركبتي دون فرندو ، وشكرا له كرمه بعبارات قويّة مؤثرة لم يعرف كيف يجيب عنها فأنهضهما وقبلهما بحنان . وشاء أن يعرف بعد ذلك من دوروتيه ماذا جاء بها في هذا المكان النائي جداً عن بلدتها . فروت له في كلمات قليلة كل ماقالته من قبل لكردنيو ، ووجد دون فرندو والباقون في قصّتها مايشوق كثيراً ، حتّى رغبوا إليها أن تسهب وتطيل ، لأنها كانت تتكلّم بلطف بالغ . أمّا دون فرندو فقال لهم إنه بعد أن وجد في حضان لوسنده الورقة التي تصرّح فيها بأنّها زوجة كردنيو ، أراد أن يقتلها ، وهو ماكان سيفعله لولا أن منعه أهله من ذلك ، وأنه خرج بعد ذلك من البيت ، وهو مصمّم على تأجيل انتقامه الى الغداة ، بيد أنّه عرف بعد ذلك أن لوسنده هجرت بيت أهلها دون أن يعرف أحد مصيرها ، وأخيراً ، وبعد بضعة أشهر ، عرف أنها لجأت الى دير ، بقصد البقاء فيه طول حياتها إذا لم تستطع العثور من جديد على كردنيو ، فلمّا عرف هذا الخبر ، ذهب الى الدير الذي تقيم فيه ، ومعه ثلاثة من أصدقائه ، ولكنه لم يرد أن يراها خوفاً من أن يؤذي مجيئه الى زيادة الحراسة على الدير ، وذات يوم انتظر أن يفتح الباب ، وكان قد ترك صديقين من أصدقائه لحراسة الباب ، ثمّ دخل الدير مع الثالث لبحث عن لوسنده ، فوجداها في الصحن تتحدّث مع راهبة ، فخطفاها دون أن يعطياها الوقت لتعرفهما ، واقتاداها الى مكان أتوا منه بكل مايلزم للسفر ، وسهل عليهم هذا العمل أنّ الدير كان بعيداً عن المدينة ، وأضاف دون فرندو قائلاً أنّ لوسنده لمّا وجدت نفسها بين يديه ، فقدت كل شعور ، ومنذ ذلك الوقت لم تكف عن البكاء والتنهد دون أن تقول كلمة ، وعلى هذه الحال ، في الصمت والدموع ، وصلوا الى الفندق ، وكان هذا بمثابة بلوغ السماء ، حيث تنتهي كل مصائب الأرض .

الفصل السابع والثلاثون

استمرار قصة ولية العهد الشهيرة ميكوميكونا ومغامرات شائقة أخرى

استمع سنشو الى كل هذه الأقوال وهو يستشعر ألماً حاداً إذ يرى آماله في الثروة التي لوحت له بها الأميرة الجميلة ميكوميكونا تذهب أدراج الرياح كالمدخان ، الأميرة ميكوميكونا التي صارت دوروتيه ، مثلما صار المارد هو دون فرنندو ، وبينما كان هذا كله يجري ، كان مولا (دون كيخوته) نائماً لا يدري شيئاً مما حدث . ودوروتيه ، من ناحيتها ، حسبت أنها تحلم ، وكذلك كردنيو ، ولوسنده لم تكن أكثر تأكيداً . وحمد دون فرنندو السماء على ما أنعمت به عليه ، وحمدها أن خلصته من تيه أوشك أن يفقد فيه روحه وشرفه ، وأخيراً اغتبط كل من كانوا في الفندق للخاتمة السعيدة التي انتهت اليها هذه الأحداث المضطربة المتشابكة التي لم يكن يرجى لها أقل نجاح .

والقسيس ، وهو رجل فطن ، راقب كل شيء ، وهنا كل واحد على ما أصابه من خير . ولكن أكثرهم إظهاراً للفرح كانت صاحبة الفندق ، التي وعدنا كردنيو والقس بأن يدفعها لها تعويضاً عن الأضرار التي أحدثها دون كيخوته . وكما قلنا من قبل ، كان سنشو وحده هو الحزين الأسيف اليائس . ولما لم يقوَ على الصبر دخل لدى مولا وكان قد استيقظ ، وقال له : «مولاي الفارس الحزين الطلعة! لسعادتك أن تنام ملء جفونك دون أن تقلق لقتل المارد ووضع الأميرة على عرشها ، إذ تم كل شيء وانتهى» .

فأجاب دون كيخوته : «أعتقد ذلك تماماً ، لأني حاربت المارد حرباً لم أخض من قبل مثلها ، وبضربة واحدة قطعت رأسه ، ولهذا سال دم كثير كأنها أنهار من الماء» .

فقاطعه سنشو : بل قل من النبيذ الأحمر ، إذ يحسن بك أن تعرف أن هذا المارد المقتول ليس شيئاً آخر غير خابية مخروقة ، وهذا الدم إن هو إلا الثلاثون رباعاً من النبيذ الأحمر الذي كان في داخل الخابية ، أما الرأس الذي قطعه فإنه لا يوجد إلا في خيالك ، وليذهب الشيطان بكل شيء! .

فقال دون كيخوته : ماذا تقول يا مجنون ؟ هل فقدت صوابك ؟
فأجاب سنشو : انهض يا مولاي! وسترى الخسائر التي أحدثتها ، وعلينا أن ندفع
تعويضاً عنها . وسترى أيضاً الملكة وقد تحولت الى امرأة عادية تدعى دوروتيه ، وحوادث
أخرى ستدهشك .

فقال دون كيخوته : لن أدهش لشيء ، إذ تذكر أنه في المرة الأخيرة التي كنّا فيها في
هذا الفندق قلت لك أن كل شيء هاهنا يجري بالسحر ، وأعتقد أن الأمر كذلك الآن .
فقال سنشو : وأنا أيضاً كنت سأعتقد ذلك ، لو كان تدويخي من النوع نفسه ، ولكنه
كان تدويخاً حقيقياً واقعياً لاشك فيه : ولقد شاهدت تماماً أن صاحب الفندق ، وهو نفسه
المائل هناك . كان يمسك بأحد زوايا الملاءة ، ويطوّحنى بكل قواه وهو يضحك ضحكات
عاليات . وهذا هو مايمكن من معرفة الأشخاص ، أما أنا ، العبد الفقير المذنب ، فلن أقرّر
أنه لم يكن هناك سحر ، بل أضلع ترضرص وويل عظيم .
فأجابه دون كيخوته : « أصلح الله الأمور . أعطني ملابسي ، أودّ أن أذهب لرؤية
التحولات التي تحدثت عنها » .

وساعده سنشو على ارتداء ثيابه ، وفي هذه الأثناء أخبر القسيس دون فرنندو
والآخرين بجنون دون كيخوته ، والحيلة التي كان عليه أن يلجأ إليها لاستخلاصه من الصخرة
المسكينة ، التي خيل إليه عندها أنه كان موضوع استهزاء سيدته ، وروى لهم كل ما أخبره
به سنشو ، مما أدهشهم وأضحكهم كثيراً ، لأن هذا النوع من الجنون بدا لهم أغرب جنون
يمكن أن يستعر في مخ إنسان مخبول . وأضاف القسيس أنه لما كانت السعادة غير
المنتظرة التي حظيت بها دوروتيه قد حالت دون متابعة الخطة التي رسموها ، فمن الضروري
تخيّل خطة أخرى لإعادة الفارس الى بلده .

فعرض كردنيو أن يستبدل لوسنده بدوروتيه ، ولوسنده ستمثلها خير تمثيل . فقال
دون فرنندو : « كلاً ، كلاً ، أريد أن تتم دوروتيه تنفيذ الخطة : وبشرط ألا تكون المسافة
بعيدة جداً من هنا حتى بلد الفارس الطيب الساذج ، فإنه ليسرتني الاسهام في شفائه » .
فقال القسيس : إنها على مسافة يومين لا أكثر .

فقال فرنندو : حسناً ، وحتى لو كانت أبعد من ذلك فسأشارك عن طيب خاطر في هذا
العمل الخيري .

وفي هذه اللحظة ظهر دون كيخوته ، مدججاً بسلاحه من رأسه حتى أخمص قدمه
والترس على ذراعه ، وهو يستند الى قطعة رمحه ، ورأسه مغطى بخوذة ممبرينو ، ولاتزال

حدياء ، فأخذت الدهشة بمجامع دون فرندو وسائر الغرباء لدى رؤيتهم لهذا المخلوق العجيب ، فتطلّعوا في صمت الى هذا الوجه الطويل طول ذراع ، وتلك البشرة النحاسية ، وذلك الجسم النحيل الجاف ، وغرابة أسلحته وسيماء الوقور الجادة . تقدّم بكل إجلال ورمى بطرفه دوروتييه ، وقال لها : « أخبرني سانسى ، ياسيدتي الجميلة ، أن عظمتك أغمى عليها وأن وجودك انعدم لأنك بعد أن كنت ملكة وسيّدة عظيمة كما كنت تهدين أصبحت مجرد فتاة : فإذا كان هذا التحول قد تم بأمر من والدك الملك الزنجي ، خوفاً من ألا أكون قادراً على نجاتك في الأمر الذي يهّمك ، فإنّي أقول أن معلوماته ليست واسعة كثيراً ، وأنه ليس على إطلاع واسع على تاريخ الفروسية ، لأنه لو عرفه كما أعرفه أنا لرأى في كل خطوة فرساناً أقل شهرة منّي ، يقومون بأعمال أصعب كثيراً . وهل هذا أمر عجيب جداً أن أقتل مارداً صغيراً ، مهما تكن وقاحته ؟ لم تمض ساعتان على مبارزتي له ، و... لكنّي أسكت ، خوفاً من أن أتهم بالكذب : فالزمان الذي يكشف كل مخبأ سيعلم الحقيقة حين تكون بعيدة عن خاطر الناس » .

فقال صاحب الفندق : إنك بارزت خابيتين لا مارداً .

لكنّ دون فرندو أسكته ومنعه من مقاطعة دون كيخوته الذي استمرّ في كلامه قائلاً : — أقول إذن ، أيتها الأميرة المحرومة من ميراث العرش ، إذا كان أبوك للسبب الذي ذكرته ، قد أجرى فيك هذا التحويل ، فينبغي عليك ألا تؤمني بذلك : لأنه لا يوجد خطر على الأرض لا يستطيع سيفي أن يشقّ طريقي فيه ، وحين ألقي عند قدميك برأس عدوك فستطيع أن أضع على رأسك التاج الذي تستحقينه .

ثمّ سكّ دون كيخوته في انتظار جواب الأميرة التي وقد أدركت عزم دون فرندو على متابعة المغامرة حتّى يرجع دون كيخوته الى بلده — أجابته بكل وقار وجد :

— إن من قال لك ، أيها الفارس الشجاع ذو الطلعة الحزينة ، أنّي تحولت وفقدت حالتي الأولى ، لم يقل الحقيقة ، لأنّي اليوم تماماً ماكنته بالأمس . صحيح أنّ بعض الأحداث السعيدة قد أصلحت من حالي قدر مارجوت ، لكنّي برغم هذا لا أزال كما كنت ، ولست أقلّ تصميماً على الإنتفاع بساعدك الذي لا يقهر ، ولهذا ياسيدي أرجو من لطفك أن توقّر أبي وتعهده رجلاً عاقلاً فطناً ، فقد استطاع بعمله أن يجد وسيلة سهلة لعلاج شقائي : لأنّي أعتقد أنّه لولاك ، ياسيد ومولاي ، لما شاهدت نهاية لمصائبي ، وكل الحاضرين هنا يمكنهم أن يشهدوا على صدق ما أقول . إن مابقي علينا هو أن نتابع غداً سيرنا ، لأننا اليوم لانستطيع أن نقطع مرحلة كبيرة ، أمّا عن النجاح الذي أمل فيه فإنّي أتوكّل فيه على الله وعلى قوّة ساعدك » .

هكذا تكلمت دوروتيه اللببية ، هناك تلفت دون كيخوته الى ناحية سنشو وقال له بصوت غاضب : « ياسنشو الصغير ، يا صديقي ، أنت أكبر وغد في كل بلاد اسبانيا . تعال أيها الصعلوك ، ألم تقل لي منذ قليل إن الأميرة تحولت الى فتاة تدعى دوروتيه ؟ وإن الرأس الذي اعتقدت أنني أطحت به لا وجود له ، وحماقات أخرى عديدة أوقعتني في ارتباك شديد جداً هو أفضع ارتباك مرّ بي طوال حياتي ؟ » ثم أضاف وهو يتأمل في السماء ويصك أسنانه : « بحق الموت ! ليت شعري ماذا يمتعني من أن أجري في بدنك مذبحه تصبح في المستقبل أمثلة لكل السواس الكاذبين في الدنيا ! » .

فأجاب سنشو ، لا تغضب يا مولاي ، من الممكن أن أكون قد أخطأت فيما يتعلق بتحول السيدة الأميرة ميكوميكونا ، أما فيما يتصل برأس المارد ، أو على الأقل بالخوابي المشقوقة ، والدم الذي هو نبيذ أحمر ، فإنني أقسم بالله أنني لم أكذب أبداً ، لأن الخوابي لاتزال عند رأس سريرك ولا يزال النبيذ يكون بحيرة في الغرفة ، وفضلاً عن ذلك فسترى الحقيقة بعينك حينما يأتي صاحب الفندق ويطالبك بدفع ثمن النبيذ المهرق . فإذا كانت السيدة الملكة لاتزال هي هي كما كانت ، فإن هذا يسرني جداً ، إذ يخصني في ذلك نصيب كأي فرد .

فقال دون كيخوته ، كفى ، ما أنت إلا أبله يا سنشو المسكين !

فقال دون فرنندو بدوره ، فلنكف عن التكلّم في هذا الموضوع ، مادامت السيدة الأميرة ترغب في ألا نتابع السير إلا غداً لأننا تأخرنا اليوم ، فليكن ذلك ، فإننا نستطيع أن نمضي الليلة في أحاديث حتى الصباح وغداً نصحب السيد دون كيخوته نحن جميعاً ، لأننا نريد أن نكون شهوداً على الأعمال النادرة الجبارة التي سيقوم بها في هذه المغامرة الكبرى .

فأجاب دون كيخوته ، بل أنا الذي أخدمكم وأصحبكم . وأشكر لكم ماتفضلتم به عليّ ، وحسن ظنكم بي . وسأبذل جهدي في سبيل تبرير حسن هذا الظن ، ولو كلّفني ذلك حياتي ، بل وأكثر منها إن أمكن .

وتبدلت عبارات الثناء والتحية وعروض الخدمات بين دون كيخوته ودون فرنندو ، لكن قطعها وصول مسافر يدل ملبسه على أنه نصراني جاء حديثاً من بلاد المسلمين : إذ كان يلبس عباءة من الجوخ الأزرق ذات وشاح قصير ، بنصف أكمام وبغير بنيقة ، وكان تباؤه من التيل الأزرق ، كما كانت قبعته من اللون نفسه ، وقد حمل خفّاً بلون البلح والخنجر بحمالة كان يحملها على صدره . وكانت معه امرأة تركب حماراً ، وتلبس زياً

مغريبياً ، وعليها خمار يغطي كل وجهها : وعلى رأسها طاقية من الديباج المذهب ، وتلبس «ملقة»^(١) تغطيها من الرأس الى القدمين . وكان الرجل متين البنية ، رائع القوام ، يناهز الأربعين من عمره ، وبشرته برونزية ، وشواربه طويلة ولحيته مرتبة : والخلاصة أن مظهره وسمته يدلان على أنه رجل نبيل ، لولا تواضع ملبسه . ولما دخل طلب غرفة ، فلما قيل له أنها كلها مشغولة ، امتعض امتعاضاً شديداً . ولكنه اقترب من الفتاة التي كان زيتها زي المورسكيين ، وأخذها بين ذراعيه وأنزلها على الأرض . فاقتربت منها لوسنده ودوروتيه وصاحبة الفندق وبناتها والخادمة ماري تورنس ، ولقد لفت أنظارهن جدة الزي ولم يكن قد رأين مثله من قبل . وقالت لها دوروتيه بلطفها وفطنتها وقد رأتها متضايقه من عدم وجود غرفة خالية : «لاتحزني ياسيديتي من سوء الصدف هذا ، لأن المعتاد هو ألا يجد المرء في الفندق ما يحتاج اليه ، لكن إذا قبلت أن تسكني معنا — وهي تشير الى لوسنده — فربما في كل أسفارك لن تجدي ملاذاً لطف ولا ترحيباً أجمل» .

فلم تجب المورسكي بكلمة ، بل نهضت وخالفت ما بين ذراعيها على صدرها ، وانحنى انحناء عميق ، للشكر ، مما جعلهن يعتقدن أنها مورسكية ولا تفهم لغة النصارى . وفي هذه اللحظة دخل الأسير ، وكان حتى ذلك الوقت مشغولاً بأمور أخرى ، ولما شاهد كل السيدات متحلقات حول المغربية ، قال لهن : «سيداتي هذه الفتاة لاتكاد تفهم لغتنا ، ولا تعرف غير لغتها هي ، ولهذا لم تجيبكم ولن تجيب عليكم» .

فقالت لوسنده : «وسنرحب بها خير ترحيب نستطيعه ، لأن إكرام الضيف واجب ، فما بالك إذا كانت امرأة؟» .

فقال الأسير : «إني أقبل أيديكم ، بالنيابة عنها وبالأصالة عن نفسي . وأنا متأثر جداً لهذا الفضل منكم . وفي مثل هذه الظروف ومن أشخاص مثلكن كما تبدين ، هذا عظيم جداً» .

فسألته دوروتيه : «قل لي يا سيدي : هل^(٢) هذه السيّدة نصرانية أو مسلمة ؟ إن ملبسها وصمتها يجعلاننا نخشى أن تكون ما لا نود أن تكونه . فأجاب الأسير : «إنها مسلمة زياً ومولداً ، لكنها في داخل روحها نصرانية صميمة ، وفيها رغبة شديدة في أن تصبح كذلك» .

(١) ملقة : كلمة عربية انتقلت الى الاسبانية وهي تقابل اليوم كلمة (الملاية الف) .

(٢) هنا صفحة من صفحات آثار الصراع بين الاسلام والنصرانية في اسبانيا لم نجد بأساً في إثباتها على حالها لإعطاء القارئ فكرة عن روح ذلك العصر وما يكنه المؤلف من مودة بسبب أسر المسلمين له وسجنه في الجزائر . راجع المقدمة .

فقال لوسنده : ألم يجر تعميدها بعد ؟

فأجاب الأسير : لم يكن لدينا متسع من الوقت ، قبل سفرنا من الجزائر ، وطنها . وحتى الآن لم يطرأ أي خطر ، وقد رغبت أنا في انتظار أن تعرف كل المراسم التي تأمر بها الكنيسة المقدسة . وأرجو من الله أن يعجل بتعميدها ، بما يتفق ومكانتها وهي مكانة أرفع جداً مما يدل عليه ملبسها وملبسي .

وزادت هذه العبارات في لهفة الحاضرات لمعرفة من هذه المورسكية ومن هذا الأسير ، ولكن لم تجرؤ إحداهن على سؤاله : لأنهما كانا في حاجة الى النوم أشد من الرغبة في قص مغامراتها . فاقادت دوروتيه المورسكية من يدها ، وأجلستها الى جوارها ، ورجتها أن ترفع نقابها . فطلعت في الأسير ، وكأنها تسأله ماذا يقولون وماذا ينبغي عليها أن تفعل . فقال لها باللغة العربية أنه يلتمس منها أن ترفع نقابها . ورفعه فعلاً ، وكشفت عن وجه هو آية في الجمال حتى رأتها دوروتيه أجمل وأكمل من لوسنده ، ولوسنده أجمل من دوروتيه ، واعتقد الحاضرون أن المورسكية وحدها تعدلها معاً ، بل قال البعض أنها تبزها ، ولما كان من عادة الجمال أن يجذب اليه قلوب الناس جميعاً وإراداتهم فقد تدافعا من حولها جميعاً ليخدموا المورسكية الجميلة ، ويلطفوها بكل أنواع الملاحظات . وسأل دون فرندو الأسير ما اسمها ، فأجاب : « للاثريا »^(١) . لكنّها وقد فهمت ما سألوا عنه صاحبها قالت بقلق وحدة : « لا ، للاثريا ، ماريه ، ماريه » وهي تقصد بذلك أن اسمها ماريه ، لا ثريا . وهذه الكلمات والطريقة التي أفصحت بها عنها ، أجرت أكثر من عبرة من عيون الحاضرين ، خصوصاً النسوة وهن بطباعهن أكثر حساسة وانفعالاً . فقبلتها لوسنده بحنان وقالت لها : « نعم ، نعم ، ماريه » . فأجابت « نعم ، نعم ، ماريه ، ثريا^(٢) » ما كان شي « أي : لا ، لم يبق بعد اسم ثريا .

ثم أقبل الليل وكان صاحب الفندق ، بأمر من أصحاب دون فرندو ، قد أعدّ خير عشاء يمكن الحصول عليه . وجلس الجميع الى مائدة طويلة من ذلك النوع الموجود في المطاعم العامة ، لأنه لم توجد في الفندق مائدة مستديرة ولا مرتبة . وأعطى مكان الشرف الى دون كيخوته رغم تمتعه ، وأراد أن يكون الى جانب الأميرة ميكوميكونا لأنها كانت تحت حمايته . وبعدها جلست لوسنده وثرّيا ، وفي مواجهة النسوة الثلاث جلس دون فرندو وكردنيو والأسير ، ثم السادة الآخرون . وجلس الحلاق والقسيس الى جانب

(١) كتبها ثريباتس Zornida ، فرأينا أن « ثريا » هو أقرب الأسماء العربية الإسلامية الى هذا الاسم . وللا باللغة البربرية = السيدة .

(٢) « ما كان شي » في النص باللغة العربية شبه العامية .

السيدات . وتناولوا العشاء في سرور بالغ ، وازدادوا بشراً لما رأوا دون كيوخته يتوقف عن الطعام ويأخذ في الكلام بنفس الروح التي جعلته يتحدث طويلاً مع رعاة الماعز ، قال :
 « الحق يا سادتي - لو تنبهتم - هو أن أولئك الذين يزاولون مهنة الفروسية الجواله هم شهود على أحداث عظيمة لم يُسمع بمثلهما . وإلا فقولوا لهم من ذا الذي يدخل هذا القصر ويجدنا هكذا مجتمعين يمكن أن يحزر من نكون نحن ؟ ومن ذا الذي يمكنه أن يعتقد أن هذه السيدة ، الجالسة الى جانبي ، هي تلك الملكة العظيمة التي نعرفها وأناي أنا الفارس الحزين الطلعة ، الذي تتفضل شهرتي بالاهتمام بأمرها ؟ وهل يجسر أحد على أن يشك الآن في أن هذا الفن أو هذه المهنة تفوق كل المهن التي اخترعها الناس ، وأنها تستحق من الإحترام والتقدير بقدر ماهي معرضة لأخطار شتى ؟ ألا بعد لأولئك الذين يدعون أن الآداب تتفوق على الأسلحة ، فأياً من كانوا فسأبرهن لهم على أنهم مخدوعون . فالحجة التي اعتادوا أن يسوقوها ، ويستندون إليها أكثر من غيرها ، هي أن الأعمال العقلية أكثر تقدراً من الأعمال البدنية ، وأن الأسلحة لأشأن لها إلا بالبدن ، وكأن مانسميه الأسلحة ، نحن الذين نحترفها ، لاتتضمن في داخلها أفعال الشجاعة والتبريز ، مما يحتاج بالضرورة الى عقل نادر الذكاء . فالمحارب الذي يقود جيشاً ، ومن يتولى الدفاع عن مدينة محاصرة ، ألا يعملون بعقولهم بقدر مايعملون بأجسامهم ؟ وهل يستطيع أحد أن يزعم أن بالقوى الجسمانية وحدها يمكن حزر خطة العدو وإفسادها ، ومقاصده وحيله وخدعه وحل الصعوبات وتلافي الأخطار التي يخشى شرها ؟ إن هذا كله من شأن العقل ولأشأن له بالجسم . فإذا كان من المؤكد إذن أن الأسلحة ، شأنها شأن الآداب ، تستخدم العقل ، فلننظر من منهما : الأديب أو المحارب يقوم بأعمال أعظم وأنفع ، ونستطيع أن نحكم على ذلك من الغاية التي يستهدفها كل منهما إذ ينبغي أن يكون أقدر من يرفع الى غاية أنبل - أكبر والآداب ، وأقصد الآداب الإنسانية (لأنه بالنسبة الى الآداب الإلهية لما كانت الغاية منها هي اقتياد أرواحنا الى السماء فإنها لا يمكن أن تقارن بشيء) أقول إن الآداب الإنسانية الغاية منها تنمية العدالة التوزيعية ، وإعطاء كل امرئ حقه ، ومراعاة القوانين الجيدة العادلة ، وهي غاية كريمة من غير شك ، عظيمة وخليقة بالإطراء ، لكن لبالقدر الذي تستحقه الغاية التي تهدف اليها الأسلحة ، ألا وهي السلام ، وهو أعظم الخيرات التي يمكن أن يرغب فيها الإنسان في هذه الحياة . ولهذا فإن البشائر الأولى التي تلقاها العالم والناس عند مجيء المخلص ، في الليلة التي كانت نهارنا الأعظم ، كانت هذا النشيد المنشد وسط الهواء :
 «المجد لله في السماء ، وعلى الأرض السلام لذوي النوايا الطيبة» . والتحية التي علم سيد



دون كيخوته معلقاً خارج الفندق

السما والارض تلاميذه وأحبائه أن يلقوها هي أن يقولوا إذا دخلوا مكاناً ، « السلام على هذا البيت » . وفي أحيان أخرى كان يقول لهم : « أعطيك سلامي ، وأدع لكم سلامي ، السلام عليكم » ، وكانت هذه أئمن درة يمكن أن تعطيها مثل هذه اليد ، وهي درة لا يمكن بدونها أن يوجد خير على الأرض ولا في السماء . أقول لكم إذن أن السلام هو الغاية الحقيقية المنشودة من الحرب ، والأسلحة والحرب شيء واجب . فإذا ثبتت هذه الحقيقة ، وثبت فضل الأسلحة على الآداب ، فلننصح الآن أعمال جسم الأديب ، ولنقارنها بأعمال المحارب ، ولننظر أيها أعظم » .

وكان دون كيخوته وهو يلقي هذه الخطبة يعتبر بعبارات جيدة سليمة ، بحيث لم يخطر ببال أحد ممن كانوا يستمعون إليه أنه مجنون ، بل بالعكس لما كانوا كلهم تقريباً من الفرسان ، ومهنة الأسلحة مألوفة لهم ، فقد أصغوا إليه بلذة بالغة . واستمر في كلامه قائلاً : « وهامي ذي متاعب الطالب . أولاً الفقر ، ولازعم أبداً أن كل الطلبة في فقر ، ولكن أريد أن أصور الأمر في أسوأ صوره ، ومن يقل الفقر يقل ، فيما أعتقد ، أعظم الشرور . والطالب يعانيه في كل أجزائه : أحياناً الجوع ، وأحياناً البرد ، وأحياناً العري وأحياناً الثلاثة معاً . ومع ذلك فهو يأكل ، أحياناً متأخراً فيما ينبغي ، وله ماتبقى من موائد الأغنياء ، وهذا هو أعظم بلايا الطلبة ، ويسمى : « الذهاب الى الحساء » . وقد لا يعوزهم بعض النار للتدفئة ، أو في القليل لتهدئة غائلة البرد الذي يلفحهم ، وأخيراً ينامون الليل تحت سقف . ولا أريد التحدث عن ألوان أخرى من البؤس ، مثل الافتقار الى القمصان ، والأحذية ، وخفة ملابسهم المرقعة ، ولا عن الإفراط الذي يدفعهم اليه الجوع حينما يرسل إليهم الحظ بأكلة جيدة . وعن هذا الطريق الذي رسمته ، وهو طريق شاق وعمر ، يتعثرون فيه هنا ، ويسقطون هناك ، وينهضون مرة ويقعون أخرى ، ويصلون الى الغرض من رغائبهم . وقد رأينا منهم قوماً ، بعد أن اجتازوا هذه العقبات ، وتجنبوا المزالق والأخطار طاروا على جناحي الحظ فدعوا الى حكم العالم من أعلى عروشهم ، ورأوا جوعهم وقد تحول الى شبع ، وبردهم الى نسيم عليل ، وعربهم الى ثياب فاخرة ، وحصائرهم التي من اليراع الى أسرة من أفخر الديباج الدمشقي وأجواخ التيل الهولندي ، وكان هذا جزاء عادلاً لمثابرتهم . ولكن كل هذه المتاعب وكل هذه الأعمال لا يمكن أن تقارن بأعمال رجل الحرب ، كما سأبرهن لكم » .

الفصل الثامن والثلاثون

تلاوة الخطبة القبيحة التي ألقاها دون كيخوته في موضوع الأسلحة والآداب

وتابع دون كيخوته خطابه هكذا :

«لما كنا قد فحصنا عن حال الطالب أولاً من ناحية الفقر ، فلنبحث إذن هل الجندي أغنى ، وسنجد أنه ليس ثمّ هو من أشد إملاقاً منه ، لأنه ليس له ما يقيم أوده به غير مرتب ضئيل ، يحصل عليه متأخراً أو لا يحصل عليه أبداً ، وغير ما يستطيع أن ينهيه بيديه معرضاً بذلك حياته للخطر ونجاته في الآخرة . وأحياناً يكون عارياً لا يستر بدنه غير بنيتة ممزقة يستخدمها قميصاً وزينة ، وليس لديه غيرها يستخدمها إبان الشتاء القارس ، يتسبّبها من عاديّات الجو ، في سهل منبسط ، وليس عنده ما يتدفّق به غير أنفاسه وهي أولى أن تكون باردة من أن تكون حارة لأنها خارجة من فم خاوي . وهل تظنّون أنه عند اقتراب الليل يأمل في أن يعوّض عن هذا كله بسرير جيّد ؟ صحيح أن السرير الذي ينتظره لن يكون ضيقاً إلا بسبب غلظه هو ، لأنه يستطيع أن يمتد على ما يشاء من مساحة على الأرض ، وأن يتقلّب عليها دون أن يخشى أن تلتوي الملاءات . ثمّ تأتي بعد هذا ساعة التدريب العسكري ، وربما ساعة المعركة ، فتقطع ذراعه ، أو ساقه ، أو تنفذ رصاصة من أعلى صدغيه ، ويلف رأسه بخرق من القماش لتضميده فإن لم يقع له أي سوء ، وتحفظه السماء الرحيمة سليماً معافى ، فهل يصبح بذلك أغنى ؟ ألن يظل في نفس الحاجة والإملاق ؟ لا بدّ له من لقاءات أخرى ، ومعارك أخرى ، وانتصارات دائمة حتّى يمكنه أن يستفيد شيئاً . لكنّ هذه المعجزات نادراً ما تحدث ، واذكروا ياسادة ، إن كنتم قد روّيتم في الأمر أحياناً ، ما أقلّ عدد الجنود الذين يستفيدون من الحرب بالنسبة إلى أولئك الذين يهلكون فيها لا شك في أنكم ستجيبون عليّ قائلين أنه ليس ثمّ وجه للمقارنة : فعدد الموتى لانهائية له ، أما عدد من يستفيدون من الحرب فلا يتجاوز ثلاثة أرقام . والأمر بالعكس تماماً فيما يتعلّق بأهل الأدب ، لأنهم بمقاطع طيا السهم ، ولا أقول بأكمّاهم الطويلة ، يجدون دائماً الوسيلة للعيش .

وهكذا نجد أن أكبر المتاعب من حظ الجندي ، وفي الوقت نفسه ينالون أدنى المكافآت . وقد يُعترض عليّ فيقال إنّ مكافأة ألفين من الأدباء أسهل من مكافأة ثلاثين ألفاً من الجنود ، لأنّ الأوّلين (الأدباء) يُعطون المناصب التي تؤهلها لهم مهنتهم ، أمّا الآخرون (الجنود) فلا يمكن مكافأتهم إلا على حساب السيّد الذي يخدمونه ، ولكن هذا الإعتبار نفسه يؤيد الرأي الذي أذهب إليه . ولندع جانباً هذا التيه من الصعوبات ، ولنعد الى تفوق الأسلحة على الآداب ، وهي مسألة لم يفصل فيها بعد ، رغم الحجج التي سيقت من هنا وهناك . إنّ المدافعين عن الآداب يقولون إنه بدونها لا يمكن للأسلحة أن تعمل ، لأنه إذا كانت للحرب قوانينها التي تخضع لها ، فإن هذه القوانين تنتسب الى الأدباء . وأنصار الأسلحة يجيبون قائلين أنّ القوانين لا تقوم لها قائمة بدون الأسلحة ، لأنه بالأسلحة يدافع عن الجمهوريات ، ويحافظ على الممالك ، وتحمي المدن ، وتؤمن الطرق ، وتطهر البحار من القراصنة ، والخلاصة أنه بدون الأسلحة تصبح الممالك والجمهوريات والسلطنات ، والمدن ، وطرق البر والبحر - عرضة للأخطار ، وللإضطراب الذي تجر اليه الحرب ، طالما استمرت واستخدمت حقوقها وقوتها . وإنه لمبدأ يقيني معترف به أنّ ما يكلف أكثر ينبغي أن تكون قيمته أكبر . والوصول في عالم الآداب يكلف الوقت والسهر والجوع والعري وآلام الدماغ والمعدة ، وسائر الآلام التي ذكرتها من قبل ، لكن لكي يصبح المرء جندياً بالمعنى الأقوى لهذا اللفظ ، فإنّ ذلك يكلف المتاعب نفسها التي يعانيتها الطالب ، ولكن بدرجة أكبر جداً بحيث لا محل أبداً للمقارنة بينهما في هذا الصدد ، خصوصاً والجندي يتعرّض في كل لحظة لفقدان حياته . وما يعانیه الطالب من الجوع أو البؤس هل يقترب مما يخافه الجندي المحاصر في قلعة ، وهو يقف في زاوية في أعلى الحصن للحراسة فيلمح أنّ العدو يحفر لغماً تحت قدميه ، ولا يجسر أن يتعد ولا أن يهرب من الخطر الذي يتهدده ؟ كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يبلغ قائده ما يجري ، لكي يعالجه بلغم مضاد ، وعليه ، أي الجندي ، أن يظل هناك بغير حراك ، متوقّفاً أن يُقذف الى السحاب أو يلقي به في الهاوية في أيّة لحظة . فإن بدا لكم هذا الخطر هيئاً ، فلننظر لعل أشد منه هولاً ما يحدث حينما يلتقي مركبان ويتجاذبان عند مقدمهما ، وفي وسط المحيط الهائل لا يكون لدى الجندي مكان يتحرك عليه غير مساحة قدمين على لوح في مقدم السفينة . وفي مواجهته ، على بعد مقاس رمح ، يشاهد من وزراء الموت بقدر هنالك من قطع مدفعية على مركب العدو ، ويشعر أنه عند أوّل خطوة غير سليمة سيمضي لزيارة منازل نبتون (إله البحر) المظلمة . وفي هذا الوضع الرهيب يتعرّض ، مدفوعاً بالشرف والشجاعة الجسور ، هدفاً للضربات التي تهدّد . ويحاول ، وهو على لوح ضيق ، أن يدخل سفينة العدو . وأروع ما في الأمر أنه مايكاد جندي يسقط في البحر الذي لن يخرج منه أبداً ، حتّى يتبعه جندي

آخر ، ويسقط هذا بدوره في البحر الذي ينتظره كأنه عدوه ، فيقوم مقامه جندي ثالث دون أن يكون لدى المرء وقتاً ليتبين ذلك ، وهذا أكبر جرأة يمكن أن تقدمها مصادفات الحرب . سعيدة ، ومائة مرة سعيدة تلك القرون التي لم تعرف آلاف المدفعية الرهيبة ولا بد أن الجحيم قد كافأ مخترع هذا الإختراع الجهنمي ، الذي به يستطيع الجبان الوغد الرعيد أن يقضي على حياة الفارس الشجاع ، وسط أعماله الرائعة ، دون أن يدري أحد كيف ومن أين أتت رصاصة ملعونة ، ربّما أطلقها هارب مذعور من نار بندقيته ، هذه الرصاصة تقضي على عمر وعلى كل خطط من استحقّ عمراً طويلاً . إنّي حين أتأمل في هذه الأمور ، أندم حقاً على اختياري لمهنة الفارس الجوال ، في هذا العصر البغيض الذي نعيش فيه ، لأنّي وإن كنت لأرهب أي خطر ، فإنّي لأخلو من الهم حين أفكر في أنّ البارود والرصاص يمكنهما في أية لحظة أن يسلباني الوسائل التي تجعلني شهيداً معروفاً على وجه البسيطة كلّها ، بفضل قوة ساعدي وخذ سيفي . وعلى كل حال فلتأمر السماء بما تشاء . فإن أفلحت فسأزداد تقديراً بقدر ما أتعرض طواعية لأخطار أكبر مما تعرض له الفرسان في القرون الماضية » .

ألقي دون كيخوته هذه الخطبة الطويلة بينما كان الآخرون يتناولون العشاء ، دون أن يفكر في تناول أية لقمة ، على الرغم من أنّ سنشو كثيراً ما نهبه الى تناول العشاء ، وله بعد ذلك أن يتكلم ما طاب له الكلام . واستشعر السامعون شفقة جديدة ، وهم يفكرون في أنّ رجلاً أبدى كل هذه الحصافة في الرأي والبلاغة في التعبير في كل هذه الخطب التي ألقاها ، هو رجل يفقد عقله تماماً حينما يتعلّق الأمر بفروسيته اللعينة . وقال له القسيس أنه على صواب كامل في كل مقاله دفاعاً عن الأسلحة ، وأنه ، على الرغم من كونه ، أي القسيس ، رجل آداب وحامل إجازة علمية ، يوافق على رأيه .

ولما انتهى العشاء رفع المفرش ، وبينما كانت صاحبة الفندق وبناتها وماريتورنس يهيئون غرفة دون كيخوته الصغيرة ، التي ستأوي إليها السيدات إبان الليل ، التمس دون فرندو من الأسير أن يروي قصّة حياته ، قائلاً أنها لا بد شائقة ، كما يبدو من حسن طلعتة وجمال ثريا . فأجاب الأسير قائلاً إنه سيستجيب لسؤالهم عن طيب خاطر ، لولأنه يخشى أن يثير الملل في الجمع . فانضمّ القسيس وسائر الحاضرين الى دون فرندو في رجائه . فلمّا رأى الجميع يلحّون عليه في ذلك ، رأى من واجبه أن يرضيهم ، فقال لهم : ستسمعون تاريخاً حقيقياً ، ربّما لاتساويه أبدع الأساطير . فأعروني كل أسماعكم . فصمت الجميع ، وأنشأ يقول ، بصوت رخيم مثزن ،

الفصل التاسع والثلاثون

تاريخ الأسير

«ولدت في جبال ليون ، لأبوين حظيا من مواهب الطبيعة أكثر مما نالا من هبات الحظ والرزق ، وإن كان أبي ، في بلد فقير مثل هذا ، عرف بالثراء ، وكان سيكون ثرياً فعلاً لو أنه بذل من الإهتمام بالمحافظة على ماله بقدر ما تلذذ بإنفاقه . وهذا الميل الى السخاء أتاه من كونه قد كان جندياً إبان شبابه ، لأن هذه المهنة مدرسة فيها يصبح المقتصد سخياً ، والسخي مبدراً ، وإذا وجد جنود بخلاء فهذا أمر نادر جداً ، مثل المخلوقات العجيبة . وقد تجاوز أبي حد السخاء ، كان شبه مسرف ، وهي صفة لاتفيد إلا قليلاً بالنسبة الى رجل متزوج عنده أولاد سيخلفونه ويرثون اسمه وثورته . وكنا ثلاثة أولاد في سن العمل . فلما رأى والدي أنه لا يستطيع أن يقاوم ميله المدمر ، قرّر أن يضع حداً له بأن يحرم نفسه من وسائل تحقيقه ، أي أنه أراد أن يتجرد من ماله ، والمال وسيلة بدونها يبدو الاسكندر نفسه بخيلاً . أتى بنا ذات يوم نحن الثلاثة في غرفته وقال ، «يا أولادي ، كي أقنعكم بأنني أطلب لكم الخير ، يكفي أن أذكركم أنكم أولادي ، وللاعتقاد بأنني أطلب لكم السوء يكفي أن تروا أنني لأستطيع أن أكتم اسرافي اللعين الذي يمنعي من المحافظة على مالكم ، ولكي تقتنعوا من الآن فصاعداً أنني أعزكم كوالد ، ولأأريد خرابكم ، فإنني سأنفذ مشروعاً يخصكم وأفكر فيه منذ زمن طويل . إنكم في عمر العمل واتخاذ طريق يمكن ، حين تعلقو بكم السن ، أن يؤدي بكم الى المجد والثراء . سأقسّم مالي الى أربعة حصص متساوية : لكل واحد منكم حصته ، وأحتفظ لنفسني بالحصّة الرابعة أستعين بها على العيش بقية عمري . ولكّني أود قبل أن يأخذ كل منكم نصيبه المشروع أن يسلك كل منكم أحد الطرق التي أدلكم عليها . إنّ عندنا في اسبانيا مثلاً يبدو لي صادقاً جداً ، كما هو الشأن في كل الأمثال لأنها جوامع كلم منتزعة من تجربة

طويلة . وهذا المثل يقول : « الكنيسة أو البحر أو القصر الملكي » ، ومعنى هذا أن الذي يريد أن يصير غنياً يجب عليه أن يدخل السلك الكهنوتي ، أو يبحر للإشتغال بالتجارة ، أو يدخل لخدمة الملك في قصره ، لأنّ الفئات المتساقط من الملوك خير من أفضال الأعيان ، كما يقول الناس . فقصدي إذن هو أن يتخذ أحدكم مهنة الآداب ، والثاني مهنة التجارة ، والثالث يخدم الملك في الجيش ، مادام من الصعب جداً الدخول في قصره ؛ فإذا كانت مهنة السلاح لاتأتي بشروة كبيرة ، فإنها على الأقل تعطي القيمة والشهرة . وفي خلال ثمانية أيام سأسلم كلاً منكم نصيبه نقداً دون أن ينقص فلساً . فانبؤوني الآن هل تريدون أن تتبعوا نصيحتي ؟ » .

توجه بالكلام إليّ أولاً ، فأنا الأكبر . فاستحلفته ألا يتنازل عن ثروته ، بل يتصرف فيها كما يشاء ، وقلت له أننا في سن نتمكن معه من كسب قوتنا ، وقلت أنني سأمثل ما يأمر به وسأختار مهنة السلاح ، فأخدم الله والملك . وأبدى له الأخ الثاني الاعتبار نفسه ، واختار الذهاب الى الهند للاتجار بالمبلغ الذي من نصيبه ، والأصغر ، وكان فيما اعتقد أكبرنا عقلاً ، قال أنه يريد الدخول في سلك الكنيسة أو الذهاب الى شلمنقة لإتمام دراساته . ولما اتفقنا على هذا ، قبلنا أبونا ، وفي المهلة التي حددها سلم كلاً منا نصيبه نقداً ، وكان يبلغ ، فيما أذكر ، ثلاثة آلاف دوقية ، وقد أتم الأمر بسهولة لأن أحد أعمامنا اشترى كل العقار حتى لا يخرج من الأسرة ، ودفع ثمنه نقداً وعداً . وودعنا ثلاثتنا أبانا في اليوم نفسه ، لكن قبل السفر لما بدا لي من عدم الإنسانية أن أترك والدأ عجوز وليس معه إلا مال قليل ، فإني حملته على أن يستعيد ألفي دوقية من الثلاثة آلاف دوقية التي تخصني ، ولقد رأيت أن الباقي يكفي لتجهيز جندي . وتأسى أخواي الآخرين بالمثل الذي قدمته فترك كل منهما له ألف دوقية ، مما أعطاه مبلغاً إضافياً قدره أربع آلاف دوقية ، فضلاً عن الثلاث آلاف التي تخصه ، وكان من العقار الذي لم يرد بيعه . وانفصلنا عنه وعن عمي ، بعد أن ذرفنا الكثير من العبرات ، ووعدنا والدي بإبلاغه بأنبائنا ، الحسنة والسيئة على السواء كلما استطعنا الى ذلك سبيلاً . منحنا بركته ، واتخذ أحدنا سبيله الى شلمنقة ، والثاني الى أشبيلية ، أما أنا فسافرت الى أليكانت حيث عرفت أن سفينة محملة بالصوف ستأخذ سبيلها الى جنوة . وقد مضى على تركي لمنزل أبي إثنان وعشرون سنة ؛ وكتبت كثيراً ، ولكنني لم ألق أبداً أية أنباء من والدي ولا من أخوي . وسأروي لكم بإيجاز ماذا جرى لي .

« ارتحلت من أليكانت فوصلت جنوة بسلام ، ومنها سافرت الى ميلانو لشراء السلاح

وكل ما يلزم الجندي . وأردت اللحاق بجيوش بيموته ، لكن لما كنت في الطريق الى اسكندرية التبن^(١) علمت أن دون ألبا الكبير كان يمر في الفلاندر . فغيرت رأيي ، ولحقت به ، واشتركت في الحرب في صفوفه . وشهدت مصرع كونت اجمونت وكونت هورن ، وكنت حامل^(٢) لواء قائد شجاع من وادي الحجارة ، اسمه ديبجو دي أربينا . وبعد مدة من وصولي الى الفلاندر علمنا بالمخالفة التي عقدها قداسة البابا بولس الخامس ، الطيب الذكر ، مع اسبانيا وجمهورية البندقية ضد العدو المشترك ، وهو الترك ، الذين استولوا بإسطولهم على جزيرة قبرص التابعة للبنداقية ، وهي خسارة مهمة أليمة . وعرف أيضاً أن دون خوان النمساوي ، الأخ الطبيعي لملكنا الطيب فيليب ، سيكون القائد العام لهذه العصابة (المخالفة) ، وأن استعدادات للحرب هائلة تجري على قدم وساق . فألهبت هذه الأنباء حماسي وشجاعتي ، وأعطتني الرغبة في الإشتراك في هذه الحملة . وعلى الرغم من أنني كنت شبه متأكد من الترقّي الى رتبة نقيب في أول فرصة ، فقد تخلّيت عن كل شيء وسافرت الى إيطاليا . ومن حسن الحظ كان دون خوان قد وصل الى جنوة منذ وقت قليل ، ومن هنا أبحر الى نابولي ، حيث ينبغي عليه أن يلحق بإسطول البنداقية ، وهو مافعله في مسينا . وأخيراً شهدت ذلك اليوم السعيد الشهير ، يوم معركة ليبانتة ، وأنا برتبة نقيب في المشاة ، التي حصلت عليها لحسن حظي لا لأني استحققتها . وفي هذا اليوم ، السعيد بالنسبة الى النصراري ، لأنه بدد الخطأ الذي خيل اليهم أن الترك لا يقهرون في البحار ، ولكن الكبرياء العثماني ترنح في ذلك اليوم ، وبين كل أولئك المحظوظين الذين يعدّ منهم أولئك الذين دفعوا حياتهم ثمناً لتعلقهم بالدين ، كنت أنا وحدي الشقي ، إذ بدلاً من أن أتلقّى اكليلاً بحرياً كما كانت الحال في زمان الرومان ، وجدت نفسي ، في الليلة التي تلت ذلك اليوم الرائع ، مقيداً بالسلاسل ، والأغلال تشد يدي وقدمي . كيف حدثت هذه المصيبة ، هذا مأساويوه لكم .

«العلج»^(٣) علي ، داي الجزائر ، وهو قرصان جسور جبار موفق ، حاصر سفينة مالطة المعقود لها القيادة ، والتي لم يبق فيها غير ثلاثة فرسان مشخّنين بالجراح . فأسرعت

(١) اسكندرية التبن : مدينة في شمال إيطاليا ، على ٧١ كم شمال شرقي تورينو ، أسستها العصابة اللومبردية سنة ١١٦٨م لمقاومة فردريك بربروسه ، وسُمّيت الاسكندرية نسبة الى البابا اسكندر الثالث . واحتقاراً لها سمّاها فردريك باسم اسكندرية التبن ، لأن أسوارها ، فيما يقال ، كانت من التبن والخشب المنطى بالطين .

(٢) الكلمة الاسبانية Alifera (الفارس) بالعربية ولكنها أخذت معنى آخر هو الذي ذكرناه .

(٣) كلمة «علج» تطلق على النصراري الذين أسلموا . وكان أصله من كلبريا في جنوب إيطاليا ، ولد بمدينة لياستلي ، لأبوين فقيرين . واشتغل أولاً بالصيد في البحر ، ثم أسره القرصان علي حامد ، وهو علج رومي أسلم .

السفينة خوان أندريا ، التي كانت عليها فرقتي ، الى نجدتها . قمت بواجبي ووثبت في السفينة المعادية ، ولكن في اللحظة نفسها ، ابتعدت هذه السفينة عن تلك التي هاجمتها ، بحيث لم يستطع جنودي اللحاق بي ، فأصبحت وحدي في وسط أعدائي ، واضطرت للتسليم أمام القوة العددية ، وأنا مشخن بالجراح . وأنتم تعلمون أن العلاج علي فرّ مع سفينته : وهكذا بقيت في حوزته ، الحزين الوحيد بين كل أولئك السعداء ، والأسير الوحيد وسط خمسة عشر ألفاً من النصاري العبيد في السفن التركية ، وقد نالوا حرّيتهم . اقتادني الى القسطنطينية ، حيث كان السلطان سليم هو قائدي العام في البحر ، لأنه أذى واجبه في المعركة ، وأحضر ، كدليل على شجاعته ، لواء مالطة . وفي السنة الثانية ، سنة ١٥٧٢ ، كنت في نوارين ، على البارجة (المصاييح الثلاثة) ، وهناك لاحظت ضياع فرصة محاصرة كل الإسطول التركي في الميناء وشل حركته ، لأنّ اللاونديين والإنكشارية الموجودين هناك كانوا مقتنعين بأنهم لابد سيهاجمونهم في الميناء نفسه الى حد أنهم كانوا متأهين بملابسهم وأحذيتهم ليستطيعوا الفرار الى البحر ، دون أن ينتظروا المعركة ، لأنهم كانوا في أشد الفزع من اسطولنا . لكن السماء قرّرت غير ذلك ، لاسبب خطأ أو إهمال قائدنا العام ، وإثماً بسبب خطايا النصاري ، ولأن الله يسمح بأن يكون ثمّ جلاّدون دائماً لعقابنا . والواقع أن العلاج علي انسحب الى مودون ، وهي جزيرة مجاورة لنوارين ، وأنزل جنوده هناك ، وحصّن مدخل الميناء ، وبقي هناك حتّى ارتحل دون خوان .

«وفي هذه الحملة استولى النصاري على البارجة المسماة «الاستيلاء» ، المعقود لواؤها لأحد أبناء الشهير خير الدين بربروسة . وكانت بارجة نابولي المسماة «الذئبة» هي التي قامت بهذا الاستيلاء ، بأمر صاعقة الحرب ، وأبي الجنود ، القائد الموفق المنصور دائماً دون البرودي باثان ، مركيز سنتا - كروث . ولا أستطيع أن أغفل ذكر ما جرى عند الاستيلاء على هذه البارجة . لقد كان ابن بربروسة قاسياً يسيء معاملة أسراه الى حد أنه حين شاهد مجذوفه أن الذئبة تتوجّه إليهم وأوشكت أن تبلعهم ، تركوا المجاذيف جميعاً ، وأمسكوا بالقائد ، وكان يقف عند المؤخرة يصيح فيهم أن يسرعوا في التجذيف ، ونقلوه من مقعد الى مقعد ، ومن المؤخرة الى المقدمة ، وعضّوه عضّات متواليات ، حتّى أنه قبل أن يصل الى السارية كانت روحه قد مضت الى الجحيم ، ذلك أنه كان شديد القسوة عليهم فكانوا يكرهونه أشد الكراهية .

«وعدنا الى القسطنطينية . وفي السنة التالية ، ١٥٧٣ ، علمنا أن دون خوان استولى على تونس من الأتراك ، وأعطاه الى مولاي حامد ، فقضى بذلك على كل أمل في عودة

مولاي حميده ، الذي كان أشجع المسلمين وأشدّهم قسوة . فتأثر السلطان الأعظم لهذه الخسارة . ولهذا استخدم الحيلة المألوفة في قومه ، واصلح من البنادقة وهم كانوا الى الصلح أشدّ توقاً . وفي السنة التالية ، سنة ١٥٧٤ ، هاجم سليم حلق^(١) الواد والحصن الذي تركه دون خوان بالقرب من تونس ولم يتم بناؤه . وفي أثناء كل هذه المصادمات ، كنت أقوم بالتجذيف ، دون أدنى أمل في استعادة حرّيتي ، على الأقل بالفدية ، لأنّي كنت مصمّماً على ألا أخبر أبي بما حل بي من مصائب .

وأخيراً تمّ الاستيلاء على حلق الواد والحصن . وقد وضع أمام هذين الموقعين خمسة وسبعون ألفاً من الجنود النظاميين ، وأكثر من أربعمئة ألف عربي ومغربي من كل افريقية ، مع ذخيرة وعدة حرب هائلتين ، وكثير من السلاية ، حتّى أنهم كانوا يستطيعون بأيديهم وحدها وحفّات من التراب أن يغطّوا الحصن وحلق الواد . واستولى على هذه أولاً ، وإن كانت قد اشتهرت بأنه لا يمكن الاستيلاء عليها . ولم يكن ذلك ذنب المدافعين عنها ، فقد قاموا بواجبهم خير قيام ، لكنّ الصدفة علّمت الأتراك سهولة تشييد خنادق على رمل الصحراء الذي كان يعثر على الماء تحته بقدمين في قديم الزمان أمّا آنذاك فلم يكن الماء يوجد على مسافة ستة أقدام . ويفضل جوات الرمل ، شيّدوا خنادق عالية سيطرت على أسوار المدينة ، ومن هناك شلّوا دفاع المحاصرين . وقد اعتاد الناس أن يقولوا أن رجالنا ماكان ينبغي عليهم أن ينحسروا في حلق الواد ، وأنه كان الأفضل لهم أن يتمسكوا بالبحر ليقاوموا نزول الأعداء . ولكنّ الذين كانوا يتكلّمون هكذا كشفوا أنهم لم يشاهدوا المواقع ، أو ليست لهم خبرة كبيرة ، لأنه لم يكن في الحصن وحلق الواد أكثر من سبعة آلاف جندي ، فكيف يتأتّى لهذه الفرقة الصغيرة أن تحارب في البر وتدافع عن الموقعين ضد جيش جزّار مثل جيش العدو ، مهما يكن من شجاعة أفرادها وتصميمهم ؟ وأي موقع هذا الذي يستطيع أن يصمد دون نجدة . خصوصاً إذا كان الذين يحاصرونه أعداء عنيدي هم أصحاب البلاد ؟ أمّا عن نفسي فمن رأيي أن الإستيلاء على حلق الواد كان منّة وفضلاً من السماء على اسبانيا ، بتخليصها من مستودع المصائب هذا ، من تلك الغولة ، أو الأسفنجة ، من هذه السوسة الناخرة التي استهلكت بغير فائدة أموال الحكومة ، دون أن تصلح إلا الى تخليد

(١) حصن ومرفأ على بعد ١٢ كم من تونس . وقد أقيم في مكان مدينة ليجولا الرومانية وسماه العرب «حلق الواد» (الوادي = النهر) ، ولهذا سماه الإيطاليون باسم Goletta وساد هذا الاسم في اللغات الأوربية ، وهو ، أعني المرفأ ، يشبه الحلق ، لأنه قناة طويلة تصل ما بين بحيرة تونس والبحر . والميناء نفسه هو قناة عرضها ١٢ متراً وعمقها ٢,٥ متراً . ولهذا لا تسمح بالمرور إلا للسفن الصغيرة .

ذكرى كارلوس كونتوس الذي لا يقهر ، كما لو كانت هذه الكتلة من الحجر ضرورية
كتخليده . واستسلم الحصن هو الآخر ، ولكن الأتراك لم يستولوا عليه إلا شبراً شبراً ، لأن
الجنود الذين كانوا يدافعون عنه استسلموا في الدفاع حتى قتلوا أكثر من خمسة وعشرين
ألفاً من جنود الأعداء ، في اثنتين وعشرين هجمة صمدوا لها . والثلاثمائة جندي الذين بقوا
في قيد الحياة لم يكن منهم أحد لم يجرح ، وهذا شاهد قاطع على شجاعتهم . واستسلم
كذلك حصن صغير ، يقع في وسط بركة^(١) ، بشروط ، وكان قائده هو دون خوان ثنوجيرا
البلنسي ، وكان محارباً جريئاً . وأسر الأعداء دون بدرو بورتوكريو ، قائد حلق الواد ،
الذي بذل كل جهد في سبيل الدفاع عن الموقع ، واستاء من ضياعه الى حد أنه مات وهو في
الطريق الى قسطنطينية حيث أودوا سوقه . وأسروا كذلك قائد الحصن ، جبريو ثرييون Ga-
brio Cervellon وهو مهندس بارع ومحارب شجاع ، وهلك في الحصن كثير من عليّة القوم
ومن بينهم باجانودريا Pagano Doria وهو فارس من طريقة القديس يوحنا ، ورجل سخي
كريم ، كما يدل على ذلك سخاؤه الكامل مع أخيه يوحنا أندريا دوريا الشهير .

«وأشد ما يحزن في هذا الأمر هو أنه هلك على يد بعض العرب الذين وثق بهم لما أن
رأى الحصن سيضيع ، وقد عرضوا عليه في أن يقتادوه في زي مغربي الى طبرقه ، وهو ميناء
صغير يحتله أهل جنوة على الساحل ، ويشغلون فيه بصيد المرجان . احتز هؤلاء العرب
رأسه وحملوه الى قائد الجيش التركي ، الذي حقق بالنسبة اليهم مايقوله المثل الاسباني وهو
أن الخيانة تسر ، ولكن الخائن في فزع ، لأنه أمر بشنقهم ، بدعوى أنهم لم يأتوا به حياً !
ومن بين النصارى الذين أسروا رجل يدعى دون بدرو دي أجيلار الذي ولد في مكان ما
بالأندلس ، وكان حامل العلم في الحصن ، وجندياً شجاعاً ذا ذكاء نادر ، وقريحة خاصة
فيما يسمى بالشعر ، وأنا أعلم ذلك ، لأن الحظ ساقه الى بارجتي وعند مقعدي ، وكنا
عبدین لسيد واحد وقبل أن يغادر الميناء نظم سوناتتين يرثي فيهما حلق الواد والحصن
الأخر . وبودي أن أنشدهما لكم ، لأنني أحفظهما عن ظهر قلب وأعتقد أنهما
سيعجبانكم» .

وفي اللحظة التي ذكر فيها الأسير اسم دون بدرو دي أجيلار ، تطلع دون فرنندو في
أصحابه : وأخذ الثلاثة في الابتسام ، وقال أحدهم للأسير : « قبل كل شيء ، أرجو أن تقول

(١) ماينته لربانتس هنا بأنه بركة كان ميناء قرطاجنة القديم ، وفي وسط هذه البركة ، كان يقوم برج عتيق شيد منه سربيون قلعة .
وقد استسلم ثنوجيرا بشرط أن يطلق سراحه هو والحامية . ولكن سنان ، قائد جيش البر ، أنزل هذا الشرط الى خمسين جندياً هم
الذين يطلق سراحهم .

لي ماذا آل إليه أمر دون بدرو دي أجيلار هذا الذي تتحدث عنه . فأجاب الأسير : كل ما أعرفه أنه بعد مضي عامين من إقامته في القسطنطينية ، هرب في زي ألباني ، مع جاسوس يوناني . ولأدري إن كان قد استرد حريته ، ولكنني أميل إلى اعتقاد ذلك ، لأنني ، في العام التالي ، شاهدت ذلك اليوناني في القسطنطينية ، ولكنني لم أستطع أن أسأله عن أخبار رحلتهما . - فقال الرجل : « إنه حر . إن دون بدرو هذا هو أخي ، وهو الآن في بلادنا ، سليم معافى ، غني ، متزوج ، وأب لثلاثة أولاد » . - فقال الأسير : « الحمد لله . لأعتقد أن ثم على الأرض سعادة أعظم من استعادة الحرية المفقودة » . فقال الرجل : « وأنا أعرف السوناتتين اللذين نظمها أخي » . فقال الأسير : « انشدهما اذن من فضلك ، فأنت أقدر على ذلك مني » فقال الرجل : عن طيب خاطر . ها هي ذي سوناتة حلق الواد :

الفصل الأربعون

تلاوة تاريخ الأسير

« أيتها الأرواح الراضية ، يامن تحرّرت ، بأفعالكم الجميلة ، من العشاء الفاني ، لقد ارتفعت من حقارة الأرض الى أعلى عليين في السماء ،
 « يامن مارستم قوة أبدانكم ، تشيع فيكم الحمية والحماسة النبيلة ، يامن صنعتهم بالحمرة ، حمرة دمكم ودم الآخرين ، أمواج البحر ورمال الساحل .
 « أعوزتكم الحياة ، ولكن لم تعوزكم الشجاعة التي شاعت في سواعدكم المجدة ، التي ظفرت بالنصر وإن ماتت وقهرت ،
 « وهذا الوقوع الكئيب القاتل ، بين الجدار والحديد ، جعلكم تستحقّون الشهرة التي تعطيتها الدنيا ، والمجد في السماء » .
 فقال الأسير ، نعم أنا أحفظها كذلك فعلاً .
 فقال الرجل (صاحب فرندو) ، وإذا لم تخني الذاكرة فهذه هي سوناتة الحصن ،
 « من هذا التراب العقيم المثار ، ومن أنقاض هذه الأبراج المتداعية ، صعدت الأرواح المقدسة لثلاثة آلاف جندي ، صعدت حيّة الى مقام أرفع وأفضل ،
 « لقد بذلوا في غير طائل قوة سواعدهم الشجاعة الى أن غلبوا على أمرهم وقتل عددهم فأسلموا الحياة على ظبابة السيوف .
 « وهاهنا الأرض التي ملئت دائماً بآلاف الذكريات الأليمة ، في القرون الماضية كما في القرن الحالي » .
 « لكن لم تصعد الى السماء من حصن هذه الأرض الخشنة أرواح أعدل ، ولم تحمل هذه الأرض أجساماً أشجع » .
 ولم يجد القوم هاتين السوناتتين ردينتين ، وسرّ الأسير بمعرفة هذه الأنباء عن

رفيقه ، واستمر يقول :

«وبعد استسلام الحصن وحلق الواد ، أمر الأتراك بتهديم هذه ، لأنه فيما يتعلّق بالحصن كان الحصن على حال لا يحتاج معها الى زيادة تخريب . ولإنجاز العملية بسرعة وضعت ألغام في حلق الواد في ثلاثة مواضع ، لكن على الرغم من كل مابذل من مجهودات لم يتمكنوا حتى من تهديم الأسوار القديمة التي بدت أضعف الأجزاء . أما التحصينات الجديدة التي أمر بتشبيدها فراتين ، فقد هدمت في لحظات . وأخيراً عاد الأسطول التركي ظافراً منصوراً الى القسطنطينية ، وبعد وقت قصير مات سيدي علي ، الذي كان يسمّى عادة باسم العليج علي فرتكس ، ومعنى هذا باللغة التركية المرتد الأجرب . وكان كذلك فعلاً ، ومن عادة الترك أن يلقّبوا الناس بألقاب مأخوذة أما من عيب فيه أو مزّة ، لأنه ليس لديهم غير أربعة أسماء أسر مختلفة بين المنحدرين من بيت آل عثمان : وكل الباقيين يطلق عليهم ، كما قلت ، ألقاب تدل على عاهات في الجسم أو صفات في النفس .

«وكان العليج علي طوال أربعة عشرة سنة عبداً للسلطان الأعظم ، يجذف مثلي . ولما بلغ الرابعة والثلاثين من عمره تحول عن دينه ، لمّا أن خدعه تركي ، واعتنق الإسلام لينتقم لنفسه . وتميّز بشجاعته الفائقة حتى صار ملكاً (داي) على الجزائر ، دون أن يمر بالمراتب الوسطى التي اعتاد أن يشغلها محاسيب السلطان ، ثم صار أمير البحر ، وهو ثالث منصب في الدولة . وكان مولده في كلبريا ، وكان رجلاً طيباً ، يعامل عبيده بإنسانية بالغة ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ، وزّعوا بعد موته ، وفقاً لوصيّته ، بين إنكشارية . والسلطان الأعظم الذي هو وارث كل الذين يموتون يشارك في الميراث أبناء المتوفى . أما أنا فكنت من نصيب أحد البنادقة ، وكان من قبل ملاحاً ، ومن أقرب المقرّبين الى العليج علي الذي أسره في البحر ، وكان أقسى إنكشاري وجد . وكان اسمه حسن أغا ، وصار غنياً جداً ، وعيّن ملكاً (داي) على الجزائر . وتبعته في دولته ، مفتبطاً بالإقتراب من اسبانيا ، لا لأني كنت أنوي أن اكتب الى أحد ، ولكن على أمل أن يواتيني الحظ أكثر مما كان حظي في القسطنطينية ، حيث حاولت الفرار آلاف المرات دون أن أفلح في ذلك . وقررت القيام بمحاولات أخرى للفرار وأنا في الجزائر ، لأنني لم أياس أبداً من استرداد حريتي ، ولمّا لم تنجح الخطة التي دبرتها لم أياس بل نصّبت مدافع أخرى ، وهددت نفسي بأمال جديدة ، وإن كانت ضعيفة أو مبنية على شفا جرف هار . ومع ذلك أمضيت حياتي داخل سجن يسمّيه الأتراك باسم «البنية» . فيه يعتقل العبيد النصارى ، سواء أكانوا عبيد الملك (الداي) أم عبيد أفراد الناس أم من يقرّرون للأعمال العامة . أمّا الأخيرون فمن

الصعب أن يستردوا حريتهم ، لأنهم لما كانوا يخدمون الجميع ، وليس لهم سادة مخصوصون ، فإنهم لا يعرفون لمن يقدمون الفدية إن كان معهم ما يدفعونه . وفي هذه السجون يضع بعض أفراد الناس ، كما قلت ، عبيدهم ، خصوصاً أولئك الذين تمكنهم أحوالهم من إفتداء أنفسهم ، لأنهم يكونون هناك في أمان حتى تصل فدياتهم . وعبيد الملك (الداي) الذين ينتظرون الفداء من الأسر لا يعملون مع باقي العبيد ، اللهم إلا إذا تأخر وصول الفدية ، إذ لحقهم على الكتابة باهتمام أكبر إلى أوطانهم يرسلون إلى الغاب مع الباقين ، وهو تعب ليس بالقليل . وقد وضعوني بين أولئك ، لما أن عرفوا أنني برتبة نقيب ، وإن كنت قد بيّنت لهم أنه لا مال عندي للفدية . والسلسلة التي قيدوني بها كانت علامة فدية مقبلة أولى من أن تكون علامة عبودية ، وهكذا قضيت حياتي في هذا السجن ، بين الفرسان وعلية الناس المنتظر فداؤهم بالمال ، وعلى الرغم من أن الجوع والحرمان عذاباً كثيراً مراراً ، ففي وسعي أن أقول دائماً أنه لم يحزننا شيء ، قدر أن نكون شهوداً على قساوات لم يسمع بمثلها ، كان سيدي يسومها للنصارى ، فلم يمض يوم دون أن يشنق أو يخوزق بعضهم ، أو على الأقل يقطع آذانهم ، وهذا كله لأسباب تافهة جداً حتى أن الأتراك أنفسهم كانوا مضطرين إلى أن يقولوا أنه في فعله هذا إنما كان ينساق وراء مزاجه الدموي . ولكن جندياً إسبانياً واحداً اسمه سابدر^(١) ، استطاع أن يغيظ هذا الرجل القاسي ، فقام ، من أجل استرداد حريته ، بأعمال ظل الأتراك يذكرونها زمناً طويلاً ، فلم يضربه حسن أغا أية ضربة ولم يأمر بضربه أبداً ، ولم يقل له أبداً كلمة خشنة . وكنا نخشى في كل لحظة أن يخوزق هذا الجندي (سابدر) ، وهو نفسه خشى ذلك أكثر من مرة ، ولو كان لدي متسع من الوقت لرويت لكم بعض أعماله الشجاعة الباسلة التي ستدهشكم وتشوقكم أكثر من تاريخي أنا .

« كانت تطل على فناء سجننا نوافذ خلفية لمنزل مغربي ثري . ووفقاً لعادات هذه البلاد لم تكن النوافذ غير طاقات ضيقة عليها مشربيات غليظة ضيقة الخروق . وذات يوم كنت على السطح أترقب على القفز مع ثلاثة من رفاقي ، وكان الباقون جميعاً في الشغل ، فرفعت بصري صدفة إلى تلك النوافذ فلمحت عصا على طرفها علقت قطعة قماش وكانت هذه العصا

(١) سابدر ، هو ثريانتس نفسه ، فاسمه الكامل هو ميغيل ثريانتس سابدر ، ولم يشأ أن يغفل ذكر بعض منامراته ، أما الأسير ، بطل هذا التاريخ ، فهو النقيب روي بيرت دي بيدما ، زميل ثريانتس في الأسر ، وكان هو الآخر عبداً لحسن أغا ، وحسن أغا أصله من البندقية وأخذ أسيراً ، وكان اسمه اندريتا ، وكان يعمل موثقاً على إحدى السفن ثم أسر ، وأسلم ، وصار أمين خزانة العلاج علي ، وقد صار والياً (باشا) على الجزائر مرتين ، والياً على طرابلس الغرب ، وأميراً للبحر ، ومات مسموماً .

تتحرك كما لو قصد بها الى دعوتنا الى التقاطها . وعند هذا المنظر وضع أحدنا نفسه تحت العصا حتى يرى إن كانت ستترك تسقط ، لكنها رفعت وحركت ذات اليمين وذات الشمال ، كحركة الرأس حين يريد المرء أن يقول : لا . فعاد العبد إلينا ، فخفضت العصا من جديد . فتقدم أحد رفاقنا لكن لم يفلح هو الآخر ، كذلك الثالث لم يكن أسعد حظاً . وحاولت بدوري أن أجرب حظي ولم أكد أقترّب من العصا حتى تركوها : وسقطت عند قدمي في السجن . فأسرعت لحل قطعة القماش ، فوجدت فيها عشرة جنيهاً Gianis ، وهي قطع صغيرة ذهبية من النقود المتداولة عند المغاربة ، وتساوي عشرة ريالات . ولاتسأل عن شدة سروري بهذه النجدة ، خصوصاً وقد بدا من الواضح أنها موجهة الى شخصي أنا ، إذ لم يرد ترك العصا للآخرين . فاحتفظت بالنقود ، وكسرت العصا ، وعدت الى السطح ، وأخذت أطلع في المشربية : فرأيت منها يداً بيضاء كل البياض خرجت منها فتحت النافذة ثم أغلقتها في الحال .

« فاستنتجنا في الحال أن امرأة من هذا البيت قد جاءت علينا بهذا المبلغ . وللدرد عليها حينئذ على طريقة المغاربة ، خافضين الرأس ثانيين الجسم مخالفين بين الذراعين على الصدر . وبعد وقت قصير ، أظهر من النافذة نفسها ، صليباً صغيراً من اليراع سرعان ما سحب ، مما أكد لنا أن في هذا البيت نصرانية عبدة ، وأنها هي التي جادت علينا بهذا الخير . بيد أن بياض يدها الناصع ، والسوار الذي لمحنه في معصمها جعلنا نظن فيما بعد أنها لابد أن تكون نصرانية اهتدت الى الإسلام واتخذها سيدها زوجة شرعية له : لأن القوم يقدرون هؤلاء النسوة أكثر من تقديرهم لسيدات بلادهم . ولكننا أخطأنا في كل تقديراتنا ، كما ستعرفون بعد قليل . ومنذ هذه اللحظة واهتمامنا الوحيد هو التطلع الى النافذة التي ظهرت منها العصا السعيدة : لقد كانت بوصلتنا : فلم تصرف أنظارنا إلا إليها . ومضى ما يقرب من خمسة عشر يوماً دون أن نرى اليد ولا أية علامة أو إشارة : ومن كل المعلومات التي جمعناها لمعرفة هل تسكن في هذا البيت نصرانية أسلمت كل ما استطعنا معرفته هو أنه يقطن في هذا البيت مغربي (مسلم) اسمه الحاج مراد الذي كان والياً على a Pata^(١) ، وهو منصب من أرفع المناصب في هذا الإقليم . وذات يوم ومن حيث لا تتوقع ، وكنا وحدنا كما في المرة الأولى ، شاهدنا ظهور عصا عليها منديل بدا أشد إبتهاجاً . فاستأنفنا التجربة ، ولم تترك العصا إلا لي أنا .

(١) حصن على مسافة لرسخين من وهران .

وحللت العقدة فوجدت أربعين قطعة ذهبية إسبانية ، ورسالة باللغة العربية ، في أسفلها رسم صليب كبير . فقبلت الصليب ، وأخذت النقود ، وعدت الى السطح : وحييت بتحياتنا ، وشاهدت اليد تظهر ، وأشرت إشارة أنني سأقرأ الرسالة ، ثم أغلقت النافذة . وكنا راضيين عن حسن حفظنا ومدعوشين في وقت واحد ، لكن لم يكن بيننا واحد يعرف العربية ، وكنا مع ذلك في لهفة شديدة لمعرفة ماهو مكتوب في الرسالة : فكانت الصعوبة الكبرى هي في العثور على من يقرأها لنا . وأخيراً قرّرت أن أوكل الأمر الى مهتد الى الإسلام من مرسية كان يظهر لي كثيراً من إمارات الصداقة ، وكانت علاقتي معه ترغمه على الاحتفاظ بالسر الذي أردت أن أفضي به اليه . ذلك أن المهتدين الى الاسلام الذين يريدون العودة الى ديار النصرانية كان من عادتهم أن يحصلوا ، من العبيد الممتازين ، على شهادات بأنهم ناس طيبون ، وأنهم حاربوا النصارى ورغبوا في الفرار لدى أول فرصة . ومن بين هؤلاء المهتدين ، البعض يسعى للحصول على هذه الشهادات لأغراض نزيهة حميدة ، والبعض الآخر يستغلونها في تجارة آثمة ، لأنهم حين يذهبون للقرصنة في بلاد النصارى فإنهم إذا أخذوا أسرى أبرزوا هذه الشهادات ليثبتوا ، فيما يقولون ، أنهم إنما جاءوا ليلجأوا الى النصارى ، ومن أجل هذا لحقوا بالترك في مغامراتهم ، وبهذه الوسيلة يتلافون الخطر الأول ، ويتصالحون مع الكنيسة ، دون أن يقع لهم أي ضرر ، ثم إذا سنحت الفرصة عادوا الى بلاد الاسلام ليستأنفوا صناعتهم الأولى . والمهتدى الذي قد تحدثت عنه كان قد حصل من كل زملائي على شهادات مماثلة ، مستوفاة ، ولو وجد المسلمون معه هذه الأوراق لأحرقوه حياً . وكنت أعلم أنه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة . لكن قبل أن أفضي اليه بدخيلة أمري طلبت اليه فقط أن يقرأ عليّ هذه الورقة التي عثرت عليها في زاوية من غرفتي . فضّ الرسالة ، وتفحصها زمناً ، وهو يتمتم بين أسنانه . فسألته هل فهمها . فأجاب : « فهمتها تماماً ، وإذا أردت أن أترجمها لك حرفياً ، فأتني بقلم وحبر » فأعطيته ما طلب ، وترجم الرسالة في وقت قصير وقال لي : « هذا هو ما فيها بالدقة . لكن عليّ أن أنبّهك الى أنه حيث توجد هاتان الكلمتان ، للا مريم ، فاعلم أن معناهما هو سيّدتنا العذراء مريم » . وهذا فحوى الرسالة :

« لما كنت بنتاً صغيرة ، كان لأبي جارية علّمتني بلغتي الصلاة المسيحية ، وحدثتني كثيراً عن اللامريم . وماتت هذه الجارية وإني لأعلم تمام العلم أنها لم تذهب الى النار ، بل عند الله ، لأنني رأيته بعد ذلك مرتين ، وقالت لي اذهبي الى بلاد النصارى ، لتري للا مريم التي تحبني كثيراً . لكنني لأدري كيف يتم هذا ، لقد شاهدت من هذه النافذة الكثيرين من

النصارى ، لكن لم يبد لي أحد منهم فارساً إلا أنت . إني شابة رائعة الجمال ، وأستطيع أن آخذ معي كثيراً من المال . فانظر هل تستطيع أن تأخذني الى هناك ، وستكون أنت لي زوجاً ، إذا شئت ، وإن لم تشأ ، فلن يشق عليّ هذا ، لأنّ لماريم ستستطيع أن تهني زوجاً . إني أنا التي أكتب اليك ، لاثق بأي مغربي : فسيخدعونك جميعاً . وهذا يشير همومي . وأريد منك ألا تفضي بالسر الى أحد من الناس : لأنه لو عرف هذا والدي ، لألقى بي في بئر وملأه بالحجارة . وسأضع خيطاً في العصا حتى تستطيع أن تربط فيها جوابك . فإن لم تستطع الكتابة بالعربية ، فخطبني بالإشارات ، وللا مريم ستجعلني أفهمك . حفظتك وحفظك الله ، وهذا الصليب الذي أقبله مراراً ، كما أوصتني بذلك الأسيرة» .

« احكموا أنتم ياسادتي ، أي دهشة وأي سرور غمرتنا بهما هذه الرسالة! ولهذا أدرك المهتدي (الذي قرأ له الرسالة) بسهولة أن الصدفة ليست هي التي جعلته يحصل على هذه الرسالة ، بل هي موجهة الى واحد منا بالذات . فاستحلفنا أن نثق بكتمانه ، وقال أنه مستعد لتعريض حياته للفناء من أجل أن يحصل على حريتنا ، وانتزع ، وهو يقول هذه الكلمات ، صلياً صغيراً من المعدن كان في صدره ، وسفح الكثير من العبرات ، وأقسم بالله الذي رآه مرسوماً عليه ، وفيه يضع كل ثقة ، رغم كفره وخطايا ، أن يحافظ على السر في كل ما يريد أن نفضي به اليه : لأنه بدا له ، كما قال ، أنه عن طريق من كتبت هذه الرسالة ، نستطيع أن نسترد حريتنا ، وأن يحقق هو خصوصاً ، رغبته الشديدة في أن يعود الى حضن الكنيسة المقدسة أمنا ، الذي انفصل عنها كعضو أصابته الغنغرينة من جراء الجهل والخطيئة . وبكى طويلاً ، وكشف عن رغبته في التوبة الصادقة حتى أننا ، نحن الأربعة ، باتفاق وإجماع ، قررنا الثقة به . فكشفنا له عن كل شيء ، وأريناه النافذة التي ظهرت منها العصا . فتفحص البيت بإمعان ، ووجد بأن يكتشف من يسكن فيه . ثم تبأحثنا في أمر الجواب عن رسالة المغربية المحسنة ، فعرض المهتدي في الحال أن يكتب الجواب فأمليته عليه بالصيغة التالية ، لأن جميع ظروف رقي لن تمحى أبداً من ذاكرتي» .

« حفظك الله الحق ياسيدتي ، وحفظتك مريم الطوباوية ، أم الرب الحقيقية ، إنها هي التي تلهمك خطتك الكريمة في الذهاب الى بلاد النصارى ، لأنها تحبك كثيراً . فادعها كي تعرفك الوسائل الى تحقيق ذلك ، إنها طيبة وستفعل ذلك لك . أمّا عن نفسي وبالنيابة عن كل النصارى الذين معي ، فإني أعرض عليك أن نعمل من أجلك كل ما يتوقف علينا ، حتى لو كان في ذلك تعريض حياتنا للخطر . لاتكفي عن الكتابة إليّ وإبائني بخططك ، وسأرد عليك دائماً ، لأن الله العظيم قد هيا لنا مساعدة نصراني عبد يعرف الكتابة

والقراءة بلغتك ، كما سترين من هذه الرسالة . وهكذا ، دون أن تخشي شيئاً ، تستطيعين أن تبغيني كل ما تبغين . أمّا عن عرضك على الزواج حين نصبح في مكان أمين ، فإني أوافق عليه كمسيحي صحيح الإيمان ، وسترين أنّ النصراني أصدق قولاً . وليكلاك الله وللا مريم أمه بعنايتهما » .

« ولما كتبت الرسالة وأغلقت مز يومان قبل أن نصبح وحدثنا . هنالك صعدت الى السطح ، لأرى هل تظهر العصا ، ولم أنتظر طويلاً . ولما شاهدتها وإن كنت لم أميز أحداً ، أظهرت الورقة ، لكي أدل على أن تضع الخيط ، لكنه كان في العصا فعلاً . وربطت الرسالة ، وتلقيت الرسالة وبعد وقت قصير ظهر نجمنا ومعها المنديل المعقود ، وكأنه راية السلام حقاً . فوجدت فيه نقوداً من الذهب والفضة قيمتها أكثر من خمسين اسكودو ، مما ضاعف سرورنا وأملنا خمسين مرة . وفي الليلة نفسها عاد المهتدي وأيد معارفنا من قبل وهو أنّ البيت يقطن فيه المغربي الحاج مراد^(١) وهو رجل في غاية الثراء ليست له غير بنت واحدة ، وهي وريثة كل أملاكه ، ويعدها كل أهل المدينة أجمل فتاة في المغرب ، وأنّ الكثير من الولاة طلبوا يدها ، لكنّها لم تشأ الزواج أبداً . وعرف أيضاً أنه كان عند هذا الغني جارية نصرانية توفيت ، وكل هذه التفاصيل كانت مثقفة كل الاتفاق مع ماورد في رسالتها إلينا . فتشاورنا الرأي فيما بيننا ومعنا المهتدي ، لنهتدي الى الوسيلة التي بها يمكن إنقاذ المغربية والذهاب بها الى بلاد النصراني ، وأخيراً قرّرنا أن ننتظر تعليمات جديدة من ثريا^(٢) (وهذا هو اسم من تريد اليوم أن تسمي ماري) ، لأننا أدركنا أنه يتوقّف عليها وحدها حل آلاف الصعوبات . ولكنّ المهتدي شجّعنا ، وكرّر أنه إمّا أن يضيق حياته أو يصل الى تخليصنا . وطوال أربعة أيّام كان السجن مليئاً بالناس ، مما كان السبب في أنّنا لم نشاهد العصا . وأخيراً ظهرت وفيها منديل كان من الإنتفاخ بحيث وعدنا بخاتمة سعيدة . لقد وجدت فيه مائة اسكودو من الذهب ورسالة

(١) الحاج مراد : ليس من اختراع ثربانتس ، وإن كانت الحكاية الترابية التالية كلها أو بعضها مخترع . وإنّما وجد فعلاً مملوك غني جداً في الجزائر بهذا الاسم في القائمة التي أوردها ديجو دي هايدو والتي تشمل كبار المسلمين الذين كانوا يعيشون في الجزائر سنة ١٥٨١م (راجع كتاب Topograh الفصل ١٤) . كما ذكر في الفصل ٢٩ من بين أجمل المنازل الخاصة في الجزائر بيت الحاج مراد المملوك الذي أسلم .

(٢) رسم هذا الاسم في الأصل هو Zornida .

ويرى اجيلات أن أصله العربي هو ثريا ، بينما يرى بول رافيس (في مقالاته عن «الكلمات العربية والاسبانية الموريسكية» ، في مجلة اللغويات والفيلولوجيا المقارنة سنة ١٩٠٧ - ١٩١٤) أنه «دريدة» تصغير دريد . ولكنّا لم نشر على هذا التصغير اسم علم على امرأة . ولهذا أخذنا برأي اجيلات Eguiluz .

جديدة . وفي هذه اللحظة كان المهتدي معنا ، وقرأ لنا الرسالة ، وهذا نصها :

« لست أدري ياسيدي ، ماذا نعمل للفرار الى اسبانيا ، إنّ للامريم لم تخبرني ، وأني سألتها ذلك مرّات . كل ما أتصوّره أن ألقى إليك من هذه النافذة بالكثير من الذهب ، الذي به تفتدي نفسك من الأسر ، أنت وأصدقائك . ويذهب أحدهم الى بلاد النصارى ، ويشترى سفينة ثم يعود لأخذ الباقيين . أمّا أنا فستجدوني في بستان أبي عند باب^(١) الضأن Bab-azon على ساحل البحر حيث أمضي الصيف مع والدي وعبيده . وستستطيع حينئذ أن تأخذني في الليل وتقتادني الى السفينة . لكن تذكر أنّك وعدتني بالزواج منك ، لأنك إذا أخلفت وعدك طلبت من للا مريم أن تعاقبك . أمّا إذا لم تثق بأحد لشراء السفينة فاقدر نفسك أنت ، واذهب بنفسك ، وأنا متأكدة أنك ستعود ، لأنك فارس ومسيحي تقي . فاستعلم عن المكان الذي فيه البستان ، وإذا تريّضت هنا فاعلم أنه لأحد في السجن ، وسأعطيك مالا وفيرا . وفي رعاية الله يا سيدي » .

« وبعد قراءة هذه الرسالة ، تطوّع كل واحد ليفتدي نفسه من الأسر واعدأ بالعودة في الميعاد . وتطوّعت أنا ، لكنّ المهتدي عارض في ذلك بشدة ، قائلاً على أنه لن يوافق على أن يفتدى واحداً ويخرج إلا إذا أذى الكل ، وأنّ التجربة علّمته أنّ قليلين جداً من الذين استردّوا جزيّتهم وفوا بالعهود التي قطعوها لمّا كانوا عبيداً ، وإنّ كثيراً من الأسارى البارزين قد استخدموا هذه الوسيلة ، فاقتادوا واحداً منهم للذهاب الى بلنسية أو ميورقة . ليجهّز سفينته ، ويعود ليأخذ الباقيين ، ولكن لم يعد منهم أحد لأنّ الفرحة باسترداد الحرّية ، مقرونة بالخوف من فقدانها ، انتزعت من ذاكرتهم كل الالتزامات التي تعهّدوا بها .

ولتأييد رأيه هذا روى لنا حادثاً وقع من وقت قريب لفرسان نصارى هو أعجب حادث عرف في بلد يجري فيه الكثير من العجائب . وأخيراً قال لنا أن أنسب شيء هو أنّ المال الذي كان يستخدم في دفع فدية واحد منهم ، يعطى له هو لشراء سفينة في الجزائر نفسها ، بدعوى القيام بالتجارة بين تطوان ومدن الساحل ، ولما كان هؤلاء صياحب السفينة فيسكون من السهل عليه إخراجهم من السجن واقتيادهم الى ظهر السفينة ، وأنّه لو أعطت المغربية كل المال التي وعدت به لافتدائهم جميعاً ، لكان أسهل عليه جداً أن يبحر في راحة النهار ، لأنهم سيكونوا جميعاً أحرار . والصعوبة الوحيدة هي أن المغاربة

(١) باب الضأن : أحد أبواب مدينة الجزائر التسعة ، وكان فعلاً بالقرب من الميناء .

لايسمحون ابدأ للمهتدين أن يشتروا سفناً أو أن يشغلوها ، بل يسمحون لهم فقط ببوارج عظيمة مسلحة تقوم بالخدمة ، خوفاً من أنهم لو اشتروا سفناً ، خصوصاً إذا كانوا من الاسبان فإنهم سيستخدمونها في الذهاب الى بلاد النصارى . لكنّ صاحبنا المهدي هذا رأى أن يمكن علاج هذه المشكلة بإشراك مغربي ثغري^(١) في ملكية السفينة وأرباح التجارة ، وبهذه الحيلة تكون السفينة تحت تصرفه ، ويمكنه حينئذ أن ينفذ كل ما وعدنا به .

وقد بدا لي ولأصحابي أن الأضمن هو أن نبعث في شراء سفينة من ميورقة ، كما نصحتني المورسكية ، لكننا لم نستطع مناقضة المهدي خوفاً من أننا لو عارضناه لكشف تواطؤنا مع ثريا وعرض حياتنا وحياتها للخطر ، وهي التي من أجلها كنا على استعداد للتضحية بنا جميعاً . فقرّرنا إذن أن نضع مصيرنا بين يدي الله وهذا الرجل . وجعلته يكتب الى ثريا أننا سنفعل كل ماتأمر به ، وأنّ نصائحها سديدة كما لوجاءت من للا مريم نفسها ، وأنّ عليها وحدها يتوقف تأجيل المحاولة أو تنفيذها فوراً .

وعرضت عليها من جديد أن أتزوّجها . وفي اليوم التالي شاهدتنا وحدنا فأعطتني على دفعات ، بواسطة العصا ، ألفي اسكودو من الذهب ، ومعها ورقة تقول فيها أنه في يوم الجمعة التالي ستغدو الى بستان أبيها ، ولكنّها ستعطينا قبل ذلك نقوداً أخرى ، فإن لم يكف كل هذا المال ، أخبرناها ، وستعطينا كل مانريده ، لأن أباهما عنده من النقود الكثير جداً بحيث لن ينتبه لشيء ، وهي من ناحية أخرى معها مفتاح كل شيء . فأعطيت حالاً خمسمائة اسكودو للمهدي لشراء السفينة . وبثمانمائة أخرى دفعت ثمن فديتي ، أعطيتها الى تاجر بلنسي كان موجوداً في الجزائر وهو افتداني من الملك (الداي) على وعد أن يدفع مبلغ الفدية حين تصل أول سفينة من بلاده . وكنت مضطراً الى التصرف على هذا النحو ، لأنه لو دفع المبلغ فوراً لاشتبه في أنّ المبلغ كان معه منذ مدة طويلة في المدينة واحتفظ به بين يديه لاستغلاله ، ولقد كان الملك وهو سيدي ، سيئ الظن الى حد أنني لم أجرو على إيصال المبلغ اليه فوراً ، وعشية يوم الجمعة أعطتني ثريا ألف اسكودو أخرى وأنباتني برحيلها ، وأوصتني ، حين أفتردي نفسي ، بالاستعلام عن منزل أبيها والسعي لرؤيتها . فأجبتها بعبارات موجزة أنني سأفعل ذلك ، وعليها أن توجه دعواتها الى للا مريم كما علّمتها الجارية . وبعد هذا عملت على افتداء أصحابي الثلاثة من الأسر

(١) ثغري ، يسكن الثغور ، وانتقلت الكلمة العربية الى الاسبانية في ذلك المصردللدلالة على المسلمين الذين كانوا على الثغور في أرغون وبلنسية وتطلونيا ، أما الذين كانوا في غرناطة والأندلس فأطلق عليهم اسم «المدجنون» أي دافعو الجزية للنصارى .

لتسهيل خروجنا من السجن ، وخوفاً من أنهم قد رأوني أفتدى من دونهم وهم يعلمون أن معي مالاً - قد يستبدّ بهم القلق ، ويوسوس الشيطان فكرة الإضرار بشريا . صحيح أن أخلاقهم كانت تجعلني أثق فيهم ، لكن على الرغم من ذلك فإني لم أشأ أن أضع نفسي تحت رحمة الصدف . فعملت إذن على اقتدائهم الطريقة نفسها التي استعملتها بالنسبة الى نفسي وأعطيت كل المبلغ اللازم الى التاجر البلنسي كي يستطيع أن يدفع فدياتهم بكل أمان ، دون أن أكشف له سري ، وإلا لكان في ذلك خطر عظيم .

الفصل الحادي والأربعون

تلاوة تاريخ الأسير

وقبل مضي خمسة عشرة يوماً ، كان المهدي قد اشترى سفينة تكفي لحمل ثلاثين شخصاً ، ولإبعاد كل شبهة ، سافر الى شرشال^(١) ، وهي تبعد عشرين فرسخاً عن الجزائر ، من ناحية وهران ، وفيها تجارة واسعة بالتين المجفف . وقام بهذه السفرة ثلاث مرّات ، بصحبة المغربي الذي ذكرته ، وفي بلاد المغرب يطلق اسم « الثفريون » Tagarinos على مسلمي أرغون ، أمّا مسلمو غرناطة فيطلق عليهم اسم « المذجنين » Mudejares ويسمى هؤلاء الأخيرون باسم « العلوج » Elches في مملكة فاس ، ومعظم جنود الملك (السلطان) منهم . وفي كلّ مرة كان المهدي يمر فيها بسفينته كان يلقي مراسيه في جون صغير على مسافة طلقتي بندقية من بستان ثريا ، وهناك كان يؤدي الصلاة مع ملاحيه المغاربة أو يجرب ، وكأنه يمثل ، الخطة التي فكّر في تنفيذها ، بل كان يذهب أحياناً الى البستان ليطلب فاكهة ، وكان والد ثريا يأمر بإعطائه وهو لايعرفه ، وسعى لرؤية الفتاة ، كما صرح لي فيما بعد ، كي يقول لها إنه هو الذي اخترته أنا لاقتيادها الى بلاد النصارى ، وأنّ عليها ألا تخشى شيئاً ، لكنه لم يفلح في هذا لأن المرأة المغربية لا تسمح لمغربي أو تركي (لمسلم) برؤيتها إلا إذا أذن لها بذلك أبوها أو زوجها .

أمّا العبيد النصارى فكّن يرينهم عن طيب خاطر ، بل أكثر مما ينبغي أمّا عن نفسي فما كنت لأرضى أن يتحدث اليها ، وإلا لكأنت قد فزعت من رؤية مصيرها بين يدي أمثاله . لكن الله الذي قدر غير ذلك ، لم يأذن له بلقائها . ولما رأى المهدي بأية سهولة كان يغدو ويروح وأنه كان يلقي مراسيه حيث أراد ، وأنّ الثفري شريكه قد صار

(١) أقام خير الدين بربروسة ميناء في شرشال سنة ١٥٢١ ، إذ رأى فيها مرفأً طبيعي أمين ، يمكن الدفاع عنه بسهولة .

طوع إرادته ، وأني قد أفديت من الأسر ولم ينقصنا بعد غير بعض النصارى الذين يحسنون التجديف ، قال لي اختر من تريد أن يأتوا معنا ، فضلاً عن رفاقي الثلاثة ، وأن أنبه عليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد ليوم الجمعة المقبل وهو اليوم الذي حدد لرحيلنا . ففاتحت في الأمر إحدى عشر إسبانياً ، من المجذفين الأشداء الذين يستطيعون الخروج بسهولة من المدينة . وكان ذلك مصدر سعادة بالغة عندي أن أجد مثل هذا العدد في هذه المناسبة لأن عشرين سفينة قد خرجت للسفر وحملت معها كل المجذفين ، وما كان في استطاعتي الظفر بهؤلاء لولا أن رئيسهم كان قد بقي في المدينة لإتمام بارجة كانت تبني ، مما منعه من السفر هذا الصيف . ولم أقل لهؤلاء الرجال أكثر من أن يخرجوا من المدينة واحداً إثر واحد يوم الجمعة القادم في المساء دون أن يظهر عليهم أي شيء ، ويتنظرونني بالقرب من بستان الحاج مراد . وأعطى هذا الأمر لكل واحد منهم على حدة ، وإذا وجد مسيحيين آخرين هناك فليكتف بأن يقول إنه ينتظرني في هذا المكان .

وبقي علي شيء مهم هو أن أنبه ثريا بما جرى عليه الإتفاق ، لأنني خشيت أن لو فاجأتها لارتاعت من أخذها قبل الوقت الذي تتوقع فيه وصول السفينة من بلاد النصارى . ولهذا ذهبت عشية السفر الى بستان حاج مراد ، ودخلت بحجة قطع أعشاب ، وعلى أمل التحدث الى ثريا . وكان أول شخص لقيته هو والدها ، فخاطبني باللغة^(١) التي يتخاطب بها في كل المغرب ، بل وحتى في القسطنطينية ، بين العبيد والمغاربة ، وهذه اللغة ليست العربية ، ولا القشتالية (الإسبانية) ، ولا لغة أي أمة من الأمم وإنما هي خليط من كل اللغات بها تتفاهم جميعاً . فسألني في خدمة من أنا ، وما الذي أبحث عنه في البستان ، فأجبت أنه عبد لمامي الأرثوودي (الألباني) ، لأنني كنت أعلم أن هذا الرجل من أعز أصدقائه ، وأني أبحث عن أعشاب لعمل سلطة . وأراد أن يعرف هل أفديت ، وماذا اقتضاه سيدي مني نظير الافتداء ، وفي تلك الأثناء جاءت الى البستان ثريا الجميلة ، فعرفتني من مكانها ، ولما كانت المغربيات لاتخشين الظهور أمام النصارى ، ولايسعين لتحاشيهن ، كما قلت من قبل ، فقد اقتربت دون حياء من المكان الذي كنت أتكلم فيه مع والدها ، الذي دعاها لما أن رآها . هناك تأملت جمالها النادر لأول مرة بإمعان ، وكذلك لطفها وفخامة ملابسها ، إن اللآلئ التي تدلت من أذنيها وجيدها ورأسها فاقت في العدد شعرها ، وقدمها ، اللتان كانت عاريتين مكشوفتين

(١) كانت هذه اللغة خليط من لغات أوروبية عديدة ، معظمها يتألف من كلمة إيطالية وإسبانية ، وبعض الكلمات البرتغالية .

وفقاً لعادة القوم في بلادها ، كانت مغطيتين بخلاخيل من الذهب الخالص المطعّمة بالجواهر حتى قالت لي بعد ذلك أن أباهما يقدرها بعشرة آلاف دبلون^(١) أما أساورها فكانت تقدر بما لا يقل عن ذلك . وكانت اللآلي دقيقة جداً وعديدة جداً ، لأن أوفر زينة عند المغربيات هي لبس حبات اللؤلؤ . ولهذا فإن المغاربة يملكون من اللؤلؤ أكثر مما تملك سائر الأمم كلها ، وكان يُعرف عن أبي ثريا أنه يملك أثمان اللؤلؤ في الجزائر كلها ، فضلاً عن مائتي ألف اسكودو اسبانية ، كانت كلها تحت تصرف ابنته . ولكي تحكموا ، ياسادتي ، على ماكانت عليه أيام عزّها وهي محلاة بهذه الحلي ، انظروا حالها الآن حتى بعد أن عانت ماعانت . وأنتم لاتجهلون أن جمال معظم النساء هو ابن يومه ، وأن القليل القليل يزيده أو يشوهه ، لأن وجدانيّات النفس ترفعها أو تخفضها ، وكثيراً ماتقضي عليه . أما عن نفسي فسأقدر أنني وجدتها ألمع وأجمل من أية امرأة رأيتهما في حياتي ، وحينما اعتبرت الإلتزامات التي لاتحصى والتي التزمت بها أنا قبلها ، اعتقدت أنني أرى فيها الهة نزلت من السماء كي تضع نهاية لشقائي . ولما صارت بالقرب مني قال لها أبوها بالعربية أنني عبد عند صديقه مامي الأرنؤودي ، وأنني أتيت لإلتقاط أعشاب للسلطة . فقالت تسألني باللغة المشتركة التي ذكرتها هل كنت نبيلاً ولماذا لم أفتد نفسي من الأسر . فأجبتها أنني افتديت نفسي وأنها تستطيع أن تحكم علي من القيمة التي اقتضاها سيدي مني ثمناً لفديتي ، لأنني اضطررت أن أدفع له مبلغ ألف وخمسمائة سلطاني . فقالت : « الحق أنك لو كنت عند أبي لما وافقت على فك رقبتك بهذا المبلغ ، لأنكم أيها النصاري تكذبون في كل أقوالكم ، وتظاهرون بالفقر والمسكنة لتخدعوا المسلمين » . فقلت لها : « يمكن أن يصح هذا بالنسبة الى غيري ، أما عن نفسي فقد تعاملت مع سيدي بالأمانة ، وسيكون هذا تصرفي مع جميع الناس » فقالت : « ومتى ترحل ؟ » فقلت : « غداً فيما أعتقد ، لأن في الميناء سفينة فرنسية ، ستبحر غداً ، وفي عزمي انتهاز هذه الفرصة » . - لكن أليس الأفضل لك أن تنتظر سفينة اسبانية بدلاً من السفر مع الفرنسيين ، وهم ليسوا أصدقاء لأمتك ؟

فقلت لها : لا ، صحيح أن في استطاعتي الإنتظار ، لكن الأضمن هو السفر غداً ، لأن تلهفي على العودة الى وطني ، والكون بين الأشخاص الذين أحبهم ، لايسمح لي بالتأجيل الى مابعد .

أنت لاشك متزوج في وطنك ، ولهذا أنت متلهف للعودة ولقاء زوجتك .

(١) عملة ذهبية اسبانية .

- لم أتزوج بعد ، لكنني وعدت بأن أتزوج لدى وصولي الى أرض الوطن .
 - وهل عروسك المقبلة جميلة ؟
 - جميلة بحيث إذا أردت أن أمدحها بما تستحق لقلت لك إنها تشبهك كثيراً .
 وعند هذه الكلمات أخذ أبوها في الضحك ، وقال : « والله^(١) ، يا نصراني ، إنها لابد جميلة جداً إذا كانت تشبه ابنتي التي لانظير لجمالها في كل هذه البلاد ، انظر فيها بإمعان تجد أنني أقول الحق » .
 وكان هذا الوالد الطيب يقوم بدور الترجمان لأنه كان أكثر تعوداً على اللغة المهجنة التي تستخدم في هذا البلد ، لأن ابنته وإن كانت تتملكها فإنها كانت تعبر عن نفسها بالإشارات أكثر من الكلمات .
 وبينما كنا نتحدث على هذا النحو ، شاهدنا مغريباً يجري مسرعاً ويصيح قائلاً : إن أربعة أتراك قد تسلقوا سور البستان ، ونهبوا الفاكهة ، مع أنها ليست ناضجة . فاضطرب الشيخ وابنته لهذه الكلمات لأن المغاربة بطبعهم يرهبون الأتراك رهبة شديدة ، وخصوصاً الجند منهم والجنود الترك في غاية الوقاحة ويعاملون المغاربة بمنتهى العجرفة وكأنهم عبيدهم . فطلب الحاج مراد من ابنته أن تدخل البيت وتغلق على نفسها ، بينما يغدو هو للتكلم مع هؤلاء الكلاب . ثم قال : « وأنت يا نصراني ، اخطف أعشابك وامشي ، والله يوصلك الى بلادك في أمان » . فانحنيت انحناء عميقة ، وذهب هو للتكلم مع الأتراك ، وتركني وحدي مع ثريا التي تظاهرت بالذهاب . ولكن لم يكد أبوها يختفي وراء الأشجار حتى عادت الي وعيناها مليئتان بالدموع وقالت : « أنت^(٢) ماشي ، يا نصراني أنت ماشي ؟ » أي « هل أنت ذاهب يا نصراني ؟ هل أنت ذاهب ؟ » .
 فقلت لها : « نعم ياسيديتي ، لكن ليس من غيرك أبداً ، انتظريني يوم الجمعة ولاتخافي حين تريننا ، ولا شك أننا سنصل الى بلاد النصاري » .
 وكلمتها بحيث تفهم كل ماقلته لها : ثم أحاطت رقبتني بذراعها وبدأت تسير نحو بيتها بقدوم مرتجفة . وفي هذا الموقف ، الذي كان من الممكن أن يصبح كارثة علينا ، لولا أن السماء دبرت أمراً آخر ، رأينا أبوها يعود ، وأدركنا تماماً أنه رأنا ، ولكن ثرياً ، لفظتها ، بدلاً من أن تسحب زراعها ، مالت علي أكثر ، وتركت رأسها يسقط على صدري ، وثنت ركبتيها قليلاً ، كأنها أصيبت بإغماء ، بينما بدوت أنا لا أسندها إلا رغماً عني . فأسرع

(١) « والله » بالعربية في النص الاسباني .

(٢) « أنت ماشي بالعربية في الأصل الاسباني .

أبوها ، وسأل ماذا بها ، ولما رأى أنها لاتجيب قال : « لاشك أن الفزع ، الذي أحدثه هؤلاء الكلاب ، هو الذي تسبب في إصابتها بإغماء » . وأخذها بين ذراعيه ، وقالت لي وهي تنهّد تنهّداً عميقاً : « أنت تمشي^(١) يانصراني ، أنت تمشي » ، أي : « امش يانصراني ، امش » .

فقال الحاج مراد : « ماذا يهم أن يمشي ! إنه لم يسئ إليك . اهدني يا ابنتي ، لقد مشى الأتراك : ولا أحد هنا يمكن أن يسئ إليك » .

فقلت بدوري : « أنت على حق ياسيدي ، نعم هؤلاء الأتراك هم الذين جعلوها تضطرب ، لكن مادامت تريد مني أن أمض ، فإنني لا أريد أن أعرضها . السلام عليكم . بإذنكم ، سأعود لإقتطاف الأعشاب من بستانكم ، لأن سيدي يقول أنه لاتوجد أعشاب أفضل مما عندكم » .

فقال الحاج مراد : « يمكنك أن تحضر متى تشاء . إن ماقالتة ابنتي لاشأن له بك ولا بسائر النصارى ! لقد أرادت أن يذهب الأتراك ، وفي اضطرابها ظننتك واحداً منهم ، أو أرادت أن تنبهك الى الذهاب لاقتطاف الأعشاب » .

وفي الحال تركتهما ، وتبعث ثريا أبها ، وبدت في غاية الاضطراب أما أنا ، فبحجة اقتطاف أعشاب اخترقت البستان كله ، ولاحظت بعناية المداخل والمخارج ، والمقاومة التي يمكن أن تصدر عن البيت ، والتسهيلات التي يمكن الإفادة منها في تنفيذ الخطة . وذهبت بعد ذلك أخبر المهتدي والآخرين بكل مافعلته . وكنت في لهفة شديدة جداً الى الاستمتاع في أمان بالنعمة التي وهبها الحظ السعيد بامتلاك ثريا الجميلة . وأخيراً مضى الوقت ، وجاء اليوم بل اللحظة التي طالما تمنيتها : وبفضل الإحتياطات والاجراءات التي أملاها علينا التفطن والتفكير الناضج حصلنا على كل النجاح الذي رجونا . فغداة اليوم الذي تكلمت فيه مع ثريا جاء المهتدي وألقى مراسيه تحت أسوار البستان . وكان كل المجذفين النصارى في أماكنهم ، مختبئين في مواضع عديدة ، وملوهم القلق ، وعلى أهبة الاستيلاء على السفينة التي شاهدوها ، لأنهم كانوا يجهلون تواطني مع المهتدي ، وظنّوا أنه بالقوة يجب علينا أن نسترد حريتنا ، بأن نذبح المغاربة الذين في السفينة . ووصلت بعدهم بوقت قصير ومعهم رفاقي ، فلما رأونا أقبلوا للانضمام إلينا . وكانت أبواب المدينة مغلقة ، ولم يظهر أحد في النواحي القريبة . ولم ندر بماذا نبدأ حينما ظهر المهتدي ، وقال لنا أنه آن الوقت للتأكد

(١) « أنت تمشي » بالعربية في الأصل الاسباني .

من المغاربة ، الذين كان معظمهم نائمين لا يعرفون شيئاً ، وقال أن المهم جداً هو أن نستولي على السفينة ، وهو أمر نستطيع القيام به بسهولة وبغير خطر ، وعلينا بعد ذلك أن نذهب الى ثريا . وبدا لنا أن هذا هو الرأي الأسلم . فقدمنا الى السفينة ، فوثب فيها أولنا ، وامتشق سيفه ، وصاح باللغة العربية : « لا يتحرك أحد ، وإلا قضي على حياته ! » وفي الوقت نفسه ظهر النصارى ، والمغاربة ، وهم قليلو الشجاعة ولم يكن معهم سلاح تقريباً ، لمّا سمعوا رئيسهم يقول هذه الكلمات ، لم يبدوا أية مقاومة ، وتركوا النصارى يوثقون أيديهم وهم يهدّدونهم بالذبح لو صرخوا أقل صرخة . وبعد اتخاذ هذا الإجراء تركنا نصف رجالنا لحراسة السفينة ، ثمّ سرنّا ، يقودنا المهتدي دائماً ، نحو بستان الحاج مراد وكنا نظن أننا سنضطر الى دفع الباب بالقوة ، ولكننا فتحناه بكل سهولة وهكذا تقدّمنا في صمت نحو البيت دون أن يرانا أحد .

« وكانت ثريا الجميلة تنتظرنا في النافذة ، فلما أبصرتنا سألتنا بصوت خفيض هل نحن نصارى . فأجبت : نعم ، وتعرّفتني ، ونزلت في الحال ، وفتحت الباب ، وبدت لعيوننا في روعة من الصعّب وصفها . قبلت يدها ، وفعل الباقون مثلي ، وبدونا كما لو كنّا نشكر لها تحريرنا . وسألها المهتدي بالعربية ، هل أبوها في البيت . فأجبت : « نعم ، نائم » .

فقال : « سيكون من الضروري إيقاظه وأخذه معنا . وعلينا أن نأخذ كل ما هو مفيد هنا » . فقالت : « كلا ، لا أريد أن يمس إنسان أبي . وليس في البيت أكثر مما أحمله ، ومعني ما يكفي لجعلكم جميعاً أغنياء سعداء . انتظروا لحظة » . ولما قالت هذه الكلمات دخلت البيت وأوصتنا بالصمت وقالت أنها ستعود بعد قليل . واستحلفت المهتدي ألا يفعل شيئاً ضد رغبة ثريا التي عادت في الحال تحمل صندوقاً مليئاً بالذهب ، وكان ثقيلاً بحيث كانت تحمله بعناء . وشاء سوء الحظ أن يستيقظ أبوها في هذه اللحظة ، وسمع الضجة التي أحدثناها ، وظهر في النافذة ، فلما شاهد كوكبة من النصارى راح يصرخ بالعربية : « الى النصارى ! الى النصارى ! الى اللصوص ! » .

أحدثت هذه الصيحات فزعاً شديداً في نفوسنا ، ولكن المهتدي ، وقد رأى الخطر الذي نحن فيه ، وضرورة الإنتهاء من مهمتنا قبل أن نكتشف ، صعد بسرعة حيث كان الحاج مراد ، صعد ومعه بعض رجالنا ، لأنني أنا لم أجسر على ترك ثريا التي أغمي عليها بين ذراعي . وأفلحوا في العملية بمهارة حتى ظهرنا بعد لحظة ومعهم الحاج مراد ويدها موثقان وعلى فمه منديل ، وهدّوه بالقتل إذا فتح فاه . فلما رآته ابنته وضعت يدها على

عينها حتى لاتراه أما هو فقد وقف مرتبكاً مرتجاً عليه ، لا يدري هل كانت ابنته بين أيدينا بإرادتها واختيارها . لكن لما كانت اللحظات ثمينة ، فقد ألقينا أنفسنا بسرعة في السفينة ، حيث كان الآخرون في انتظارنا ، خوفاً من أن يقع لنا شر . وكانت الساعة أوشكت على الثانية بعد منتصف الليل حينما اجتمعنا كلنا في السفينة . هناك فككنا وثاق الحاج مراد ، ورفعنا المنديل عن فمه ، مهددين إياه دائماً بالقتل لو نطق بكلمة . لكنه حين شاهد ابنته تنهد بحنان ، خصوصاً وقد رأي أضمها ضمّاً وثيقاً دون أن تقاوم ، ولأن تدافع عن نفسها ولأن تشكو ، ومع ذلك لم يجزؤ على الكلام خوفاً من تهديدات المهتدي . ولكن ثرياً لما أبصرت أننا أخذنا الأهبه للتجديف ، توسلت الى المهتدي أن يطلب مني إطلاق سراح أبيها ، وحلّ وثاق المغاربة ، وقالت أنها تفضل أن تلقي بنفسها في البحر على أن ترى أباه الذي يعزها أسيراً بسبب حبها . فأبلغني المهتدي هذا الالتماس فوافقت عليه عن طيب خاطر ، لكنه نتهني الى أنه لم يأن الأوان بعد ، لأننا لو أطلقنا سراحهم في هذا المكان لاستغاثوا واستنجدوا وأهاجوا أهل المدينة ، وهؤلاء سيطاردوننا بمركب سريع ، ولن نستطيع الإفلات منهم ، وأن كل مانستطيع فعله هو أن نطلق سراحهم عندما نصل الى أول بلد مسيحي . وكان الجميع على رأيه هذا ، وثريا نفسها وافقت على ذلك بعد أن أبدينا لها الأسباب . وهكذا أخذالمجدفون الأشداء في العمل ، وتوكلوا على الله وتوجهوا الى جزيرة ميورقة ، وهي أول أرض مسيحية . ولكن ربح الشمال أهاجت الموج فلم يكن في مقدورنا إتخاذ هذا الطريق ، ورأينا أنفسنا مضطرين الى المساحلة في مواجهة وهران ، لشدة أسفنا ، لأننا خفنا أن نشاهد من شرشال التي تقوم على هذا الساحل على مسافة ستين ميلاً من الجزائر . وكذلك خفنا أن نلاقي في هذه النواحي بعض البوارج القادمة محملة من تطوان ، لكن لم يشك أحد في أننا لو لاقينا مركباً محملاً بالبضائع ، بشرط أن يكون مسلحاً ، فإننا ليس فقط لن نستسلم بل على العكس سنستولي على هذا المركب الذي من شأنه أن ينجز رحلتنا بأمان أكبر .

«وبينما كنا نسير كانت ثريا تضع رأسها بين يدي حتى لاترى أبيها وسمعتها تدعو للا مريم . وكنا قطعنا ثلاثين ميلاً حين طلع النهار ونحن على مسافة ثلاثة مرامي بندقية من الأرض التي بدت لنا خالية ، لم نشاهد عليها أحد يمكن أن يرانا ويكشفنا . وبفضل المجاذيف دخلنا في الماء أكثر وأكثر . إذ صار البحر أقل هيجاناً ، وعلى مسافة فرسخين أبعد أمر الملاحون بالتجديف الخفيف ، بينما كنا نتناول بعض الغداء ، وكانت السفينة محملة بالأطعمة . ولكن المجذفين قالوا لنا أن الوقت لم يئن بعد للإستراحة ، ولم يشاءوا

ترك التجديف ، ولهذا كان يطعمهم أولئك الذين لم يكونوا يجدفون . وبعد ذلك هبت ريح مواتية ، اضطرتنا الى مد الشراع وترك التجديف ، دائماً في اتجاه وهران لأننا لم نستطع اتخاذ طريق آخر .

« وتمت المناورات بسرعة ، فجعلنا الشراع نسير بسرعة ثمانية أميال في الساعة ، دون أن نخشى شيئاً غير الإلتقاء بأحد القراصنة . وقدّما الطعام للمغاربة . وكان المهدي (المرتد) يواسيهم ويقول لهم إنهم ليسوا أسارى ، وأنه سيطلق سراحهم عند سنوح أول فرصة . وقال نفس القول لوالد ثريا الذي أجاب عليه قائلاً : « في وسعي ، أيها النصاري ، أن أتوقع أي شيء آخر من كرمكم ، لكن لا تظنوا أنني من السذاجة بحيث أعتقد أنكم ستطلقون سراحني » إنكم لم تسلبوني حرّيتي تحت التعرّض لكل الأخطار من أجل أن تمنحوني إياها بكل هذا السخاء ، خصوصاً وأنتم تعرفون من أنا وماذا تكسبون بجعلي أفتديها . فإذا شئتم تحديد فديتي فإني أقدم لكم كل ما تطلبونه مني ومن ابنتي البانسة ، أو من أجل فداء ابنتي وحدها وهي أعز وأعظم أجزاء روحي » .

وكان وهو يقول هذه الكلمات يذرف أحز العبرات حتّى تأقرا جميعاً شفقة عليه ورحمة . ولما رآته ثريا على هذه الحال لم تتمالك نفسها ، بل عادت لتقبيله ، ومزجت عبراتها بعبراته ، وهزت كيائنا تأثراً لها . هنالك أبصر الحاج مراد أنها متزيّنة زينة العيد وعليها كل أصناف الجواهر . فقال لها :

- ما هذا ؟ بالأمس مساء ، قبل مصيبتنا هذه ، رأيتك بملابس عارية والآن ، دون أن يقع لنا حادث يستحق الإحتفال به ، أراك لابسة ما استطعت اعطاءك إياه في أيّام نعيمنا . أجيبني علي . إن هذا يدهشني أكثر من مصيبتني هذه .

وكان المهدي (المرتد) يترجم لنا كل هذه الأسئلة ، ولكن ثريا لم تجب بكلمة واحدة . وأخيراً لمح المغربي (الحاج مراد) في زاوية من السفينة ، الصندوق الذي تحفظ فيه ابنته جواهرها ، وهو يعرف أنه تركه في الجزائر ، لأنه لم يرد أن يأتي به الى البستان . فازدادت دهشته وسألها كيف وقع هذا الصندوق في أيدينا ، وماذا فيه . فقال المهدي (المرتد) ، دون انتظار لجواب ثريا : « لا تعذب ابنتك ياسيدي بكل هذه الأسئلة . إن جواباً واحداً يكفيك : ألا فلتعلم أن ثريا نصرانية ، وهي التي كسرت أغلالنا » .

فقال المغربي : هل هذا صحيح يابنتي ؟

فأجابت ثريا : نعم !

فقال ، ماذا ! أنت نصرانية ؟ وأنت التي أسلمت أباك الى قبضة أعدائه ؟

فأجابت : صحيح أنا نصرانية ، لكنني لست أنا السبب في أسرك ، لم يكن في نيتي أن أتركك ولا أن أصيبك بأي سوء ، وإنما أردت فقط أن أسعى الى خير لنفسي .

- وأي خير تظنين أنك وجدته ؟

- أسأل عنه للا مريم : فستخبرك خيراً مني .

ولدى سماع هذه الكلمات ألقى المغربي (الحاج مراد) بنفسه في البحر بسرعة لاتصدق ، ملقياً برأسه أولاً ، وكان سيفرق لولأن جلبابه الطويل أمسك به على الماء . فصرخت ثريا صرخة : فأسرعنا كلنا ، وأمسكنا بأيها من قفطانه وألقدناه بغير شعور . وراحت ثريا تولول كما لو كان قد مات . فقلبناه على بطنه لنجعله يقيء الماء الذي ابتلعه ، ثم عاد الى رشده والى الحياة بعد ساعتين .

« في هذه الأثناء تغيرت الريح مرة أخرى وجرتنا الى البر الذي لم نستطع تجنبه الا بقوة التجديف . وأخيراً ساقنا الجد السعيد الى جون يكوته اللسان الذي يسميه المغاربة باسم « القحبة الرومية »^(١) أي الفاسقة المسيحية . وتروي الأخبار أن المرأة التي أضاعت اسبانيا على المسلمين مدفونة في هذا المكان . و« القحبة » هي المرأة الفاسقة ، والرومية : أي المسيحية . وهذا الموضوع مشؤوم عند المسلمين . فلا يتوقفون عنده أبداً إلا إذا اضطروا الى ذلك اضطراراً ، لكنه بالنسبة إلينا كان مرفأ أميناً ضد العواصف . فوضعنا حراساً على البر دون أن نغادر المجاذيف ، وتناولنا وجبة طعام خفيفة ، وتوكلنا على الله والعذراء . واستحلفتنا ثريا مرة أخرى أن تترك أباه على البر هو وباقي المغاربة ، لأنها كانت تتألم أشد الألم من رؤيتهم أسارى موثقيين . فوعدناها أن نفعل ذلك قبل أن نرحل ، لأنه لم يكن في هذا المكان الخاوي الذي كنا فيه أي خطر من إطلاق سراحهم . وأخيراً تحققت أمنيته وصار البحر هادئاً ، والريح مواتيية ، وكان كل شيء يدعو الى مواصلة السير في طريقنا . فحللنا وثاق المغاربة وأنزلناهم الى البر واحداً إثر واحد ، وهو أمر دهشوا له كل الدهشة ، لكن حين جاء دور والد ثريا وكان قد استعاد حواسه قال :

- « لأي سبب أيها النصارى ، تظنون أن هذه المخلوقة الشريرة تريد أن يطلق سراحني ؟ أتظنون أن الرحمة هي التي دفعتها ؟ كلا ، وأيم الله ، بل هو العار والخزي اللذان يسببهما لها حضوري لتنفيذ نواياها الفاسدة . ولاتعتقدوا أنها بذلت دينها لأنها وجدت دينكم أفضل بل لأنها تعرف أن النساء في بلادكم ينعمن بحرية أكبر مما في بلادنا » .

(١) بالبرية في الأصل الاسباني .

ثم تَلَفَّت الى ثريا بينما كان نصراني آخر وأنا نمسك به من ذراعيه خوفاً من أن يندفع أية اندفاعاً ، وقال لها :

- «يا فاسدة ، يامخدوعة . الى أين تذهبين أيتها العمياء ، بين هؤلاء الكلاب ، وهم أعداؤنا الطبيعيون ؟ لعن الله الساعة التي ولدتك فيها ! ولعن الله ما بذلت لك من رعاية منذ طفولتك !» .

فلما رأيت أنه لم يفرغ من شكاواه ، أنزلته الى البر بسرعة ، فاستمر في لعناته ، متشفعاً (بالنبي) محمد أن يهلكنا الله ، ولما أبحرنا ولم نعد نسمع صيحاته بعد ، شاهدناه يشد شعره ، وينتفح لحيته ، ويتلو على التراب . وفي لحظة علا فيها صوته وصار مسموعاً ، التقطنا هذه الكلمات . «عودي ، يا ابنتي العزيزة ، عودي ، وسأغفر لك كل شيء . اتركي هذا المال لأولئك الناس ، وقد صار فعلاً في حوزتهم . ارجعي لتواسي قلب والدك الحزين ، الذي سيلفظ أنفاسه في هذه الفلوات لو تركته ولم تعودي » . وكانت ثريا تصغي اليه وتبكي ولم تستطع أن تجيب إلا بهذه الكلمات : «يا أبي ! جعل الله لـلا مريم - وهي السبب في اعتناقي المسيحية - تعزيك في حزنك . والله يعلم حق العلم أنني لم أستطع الإمتناع عن فعل ما فعلت ، وأنّ النصارى لم يرغبوني على ذلك ، لكنني لم أقو على مقاومة الرغبة في ترك بلادي والذهاب معهم ، لأنني كنت متلهفة الى فعل ما اعتقد أنه الخير وماتراه أنت هو الشر بعينه » . واستمرت في الكلام وهو لا يسمعها ، ونحن لم نعد نستطيع أن نراه . وعجلت اليها لمواساتها .

«واستمررنا في طريقنا ، وكانت الريح مواتية جداً الى حد أننا كنا متأكدين أننا سنبحر في الغد شواطئ اسبانيا ، لكن لما كان من النادر أو بالأحرى لا يأتي الخير أبداً إلا مصحوباً أو متبوعاً بشيء يعكّر صفوه ، أو ربّما نتيجة للعنات التي أطلقها المغربي (الحاج مراد) ضد ابنته ، ويجب على المرء أن يخشى لعنة الوالد من أي والد جاء ، فإنه حدث في الساعة الثالثة ليلاً ، ونحن في عرض البحر ، نسير والشرع منشور ، والمجازيف معلّقة ، لأن الريح المواتية جعلتها بغير فائدة ، شاهدنا على ضوء القمر بالقرب منا ، مركباً مستديراً يسير أمامنا قريباً جداً منا وكل أشعرته منشورة . وكنا قريبين جداً منه الى حد أن اضطررنا الى جذب شرعنا حتى لانصدم بذلك المركب ، وهو ، من ناحيته ، ضغط على الدفة ليسمح لنا بالمرور . وكان بخارته قد وقفوا على المركب ليسألونا من نحن والى أين نحن ذاهبون ، ومن أين أتينا . لكن لما كانت هذه الأسئلة باللغة الفرنسية ، قال المهتمي (المرتد) : «لاتجيبوا ، لاشك أنهم قراصنة فرنسيون ، وهم لا يرحمون أحداً » . فمررنا

دون أن ننطق بكلمة ، وتركنا مركبهم تحت الريح ، لكن في اللحظة نفسها أطلق علينا مدفعاً قذائفه فيما يبدو مسلسل^(١) ، لأنه شقّ ساريتنا نصفين ، فهوت في الماء مع الشراع ، ثم أطلق طلقة أخرى خرقت سفينتنا دون أن تجرح أحداً ، وفي الحال تدفق الماء في سفينتنا ، ولما رأينا أنفسنا نوشك على الغرق في الأعماق ، أطلقنا صيحات عالية وطلبنا النجدة ، متوسلين إليهم أن يأتوا لإنقاذنا لأننا نغرق . فجذب رجال المركب أشرعتهم ، وأنزلوا الزورق في البحر ، ووثب فيه إحدى عشر فرنسياً ، مسلّحين بالبنادق ذوات الفتائل المشتعلة ، واقتربوا منا . فلما رأوا قلة عدداً ، انتشلونا قائلين لنا أننا ينبغي علينا ألا نعزو مصيبتنا هذه إلا الى قلة أدبنا . وأخذ المرتد صندوق ثريا ، وألقى به في الماء دون أن يراه أحد . وانتقلنا جميعاً الى مركب الفرنسيين ، الذين بعد أن سألونا ما يريدون من أسئلة جردونا من كل شيء كما لو كنا ألد أعدائهم . وانتزعوا من ثريا كل ما عليها حتى خلاخلها ، وكان أخوف ما أخافه عليها هو أن يسلبوها شيئاً هو أعز وأثمن بآلاف المرات ، لكن هؤلاء الناس لا يريدون غير المال ، إنهم شرهون الى المال الى حد أنهم كانوا سينتزعون من الأسرى (نحن) ملابسهم لو عرفوا أن فيها أدنى فائدة .

«وبعد هذه المغامرة ، تشاوروا فيما بينهم ، وكان من رأي الكثيرين منهم أن يلقوا بنا في البحر ، مكفنين في شراع ، لأنه كان في نيّتهم أن يتاجروا على شواطئ اسبانيا مدعين أنهم بريتانيتون ، فلو أنزلونا الى البر أحياء لأكتشفت سرقتهم وعوقبوا . ولكن القبطان ، وهو الذي جرد ثريا قال أنه يكتفي بالغنائم التي ظفر بها ولا يريد أن يلمس أي ميناء اسباني ، وأن نيّته هي أن يتابع السير في طريقه ويجتاز في الليل مضيق جبل طارق ليعود الى مدينة لاروشل التي بدأ السير منها . وقرروا إذن أن يتركوا لنا زورقهم وكل ما يلزم لابحارنا القصير ، وفعلوا ذلك حين صرنا على مرأى من سواحل اسبانيا ، وهذا المرأى أشاع في نفوسنا فرحاً عظيماً جداً الى حد أنه جعلنا ننسى كل مصائبنا وشقائنا ، لأن استعادة الحرية أمر يبعث في النفس أعظم الرضا .

«وكان الوقت قرب الظهيرة حينما أنزلونا في الزورق وأعطونا برميلين من الماء وقليلاً من البسكويت . والقبطان ، وقد تأثر بما لأدري من الشفقة على ثريا الجميلة أعطاها أربعين اسكودو ذهبياً ، ولم يوافق على أن ينتزع منها جنوده ملابسها ، وهي هذه التي ترونها عليها الآن أمامكم .

(١) القذائف المسلسلة ، كانت قذائف مغمومة الى بعضها بسلسلة أو قضيب ، البخ وكانت تستخدم لكسر سوري مراكب الأعداء .

ونزلنا القارب إذن ، ودون أن نظهر أية موجهة شكرنا لهم مأسدوه إلينا من معروف . وتوجهوا هم الى عرض البحر ، وتابعوا طريق مضيق جبل طارق . أمّا نحن فلمّا كانت غايّتنا الوحيدة هي البر الذي تبدّى أمام نواظرنا ، أخذنا في التجذيف بقوة هائلة حتّى قدرنا عند مغرب الشمس أننا سننزل الى البر قبل الظلام . لكن لمّا لم يكن ثمّ قمر ، وكانت السماء ملبّدة بالسحاب ، ولم ندر من أية ناحية نحن ، ظهر لنا أنّه ليس من الحكمة أن ننزل الى البر ، وإن كان البعض رأى أن من الأفضل النزول ، ولو بين الصخور ، بعيداً عن المدن والقرى ، خوفاً - وهو خوف له ما يبرره - أن يكون ثمّ حراس القراصنة التطوانيين ، لأنهم في المساء يكونون في بلاد المغرب ، وفي الصباح يشاهدون على شواطئ اسبانيا ، حيث يقومون بنهب عظيم ، ثمّ يعودون للنوم في منازلهم . وأخيراً تقرر أن تقترب شيئاً فشيئاً ، وإذا سمح هدوء البحر ، ننزل حيث نستطيع النزول . وقد كان .

«وقرابة منتصف الليل كنّا عند سفح جبل وعر ، بينه وبين البحر مسافة تسمح بالنزول . فوثبنا على الشاطئ ، وقبلنا هذه الأرض التي طالما تشوّقنا إليها ، وحمدنا الله على النهاية السعيدة لرحلتنا هذه . وأخذنا من الزورق زادنا ووضعناه على البر ، وصعدنا بعد ذلك شطراً من الجبل ، دون أن نستطيع التأكّد بعد هل نحن في بلد مسيحي . وأخيراً تنفّس الصباح ، متأخراً عن موعده المعتاد فيما حسبنا . ومضينا في الصعود لنرى هل ثمّ مكان مأهول ، أو بعض أكواخ الرعاة ، ولكننا على مدى البصر لم نر ناساً ولا قرى ، ولا حتّى درياً مطروقاً . فقرّرنا المضي في السير ، لأنّه بدا لنا من المستحيل ألا نلتقي بعد قليل بمن يدلّنا أين نحن . وأشدّ ما أآلمني هو أن أرى ثرياً تمشي على قدميها على هذه الصخور الوعرة الشديدة . وكنت أحملها أحياناً على كتفي ، ولكنّ خوفها من الأثقال كان يعذبها أكثر ممّا يعذبها التعب ، فكانت تفضّل المشي وهي تمسكني من يدي ، وأبدت بذلك رضا بالغاً .

«وأخيراً ، وبعد مسافة ربع فرسخ ، سمعنا صوت ناقوس صغير (شخشيخة) ، وهذا دليل يقيني على أننا بالقرب من قطيع يرعى ، فتلفّطنا في كل ناحية ، وشاهدنا عند أسفل سديانة راعياً شاباً جالساً بهدوء يشدّب عصا بسكينته . نادينا ، فرفع رأسه ، ولمّا شاهد ثرياً والمرتد (المهتدي) بزي مغربي ، هرب بأقصى سرعة الى الغابة ، لأنّه ظن ، كما عرفنا فيما بعد ، أن كل البربر المغاربة يطاردونه . جرى وهو يصرخ بأعلى صوته : «الى المغاربة! الى المغاربة! المغاربة قدموا الى البلاد!» فلمّا سمعنا هذه الصرخات بقينا حائرين لاندري ماذا نفعل ، لكن لمّا قدرنا أن الراعي سيثير كل الناحية ، وأنّ فرسان السواحل لابدّ قادمون لاستكشافنا ، أسرعنا فنزعنا من المرتد ملابسه التركية ، وألبسناه خوذة عبد أعطاهم له

أحدنا ، وبقي بقميصه . ووكلنا أمرنا الى الله ، واقتفينا الطريق الذي اتخذه الراعي ، متوقعين دائماً وصول الفرسان . ولم نخطئ ، في تقديرنا ، فبعد مضي ساعتين ، ونحن نخرج من الشجيرات وندخل في السهل ، شاهدنا خمسين فارساً يركضون نحونا . فتوقفنا في الحال لإنتظارهم . فاقتربوا منا ، ولما لم يجدوا غير نصارى مساكين ، بدلاً من مغاربة ، سألونا هل نحن السبب في الذعر الذي أحدثه الراعي ونشره في الناحية . فقلنا نعم ، وبدأت أعرفهم من نحن ، ومن أين أقبلنا ، وإذا بأحد رجالنا المسيحيين ، وقد تعرّف الفارس الذي كان يكلمني ، يقاطعني قائلاً : « الحمد لله ياسيدي ، على أن هدانا الى هذا المرفأ الأمين ، لأنه إذا لم يخطئ ، ظنّي ولم يجعلني الأسر أفقد ذاكرتي ، أعتقد أنّ البلد الذي نحن فيه هو مقاطعة بلش مالقة Velez Malaga ، وأنتك أنت ياسيدي الفارس الذي تستجوبنا أنت بدرو دي بستانته ، خالي » .

ولدى سماع هذه الكلمات نزل الفارس الى الأرض واثباً ، وجاء يقبّل الشاب ويقول له : - نعم ، أنا أتعرفك ، يا قرّة عيني ومناط محبتي . لقد بكينا عليك مراراً وحسبك قد مت ، أنا ، وأختي التي هي أمك ، وكل أقاربك الذين لا يزالون على قيد الحياة . وقد تفضّلت العناية الالهية فحفظت لهم أعمارهم حتّى يسعدوا برؤيتك من جديد . لقد عرفنا أنّك كنت عبداً أسيراً في الجزائر ، وإذا حكمنا بحسب ما تدل عليه ملابسك وملابس كل رفاقك قللنا أنكم لابدّ نجوتم بمعجزة .

فقال الشاب : هذا صحيح ، وسيكون لدينا وقت طويل للتحدّث في ذلك . ولما سمع سائر الفرسان أننا نصارى عائدون من الأسر ترجّلوا ، وقدم إلينا كل واحد منهم فرسه ليوصلنا الى مدينة بلش مالقة ، التي تبعد بمقدار فرسخ ونصف . وذهب البعض منهم للبحث عن زورقنا في المكان الذي خلفناه فيه ، لنقله الى المدينة ، والبعض الآخر أركبنا خلفه .

أما ثريا فقد ركبت خلف خال صاحبنا . وأقبل علينا كل سكان المدينة ، لأنهم أبلغوا بوصولنا . ولم يكن منظرأ جديداً عليهم أن يشاهدوا مغاربة أسرى أو نصارى عائدين من الأسر ، فإن قريتهم من البحر كثيراً ما جلب اليهم الكثير منهم مراراً ، لكنهم أعجبوا أيما إعجاب بجمال ثريا الذي أنعشته متاعب الطريق وفرحة الوجود في أمان في بلد نصراني . وكانت من الروعة بحيث بدا في نظري أن من المستحيل أن توجد امرأة أجمل منها . واقتادونا الى الكنيسة لشكر الله ، فلما دخلناها قالت ثريا أنها تبصر أشكالاً شبيهة بشكل للامريم . فقلنا لها إنها صور لامريم . وفسّر لها المرتد ، قدر ما استطاع ، قداسة هذه

الصور حتى تعبدها كأنها مريم الحقيقية التي تجلّت لها . وكانت حادة الذكاء ففهمت ما قيل لها بسرعة . ووزعونا بعد ذلك على مختلف أعيان المدينة . واقتادنا ابن أخت بستامنته : المرتد وثريا وأنا الى أهله ، وهم قوم ميسورو الحال ، فعاملونا كما يعاملون أبناءهم . فبقينا عندهم ستة أيّام ، بعدها مضى المرتد ، وقد استعلم عن بعض الأمور ، الى غرناطة ليعود الى حظيرة الكنيسة ، بمعونة ديوان التفتيش المقدّس . وعاد باقي النصارى الى أهليهم ، وبقيت وحدي مع ثريا ، وليس معنا من المال إلا المبلغ الضئيل الذي أعطاه لها الفرنسي ، وبه اشتريت الفرس الذي أوصلني الى هنا . ومنذ تلك اللحظة وأنا لها بمشابة والد ، وسانس ، لكنّي لست بعد زوجها . وسنغدو لنعرف هل مايزال أبي في قيد الحياة ، أو إذا كان أحد إخوتي أسعد منّي حظاً ، وإن كنت أعتقد أن صحبة ثريا هي أعظم نعمة أنعمت بها السماء عليّ . إن صبرها على تحمّل الشدائد الناشئة عن البؤس ، وتلقّتها الى أن تصبح نصرانية هما فوق كل تعبير ويكفيان لجعلي أخدمها طوال حياتي . ومع ذلك فالرضا الذي أشعر به للانتماء اليها ، ولكونها في الوقت نفسه تحت سلطاني ، قد أضعفه عدم يقيني بأن أستطيع أن أجد في وطني ركناً من الأرض أستقبلها فيه ، أو أعثر على شخص ليعرفني ، إذا كان أبي وإخوتي قد فارقوا الحياة .

« هذا تاريخي ، أيها السادة ، ولست أدري هل شاقكم . وكان بودّي أن أرويه لكم على نحوٍ أوجز ، مع أن خوفي من املاككم حملني على حذف الكثير من التفاصيل » .

الفصل الثاني والأربعون

أحداث جديدة تقع في الفندق، وأمور أخرى خليقة بأن تعرف

فلما توقّف الأسير عن الكلام هنأه دون فرندو وتهنئة حارة على تنوّع الحوادث التي يتألّف منها تاريخه ، وعلى الطريقة التي رواها بها . وقال له : « كل مافيه جديد وفريد ، وقد شاقنا الى حد أننا كنا نود لو قضينا الليل بطوله نستمع لك » . وعرض كردنيو وكل الباقيين عليه أن يقدّموا اليه كل مايشاء من خدمات ، بتلّيف جعله يعتقد بطيب نواياهم . ومن بين ماعرضه عليه دون فرندو أن يأخذه معه ، واعدأ بأن يكون إخوة المريكز اشيبينا لثريا ، وأنه هو نفسه سيعمل على عودته مكرّماً معزّزاً الى وطنه فازجى اليه الأسير كل شكر لكنه لم يشأ قبول هذه العروض السخية .

ثم بدأ النهار ينحدر والليل يقبل^(١) حينما توقّفت عربية ، بصحبة عدداً من راكبي الخيول ، أمام باب الفندق . وطلب هؤلاء الرجال المبيت ، لكنّ صاحبة الفندق قالت أنه لا يوجد أي حجر خالٍ في الفندق .

فقال أحد الفرسان : « ستجدين مكاناً لسيادة المندوب^(٢) الذي في هذه العربية » . وعند سماع هذا الاسم أجابت صاحبة الفندق ، وقد عراها اضطراب : « الحق إنه ليس عندنا سرير ، لكن إذا كان سيادة المندوب معه سرير ، كما أظن ، فيمكنه الدخول ، وستتخلّى له أنا وزوجي عن غرفتنا » .

فقال السائس : طيب .

في الوقت نفسه خرج من العربية رجل دلّ زيّه الطويل وأكمامه المشرّحة على أنه بالفعل

(١) يظهر أن ثريانتس قد نسي أن الليل قد أقبل منذ وقت طويل وانهم تناولوا المشاء وأن الأسير قضى زمناً طويلاً في رواية تاريخه الطويل!!

(٢) Oldor : قاضي في المحاكم يسمع الشكاوي ويفصل في الدعاوى .

المندوب . وكان يمسك بيديه فتاة في سن السادسة عشرة تقريباً ، في ثياب السفر ، جميلة لطيفة حتى لينظر اليها بإعجاب ، ولاتقل جمالاً عن لوسنده ، وثرثرا ودوروتيه . وكان دون كيخوته حاضراً عندما وصل سيادة المندوب ، فلما رآه قال له : « يمكن سيادتكم أن تدخل هذا القصر بكل أمان ، لأنه وإن يكن صغيراً وغير منظم ، فليس ثم مضايقة لاتسلم للآداب السلاح ، خصوصاً إذا كان يحدهما الجمال ، الذي ينبغي على القصور أن تفتح أمامه ، والصخور تنشق ، والجبال تمهد لاستقباله . فادخل اذن ياسيدي في هذه الجنة : فستجد فيها شمساً جديرة بالسما التي تصحبك ، وأسلحة بكل بريقها ، وجمالاً بكل روعته » . فاندش المندوب من هذا الكلام ، وأخذ يتفحص دون كيخوته ، ووجد شخصه ليس أقل غرابة من كلماته . ولم يعرف بماذا يجيبه ، لكنه ازداد دهشة حينما أبصر لوسنده وثرثرا ودوروتيه اللواتي هرعن لاستقبال الفتاة التي بالفت صاحبة الفندق في وصف جمالها . وحياتها دون فرنندو وكردنيو والقستيس أطيب تحية . فدهش من كل مارأى ، وكل ماسمع ، وقدر أن الجماعة تتألف من ناس ذوي صفة ، لكن شكل دون كيخوته ولباسه وحركاته جعله يشتت عقله . وبعد تناول التحيات بين الجانبين ، تقرر أن تتجمع كل السيدات في غرفة واحدة ، كما اتفق على ذلك من قبل ، وأن يظل الرجال في الخارج لحراستهن . فأرسل المندوب إذن بنته مع سائر السيدات . وبجزء من سرير صاحب الفندق الضيق ونصف سرير المندوب رتبوا أمورهم هذه الليلة خيراً مما ظنن . ولم يكذ الأسير يلح المندوب حتى قالت له دقائق قلبه أنه هو أخوه . فسأل أحد رجاله ماسمه ومايلده ، فأجاب الخادم أن اسمه خوان بيرث دي بيدما ، وأنه سمع أن سيده من جبال ليون ، فأكدت له هذه الإجابة أن المندوب أخوه الذي اتخذ حرفة الآداب وفقاً لنصيحة أبيه . فسر كل السرور لهذا الاكتشاف ، وانتحي بكردنيو ودون فرنندو والقستيس ، وأخبرهم بما اكتشفه ، مؤكداً لهم أن المندوب أخوه . وكان الخادم قد قال له أنه عيّن مندوباً في الهند (امريكا) في محكمة المكسيك ، وأن البنت بنته وقد ماتت أمها وهي تضعها وتركت لزوجها البائنة الكبيرة التي أتت بها في الزواج . فسألهم الأسير ماذا يعمل ليكشف عن شخصيته لأخيه ، وهل ليس من الأوفق التأكد أولاً من عواطف أخيه نحوه ، خوفاً من أن يخجل المندوب من رؤية أخيه فقيراً هكذا . فقال القستيس : « دعني أحاول هذه المحاولة وإن كنت لأشك أبدأ في أنه سيستقبلك خير استقبال ، لأن الحكمة واللفظة اللتين يكشف عنهما أخوك يبدو أنهما تشهدان على أنه ليس عندك تلك الكبرياء الحمقاء التي تجعلنا نحتر أولئك الذين اضطهدهم الحظ » . فأجاب الأسير : « ورغم ذلك ، فإنني لأريد أن أكشف عن نفسي فوراً » . فقال القستيس : « أكرر لك أنني سأرتب الأمور على النحو الذي يرضيك » .

وفي تلك الأثناء وضع الطعام على المائدة ، وأخذ جميع الرجال في تناول العشاء ، ماعدا الأسير فقد أكل مع السيدات في غرفتهن . وفي منتصف الأكل ، قال القسيس : « سيدي المندوب ، كان لي في القسطنطينية حيث كنت أسيراً لعدة سنوات خلت ، زميل اسمه كأسمك ، وكان من أشجع ثقباء المشاة الاسبان ، لكن شجاعته وبسالته لم تزيده إلا شقاءً » . فسأله المندوب : « وماذا كان اسم هذا النقيب ؟ » فأجاب القسيس : « كان يدعى روي بيرث دي بيدما ، ولد في قرية بجبال ليون ، وروى لي عن أبيه وإخوته حكاية عجيبة لولأن قائلها رجل صدوق لعددها من تلك الخرافات التي تروى عند المدفأة إبان الشتاء . قال لي أن أباه وزّع كل أمواله بين أولاده الثلاثة ، وأسدى لهم نصائح أحكم من نصائح كاتو ، وأنه اتخذ مهنة السلاح ونجح فيها حتى أنه بعد قليل من السنوات ، وبغير عون إلا شجاعته وبسالته ، صار نقيباً في سلاح المشاة ، وكان على وشك الحصول على رتبة قائد عسكري ، لكن عاكسه الحظ وهو في أوج أمانيه لأنه فقد حربيته في يوم معركة لبيانتة السعيد ، وهو الذي حرّر الكثيرين من الأسرى . أما أنا فقد أسرت في حلق الواد ، وبعد ذلك ، من خلال أحداث عديدة ، صرنا زملاء الشقاء في القسطنطينية . ثم جاء بعد ذلك الى الجزائر ، حيث وقعت له أغرب الأحداث » .

ثم روى له القسيس بإيجاز كل ماجرى بين ثريا وأخي المندوب وكان هذا يصغي اليه بانتباه بالغ . ومضى القسيس في روايته حتى اللحظة التي جرد فيها الفرنسيون المسيحيين الموجودين في السفينة ، ووصف ماعانا زميله وثريا من بؤس وشقاء ، وختم قائلاً إنه لا يدري هل وصلا الى اسبانيا أو ساقهما القراصنة الى فرنسا . واستمع الأسير - وكان منتحياً ناحيته - الى كل ما قاله القسيس ، وتابع بعينه كل حركات أخيه فلما رأى هذا أن القسيس توقف عن الكلام تنهّد تنهيدة عميقة وصاح وعيناه مليئتان بالدموع : « آه ياسيدي لو عرفت أية أخبار أخبرتني بها ، وكم هي تمسني وتؤثر في نفسي ! إن هذه الدموع التي تراني أذرفها تفصح لك عن ذلك بما فيه الكفاية . إن هذا النقيب الشجاع الذي حدثني عنه هو أخي الأكبر ، وكان أشجع مني ومن أخي الآخر وأكثر ولعاً بالمغامرة ، فاختار مهنة السلاح الشريفة ، وهي إحدى المهن الثلاث التي اقترحها علينا أبونا ، كما قال لك زميلك . أما أنا فقد اخترت مهنة الأداب ، وقد وصلت فيها بفضل الله والاجتهاد الى المرتبة التي تراني فيها . أما أخي الأصغر فهو في بيرو ، وقد أثرى الى حد أن ما أرسله إلينا من مال سدّد به مأخذه من نصيب وأعطى والدي من المال ما مكّنه من إشباع سخائه الطبيعي ، ويسر لي أن أتابع الدراسة بيسر أكبر وكرامة أوفر . ولا يزال أبي في قيد الحياة ، لا يطمع إلا

في سعادة أن يرى ابنه الأكبر ، ويدعو الله دائماً ألا يفارق الدنيا قبل أن يحتضنه بين ذراعيه . لكن ما يدهشني هو أنه في وسط كل هذه الأشغال ، لم يبعث بأخباره الى والدي وما جرى له من خير أو سوء ، رغم أنه رجل عاقل فطين ، لأنه لو أن والدي أو أحدنا قد تلقى أنباء عنه ، لما كان أخي في حاجة الى معجزة العصا ليفتدي نفسه . وأخشى تماماً ألا يكون هؤلاء الفرنسيون قد أطلقوا سراحه ، أو أن يكونوا قد قتلوه لإخفاء نهجهم . وهذا القلق الفظيع سيكون سبباً في ألا أتابع سفرتي بنفس اللذة التي شعرت بها منها حتى الآن ، بل وأنا في غم وحزن . أي أخي الطيب ، ليت شعري أين أنت الآن ؟ سأغدوا للبحث عنك وإنقاذك حتى لو خاطرت في سبيل ذلك بحياتي . ولو كان والدي الشيخ العجوز يعلم أنك لاتزال حياً ، حتى لو كنت معتقلاً في أخفى سجون بلاد البربر ، لأستنقذك بأمواله وأموالي أو أموال أخي . وأنت يا ثريا الجميلة السخية ، من ذا الذي يستطيع أن يجازيك عما أسديت لأخي من معروف ؟ وما أسعدنا أن نحضر هذا الزفاف الذي سيملأنا بغاية الرضا ! » وكان المندوب ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، يكشف عن حزن عنيف ، حتى تأثر من سماعه كل الحاضرين .

لكن القسيس لما رأى أن براعته صادفت نجاحاً عظيماً بالنسبة الى قضية الأسير ، شاء أن يضع حداً للحزن المشترك ، نهض من المائدة ، وانتقل الى الغرفة الأخرى ، وأمسك بشريا من يدها ، وتبعها لوسنده ودوروتيه وابنة المندوب . وباليه الأخرى أمسك الأسير ، وأتى بكليهما الى المندوب وقال له ،

- خفف دموعك ، فهذا هو أخوك الطيب وهذه هي زوجة أخيك العزيزة . إنني أقدم لك النقيب بيدما والموروسكية الجميلة التي أسدت اليه خدمات جلّى . والفرنسيون الذين حدثتك عنهم جعلوه في الحالة التي تراه عليها ، كي يكون لديك الفرصة لتمارس فيه كرمك . فهرع النقيب « الأسير » لتقبيل أخيه ، وهذا استمر يتفحصه حتى تعرفه . وظل كل منهما بين ذراعي الآخر وقتاً طويلاً ، وهما يذرغان دموع الفرح ، مما أثار في نفوس كل الحاضرين . أما ملاطفات كل منهما للآخر وما تبادلاه من عبارات فوق كل تعبير ولا يمكن إيرادها .

وأخبر كل منهما الآخر عن أحواله ، وكشفا عن كل مافي قلوبهما من طيبة . وقبل المندوب ثريا وجعلها تقبل ابنته وترجو لها كل خير .

وأشاعت الفتاة الموروسكية الحنان في نفوس الجميع . ولاحظ دون كيخوته كل شيء ، واستمع دون أن ينطق بكلمة ، وفي جنونه نسب الى الفروسية الجوّالة كل هذه الأحداث

المفاجئة العجيبة . وتقرر أن يصحب النقيب «الأسير» وثرثريا والمندوب الى أشبيلية ، ويبلغ الأب عودة الإبن ، ليذهب الى هذه المدينة ، إذا استطاع ، لحضور تعميد ثريا وزفافها ، لأن المندوب لم يستطع تغيير اتجاه طريقه ، إذ بعد شهر سيبحر الأسطول من أشبيلية الى اسبانيا الجديدة وستكون خسارة كبيرة عليه أن يضيق هذه الفرصة .

وشارك الجميع في سعادة الأسير ، ولما مضى من الليل ثلثاء قرروا أخيراً الذهاب للنوم . وعرض دون كيخوته أن يتولى حراسة القصر ، خوفاً من أن يأتي مارد أو فارس غدار ، حاسد لما فيه من كنوز الجمال ، فيهاجم القصر إبان الليل . والذين كانوا يعرفونه وافقوا على عرضه هذا ، وأخبروا المندوب بجنونه الغريب مما سلاه كثيراً . وسنشو وحده هو الذي كان متصاقاً من التأخر في النوم الى هذه الساعة . ورتب أموره خيراً من الباقين ، بأن صنع لنفسه سريراً ببردة حمارة التي كلفته كثيراً كما سترى فيما بعد . وخرج دون كيخوته من الفندق ليقوم بالدورية كما وعد .

وقبل بزوغ النهار بقليل سمع صوت رخيم عذب جعل النسوة يرعين آذانهن ، وخصوصاً دوروتيه ، التي لم يغمض لها جفن ، وكانت راقدة الى جوار كلارا بيدما ابنة المندوب . ولم يستطع أحد أن يتخيل من ذا الذي يغني هذا الغناء الجميل ، كان صوتاً فحسب ، دون أية مصاحبة ، وكان يلوح أحياناً أنه آت من الفناء ، وأحياناً أخرى أنه آت من الإسطبل .

فاقترب كورنيو من باب السيدات ، وقال لهن :

« إذا لم تنمن ، إصغين وستسمعن بغالاً شاباً يغني غناءً ساحراً » .

فأجابته دوروتيه : « سنستمع اليه » ، وسمعته يغني الأغنية التالية :

الفصل الثالث والأربعون

قصة البغال الشاب، وأحداث أخرى غريبة
وقعت في الفندق

في زورق خفيف
منوع التجديف
قد خضت بحر الحب
والحب يسبي القلب
لم أدر أين أرسى
والحب دوماً ينسى
لكن نجمي الهادي
في البحر كان الحادي
بقيت في هداه
لكن ، وياويلاه
غطى السحاب النجما
وساد ثم الظلما
لائور في السماء
والقلب في لأواء
يانجم ، ياذا الومض
ارحم شبابي الغض
وعد إلى الظهور
أنقذ بهذا النور
غريق حب غط
ولا تدعني قط

وأرادت دوروتيه أن تسمع كلارا هذا الصوت الجميل فأيقظتها برقة وقالت لها :
« عفواً ، إنني أوقظك لأني أريد أن أسمعك أجمل صوت في العالم » . فهبت كلارا واثبة ولم
تفهم في البداية ماقالته لها دوروتيه ، فلما كررت عليها هذه ماقالته أخذت في الإصغاء . ولم
تكذب تسمع بعض كلمات الأغنية حتى أحست برعدة في بدنّها وكأنها أصيبت بالحمى ،
وألقت بنفسها بين ذراعي دوروتيه وقالت لها : « آه ، يا عزيزتي ! لماذا أيقظتني ؟ إن أعظم
خير يمكن أن يصيبني في هذه اللحظة هو أن تغلق عيني وأذناي حتى لا أسمع هذا الموسيقىار
البائس » .

فقالت دوروتيه : ماذا تقولين يا بنية ؟ إن الذي يغني بغال شاب .
فقالت كلارا : كلا ، كلا ، إنه سيد نبيل يملك الضياع ، ومكانته في قلبي أمينة فلو لم
يفارق هو قلبي لاحتله أبداً .

فقالت دوروتيه ، وقد أدهشتها كلمات البنت الصغيرة وبدت لها عجيبة بالنسبة الى
سنّها : يا عزيزتي ، اشرحي ماذا تقصدين ، لأني لأفهم شيئاً مما تقولين . مابالك تتحدثين
عن المكانة ، والقلب ، وعن هذا الموسيقىار الذي يسبب لك كل هذا الاضطراب ؟ تكلمي
ولا تخشي شيئاً أو بالأحرى لا تقولي لي شيئاً الآن ، لأني لأريد أن أضيّع ، وأنا أسمعك اللذة
التي أستشعرها وأنا أسمع ، ويخيل اليّ أنه بسبيل إنشاء أغنية جديدة .
فقالت كلارا : كما تحبين .

وفي الوقت نفسه وضعت كلارا يديها على أذنيها حتى لا تسمع شيئاً ، وهو أمر أدهش
دوروتيه كل الإدهاش . وكان نص الأغنية هكذا :
« يا أُملي الحلول يا من تتغلبين على الصعاب والعقاب وتشقين طريقك الذي رسمته
لنفسك بمثابرة وثبات ، ولا تقنطي إذا رأيت نفسك في كل لحظة على وشك الهلاك .
« إن الكسالى المتراخين لا يظفرون بانتصارات مشرقة ولا تتوج هاماتهم بالنصر .
والسعادة ليست لأولئك الذين لا يكافحون ضد سوء الحظ ، بل يسلمون كل حواسهم برخاوة
الى البطالة الرخوة .

« أمّا أن الحب يبيع نعمه بأثمان غالية ، فهذا عين العدل والحكمة ، لأنه لاجوهرة أئمن
من تلك التي حذّرتها أمنيّتنا ، ومن الواضح أن الناس لا يقدرّون أبداً ما لا يكلف إلا قليلا .
« إن المثابرة في الحب تحصل أحياناً على ما يبدو مستحيلاً . ولهذا فعلى الرغم من أن
ثباتي يسعى الى أصعب الأمور ، فإنني مع ذلك لا أياس أبداً من الصعود من الأرض الى
السماء » .

وهنا سكت الصوت ، وأرسلت كلارا من جديد زفرات ، مما زاد في رغبة دوروتيه في استطلاع السبب في هذه التنهدات الغرامية واضطراب البنت . فأعادت أسئلتها ، ولكن كلارا وقد خافت أن تسمع لوسنده ، قبلت دوروتيه بحنان ، وهمست في أذنها قائلة : « إن الذي يخطي ، يأسدتتي العزيزة ، هو ابن عين من أعيان اقليم أرغون ، يملك ضيعتين ، وبيته في مدريد يواجه بيت أبي ، ولقد كانت نوافذنا مسدودة بالشيش في الصيف وبستانر من التيل في الشتاء ، لست أدري كيف ، لكن هذا الرجل النبيل الذي كان يذهب الى المدرسة رأيي إما في الكنيسة أو في مكان آخر : فصار عاشقاً لي ، وأسمعتني كلمات غرامه من نوافذ بيته ، بمظاهر حامية جعلتني أعتقد صدق حبه ، بل جعلتني أعشقه ، دون أن أعرف بعد ماذا يريد مني . ومن بين الإشارات التي كان يحدثها أنه كان يضم يديه كفّاً لكفّ وكأنه يريد أن يفهمني أنه يريد الإقتران بي . وودت لو تمّ هذا الزواج ، لكنني كنت وحدي ، بلا أم ، ولا أعلم لمن أفضي بسري وكان التلطف الوحيد الذي أبديته هو أنه حين يخرج والدانا ، كنت أفتح الشيش نصف فتح وأريه نفسي ، مما كان يملؤه سروراً الى حد يكاد يفقد العقل معه . وفي تلك الأثناء حدث رحيل أبي ، وقد علم نبأه من غيري ، فلم أكن أبداً لأخبره بشيء من ذلك ، فمرض حزناً من ذلك ، فيما أقدر ، ولهذا لم أستطع أن أراه في اليوم المحتوم ، يوم الرحيل ، لأودعه ، ولو بالنظرات . لكن بعد يومين من سفرنا ، رأيته عند باب فندق دخلناه ويبعد عن هنا بمقدار مسيرة يوم ، وكان بزي بقال ، ومتنكراً تنكراً لا يتعرفه أحد لولا أن قلبي كان دليلي فتعرفته .

فأدهشني مرآه وسبب لي فرحة . وكان يتطلع الى اخلاصاً ، لأنه يخطي ، من والدي في الطرقات والفنادق التي ننزل فيها . أمّا وأنا أعرف حاله ، فإني حين أفكر في إنه يمشي هكذا على قدميه من أجل حبي ، متحملاً التعب والمشاق ، يستولي عليّ اليأس ، وتتابع عيوني خطواته . ولست أدري لأي قصد يلاحقني ، وكيف فرّ من بيت أبيه الذي يعزه كثيراً إذ ليس له من وريث غيره ، على أن هذا الشاب يستحق المعزة من كل ناحية واعتبار ، وتستطيعين أن تصدقي ذلك لورأيته . وأقول لك أيضاً إن كل ما يغنيه هو من نظمه : لأنني سمعت أن عنده موهبة عظيمة لقرض الشعر وإذا سمعت صوته شعرت بإنفعال بالغ ، لأنني أخشى أن يعرفه أبي ويكتشف تواطننا . وإني أعترف لك ، وإن كنت لم أحادث هذا الشاب أبداً ، أنني أشعر حقاً بأنني لا أستطيع العيش بدونه . وهذا ، يا سيدتي العزيزة ، هو كل ما أستطيع أن أقوله لك عن هذا الموسيقار الشاب ، الذي أعجبك صوته وأن روعة صوته لتكفي كي تدركي أنه ليس مجرد بقال ، بل فتى نبيل الأرومة » .

فقلت دوروتيه وهي تقبلها : كفى ، كفى ! لنتنظر حتى الصباح ، لأنني آمل أن تكون خاتمة مسألتك سعيدة بقدر ماكانت أوليتها شريفة مؤثرة .

فقلت كلارا : وأية خاتمة يمكن أن أرجيها ، مادام أبوه من الشراء والجاه بحيث لن يجدني أبداً جديرة بأن أكون زوجة ابنه ؟ أما أن أتزوج به غير علم أبي فلاشيء في الدنيا يمكن أن يحملني على الموافقة عليه . إنني أود أن يعود هذا الفتى الى أهله وأن يتركني وشأني ، ولعل في طول الطريق الذي سأسلكه ما يخفف من أحزاني ، وإن كنت أخشى ألا يكون هذا الدواء ناجعاً شافياً . ولست أدري أي جنني يلاحقني ، ومن أين هذا الحب الذي استشعره نحوه إن كلينا شاب في ميعه الصبا الأول ، لأنني أظن أننا في سن واحدة ، وأبي يقول أنني سأبلغ السادسة عشرة في عيد القديس ميخائيل .

ولم تتمالك دوروتيه من الضحك على سذاجة كلارا ، وقالت لها : ألا فتستريح بقية الليل ، وغداً سأسعى في أمرك ، أو سأضيق جهدي فيه .

ثم ناما ، وساد الفندق صمت عميق . لكن ابنه صاحبة الفندق وماريتورنس وحدهما لم تناما ، فإنهما وقد عرفتا مزاج دون كيخوته الغريب وهو كان يقوم بالحراسة في خارج الفندق راكباً روثينانته ومسلحاً من رأسه حتى قدميه ، قررا أن يعبثا به ، أو على الأقل يسخرنا من حماقاته .

ولم يكن في الفندق نافذة تفتح على الحقول غير كوة كان يلقي منها بالتبن الى الدواب . جلست الفتاتان عند هذه الكوة وأبصرا دون كيخوته راكباً فرسه ، متكئاً على رمحه ، ينفث زفرات عميقة جداً الى حد أنه يخيّل الى المرء أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة . ثم أنه بعد ذلك صاح بصوت عاشق حنون : « يا سيّدة أفكاري ، أي دلشيا دل توبوسو ، ياكمال الجمال ، ومثال الحكمة ، وكنز المفاتن التامة ، ومستودع كل الفضائل ، ونموذج كل ماهو مفيد وشريف ولطيف ولذيذ في العالم ، ماذا يفعل الان لطفك ؟ هل تتنازلين فتهتمني بهذا الفارس ، عبدك . الذي من أجل خدمتك وحدك ، يعرض نفسه عن طيب خاطر لكل هذه المخاطر ؟ وأنت أيتها الربة المثلثة الأوج^(١) ، أنبئيني بأخبارها ، لعلك تغارين من جمال وجهها . فيلذ لك أن تتأملها وهي تترئّض في بهو من أبهاء قصورها الفخمة ، أو مستندة الى افريز طنفيها ، وهي تحلم بوسائل لتهدئة عذاب قلبي الحزين ، دون أن تمس مجدها وفضيلتها ، وتتعطف بما يعرض عن آلامي ، وبهدنة لهمومي ، ومكافأة لخدماتي ، وبالجملة

(١) القمر (وهو مؤنث في اللغات اللاتينية) منظوراً اليه بوصفه فيبو في السماء ، ودَيّاناً على الأرض ، وهيكاته في العالم السفلي .

تمنح الحياة لمن يموت من أجلها . وأنت أيتها الشمس ، يا من تسرعين الى ربط خيولك في عربتك ولتبكّري في القდوم للأعجاب بتلك التي أعبدها ، حبيبها من فضلك باسمي ، لكن حذار أن تمنحها^(١) قبلة ، لأنني سأغار منك أكثر من غيرتك من تلك الجاحدة الطائشة الجمال التي طالما جعلتك تركضين في سهول نساليا أو على شواطئ البنيوس ، في مكان لست أدري بعد ما هو^(٢) .

وكان دون كيخوته بسبيل متابعة مناجاته المؤثرة حين قالت له ابنة صاحبة الفندق ، بصوت هامس : « اقترب قليلاً ياسيدي ، أرجوك » . ولدى سماع هذه الكلمات أدار رأسه ، وشاهد ، على ضوء القمر ، وكان حينئذ بداراً ، أن أحد يناديه من تلك الكوة التي تجلت في ناظريه كأنها نافذة ذات أسلاك ذهبية ، كما في القصور الفخمة التي من نوع الفندق كما تخيله آنذاك . وفي اللحظة نفسها مثل له خياله الجنوني ، كما في المرة الأولى ، ابنة صاحب القصر ، وقد قهرها الحب ، فجاءت تبذل له مراودات جديدة . وبناء على هذه الفكرة ، أدار لجام روثيناته حتى لا يبدو سيئ الأدب ، واقترب من الكوة ، وقال للفتاة حين رآها :

- الحق ، أيتها السيدة الجميلة ، أني مشفق على رؤياك توجّهين خواطرك الغرامية الى من لا يستطيع أن يستجيب لها بقدر ماتستحقّين فلا تنسبي الذنب في ذلك الى الفارس الجوّال البائس الذي تربيته أمامك : فإن الحب يمنعه من ربط إرادته بواحدة أخرى غير تلك التي صارت من أول نظرة سيدة روحه . استميتك عذراً أيتها السيدة الجميلة ، عودي الى مخدعك ، ولا تضطرينني ، بإظهار رغباتك على نحو أوضح ، الى حملي على الظهور بمزيد من الجحود . ولو وجدت في شيئاً آخر غير الحب يمكن أن يحل محل حبك لي ، فأسأليني إياه : وإني لأقسم بعدوة قلبي الرقيقة أنك ستنايلينه فوراً ، حتى لو طلبت خصلة من شعر ميدوزا المقمّمة بالأفاعي ، أو أشعة من الشمس معبأة في قارورة .

فقلت ماري تورنس : سيّدتي ليست في حاجة الى شيء من هذا كله .

فقال دون كيخوته : وماذا تريد إذن أيتها القهرمانة الأمانة على السر ؟

فقلت ماري تورنس : إحدى يديك الجميلتين فقط ، حتى تستطيع ، حين تمسّها ، أن تسكّن حرارة الوجدان الذي يحرقها ، والذي حملها على المجيء الى هذه الأماكن ، وسط الأخطار العظيمة ، ولو عرف والدها ذلك لقطع على الأقل أذنيها .

(٢) لاحظ أن « الشمس » مذكّر في اللغات اللاتينية .

(١) هذه الجميلة الجاحدة هي ذفليس التي كانت تهرب من أبولون على شاطئ نهر البنيوس ، وظفرت بأن تتحول الى شجرة غاركي تنجو من عناقه .

فقال دون كيهوته : بودي لو رأيت هذا ، إنه سيمسك عن ذلك إن أراد ألا تحدث له أسوء خاتمة حياة يمكن أن يختم بها والد حياته بسبب أنه أهوى بالأذى على الأعضاء اللطيفة لابنته العاشقة » .

ولما كانت ماري تورنس واثقة أنّ دون كيهوته لن يتردد في تقديم اليد التي طلبت منه ، فقد فكرت في حيلة خبيثة ، جرت الى الاسطبل ، وأخذت خطام حمار سنشو پنتا ، ثم عادت بسرعة في اللحظة التي وضع الفارس فيها قدميه على سرج روثينانته ليبلغ النافذة ذات القضبان التي تخيل أنه شاهد فيها الفتاة المحطمة الفؤاد . وقال وهو يقدم اليها يده :

— ها هي ذي يدي ، إرهاب وجلاد كل الأشرار في الدنيا ، خذها ، ياسيديتي ، لم تمسها امرأة من قبل ، حتى ولا تلك التي اليها ينتسب كل شخصي . إنني أقدمها اليك لتقبيلها ، بل لتعجبي بمعاقد أعصابها ، وتعانق عضلاتها وضخامة عروقه ، ومن هذا تحكمين على قوة الساعد الذي له مثل هذه اليد .

فقال ماري تورنس : هذا ماسنراه حالاً .

وفي الوقت نفسه عملت خية في الخطام ، ووضعتها حول الرسغ ، ونزلت من الكوة ، وربطت بإحكام الطرف الآخر من الخطام في باب المخزن .

فلما أحسّ دون كيهوته بشدة هذه الربطة صاح : « يا إلهي ! سيدتي ! بدلاً من التربييت على يدي لكأنك تستحقينها . لاتعاملها بكل هذه القسوة ، فهي ليست السبب في الألم الذي أجعلك تتحمّلينه ، إنّ هذا الجزء الصغير لايمكن أن يكون مسؤولاً عن الكل » .

وعبثاً راح يشكو ، فلم يصغ اليه أحد ، لأنّ ماري تورنس لم تكن تعتقد العقدة حتى هربت كلتاها وهما يختنقان من الضحك ، وتركاه من المستحيل عليه أن يخلص نفسه . كان ، كما قلنا ، واقفاً على ظهر فرسه روثينانته ، وذراعه داخل في الكوة ، ورسغه مربوط بمزلاج الباب ، لا يستطيع أن يتحرك خوفاً من أن يظل معلقاً بذراعه ، لو تحرك فرسه أدنى حركة ، وإن كان من الممكن الأمل في أن يظل الفرس قرناً كاملاً دون أن يتحرك ، نظراً الى صبره وهدونه . فلما رأى دون كيهوته نفسه مربوطاً هكذا ، ولم يعد يسمع صوت أحد ، خيل اليه أن كل شيء في هذا القصر الملعون يتم بالسحر ، كما في المرة الأخرى ، حينما انهال عليه المغربي المسحور ، أعني البقال ، بالضربات المتوالية . ولعن عدم تحوطه بالعودة الى مكان خرج منه للمرة الأولى ممزقاً . أما كان من الواجب عليه أن يعرف أنه إذا جرب الفارس الجوال مغامرة فلم يفلح فيها فإنّ هذا دليل على أنّ المغامرة من اختصاص فارس جوال آخر ، وتبعاً لذلك فمن غير المفيد محاولتها مرة أخرى ؟

ولكنه حاول مع ذلك أن يخلص ذراعه فشدّه ، لكنه كان موثقاً بإحكام بحيث أخفقت كل مجهوداته : صحيح أنه كان يشد بحذر واحتياط ، خوفاً من أن يقوم روثينانته بحركة ما ، لكن على الرغم في رغبته الشديدة في أن يستوي على سرج فرسه راكباً ، اضطر أن يبقى واقفاً وإلا لقتلعت يده . وكم كان يتشوق آنذاك الى سيف أماديس الغالي الشهير الذي كان يقضي على كل سحراً لعن سوء حظّه ، وتمثّل أي ضرر يصيب العالم كلّ طول مدة سحره : لأنّه لم يشك لحظة واحدة في أنّه كان مسحوراً . ناجى حبيته دلثنيا ، ونادى تابعه المخلص سنشو الذي كان نائماً على برذعة حصاره يغط في سبات عميق ولا يتذكر أمّه ، وناجى الحكيمين لرجنديو والقيف ، وصديقه الطيبة أورجنده . وأخيراً طلع عليه النهار وهو في يأس بالغ حتّى كان يخور خوار الثور ، لأنّ لم يتوقّع من النور أي سلوى ، وظن أن سحره أبدي ، وأيد له ذلك ثبات روثينانته ، حتّى اعتقد أنّه سيظل على هذه الحال دون طعام ولا شراب ولا نوم ، هو وفرسه ، حتّى يتبدّد تأثير الكواكب الخبيث ، أو ينقذه من هذه الحال ساحر أبرع .

لكنه أخطأ كثيراً في تقديراته ، لأنّه لم يكّد الفجر يبرز حتّى وصل الى الفندق أربعة يركبون خيولاً وهم مجهزون خير تجهيز ، ومسلّحون بأسكوبات^(١) ، وقرعوا الباب قرعات متواليات . فلما شاهدهم دون كيخوته ، من فوق حصانه ، صاح فيهم بصوت متعجرف : « فرساناً كنتم أم سواساً ، لا يخلق بكم أن تقررنا هكذا باب هذا القصر ، إذ عليكم أن تتذكروا أن سكّان القصر في هذه الساعة نائمون ، وليس من المعتاد فتح الحصون قبل مطلع الشمس . انسحبوا ، انتظروا حتّى الضحى ، وسنرى حينئذ هل من المناسب أن نفتح لكم أو لا . فقال أحد هؤلاء راكبي الخيل ، أي حصن أو أي قصر هذا المنزل ، لتقتضي منا كل هذه المراسم ؟ إذا كنت صاحب الفندق ، فافتح لنا ، فنحن مسافرون لا نريد غير شعير لخيولنا ، وسنتابع سيرنا ، لأننا في عجلة .

فقال دون كيخوته : وهل يبدو عليّ يا سادة ، مظهر صاحب فندق ؟ فقال الآخر : لا أدري من تكون ، ولكنني أعلم حق العلم أنّك تحلم حين تسمّي هذا الفندق قصرأ .

فقال دون كيخوته : إنه قصر ، أقول لك ، ومن أفخر القصور في المنطقة : ويسكنه قوم حملوا الصولجان في يمينهم والتاج على رؤوسهم .

(١) كلمة إيطالية الأصل Schioppetto ومعناها : بندقية صغيرة ذات دواليب (عجل) تحمل في اليد ، وكان يتسلّح بها المشاة وبعض الفرسان الخفاف ابتداء من القرن الخامس عشر ، وكانت ماسورتها من الحديد ، وتتميز من الفوهة .

فقال المسافر : بل العكس هو الصحيح ، السيف على الرأس : والتاج في اليد^(١) ، ربّما كان هنا فرقة من الممثلين الهزليين الذين كثيراً ما يحملون السيف والتاج ، لأنه لا يمكن تصوّر غير هذا في فندق حقير المظهر هكذا .

فقال دون كيخوته : أوه! كم أنت لاتعرف الدنيا ، لأنك تجهل المغامرات الرائعة التي تقوم بها الفروسية الجوّالة .

فلما تضايق المسافرون من كلام فارسنا (دون كيخوته) أخذوا من جديد في قرع الباب بشدة أكبر ، حتّى استيقظ صاحب الفندق وسائر من في الفندق ، وغدا يرى من ذا الذي يقرع هكذا . وفي هذه اللحظة نفسها ، أقبل أحد خيول هؤلاء الرجال وشم روئيناته الذي كان يحتمل دون حراك جسم صاحبه الممتد ، وهو حزين وأذناه مرتختتان ، ولما كان روئيناته من لحم ودم ، وإن كان من الممكن الظن أنه من خشب ، فقد انتعش ، وأراد هو الآخر أن يشم الحيوان الذي يداعبه هذه المداعبات ، لكنّ لم يكد يقوم بحركة خفيفة حتّى انزلقت رجلا دون كيخوته من السرج ، وكاد يسقط على الأرض لولا أنّ ذراعه كان مربوطاً ، ممّا سبّب له ألماً شديداً جداً كما لو كانوا يقطعون يده أو يقتلعون ذراعه . وكان قريباً جداً من الأرض حتّى ليكاد يمستّها بطرف قدميه ، وكان هذا عذاباً فوق عذاب يعانيه هذا المسكين ، لأنّه وقد شعر بقربه من الأرض بذل محاولات يائسة غير مجدية ليقف على الأرض ، مثله مثل أولئك الذين يعطى لهم الموطىء فيزيدون بذلك عذابهم أملاً في أن يمستوا الأرض بمط أرجلهم .

(١) إشارة الى ماجرت به العادة من وشم أيدي المجرمين برسم التاج .

الفصل الرابع والأربعون

تلاوة الأحداث الغريبة التي وقعت في الفندق

أطلق دون كيخوته صرخات شديدة حتى أسرع صاحب الفندق ففتح الباب فزعا ليرى من أين أتت هذه الصرخات ، كذلك فعل الذين كانوا في الخارج . وأفاقت ماريثورنس على هذه الصرخات نفسها وهي تعلم من أين مأتاها ، فهرعت الى المخزن ، ودون أن يراها أحد حلت الخطوم الذي ربطت به دون كيخوته فسقط هذا على الأرض ، أمام صاحب الفندق وراكبي الخيول الأربعة . فسأله الجميع ماذا جعله يصرخ هكذا ، لكنه دون أن ينطق بكلمة نزع الخطوم من رسغه ، ونهض ، ووثب على روثينانته ، ولبس ترسه ، وأمسك برمحه ، ثم ابتعد قليلاً ليتخذ مسافة ، ثم عاد راكضاً وهو يصيح :

— من يرد أن يدعي أنني سحرته عن حق أقل له أنه كذب ، وإذا أذنت لي الأميرة ميكوميكونا تحديته للمبارزة .

فتطلع إليه القادمون الجدد (راكبو الخيل الأربعة) باندهاش ، لكن صاحب الفندق بدد دهشتهم بأن أخبرهم عن أحوال دون كيخوته وأضاف أنه لا ينبغي الانتباه الى مايقول ، لأنه مجنون . فسأل هؤلاء الخيالة بعد ذلك صاحب الفندق هل جاء الى فندقه شاب في سن الخامسة عشرة يلبس زي بقال ، صفته كذا وكذا ، وذكروا أوصاف عاشق كالارا . فأجاب صاحب الفندق بأن في فندقه عدد كبير جداً من الناس ، ولهذا لا يستطيع أن يقول شيئاً ، لكن لما تعرف أحدهم عربية المندوب صاح : نعم ، إنه لابد أنه ها هنا ، فهذه هي العربية التي لابد قد تبعها ، فليبق أحدنا بالباب ، بينما يبحث الآخرون في كل زاوية بل من المستحسن أيضاً أن يدور أحدنا حول الفندق خوفاً من أن يقفز من فوق سور الفناء . فأجاب أحدهم : سأتولى ذلك .

وهكذا وقف أحدهم لدى الباب ، ودخل إثنان في الفندق ، والرابع دار حول الأسوار .

وتركهم صاحب الفندق يفعلون ما يريدون ، وهو لا يعلم لأي سبب يبحثون عن هذا الفتى . وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، وكانت صيحات دون كيخوته قد أيقظت الجميع ، وهرع الكل للنهوض ، خصوصاً دوروتيه وكالارا اللتان لم تتمكنا من النوم ، إحداهما مما أصابها من إفعال شديد بسبب وجود عاشقها بالقرب منها ، والأخرى (دوروتيه) رغبة في رؤيته . وكان دون كيخوته يختنق غضباً ، وهو يرى أنه لم يقبل تحديه أي واحد من القادمين الجدد بل ولم يلق بالآ إليه . ولو أنه قرأ في قوانين الفروسية أن الفارس الجوال ، رغم وعده بالآ يلقى نفسه في أية مغامرة ، يمكنه أن يحاول مغامرة جديدة ، لكن قد هاجمهم جميعاً ، وأرغمهم على الرد عليه ، لكن الكلمة التي أعطاها إلى الأميرة ميكوميكونا بأن يبدأ أولاً بتنصيبها على عرشها ، ألزمته بأن يعتصم بالهدوء بانتظار نتيجة تفتيشات هؤلاء الرجال . وأخيراً وجد أحدهم من يبحثون عنه ، وهو نائم بجوار بقال ، دون أن يخطر بباله أنهم يفتشون عنه ناهيك بأن يعثروا عليه . وأخذه من ذراعه وقال له ،

– الحق ، ياسيدي دون لويس ، أني أجذك في لباس خليف بمركزك ، وهذا السرير يناسب تماماً الرفاهية التي ريتك أمك عليها

وفتح الفتى عينيه وهما لا تزالان مثقلتان بالنعاس ، وتأمل فيمن يمسكه من ذراعه ، وعرف أنه خادم عند أبيه ، فأرتج عليه وهو لم يحر جواباً . وتابع الخادم الكلام قائلاً ،
– سيدي ، إن ماعليك فعله هو أن تصبر وتعود إلى بيت أبيك ، إذا أردت ألا يذهب إلى الآخرة ، لأنه لا يتوقع شيء آخر نتيجة للحزن الذي أحدثته غيبتك .

فسأله دون لويس ، ومن أدري والذي أني اتخذت هذا الطريق ، وتنكرت بهذا الزي ؟ فقال الخادم : تلميذ ، تقضي إليه بأسرارك ، اكتشف ذلك وقد تأثر من ألم والدك لما سمع بخبر هرويك . وفي الحال بعث أبوك بأربعة من خدمه للجري في أثرك ونحن جميعاً رهن أوامرك ونحن راضون كل الرضا لهذا الخبر السعيد الذي سنسوقه إلى والدك ، ونحن نعيدك إليه ، وهو يحبك دائماً .

فقال دون لويس : سيكون الأمر كما أريده ، أو كما تقضي به السماء . فقال الخادم : وماذا يمكنك أن تقرّر ، أو ماذا يمكن أن تأمر به السماء غير أن تأتي معنا ، لأنه لا يمكن أن يحصل غير ذلك ؟

فلما سمع البقال ، الذي كان ينام إلى جواره دون لويس ، هذه الأقوال ، نهض ، وأخبر بها دون فرندو وكردنيو والباقيين وكانوا قد نهضوا ، وأضاف أن الخدم يلقبون الفتى بلقب (دون) ، وإنهم يريدون أن يعيدوه إلى أبيه بينما لا يريد الفتى أن يعود . وهذه الأخبار ،

مضافة الى السرور الذي أحدثه في نفوسهم صوت الفتى ، ألهمتهم الرغبة في أن يعرفوا عنه تفاصيل أوفى ، بل وأن ينجدوه لو استخدم الخدم القوة القاهرة مع الفتى . فتوجهوا الى الاسطبل ، حيث وجدوه يتجادل مع خادمه . وفي تلك اللحظة خرجت دوروتيه من غرفتها ، تتبعها دونيا كلارا وهي في غاية الإضطراب : ودعت كردنيو وقالت له بصوت خفيض وبقليل من الكلمات ماهي حكاية الموسيقىار والبنيت الصغيرة . وهو من جانبه روى لها مقدم خدم دون لويس ، لكنه لم يستطع أن يقوله بهمس يمنع كلارا من سماعه : فتأثرت كل التأثر ولولا أن دوروتيه أمسكت بها لسقطت على الأرض . فطلب كردنيو من دوروتيه أن تدخل غرفتها ، وأنه هو سيعمل لعلاج الأمر كله . وأحاط خدم دون لويس الأربعة به ، وبدلوا جهدهم لإقناعه بالعودة الى أبيه . فأجابهم أنه لا يستطيع العودة قبل أن ينهي مسألة تتوقف عليها حياته ، وشرفه وسعادته . وضغط عليه الخدم ، قائلين أنهم لن يعودوا بدونه ، وسيأخذوه طوعاً أو كرهاً .

فقال لهم دون لويس : لن تأخذوني إلا ميتاً ، لأن حملي على الرحيل معناه انتزاع الحياة مني ، على كل حال .

وفي هذه اللحظة كانت ضجة النزاع قد جذبت كل من كانوا في الفندق ، ومنهم كردنيو ودون فرنندو وأصدقائه ، والمندوب ، والقسيس والحلاق بل ودون كيخوته نفسه الذي رأى أن القصر لم يعد في حاجة بعد الى حراسة . وكردنيو ، وقد عرف حكاية الفتى ، سأل الخدم لأي سبب يريدون أن يأخذوه رغماً عنه . فقالوا : « لرد الحياة الى أبيه الذي يقرب غياب ابنه من ذهابه الى القبر » ، فقال دون لويس : « لا حاجة الى حكاية شؤوني هنا ، أنا حر ، وسأعود إذا أنا أردت ، ولن يستطيع واحد منكم أن يرغمني على العودة » . فقال الخادم : « سيرغمك العقل على ذلك ، فإن لم يستطيع العقل شيئاً معك ، فإنه يعلمنا أن نقوم بواجبنا » . فقال المندوب : « لنتبين مامعنى هذا كله » وأدرك الخادم أنه جار لبيت سيده فقال له : « يا سيدي المندوب! ألا ترشد هذا الشاب ، ابن جارك ، الذي هرب من بيت أبيه ، وهو يلبس زياً لا يليق بمكانته ، كما تراه ؟ » فنظر المندوب في الفتى بإمعان ، وتعرفه ، وقبله وقال له : « ماهذه الأعمال الصبيانية يادون لويس ؟ وما هي الأسباب القوية التي يمكن أن تكون قد حملتك على السفر هكذا ، على حال لا تتفق مع صفتك ؟ » فأنشأ الفتى في البكاء ولم يحرق جواباً . وطلب المندوب من الخدم أن يهدأوا ، وقال أن كل شيء سيسير على مايرام . وأخذ دون لويس من يده ، وانتحى به ناحية ، وسأله عن السبب في سفره .

وبينما كان يستجوب الفتى ، سمعت صيحات عالية عند باب الفندق : ذلك أن رجلين أمضيا الليل فيه لمّا شاهدها الكل مشغولين لدى البغال المزعوم (الفتى) حاولا الذهاب دون أن يدفعوا الأجرة ، ولكن صاحب الفندق ، وهو أحرص على الاهتمام بأموره الخاصة به بأمور الآخرين ، فاجأهما لدى الباب ، وطالبهما بالأجرة ، وقرن طلبه هذا بشتائم بذيئة حتى رأيا من واجبهما الرد عليه باللكمات ، وهجما عليه هجوماً عنيفاً جعله يضطر الى طلب النجدة . فهرعت صاحبة الفندق وبنتها ، لمّا قدرتا أن دون كيخوته أقل الجميع انشغالا ، بحثتا عنه ، وقالت البنت له : « سيدي الفارس ، بحق الشجاعة التي منحك الله ، أغث أبي المسكين الذي انهال عليه رجلان بالضرب المبرح » . فأجابهما دون كيخوته بكل برود : « يا أنستي الجميلة لا أستطيع الإستجابة لالتماسك في هذه اللحظة ، لأنه ممنوع علي القيام بأية مغامرة قبل أن أنهى تلك التي أعطيت كلمتي بشأنها » وكل ما أستطيع فعله لك هو أن أدعوك للذهاب الى أبيك لتقولي له أن عليه أن يصمد ويدافع عن نفسه قدر المستطاع ، وخصوصاً ألا يدع نفسه يهزم بأي حال من الأحوال ، بينما أغدوا أنا الى الأميرة ميموميكونا أسألها الإذن لي بنجدة أبيك . فإن سمحت بذلك ، فتأكدي أنني سأخلص أباك » . فصاحت ماريتورنس : « يا لي من حزيمة شتية! قبل أن تحصل على الإذن الذي تتكلم عنه ، سيكون سيدي المسكين في العالم الآخر » . فقال دون كيخوته : « تحملي ياسيديتي أن أطلب هذا فإذا حصلت عليه ، لا يهم أن يكون أباك في العالم الآخر أو في الآخرة ، فإني سأقدر على تخليصه بالرغم من العالم نفسه ، أو على الأقل سأنتقم من القتل إنتقاماً ترضين عنه » . ودون أن يتوقف أكثر من ذلك هرع وألقى بنفسه عند ركبتي دوروتيه والتمس منها ، بأسلوب الفارس الجوال ، الإذن بنجدة السيد صاحب القصر الذي هو في خطر داهم . فأعطته الأميرة الإذن عن طيب خاطر ، وهو في الحال حمل ترسه ، ووضع السيف في يده ، وهرع الى باب الفندق ، حيث كان النزيلان يضربان صاحب الفندق . لكنّ توقف في الحال وظلّ بغير حراك ، رغم صرخات ماريتورنس وصاحبة الفندق اللتين سألتاه عما يمنعه من النجدة . فقال دون كيخوته : « لقد توقفت ، لأنه ليس من المسموح لي بأن أنازل سواساً ، لكن ناديا سانسني سنشو » فهذه العملية من شأنه هو » . وجرى هذا المنظر عند باب الفندق ، حيث انهمرت اللكمات والصفعات على صاحب الفندق المسكين ، على الرغم من ماريتورنس وصاحبة الفندق وابنتها ، اللواتي ينسن من جبن دون كيخوته ومن الضربات التي تلقاها رب البيت . لكن لندعه هناك فترة ، فلن يعدم من يغيثونه ، وليخرس من يعد بأكثر مما عليك . لنرجع القهقري خمسين خطوة لنرى بماذا أجاب دون لويس على المندوب الذي سأله السبب في

سفره ماشياً وبهذا اللباس الخشن الغليظ . لقد أمسك الفتى بيدي المندوب بقوة وكأنه يرهقه ألم عظيم ، وبعد أن ذرف سيلاً من الدموع قال له : « سيدي! إنني لا أستطيع أن أجيبك بشيء آخر غير أن السماء وجوارنا أرادا أن أرى دونيا كلارا ، ابنتك ، وفي الحال جعلتها سيّدة أفكارك كلها ، وإذا لم تمنع إرادتك ، ياسيدي الحقيقي ووالدي ، فإنها تصير من اليوم زوجتي . من أجل هذا هربت من بيت أبي ، وتنكرت بهذا الزي لمتابعتها في كل مكان كما يبحث السهم عن الرقبة والبخار عن نجمه وهي لاتعرف عن حبي إلا ما دلّت عليه من بعيد عبراتي . وأنت يا سيدي تعرف نبل أهلي وثراءهم ، وتعرف أنني وريثهم الوحيد ، فإن بدت لك هذه المؤهلات كافية للطموح الى سعادة الإقتران بدونيا كلارا ، فتفضل بقبولي فوراً ابناً لك . فإن لم يقدر أبي ، وقد كوّن لي خطة أخرى ، أن يدرك الخير الذي أجتلبه بذلك لنفسي ، فإن للزمان قدرة على تغيير الأحوال أكبر من إرادة بني الإنسان » . وصمت العاشق الفتى ، ووقف المندوب مندحشاً لا يحير جواباً ، معجباً بالعبارات الحكيمة المتواضعة التي استخدمها دون لويس للكشف عن أفكاره ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يدري أي قرار يتخذ في ظرف مفاجئ كهذا . فاكتمى بأن يطلب إليه أن يهدأ ، وقال له إنه إذا استطاع أن يجعل خدم أبيه لا يأخذونه هذا اليوم ، فإنه سيفكر في الوسائل التي بها يرتّب الأمور على أحسن وجه . فقبل دون لويس يديه ، ورواهما بدموعه ، مما كان من شأنه أن يلين قلوباً من الممرور ، فما بالك بقلب المندوب ، وهو رجل عاقل لبيب ، رأى ما في هذا الزواج من مزايا عديدة لابنته ، وود لو حصل على موافقة والد دون لويس ، وهو يعلم أنه يريد أن يجعل من ابنه نبيلاً ذا لقب . وفي تلك الأثناء كان النزيلان قد تصالحا مع صاحب الفندق ودفعاً له الأجرة تحت تأثير نصائح دون كيخوته ، أولى من أن يكون ذلك تحت تأثير تهديداته . وانتظر خدم دون لويس نهاية المشاورات بين المندوب وبين سيدهم الفتى وقرار هذا الأخير ، وإذا بالشيطان ، الساهر دائماً ، يدخل في الفندق الحلاق الذي انتزع منه دون كيخوته خوذة ممبرينو ، وانتزع منه سنشو برذعة حماره ، التي قايض بها برذعته . وقاد الحلاق دابته الى الاسطبل فأبصر سنشو وهو يرتّب هذه البرذعة نفسها ، فتعرفها ، وأمسك بتلابيب سنشو وقال له : « آه ، أمسكت بك أيها اللص! أعد إلي فوراً صحن الحلاقة وبرذعتي مع السروج التي سرقتهما مني » . فلما رأى سنشو أنه أخذ على حين غرة وانهاالت عليه الشتائم ، أمسك البرذعة بيد وباليدين الأخرى لكم الحلاق لكمة جعلت فكّه كلها تفيض دماً . ولكن الحلاق لم يتركه وأخذ يصيح بأعلى صوته حتى هرع كل من في الفندق على صراخه وهو يقول : « العدالة! العدالة باسم الملك! هذا اللص ، قاطع الطريق ناهب أمواله ، ويريد أن يقتلني » .

فأجاب سنشو : « أنت كذاب ، أنا لست قاطع طريق ؛ إن مولاي قد فاز بهذه الغنائم نتيجة حرب حقيقية » . وكان دون كيخوته مفتوناً بالطريقة التي هاجم بها سائسه ودافع عن نفسه ؛ ورأى أنه رجل شجاع ، وفكر في أن يسلحه فارساً ، في أول فرصة تسنح ، معتقداً أنه سيكون مكسباً طيباً لطريقة الفروسية . ومن بين الحجج التي ساقها الحلاق أن قال : « سادتي ، إن هذه البرذعة ملكي ، مثل الموت الذي أدين به لله ، وأعرفها وكأنني أنا الذي صنعتها . وحماري هنالك في الاسطبل فليكدبني ؛ وإلا ، فجربوا عليه البرذعة ، فإن لم توافقه مثل القفاز . فقولوا عني نصاباً . وأكثر من هذا ؛ في اليوم الذي نهبت متي ، سرق متي كذلك صحن حلاقة من النحاس لم يستعمل بعد ، ويساوي اسكودو . هنالك لم يملك دون كيخوته نفسه من أن يجيب عليه . فوضع نفسه بين المحاربين ، وحجز بينهما ووضع البرذعة على الأرض حتى يراها الجميع ، وتوضح الحقيقة ، وقال : « سادتي ، لأبرهن لكم على خطأ هذا السائس الساذج (الحلاق) ، اعلّموا أنه يسمّي صحن الحلاقة ما كان ، وما هو ، وما سيكون دائماً خوذة ممبرينو ، واعلموا أنني أخذتها منه في حرب شريفة ، وتملكتها بطريقة شرعية . أما البرذعة فلا شأن لي بها . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن سائسي (سنشو) استأذني في انتزاع سرج هذا الجبان المهزوم ليضعها على حماره ؛ فأذنت له في ذلك ، فأخذها ، أما عن تحول هذا السرج الى برذعة ، فإنني لأستطيع تفسيره إلا بكون هذه التحولات شائعة في تاريخ الفروسية . ولتأييد ما قلته ، اجر ، يا ولدي سنشو ، وأحضر تلك الخوذة التي يسمّيها هذا الرجل العبيط صحن حلاقة » .

فأجاب سنشو : « يا مولاي ، إذا لم يكن لدينا دليل نسوقه غير هذا ، فإن الخوذة صحن حلاقة كما أن السرج برذعة » .

فقال دون كيخوته : « افعل ما أمرك به ، ليس كل ما يجري في هذا القصر يتم بالسحر » . فذهب سنشو لإحضار صحن الحلاقة ، وأتى به ، وأخذه دون كيخوته بين يديه وقال : « انظروا يا سادة . كيف يجرؤ هذا السائس (الحلاق) على أن يدّعي أن هذا صحن حلاقة وليس الخوذة التي قلت لكم عنها ؟ أقسم ، بحق طريقة الفروسية التي أمتنتها ، أنها هي التي أخذتها منه ، ولم أضف إليها شيئاً ولم أنقصها شيئاً » .

فقال سنشو : « لاشك في أنها هي ، لأنه منذ أن استولى عليها مولاي حتى الساعة وهو لم يستخدمها الا في معركة واحدة ، حينما خلّص مولاي المقيدين بالأغلال المساكين ، ولولا هذا الصحن - الخوذة ، لعانى وقتاً عصيباً ، لأنه تلقى ضربات بالأحجار لا حصر لها » .

الفصل الخامس والأربعون

وفيه تم إيضاح الشكوك المتعلقة بخوذة ممبرينو
والبرذعة، مع مغامرات حقيقة هي الأخرى

فقال الحلاق : «ماذا ترون ، يا سادة ، من هذين الرجلين اللذين يؤكدان أن هذا ليس
صحن حلاقة ، بل خوذة حقاً ؟» .

فقال دون كيخوته : «ومن يجرؤ على أن يؤكد عكس هذا أعلمته أنه يكذب ، إذا كان
فارساً ، وأنه كذب ألف مرة ، إذا كان سانساً» .

أما حلاقنا الأصلي (الأسطى نقولا) وكان حاضراً ويعرف تماماً مزاج دون كيخوته فقد
أراد أن يشجع جنونه ويدفع اللعبة الى أقصى حد لتسلية الجماعة ، فقال للحلاق الآخر :
«سيدي الحلاق ، أو أياً من كنت ، اعلم أنني من أهل مهنتك ، وحصلت على شهادة
الامتحان منذ أكثر من عشرين عاماً ، وأعرف آلات المهنة كلها بغير استثناء . وفضلاً عن
ذلك فقد كنت جندياً أيام شبابي ، ولهذا أعرف أيضاً الخوذات والبيض واليلب وسائر أسلحة
الحرب ، خصوصاً أسلحة الجندي . وأقول ، إلا إذا وجد رأياً أفضل ، وفوق كل ذي علم
عليه ، إن هذه القطعة التي يحملها هذا السيد الطيب (دون كيخوته) في يده هي ليست
صحن حلاقة ، بل هي أبعد ماتكون عنه بعد الأبيض عن الأسود والحقيقة عن الكذب ، وأقزر
أنها خوذة ، ولكنها ليست كاملة» .

فقال دون كيخوته : «لا قطعاً ، إذ ينقصها نصفها وهو رباط الذقن» .

فقال القسيس ، وقد فطن بسهولة لغرض الأسطى نقولا : «هذا صحيح» . وكان
كردنيو ودون فرنندو وأصحابه على الرأي نفسه ، وكان المندوب هو الآخر سيوافقهم على
الرأي نفسه لولا أنه كان مشغولاً كل الإنشغال بمسألة دون لويس ، مما منعه من إيلاء
انتباه كبير الى كل هذه الممازحات .

فقال الحلاق الآخر الذي كانوا يسخرون منه : «الله في عونى هل من الممكن أن

يحسب أناس شرفاء كهؤلاء صحن حلالة خوذة ؟ إنه لأمر يدعو الى دهشة أعلم الجامعات .
ولكن إذا كان هذا الصحن خوذة ، فلا شك في أن البرذعة ستكون سرج فرس ، كما قال هذا السيد .

فقال دون كيخوته : «إنها تبدو لي أنا برذعة ، لكنني قلت لك إنني لا شأن لي بهذا» .
فقال القسيس : «ولكن الحكم في هذا من اختصاص السيد دون كيخوته ، لأننا نعرف نحن جميعاً ، أنه يفوقنا في كل ما يتعلّق بالفروسية ونسلم له فيه» .

فصاح دون كيخوته : «وحق الله ياسادة لقد وقعت لي مغامرات غريبة جداً في هذا القصر في كلتا المرتين اللتين سكنته فيهما ، بحيث لأجرؤ على أن أقرّر شيئاً إيجابياً في أي أمر يقع فيه ، لأنني واثق أن كل شيء يحدث فيه بواسطة السحر . في المرة الأولى نكل بي منكل بواسطة مغربي مسحور كان فيه ، ولم يكن سنشو أحسن حظاً ، وفي هذه الليلة ، ليلة أس ، رأيت نفسي معلقاً من ذراعي طوال أكثر من ساعتين ، دون أن أعرف لماذا أو كيف وقع لي هذا الشر . ولهذا فإن الحكم على مثل هذه المسائل المشتبكة الغامضة سيكون طائشاً . لقد ذكرت لكم رأيي فيما يتعلّق بالخوذة ، لكنني لن أجازف أبداً فأقرّر هل هذه برذعة أو سرج ، وأوكل اليكم الفصل في هذا يا سادة . ربّما ، وأنتم لم تسلّحو فرساناً مثلي ، لا يؤثّر فيكم السحر ، وعقلكم إذن حر تستطيعون أن تحكموا حكماً سليماً على ما يجري في هذا القصر ، وأنتم تريدون الأشياء على حقيقتها ، لا كما تبدو» .

فقال دون فرنندو : «لاريب في شيء مما تقوله ، إنّ علينا نحن ، كما لاحظ بحق السيد دون كيخوته ، أن نفصل في هذه القضية ، وللسير في الأمر تبعاً للإجراءات القانونية ، سأتعرف رأي كل واحد منّا سراً ، وأخبركم بالنتيجة» .

وكان هذا المنظر مصدر تسلية هائلة لأولئك الذين عرفوا مزاج دون كيخوته ، وأما الأشخاص الذين لم يعرفوا دخيلة الأمر فلم يروا في ذلك إلا أسخف شيء في الدنيا ، ومن بين هؤلاء خدم دون لويس الأربعة ودون لويس نفسه وثلاثة قادمون جدد بدا أنهم رماة ، وكانوا كذلك فعلاً . والحلاق هو وحده الذي برح به اليأس والغيط وهو يرى ، أمام ناظريه ، أنّ صحن الحلالة قد تحوّل الى خوذة ، وأنّ البرذعة بدورها لا بدّ ستتحوّل الى سرج مطهم لفرس . وضحك هؤلاء وأولئك من رؤيتهم دون فرنندو ، وهو يهمس في أذن كل واحد ، ويجمع الآراء بجد عن موضوع هذا الخلاف العظيم . وأخيراً وقد استشار كل من عرفوا دون كيخوته ، قال بصوت عال : «أيها الرجل العيب ، لقد تعبت من استطلاع كل هذه الآراء ، ومن رؤية أنه لم يجب أحد بغير القول أنه من حماقة أن يسمّى هذا برذعة حمار ، بينما هو

في الحق سرج حصان ، بل وحصان أصيل ، فتجلّد واصبر اذن ، لأنه على الرغم منك ومن حمارك فإن هذا سرج وليس برذعة . لقد نازعت بغير حق ولم تقم الدليل .

فصاح الحلاق المسكين : « لا دخلت الجنة أبداً إن كنتم لستم جميعاً مجانين ، وإني لأشهد الله أن هذه برذعة وليست سرجاً . لكن هكذا تسير القوانين... ولا أقول أكثر من ذلك . ومن المحقق أنني لست سكراناً ، لأنني لم أكسر صيامي حتى الآن ، اللهم إذا كان ذلك بخطاياي . وكانت سداجة الحلاق تثير الضحك بقدر ما يثيره جنون دون كيخوته الذي قال : « لم يبق إذن شيء ، نعمله غير أن يسترد كل منا ما أعطاه الله ، وبركة القديس بطرس . هنالك صاح أحد الخدم ، « لاشك أن هذه مؤامرة مدبرة ، لأنني لا يمكن أن أقتنع أن كل هؤلاء الناس السليمي العقول الموجودين هنا - أو يظهر أنهم كذلك - يمكن أن يقولوا ويقرروا أن هذه ليست برذعة ، وذلك ليس صحن حلالة . لهذا أظن أن في المسألة سراً ، حينما أرى دفاعاً عن رأي مضاد للتجربة والواقع . وأقسم بأنه لا يستطيع أحد من الأحياء أن يجعلني أعتقد أن هذا ليس صحن حلالة وتلك برذعة حمار » .

فقال القسيس : « هذه يمكن أن تكون برذعة أتان » .

فأجاب الخادم : « هذا الشيء نفسه ، المهم هو أن نعرف هل هذه برذعة أو هي ما تقولونه أنتم » .

وصاح غاضباً أحد الرماة الذين جاءوا منذ قليل ، وكان قد سمع النزاع الذي وقع كله ، والله هذه برذعة كما أن أبي رجل ، ومن يقل غير هذا فسيكون سكراناً » .

فأجابه دون كيخوته : « أنت تكذب ، أيها الشرير الديني » ورفع رمحه الذي لم يتركه أبداً وراح ليضربه على أم رأسه ضربة شديدة ، ولولا أن الرامي تراجع لجندله على الأرض ، فتحطم الرمح على البلاط ، ولما رأى باقي الرماة زميلهم يعامل هذه المعاملة ، صاحوا : « القوة للأخوة المقدسة ! » وعند سماع هذه الكلمات هرع صاحب الفندق - وكان عضواً في هذه الجماعة - إلى مسكنه ليتناول سوطه وسيفه ، وعاد وانتظم في صف الرماة ، وأحاط خدم دون لويس بهذا الأخير خوفاً من أن يهرب منهم أثناء المعركة . ولما رأى الحلاق الفندق كله في اضطراب أراد أن يأخذ البرذعة ، وكذلك فعل سنشو . وامتشق دون كيخوته سيفه في يده ، وهاجم الرماة ، وصاح دون لويس في خدمه أن يتركوه ويذهبوا لنجدة دون كيخوته ودون فرنندو وكردنيو اللذين انضمّا إليه . وصاح القسيس ، وصاحت صاحبة الفندق ، وناجت ابنتها ، وبكت ماري تورنس ، وكانت دوروتيه ترتعد ، ولوسنده لا تحرك ساكناً ، ودون لويس ، الذي تجاسر أحد خدمه فأمسك به من يده خوفاً من أن يهرب ، لكن

هذا الخادم لكمة قوية أدمت فكّه . وداس دون فرنندو أحد الرماة تحت قدميه ، ولم يتوقف صاحب الفندق عن الصياح قائلاً : « النجدة للأخوة المقدسة! » .

حتى أنه لم يكن في كل الفندق غير الصرخات والتهديدات والدموع والاختلاط والفرع والضربات بالسيف والصفعات والضرب بالعصا والركل بالقدم والدماء تسيل غزيرة . وفي وسط هذا الاختلاط الهائل وهذا التيه العجيب نفذت في رأس دون كيخوته لمحة من النور ، فتمثل نفسه في معسكر اجرامنته وسط هذه المعركة . وصاح بصوت اهتزت له أرجاء الفندق « ليتوقف كل منكم ، ويلقى سلاحه ، وليهدأ وليسمع ما أقول إذا أراد إنقاذ حياته » . فتوقف الكل في الحال ، فقال :

« ألم أقل لكم يا سادة أن كل شيء في هذا القصر يتم بالسحر ، وإن فيلقاً من الشياطين قد اتخذوه مسكناً لهم ؟ ولكي أبرهن لكم على ذلك انظروا الى النزاع الذي ساد في معسكر اجرامنته كيف تسرب الى هذا المكان واضطرب بيننا ، تأملوا واعجبوا كيف يكافح الواحد من أجل السيف ، والثاني من أجل الفرس ، والثالث من أجل النسر ، والرابع من أجل خوذة ، نحن نتحارب جميعاً ولا يفهم أحدنا الآخر ولا يتفاهم بعضنا مع بعض . اقتربوا ، يا سيدي المندوب ، وأنت يا سيدي القسيس ، فليمثل أحدهما الملك أجرامنته ، والآخر الملك سوبرينو ، واعقدوا الصلح بيننا ، لأنه ، وأيم الله ، من العار أن يتعارك ناس فضلاء مثلنا ويقتل بعضهم بعضاً من أجل أمور تافهة كهذه » .

ولكن الرماة ، الذين لم يكونوا يفهمون شيئاً في أسلوب دون كيخوته ، ورأوا ما أصابهم من كردنيو ودون فرنندو والآخرين ، لم يريدوا وقف المعركة أبداً . والحلاق المسكين لم يطلب خيراً من هذا ، نصف لحيته بقي في المعركة ، والبرذعة تفككت وتمزقت شر ممزق وسنشو ، شأنه شأن كل سانس مخلص ، توقف لدى سماعه أول كلمة قالها مولاه ، وسكن خدم دون لويس ، وتذكروا أن كل هذا لم يكن يهتمهم في شيء ، وصاحب الفندق هو وحده الذي أصر على معاقبة المجنون الذي أحدث دائماً الاضطراب في فندقه . وأخيراً هدأ كل شيء ، أما البرذعة فبقيت سرجاً الى يوم يبعثون ، وصحن الحلاقة خوذة ، والفندق قصرأ في ذهن دون كيخوته .

ولما عاد السلام ، وعاد الأصدقاء بفضل نصائح المندوب والقسيس ، بدأ خادم دون لويس من جديد في الضغط عليه للعودة معهم في الحال ، وفي هذه الأثناء استشار المندوب القسيس ودون فرنندو وكردنيو ، وسرد عليهم الأسباب التي ذكرها الفتى (دون لويس) . فقرر أن يقوم دون فرنندو فيعرف الخادم بنفسه ويقول لهم أن قصده هو أن يأخذ معه دون

لويس الى الأندلس ، حيث يستقبله أخوه المركز الاستقبال اللائق به ، لأنه عرف أن دون لويس يفضل أن يمزق إرباً إرباً على أن يعود فوراً الى والده . فلما عرف الخادم مكانة دون فرنندو وقرار سيدهم القتي ، قرّروا أن يذهب ثلاثة منهم الى أبيه ليخبروه بماحدث ، أما الرابع فيبقى مع دون لويس ليعلمه ، ولا يتركه أبداً حتى يعودوا للبحث عنه أو يعطي الوالد أوامر جديدة . وهكذا انتهت هذه السلسلة الفظيعة من الخلافات والمعارك ، بفضل سلطة الحكيم أجرامنته والملك سوبرينو . لكن عدو السلام ، وخصم الإتفاق ، وقد غاظه تفويت غرضه وامتهانه ، وساء ضالة الثمار التي اجتناها من كل هذه المكائد ، قرّر أن يحاول مرة أخرى ، وأن يثير اضطرابات جديدة ومنازعات جديدة .

ذلك أن الرماة ، لما أن علموا بمكانة من كانوا يتصاربون معهم ، انسحبوا بلهافة من المعركة ، معتقدين أنه لا بد على كل حال ، أن تدور الدائرة عليهم ، لكن أحدهم ، وهو الذي ضربه دون فرنندو ضرباً مبرحاً ، تذكر حينئذ أنه من بين قرارات القبض على مجرمين عديدين التي كانت معه ، قرار بالقبض على دون كيخوته ، وأن الأخوة المقدسة أصدرت أمراً بالقبض عليه لأنه أطلق سراح المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وهو أمر فرغ له سنشو وحق له أن يفرغ . فأراد هذا الرامي أن يتأكد هل الأوصاف الواردة في قرار القبض هذا تنطبق على دون كيخوته ، ولهذا أخرج من صدره ورقة برشمان أخذ يقرأها بصعوبة لأنه لم يكن يحسن القراءة ، وعند كل كلمة كان يلقي بنظره على دون كيخوته ، ليقارن بينه وبين الأوصاف الواردة في قرار القبض . فلما أيقن أنه هو المطلوب القبض عليه أمسك بالقرار بيده اليسرى ، وباليمنى أمسك بالفارس من بنيقته ، وضغط عليه بشدة حتى منعه من التنفس ، وصاح بأعلى صوته :

« القوة للأخوة المقدسة! وحتى لا يحتاج أحد بجعله فهذا هو القرار الذي يأمر بالقبض على قاطع الطريق هذا » .

فأخذ القسيس القرار ، وتفحصه ، ورأى أن الرامي يقول الحق . فاستشاط دون كيخوته غضباً إذ رأى هذا الجلف يعامله هذه المعاملة ، فأمسكه من حلقه بكلتا يديه بأقوى ما يستطيع ، وضغط عليه بشدة حتى أنه لو لم يهرع اليه رفاقه لفارق الحياة قبل أن يتركه دون كيخوته . واندفع صاحب الفندق لمساعدة رفاقه في الأخوة المقدسة . ولما رأت صاحبة الفندق زوجها يشترك مرة أخرى في العراك ، استأنفت صرخاتها ، واشتركت في ذلك ماريتورنس وابنتها ، متوسلتين الى السماء والى كل من كانوا في الفندق . ولما رأى سنشو ماحدث قال : « الله حي! إن مولاي على حق حين يقول إن كل شيء في هذا القصر يتم

بالسحر ، إذ لا يمكن العيش فيه ساعة في راحة » . وفصل دون فرنندو بين دون كيخوته والرامي ، وما كان أشد رضاهما عن ذلك لأنهما كانا مشتبكين كل الاشتباك الواحد يمسك ببنيقية والثاني بخناقه . ومع ذلك لم يكف الرماة عن مطالبة المأمور بالقبض عليه (دون كيخوته) ، وطلبوا المساعدة لتقييده بالأغلال ، ووضعه بين أيديهم ، لأن هذا هو ما تتطلبه خدمة الملك والأخوة المقدسة التي باسمها يجب عليهم أن يساعدوه في القبض على هذا اللص ، قاطع الطريق ، الصعلوك . وضحك دون كيخوته من شتائمهم وقال لهم بكل برود : « تعالوا هنا يا أوباش ، أنتم تصفونني بوصف قاطع طريق - من يحزر المغلوبين ، ويخلص المسجونين ، ويغيث الملهوفين ، ويدافع عن المستضعفين والمظلومين ؟ يا غوغاء ، يا سفلة ، ألا فلتفهمكم السماء بعقلكم الوضع ما للفروسية الجواله من قيمة عالية ، وما أنتم فيه من جهل وخطيئة بعدم توقيركم لظل ولا أقول لحضور فارس جوالا تعالوا هنا ، يا عصابة اللصوص ، لا يا جماعة الرماة ، ياقطاع الطرق بإجازة من الأخوة المقدسة ، قولوا من هو ذلك الجاهل الذي وقع قرار القبض على فارس مثلي ؟ أو لا يعرف إذن أن الفرسان الجواله لا يمكن تقديمهم الى أية محكمة ، وأن قوانينهم هي سيوفهم ، وحقوقهم هي قوتهم وشجاعتهم ، وقراراتهم هي إرادتهم ؟ من الوقح الذي يمكن أن يجهل أنه لا يوجد مؤهل نبالة يعطي من الامتيازات والاعفاءات ما يعطيه المؤهل الذي يحصل عليه الفارس في اليوم الذي فيه يقبل في طريقه الفرسان ويكرس نفسه لوظائفها الشاقة ؟ وأي فارس جوال دفع عشوراً أو مكساً أو ضريبة ، أو عوائد ، أو رسوم نقل أو معدية ، وأي رسوم أخرى ؟ وأي خياط جعله يدفع تفصيل حلة ، وأي صاحب قصر طالبه بإجرة المبيت في القصر ؟ وأي ملك لا يستضيفه على مائدته ؟ وأي آنسة لم تتوله غراماً بحبه ، ولم تسلم نفسها للباقة ؟ وأخيراً ، أي فارس جوال وجد ، أو يوجد ، أو سيوجد في العالم ، ليست عنده القدرة أن ينهال وحده بأربعمئة ضربة عصا على أربعمئة رام يريدون أن يقفوا في طريقه ؟ » .

الفصل السادس والأربعون

في مغامرة الرماة الفريدة وغضبة فارسنا الطيب دون كيخوته غضبة عظيمة

وبينما كان دون كيخوته يتكلم هكذا ، كان القسيس يبذل كل ما في وسعه لإقناع الرماة بأنه عديم العقل تماماً ، كما يستطيعون أن يلاحظوا ذلك من أقواله وأفعاله ، وأن عليهم أن لا يندفعوا في هذه المسألة الى أكثر من ذلك ، لأنهم حتى لو أخذوه واقتادوه فسيضطرون بعد ذلك الى الإفراج عنه لأنه مجنون . وعن هذا أجاب حامل قرار القبض بأنه ليس من اختصاصه الحكم على جنون دون كيخوته ، وأن عليه تنفيذ أوامر رئيسه ، حتى إذا ما قبض عليه فليفرجوا عنه ثلاثمائة مرة شاءوا . فقال القسيس : « ومع ذلك كله فلن تسوقوه هذه المرة ، لأنه لن يمكنكم من أخذه بسهولة » . وأخيراً قال لهم وأطال القول ، ودون كيخوته أبدى من الحماقات ، بحيث كان لابد أن يكونوا أكثر منه جنوناً إذا لم يكونوا قد أدركوا أنه مجنون . فهدأوا إذن ، بل وأرادوا أن يصلحوا ما بين الحلاق وسنشو وكانا لا يزالان في خصام عنيف ، وتوسطوا بوصفهم من رجال العدالة ، وحكموا حكماً جعل الخصمين شبه راضيين إن لم يكونوا راضيين تمام الرضا . وتبودلت البرازع ، لكن بدون السيور واللجم . أما عن خوذة ممبرينو فإن القسيس أعطى الحلاق ثمانية ريات دون أن يعرف دون كيخوته ، وأعطاه الحلاق أيضاً تعهد فيه بعدم المطالبة بأي شيء ولا بأي تعويض ولا استبدال ، ولا فائدة ، آمين !

فلما سكن هذان النزاعان ، وكانا أهم المنازعات ، بقي حمل خدم دون لويس على أن يعود ثلاثة منهم الى أبيه ، ويبقى الرابع في خدمه سيده الى حيث يلزم لدون فرنندو أن يقاتله ، ولما كان حسن الحظ قد بدأ يعلن عن نفسه في صالح العشاق والشجعان الذين كانوا في الفندق ، فقد شاء حسن الحظ هذا أن يتم عمله ويعطي لكل أمر نهاية سعيدة . فوافق الخدم على كل ما طولبوا به ، وسرت دونيا كلارا أيما سرور حتى كان يمكن قراءة

حبورها على وجهها الجميل . أمّا ثريا ، التي لم تفهم كثيراً مما جرى ، فقد كانت تحزن أو تفرح حسبما يظهر على الآخرين ، خصوصاً على وجه نقيبها الاسباني ، الذي ظلّت لاترفع عينيه عنه . أما صاحب الفندق ، وقد شاهد المنحة التي نفح القسيس بها الحلاق ، فقد طالب بأجر مبيت دون كيخوته ، وثمان الخوابي المهرقة ، وأقسم أنه لن يدع روثينانته ولا حمار سنشو يخرجان من الاسطبل قبل دفع المبلغ الى آخر فلس . ونظّم القسيس كل شيء ، ودفع دون فرلندو ، وإن كان المندوب عرض أن يتولّى هو الدفع . وأخيراً أعيد السلام ، حتّى أنه بدلاً من خلاف معسكر أجرامنته الذي أشار إليه دون كيخوته ، ساد في الفندق نفس الإنسجام ونفس الهدوء والوفاق الذي كان في عهد أوكتافيوس . وهو أمر أرجع الكل الفضل فيه الى فصاحة القسيس المقنعة وسخاء دون فرلندو الذي لا ينفد .

فلما رأى دون كيخوته أنه تخلّص من كل هذه المنازعات وصار حراً ، سواء المنازعات الخاصة به وتلك الخاصة بسائسه فقد وجد أنّ من المناسب أن يتابع رحلته ، وأن يتم المغامرة الكبرى التي دعي لها واختير ، فراح إذن يجثو أمام دوروته التي لم تسمح له أن يقول كلمة قبل أن ينهض واقفاً .

فأطاع دون كيخوته وأنشأ يقول ،

ـ إنه لمثل سائر ، ياسيدتي الجميلة ، أن الاجتهاد أبو الحظ السعيد ، وفي الكثير من الظروف الهامة اعترف بأن نشاط التاجر ينهي القضايا الشائكة نهاية سعيدة . لكن هذه الحقائق لا تتجلّى أكثر مما تتجلّى الا في مغامرات الحرب ، حيث السرعة والمبادرة تقضيان على خطط العدو ، وتؤكد لنا النصر قبل أن يأخذ أهبة الدفاع . وإني أقدم هذه الملاحظات اليك أيتها الأميرة الجليلة السامية المكانة ، لأنه يبدو لي أن مقامنا في هذا القصر لم يعد له عندنا أدنى فائدة ، بل على العكس إنه يمكن أن يضر بنا ضرراً سنتبينه ذات يوم . ومن يدري ما إذا كان عدوك المارد قد علم بالفعل أنني زاحف للقضاء عليه ، وقد تبلغ تبليغه ذلك جواسيس سريون مجدّون ، بينما نحن نترك له الوقت للتحصّن في قصر شامخ لا يمكن الوصول اليه ولا يستطيع أن يؤثّر فيه اجتهادي ولا قوة ساعدي هذا الذي لا يكل ولا يتعب ؟ صدّقيني إذن يا سيدتي ، ولنبادر الى إفساد خطته ، ولنرحل فوراً ، لأنه لتحقيق أمانيك لا يتوقّف الأمر إلا على أن أوجد في حضرة عدوك .

وسكت دون كيخوته منتظراً في لهفة جواب الأميرة الجميلة وريثة العرش ، التي قالت في جلال يتفق مع أسلوب بطلنا : أشكر لك أي سيدي الفارس ، رغبتك في مواساتي في محنتي ، بوصفك فارساً طيباً شريفاً ، اليه وحده وكلت إغاثة اليتامى والمساكين . ولتحقّق

السماء أمانيك وأمانتي ، حتى تثق بأن في العالم سيدات يعترفن بالجميل! أمّا عن وجوب الرحيل فوراً ، فأنا أوافق على ذلك ، لأنه لا مشيئة لي إلا مشيئتك . فتصرف في كما يحلو لك : فتلك التي وكلت اليك الدفاع عن شخصها ، وتضع بين يديك أعزّ مصالحها ، يجب عليها ألا تسمح بشيء يتنافى مع ماتأمر به فطنتك » .

فقال لها دون كيخوته : « في حفظ الله! فمادامت سيّدة عظيمة مثلك تتواضع أمامي هكذا ، فإنّي لأريد أن أضيّع الفرصة لرفعها وتنصيبها على عرشها الموروث . فلمنض فوراً . إنّ اللهفة وطول الطريق يحثّانني ، وكما قلت لك إنّ الخطر هو في التأخّر . ولما كانت السماء لم تخلق ، والجحيم لم ينتج شيئاً يخيفني ، فاذهب يا صاحبي سنشو ، وشد سرج روثينانت ، وأعد حمارك وفرس زينة الملكة ، ولنودّع السيّد رب القصر وكل الفرسان ، ثمّ نرحل من هنا » .

وكان سنشو حاضراً هذا الحديث ، فقال وهو يهزّ رأسه : آه ، يامولاي ، إنّ في القرية من الشر أكثر مما تظن ، أقول هذا ولا أهين أحداً .

فقال دون كيخوته : وأي شر يمكن أن يكون هناك ، ياوغد ، في أي قرية أومدينة في الدنيا يمكن أن يضربني ؟

فأجاب سنشو : أوها إذا كنت ستغضب فإنني سأسكت ، ولن أقول لك أبداً ما أعتقد أنّي ملزم بإفشائه إليك ، بوصفي سائساً جيداً ، وخادماً أميناً ينبغي عليه أن يؤدي واجبه نحو سيّده .

فقال دون كيخوته : قل إذن ما تريد أن تقوله ، بشرط ألا تهدف كلماتك الى تخويفي . إذا كنت خائفاً ، فافعل ماتراه ، أمّا عن نفسي ، أنا الذي لايعرف أبداً عاطفة الخوف ، فإنّي أقوم بواجبي .

فأجاب سنشو : ليست هذه هي المسألة ، وياويلي أنا الخاطيء ، بل أقول وأقرّر أن هذه السيدة ، التي تقول عن نفسها أنها ملكة على مملكة ميكوميكون العظمى ، ليست ملكة كما أنّ أمّي ليست كذلك ، لأنها لو كانت كما تقول لما ذهبت في كل ساعة وفي كل لقاء ، تقبل رجلاً ها هنا .

ولدى سماع هذه الكلمات احمرّت دوروتيه خجلاً كاحمرار الجمر : لأنه من الصحيح أن زوجها دون فرنندو ، كان أحياناً ، يختلس بعض القبلات من شفيتها ثمناً حلوّاً لغرامه . وشاهد سنشو هذا الأمر ، ووجد أن هذه الأحوال أقرب أن تكون من شأن خلية لا من شأن ملكة على مملكة عظيمة . ولهذا لم تستطع دوروتيه أن تنطق بكلمة ، وتابع سنشو كلامه :

« أقول لك هذا ياسيدي ، قبل أن نجتاز الدروب في الجبال والأودية ، ونمضي ليالي رهبة وأياماً أسوأ . وإذا بأحد من في هذا الفندق يأتي ليقطف ثمار أعمالنا ، فلا يكون ثمّ فائدة في التلهف على شد سرج روئيناته ، ووضع البرذعة على حماري ، وليغزل كلّ بمغزله ، ولننمش » .

يا إلهي! من ذا الذي يستطيع أن يصوّر غضب دون كيخوته لدى سماعه الكلام الوقح الذي تفوه به سائسه؟ غضب غصبة هائلة ، وصار يتمتم في غضبه وينطلق الشرر من عينيه ، وقال له :

— أيها الوغد ، الجلف ، الجاهل ، الأحمق ، القليل التربية ، القدم ، الوقح ، الفاجر ، الواشي ، المدّس ، أتهجر أن تقول مثل هذا الكلام ، في حضوري ، أمام السيّد الرفيعة المقام ؟ وكيف يمكنك أن تضع في خيالك الدنيء أفكاراً طائشة خسيّة كهذه ؟ غر من أمام عيني ، يا وحش الطبيعة ، ومستودع الأكاذيب ، ومخزن التزييفات ، وصومعة الخساعات ، ومخترع الخبائث ، وراوي المبالغات ، وعدو الاحترام الواجب للشخصيات السلطانية . امش! ولا تعد للظهور أمامي أبداً ، وإلا صبت عليك جام غضبي!

وكان وهو يقول هذه الكلمات ينفخ صدغيه ، ويقطّب ما بين حاجبيه ، ويتلفت في كل ناحية بناظره ، ويضرب الأرض بقدميه ، وهي علامات جليّة على الغضب الذي كان قد استبدّ به . ولدى سماع هذه الكلمات الرهبة ورؤية هذه الحركات الهائجة ، ظلّ سنشو مذهولاً حائراً ، حتّى كان يود لو اتسعت الأرض تحت قدميه وابتلعت ، ولما لم يدر ماذا يفعل . أدار كتفيه وابتعد عن مولاه الغاضب الهائج . ولكن دوروثيه العاقلة التي عرفت تماماً مزاج دون كيخوته قالت له تهدّئه : « لا تغضب ، أيها الفارس الحزين الطلعة ، من الحماقات التي نطق بها سانسك الطيّب : إنه لم يقلها بدون سبب ، ثمّ إن طبيعته الساذجة وضميره لا يمكنان من اتهامه بالرغبة في الإضرار بشخص عن طريق شهادة زور . ولهذا ينبغي أن نعتقد ، بغير شك ، أنه مادام كل شيء في هذا القصر يتمّ بالسحر ، كما قلت ذلك أنت نفسك ، ياسيدي ، فلا بدّ أن سنشو قد رأى الأمور التي تحدّث عنها ، رآها عن هذا الطريق الشيطاني ، وهي أمور تمس شرفي مساً خطيراً » .

فأجابها دون كيخوته : بحق الله العلي العظيم! إن عظمتك قد أصابت الهدف : ولا بدّ أن رؤيا شريرة سحرت عيون هذا المذنب المسكين ، وجعلته يرى مالا يمكن أن يرى إلا بالسحر ، لأنّي أعرف جيّداً براءة هذا الشقي وطيبته بحيث لا أظنّه قادراً على شهادة الزور .

فقال دون فرندو : لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا : ولهذا عليك يا سيد دون كيخوته أن تغفو عنه ، وترضى كما كنت عنه راضياً قبل هذه الرؤية .
فقال دون كيخوته : عفوت عنه .

وذهب القسيس لإحضار سنشو الذي قام ذليلاً متواضعاً ، وجثا على ركبتيه أمام سيده ، وقبل يده ، فباركه دون كيخوته وقال له : الآن يا ولدي سنشو ، عليك أن تعترف بالحقيقة التي طالما قلتها لك مراراً وتكراراً وهي أن كل شيء في هذا القصر يتم بواسطة السحر .

فقال سنشو : وأنا أعتقد ذلك أيضاً ، فيما عدا الوثبات على الملاءة ، فقد وقعت فعلاً وبطرائق طبيعية جداً .

فقال دون كيخوته : لاتظن هذا ، لأنه لو كان هذا حقاً لكنت قد انتقم لك في الحال والآن أيضاً ، لكن لم أكن أدري في ذلك الوقت ولا في هذه اللحظة ممن أنتقم من الفعلة التي فعلوها بك .

وأرادت الجماعة كلها أن تعرف ماهذه الملاءة ، فروى صاحب الفندق بالتفصيل تحليلات سنشو بنشأ في الهواء وتطويحاته : مما أثار ضحكاً غير قليل في نفوس الجميع ، وغضباً في نفس سنشو ، الذي كان سيغضب فعلاً لو لم يؤكّد له مولاه من جديد أن ذلك كان من عمل السحر . ومع ذلك ففي أعماق قلبه لم يذهب جنونه الى حد الظن أن التطويج بواسطة ناس من لحم وعظم ، لا بواسطة أشباح ، كما يدّعي مولاه ، لم يكن حقيقة ثابتة يقينية ليس فيها أدنى تمويه ولا وهم .

وكان قد مضى يومان على مقام هذه الجماعة الجلييلة في الفندق . فقرروا الرحيل ووضع حد لقصة الملكة ميكوميكونا ، ليجنبوا دون فرندو ودوروثيه مشقة إعادة دون كيخوته الى قريته ، فبحشوا إذن عن وسيلة يتمكن بها الحلاق (الأسطى نقولا) والقسيس من إعادته الى بلده كما أرادا ، ابتغاء محاولة علاجه . وكانت هذه الوسيلة هي التفاهم مع سائق عربية يمر من هنا لإعادة دون كيخوته بالطريقة التالية : أمروا بصنع نوع من القفص ، مؤلف من قطع من خشب معشقة ، وقادر على أن يوضع فيه وضعاً مستريحاً ، ولما تم صنع هذا القفص ، دخل دون فرندو وأصحابه وخدم دون لويس والرمأة وصاحب الفندق نفسه ، بعد أن تنكروا بأشكال مختلفة ، وفقاً لمشورة القسيس ، حتى لايتعرفهم نزلاء الفندق ، دخلوا جميعاً في صمت غرفة فارسنا دون كيخوته وكان ينام ويستريح من متاعبه ، وفكره أبعد ما يكون عن هذه المغامرة : وأمسكوا به وأوثقوا قدميه ويديه بشدة ، حتى أنه لما استيقظ

فجأة لم يستطع التحرك وظلّ حائراً مسكر البصر عندما رأى هذه الوجوه الغريبة العجيبة . هناك فكّر فيما صوّره له خياله المجنون باستمرار ، لقد اعتقد أن هذه الوجوه هي أشباح القصر المسحور ، واعتقد أنه هو نفسه مسحور ، لأنه لم يستطع التحرك ولا الدفاع عن نفسه . وهكذا تمّ كل شيء كما قدّر القسيس الذي دبر الأمر بمكر وبمهارة .

ولكنّ سنشو ، وحده بين الحاضرين ، احتفظ بوجهه وسلامة حسّه المعتادة . ولو أنه لم يكن بعيداً كثيراً عن المشاركة في جنون مولاه ، فإنه لم يخطئ في تعرّف كل هؤلاء المتكرّرين ، بيد أنّه لم يجرؤ على أن يفتح فمه الى أن عرف ماسيحص من هذه المفاجأة وأسر دون كيخوته . وهذا هو الآخر لم ينطق بكلمة ، منتظراً نهاية محنة ، التي انتهت بالطريقة التالية : وضع في القفص ، وسمر القفص بشدة حتّى لا يستطيع هو أن يزعره ، ثمّ حملوا القفص على أكتافهم ، ولما أخرجوه من الغرفة نطق صوت رهيب ، هو صوت الأسطى نقولا ، بهذه العبارات :

« أيها الفارس الحزين الطلعة لا تحزن على أسرك ، إنه ضروري لوضع حد ، في وقت مبكر ، للمغامرة التي حملتك عليها شجاعتك العظيمة ، وسينتهي حين يصبح أسد المنتشا الرهيب وحمامة توبوسو البيضاء شخصاً واحداً ، بعد أن يحنيا رأسيهما الشامخين تحت نير الزواج العذب الرقيق . ومن هذا الإقتران الذي لانظير له سيخرج ويلمع على نور الدنيا الأشبال الشجعان الذين لم يقلّوا إثارة للرغبة من أبيهم الشجاع الباسل . وهذه الأحداث ستقع قبل أن يزور ذلك الذي يلاحق باستمرار الحورية^(١) الهاربة - يزور مرتين بمجرّاه الطبيعي السريع الصور اللامعة في القبة المرصعة بالنجوم . وأنت ، يا أنبل وأطوع سائس حمل سيفاً في جانبه ولحية في ذقنه ، وتمتّع بحواسه الطبيعية الخمس باستمرار - لا تحزن إذا رأيت زهرة الفروسية الجوّالة تقاد هكذا على مرأى من ناظريك ، لأنه بعد قليل ، لو شاء خالق الدنيا ، ستري نفسك قد ترقّيت الى منصب رفيع جداً الى حد أن تنكر ذاتك ، ولن تذهب الوعود التي وعدك بها مولاك سدى . وأشهد لك ، باسم متنيرونيانا العاقلة^(٢) ، أن أجرك سيدفع لك بنبالة ، وستشعر بآثار هذه النبوءة . اقتف آثار سيّدك الباسل في سحره ، لأنه يخلق بك أن تصحبه الى النقطة التي يجب عليكما أن تتوقفا عندها . ولما لم يكن مسموحاً لي أن أقول شيئاً آخر ، فإنّي أقول وداعاً ، وأعود الى حيث أعلم حقاً » .

(١) إشارة الى اسطورة أبولون ودافنيه (ومناها باليونانية : شجر الفار) حورية أحبها أبولون ، وطاردها ، فهربت منه ، الى أن كان على وشك الإمساك بها فطلبت من أبيها أن يحولها ، فتحوّلت الى شجرة غار ، وهي شجرة محبّة الى الاله .

(٢) كلمة ، القسم الأول منها مؤلف من Mentir = كذب .

وقوى الحلاق صوته وهو يختم هذه النبوءة ، ثم أضعفه شيئاً فشيئاً ، بفن ومهارة ، حتى أن أولئك الذين عرفوا الخدعة جال بخاطرهم أنها حقيقة واقعية . أما دون كيخوته فإن وعود الوحي واسته خير مواساة : وأدرك معناها تماماً ، ورأى أنهم يراودونه بأمل الارتباط بالروابط المقدسة لزواج شرعي من حبيبته دلشنيا دل توبوسو ، وأنه من هذا الزواج سيولد أشبال ، وهم أولاده ، في سبيل مجد إقليم المنتشا العظيم . فامتلاً إيماناً بهذا الوحي ورفع صوته وقال وهو يتنهّد تنهّداً عميقاً :

.. أي أنت ، أيّاً من كنت ، يامن تعدني بهذا المستقبل الزاهر ، استحلف ، باسمي ، الساحر الحكيم الذي يعنى بشؤوني ، ألا يدعني أهلك في هذا السجن الذي يجروني فيه ، قبل أن أرى هذه الوعود المعسولة الرائعة التي لانظير لها تتحقّق . فإن استجاب الى طلبي ، فسأفخر بأسري ، وسأرى لذة في الأغلال التي تقيدني ، وهذا السرير الذي أرقدونني عليه لن يبدو لي ساحة قتال عنيف ، بل فراش زواج فاخر وثير . أما المواساة التي قدّمها الى سنشو پنثا ، سانسى ، فإنّ طبيّته ووسائله الشريفة تؤكّد لي أنه لن يتخلّى عني أبداً في السراء والضراء ، وإذا حدث ، لسوء حظّه وحظي ألا أتمكّن من إعطائه الجزيرة التي وعدته بها ، أو شيئاً مماثلاً ، فإنه على الأقل لن تضيق عليه إجرتّه ، لأنني قرّرت في وصيّتي ما أردت أن يعطى له ، لا بما يتكافأ مع خدماته الجليلة ، بل على الأقل بحسب مواردني » .

فانحنى سنشو باحترام ، وقبل يد مولا ، لأنّها كانتا موثقتين معاً . وفي اللحظة نفسها رفعت الأشباح القفص ووضعوه على العربة ، وكانت تجرّها الثيران .

الفصل السابع والأربعون

في الطريقة الغريبة التي بها سحر دون كيخوته وحوادث عجيبة أخرى

ولما رأى دون كيخوته نفسه موضوعاً في القفص على هذا النحو فوق العربة أنشأ يقول :
- لقد قرأت الكثير من قصص الفرسان الجوّالة وأهمّها ، لكنّي لم أقرأ أبداً ولم أر ولم
أسمع أنّ الفرسان المسحورين يساقون بهذه الطريقة ، بهذا السير البطيء المتراخي لهذه
الدوابّ الكسول . بل العادة جرت أن يحملوا في الهواء ، بسرعة جبّارة خارقة ، مدثرين في
غمام وغيوم ، أو في عربة من النار ، أو على فرس طائر أو أي حيوان مائل ، لكن أن أساق
هكذا على عربة يجرّها الثيران فبالله أن هذا يثير الحيرة في نفسي . ومع ذلك فقد يجوز أن
تكون الفروسية وأنواع السحر في هذا العصر مضطّرة إلى سلوك طريق آخر غير طريق القرون
الماضية ، وربّما أيضاً ، لأنني فارس جديد في هذا العالم ، وأول من بعث طريقة الفروسية
الجوّالة بعد أن طواها النسيان ، أقول ربّما اخترعت أنواع أخرى من السحر وطرق أخرى في
قيادة المسحورين . ما رأيك في هذا يا ولدي سنشو ؟

فأجاب سنشو : لا أعرف ما هو رأيي ، لأنّي لم أستطع مثلك أن أقرأ قصص الفرسان
الجوّالة ، لكنّي مع ذلك كلّه أجرو على أن أوكد بل وأن أقسم أن الأشباح التي تحيط بنا
ليست كاثوليكية^(١) أبداً .

فقال دون كيخوته : كاثوليكية يا أبانا الأزلي ! أتّى لها أن تكون كذلك ، وهي جن
اتخذوا أجساماً عجيبة لصنع كل هذه الأمور ووضع في هذه الحال ؟ وإذا أردت أن تعلم
الحقيقة ، تحسّسها ، مسّها ، وسترى أنه ليست لها أجسام غير الهواء ، وأنها ليست مظاهر
تتراءى وخيالات .

(١) بالمعنى المجازي ، أي طيبة .



دون كيخوته يوضع في القفص الذي ستحملة العربة

فقال سنشو ، والله يامولاي لقد لمستها ، فهذا الشيطان الذي تراه مشغولاً هكذا له بشرة بيضاء رقيقة ناعمة ، ويملك صفة تختلف تماماً عن تلك التي تعزى الى الجن : إذ يقال عادة أن رائحة الجن تشبه رائحة الكبريت أو رائحة أخرى كريهة ، أما هذا فيشم العنبر منه على مسافة نصف فرسخ » .

وكان سنشو يقصد دون فرنندو الذي كان كثير التطيب بالعطور ، شأن كل نبيل عظيم .

فقال دون كيخوته : لاتدهش لهذا أبداً ، فالشياطين واسعو الحيلة جداً ، فعلى الرغم من أنهم يحملون روائح معهم ، فإنهم بذاتهم لارائحة لهم ، فلا بد أن تكون مقززة كريهة ، والسبب في ذلك أنهم يجزّون الجحيم معهم ، دون أن يستطيعوا أن يظفروا بما يخفف آلامهم ، وهكذا نرى أنه لما كانت الرائحة الزكية شيئاً يسراً ويلذ ، فليس من الممكن أن تكون رائحتهم طيبة . فإذا كان هذا الشيطان يبدو لك أنه يشتم منه العنبر فإما أنك واهم تخدع نفسك ، وإما هو الذي يخدعك حتى لاتدرك أنه جتّي » .

وأثناء هذا الحديث بين المولى والخادم ، أراد دون فرنندو وكردنيو التعجيل برحيلهم خوفاً من أن يكتشف سنشو حيلتهم تماماً ، فانتحيا بصاحب الفندق ناحية ، وطلباً منه أن يشد السرج في روثيناته ويضع البرذعة على الحمار ، وهو مافعله في الحال . واتفق القستيس مع الرماة لاقتياده الى ضيعته . وعلّق كردنيو في سرج روثيناته الترس في جانب ، وصحن الحلاقة في الجانب الآخر ، وأشار الى سنشو بركوب حماره واقتياد روثيناته من لجامه . وجلس الرماة على جانبي العربة ومعهم الاسكو يتات لكن قبل أن يخرج من الفندق جاءت صاحبة الفندق وبناتها وماريتورنس لوداع دون كيخوته ، وتظاهرن بالرتاء له في محنته . فقال لهن :

— لا تبكّن أبداً ، أيتها السيّدات الطيّبات ، فهذه أحداث عارضة تقع لمن يمارسون المهنة التي أشرفها ، ولو لم تقع لي ، لما عددت نفسي فارساً جوالاً شهيراً ، لأن مثل هذه الأحداث لا تقع أبداً لمن شأنهم ضئيل ، وتنطفئ ذكراهم معهم ، لكنها من نصيب الفرسان البواسل الذين يحسداهم الأمراء والفرسان الآخرون الحريصون على القضاء على الأختار . ورغم ذلك ، فإن للفضيلة من القوة وحدها ، بالرغم من كل سحر زرادشت ، أول من اخترع السحر ، بحيث تخرج منتصرة في النضال ، وتنشر على الأرض نوراً لا يقل سطوعاً عن نور الشمس في كبد السماء . فاغفرن لي ، أيتها السيدات الجميلات ، إذا كنت ، عن غير قصد متي ، قد سببت لكن بعض المضايقات ، ذلك أنني لم أتعمد هذا أبداً . وادعن الله أن

يخلصني من هذا السجن الذي يحبسني فيه ساحر خبيث ، وحينما أخرج منه فأثني لن أذكّر الخدمات التي أسديتني لي في هذا القصر إلا لكي أعترف بها كما تستحق ، وأقركن وأخدمكن » .

وخلال هذه الخطبة الجميلة ، ودع الحلاق والقسيس دون فرنندو وأصحابه ، والنقيب (الأسير) وأخاه ، وكل السيدات ، دون أن ينسيا لوسنده ودوروتيه . وقبل بعضهم بعضاً وتواعدوا فيما بينهم أن يتبادلوا الأنباء . وطلب دون فرنندو من القسيس أن يبلّغه بكل ماسيحدث لدون كيخوته مؤكداً أن هذا يسره كل السرور ، وأنه من ناحيته سيخبره بكل مايمهته ، بزواجه وتعميد ثريا ونجاح دون لويس وعودة لوسنده الى بيتها . وتبادلوا القبل والعناق مرة أخرى ، وعرض بعضهم على البعض الآخر تبادل الخدمات . وسلم صاحب الفندق الى القسيس أوراقاً وجدها في بطانة الحقيبة التي وجدت فيها قصته (المستطلع الفاسد الرأي) ، وقال له أن في وسعه أن يأخذها كلها لأن صاحب هذه الحقيبة لم يعد . فشكر له القسيس ذلك ، وتأمل في هذه الكراسة ورأى أنه كتب عليها العنوان التالي : « أقصوصة رنكونيته وكورتاديو^(١) » ، وفكر أن من الممكن ألا تكون أقصوصة رديئة ، لأن قصة « المستطلع الفاسد الرأي » كانت جيّدة ، ويجوز أن تكون كلتاها لمؤلف واحد ، ولهذا أخذها معه ليقراها على مهل . وركب هو والحلاق (الأسطى نقولا) الفرس ، واحتفظا بقناعيهما حتى لايتعرفهما دون كيخوته في الحال ، ثم سافرت القافلة على الترتيب التالي : سارت العربية أولاً في المقدمة يسوقها صاحبها ، وعلى جانبها كان الرماة ومعهم بنادقهم الاسكو يتات ، يتلو ذلك سنشو راكباً حماره ، وممسكاً بلجام روئيناته ، والحلاق والقسيس في المؤخرة وعلى سيمائهما الجد ، يركبان بغلين قويتين ، وعلى وجهيهما قناعات ، وكان سير الموكب على حسب سير الثيران البطي ، وكان دون كيخوته جالساً في قفصه ، ماداً قدميه على العصي ، ويده موثقتان ، وهو صامت لايتحرك حتى يظن أنه رجل من حجر . وساروا فرسخين في صمت ، وجدوا أنفسهم بعدهما في وادٍ أراد سائق العربية أن يجعل ثيرانه ترعى فيه ، لكن الحلاق نصح بالتقدم قليلاً ، لأنه وراء أكمة يرونها من مكانهم يوجد وادٍ آخر ، العشب فيه أغزر وأحسن . وتابعوا على إشارته ، واستأنفوا السير .

وفي هذه اللحظة أدار القسيس رأسه ، فشاهد خلفه ستة أو سبعة من رجال على خيول مجهزة ، سرعان ماالحقوا بهم ، لأنهم لم يكونوا يسيرون ببطء مثل سير الثيران ، بل كانوا

(١) إحدى أقاصيص المجموعة التي عنوانها « أقاصيص نموذجية » لثربانتس ، وظهرت سنة ١٦١٢ .



دون كيخوته في داخل القفص

راكبين على بغال كاهن ، ويرغبون في الوصول بسرعة الى فندق يبعد بمقدار فرسخ تقريباً . فحياً الراكبون أصحاب الموكب الهاديء بأدب ، ولما أبصر أحدهم ، وهو كاهن طليطلة ، ورئيس الباقين ، هذا الموكب الفريد المؤلف من العربية والرماة وسنشو وروثيناته والحلاق والقستيس ، وخصوصاً منظر دون كيخوته وهو في القفص ، لم يتمالك من أن يسأل من هذا الرجل الذي يقتادونه هكذا ، وخيل اليه وقد رأى شارات الرماة ، أنه لابد أن يكون لصاً أو أي مجرم آخر ، عقابه من اختصاص الأخوة المقدسة . فأجابه أحد الرماة وكان السؤال اليه : « ياسيدي! على هذا الفارس نفسه أن يخبرك لماذا يقتاد هكذا : لأننا لاندري شيئاً » . فلما سمع دون كيخوته هذه الكلمات قال : « سيدي الفارس! هل أنت مطلع على علم الفروسية الجوّالة ؟ إن كان الأمر كذلك رويت لك مصائبي ، وإن لم تكن فلا فائدة في أن أتعب نفسي بالتكلم معك » . وفي هذه اللحظة اقترب الحلاق والقستيس ، لما شاهدوا الراكب يتكلم مع دون كيخوته ، لكي يخبراه دون أن يكشفنا عن حيلتهما . فأجاب الراكب موجهاً الكلام الى دون كيخوته : « الحق يا أخي أنني قرأت في كتب الفروسية أكثر مما قرأت في « المتون الصغرى » التي ألفها بيباندو^(١) Villapando ، فإذا كان الأمر لا يتوقف إلا على هذا ، فيمكنك أن تقول لي كل ما يحلو لك » .

فقال دون كيخوته : « الحمد لله ، اعلم إذن ، ياسيدي الفارس ، أنني مسحور في هذا القفص بحيلة وبسبب غيرة سحرة خبثاء ، لأن الفضيلة يضطهدها الأشرار أكثر مما يحبها الأخيار . أنا فارس جوال ، لامن أولئك الذين لم تخلد الشهرة أسماءهم ، بل من أولئك الذين - على الرغم من الحسد ، ومن كل ما أنتجته فارس من مجوس ، والهند من براهمة ، والحبشة من حكماء عراة - ينقشون أسماءهم في معبد الخلود ، ليكونوا ، في القرون المقبلة ، قدوة وأنموذجاً للفرسان الجوّالة ، في الطريق الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه إذا شاءوا أن يبلغوا قمة المجد » .

فقال القستيس : « نعم إن السيد دون كيخوته يقول الحق : إنه مسحور على هذه العربية ، لا بسبب أغلاطه أو خطاياها ، بل من جراء سوء أولئك الذين تؤذيهم الشجاعة ، وتهينهم الفضيلة . إنك ترى أمامك الفارس الحزين الطلعة الذي ربّما سمعت الناس يتحدثون عنه ، والذي سننقش أعماله العظيمة ومغامراته الخالدة على البرونز ، وتخلد على المرمر ، برغم ما يبذله الحسد من جهد لتعكير لمعانها ، والخبث لدنّها في النسيان » .

(١) عالم باللاهوت قدير ، ولد في أشقوبيه ، وكان رفيع المكانة في عصره . وآلف عدة متون في الدين ، وبرز في مجمع تراثيت لطول باعه وغزارة علمه . ولد في القلعة سنة ١٥٥٧ ، وصار استاذاً في جامعته . وكان كتابه هذا وعنوانه Summa Summularum خلاصة الخلاصات متن التدريس في المنطق في تلك الجامعة . بينما في سائر الجامعات كانت تقرأ متون دومنجو سوتو .

فلما سمع الكاهن السجين (دون كيخوته) ومن كان مطلق السراح (القستيس) يتكلمان بنفس الإسلوب ، دهش كل الدهشة حتى أوشك أن يرسم علامة الصليب ، ولم يدر ماذا يفعل ، وكل أولئك الذين كانوا في صحبته لم يكونوا أقل منه إندهاشاً . وكان سنشو قد اقترب لسمع هذه الأحاديث ، فأراد أن يوضح الأمر فقال : « ياسادتي ، رضىتم عما أقول أو لم ترضوا ، الحقيقة أن مولاي دون كيخوته مسحور مثل أمي ، فعقله سليم ، ويشرب ، ويأكل ، ويقضي حاجته مثل سائر الناس ، وكما قضاه بالأمس قبل أن يدخل في هذا القفص . ولما كان الأمر هكذا ، فكيف يراد إقناعي بأنه مسحور ؟ لقد سمعت من كثير من الناس بأن المسحورين لا يمكنهم أن يأكلوا ولا أن يناموا ، ولأن يتكلموا ، ولكن مولاي ، إذا لم يقاطعه أحد ، يتكلم مثل ثلاثين من النواب العموميين » . ثم تلقت ناحية القستيس وقال : « آه ياسيدي القستيس ، ياسيدي القستيس ! فضيلتك تحسب أنني لأفطن لهذا ولاأهدف الى أي أمر تهدف هذه السحرات الجديدة . إذن فاعلم أنني أعرف من أنت ، وإن كنت تخفي وجهك ، واعلم أنني أدركت غرضك ، وإن كنت تموء عن خداعك ، لكن حيث يسود الحسد لا تستطيع الفضيلة أن تعيش ، ولا السخاء مع البخل . وعلى الرغم من الشيطان فإنه لولا فضيلتك لكان مولاي ، في هذه الساعة ، متزوجاً من وريثة العرش الأميرة ميكوميكونا ، ولكنت أنا كونتاً على الأقل ، لأنني لأطمع في أكثر من ذلك في طيبة مولاي الفارس الحزين الطلعة ، ومن عظمة الخدمات التي قمت أنا بها . ولكن الناس على حق حين يقولون أن عجلة الحظ تدور أسرع من عجلة الطاحون ، وأن أولئك الذين كانوا بالأمس في القمة صاروا اليوم في الأرض . إنني لا آسف إلا من أجل أولادي وزوجتي ، فحين جاز لهم بل وجب عليهم أن يأملوا في رؤية أبيهم وقد عاد إليهم حاكماً أو نائب ملك لجزيرة أو مملكة ، سيروونه وقد عاد إليهم وهو يرتدي زي بغال . وما قلته لك ياسيدي القستيس ليس الا إثارة أبوتك لتلوم نفسها على سوء المعاملة التي تعامل بها مولاي ، حذار أن الله سيحاسبك ، في الحياة الآخرة ، على سجنك له وعلى الخير العظيم الذي كان سيفعله لو لم يجبس » .

فصاح الحلاق : « لم يكن ينقص إلا هذا هل أنت ياسنشو من جماعة مولاك ؟ الله حي ! أنت تستحق أن تشاركه القفص ، إذ يبدو أنك لا بد مسحور مثله فيما يتعلق بالفروسية . لقد أسأت اختيار وقتك لتصبح منفوخاً بوعوده وتملاً مخك بتلك الجزيرة التي طالما اشتقت إليها » .

فقال سنشو : « إنني لست منفوخاً بشيء ، ولست ممن ينفخهم أحد ، حتى لو كان الملك نفسه . فعلى الرغم من أنني فقير فاني مسيحي عجوز ، ولا أدين لأحد بشيء . وإذا

كنت أرغب في جزر ، فغيري يرغب فيما هو أسوأ من ذلك ، وكل إنسان ابن أعماله ، إنني إنسان ، و بوصفي إنساناً فمن الممكن أن أصبح أباً ، وبالأحرى أن أصبح حاكماً على جزيرة إذا ظفر مولاي بجزر عديدة لا يدري لمن يعطيها . فاحذر ماتقول ياسيدي الحلاق ، ليست حلاقة الذقون هي كل شيء ، ويوجد فرق بين بطرس و بطرس ، أقول لك هذا لأننا نعرف بعضنا بعضاً ، وما أنا بالرجل الذي يضحك عليه . أما عن سحر مولاي فالله أعلم بالحقيقة . فلنقف عند هذا ، إذ ليس من الخير أن نلجّ عليه » .

لم يرد الحلاق أن يرد على سنشو حتى لا يكشف بسذاجته عما حاول هو والقسيس إخفاؤه . وللسبب نفسه دعا القسيس الكاهن وأصحابه أن يتقدموا قليلاً معه ، ليفضى اليهم بسر القفص وأمور سارة أخرى . فأصغوا بإعجاب الى كل ما ذكره عن حال وحياة وأخلاق وجنون دون كيخوته ، وعرض في كلمات قليلة... الأصل في تهاويله ومسارها ، حتى حبس في هذا القفص لإعادته الى بيته ومحاولة علاجه . فهدت لهم تفاصيل هذه الحكاية مذهلة ، ولما توقف عن الكلام قال له الكاهن :

– الحق يا سيدي أنني أرى عن نفسي أن كتب الفروسية هذه ضارة بالدولة ضرراً بالغاً جداً . دعاني فساد الذوق وكثرة الفراغ الى أن أقرأ بداية كل ما طبع منها تقريباً ، لكنني لم أصبر أبداً على إتمام قراءة واحد منها ، إذ يبدو لي أنها تكاد تتشابه كلها ، ولا يجد المرء في الواحد أكثر منا يراه في الآخر . وعندي أن هذا اللون من التأليف قد تولّد عن الخرافات الميلازية القديمة ، وهي قصص مضحكة لا تستطيع الا الترويج عن النفس دون إفادتها مثل الأمثال التي تجمع بين المتعة والفائدة . وأنت لهذه الكتب أن تمتع وهي حافلة بأمور لامعقولة عديدة ؟ إن متع العقل تتولّد من الجمال والتوافق بين الأشياء التي نراها أو التي تتراءى لخيالنا ، بينما كل ما ينطوي في داخله على قبح أو تشويه فإنه لا يرضي العقل . فقل لي إذن أي جمال تجده ، وأي إنسجام بين الأجزاء والكل ، والكل والأجزاء ، في خرافة تجد فيها صبيّاً في سن السادسة عشرة يشطر الى نصفين ، بضربه واحدة من ظهر سيفه ، مارداً هائلاً إرتفاعه كالبرج ، وكأنه من السكر ؟ وإذا أراد هؤلاء المؤلفون أن يصفوا معركة فماذا يقولون ؟ بعد أن ينهبونا مقدماً الى أن جيش الأعداء مؤلف من مليون محارب ، يكفي أن ينازلهم بطل الكتاب كي نراه وحده ضدّهم ، ينتصر بقوة ساعده . وماذا نقول عن السهولة التي بها ملكة ، وريثة امبراطورية عظيمة ، تلقي بنفسها بين أحضان فارس مجهول ؟ وأي عقل ، إذا لم يكن عقلاً همجياً ، يكن أن يقتنع حين يقرأ أن برجاً عالياً مليئاً بالفرسان ، يسبح في عرض البحر ، كالسفينة والريح مواتيّة ، وأن يكون في لومبارديا هذا المساء ،

وغداً صباحاً في بلاد القستيس خوان في الهند أو في أي بلاد أخرى لم يعرفها بطليموس ولم يكتشفها ماركوبولو ؟ وإذا اعترض متعرض فقال أن مؤلفي هذه الكتب يقدمونها على أنها خرافات ، ولهذا فهم غير ملزمين بمراعاة الاحتمالات والممكنات ، فإني أجيب على هذا الاعتراض فأقول أن الخرافات تكون أحسن وأمتع كلما ازدادت قرباً من الحقيقة واندرجت في نطاق الأمور الممكنة . والخرافات الكاذبة يجب أن تكون في متناول أولئك الذين يقرأونها وأن تتصور بحيث تجعل ممكناً ما ليس كذلك ، سهلاً ما ليس إلا صعباً ، حتى أنها وهي تجعل العقل دائماً معلقاً ، تثير الإعجاب واللذة والدهشة والإنفعال والنشوة ، وهي عواطف لا يثيرها أبداً أولئك الذين يبتعدون عن الاحتمال وعن روح المحاكاة التي هي كمال الفن . ولم أر أبداً كتاباً فروسية الحكاية فيه تؤلف جسماً كاملاً بكل أعضائه ، بحيث يتجاوب الوسط مع البداية ، والنهاية مع البداية والوسط ، بل يؤلفها المؤلفون على العكس من هذا ، من أشلاء ، متنافرة ، حتى ليبدو وكأن قصدهم هو أن يصنعوا مخلوقاً وهمياً أو وحشاً عجيباً ، لا شكلاً منتظماً متناسباً . والى جانب هذه النقيضة تجد أسلوبهم جافاً ، وحكاياتهم غير معقولة ، وغرامياتهم شهوانية فاجرة ، وآدابهم مضحكة ، ومعاركهم بغير نهاية ، وبرايمهم فاسدة ، ورحلاتهم خيالية ، وبالجملة فإنهم مجردون من المواهب بحيث يجب نفيهم من الجمهورية المسيحية بوصفهم قوماً لا غناء فيهم ولا فائدة » .

وأرعى القستيس كل انتباهه الى هذا الكلام ، ويدا له الكاهن رجلاً راجح العقل سليم الذوق في كل ما قال . فأجاب عليه قائلاً إنه يشاركه الرأي وأنه يكره كتب الفروسية ، وأحرق كل ما وجد منها عند دون كيخوته وما كان أكثرها ! ثم ذكر له الإمتحان الذي أخضعها له ، ذاكراً ما حكم عليه منها بالإلقاء في النار ، وتلك التي خلى عنها . وضحك الكاهن كثيراً من هذه المحاكمة الجديدة النوع ، وأضاف قائلاً أنه على الرغم من كل السوء الذي قاله عن كتب الفروسية ، فإنه لم يمكن أن يمنع نفسه من أن يجد فيها بعض الخير ، من حيث أنها تقدم الى العقول السليمة مجالاً واسعاً للتمرين والتعريف بالذات ، بتمكينها لأقلامهم من التحليق في سبحات عالية . إذ يمكنهم حسبما يشاءون ، أن يصفوا عواصف وألواناً من الفرق ، ولقاءات ، ومعارك ، وأن يرسموا قائداً بأسلاً بكل الصفات الضرورية له ، محتاطاً من الخطر ، يعرف كيف يتنبأ بحيل العدو ويخططه ، خطيباً بليغاً ومسيطر على جنوده يوجههم كيف يشاء ، ناضجاً في النصح ، حازماً في العزم ، ليس أقل إرهاباً حين يهاجم منه حين يهادن ، وهم يستطيعون مرة أن يؤثروا في النفس بحكاية حادث أسيان ، ومرة أخرى أن يفرحوا النفوس بلوحات باسمية ومناظر مفاجئة ، لسيّدة جميلة ، شريفة ،

حديقة ، لبيبة ، فارس مسيحي شجاع مهذب ، فستار غاشم متشرد ، أمير مهذب ، باسل ولطيف ، مليء بالطيبة ، والأمانة مع تابعين ، أعيان نبلاء كرماء . ويصفون منجماً ، وجغرافياً ، وموسيقاراً حاذقاً ، ورجلاً بارعاً في أمور الدولة ، وأحياناً ساحراً عند الإقتضاء . ويمكنهم أن يرسموا لنا مكائد أوليس ، وتقوى إينيوس ، وشجاعة الإسكندر ، وبسالة قيصر ، وعلم تريان ونزاهته ، وإخلاص زوبير ، وحكمة كاتون ، أعني كل الأفعال التي بها كمال شخص لامع ، بتصويرها أحياناً مجتمعة في واحد ، وأحياناً موزعة بين كثيرين . وكل هذه الخيوط إذا نسجها أسلوب ممتع ، وابتكار بارع ، قريب دائماً من الحقيقة ، - تكون من غير شك نسيجاً غنياً متنوعاً مؤلفاً من أزهى الألوان ، وإذا تمّ كشف عن لطف وكمال ، وحصل على قصب السبق بين الإنتاج الفكري ، الذي يهدف ، كما قلت ، الى الإفادة والإمتاع معاً . ومثل هذا الكتاب ، وإن كان مكتوباً بالنثر ، فإنه يعطي المؤلف الفرصة ليظهر ملحمياً وغنائياً ومأساوياً وملهاوياً ، وبالجملّة متضلعاً في كل الأقسام التي يتألف منها البلاغة والشعر ، لأن الملحمة يمكن أن تكتب بالنثر أو بالشعر » .

الفصل الثامن والأربعون

تلاوة حديث الكاهن عن كتب الفروسية وأموار أخرى جديدة بعقله الراجح

فأجاب القسيس : « إن ما قلته يا سيدي الكاهن ، صحيح ، وهذا هو ما يزيد في ذم أولئك الذين ألفوا ، حتى الآن ، مثل هذه الكتب ، دون الإعتناء بأسلوبهم ومراعاة القواعد التي كان من شأنها أن تجعلهم من الشهرة في النشر بقدر ما كان أميراً الشعر اليوناني واللاتيني^(١) » .

فاستأنف الكاهن كلامه وقال : « ومع ذلك فإن إغراء تأليف كتاب فروسية ، مع اتباع كل القواعد التي ذكرتها ، قد راودني ، بل أعترف لك أنني كتبت منه أكثر من مائة صفحة ، ولكي أتأكد هل هو حقاً كما بدا لي ، ناولت مخطوطي لأناس متحمسين جداً لهذا اللون من القراءة ، فاهمين عاقلين ، وكذلك ناولته لجهلاء لا يشدون منه غير المتعة واللذة ، وتلثيت من كلا الفريقين تقريراً مُرضياً . على الرغم من ذلك لم أتابع محاولتي ، لأنه بدا لي أن ذلك أمر غريب عن مهنتي . ومن ناحية أخرى أشاهد أن عدد الحمقى أكبر من عدد أصحاب العقل والاستحقاق ، وعلى الرغم من أن الأمتع هو أن يمدح المرء من جانب عدد قليل من العقلاء أكثر من أن يسخر منه الجمهور العديد من الجهلة ، فإني لم أشأ أن أستهدف للحكم غير المتزن الصادر عن عامي غير معتبر ينشد هذا اللون من المؤلفات . وما صرفني خصوصاً عن إتمامه هو حجة أبديتها لنفسها فيما يتعلق بالكوميديات التي تُمثّل في هذه الأيام . هذه الكوميديات ، أو معظمها على الأقل ، سواء تلك المستمدة من التاريخ ، أو تلك المخترعة اختراعاً ، تعد جديدة أن يهزأ منها ، ولا رأس لها ولا ذنب ، ومع ذلك فإن العامة يتلقونها بشغف ولذة ، ويرونها حسنة ، مع أنها بعيدة جداً عن أن تكون كذلك . والمؤلفون الذين

(١) هوميروس وفرجيليوس .

ينشؤونها ، والممثلون الذين يمثلونها ، يقولون أن من الواجب أن تكون كذلك ، لأن الشعب يريد هذا هكذا ، لا على نحو آخر ، ويقولون أيضاً إن الكوميديات التي تتبع الفعل كما تقضي بذلك قواعد الفن ، لاتناسب إلا ثلاثة أو أربعة حكماء يقدرّون جمالها ، بينما سائر الناس يبذلون جهداً لافائدة فيه لفهمها ، وإنّ الأفضل كسب مايتعش منه من العدد الأكبر ، على السمعة الطيبة مع العدد الأصغر . وسيكون هذا أيضاً شأن كتابي ، فبعد أن أحرقت جفوني إبتغاء مراعاة كل هذه القواعد بعناية ، سأكون كالخيّاط في الأغنية المشهورة ، الذي كان يعطي الخيط مع التفصيلة . وكم حاولت مراراً إقناع المؤلفين بأنهم على ضلال في هذا الرأي الذي يرونه هم ، مبيّناً لهم أنهم سيجتذبون جمهوراً أكبر ، وسيحظون بشهرة أعظم لو أنهم ألفوا كوميديات وفقاً للقواعد ، بدلاً من مسرحياتهم المفتعلة التهويلية ، ولكنهم عنيدون مصرّون على رأيهم ، وقد ركبوا رؤوسهم بحيث لم يعد بوسع أي برهان أو بينة أن تجعلهم يرجعون عن رأيهم . وأذكر أنّي قلت ذات مرة لأحد هؤلاء العنيدين : « ألا تذكر أنه منذ سنوات مثلت في اسبانيا ثلاث طراغوديات من تأليف شاعر مشهور في هذه المملكة ، كانت من الجمال بحيث أدهشت وفتنت كل الذين شاهدوها ، الجهلة والمتعلّمون على السواء ، الشعب والبلاط ، وأنها كسبت وحدها من المال أكثر مما كسبت ثلاثون من أفضل المسرحيات التي مثلت منذ ذلك الحين ؟ » فأجاب من كنت أسأله : « لاشك أنّك تقصد مسرحية « إيزابلا » و« فليس » و« ألكسندرا »^(١) ؟ » فقلت له : « نعم ، ووافقني على أن كل قواعد الفن مراعاة فيها بكل دقة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت ماكانت ، وأمتعت الجميع . فأنت ترى إذن أن الغلطة ليست غلطة الشعب إذا طلب مسرحيات سخيفة تافهة ، بل غلطة المؤلفين الذين لايقدرّون أن يقدموا اليه غير ذلك . ثمّ إنه لاتوجد تهاويل في مسرحية « الإنتقام من نكران الجميل » ، ولا في « نوماثيا » ولا في « التاجر العاشق » ولا في « العدو المفيدة »^(٢) » ولا في بعض المسرحيات الأخرى التي ألفها شعراء مهرة لصالح شهرتهم ومن أجل مكاسب الممثلين » . ثمّ أضفت أسباباً أخرى لاستخلاصه من خطاه : ولكنني وجدته مرتبكاً دون أن يكون مقتنعاً .

(١) هذه المسرحيات الثلاث من تأليف ليوناردو دي أرنسولا . والثانية ضاعت أما الأولى والثالثة فنشرا في المجلد السادس من « البرناسو الاسباني » تحقيق لويث دي سيدانو (سنة ١٧٧٢) . وقد ولد سنة ١٥٥٩ وتوفي سنة ١٦١٢ . وعلى الرغم من إطراره لربانثس فإن مسرحيته ضئيلة القيمة . وله كتاب مهم في التاريخ عن « حوادث أرغون في العامين سنة ١٥٩٠ . سنة ١٥٩١ » . كما جمع مواد كبيرة الفائدة عن تاريخ أرغون قبل الفتح الإسلامي .

(٢) الأولى من تأليف لوبه دي بيجا ، والثانية لربانثس ، والثالثة لجسبار دي أجيلار . والرابعة للكامن القانوني فرانسكر دي ترجمه .

فقال القسيس بدوره : يا سيدي الكاهن! إن فضيلتك قد أيقظت في نفسي كوامن الحقد على الكوميديّات في العصر الحاضر ، وهو حقد وكرهية لا يقلّان عن حقدي وكرهيتي لكتب الفروسية . إن الكوميديا في رأي شيشرون يجب أن تكون مرآة الحياة الإنسانية ، وأنموذج الأخلاق ، وصورة الحقيقة ، ولكن الكوميديّات التي تمثّل اليوم هي مرايا التهاويل ، ونماذج الحماقات وصور الفجور . وهل يمكن أن تكون هناك حماقة أكبر ، مثلاً ، من إظهار طفل في المهد في بداية الفصل الأول ، ونراه في الفصل التالي رجلاً كامل الرجولة ذا لحية^(١) ؟ أليس من الهزء أن نرى شيخاً باسلاً ، وشاباً جباناً ، وخادماً بليغاً ، ووصيفاً مستشاراً ، ومملكاً حملاً ، وأميرة مساعدة طبّاحة ؟ وماذا أقول لك عن الطريقة التي بها يراعى الزمن الذي تحدث خلاله الأحداث التي تمثّل ؟ لقد رأيت كوميديا مضى اليوم الأول فيها في أوروبا ، والثاني في آسيا ، والثالث في أفريقيا ، ولاشك أنها لو كان فيها يوم رابع لأنتهى في أمريكا ، حتّى إنّ المسرحية ستكون قد جرت أحداثها في كل أرجاء العالم الأربعة . ومن ناحية أخرى ، إذا صحّ أن المحاكاة هي الجزء الجوهرية في الكوميديا ، فكيف يمكن أن نحتمل أنه في حادث وقع في أيام الملك بيبان أو شرلمان نجد أن الشخصية الرئيسية هي الامبراطور هرقل ، الذي يدخل القديس ومعه الصليب ، ويستولي على القبر المقدّس ، كما فعل جودفروا دي بويون ، بينما الفارق الزمني بين هذين العصرين كبير جداً ، إنّ الكوميديا تقوم على الخرافات ، أفليس إذن منتهى الجنون أن نمزجها بالحقائق التاريخية بالخلط بين الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، وحتّى هذا لا يجري بطريقة محتملة ، بل بتكديس أفحش الأخطاء وأشدّها إثارة للغضب ؟ والشر الأكبر هو أنّ الجهلة يقولون أن في هذا يقوم الكمال ، وماعداه فليس إلا بحثاً لا فائدة فيه . وإذا وصلنا إلى الكوميديّات المقدّسة ، فما أكثر المعجزات الزائفة التي تحشى بها ؟ وما أعجب الأقوال المكذوبة التي أسيء فهمها إذ ينسب إلى قديس معجزات قديس آخر ، بل تورد معجزات في المسرحيات غير الدينية ، دون أي توقيير ، ولا تحفّظ ، فقط لأنه يخيّل إلى المؤلّف أن مثل هذه المعجزة ، أو مثل هذا التجلّي سيكون ذا أثر مناسب في هذا الموضع أو ذاك ، ابتغاء إدهاش البلهاء واجتذابهم إلى المسرح . وكل هذه الأمور تسيء إلى الحقيقة ، وإلى التاريخ ، بل وإلى الكتاب الاسبان فتسريلهم بالعار ، لأنّ الأجانب ، وهم يراعون بالدقة التامة قواعد الكوميديا ، ينظرون إلينا على أننا همج وجهلة ، حين يرون مافي مسرحياتنا من استحالة وعدم معقولية . وليس عذراً

(١) لاشك لي أن ثريانتس يهاجم هنا بعض مسرحيات لويه دي بيبا ، وخصوصاً مسرحية « أوسون وبالنشين » .

مقبولاً أن يقال أن الهدف الرئيسي للدولة الجيدة الحكومات وهي تسمح بالتمثيل العام إنما هو تسلية الشعب بترويح شريف وحمايته من أخطار البطالة ، ولهذا فلا يهم كثيراً أن تكون الكوميديات جيدة أو رديئة ، وإنه لافائدة من فرض قواعد عليها ولا إلزام أولئك الذين يؤلفونها بالتزام القواعد المفروضة ، مادام الغرض المنشود قد تحقق على كل حال . وأنا أجب على هذا فأقول ، إن هذا الغرض يتحقق بواسطة الكوميديات الجيدة أكثر مما يتحقق بواسطة الكوميديات التي ليست جيدة ، لأنه بعد سماع كوميديا جيدة التركيب يخرج المشاهد من المسرح وقد أفرحته الفكاهات ، وعلمته الحقائق الأخلاقية ، وأدهشه تنوع الأحداث ، وأصلحته المواعظ ، ونهته المكائد ، وأدبته القدوة الحسنة ، وصار يثور ضد الرذيلة ويتحمس للفضيلة . وكل هذه المشاعر ينبغي على الكوميديا الجيدة أن تثيرها في نفس من يسمعها ، مهما يكن جلفاً بسيطاً ساذجاً . ومن المستحيل على كوميديا تجمع كل هذه الصفات ألا تسر ، وتعلم ، وتمنع وترضي أكثر من تلك التي تخلو منها ، أي من معظم الكوميديات التي تمثل هذه الأيام . وليست هذه غلطة الشعراء المحدثين أن لا تكون مسرحياتهم جامعة لتلك الصفات ، لأن الكثيرين منهم يعرفون جيداً أين يخطئون ، وما الذي يجدر عمله ، لكن لما كانت الكوميديات قد صارت بضاعة فهم يقولون عن حق إنها لن تشتري ولن تمثل إذا لم تصنع بتلك الطريقة .

وهكذا يخضع الشاعر لمقتضيات الممثل الذي يطلب منه المسرحية ويأجره عليها . ويبرهن على حقيقة ما أقول العدد الذي لا نهاية له من الكوميديات الذي ألفها عبقرى سعيد^(١) في هذه المملكة ، بلطف وذوق وأناقة في الأشعار ، وسلامة في الأحكام ، وعمق في الأدب والأمثال ، وبالجملة بأسلوب نبيل سهل ، حتى ملأ الدنيا بشهرته . إن هذا الرجل العظيم لم يعن بكل مسرحياته بدرجة متساوية ، ابتغاء للتلاؤم مع ذوق الممثلين ، وكثيراً منهم ليست على الدرجة المطلوبة من الإتقان . وغيره لا يذكرون اهتماماً يذكر بتأليف مسرحياتهم ، حتى أنه بعد التمثيل يضطر الممثلون إلى الهرب والاختباء خوفاً من العقاب ، كما وقع لهم مراراً لأنهم أهانوا حاكماً أو أسرة عريقة . وهذه النقائص وغيرها ستزول لو وضع في القصر مراقب مختار من بين الرجال الأذكياء العقلاء ، يقوم بفحص كل المسرحيات قبل عرضها ، ليس فقط في البلاط ، بل في اسبانيا كلها . وبدون موافقته ، المختومة ختماً قانونياً صحيحاً ، لا تسمح المحاكم بتمثيل أية مسرحية . وبهذه الطريقة يرسل الممثلون

(١) لوبه دي بيجا .

مسرحياتهم الى البلاط ، دون تخلف ، ويمكنهم أن يمثلوها بكل أمان ، والمؤلفون يبذلون عناية أكبر في التأليف ، وهم يعلمون أنهم لابد أن تمر مسرحياتهم بامتحان دقيق يقوم به قاضٍ واعٍ فاهم ، وهناك تكون عندنا كوميديات جيّدة تجمع الصفتين اللتين تتطلبان منها وهما الإفادة والإمتاع ، ويصبح الممثلون في أمان ، ولا يضطر أحد الى عقابهم . وإذا أريد ، الى جانب ذلك ، تكليف المراقب نفسه ، أو غيره ، بفحص كتب الفروسية التي ستُنشر في المستقبل ، فيمكن أن يوجد بعض كتب الفروسية التي تتصف بالإلتقان الذي تحدّثتم فضيلتكم عنه ، وستغنى لغتنا بكنز ثمين ، يستبدل بالكتب القديمة مؤلفات ممتعة تصلح تسلية شريفة لإزجاء الفراغ ، ليس فقط فراغ الفارغين ، بل وأيضاً فراغ أكثر الناس إنشغالاً ، لأن قوسنا لا يمكن أن تظل مشدودة باستمرار ، والضعف الانساني في حاجة الى نوع من الترفيه .

وفي هذه اللحظة اقترح الحلاق من المتحادثين ، وقال للقسيس : « هذا هو المكان الذي قلت لك أننا نستطيع الاستراحة فيه وجعل الثيران ترعى بغير علة » . فأجاب القسيس : « وهذا ما يبدو لي أيضاً » ، وهناك سأل الكاهن ماذا يريد أن يفعل ، فقرر هذا أن يبقى معه وقد جذبه نضارة المكان وجماله ، والرغبة في معرفة المزيد من تفاصيل مغامرات دون كيخوته وحديث القسيس الجذاب الذي سرّه كثيراً . وكلف أحد خدمه بالذهاب الى الفندق المجاور لشراء أطعمة تكفي الجميع . فأجاب الخادم قائلاً : إن البغل المحتمل بالزاد لابد أن يكون قد وصل وهو يحمل ما يكفي الجميع ، دون حاجة الى شراء شيء آخر غير الشعير علفاً للدواب . فأمر الكاهن بإرسال كل الدواب الى الفندق وإعادة البغال . وبينما كان هذا الأمر بسبيل التنفيذ ، رأى سنشو أنه يستطيع أخيراً أن يكلم مولاه دون مراقبة من القسيس والحلاق اللذين ظهرا له مشبوهين ، فاقترب من القفص وقال لدون كيخوته :

- مولاي ، إرضاء لضميري ، عليّ أن أخبرك عما يجري فيما يتعلق بمسألة سحر^(١) . إن هذين الرجلين المقتنعين اللذين تراهما هما قسيس وحلاق قريتنا ، وبخيل اليّ أنهما يسجنانك هكذا حسداً منك لرؤيتك قد تفوّقت عليهما في أعمال البطولة . فإذا صح هذا ، فينتج عنه أنك لست مسحوراً ، بل مخدوعاً ومسجوناً في قفص . وللتدليل على هذا سأسألك عن شيء ، فإن أجبتني عنه بما أظن ، فسيكون من الواضح ووضوح

(١) أي كونك مسحوراً .

الشمس أنهما يخدعانك ، وأنت لست مسحوراً ، بل كل ما في الأمر أن محك في وضع مقلوب .

فقال دون كيخوته : أسأل مابدا لك ، يا ولدي سنشو ، وسأجيب عليك كما تشاء . أما ماتقوله من أن هذين الرجلين اللذين يرافقاننا هما الحلاق والقسيس ، ابنا بلدتنا ، فيجوز تماماً أن يبدو لك كذلك ، أما أن يكونا فعلاً كذلك فلا تعتقدون ذلك بأي حال من الأحوال . إن ما عليك أن تعتقده ، إذا كانا يشبهانها حقاً ، هو أن اللذين سحراني قد اتخذا شكليهما (إذ يمكنهما أن يتخذا ما يشاءان من الأشكال) ، كي يخدعاك ويغرقاك في تيه من الشكوك لن تخرج منه أبداً حتى لو كان معك خيط^(١) ثيسسيوس . ويجوز أن يكونا قد اتخذا هذين الشكلين لإحداث الاضطراب في عقلي ومنعي من معرفة من أين جاءني هذا الشقاء ، لأنه إذا كنت تؤكّد لي ، من ناحية ، أن هذين الرجلين هما الحلاق والقسيس في قريتنا ، وإذا كنت أنت من ناحية أخرى ، أرى نفسي في هذا القفص ، فماذا تريد مني أن أظن ، أنا الذي أعلم أن قوى خارقة لاتكاد تقوى على سجنني فيه ، غير أن سحري (كوني مسحوراً) يتجاوز كل ما قرأته في تاريخ الفرسان الجوالّة الذين سحروا هكذا ؟ ولهذا يمكنك أن تطمنن ، أما اللذان تظن أنك تعرّفتهما فهما هما بقدر ما أنا تركي . فأسألني الآن عما يحلو لك ، وسأجيب عليك حتى الغد إذا اقتضى الأمر .

فصاح سنشو : يا للعداء المقدسة! أياكون رأسك جامداً وعقلك صغيراً بحيث لاتدرك أن ما أقوله لك هو عين الحق ، وأن سجنك ومحنتك هما من مكر أعدائك لا من كونك مسحوراً ؟ إذن مادمت لا تريد أن تصدّقني فإنّي أريد أن أثبت لك بأنك لست مسحوراً . ولعل الله أن يخلصك من هذا العذاب ، ويضعك في حضن السيدة دلثنيا في الوقت الذي تكون هي فيه أبعد ما تكون عن خاطرك .

فقال دون كيخوته : كف عن تعزيماتك يا صاحبي ، ولقد قلت لك إنني سأرد عليك بدقّة .

فقال سنشو : هذا ما أطلبه ، أجبني بكل إخلاص ، دون أن تزيد أو تنقص شيئاً ، وبكل صراحة من يمارسون مهنة السلاح ، مثلك يا مولاي ، بلقب الفارس الجوال . فأجابه دون كيخوته : أقول لك مرة أخرى أننى لن أكذب في شيء : اخلص ، وحق الله ، لأنك تتعبنني بمقدّماتك واعتراضاتك .

(١) أي خيط أريان ، التي أعطته لمحبوبها ثيسسيوس في التيه الذي حبس فيه مينوتور ، ممّا سهّل له سبب العودة .

فقال سنشو :إني أقر بطيبة وأمانة مولاي : ولكي نعود الى حكايتنا ، أسألك ، مع كل احترامي ، هل مولاي منذ أن وضع في القفص أو كما يلذ لك أن تقول : منذ أن سحرت في هذا القفص ،لم تشعر بالحاجة الى قضاء حاجة ما ؟
فقال دون كيخوته : لا أفهم ماذا تقصد بكلامك هذا : وضح ، إذا شئت متى أن أجيبك جواباً قاطعاً .

فقال سنشو : هل من الممكن ألا تفهم مايفهمه كل الأطفال ؟ إني أسألك هل لم تشعر بالحاجة الى قضاء ما لا يمكن الإنسان أن يستغني عنه ؟ فأجابه دون كيخوته : آه ، آه ، فاهم ماذا تقصد ياسنشو . نعم يا صاحبي ، عدة مرات ، وحتى في هذه اللحظة : فخلّصني ، أرجوك ، من هذا المأزق ، لأنني أخشى من عواقبه .

الفصل التاسع والأربعون

محادثة عاقلة بين دون كيخوته وسنشو پنثا

فقال سنشو : آه! أمسكت بك! فهذا هو ما كنت أود أن أعرفه بحياتي ونفسي . هل تستطيع أن تنكر ما اعتاد الناس أن يقولوا حين يرون شخصاً معتل المزاج : « لا أدري ما إذا أصابه ، لكنّه لا يشرب ، ولا يأكل ، ولا ينام ، ولا يجيب عما يسأل عنه ، كأنه مسحور » . ومن هذا القول ينبغي أن نستنتج أنّ الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يؤدون الوظائف الطبيعية – مسحورون ، وتبعاً لذلك فإن الذين يشربون حين يقدم اليهم الشراب ، ويأكلون حين يقدم اليهم الطعام ، ويحسّون بالحاجة التي تلح عليك ، ليسوا مسحورين . أجب عن هذا ، من فضلك .

فأجابه دون كيخوته ، ماثقوله صحيح ، ولكن ألم أقل لك أيضاً أن هناك أنواعاً عديدة من الإنسحار ؟ يجوز أن طبيعتها تغيّرت مع الزمن ، وأنه صار من المعتاد اليوم أن يفعل المسحورون كل ما أفعل ، بينما لم يكونون سابقاً يستطيعون ذلك . والمرء لا يستطيع أن يحاج ضد العرف ولا أن يستنتج أية نتيجة ، وأنا أعلم وأنا موقن كل اليقين أنني سحرت ، وهذا يكفي ليقين ضميري واطمئنانه ، لأنه لن يكون أبداً مطمئناً لو اعتقدت أنني لست مسحوراً ، وأني أبقى هكذا في هذا القفص جباناً كسولاً ، مخيباً آمال البائسين والمحزونين في النجدة التي يمكنني اغاثتهم بها ، ولعلهم في هذه اللحظة أشد ما يكونون بحاجة إليها .

فأجاب سنشو : ومع هذا كلّه فأني أعتقد ، زيادة في الإطمئنان ، أنه سيكون من الخير لسيادتك أن تحاول الخروج من هذا السجن وأن تتركب روئيتاته فرسك الطيّب ، الذي يبدو حزيناً مكتئباً حتّى وكأنه مسحور هو الآخر . وأعرض عليك أن أساعدك بكل ما أستطيع ، وأعتقد أنني سأفلح في هذا . وبعد ذلك تحاول القيام بمغامرات أخرى ، فإن لم تفلح هذه المغامرات سيكون أماننا دائماً متسع من الوقت للعودة الى القفص ، الذي أتعهد - عهد

سائس طيب أمين - أن أسجن نفسي فيه معك ، إذا كنت تعيساً ، وأنا غير ماهر ، بحيث لا تفلح بما أقوله لك .

فأجابه دون كيخوته : بوذي أن أحاول ماتقترحه ، يا أخي سنشو ، وحين ترى الفرصة مواتية لتنفيذ هذه الخطة فسأفعل كل ماتريد ، ولكنك ستري يا صاحبي أنك تخطئ في معرفة طبيعة محنتي هذه .

وعلى هذا النحو سار الفارس الجوال والسائس الساخط ، الى أن بلغوا المكان الذي كان ينتظرهم فيه القسيس ، والكاهن ، والحلاق . وحل سائق العربية ثيرانه وأرسلها ترعى في حرية . وكانت نضارة المكان وجماله يدعوان الى الإستراحة ، لا الناس المسحورين مثل دون كيخوته ، بل الأشخاص العاقلين الواعين مثل سائسه . وتوسل هذا الى القسيس أن يسمح لمولاه بالخروج قليلاً من القفص وقال أنه لو رفض فمن الجائز ألا يظل القفص نظيفاً كما يتناسب ذلك مع مكانة فارس نبيل مثل دون كيخوته . وفهم القسيس بسهولة ما قصد سنشو وقال أنه يود الإستجابة الى هذا الطلب ، لكنه يخشى أن يهرب دون كيخوته حين يرى نفسه طليقاً ، ولا يمكن العثور عليه بعد ذلك .

فقال سنشو : أنا مسؤول عنه .

وأضاف الكاهن : وأنا أيضاً مسئول عنه ، خصوصاً إذا أعطاني كلمة شرف بوصفه فارساً ألا يبتعد عنا طالما رغبنا .

فقال دون كيخوته : أعطي كلمة الشرف ، خصوصاً ومن هو مسحوراً مثلي ليست لديه الحرية في أن يفعل مايريد ، لأن من يمسك به مسحوراً يمكن أن يمنعه من التحرك طوال ثلاثة قرون ، وإذا هرب ، يحمله على العودة بأسرع من الريح . وهكذا إذن تستطيعون إطلاق سراجي ، وأني أطلب منكم هذا لمصلحتكم ، لأنكم لو رفضتم ، فابتعدوا جانباً ، لمصلحة حواس الشم فيكم .

وبناء على كلمته مذ الكاهن اليه يده وساعده على الخروج من سجنه ، ممّا سرّه كل السرور . فبدأ بالتمدد والتمطع بكل جسمه ، ثم اقترب من روثينائه وربت على مؤخرته وهو يقول له : « أي أنت ، يازهرة ومرآة كل الأفراس ، أرجو من الله ومن أمه (العذراء) أن نلتقي عمّا قليل وفقاً لرغائبنا ، أنت تحمل سيّدك ، وأنا ضاغطاً على جانبيك الكريمين ومستمرّاً في المهمة التي من أجلها خلقتني الله في الدنيا » . ثم ابتعد ، يتبعه سنشو ، ثم عاد بعد فترة وقد استراح ، وهو عازم كل العزم على تنفيذ مشروع سائسه . فتطّلع فيه الكاهن ، وتعجب من غرابة نوع جنونه ، الذي ترك عقله حراً ، وحكمه سليماً في سائر

الأمر ، ولكنه يفقد كل ضابط ، كما قلنا ، كلما تعلّق الأمر بالفروسية . تأثّر عطفاً عليه وقال له بعد أن جلسوا جميعاً على العشب في انتظار البغل الذي يحمل الزاد : « هل من الممكن ، ياسيدي الفارس ، أن يكون لقراءة كتب الفروسية قراءة فارغة حمقاء كل هذا السلطان على عقلك بحيث تفقد ملكة الحكم السليم ، فتعتقد أنك مسحور ، وتعتقد آلفاً أخرى من التهاويل البعيدة كل البعد عن الحقيقة بعد الحقيقة عن الكذب ؟ وأي عقل إنساني ، قل لي ، يمكن أن يصدق بوجود هذا العدد اللانهائي من الأماديسيين (جمع : أماديس) ، وهذا الحشد الحاشد من الفرسان المشهورين ، ومن الأباطرة في ترابيزون ، وأمثال فليكس مارس الهوركاي ، وهذه الأعداد من خيول الزينة ، والأنسات الشاردات ، والأفاعي والتنانين ، والعفاريث ، والمردة ، والمغامرات التي لم يسمع بمثلها ، والمعارك ، والانسحارات ، والإلتقاءات الرهيبة ، والملابس الفاخرة ، والأميرات العاشقات ، والسواس الذين أصبحوا كوثقات ، والأقزام المتساهلين ، والبطاقات العذبة ، وكلمات الغرام ، والنسوة الباسلات ، وبالجملة كل الحماقات التي تحتوي عليها كتب الفروسية ؟ أما عن نفسي فأني أصرّح لك بأنّي إذا قرأت كل هذا دون أن أظن أنه خرافات فإنه يفرحني ، لكن حين أفكر في أنه ليس إلا أكداً من الأكاذيب فأني أضرب بخير هذه الكتب عرض الحائط ، وألقي به في النار إن كانت قريبة منّي ، وأراه جديراً بهذا العقاب لأنه زائف ، خذاع ، يتناقض مع الطبيعة الإنسانية ، وينشئ بدعاً جديدة ، وألواناً جديدة من الحياة ، ويعطي العامي الجاهل الفرصة لاعتقاد كل هذه الأباطيل . إن كتب الفروسية خطيرة جداً حتّى أنّ في استطاعتها أن تحدث الإختلال في أكبر العقول حظاً من الحكمة ، كما هو مشاهد فيك أنت يا سيدي ، فقد أحالتك بحيث اضطرتّ الناس الى حبسك في قفص وجرك على عربة تجرّها ثيران كأنك أسد ، أو نمر يساق من مدينة الى مدينة لكسب بعض المال . أهـ سيدي دون كيخوته ، ارحم نفسك ، وعد الى العقل ، واستخدم العقل الذي وهبك الله ، ووجه صفات عقلك العديدة اللامعة نحو قراءة أخرى تفيد ضميرك . وإذا رغبت في ذلك ، مسوقاً بقوة نوازحك ، في قراءة كتب شجاعة وبطولة وفروسية فاقرأ في الكتاب المقدّس سفر «القضاة» : فستجد فيه أعمالاً عظيمة ومغامرات رائعة وصحيحة معاً . لقد كان في البرتغال فرياتس ، وفي روما قيصر ، وفي قرطاجنة هانيبال ، وفي اليونان الاسكندر ، وفي قشتالة الكونت فونان جونثال^(١) ، وفي

(١) فرنان جونثال أول كونت في قشتالة (في القرن العاشر) .

- ديجو غرسيه دي باريدس ، قائد عاش في عهد كارلوس الخامس (هركان) وله أعمال مجيدة جعلت الناس يلقبونه بلقب «شمشون استريمادور» . =

بلنسية السيد القمبيطور ، وفي الأندلس غنصالبه القرطبي ، وفي استريمادورا ديجو غرسيه دي باريدس ، وفي شريش غرسي بيرث دي برجاس ، وفي طليطلة جرثلاسو ، وفي أشبيلية دون مانويل الليوني ، وقراءة أعمالهم الباهرة تجذب ، وتعلم ، وتمتع ، وتخلب أعظم الألباب . إنها قراءة خليقة بك ياسيدي ، وستجعلك عالماً في التاريخ ، متحمساً للفضيلة ، مستنيراً في أعمال الخير ، مهذباً في أخلاقك ، شجاعاً بغير تهوّر ، جسوراً بغير ضعف ، وكل هذا في سبيل مجدك ، ومصلحتك ، وشرف اقليم المنتشا الذي أعلم أنك تنتسب إليه » . وأصغى دون كيخوته باهتمام عظيم الى الحجج التي ساقها الكاهن . ولما رآه توقف عن الكلام ، تطلع فيه فترة من الزمن ، ثم أجاب عليه : - يبدو لي ، ياسيدي ، أن كلامك يهدف الى إقناعي بأنه لم يوجد أبداً فرسان جواله ، وبأن كل كتب الفروسية زائفة ، كذابة ، خطيرة ، لا فائدة فيها للدولة ، وبأنني أسأت بقراءتي لها ، وأسأت أكثر بتصديقي لما فيها ، وأكثر وأكثر بمحاكاتها ، لأنني كرسّ نفسي لمهنة الفارس الجوال القاسية التي تلقّنها هذه الكتب . وتنكر أيضاً أنه يوجد من يدعى أماديس الغالي أو اليوناني ، ولأي فارس تذكره هذه الكتب .

فقال الكاهن : تماماً . كلمة بكلمة .

فاستأنف دون كيخوته حديثه قائلاً ، وقلت أيضاً أن هذه الكتب أضرت بي أبلغ الضرر ، لأنها سلّبتني ملكة الحكم السليم وجعلتهم يسجنوني في قفص ، وأنّ من الخير لي أن أصلح أمر نفسي وأغيّر قراءتي ، وذلك بأن أختار كتباً أصدق ، تفيدني علماً وتزيدني إمتاعاً ؟ فقال الكاهن : تماماً .

فقال دون كيخوته ، لكنّي أنا أرى أن من المؤكّد أنك أنت المجرد من الحكم السليم ، وأنت مسحور ، لأنك جرّوت على التفوّه بكل هذه التجديفات ضد شيء محقّق مصدق في العالم حتّى أنّ من ينكره كما فعلت أنت يستحق العقاب نفسه الذي حكمت به على الكتب التي لا تسرك . والتصريح بأنه لم يوجد أماديس أبداً ، ولاكل أولئك الفرسان الذين تروي الكتب مغامراتهم هو مثل القول بأنّ الشمس لا تضيء ، وأنّ البرد ليس بارداً ، وأنّ الأرض ليست يابسة . وهل يجروّ أحد على الزعم بأن مغامرة وريثة العرش فلوريدا مع جي

= - غرسي بيرث دي برجاس ، محارب برز في استيلاء فرنندو على أشبيلية سنة ١٢٤٨ .

- جرثلاسو القرطبي ، اشترك في حصار غرناطة أيام فرنندو وايزابيلا سنة ١٤٩١ .

- دون مانويل دي ليون ، فارس عاش في القرن الخامس عشر ، التقط القناز الذي رمت به حبيته في فناء حبس فيه سباع .

- فريأتس ، قام بالثورة ضد الرومان سنة ١٤٩ ق م. وهزم أربعة برتوريين ، ثمّ ذبحه أحد رجاله سنة ١٤١ بتدبير من الرومان .

البورجونى مخترعة لا أصل لها ؟ وأن مغامرة فيريراس على جسر مانتيل ، التي وقعت في زمان شرلمان ، زائفة^(١) ؟ أقسم بالله أنها حقيقية كما أن الوقت الآن نهار . وإنكار ذلك هو مثل القول بأنه لم يوجد أبداً هكتور ولا أخيلوس ولا حرب طروادة ولا أكفاء فرنسا الاثنا عشر ولا الملك آرثر ملك انجلترا الذي تحول الى غراب وينتظر في كل لحظة أن ترد إليه مملكته . ومعناه أيضاً أن تاريخ جوارينو مثكينو وتاريخ الظفر بكأس الجرال^(٢) المقدس زائفان ، وأن عشق ترستان للملكة ايزولده ، وعشق جنيفر ولانصلو منحولان . إنه لا يزال يعيش ناس يذكرون أنهم كادوا أن يكونوا قد رأوا الدنيا كنتانيون ، أشهر ساقية في انكلترا تفهم في تذوق الخمر ، وأذكر أنني لما كنت صغيراً قالت لي جدتي لأبي ، وهي تدلني على دنيا طويلة الشعر والقبة : « أنظري يا ولدي كأنها السيدة كنتانيون » . فهي كانت تعرفها اذن ، أو هي على الأقل رأت صورتها . وهل يمكن إنكار أن قصة بطرس البروفنصي وماجلونه^(٣) الجميلة قصة حقيقية ، حينما لانزال نرى حتى اليوم في دار صناعة الملك الكعب الذي به كان بطرس يوجه فرس الخشب الذي حملها وهي تطير في الهواء ؟ إن هذا الكعب أكبر من عريشة عربية ، وبالقرب منه سرج بابيكا ، وفي رونصافلس نجد نفير رولندو^(٤) وهو طويل مثل جذع خشب . ومن كل هذا ينبغي أن نستنتج أنه وجد أكفاء فرنسا الاثني عشر ، وبطرس البروفنصي والسيد القمبيطور وباقي الفرسان المغامرين كما يقال . فهل تجرؤ اذن أن تنكر أن البرتغالي الباسل خون دي مرلو كان فارساً جوالاً وهو الذي سافر الى اقليم البورجواني وحارب في مدينة أراس سيد شارني الشهير واسمه بطرس^(٥) ، وبعد ذلك حارب في بازل هنري دي رستان ، وخرج من هاتين المعركتين مكلاً

(١) هذه الحوادث مذكورة في « أخبار أكفاء فرنسا الاثني عشر » وفي « تاريخ شارلمان » .

(٢) « الجرال » هو الكأس الذي شرب منه المسيح وحواريوه ليلة اللقاء الأخير . ولما صلب المسيح ذهب يوسف الراعي (الاريماني) الى المكان الذي فيه صلب والتقط في هذا الكأس الدم المنزوف من جراحات المسيح ، واحتفظ لنفسه بهذا الكأس . ومن ثم تكونت اسطورة حول هذا الكأس . ف قيل أنه لما أن قام بالتبشير بالدعوة الجديدة وحبه اليهود كانت هذه الكأس تحفظه من كل ما يسومونه من عذاب ، وأنها حفظته من الشيوخوخة ولما أطلق سراحه بعد أربعين سنة بدا له وكأن سجنه لم يكن لأكثر من يومين ، ثم ترخل في آسيا وكوّن تلاميذ . اجتازوا البحر المتوسط ووصلوا الى بريطانيا العظمى ، حيث شيدوا قسراً حفظوا فيه الكأس المقدسة وأقام فيه الساهرون على حفظها ، وتعاقب كثير من الملوك على الاحتفاظ بها لما فيها من عجائب . وأصبح موضوع الظفر بها من المغامرات العظمى التي ألهمت خيال أصحاب كتب الفروسية في العصور الوسطى ، ومن أشهر من تناولوا هذا الموضوع للفرايم فون ايشيباخ في ملحمة الفروسية بعنوان « برسيغال » .

(٣) قصة ألفها الثروبادور البروفنصالي برنالفيز ، وترجمها الى الاسبانية فيليب كاموس ، طليطلة سنة ١٥٢٦ .

(٤) النفير الذي نادى به رولندو على عمه شارلمان لينجده في وادي رونصافلس لما أن حاصروه بعد أن قفى المسلمون على كل جيشه الذي كان في مؤخرة جيوش شارلمان وهي تعبر جبال البرانس من اسبانيا الى فرنسا عائدة إثر حملة .

(٥) بيريدي بوفريمون ، سيد اقطاع شاربو. شارتي .

بإكليل المجد وماذا تقول عن التحديات التي قبلها - ضد أبناء كونت سان بول - بدرو بربا وجوتيرث كيخادا الذي انحدر من صلبه مباشرة من ناحية الأب ، وانتصر عليهم ؟ وهل تنكر أيضاً أن فرنندو دي جباره ذهب لبحث عن مغامرات في ألمانيا ، حيث حارب السيد جورج فارس بيت دوق النمسا ؟ وهل مبارزات سويرو دي كنينوس ، ومباريات^(١) المعبر ومغامرات لويس دي فالنس ضد جونثالودي قزمان ، الفارس القشتالي^(٢) ، وآلاف من المغامرات الأخرى التي قام بها الفرسان المسيحيون في هذه البلاد أو في البلاد الأجنبية ، ليست حقيقية ، مع أنها صحيحة واقعية الى حد أن من ينكرها لابد أن يكون قد فقد عقله ؟ » .

أصغى الكاهن مدهوشاً الى هذا المزيج من الحقائق والأكاذيب الذي صنعه دون كيخوته ، ولم يتمالك من الإعجاب بمعلوماته الواسعة العميقة في كل مايتعلق بشؤون الفروسية الجوّالة . ثم أجاب عليه :

- إنني لا أستطيع أن أنكر ، ياسيدي ، أنه ليس ثم شيء من الحقيقة فيما تقول ، خصوصاً فيما يتعلق بالفرسان الجوّالة الأسبان . بل أسلم لك بأن الأكفاء الاثني عشر في فرنسا وجدوا ، لكنني لأستطيع أن أصدق أنهم فعلوا ما نسبته اليهم المطران توربان ، والشيء الحق هو أنهم كانوا فرساناً اختارهم ملوك فرنسا ، وسمّوا «أكفاء» لأنهم كانوا جميعاً متساوين في المولد ، والقيمة ، أو على الأقل كان من الواجب أن يكونوا كذلك ، لقد كانوا يؤلفون نوعاً من الطريقة أو الديانة ، كما نشاهد طريقة شنت يعقوب أو طريقة قلعة رباح ، التي يفترض أن رجالها شجعان ومن أصل عريق ، وكما يقال اليوم فارس القديس يوحنا أو القنطرة ، كذلك كان يقال فارس الأكفاء الاثني عشر ، لأن طريقتهم كانت مؤلفة من اثني عشر عضواً بعضهم كفء لبعض .

أما السيد القمبيطور ، وبرندو دل كريبو فلا يشك أحد في وجودهما أما أنهما قاما بكل أعمال البطولة التي تنسب اليهما فهذا أمر مشكوك فيه كل الشك . أما عن كعب الكونت بطرس الذي تفضلتم بالكلام عنه ، ويقال إنه عند سرج راييكا ، في قائمة أسلحة

(١) هذه مباريات ومنازلات رويت في قصص عديدة . وأشهرها مباريات ومنازلات سويرو دي كنيوس ، عند معبر أوربيجو ، على ثلاث فراسخ من اشتورجه . فطوال ثلاثين يوماً قام بمبارزات ضد ثمانية وخمسين فارساً .
فالمعبر هو أوربيجو .

وقد نشر الأخ خيران دي بنييدا في شلمنقة سنة ١٥٨٨ أخبار هذه المباريات التي يضمها كتاب اسمه «المر الأمين»
(٢) قصة في «أخبار الملك دون خوان الثاني» . الفصل ١٠٣ .

الملوك ، فإني أعترف بجهلي أو بضعف بصري ، لقد رأيت السرج ، ولكنني لم أر الكعب وإن كنت تقول عنه إنه كبير .

فقال دون كيخوته : لاشك أنه موجود هناك ، وقد وضعوه في علبة من الجلد لحفظه .
فقال الكاهن : يجوز ، لكن أقسم لك بشرف مهنتي أنني لم أره ، وحتى لو سلمت بأنه في ذلك المكان ، فليس هذا سبباً يدعو إلى أن أصدق تصديقاً أعمى قصة كل هؤلاء الأماديسييين ، والفرسان الذين يحدثوننا عنهم ، ولا إلى أن يعد رجل شريف ذو مواهب عديدة مثلك أن هذه الأكداش الهائلة من الحمامات التي نراها في كتب الفروسية المهولة - هي حقائق .

الفصل الخمسون

مناقشات ممتعة بين دون كيخوته والكاهن وأحداث أخرى

فاستأنف دون كيخوته كلامه قائلاً : هذه الكتب المطبوعة بإذن من الملوك وموافقة الناس المكلفين بفحصها ، هذه الكتب التي تقبلها بقبول حسن الكبار والصغار ، الفقراء والأغنياء ، المتعلمون والجهال ، الدهماء والنبلاء ، وبالجملية كل أنواع القراء ، من أية منزلة وبأي حال كانوا ، تقول عنها إنها ليست إلا مجموعات من الأكاذيب ، وإن كانت لها كل مظاهر الحقيقة ، إذ يذكر فيها اسم الأم والأب والبلد والأهل والسن ومغامرات كل فارس والأماكن التي شهدت أعمالهم العظيمة ، نقطة بنقطة ، ويوماً بيوم ؟ أخرس ياسيدي ولا تقل كل هذه التجديفات وصدقني أنني لا أنضحك إلا بما يجب على كل إنسان عاقل لبيب حكيم : «إلا فاقراً هذه الكتب ، ترأيت متعة تزودك بها . خبرني ، هل ثم رضا أعظم من أن نشاهد هنا ، أمامنا ، بحيرة واسعة من القار الذي يغلي ، فيه تسبح حشود من الأفاعي ، والحيتات والعظايا وسائر الحيوانات الوحشية المروعة ؟ وفجأة ، من وسط البحيرة ، يخرج صوت نائح يقول : «أيها الفارس ، أياً من كنت ، يامن تتأمل هذه البحيرة الرهيبة ، إذا شئت أن تنعم بالكنوز المختبئة تحت مياهها السود فاكشف عن عظمة شجاعتك النبيلة ، واقذف بنفسك في أمواجها الملتهبة ، وإلا فلن تكون جديراً بالاستمتاع بالعجائب المحفوظة في القصور السبعة للجنّيات السبع تحت هذه البحيرة . ولا يكاد الفارس يفرغ من سماع هذا الصوت النائح حتى يلقي بنفسه في وسط هذه البحيرة التي من نار متوكللاً على الله وعلى سيّدته المعشوقة ، دون أن يستشير أحداً ، أو يهرب خطراً ، بل حتى دون أن يتمهل حتى يلقي بسلاحه الثقيل ، وبعد ذلك ، دون أن يعرف كيف ، يجد نفسه في مرج مزهر ، ليست الجنان العليا شيئاً بالنسبة إليه ، فيه كوكب النهار يسطع بنور أزهى ، وزرقة السماء أصفى ، وأشرف : هناك تتبدى أمام ناظره غابة ممتعة أشجارها الملتفة وأوراقها السميكة تمتع النظر وتنشر النضرة والانتعاش في كل النواحي ، وعلى أغصانها

المتعانقة تتطاير أسراب الطيور اللطيفة المتعددة الألوان الزاهية الغنية ، التي تسحر بشدها الطبيعي وهديلها العذب الأسماح ، والأذان . هاهنا يجد كوثراً صغيراً ، مياها الصافية ، الشبيهة بالبلور السائل ، تجري على رمل دقيق وحصى أبيض يشبه الذهب الخالص والآلى الصافية . وهناك يشاهد نافورة لطيفة مصنوعة من اليشب ذي الألوان المتعددة والمرمر المصقول ، ثم يبصر أخرى بناؤها ريفي الطراز ، فيها الأصداف الدقيقة والحلازن البيض والصفر الملتوية ، مختلطة في عدم انتظام ، واحكام بقطع من البلور اللامع والزمرد المصنوع ، كل هذا يؤلف عملاً فنياً متنوعاً ، فيه الفن ، وهو يحاكي الطبيعة ، ينتصر عليها هذه المرة . وبعد هذا يتجلى فجأة لناظريه قصر حصين أو قصر لامع ، جدرانه من الذهب المتكثل ، وسقوفه من الماس ، وأبوابه من الياقوت الزعفراني ، ومعماره رائع حتى أن العقيق والآلى والماسات والكهرمان والذهب والزمرد التي يتألف منها أقل نفاسة من مهارة الفن . فإذا مارأى المرء هذا كله ، فماذا يمكن أن يريد غير أن يرى خروج عدد كبير من الأوانس من القصر ، ثيابهن فاخرة ، جذابة ، بحيث لن أفرغ أبداً إذا حاولت وصفها كما يفعل مؤرخونا القصاص ؟ أما تلك التي تبدو سيدة الباقيات فتأخذ بيد الفارس الجسور الذي ألقى بنفسه في البحيرة التي تغلي ، ودون أن تقول له كلمة تدخله في هذا القصر الفاخر ، ويجرد من ثيابه ، ويصبح عارياً كما ولدته أمه ، ثم يدخل في حمام لذيد ، فيعطر جسمه بالعطور النفيسة ، ويلبس قميصاً من أفر النسيج تنبث منه أذكي الأرابيج . وتأتي أنسة أخرى فتغطي كتفيه بمعطف ثمين يساوي وحده ثمن مدينة بأكملها ، وأخيراً يقتاد الى بهو آخر ، رصت فيه الموائد بنظام وفخامة يدهش لهما ، ويصب على يديه العنبر أو ماء الزهر المقطر ، ويجلس على عرش من العاج ، ويخدمه أوانس في صمت رائع ، وتقدم اليه أطايب الطعام العديدة الأنواع المتقنة الطهي حتى لا يدري ماذا يبدأ بتناوله ، وبينما يأكل ، تصدح موسيقى سماوية تسحر حواسه ، دون أن يرى المغنين والموسقيين ولا أن يكتشف من أين تأتي هذه الأنغام العذبة . حتى إذا فرغ من طعامه ، ورفعت الموائد ، استراح الفارس مستنداً الى ظهر كرسيه ، ومنظفاً أسنانه كما هي العادة ، وإذا به يرى أنسة أخرى تدخل ، أجمل جداً من الأخريات ، وتأتي وتجلس الى جواره وتحكي له حكاية هذا القصر ، وكيف أنها مسحورة فيه ، وأموراً أخرى كثيرة تدهش القارئ وتخلب لبه إعجاباً . ولن أطيل في هذا الموضوع ، لأنه من الممكن أن يستخلص ، مما قلت ، أنه لا يوجد فقرة في تاريخ فارس جوال لا تجد في نفس القارئ دهشة ولذة وإمتاعاً . صدقني ، يا سيدي ، واقرأ هذه الكتب ، كما نصحتك من قبل ، وسترى أنها ستسحر أحزانك إن كنت ذا أحزان ، وتشفي مزاجك السقيم إن كان سقيماً . أما عن نفسي فأستطيع أن أقول أنه منذ أصبحت فارساً جوالاً صرت شجاعاً ،

لطيفاً ، سخيّاً ، مهذباً ، أنيس البشر ، كريماً ، مؤدّباً ، جسوراً ، رقيقاً ، صابراً على الآلام ، والسجون وألوان السحر ، وعلى الرغم من أنه لم يمض وقت طويل على وجودي في قفص كالمجنون ، فإنّي أرجو - إذا واتتني السماء ، ولم يعاكسني الحظ - أن أصير عمّا قليل ، بقوة ساعدي ، ملكاً على إحدى الممالك ، أمارس فيها سخائي وإحساني الغريزيّين في نفسي ، لأنّ الفقير ، ياستيدي عاجز عن إظهار سخائه ، مهما يكن عظم سخائه ، والاحسان الذي لا يكون إلا بالقلوب والنيات شيء ، ميّت ، مثل الإيمان بلا أعمال . ولهذا أود لو يهتني الحظ سريعاً الفرصة كي أصبح امبراطوراً ، لأظهر إرادتي الخيرة وأحسن الى أصدقائي ، وخصوصاً الى سنشو پنثا المسكين ، سانسبي ، وهو خير من في الدنيا ، وأود لو أستطيع أن أعطيه كوتيتية ، وعدته بها منذ أمد طويل ، وإن كنت أخشى ألا يكون من المهارة بحيث يحكم دولة .

سمع سنشو هذه الكلمات الأخيرة فقال لمولاه ، « اشتغل فقط ياستيدي دون كيخوته ، لإعطائي هذه الكوتيتية التي طالما وعدتني بها ، وطالما انتظرتها منك ، وإنّي لأتعهد لك بأنّي لن تعوزني المهارة في حكمها . وإذا أعوزتني فقد سمعت أن ثم أشخاصاً يستأجرون دول سادتهم مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً ويتولّون هم حكمها وإدارتها ، والسيد يكتفي بالريع ، دون أن يشغل نفسه بأي شيء آخر ، وسأفعل ، فبدون مساومة سأتخلّص من كل الشؤون ، وأتمتع بريعي كدول ، وليفعل الآخرون ما يشاؤون .

فقال الكاهن : يا أخي سنشو ، هذا حسن فيما يتعلّق بالريع ، لكن شؤون القضاء والعدالة من اختصاص سيد العدالة وربّها ، وهي أمور تتطلّب سلامة الحكم ، وخصوصاً النية في حسن العمل . فإن أعوزت في البداية فلا بد أن يضل المرء في الوسط أو في النهاية ، لأن الله يحب مساعدة نية الرجل البسيط الحسنة ، ويخزي نية الرجل المستنير .

فقال سنشو : أنا لأفهم شيئاً في كل هذه الفلسفات ، كل ما أعرفه أنني أريد أن تكون لي هذه الكوتيتية وأنا أعرف كيف أحكمها ، فعندي نفس مثل غيري ، وجسم مثل غيري ، وسأكون ملكاً جيّداً على دولتي كما أنّ غيري ملك جيّد على دولته ، فإذا صرت ملكاً فعلت ما يحلو لي ، وإذا فعلت ما يحلو لي ، فسأرضي ذوقي ، وإذا أرضيت ذوقي ، سأكون راضياً ، وإذا كنت راضياً ، فلن يكون ثم شيء أرغب فيه ، وإذا لم يكن ثم شيء أرغب فيه ، صار كل شيء على مايرام : فلتأت الدولة ، ومع السلامة ، الى اللقاء ، كما قال أعمى لآخر .

فقال الكاهن : هذه الفلسفات ليست سيّئة كما تقول ياسنشو ، لكن مع كل هذا فثم أمور أخرى كثيرة تقال فيما يتعلّق بموضوع الكوتيتيات .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : لا أعلم ماذا يمكن أن يقال في هذا الموضوع ، إنني أقتدي

بالأمثلة العديدة المتنوعة التي أستطيع أن أذكرها أمثلة فرسان مهنتي الذين أعطوا مكافآت محترمة لسؤاسهم جزاءً وفاقاً لإخلاصهم وخدماتهم الحسنة ، فجعلوهم ولاية مطلقين على جزر أو مدن بل أن بعضهم قد وصل الى مرتبة عالية حتى راودته نفسه أن ينصب نفسه ملكاً . لكن دون أن نضيق وقتاً أطول هنا في هذا الموضوع ، أليس لدينا مثال بارز في شخص الفارس العظيم الذي لن يوقى أبداً حقه من الشناء وهو أماديس الغالي الذي عيّن سائسه كوتناً على الجزيرة الثابتة ؟ لهذا أستطيع ودون أي تأنيب من ضميري ، أن أعين سنشو پنثا كوتناً ، وهو من خير السؤاس الذين عرفهم الفرسان الجواله .

ولقد كان الكاهن في عجب شديد من سماع دون كيخوته يتفوه بهذه الحماقات المعقولة ، إن جاز أن يتفق الحق مع العقل ، وأعجب بالسهولة التي روى بها مغامرة فارس البحيرة ، وتعجب من الإنطباع العميق الذي تركته في نفسه الكتب الكاذبة التي قرأها . ولم يكن أقل دهشة من سذاجة سنشو الذي اشتاق كل هذا الشوق للحصول على الكونتية التي وعده بها مولاه .

وفي تلك الأثناء عاد خدم الكاهن مع البغل الذي يحمل الزاد . فمدوا سمطاً على العشب النضير ، تحت ظل بعض الشجر ، وأخذت الجماعة كلها في تناول الطعام في هذا المكان حتى لا يحرّموا الشيران من المرعى النفيس .

وأثناء ما كانوا يأكلون سمعوا ضجة كبيرة وصوت شخشيخة ينبعثان من أيكة مجاورة . وفي اللحظة نفسها ظهرت معزة جميلة رقطاء منقطه بالأبيض والأسود والأشقر ، ومن خلفها أقبل معاز كان يحاول النداء عليها لتعود الى القطيع . فجاءت المعزة الفزعة مباشرة الى الجماعة وهي تأكل ، وكأنها تطلب منهم النجدة ، ووقفت بالقرب منهم . واقترب المعاز وأمسك بها من قرونها ، وقال لها وكأنها تفهمه : « آه ، أيتها الجبلية الرقطاء ، تجرين وأنت تجلجلين ! أي ذئاب أفزعتك إذن يا ابنتي ؟ ألا تقولين لي مافي الأمر ؟ لكن ماذا يمكن أن يكون اللهم إلا أنك أنشى ولا تستطيعين أن تهدئي أبداً ؟ يا الشيطان مزاجك ، ومزاج كل اللواتي تشابهنك ! عودي ، عودي ، يا صديقتي العزيزة . وإن لم تكوني راضية تماماً ، فإنك على الأقل ستكونين في أمان في الحظيرة ، أو بين صواحبك وزميلاتك . أما إذا مشيت هكذا ، ضالة شاردة بغير دليل ، أنت يا من ينبغي عليك أن تحرسيهن وتقودنهن ، فماذا سيصبحن بدونك ؟ » - هذا الكلام العجيب سرّ الجماعة كثيراً ، وخصوصاً الكاهن ، فقال للمعاز :

- بحياتك يا أخي ألا استرحت قليلاً ، ولاتتعتجل عودة هذه المعزة الى القطيع . فما دامت انشى كما تقول أنت ، فلا بد لها أن تتبع غريزتها الطبيعية ، مهما حاولت منعها . خذ هذه اللقمة ، واشرب هذا الكأس ، يذهب عنك غضبك ، ولتسترح المعزة .

وفي الوقت نفسه قدّم إليه بطرف السكينة قطعة من أرنب بارد ، أخذه المغاز وشكره وشرب وأجاب : « لا أريد ياسيدي أن تظنني إنساناً ساذجاً ، وقد رأيتني أتكلّم هكذا مع العنزة ، لأنّ ثمّ سرّاً في الكلمات التي نطقت بها : إنّي ريفي ، لكن لا إلى حد أن أجهل كيف ينبغي الكلام مع الناس ومع الحيوان » .

فقال القسيس : أنا متأكد من هذا ، وأعرف بالتجربة أن الجبال تخيبي أناساً مثقفين ، وأن أكوخ الرعاة تضم فلاسفة .

فقال المغاز : على الأقل يا سيّدي يوجد فيها رجال مجرّبون ، ولإقناعك بهذا وجعلك تلمس هذه الحقيقة بإصبعك كنت سألتمس منك أن تعيرني انتباهك لحظة ، لولا إنّي أخشى أن أثقل عليك وأن أدعو نفسي من غير دعوة ، فإن سمحت رويت لك حكاية حقيقية ، تؤيد ما قلته لك وما قاله لك هذا السيّد (وأشار إلى القسيس) .

فقال دون كيخوته : حيث أنّي أرى ، يا أخي ، أن حكايتك لها علاقة ما بمغامرات الفروسية ، فسأصفي اليها ، من ناحيتي ، بلذة بالغة ، وكل هؤلاء السادة سيصنعون صنيعي ، لأنهم قوم عقلاء يحبّون استطلاع الأخبار الجديدة التي تدهش ، وتمتّع وتفيد ، ولا أشك في أنّ حكايتك من هذا القبيل . فابدأ اذن يا صاحبي ، فنحن نصغي اليك .

فقال سنشو : أمّا عن نفسي فأني متنازل عن نصيبي ، وسأغدو إلى ذلك الجدول ، ومعني هذه الكعكة التي ستطعمني لثلاثة أيّام ، لأنّي سمعت مولاي دون كيخوته يقول أنّ سائس الفارس الجوال يجب عليه أن يأكل إذا تيسّرت له الفرصة ، حتّى التخمّة وحتّى لا يستطيع المزيد ، إذ كثيراً ما يقع له أن يدخل في غابة كثيفة ملتوية لا يستطيع أن يخرج منها قبل ستة أيّام ، فإذا لم يشبع هذا الرجل كل الشبع حتّى الامتلاء التام ، أو إذا لم يحمل خرجاً ، مليئاً ، فيجوز أن يبقى إلى الأبد في هذا المكان بعد أن يتحوّل إلى مومياء .

فقال دون كيخوته : هذا من حصافة الرأي ، اذهب اذن ياسنشو إلى أين تريد ، وكل قدر ماتستطيع . أمّا عن نفسي فإنّ معدتي راضية ، وسأهتم الآن بغذاء روحي ، وذلك بالإستماع إلى حكاية هذا الرجل الشهم .

وقال الكاهن : « وهكذا سنفعل جميعاً » . وفي الوقت نفسه التمس من المغاز أن يبدأ . وهذا ضرب ضربتين براحة يده على ظهر المعزة التي كان يمسك بها من قرنيها ، وهو يقول لها : « نامي بالقرب مني ، يارقطاء . وعندنا وقت طويل قبل العودة إلى القطيع » . وبدا كما لو كانت المعزة تفهم قصده : فحينما رآته يجلس رقدت بهدوء إلى جواره ، وتطلّعت فيه ، وكأنها متنبّهة إلى ماسيقول ، وحينئذ أنشأ يقول :

الفصل الحادي والخمسون

الحكاية التي رواها المعاز لأولئك الذين اقتادوا دون كيخوته

على مسافة ثلاثة فراسخ من هذا الوادي قرية إن تكن صغيرة فإنها من أغنى القرى في الإقليم . وكان يعيش فيها حرّاث يقدر لفضائله أكثر مما يقدر لثرائه ، وإن كانت الثروة تعطي الكثير من التقدير . لكنّ الكنز الذي كان يغالي فيه كان بنتاً مفرطة الجمال ، نادرة العقل ، فيها من الصفات ما يتعذر معه الإعجاب الكافي بالمواهب التي منحها الطبيعة والسماء ، كانت جميلة في طفولتها ، وزادت مفااتها مع سنّها ، وفي سن السادسة عشرة لم يكن لها نظير . وانتشر صيت جمالها في كل القرى المجاورة ، ماذا أقول ؟ بل وفي القرى البعيدة حتّى بلغ قصر الملوك ، وهرع الناس من كل حدب وصوب لمطالعة جمالها ، وكأثها معجزة ، أو شيء نادر فريد . وكان أبوها يرعاها بعناية ، ولكنها كانت ترعى نفسها أكثر وأكثر لأنه لا أقفال ولا ضباب ولا مزاليح يمكن أن تحفظ الفتاة أحسن من عقلها . ودفع ثراء أبيها وجمال الفتاة كثيراً من الغرباء ، أو من أهل القرية نفسها ، لطلب يدها ، لكن الوالد ، واليه وحده الفصل في أمر هذه الجوهرة النفيسة ، كان في حيرة شديدة ، لا يدري من يختار من بين كل أولئك الذين ألحوا عليه . وكنت أنا واحداً من هؤلاء وممن كان لهم أعظم الأمل ، لأن أباهما كان يعرفني جيّداً ، كنت في القرية نفسها ، وابن أبوين فاضلين ، وفي زهرة العمر ، غني فيما أملك حين أرث ، لا يعوزني الحكم السليم .

وفي الوقت نفسه سعى إليها يطلب يدها شاب آخر من قريتنا ، له المزايا نفسها مثلي ، ممّا جعل الوالد في غاية التردد ، لأنه بدا له أن ابنته ستكون منعمة مع الواحد مثلها مع الآخر . ولكي يخرج من حيرته قرّر أن يكل الأمر الى لياندر (وهذا هو اسم الفتاة الغنية التي جعلتني هكذا شقيّاً) ، بعد أن رأى أننا ونحن متساويان في الفضل ، فينبغي له أن يترك لها الخيار بين كلينا ، وهو تصرف خليق بأن يكون قدوة لكل الآباء الذين يريدون تزويج

أبنائهم وبناتهم . ولا أقصد أن يتركوا لهم ولهن الخيار بين خطاب سيتين بل يقترح عليهم وعليهن خطاب فضلاء ، ثم يترك لهم ولهن حينئذ التقرير . ولست أدري ماذا كان جواب لياندر ، لكن والدها راح يحدثنا عن صغر سن البنت ، ويأخذ بنا في أحاديث غامضة ، دون أن يلتزم بشيء ، أو يرفضنا . وكان اسم منافسي أنسلمو ، واسمي أنا هو يوخنيو ؛ وهكذا تعرفون اسمي ممثلي هذه الطراغوديا (المأساة) التي لاتزال خاتمتها مجهولة ، لكن يظهر أنها لن تكون خاتمة سعيدة . وفي تلك الأثناء وصل الى قريتنا فتى يدعى بيشتته دي لاروكا ، وهو ابن حراث فقير في الاقليم . وقد جاء من ايطاليا وبلاد أخرى كان فيها جندياً . وفي سن الثانية عشرة أتى به قائد مر بالقرية مع فرقة ، وبعد ذلك بإثنتي عشرة سنة عاد بزي جندي زاهي الألوان ، مغطى بترهات من البلور وسلاسل صغيرة من الصلب . وكان يتخذ اليوم زينة ، وغداً زينة أخرى أنيقة متنوعة الألوان لها من اللمعان أكثر مما لها من القيمة . والفلاحون وهم ماكرون خبثاء ، خصوصاً حين يكون لديهم فراغ ، فحصبوا وحسبوا كل هذه الأزياء ووجدوا أن لديه ثلاث حلل متعددة الألوان ، مع رباطات ساق وجوارب ، لكنه كان يموه بها بطريقة مختلفة ، حتى ليخيل الى المرء أن عنده عشرين ، وأكثر من عشرين كسوة . ولا تعجبوا وأنتم ترونني أهتم بعدد ملابسه ، لأنها تلعب دوراً كبيراً في هذه القصة . وكان من عادته أن يجلس على صخرة ، بالقرب من شجرة دردار تقوم في ميداننا ، وهناك كان يجعل أفواهنا فاغرة ونحن نسمع منه أخبار المغامرات التي خاضها . لم يكن في الدنيا بلد لم يزره ، ولا معركة إلا شهداها ، وقتل هو وحده من المغاربة أكثر من عدد سكان مراكش وتونس ، وقام بمبارزات فردية أكثر مما قام به جانتني أي لونا ، ودييجو غرسيه دي باريدس ، وآلاف آخرين ذكرهم ؛ وخرج من كل هذه المعارك منتصراً ، دون أن تكلفه قطرة واحدة من دمه ، وأرانا ندوب جروح لم نستطع أن نراها ، لكنه قال أنها طلاقات أصيب بها في مختلف الملاحم . وبالجملته فإنه كان يفاخر على أنداده أولئك الذين كانوا يعرفونه خبير معرفة ، ويقول أن ساعده هو أبوه ، وأن أعماله هي نبالته ، وأنه بزي الجندي هذا لا يدين لأحد بشيء ، ولا للملك نفسه^(١) . والى جانب كل هذه المفارقات ، كان يعرف القليل من الموسيقى ويدندن على القيثارة ، وليتم الدائرة ادعى أنه شاعراً أيضاً ؛ حتى أن أقل حادث يقع في القرية كان يلهمه موضوع قصيدة لا تنتهي . هذا الجندي الجميل ، بيشتته دي لاروكا هذا ، هذا الشجاع ، هذا الغرئ ، هذا الموسيقار هذا الشاعر رآته لياندر عدة مرّات ، من

(١) يبدو أن ثريانتس يسخر . من شخص هذا القيثار ، بالمعبرة الشائعة في عصره . ونصّها : النبيل لا يعدو عليه إلا الله ، ولا يقل قدراً عن الملك .

نافذة بيتها المطلّة على الميدان . فبهرتها زيناته ، واستمعت الى روماناته ، التي كان يوزّع منها عشرين نسخة ، وبلغت مسامعها الروايات التي كان يرويها عن أعماله البطولية ، وبالجملّة ، تدخّل الشيطان في الأمر : فعشقتة قبل أن يجزّو على مغازلتها ، فسرعان ماتمّ التفاهم بين بيثنته ولياندرا ، وقبل أن يشتبه أحد الخطّاب في خطّتهما ، نفّذاها ، فهجرت لياندرا بيت أبيها الذي كان يعزّها (لأنها فقدت أمّها) وهربت مع الجندي ، الذي خرج من هذه المسألة أكبر انتصاراً منه في كل الأمور التي كان يتباهى بها ويتفاخر ، وعرفت القرية كلّها هذه المخاطرة فدهشت لها كل الدهشة . أمّا أنا فقد ارتجّ عقلي ، وأنسلمو كان ملبساً ، وأبوها حزينا ، وأهلها مجلّلين بالعار . ولم تنم العدالة ، بل انطلق الرماة في أثرهما ، يذرعون الدروب ، ويفتشون الغابات ، ويبحثون في كل مكان ، وأخيرا ، وبعد ثلاثة أيّام ، عثر على لياندرا ، في جوف صخرة عمارية بقميصها ، بدون المال ، ولا الجواهر ، التي أخذتها معها من المنزل . فأعيدت الى والدها البائس ، واستجوبت ، فاعترفت بغير إكراه أن بيثنته دلاروكا غرّر بها ، وتحت تأثير وعد الزواج منها أقنعها بهجر بيت أبيها ، ووعدها بأن يسافر معها الى أمتع وأغنى مدينة في العالم وهي نابلي ، وبسذاجتها صدقت كلامه ، وسرقت أباه وتبعته بيثنته في الليلة نفسها التي هربت فيها ، فاقتاها هذا الى جبل عالٍ وحبسها في كهف هو الذي عثروا عليها فيه ، دون أن يفعل بها أكثر من أن يسرق كل ما عليها . وكان هذا موضوع دهشة جديدة في نفوس أولئك الذين كانوا يسمعون أقوالها فقد كان من العسير تصديق عفة الشباب ، لكنّ لياندرا أكّدت هذا بطريقة إيجابية طبيعية ، حتّى أنها واست أباه الحزين الذي لم يهتم كثيراً بالأموال التي سلبت ، مادامت ابنته قد ترك لها الكنز الذي لو فقد مرة لا يمكن العثور عليه أبداً . وفي اليوم نفسه الذي عادت فيه لياندرا ، أخذها والدها من القرية واقتادها الى دير في مدينة مجاورة ، في انتظار أن يمحو الزمان الأثر السيئ الذي أحدثه هروبها في نفوس الناس . وكان في شباب لياندرا مايلتمس له وجه العذر ، على الأقل في نظر أولئك الذين لم يكن الأمر يهمهم ، أمّا أولئك الذين كانوا يعرفون روحها وعقلها فإنهم لم يستطيعوا أن يعزّوا غلطتها الى الجهل ، بل الى خفة مزاجها ، ورعونتها ، والميل الطبيعي عند النساء الذي يحملهن على أن يكنّ طائشات غير راجحات العقول . فلمّا حبست لياندرا في الدير على هذا النحو ، فقد أنسلمو كل ابتهاجه ، ولم يعد يجد شيئا جديراً باهتمامه ، وكان الأمر كذلك أيضاً فيما يتّصل بي . وزاد حزننا بازدياد لهفتنا وجزعنا ، ولعنا تنفجات الجندي ، وقلة رعاية الوالد لابنته ، وأخيراً قرّرنا نحن الاثنين أن نهجر قريتنا وأن نستقر في هذا الوادي الذي يرعى هو فيه الغنم ، وأنا الماعز ، ونقضي

حياتنا وسط الأشجار ، مطلقين العنان لوجداننا ، ومنشدين معاً مدائح أو نقائص لياندرنا ،
متنهدين على حدة أو مازحين شكوانا .

واقترءنا بنا أقبل الكثيرون من خطاب لياندرنا الى هذه الجبال ، يمارسون نفسها
المهنة . وازداد عددهم الى حد أنه يخيّل الى المرء أن هذه البقعة صارت أركاديا^(١) جديدة ،
لكثرة مايرعى فيها من رعاة وقطعان ، وليس فيها موضع لايسمع فيه اسم لياندرنا الجميلة
يتردد ، فأحدهم يلحنها ، وينعتها بأنها هوائية المزاج ، طائشة غير متزنة ، والآخر يصفها
بأنها سهلة خفيفة العقل ، وثالث يغفر لها ويبرئ ساحتها ، ورابع يعيبها ويطريها في وقت
واحد ، وخامس يتغنى بجمالها ، وسادس يأسى لغيابها ، وهم جميعاً يعبدونها ويزدرونها ،
وقد بلغ الجنون ببعضهم حداً جعله يشكو من تعاليها مع أنه لم يحدثها أبداً ، والبعض الآخر
يحترقون بلهب غير مضحكة لأنه لم يعرف خطتها إلا بعد غلطتها . ولا يوجد هاهنا صخرة
ولا جدول ، ولا شجرة لايشاهد بالقرب منها راع يبت الريح استشهاده في الغرام . وفي كل
ناحية يردد الصدى اسم لياندرنا ، فيرن على الجبال ، وتتمتم به الجداول ، إنه يسحرنا ،
وبعث النشوة فينا ، فنأمل بغير رجاء ، ونخشى دون أن ندري مم . وبين كل هؤلاء
المجانين أكثرهم وأقلهم عقلاً معاً هو منافسي أنسلمو ، إن أسباب شكواه عديدة ، ولكنه
لا يأسى الا على غياب لياندرنا ، في شعر يكشف عن جمال روحه ، يتغنى به بمصاحبة كمان
يعزف عليه عزفاً بديعاً . أما أنا فأسلك مسلكاً أكثر طبيعة وأسهل . إذ يبدو لي أن الأعدل
هو استنكار طيش النساء ، وعدم ثباتهن على الود ، ونفاقهن ، وعودهن الخادعة ، وكذب
إيمانهن وطيش أفكارهن . وهذا ، ياسادتي ، هو باعث العبارات الذي سمعتموني أقولها
للمعزة ، حينما أمسكت بها كائى ، أنا لأحفل بها كثيراً ، وإن تكن أفضل ما في قطيعي .
وبهذا تنتهي الحكاية التي وعدتكم بروايتها . فإن بدت لكم مسهبة بعض الإسهاب ، فإني لن
أدخر وسعاً في تقديم خدماتي اليكم ، إن كوخى بالقرب من هنا . وعندى لبن طازج ،
وجبنة لذيذة ، وفاكهة من فواكة الموسم لذيدة الطعم بقدر ماهي بديعة المنظر .

(١) إشارة الى قصيدة سنازار الشهيرة .

وأركاديا هي الهضبة الوسطى في مقاطعة البلوبونيز في بلاد اليونان ، وكان يسكنها الرعاة والصيادون ، وتغنى بها الشعراء
بوصفها بقعة شعرية مثالية .

الفصل الثاني والخمسون

في النزاع الذي وقع بين دون كيخوته والمعاذ والمغامرة
المذهلة للتوابين، التي ختمها خاتمة مجيدة بعرق جبينه

لذت حكاية المعاز لكل الحاضرين وخصوصاً للكاهن ، وقد وجد أن الراوي لم يروها
كمعاز ريفي ، بل كرجل بلاط ، رقيق لطيف ، وأن القستيس كان على حق حينما قال أنه يوجد
في الجبال قوم مثقفون ، مصقولون ، مؤدّبون . وعرض الجميع على يوخنيو آلاف الخدمات ،
لكن أكثرهم تلهفاً كان دون كيخوته الذي قال له : « الحق ، يا أخي ، أنه لو كان مسموحاً لي
القيام بمغامرات ، لشرعت فوراً في إيجاد مغامرة جيدة لك ، فأمضي الى الدير لإختطاف
لياندرا ، فإنها من غير شك محبوسة فيه من غير إرادتها ، ولن أحفل برئيسة الدير ولا بكل
أولئك الذين قد يتعرّضون لطريقي ، وأعود لأضعها بين يديك لتفعل بها ماتشاء ، مع مراعاة
قوانين الفروسية التي تمنع من الإساءة الى أية أنسة . لكنني أمل ، يعون الله ربنا ، ألا تكون
لسلطان ساحر خبيث قوة لا تفوقها قوة ساحر أحسن قصداً ، وحينئذ أعدك بالنجدة والحماية ،
كما تلزميني بذلك مهنتي ، التي ليست شيئاً آخر غير إغاثة الملهوفين والمضطهدين » .

فأخذ المعاز يتطلع في دون كيخوته ، ولما وجده غريب الطلعة سيء الملبس ، سأل
الحلاق وكان بالقرب منه - من هذا الرجل المرتدي هذا الرداء والذي يتكلم هذا الكلام -
فأجاب الحلاق : « ومن يمكن أن يكون غير الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، مصلح
المظالم ، المنتقم للإهانات ، سند الأنسات ، ومرهب المردة ، والظافر في كل المعارك ؟ »
فأجاب المعاز : « هذا يشبه ماقرأته في كتب الفروسية ، حيث يفعل الفرسان الجوّالة كل
الأمور التي ذكرتها ، وأعتقد أنك إما تسخر مني ، أو هذا السيد في عقله حجرات خالية » .

فصاح دون كيخوته : « أنت وغد وقح ! بل أنت المختل المأفون الخاوي ، أما أنا
فأرسي أكثر امتلاء من رأس القحبة ، بنت القحبة ، التي وضعتك في الدنيا » . وأثناء ما كان
يقول هذه الكلمات أخذ رغيماً بالقرب منه وألقى بها في وجه المعاز بقوة صفعت أنفه . فلما

رأى المقات ، وهو لا يفهم في المزاح ، أنه قد أهين هذه الإهانة ، دون احترام للسماط والطعام وكل الجماعة ، وثب على دون كيخوته وأمسك رقبته بكلتا يديه وكان سيخنقه بدون رحمة ، لولا أن سنشو بنشا هرع وأمسك بالمقات من كتفيه وقلبه على السماط ، وكسر الزجاجات ، وحطم الصحون ، وأحرق كل مافيها . ودون كيخوته ، لمّا تخلّص ، انقض هو الآخر على المقات ، وكان وجهه يسيل دماً وسنشو يركله . وزحف المقات وبحث عن سكين على السماط لينتقم انتقاماً دامياً ، لكن منعه الكاهن والقسيس . وفي تلك الأثناء ساعد الحلاق المقات على وضع دون كيخوته تحته ، وأمسك هذا بدون كيخوته وأهوى عليه بالضربات حتّى كان الدم يسيل من وجه الفارس المسكين كما سال من وجه خصمه المقات . وكان الكاهن والقسيس يخنقان من الضحك^(١) ، ووثب الرماة فرحاً وسروراً ، وهيجوا البطلين الواحد ضد الآخر ، مثل الكلاب التي تهيج للعراك . وبلغ اليأس بسنشو مبلغه ، ولكن أحد خدم الكاهن احتجزه ومنعه من مساعدة مولا . وأخيراً ضحك الجميع ، فيما عدا المتعاركين ، حينما سمع فجأة صوت بوق حزين كئيب ، جذب انتباه الجميع . لكن أكثرهم تأثراً كان دون كيخوته ، الذي قال للمقات ، على الرغم من أنه كان محتجراً تحته وجسمه مطحون بالضربات : « أخي الشيطان ، إذ لا بدّ أنك الشيطان بعينه ، مادامت قوتك سيطرت على قوتي ، فلننعد ، أرجوك ، هدنة لمدة ساعة ، لأن الصوت الحزين المنبعث من هذا البوق يلوح أنه يعلن عن مغامرة تدعوني إليها » . فتخلّى عنه المقات وهو متعب من الضرب ، ضارباً ومضروباً . وفي الحال نهض دون كيخوته على قدميه ، وتلفت الى الناحية التي جاء منها الصوت ، فأبصر نازلاً من الرابية عدداً كبيراً من الناس اللابسين البياض ، على طريقة التوابين^(٢) .

وينبغي أن تعلم أن الغيوم في هذا العام أبت على الأرض أن تنفجها بأمطارها التي تأتي بالخير ، ولهذا سارت في كل أماكن الإقليم مواكب ، أقيمت صلوات استسقاء ، ومجاهدات روحية ، يطلبون الى الله أن يفتح على الشعب شآبيب رحمته فيرسل عليهم الأمطار . وكان سكّان القرية المجاورة قد خرجوا في موكب قاصدين خلوة مباركة تقع على إحدى الروابي المطلّة على الوادي .

(١) هذه الفقرة من المواضع التي أخذت على ثريانتس لمجاهداتها لروح الكرم والأخلاق . والنبل ، خصوصاً تصويره لدور الكاهن والقسيس والحلاق .

والواقع أن ثريانتس في واقعيته الساخرة لم يوقّر أحداً ووصف الضعف الانساني بما هو . وهذا مما يحمد له ، لا مما يؤخذ عليه .

(٢) منعت مواكب التوابين هذه في نهاية حكم كارلوس الثالث .

فلما لمح دون كيخوته ملابس الضاربين أنفسهم بالسياط ، وهي ملابس غريبة ، دون أن يتذكر كم شاهد مثلها مرات عديدة ، خيل اليه أن هذه مغامرة جديدة عليه وحده القيام بها ، بوصفه فارساً جوالاً ، ومما ثبت هذا الرأي في ذهنه أنه شاهد صورة مغطاة بنقاب أسود يحملها هؤلاء التوابون ، فخيّل اليه أنها سيّدة عظيمة اختطفها هؤلاء الأوغاد ، هؤلاء اللصوص الأراذل . وامتأ رأسه بهذه الفكرة وهرع الى روثينانته ، الى كان يأكل العشب ، ووضع فيه اللجام ، وطلب من سنشو أن يناوله سيفه ، ثم امتطى صهوة الفرس ، ووضع ترسه على ذراعه ، وقال للحاضرين بصوت عالٍ : « الآن ! أيتها الجماعة الباهرة الباسلة ، سترون عظم نفع الفرسان الجوّالة للإنسانية ، في هذه الساعة ، أقول لكم ، ستحكمون أنهم جديرون بالإحترام ، بناء على تحريري لهذه السيدة الطيبة التي تساق أسيرة » . ومقال هذه الكلمات حتّى ضغط على جانبي روثينانته ، إذ لم يكن في رجليه مهماز ، فكدف الفرس كدفّة كبيرة (إذ في كل هذه القصة الحقيقية لم يشاهد روثينانته أبداً يركض) ، وهكذا مضى للقاء التوابين ، ولم تفلح مجهودات الحلاق ، والكاهن والقسيس لوقفه ومنعه ، كما لم تفلح صيحات سنشو وهو يصرخ فيه : « الى أين أنت ذاهب يامولاي دون كيخوته ؟ أي شيطان يجعلك تزحف هكذا ضد إيماننا الكاثوليكي ؟ يا ويلتاه علي ! ألا ترى أن هذا موكب الثّوابين ، وأن هذه السيدة المحمولة على تحفة هي صورة العذراء الطاهرة الطوباوية مريم ؟ انظر ماأنت فاعل يامولاي : هذه المرة ليس الأمر كما تتخيّل » . ولكن عبثاً راح سنشو يصيح : فقد كان مولاة متلهّفاً جداً للهجوم على التوابين وتخليص السيّدة الحزينة ، بحيث لم يصغ الى أي كلام ، وحتّى لو سمع كلمة ، لما رجع ، ولا بأمر الملك ، واقترب دون كيخوته من الموكب ، ووقف روثينانته ، الذي لم يكن يودّ خيراً من التوقّف ، وبصوت مضطرب مبحوح ، صاح : « قفوا ياهؤلاء ، ولاشك أنكم لستم أهل خير ، مادتم تخفون وجوهكم ، اسمعوا لي » . وكان أول من وقف هم أولئك الذين كانوا يحملون الصورة ، وقال له أحد القسس الأربعة الذين كانوا ينشدون التراتيل ، وقد شاهد هزال روثينانته وغبابة وجهه دون كيخوته وكل ما فيه مما يثير الهزء والإضحاك : « يا أخي ، إن كان عندك شيء تريد أن تقوله لنا ، فقله بسرعة ، فإن هؤلاء الإخوان الذين تراهم يمزقون أكتافهم ، ونحن لا نستطيع أن نتوقّف بغير سبب كي لا نسمع شيئاً ، اللهم إلا إذا كان ما تريد أن تقوله موجزاً في كلمتين » .

فقال دون كيخوته : « لن أقول غير كلمة واحدة ، هي أن تطلقوا سراح هذه السيدة الجميلة ، التي تدل دموعها ووجهها الحزين على أنكم تسوقونها بالقوّة والإكراه ، وأنكم

أهنتموها . وأنا الذي خلقت للإنتقام من الإهانات ، لأسمح لكم بالتقدم خطوة واحدة قبل أن تطلقوا سراحها وتعطوها حرّيتها التي تطالب بها وتستحقّها .

هذا الكلام أفهم بسهولة من سمعوه أن دون كيخوته مجنون . فقهقها ، ولكن قهقهتهم كانت البارود الذي أشعل غضب الفارس (دون كيخوته) . وإذا به ، دون أن ينطق بكلمة ، يستل سيفه ويتقدم نحو المحقة . فترك أحد الذين كانوا يحملونها الحمل لاصحابه ، وتقدم الى دون كيخوته بمذراة أو عصا كان يستخدمها في رفع المحقة حين كان يستريح . فهجم دون كيخوته على هذه العصا بضربة من سيفه كسرها نصفين ، ولكن الحمال ، ببقية العصا الباقية في يده ، أهوى بضربة هائلة على كتف الفارس ، من ناحية السيف ، حتى أن دون كيخوته المسكين ، الذي لم يستطع درءها بالترس ، سقط على الأرض في حالة سينة جداً . وكان سنشو بنشا قد لحق به وهو يلهث فلما شاهده ملقى على الأرض صرخ بالحمال أن يكف عن الضرب ، قائلاً أنه فارس مسحور بانس ، لم يؤذ طوال حياته أحداً ، لكن ما جعل الشرير (الحمال) يتوقف لم يكن صرخات سنشو ، بل رؤيته لدون كيخوته ساكناً لا يحرك قدماً ولا ذراعاً . فظن أنه قتله ، وشمر بسرعة رداءه حول خصره ، وفرّ هارباً في الخلاء ، كالوعل . وفي تلك الأثناء وصلت كل جماعة دون كيخوته . أما رجال الموكب فإنهم لما رأوا الجماعة تعدوا هكذا يتبعها الرماة بأسلحتهم ، خشوا أن يكون ثمّ خطة شريرة ، فانتظموا جميعاً في دائرة حول الصورة ، رافعين قلانسهم ، ممسكين سياطهم ، والقسس يحملون شموعهم ، منتظرين الهجوم ومصمّمين على الدفاع عن أنفسهم ، بل والهجوم إن استطاعوا . لكنّ الحظ ربّ خير مما ظنّوا . فقد ألقى سنشو بنفسه على جسم مولاه ، باكياً شاكياً بأضحك نواح عرفته الدنيا ، لأنه اعتقد أن مولاه مات ، وتعرّف أهل الموكب القستيس ، فسكنّ هذا التعرّف خوف الفريقين . وأنبأ القستيس الأول القستيس الآخر بجنون دون كيخوته في كلمة موجزة : « هنالك تقدّم كل التوابين الضاريين أنفسهم بالسياط ليروا هل لا يزال دون كيخوته يتنفس ، فوجدوا سنشو يقول والدموع في عينيه »

— يا زهرة الفروسية ، يامن شاهدت ، بضربة واحدة من العصا ، نهاية عمرك الذي أحسنت استخدامه ، يا شرف جنسك ، وفخر المنتشا ومجده ، بل وفخر العالم بأسره ومجده ، وبغيرك سيصبح العالم مليئاً بالأشوار ، الواثقين من أنهم بمنجى من العقاب على سوء أفعالهم! أيها الكريم وكرمك فوق كرم كل اسكندر ، لأنك وعدتني ، نظير خدمة ثمانية أشهر فقط ، وعدتني بأحسن الجزر التي تحيط بها البحار! أنت أيها المتواضع مع المتكبرين ، المتعجرف مع المتواضعين ، المتصدّي للأخطار الصابر على الإهانات ، العاشق

من غير معشوقة ، محاكي الخيار ، ونقمة الأشرار ، وعدو الفاسدين ، أنت أيها الفارس الجوال ، يامن أنت كل مايمكن أن يقال...» .

وعلى صيحات وتنهدات سنشو أفاق دون كيخوته واستعاد حواسه ، وكانت أولى كلماته هي : « إن الذي يحيا بعيداً عنك ، أي دلثنيا الحلوة! يحتمل من الشرور أكثر من هذه . ساعدني يا صاحبي سنشو على الركوب على العربة المسحورة ، لأنني لأقدر على الإمساك بنفسني على روثينانته : فقد تحطّم كتفي » . فأجابه سنشو : « بكل ارتياح يامولاي! وصدقني ، لنعد الى قريتنا ، بصحبة هؤلاء السادة الذين لا يريدون لك إلا الخير . وهناك ندبر خرجة أخرى تهتئ لنا ربحاً أوفر ومجداً أكبر » . فقال دون كيخوته : « أنت على صواب فيما تقول يا ولدي ، فمن الفطنة العالية أن تترك تأثير الكوكب النحس الذي يتحكم الآن ، نتركه يمر » .

وصفق الكاهن والحلاق والقسيس لهذا القرار ، وبعد أن تسلّوا كثيراً بسذاجات سنشو ، وضعوا دون كيخوته على العربة كما كان من قبل . وسارت القافلة في طريقها وعلى ترتيبها ، وودّع المتأزم الجماعة ، ولم يرغب الرماة في الذهاب الى أبعد من هذا ، ودفع لهم القسيس أجرتهم ، ورجا الكاهن القسيس أن يوافيه بأبناء دون كيخوته ، سارة كانت أو رديئة ، واستأذنه في استئناف سيره ، وأخيراً افترق الجميع ، ولم يبق غير القسيس ، والحلاق ، ودون كيخوته ، وسنشو وروثينانته المسكين الطيب الذي أبدى في كل المصادمات من الصبر والتحمل ما أبداه صاحبه .

وعلق صاحب الثيران ثيرانه على العربة ، ووضع دون كيخوته على حزمة من الدريس ، وبالسير البطيء لدوابه الهادئة تابع الطريق الذي دلّه عليه القسيس . وأخيراً ، وبعد ستة أيام ، وصلوا الى القرية في ساعة الظهيرة وكان اليوم يوم الأحد . وكان الناس جميعاً مجتمعين في الميدان ، ومرت العربة خلاله . فهرع كل السكان لمشاهدة من تحمل العربة ، فلما تعرفوا ابن قريتهم ، بقوا حائرين مشدوهين . وجري صبي صغير لإبلاغ بنت اخته والخادمة أن سيدهما وصل ، شاحباً مهلهلاً ، على عربة تجرّها الثيران وهو راقد على حزمة من الدريس . وكم كان يثير الرحمة سماع صيحات هاتين الامراتين وكيف كانت تلطمان الحدود ، وتلعنان مرة أخرى كتب الفروسية ، واستأنفا الصياح واللطم لما شاهدا دون كيخوته يدخل بيته...

وعلى الضجة التي أحدثها وصول هذا الأخير ، هرعت زوجة سنشو ينثا ، لأنها كانت قد علمت أنه رحل ليكون سائساً لدون كيخوته . فلما رأت سنشو (أحسن من صاحبه) .

فقال الزوجة : « الحمد لله على هذه النعمة! لكن قل لي يا عزيزي ماذا كسبت من وظيفتك سائساً ؟ وأية هدية ستعطيني ؟ وأين الأحذية لأولادنا ؟ » .

فقال سنشو : لم آتك بشيء من كل هذا يا امرأة ، بل أتيت بأشياء أكبر أهمية .

فقال : هذا أحسن . ارني إذن هذه الأشياء الجميلة يا حبيبي لتفرح قلبي ، الذي كان حزينا طوال القرون التي غبت فيها عني .

— سأريك إياها في البيت ، يا امرأة ، أما الآن فاكثفي بأن تعرفي أنه بفضل الله في المرة الأولى التي سنخرج فيها من جديد للبحث عن مغامرات ، سترينني أعود كوثناً أو حاكماً على جزيرة ، لامن تلك الجزر الموجودة بالعشرات ، بل من أحسن الجزر الموجودة .

— الله يسمع منك ، يا زوجي ، لأننا في أشد الحاجة الى ذلك . لكن قل لي ، ما هي الجزيرة ؟ أنا لا أعرف هذا .

— إن العسل ليس من أجل فم الحمار ، حينما يأتي الأوان سترينها يا امرأة ، وستدهشين كل الدهشة حينما تسمعين أتباعك ينادونك يا صاحبة الجلالة

— عن أية جلالة تتحدث وأية جزر وأتباع ؟ هكذا قالت حنة^(١) بنشا (وهذا هو اسم زوجة بنشا ، لا لأنهما كانا قريبين ، بل لأن العرف في المنتشا جرى بأن تتخذ الزوجات أسماء أزواجهن) .

— لا تتعبي نفسك يا حنة ، في معرفة كل هذه الأمور الآن ، وليكنك أن تعلمي أنني أقول لك الحقيقة ، وأسكتي . إنما أقول لك ، بالمناسبة ، إن ألد شيء في الدنيا أن يكون المرء السائس المحترم لفارس جوال يسعى الى المغامرات ، صحيح أن معظمها لا ينجح كما يريد المرء ، وفي كل مائة ، تسعة وتسعون منها تخفق . وأنا أعرف ذلك بالتجربة ، لأنني خرجت من بعضها مدوئخاً مطوئحاً ، ومن البعض الآخر خرجت محطماً بالكلمات والضربات ، ومع هذا كله فمن الأمور السارة أن يأمل المرء في النجاح ، وأن يجتاز الغابات ، ويعد الصخور ، ويزور القصور ، ويقيم الفنادق كما يشاء ، ودون أن يدفع مرابطياً واحداً » .

جرى هذا الحوار بين سنشو وحنة ، بينما استقبلت ابنة الأخت والخدمة دون كيخوته ، وخلعتا ملابسهما ، وأرقدتا في سريره القديم . فتطلع فيهما بعيون زائغة... ولم يستطع أن يتذكر في أي مكان كان . وأوصى القسيس ببنت الاخت ببذل كل العناية لخالها ، وأن تحتاط لئلا يفلت منهما مرة أخرى ، وروى لهما كل ما اضطر الى فعله من أجل إعادته الى

(١) في كل المواضع الأخرى تقريباً يسمونها ثريانتس باسم « تريزة » .

بيته . ولدى سماع هذه الرواية استأنفت الإمرأتان صراخهما ولعناتهما على كتب الفروسية ، راجين السماء أن تلقي في أعماق الهاوية بمؤلفي كل هذه الأكاذيب والحقائق . وأخيراً كانتا ترتعدان باستمرار خوفاً من أن يرحل خالها وسيدهما مرة أخرى حين يرى نفسه قد استردّ صحته ، وهو أمر قد حدث كما توقعتا .

بيد أن مؤلف هذه القصة ، رغم كل ما بذله من جهد في سبيل البحث عن رواية مغامرات دون كيخوته في خرجته الثالثة ، لم يستطع العثور على أي أثر لها ، على الأقل في وثائق صحيحة . وكل ما يعرف وفقاً للنقول المحفوظة في المنتشا ، هو أن دون كيخوته في خرجته الثالثة ذهب إلى سرقسطة حيث شهد المباريات الشهيرة التي جرت في هذه المدينة ، وأنه قام فيها بأعمال جديرة بشجاعة ورجاحة حكمه ، لكن المؤلف لم يعثر على أي شيء يتعلق بمغامراته الأخيرة وموته ، وما كان له أن يعرف شيئاً عن هذا لو لم يهين له حظه السعيد أن يلقي طبيباً عجوزاً يملك صندوقاً من الرصاص يظهر أنه عثر عليه بين أساسات دير عتيق كان يعاد بناؤه . ووجد في هذا الصندوق برشمان مكتوب بحروف قوطية ، ولكن بشعر قشتالي (اسباني) يروي الكثير عن مغامرات فارسنا . وفيه كلام أيضاً عن جمال دلثنيا ، وهزال روئيناتته ، وإخلاص سنشو ودفن دون كيخوته . وفيه أيضاً مراث مختلفة ومذائح في حياته وأخلاقه ومناقبه . والمؤلف الحقيقي لهذه القصة الجديدة المدهشة يورد هنا الأشعار التي أمكن فك رموزها وقراءتها . ومكافأة عن العمل الهائل الذي اقتضته أبحاثه في كل محفوظات اقليم المنتشا فإنه لا يطلب من القارئ إلا أن يمنح قصته من التصديق ما يمنحه العقلاء لكتب الفروسية ، الكثيرة الرواج في هذه الأيام . فإن ظفر بها ونعم وعدّ نفسه راضياً قد نال عن تعب خير الجزاء ، وهذا سيشجعه على البحث عن مغامرات أخرى إن لم تكن حقيقية ، فإنها ستكون على الأقل بديعة الاختراع مثل هذه ولا تقل عنها إمتاعاً . والكلمات الأولى المكتوبة على البرشمان الذي عثر عليه في الصندوق الذي من الرصاص هي :

أعضاء أكاديمية أرجميسا^(١) ، بلدة في إقليم المنتشا ، كتبوا هذه عن حياة وموت الشجاع دون كيخوته دلامنشا .

(١) أرجميسا دي ألبا ، قرية على بعد ٧٥ كليو متراً في الشمال الشرقي من ثيودا ريال بمقاطعة طليطلة ، على ارتفاع ٦٦٠م فوق سطح البحر .

وقد أثبت النقد الحديث أن ثريانتس لم يسجن في أرجميسا . لكن سخريته الشديدة من هذه القرية تجعل المرء يرجح أنه كان يعذّبها مسقط رأس دون كيخوته .

المونيكونجو^(١) ، عضو أكاديمية أرجمسيا
على قبر دون كيخوته
رثاء

«المخ المحترق الذي أغنى اقليم المنتشا بغنائم أعظم مما ظفر به ياسون الكريتي ،
والحكم الذي كان يدور مع وردة الرياح ،
«والساعد الذي امتدت قوته من قطاي حتى غائيتا ، وربة الشعر التي كانت أشد من
نقش شعراً على لوح من البرونز ترويعاً وفطنة ، «من خلف الأماديسيين وراءه ولم يتم كبير
وزن للجلاورين ، مستنداً الى عشقه وشجاعته ، «من أسكت البليانسن ، من مضى يطلب
المغامرات ممتطياً على روئيناته .
«يرقد تحت هذا الحجر البارد » .

الباناجوادو^(٢) ، عضو أكاديمية أرجمسيا ،
في مدح دلثنيا دل توبوسو
سوناته

«من ترونها ذات وجه بض منقوخ ، وصدر واسع ، وسمت مستكبر ، هي دلثنيا ،
ملكة توبوسو ، التي عشقها دون كيخوته العظيم .
«من أجلها وطئ جانبي الجبل الأسود الواسع وسهل مونتييل الشهير ، حتى وادي
أرنخويث المخضوضر ، سائراً على قدميه متعباً . «كانت تلك غلطة روئيناته . أي كوكب
نحس هيمن على مصائر تلك السيدة المنتشافية وذلك الفارس الجوال الذي لا يقهرها في
سنوات شبابها ،
و«هي تختصر لم تعد جميلة ، وهو ، على الرغم من أنه يظل منقوشاً على المرمر ، لم
يستطع الخلاص من الحب ، ولا من الكراهية ، ولا من المكيدة » .

(١) جميع أسماء أعضاء الأكاديمية القاب للسخرية . المونيكونجو = سناس الكونجو .

(٢) كلمة مؤلف من كلمتين ، Pan = خبز ، agua = ماء ، وتدل الكلمة المركبة على الطفيلي الذي يكون ضيفاً متعاداً على بيت .

الكبرئوس^(١) ، عضو أكاديمية أرجمسيا البارع
الملحة ، في مديح روئيناته ، فرس دون كيخوته ولامنتشا
سوناته

« على العرش الأثيل الماسي الذي يطؤه المزيخ بالدابة الدمية ، يهز المنتشاوي
المهتاج رايته بغضب لانظير له .
« ويلق السلاح والصلب الدقيق الذي به يحطم ، ويقلب ، ويشطر ويقسم . أعمال
بطولة جديدة لكن الفن يخترع اسلوباً جديداً للفارس الجديد .
« وإذا كانت بلاد الغال فخورة بأماديسها ، الذي جعل أسباطه بلاد اليونان تنتصر
آلاف المرات ، ونشروا مجده ،
« فاليوم تعطي المحكمة التي يرأسها بلوني الجائزة الى دون كيخوته ، واقليم المنتشا
النبل يفخر ببطله ، أكثر مما تفخر بلاد اليونان والغال .
« لن يجعل النسيان مجده يبهت أبداً ، لأن روئيناته نفسه يفوق في الشجاعة بريادور
وبايار » .

البرلادور^(٢) ، عضو الاكاديمية الأرجمسياوية ،
عن سنشو بنشا
سوناته

« ها هو ذا سنشو بنشا ، القميء البدن ، لكنه العظيم بشجاعته ، أعجوبة مدهشة لقد كان
أشد السواس سذاجة وإخلاصاً ، السواس الذين عرفهم العالم ، أقسم لكم بذلك وأشهد عليه .
« أوشك أن يكون كوئتا ، لكن تأمر ضده الشر والظلم في هذا العصر الخبيث ، وهما لا
يغفران حتى لحمار .
« على حمار (مع الاحترام) كان يركب هذا السائس الرقيق ، خلف الفرس الهادي،
أروئيناته وخلف مولاه .
« يالآمال الناس الباطلة أنت تمرين واعدة بالراحة ، وأنت في النهاية لست إلا ظلاً ،
ودخاناً وحلماً » .

(١) أي صاحب الأهواء والنزوات .

(٢) = الساخر ، الهازئ .

الكاتشد يابلو^(١) عضو أكاديمية أرجميسا ،
على قبر دون كيخوته
رثاء

« هنا يرقد الفارس ، المضروب كثيراً الجوال السيء التجوال ، الذي حمله روئينانته في
دروب ودروب .
« وبجواره يرقد أيضاً سنشو بنثا المغفل ، أخلص سائس عرف بين السواس » .

التبكي توك ، عضو أكاديمية أرجميسا
على قبر دلثينا دل توبوسو
رثاء

« هنا ترقد دلثينا ، وعلى الرغم من أنها كانت نضرة بضة ، فقد استحالت الى تراب
ورماد بفعل الموت المروع .
« ولدت من عنصر عفيف ، وكان لها سمت السيّدة العظيمة ، وكانت شعلة العظيم
كيخوته ، ومجد قريتها » .
تلك كانت الأشعار التي أمكنت قراءتها ، أما باقي الأشعار فقد نخر حروفها الدود ،
فأعطيت الى أحد أعضاء الأكاديمية ليحاول استعادتها . ونحن نعرف أنه أفلح في ذلك بفضل
السهر والاجتهاد والعمل المتواصل ، وأنه ينوي نشرها ، على أمل أن يخرج دون كيخوته
خارجته الثالثة .

ربما ينشد غيري برباب أحسن^(٢)

– انتهى القسم الأول –

(١) قناع الشيطان ، وكان هذا لقباً أطلق على أحد نواب (عمال) بربروسا .

(٢) بيت شعر مأخوذ من ملحمة « أولندو الغاضب » تأليف أريستو ، النشيد الثلاثون ، البيت رقم ١٦ ، وهذه الملحمة كانت ذات
تأثير عميق في ثرفانتس كما رأينا مراراً خلال الجزء الأول من القصة .

النبييل البارِع دون كيخوته دلا منتشا

تأليف

ميجيل دي ثرينتس سابدرا

إلى كونت ليموس^(١)

وأنا أرسل إليك يا صاحب السعادة منذ أيام مسرحياتي الهزلية ، التي طبعت قبل أن تمثّل ، قلت إذا لم يخطئ ظني ، أن دون كيخوته ، متأهب قد انتعل مهمازيه ابتغاء الذهاب للممثل بين يديك ، واليوم أقول لك أنه انتعلهما وأخذ في الطريق إليك ، فإن وصل إلى هناك ، فيبدو لي أنني أسديت بعض الخدمة إلى سعادتك ، إذ يلحون عليّ من كل ناحية لإرساله علاجاً من الثياني والقيء اللذين أحدثهما دون كيخوته آخر ، أخذ ، تحت قناع أنه جزء ثان ، يجوب الدنيا . والذي أظهر أكبر رغبة في مشاهدته هو امبراطور الصين العظيم ، ذلك أنه بعث إليّ قبل أقل من شهر برسالة عاجلة مع رسول خاص ، مكتوبة باللغة الصينية ، يطلب منّي فيها ، أو بالأحرى يتوسّل إليّ ، أن أبعث به إليه ، لأنه يود أن ينشئ كلية تدرّس فيها اللغة الاسبانية ، وأن يكون النص المستخدم في التعليم هو قصة دون كيخوته . وفي الوقت نفسه رغب إليّ في أن أكون مديراً لهذه الكلية . فسألت الرسول هل صاحب الجلالة الامبراطور قد حمّله من أجلي ببعض المؤونة والمعونة . فأجاب بأن هذا الأمر لم يكن موضوع بحث .

هنالك قلت له : إذن تستطيع ، يا أخي ، أن تعود إلى الصين على مراحل طول كل منها عشرة أو عشرون فرسخاً ، أو بالطريقة التي أرسلوك بها ، لأنني أقول لك عن نفسي أن صحتي لا تمكّنني من القيام بهذه الرحلة الطويلة ، وفضلاً عن كوني مريضاً فإنني خالٍ من

(١) في سنة ١٦١٢ أهدى ثريانتس إلى الكونت دي ليموس ، دون بدرو فرزندث دي كسترو نائب الملك في نابلي منذ سنة ١٦١٠ ، «الأقاصيص النموذجية» ، فلقني منه رعاية وافرة دفعتني إلى أن يهدي إليّ في سنة ١٦١٥ «أولاً ثمانين هزلياً وثمانين وسيطات (انثرميسس) جديدة لم تمثّل» ، ثم القسم الثاني من دون كيخوته . وقبل وفاته بخمسة أيام أهدى إليّ «أعمال برسيلس وسجسمندا» .

المال ، وامبراطوراً بامبراطور وعاهلاً بعاهل عندي في نابلي كونت ليموس العظيم ، الذي يبذل لي يد العون ، دون كل ألقاب الكليات والمديرين ، ويسد حاجتي ، ويهيني من فضله مالا يزيد عليه .

وعلى هذا ودّعته ، وعلى هذا أيضاً أستودع وأنا أقدم الى سعادتك « أعمال پرسيلس وسجسموندا » ، الذي سأفرغ منه قبل أربعة أشهر ، إن شاء الله ، وسيكون أسوأ أو أحسن ما ألفت في لغتنا وأقصد بين الكتب التي قصد بها الترفيه والتسلية ، وأخطئ حين أقول « أسوأ » ، لأنه في رأي أصدقائي ، سيبلغ أوج الكمال الممكن . فليعد سعادتك بالصحة التي نرجوها ، وستكون پرسيلس هناك لتقبيل أياديك وأنا لتقبيل قدميك ، أنا الخادم الأمين لسعادتك .

مدريد في اليوم الأخير من شهر اكتوبر سنة ألف وستمئة وخمس عشرة .

خادم سعادتك

ميغيل دي ثرانتس سابدرا

استهلال إلى القارئ

كان الله في عوني!

بأي لهفة ، أيها القارئ الكبير أو ربّما من العامة ، كان عليك أن تنتظر هذا الاستهلال ، متوقعا أن ترى فيه انتقاماً من مؤلف دون كيخوته الثاني^(١) ، وهجوماً عليه وصباحاً للشوائم فوق رأسه ، وأقصد به ذلك الذي ، فيما يقال ، ولد في تورديسياس وتولّد في طرغونه . ولكنني في الحق لن أحقق لك هذه الرغبة ، لأنه إذا كانت الشوائم تثير الغضب في القلوب الخائفة الجبانة ، فإنها في قلبي تثير النقيض . أنت تود ، من غير شك ، أن أقول عنه أنه حمار ، أحقق ، وقح ؟ لكن هذا ليس في نيّتي . وليكن في خطيئته عقابه . وليلزمها في عنقه ، وليهنأ بها .

لكن أشد ما ألم نفسي هو أنه يقول عني إني عجوز بذراع واحدة ، وكأنه كار في مقدوري أن أقف عجلة الزمان فلا تدور بالنسبة إليّ ، أو كأن يدي تحطمت في حانة من الحانات ، لافي أعظم عمل يستحق الخلود عرفته القرون الماضية ، وتعجب به القرون الحاضرة ، ويمكن أن تحلم برؤيته الأجيال المقبلة . وإذا كانت جراحي لاتلمع في عيون من يرونها ، فهي على الأقل موضع تقدير ممن يعرفون كيف أصبت بها . ومخاطر الجندي في المعركة تشرفه أكثر من السلامة التي يجدها في الهرب ، وأقول عن نفسي أن جعلوني أوّمل في المستحيل في هذه اللحظة ، إنني كنت أفضل أن أكون حاضراً في ذلك اليوم المشهود على ألا أشارك في مخاطرة وأكون بغير جراح ، إن الجراح التي يحملها الجندي على وجهه وصدره هي بمثابة نجوم تهديه وتقوده إلى سماء الشرف ، وتجعله يطمح إلى

(١) إشارة إلى المؤلف الذي نشر في طرغونه سنة ١٦١٤ الجزء الثاني من دون كيخوته تحت اسم مستعار هو ألونسو فرنندت دي ابيانيدا من تورديسياس ، الحاصل على الليسانس .

تلك المدائح العادلة التي لاتمنح للشعر الأبيض ، بل للجدارة والاستحقاق والفضل الذي ينمو ويقوى مع الأيام .

ثم رأيته أيضاً ينعتني بأنّي حاسد ، ويعتقد أنّي من الجهل بحيث أحتاج أن يعلمني ماهو الحسد . وهذا أمر يحزّ في نفسي . وأقول قسماً بشرفي وضميري إنّني لأعرف من نوعي الحسد غير النوع المقدّس النبيل الحسن القصد . وإذا كان الأمر هكذا فليس من شأنّي أن أهاجم أي قسيس^(١) ، خصوصاً إذا أضاف الى هذا اللقب لقب « المقرب » الي الديوان المقدّس . فإن كان من يتّهمني يقصد حقاً من يلوّح أنه يقصده ، فإنه مخطئ خطأ فاحشاً ؛ لأنّي أحب عقل من يتحدّث عنه وأعجب بأعماله وبحياته الفاضلة الشريفة^(٢) . بيد أنّي أشكر للمؤلف قوله أنّ « أقاصيصي » أقرب أن تكون ساخرة من أن تكون أنموذجية ، ولكنها جيدة وماكان لها أن تكون كذلك لو لم تضم طرفاً من كل شيء . لكن يبدو لي ، أيها القارئ الحر ، أنّي أسمعك تقول أنّي أتقدّم قليلاً وأنّي أحصر نفسي أكثر مما ينبغي في حدود تواضعي . والحق أنه لاينبغي زيادة أحزان رجل محزون ، وأحزان هذا الكاتب لابدّ كبيرة ، لأنه لايجرؤ على الظهور في وضوح النهار ، ويموء عن اسمه الحقيقي وبلده ، كما لو كان مرتكباً لجريمة الطعن في الذات الملكية . فإن تصادف أن عرفته ، فقل له ، بالنيابة عني ، إنّني لا أشعر بأن إهانة لحقّك وأنّي أعلم حق العلم إغواءات الشيطان ، وأنّ من أعظمها أن يضع في رأس إنسان أنه قادر على أن يكتب ويطبّع كتاباً يمنحه من القدر بقدر مايمنحه من الريح ، ومن الريح بقدر ما يمنحه من القدر . ولأويّد ماقلته أود أن تقص عليه هذه الأقصوصة بلطفك وذكاك ،

« كان في اشبيلية مجنون ، انهزم في أعجب تهويل خطر ببال مجنون . صنع أنبوبة من اليراع ، مدبّبة الطرف ، فإذا أمسك بكلب في الشارع أو في أي مكان آخر ، وضع أحد مخالبه تحت قدمه ، ورفع الآخر بيده ، وأدخل الأنبوبة قدر المستطاع في موضع حين ينفخ فيه يجعل الكلب مستديراً كالكرة . وبعد أن يضعه في هذه الحال ، يضربه على بطنه بضربتين خفيفتين من يده ، ثم يتركه قائلاً للحاضرين وكان عددهم كبيراً دائماً ؛ هل تظنون أن نفخ كلب أمر هين ؟

فإن لم تناسبه هذه الأقصوصة فأرسله ، أيها القارئ العزيز ، هذه الأخرى والأمر فيما يتعلّق أيضاً بالمجنون والكلب .

(١) يقصد به لوبه دي بيجا .

(٢) هذه العبارة تهكم على لوبه دي بيجا الذي كانت حياته الخاصة حافلة بالفضائح ، كما كشفت عنها الرسائل المتبادلة بينه وبين حاميه دوق سيسا ، وفريانتس كان على علم بهذه الفضائح .

« كان في قرطبة مجنون آخر ، وكان من عادته أن يحمل على رأسه قطعة من الرخام أو من الحجر الثقيل . فإذا قابل كلباً آمناً اقترب منه وأسقط عليه عمودياً الشقل الذي يحمله . فكان الكلب يثور وينبح ويعوي ، ويهرب عادياً . لكن حدث أن كان من بين الكلاب التي يلقي عليها بأثقاله كلب يملكه بائع قبتعات وكان يعزّه كثيراً . سقط الحجر على رأس هذا الكلب فراح يصرخ ، فأبصره سيده وسمع صراخه : فأمسك بسلاح ، وانقضّ على المجنون ولم يترك له عظمة سليمة في بدنه . وعند كل ضربة كان يقول له : آه ، يا كلب ، يالصف ، إنك تعذب سلوقي هكذا ! ألم تر يا قاسي أن كلبى سلوقي ؟ » وكثر اسم « سلوقي » عدة مرات ثم أطلق سراح المجنون مسحوقاً كالحناء . ولم يضع هذا الدرس . فقد انطوى المجنون ، ولم يشاهد في الميدان طوال شهر . لكن عند نهاية هذه المدة عاد الى جنونه وحمل ثقلاً أكبر . واقترب من الكلب ، وتطلّع فيه بانتباه ، ودون أن يريد ولا أن يجرؤ على إسقاط الحجر ، قال : « هذا سلوقي فاحذرا ! » وهكذا كان يقول عن الكلاب التي يلقيها ، حتى لو كانت دراوس أو كليات أنها سلوقية ومنذ ذلك الحين وهو لا يسقط حجراً على كلب .

وربما يحدث مثل هذا لذلك القصاص ، فإنه لن يجرؤ على إسقاط ثقل روحه على كتب هي أثقل من الحجارة إذا كانت رديئة . وقل له أيضاً بأني لأهتم أبداً بتهديده إيتاي بانتزاع كل مكاسب مني عن طريق كتابه . وإني أجيبه بالعبارة الشهيرة في هزلية « بيرندنجا » ، « يحيى الأربعة والعشرون^(١) » ، يا سيدي ، والمسيح للجميع » .

فليحيى كونت ليموس العظيم ، الذي يعينني كرمه وإنسانيته ضد كل ضربات الحظ المنكود ! وليحيى إحسان الرجل العظيم دون برنردو دي سندوبال أي روخاس ، مطران طليطلة ! وبعد هذا ماذا يهمني ألا تكون في الدنيا أية مطبعة ، أو أن تطيع ضدي كتب بمقدار ماتحتوي مثنويات منجو ريلحو^(٢) من حروف ! لقد تفضل هذان الأميران بالإهتمام بأمرى وحمايتى من ظلم الأقدار ، دون أن يحتكما على ذلك تملق وضيع ، ودون دافع غير طيب النفس ، وأشعر بأني أسعد وأغنى مما لو كان الحظ ، بالطرق المعتادة ، قد غمرني بنعمه . إن الشرف يمكن أن ينتسب الى الفقير ، لا الى الشرير ، والفقير قد يفشى على النبالة ببعض الغيوم ، لكنه لا يمكن أن يسبل الظلمة الدامسة عليه ، وكما تلمع الفضيلة

(١) الأربعة والعشرون هم موظفو البلدية في اشبيلية ، وغرناطة وقرطبة .

(٢) خوار شعري بين راغبين هما خيل أوباتو ومنجلو ريلجو ، وفيه سخرية من هنري الرابع ملك قشتالة ومحسوبة دون بلتران دلا كويبا ، وفيه قواعد الحكم الصالح ، وقد طبعت الطبعة الأولى منه في لشبونة (بنير تاريخ) ، ويمتد أن تاريخها قبل سنة ١٤٨٥ م .

لمعاناً خاصاً بها ، رغم كل منغصات الإملاق ، فإنها تعرف كيف تكون موضوع تقدير النفوس النبيلة الرفيعة وحمايتها .

ولن أطيل عليك أيها القارئ العزيز . وإنما أنبّهك الى أن هذا القسم الثاني من « دون كيخوته » الذي أقدمه اليك الآن ، قد فصل على نموذج القسم الأول نفسه ومن نفس قماشه . وفيه أقدم اليك دون كيخوته في تلاوة مغامراته وحتى وفاته ودفنه ، كيلا يخطر ببال أحد أن ينسب اليه أفعالاً جديدة . إن أفعاله القديمة تكفي ، وحسب رجل شريف أن يكون قد أفضى اليك بنبأ حماقات دون كيخوته العاقلة ، دون أن يأتي إنسان فيحشر نفسه فيها ، ووفرة الأمور الأحسن ووفرة هائلة جداً تجعل تقديرها أقل ، أما إن كانت رديئة فإن قدرتها تجعلها مقبولة . وقد نسيت أن أقول لك أن تنتظر « برسيلس » فأنا بسبيل الفراغ منها ، والقسم الثاني من « غلاطية^(١) » .

(١) كتب إهداء « برسيلس » في ١٨ إبريل سنة ١٦١٦ ، قبل موت ثريانتس بخمسة أيام في ٢٢ إبريل .

القسم الثاني

الفصل الأول

في كيف كان تصرف القسيس والحلاق مع دون كيخوته
إبان مرضه

يروى سيدي حامد بن الأيل ، في القسم الثاني من هذه القصة ، الذي يتضمن الخرجة الثالثة لدون كيخوته^(١) ، أن القسيس والحلاق ظلاً قرابة شهر من الزمان لا يريان صاحبهما حتى لا يذكراه بما جرى . لكنهما مع ذلك لم يكفيا عن زيارة ابنة الأخت والخادمة مراراً عديدة ، وتوصيتهما بأن تحسنا معاملته ، وأن تقدما إليه غذاءً مقوياً ، مفيداً للقلب والمخ ، الذي منه جاء كل الداء : فأجابتا أنهما تعاملانه هذه المعاملة وستستمرآن على بذل كل مافي وسعهما من معونة ، خصوصاً وأنه توجد لحظات فيها يبدو سيدهما في تمام عقله . وهذا الخبر جلب السرور على الصديقين ، واغبطا لتخيّلهما فكرة أنه مسحور من أجل إعادته على عربة تجرها الثيران ، كما رأينا في الفصل^(٢) الأخير من القسم الأول من هذه القصة العظيمة الحقيقية ، وتبعاً لهذا فقد قررا زيارته ، ليتأكدا بأنفسهما من هذا التحسن في أحواله العقلية وإن كان يظنان هذا التحسن أمراً غير ممكن ، لكنهما اتفقا فيما بينهما على ألا يمستا أية نقطة تتعلق بالفروسية الجوّالة ، حتى لا يفتحا جرحاً حديث الإصابة . دخلا عليه فوجداه جالساً على سريريه ، لابساً قميصاً من الصوف الأخضر ، وعلى رأسه طاقية حمراء من النوع الذي يصنع في طليطلة ، وكان هزيراً معروفاً الى حد يُرى معه كأنه مومياء . فقوبلا أحسن مقابلة ، وسألاه عن أخبار صحته فوصفها لهما وصف رجل في تمام قواه العقلية ، بل وبألفاظ منتقاة . ثم شاع التشويق في الحديث ، فتطرق الى شؤون الدولة ، وشكل الحكم ، فكانوا يصحّحون عادة ، أو يلغون أخرى ، وكل منهم يفصل في الأمر فصل المشرّع ، وكأنّ

(١) لم يشأ ثربانتس أن يذكر لنا أين وكيف وجد هذا القسم الثاني من كتاب سيدي حامد بن الأيل ، ذلك أنه في الفصل ٥٢ من القسم الأول قال أن المؤرخ العربي ، سيدي حامد ، لم يستطع الحصول على معلومات عن أعمال دون كيخوته في خرجته الثالثة .

(٢) الأصح أن يقول : في الفصول الأخيرة من القسم الأول .

ليكرجس أو سولون العصر ، وأخيراً غيروا شكل الحكومة تماماً ، حتى ليقال أنهم وضعوها في بوتقة ، وخرجت منها شيئاً آخر مختلفاً تماماً . وفي كل المسائل التي جرى الحديث حولها كان دون كيخوته يتكلم بكل حكمة ، حتى أن الفاحصين (القستيس والحلاق) اقتنعا بأنه استردّ عقله كاملاً .

وكانت بنت الأخت والخادمة حاضرتين أثناء الحديث ، فشكرتا الله على شفاء سيدهما . لكن القستيس تخلّى عن قراره الذي اتخذه قبل المجيء - بعدم الكلام عن الفروسية ، وأراد أن يدفع الامتحان حتى نهايته ، ليرى ما إذا كان شفاء دون كيخوته حقيقياً أو زائفاً . فتطرق الحديث ، والحديث ذو شجون ، الى الأنباء التي وصلت حديثاً من القصر ، ومنها خبر مفاده أن الأتراك أبحروا بإسطول قوي ، ولكن لم تعلم وجهته وعلى أي مكان سينقضّ هذا السحاب ، وأن هذه الخطط قد أشاعت في كل البلاد المسيحية فزعاً يجذّده المسلمون كل عام ، وأن صاحب الجلالة عمل على تأمين نابلي ، وصقلية وجزيرة مالطة . فقال دون كيخوته : إن جلالته يسلك مسلك المحارب الحذر حين يحصّن بلاده في الوقت المناسب ، حتى لا يفاجؤها العدو وهي بخير دفاع ، لكنه لو سألتني النصيحة لأسديت اليه نصيحة ما أبعده عن التفكير فيها .

فقال القستيس في نفسه : آه دون كيخوته أيها المسكين ، الله يحفظك! أعتقد أنك عدت الى جنونك .

وجالت بخاطر الحلاق الفكرة نفسها فسأل دون كيخوته عن هذا الإجراء الذي يحسن اتخاذه في نظره ، إذ يجوز أن يكون رأياً من تلك الآراء غير الموفّقة التي جرت العادة بإبدائها للملوك .

فقال دون كيخوته : يا سيدي يا جزّار اللحى ، إن رأيي ليس غير موفق ، بل موفق جداً .

فأجاب الحلاق : لا أقول العكس ، ولكن التجربة دلّت على أن معظم الخطط التي تقدّم الى صاحب الجلالة يستحيل تنفيذها ، وجنونية ، بل وضارة بالدولة أو بالحاكم . فقال دون كيخوته : لكنّ خطّتي ليست مستحيلة ولاجنونية ، بل هي أسهل وأعدل وأنسب وأحسم وسيلة خطرت على عقل ناصح .

فقال القستيس : إنك تبطن طويلاً في إخبارنا بهذا ياسيدي .

فأجاب دون كيخوته : لا يهمني كثيراً أن أذكرها الآن ، حتى لاتبلغ غداً مستشاري الملك ، فيتلقّى غيري المدح والثمن عما هو عملي أنا .

فقال الحلاق : عن نفسي أقسم أمام الله والناس بألا أذكرها للملك ، أو الطابية^(١) ولا إلى أي إنسان فاني ، وهذا القسم وجدته في رومائه (القسيس) الذي في مقدمتها عزف الملك باللص الذي سرق منه مائتي دبله^(٢) وبغله الذي كان يحسن الرهو .
فقال دون كيخوته : لا أعرف هذه الحكاية ، لأنني أعرف أنه قسم عظيم ، لأن السيد الحلاق رجل طيب .

فقال القسيس : حتى لو لم يكن ، فإنني أتعهد بالنيابة عنه ألا يتكلم أبداً كأنه أخرس ، وإلا دفع غرامة .

فقال دون كيخوته : وأنت يا سيدي القسيس ، من يتعهد لي عنك أنت ؟ فأجاب القسيس : مهنتي التي تلزمني بكتمان السر .

فقال دون كيخوته : هاهي خطتي إذن ، يكفي أن يعلن صاحب الجلالة ، بواسطة النفير ، على أن كل الفرسان الجواله في اسبانيا أن يذهبوا الى القصر في يوم معلوم . فحتى لو لم يحضر غير ستة ، فيكفي واحد منهم ، هو وحده ، للقضاء على قوة الأتراك . أعيراني سمعيكما يا صاحبي ، وتابعا كلامي . هل هو أمر جديد ، وقولا لي ، أن يقوم فارس جوال واحد بالقضاء على جيش مؤلف من مائتي ألف رجل وكأنه ليس لهم جميعاً غير عنق واحد وأنهم صنعوا من العجين ؟ كم من تواريوخنا (قصصنا) حافل بهذه العجائب لو عاش اليوم ، لسوء حظي (ولا أقول حظ غيري) الشهيد دون بليانس أو أي واحد من ذرية أماديس الغالي العديدة ، وهاجم الأتراك ، ألا تصدقون أنه سيقهرهم ؟ صبراً والله يرحم شعبه ويخلق فارساً إن لم يكن شجاعاً شجاعة فرسان العصور الماضية فإنه يساويهم على الأقل في البسالة . والله يسمعني ، ولن أزيد .

فصاحت بنت الأخت : ليتوفني الله إن لم يكن في نية عمي أن يعود الى فروسيته الجواله

فأجاب دون كيخوته : لا بد لي أن أموت فارساً جوالاً ، وليصعد الأتراك أو لينزلوا بأية قوة شاءوا ، والله يسمعني .

فقال الحلاق : أتوسل الى سيادتك السماح لي بأن أقص ، في جمل قليلة ، مغامرة حدثت في اشبيلية ، مناسبة جداً لهذا المقام .
فوافق دون كيخوته والقسيس ، وأنشأ الحلاق يقول :

(١) هذا القسم مأخوذ من لغة الشطرنج ، الملك ، الطابية ، الخ...

(٢) دبله ، عملة اسبانية قديمة من الذهب كانت تساوي عشر بسيطات في ذلك العهد .

« في مستشفى المجانين بإشبيلية كان يوجد رجل حبسه فيه أهله ، لأنه فقد عقله . وكان مجازاً في القانون الديني في آشونه ، لكنه حتى لو كانت إجازته من شلمنقة لما كان أقل جنوناً . وبعد مرور عدة سنوات على حبسه ، اقتنع هذا المجاز بأنه استرد عقله . وبناء على هذه الفكرة ، كتب الى المطران ، متوسلاً اليه بالإحاح ، ولأسباب قوية ، أن يستنقذه من البؤس الذي كان يعيش فيه ، لأن رحمة الله قد أعادت اليه رشده ، وأضاف أن أهله ، لينعموا بأمواله ، أمسكوا به في السجن ، مدعين ضد كل حق ، أنه سيكون مجنوناً حتى يموت . واقتنع المطران بما توالى عليه من رسائل حافلة بسلامة العقل والرأى ، فكلّف أحد القسس عنده بالاستعلام من مدير المستشفى هل ما يقوله هذا المجاز صحيح ، وأن يتحدث بنفسه الى هذا الرجل ، فإن وجده فعلاً في تمام قواه العقلية فليخرجه وليرد إليه حريته . وفعل القسيس ما أمره به المطران . فقال مدير المستشفى أن هذا الرجل مجنون دائماً ، إذ بعد أن يتكلم طويلاً بعقل يعود الى تهاويل ليست أقل طولاً من حكمته المزعومة ، وسيرى هو مصداق ذلك بعد أن يتحدث اليه . فحاول القسيس أن يجرب ، فتكلم مع المجنون أكثر من ساعة ، وفي أثناء هذا الوقت كله لم يصدر من المجنون أي عمل جنوني ، بل كان على العكس من ذلك يعبر عن نفسه بحكمة وعقل حتى اعتقد القسيس أنه شفي تماماً . ومن بين ما قاله أن المدير أراد الإبقاء عليه في المستشفى حتى لا يضيع الهدايا التي تصله من أسرته رشوة منه ليقرر أن السجن دائماً مجنون ، وإن مرّت عليه فترات يسترد فيها عقله . وقال أن السبب الأكبر في محنته هذه هو ثروته الكبيرة ، لأن أعداءه لجأوا الى الكذب من أجل الاستمتاع بها ، وأنكروا فضل الله عليه الذي حوّلته من دابة الى إنسان . وأخيراً تكلم بما يجعل المدير مثهماً ، ويجعل أقاربه قوماً طماعين شرهين ليس في قلوبهم رحمة ، وبدأ عاقلاً حتى أن القسيس قرّر اقتياده الى المطران ، ليحكم بنفسه على الأمر . فرجا المدير أن يرد الى المجاز ملابسه القديمة ، فنبّه المدير مرة أخرى الى الاحتياط مما يفعل ، مدعياً من جديد أن المجاز لا يزال مجنوناً . فلم يحفل القسيس بهذا التنبيه ، واضطر المدير الى الطاعة ، لأنه رأى أن هذا هو أمر المطران ، فرد الى المجاز ملابسه ، وكانت جيدة محتشمة . فلما رأى المجنون أنه تجرّد من ملابس الجنون ولبس ثوب العقل ، التمس من القسيس أن يسمح له ، قبل أن يخرج ، بالذهاب لتوديع زملائه المجانين ووافق القسيس ، وأراد أن يكون في صحبته لرؤية هؤلاء المساكين ، وصحبهما آخزون . فوصلوا أمام قفص وضع فيه مجنون مهتاج ، لكنه كان في تلك اللحظة هادئاً نسبياً . فقال له المجاز : « أخي ، هل لك حاجة تكلفني بها فأني عائد الى بيتي . إن الله برحمته الواسعة ردّ لي عقلي ، دون

أن أستحق ذلك ، وشفيت تماماً وصرت في كامل قواي العقلية ولايستحيل شيء على قدرة الله . فضع كل رجائك فيه واعتقد أنه مادام قد أعادني الى حالتي الأولى ، فإنه يمكنه أن يمنحك النعمة نفسها لو لجأت الى الدعاء والصلوات . وسأهتم بإرسال أطعمة جيدة اليك ، لأنني أعرف بالتجربة أن كل أنواع جنوننا لا تنشأ إلا لأن معدتنا خاوية وفمنا مليء بالريح . تشجع وانشط ، لأن الخمود في الشفاء يقضي على الصحة ويقرب الموت » . وسمع هذا الكلام مجنون آخر ، موضوع في قفص مواجهه لقفص هذا المجنون المهتاج ، فنهض من فوق حصيرة عتيقة كان نائماً عليها عارياً تماماً ، فسأل صائحاً بصوت عالٍ عن هذا الذي يخرج عاقلأ قد شفي هكذا . فأجاب المجاز : « أنا يا أخي لم يعد لي شأن بهذا المكان ، وأنا أشكر للسماء هذه النعمة الكبرى » . فقال المجنون : « حذار مما تقول ، ولايغزرن بك الشيطان ، صدقني ، وعد الى قفصك ، وأخشى أن تخرج منه » . فأجاب الآخر : « إنني متأكد أنني شفيت ، ولم تعد بي حاجة الى العودة الى هذا المكان » . فقال المجنون : « أنت ، شفيت اذهب ، وليهدك الله ، ولكنني أقسم بحق جوبيتر ، الذي ، أمثل أنا على الأرض جلالته العظمى ، لأعاقبن أشبيلية من أجل خطيئتها في الاعتراف أنك عاقل وفي إطلاق سراحك ، عقاباً ستذكره على مدى القرون . آمين! ألا تعلم ، أيها المجاز الساقط ، أن عندي القدرة على هذا ، لأنني كما قلت لك أنا جوبيتر صاحب الرعد ، الذي يمسك في يديه بالسهم الملتهبة الذي بها أستطيع أن أهدد العالم وأحطمه ؟ لكنني سأكتفي بعقاب أقل أعاقب به هذا الشعب الجاهل : سأحرم المدينة من المطر ، هي وكل إقليمها طوال ثلاث سنوات كاملة ، ابتداء من اليوم الذي أطلق فيه هذا التهديد . أما أنت حر ، شفيت ، عاقل! وأنا ، أنا مجنون ، محبوس ، موثق! اذهب ، لا أفكر في الأمطار كما لا أفكر في الانتحار » . وأصغى كل الحاضرين بانتباه الى أقاويل المجنون ، وإذا بالمجاز يتلفت الى القسيس ويأخذ بيده ويقول : « سيدي! لا تقلق من تهديدات هذا المجنون ، إذا كان هو جوبيتر ، ويرفض إطلاق المطر ، فأنا نبون ، إله المياه وأبوها ، سأمطر ماشاء لي الأمطار وكلما كان ذلك ضرورياً » . فأجاب القسيس : « حسناً ، ولكن يا سيدي نبون الأحسن ألا تهيج السيد جوبيتر ، ولهذا فأرجوك من فضلك أن تعود الى قفصك . وفي يوم آخر يكون لدينا فيه مزيد من الوقت ، سنعود لأخذك » . فأخذ المدير وسائر الأشخاص في الضحك ، وأوشك القسيس أن يغضب . فجرد المجاز من ملابسه ، واقتيد من جديد الى محبسه ، وانتهيت أنا من حكايتي » .

فقال دون كيخوته : أهذه إذن الحكاية التي رأيت أنها مناسبة جداً للمقام بحيث لم

تتمالك من إيرادها ؟ آه يا سيدي الحلاق ، سيدي الحلاق! يا لعمى من لا يستطيع أن يرى من خلال الغريبال! هل من الممكن أن يجهل حضرتك أن المقارنات التي تعقد بين عقل وعقل ، وقيمة وقيمة ، وجمال وجمال ، وأسرة وأسرة هي دائماً بغیضة لا تتقبل قبولاً حسناً ؟ أنا لست نبتون ، إله المياه ، ولا أريد أبداً أن ينظر إليّ إنسان على أنني عاقل ، إذا لم أكن كذلك فعلاً . ولكنتي أتعب نفسي فقط في تفهيم العالم أنهم يخطئون حين لا يريدون تجديد الأزمنة السعيدة التي لمعت فيها طريقة الفرسان الجوّالة . ولكنتي أرى جيداً أن هذا العصر الفاسد لا يستحق أن ينعم بالنعم التي لا نهاية لها والتي كان ينشرها حولهم أولئك الفرسان ، الذي تحملوا وحدهم عبء الدفاع عن الممالك وحماية الأوانس ، وغوث المستضعفين واليتامى ، وعقاب المستكبرين في الأرض ومكافأة المتواضعين . ولكن غالبية فرسان اليوم يفضلون لبس القماش الدمشقي والديباج (البروكار) والثياب الثمينة على لبس الدروع التي كان يلبسها القدماء . ولم يعد أحد منهم ينام في الخلاء ، متعرضاً لعواصف السماء والأنداء ، مسلّحاً من رأسه حتى أخمص قدميه ، ولم يكونوا يتركون الركاب بل يستندون الى رماحهم ويسعون لخداع النوم ، كما كان يفعل الفرسان الجوّالة . ولن تشاهد اليوم فرساناً يخرجون من الغابات ويتسلّقون الجبال وينزلون من ثمّ الى شاطئ عقيم خاوٍ ، على ساحل بحر كبيراً ما تحرّكه العواصف ، فيجدون زورقاً صغيراً بدون مجاذيف ولا أشرعة ولا ساريات ولا حبال ، فيقذفون بأنفسهم فيه بقلب جسور ، تاركين أنفسهم للأمواج العاتية لبحر عميق أحياناً يصاعد بهم حتى السحاب ، وأحياناً أخرى يغوص بهم في الهاوية ، ويكافحون ضد الرياح بشجاعة لاتقهر ، ويجدون أنفسهم ، حيث لايتوقعون على مسافة ثلاثة آلاف فرسخ من النقطة التي بدأوا منها . فيقفزون على هذه الأرض المجهولة النائية ، ويخوضون مغامرات جديدة بأن تنقش ، لاعلى البرشمان ، بل على البرونز . أمّا اليوم فإنّ الكسل ينتصر على الجِد ، والبطالة على العمل ، والرذيلة على الفضيلة ، والاستكبار على القيمة ، والنظر على العمل بالسلاح ، السلاح الذي يلعب لمعاً خالداً في العصر الذهبي وبين الفرسان الجوّالة . وإلا فقولاً لي من ذا الذي كان أعظم أمانة وبسالة من الشهير أماديس الغالي ؟ ومن كان أرجح عقلاً من بلمرين الانجليزي ؟ ومن كان أكثر أنساً وتساهلاً من تيرانت الأبيض ؟ ومن كان أكثر عزلاً من لسورت اليوناني ؟ ومن كان أكثر جراحاً وأشد إرهاباً في المعركة من دون بليانس ؟ ومن كان أكثر جسارة من بريون الغالي ؟ ومن واجه أخطار أكثر من فليكس مارس الهوركاني ؟ ومن كان أكثر نزاهة من اسبلانديان ؟ وأكثر إقداماً من دون ثرونخليو التراقي ؟ وأشجع من رودامنت ؟ وأشجع وأكثر حصافة من الملك

سوبرينو؟ وأكثر تهوّرًا من رينالدو؟ ولا يقهر مثل أورلندو؟ وألطف وأحسن أدبًا من روجيرو الذي ينحدر منه دوقات فراراً ، كما يخبرنا بذلك توربين في كتاب «وصف الكون» ؟ كل هؤلاء الفرسان ، ياسيدي القستيس ، وكثيرون غيرهم أستطيع أن أذكرهم ، كانوا فرساناً جوالين وكانوا مجداً لطريقتهم . ومن رأيي أن يستخدم الملك هؤلاء أو من هم على شاكلتهم ، وسيجد من أمثالهم ، وبهذا يقلل كثيراً من النفقات ، وبهم ينتزع الأتراك من لحاهم . وعلى كل حال فسأبقى أنا في مسكني ، مادام القستيس (في الحكاية المذكورة) لا يريد اخراجه منه ، وإذا يشأ جوبيتر ، كما يقول الحلاق ، أن يجعل المطر ينزل ، فسأتولى أنا إنزال المطر حينما أشاء ، قلت هذا ياسيدي ، لأبين لكم أنني فهمتكم جيداً .

فأجاب الحلاق ، الحق ، ياسيدي دون كيخوته ، أنني لم أقصد أبداً إلى الإساءة إليك ، والله يشهد أن قصدي كان حسناً ، وأنه لا ينبغي لسيادتك أن تتضايق مما قلت .

فأجاب دون كيخوته : أنا الذي أعرف هل ينبغي عليّ أولاً .

وقال القستيس ، مقاطعاً إياه : أما عن نفسي ، وإن كنت لم أكد أقول كلمتين حتى الآن ، فأني لا أستطيع أن أكنم وقتاً أطول أمراً مقلقاً أثاره مقاله السيد دون كيخوته .

فقال هذا الأخير : تكلم يا سيدي ، ومسموح لك بأمور أكبر ، خبرنا عن هذا الأمر المقلق ، إذ لا ينبغي أن تمضي مثقل الضمير .

فقال القستيس : مادمت تأذن لي ، فأني أقول لك إذن ، بلا لف ولا دوران ، أنني لا أستطيع أن أقنع نفسي بأن كل هذه العصابة من الفرسان الجواله الذين ذكرتهم قد وجدوا فعلاً ، وكانوا ناساً من لحم وعظم ، ويخيّل إليّ أن كل هذا من اختراع الخيال ، وخرافة كاذبة ، إنها أحلام يرونها قوم يقظي ، أو بعبارة أدق نصف نائمين .

فأجاب دون كيخوته : هذا خطأ آخر وقع فيه كثير من الناس الذين لا يريدون أن يصدّقوا بوجود أمثال هؤلاء الفرسان . وكثيراً ما سبحت لي الفرصة مراراً عديدة ، ومع كثيرين من الأشخاص ، لمحاربة هذا الخطأ : وأحياناً لم أفلح في إقناعهم ، وفي أحيان أخرى أفلحت في استخراج الحقيقة ، التي تبدولي بينة إلى حد أن أستطيع أن أقول أنني شاهدت بعيني أماديس الغالي ، لقد كان رجلاً طويلاً القامة ، أبيض الوجه ، جميل اللحية ، وإن كانت سوداء ، ذا نظرة شديدة رقيقة معاً ، قليل الكلام ، بطيء الغضب ، سريع الهدوء . وكما أستطيع أن أصف لك صورته ، ففي وسعي أيضاً أن أرسم ملامح كل الفرسان الجواله الذين تروي القصص أخبارهم : فمن دراستي لمغامراتهم ، وأعمالهم وطباعهم يمكن المرء بسهولة أن يحكم على ملامحهم ولون بشرتهم وطول قامتهم ، بفلسفة سليمة .

فسأله الحلاق : وماذا كانت قامة المارد مورجانت في نظرك ياسيد دون كيخوته ؟
 فأجاب دون كيخوته : فيما يتعلّق بالمردة اختلفت الآراء ، فالبعض ينكر وجودهم ،
 والبعض الآخر يؤكّده . ومع ذلك فإن الكتاب المقدّس ، وهو لا يمكن أن يخطئ ، في أي
 شيء ، يبرهن على وجودهم ، لأنّه يروي لنا تاريخ جولييات الفلسطينيين ، الذي كان طوله
 سبع أذرع ونصفاً ، وهذا طول مفرط جداً . وفي صقلية عشر على عظام سيقان وأكتاف طويلة
 جداً ، وطولها يبرهن على أن من كانت لهم هذه العظام كانوا طوالاً كالأبراج العالية ، كما
 تدل الهندسة على ذلك . وعلى الرغم من كل هذا ، فإنني لأستطيع أن أقرّر بالدقة ماذا كانت
 قامة مورجانت ، وإن كنت لأظن أنّه كان رجلاً طويلاً ، وما يحملني على هذا الظن هو أنّه
 في تفاصيل مغامراته ورد مراراً أنّه كان ينام تحت سقف ، ومادامت قد وجدت سقوف
 قادرة على أن تظله ، فمن البين أنّه لم يكن ذا قامة مفرطة الطول .

فقال القسيس : وقد راعه سماع هذه الحماقات الكبيرة : « أنت على صواب » ، ثمّ
 سأله عن رأيه في شكل رينالدوس دي مونتالبان ، وأورلندو ، وسائر أكفأ فرنسا ، ماداموا
 جميعاً قد كانوا فرساناً جوالاً .

فقال دون كيخوته : أمّا عن رينالدوس دي مونتالبان فإنني أجرو أن أقدر أنّ وجهه كان
 واسعاً ، وبشرته بيضاء وقرمزية ، وعيونه في حركة دائمة ، وكان سهل الإثارة والغضب ،
 صديقاً للصوص ولكل أنواع الضالين . أمّا أورلندو أو روتولندو أو رولدان (لأنّه تطلق عليه
 هذه الأسماء الثلاثة في القصص) فإنني أشهد أنّه كان متوسط القامة ، عريض المنكبين ،
 أحذب قليلاً ، وأسمر الوجه ، أشعث اللحية ، أشعر البدن ، نظرتة متوعة ، وكلامه موجز ،
 ومع ذلك كان مؤدّباً مهذباً .

فقال القسيس : إذا لم يكن أورلندو أجمل مما رسمته ، فإنني لأدهش بعد في كون
 أنجليكا الجميلة أهملته وفضّلت عليه لطف ورقة وسماحة وجه ذلك المغربي الشاب الذي لم
 يكن عليه سوى زغب خفيف ، والتي أسلمت نفسها له : لقد كانت عاقلة إذن في تفضيلها
 للمدوّر الرقيق على أورلندو الخشن الغليظ .

فقال دون كيخوته : أنجليكا هذه ، ياسيدي القسيس ، كانت فاجرة لعوباً ، طائشة
 ذات نزوات ، أحدثت في العالم ضجة بوقاحتها بقدر ما أحدثت بجمالها : لقد ترقّعت عن
 آلاف السادة ، وآلاف الرجال الشجعان العاقلين ، من أجل غلام صغير أمد ، دون أي ثروة
 ودون أي مؤهل غير الإعتراف بالجميل لصاحبه . وذلك الذي طالما تنغني بجمالها ، وهو
 أريوستو الشهير ، ترقّع عن ذكر آخر مغامراتها ، ولا شك في أنّها لم تكن مغامرات شريفة

جداً ، بعد أن اختارها اختياراً غير لائق ، ثم تركها بعد أن قال : « برباب أحسن ربّما يذكر
غيري كيف تلقت صولجان قطاي » . لاشك في أن هذه كانت نبوءة (لأن الشعراء يسمّون
Vates متنبّؤون) لأنه بعد أريوستو ، جاء شاعر أندلسي شهير^(١) وتغنّى « بدموع »
انجليكا ، وشاعر اسباني (قشتالي) آخر يمكن أن يسمّى « الأوحّد »^(٢) مجدّ جمالها .
فقال الحلاق : قل لي ياسيد دون كيخوته ، بين كل هؤلاء الشعراء الذين تغنّوا
بأنجليكا ، ألم يوجد أحد ألف هجاء فيها ؟

فقال دون كيخوته : أعتقد لو أنه كان ساكرينته وأورلندو شاعرين ، لما قصرّا في نظم
الهجاء ، لأنه من عادة العاشقين الذين لم تحفل بهم معشوقاتهم ، الحقيفيات أو
المفترضات ، واللواتي أصبحن سيّدات أفكارهن ، أن ينتقموا منهن بالأهاجي ، وهو انتقام
والحق يقال لا يليق بقلب كريم . وعلى كل حال فإنه لم يبلغ علمي حتّى الآن أنه نشر ضد
أنجليكا الجميلة أي شعر يهجوها فيه .

فصاح القسيس : « معجزة »^١

وفي الوقت نفسه سمعت بنت الأخت والخادمة ، وكانت قد غادرتا الجماعة ، وهما
تحدثان ضجة كبيرة في الفناء ، فجروا كلّهم الى هناك .

(١) هويتلوييس برهونادي سوتو (١٥٤٨ - ١٥٩٥) « مؤلف القسم الأول من انجليكا » .

(٢) لويه دي بيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) مؤلف « جمال أنخلكا » .

الفصل الثاني

في النزاع الكبير الذي جرى بين سنشو پنثا وبنت أخت
دون كيخوته وخادمتها، وحوادث أخرى

ويروي التاريخ أن الضجة التي سمعها دون كيخوته والقسيس والحلاق صدرت عن بنت
الأخت والخادمة . وذلك أن سنشو پنثا قرع الباب وأراد رؤية مولاه ، فرفضنا أن تفتحا له ،
وقالت الخادمة : « عماذا يبحث عنه هذا المتشرد في هذا البيت ؟ عد الى بيتك يا أخي ،
ألسنت أنت قد جئت لإفساد سيدنا ، وجعله يجوب الآفاق ؟ » .

فأجاب سنشو : ياخادمة الشيطان! الفاسق ، المخدوع ، الذي يساق الى الآفاق هو
أنا ، لا سيدك ، إنه هو الذي جاب بي الآفاق . أنت تخطئين في نصف الحساب ، فهو الذي
انتزعني من بيتي بكلمات معسولة ، واعدأ إيتاي بجزيرة لازلت في انتظارها .
فقال بنت الأخت : خفتك جزر فاسدة يا سنشو اللعين! ما هي الجزر^(١) ؟ هل هي شيء
يؤكل ، أيها الشره الأكل ؟

فأجاب سنشو : ليست شيئاً يؤكل ، بل يحكم ، وأحسن من أربع مدن ، وخير من
أربعة عمديات .

فقال الخادمة : ومع كل هذا فلن تدخل هنا ، يا صندوق الخبائث ، وكيس الشرور ،
اذهب واحكم بيتك ، واحرث حقولك ، وكف عن التطلع الى جزر أو جزيرات .
وابتهج الحلاق والقسيس كثيراً من هذا النزاع ، لكن دون كيخوته ، وقد خاف أن
تفلت من سنشو سداجة تضر به ، ناداه : وهكذا اضطرت السيدتان بالسماح له بالدخول .
وودع الحلاق والقسيس دون كيخوته ، يائسين من شفائه ، وقد رأياه لا يزال متشبهاً بأوهامه
وفروسيته التعيسة المنحوسة .

(١) كان دون كيخوته يستعمل كلمة *insula* غير الشائمة بدلاً من *isla* الشائمة ، ولهذا لم تفهم بنت الأخت المقصود من هذه الكلمة .
وسنشو نفسه لم تكن لديه فكرة واضحة عنها .

قال القسيس للحلاق : سترى يازميلي أنه في اللحظة التي نكون أبعد مانكون عن التفكير في الأمر ، سيعود نبيلنا (دون كيخوته) الى الجولان .

فأجاب الحلاق : ليس عندي في هذا أي شك ، لكنني لا أدهش من جنون المولى (دون كيخوته) بقدر ما أدهش من سذاجة السائس (سنشو) ، الذي يعتقد اعتقاداً جازماً أنه سيظفر يوماً بجزيرة ، بحيث لا يستطيع أي شيء في الدنيا أن ينتزع من رأسه هذه الفكرة .

فقال القسيس : شفاهما الله . ولتبق متفرجين : وسنرى ماذا سيحدث عن هذا المزيج من الحماقات بين مثل هذا الفارس ومثل هذا السائس ، لكنهما قدما من قالب واحد ، وحماقات المولى بغير حماقات الخادم لا تساوي فلساً .

فقال الحلاق : أنت على حق ، وبودي لو عرفت أي حديث يجري بينهما الآن .
فأجاب القسيس : أنا واثق أن بنت الأخت والخادمة تستطيعان أن تنبأنا به ، إنهما شديداً الاستطلاع بحيث لا بد أنهما تصغيان .

وفي تلك الأثناء كان دون كيخوته قد أغلق على نفسه في غرفته ومعه سنشو ، فلما وجدا نفسيهما وحيدين قال أولهما : «إني حزين جداً يا صاحبي سنشو ، إذ أراك تقول وتكرّر أنني أنا الذي انتزعتك من كوخك لأنك تعلم جيداً أنني لم أبق في بيتي . لقد خرجنا معاً ، وكنا معاً ، وسافرنا معاً ، وكان حظنا واحداً ، ومصيرنا واحداً ، فإن كنت طرت مرة ، فقد كسرت أنا وطحت أكثر من مائة مرة » ففي هذا قد شأوتك وزدت عليك .

فأجاب سنشو : هكذا قضى العقل ، لأنك تقول أن حوادث النحس تصيب الفرسان الجوّالة أكثر مما تصيب سؤاسهم .

فأجاب دون كيخوته : أنت تخطئ يا سنشو ، لأن المثل يقول... Quando Caput dolet... فقال سنشو : أنا لا أفهم لغة غير لغتي .

فأجاب دون كيخوته : معناه أنه حين يتألم الرأس ، تتألم سائر الأعضاء : فما دمت أنا مولاك وسيّدك ، فأنا الرأس ، وأنت أحد أعضائي ، لأنك خادمي ، ومعنى هذا فإن الداء الذي يمسني أو يمسني لابد أن يمسك ، وداؤك يمسني أنا أيضاً .

فأجاب سنشو : يجب أن يكون الأمر هكذا : لكن بينما طيروني كعضو ، كان رأسي^(١) في الجانب الآخر من السور ينظر إليّ وأنا أطيّر في الهواء دون أن يشعر هذا الرأس بأي

(١) أي دون كيخوته وقد كان يتطلّع من فوق السور على سائسه وهو يطير في الهواء ، راجع الجزء الأول ص ١٥٤ .

ألم ، ومع ذلك فإن كان من الضروري أن تشعر الأعضاء بالألم الذي يشعر به الرأس ، فمن الضروري أن يلزم الرأس بالشعور بألم الأعضاء .

فقال دون كيخوته : أنت تريد أن تقول ، فيما أحسب ، أنني لم أتألم حين كنت تطير ؟ لا تقل هذا ولا يخطر ببالك ، لأنني أقول لك إن روعي كانت تتألم أكثر من جسمي . لكن لندع هذا الآن ، وسيكون لدينا كل الوقت للعودة الى هذا الموضوع . قل لي ، يا صاحبي سنشو ، ماذا يقال عني في القرية ؟ وأي فكرة كونها عني عامة الناس والنبلاء والفرسان ؟ ماذا يقال عن بسالتي ، وأعمالي ، وآدائي ؟ وماذا يظن بالقرار الذي اتخذته وهو بعث طريقة الفروسية التي نسيت ؟ وبالجملة فيا سنشو أريد منك أن تقول لي كل ماوصل الى سمعك عن هذا الموضوع دون أن تنقص شيئاً حسناً ، أو تنقص شيئاً قبيحاً . إن الأتباع المخلصين ملزمون بأن يذكروا لسادتهم الحقيقة العارية كلها ، دون أن يزيد اليها التملق شيئاً ، أو ينقص منها الاحترام شيئاً . وأريد لك أن تعرف يا سنشو أنه لو بلغت الحقيقة هكذا الى مسامع الأمراء ، دون تزويقات التملق ، لكانت عصور أخرى غير عصرنا قد نعتت بأنها عصور الحديد ، ولكن عصرنا جديراً بأن يسمى العصر الذهبي بالنسبة الى العصور التي سبقت . تذكر هذا الرأي يا سنشو ، حتى تخبرني بحكمة وطيب نية الخبر اليقين عما سألتك عنه .

فاجاب سنشو : سأفعل هذا عن طيب خاطر ، بشرط ألا تغضب مما سأقوله ، مادمت تريد مني أن أخبرك بصراحة عارية ، دون أن ألبسها أية ملابس غير تلك التي كانت عليها لما بلغتني .

فقال دون كيخوته : لن أغضب أبداً ، ولك مطلق الحرية في الكلام بغير خوف . فقال سنشو : أقول لك إذن أولاً إن الشعب ينظر اليك على أنك مجنون كبير ، وإنني لست أقل منك جنوناً ، والنبلاء يقولون أنك ، وقد خرجت عن حدود صفتك ، قد منحت نفسك لقب «دون» واغتصبت لقب فارس ، مع أنك لاتملك غير أربع أقدام من الكروم وقصبتين من الأرض مع أكواخ من خلف ومن قدام . والفرسان يقولون أنهم لا ينظرون بعين الرضا الى النبلاء وهم يريدون أن يسووا أنفسهم بهم ، وخصوصاً النبلاء السواس^(١) الذين يدهنون أحذيتهم ويرفون جواربهم السود بحرير أخضر .

فقال دون كيخوته : هذا لا يمسنني ، فإنني دائماً ألبس لباساً لامعاً ، بغير ترقيع ، صحيح أن ملابسني قد ترقع أحياناً ، لكن بالسلاح لا بالزمان .

(١) يطلق هذا على النبلاء (هيدالجوس) الذين يحاربون وهم مشاة ويلبسون تروساً بيضاً ، ولا يمكنهم ، رغم أعمالهم ، أن يصبحوا فرساناً .

فقال سنشو : أما فيما يتعلق ببسالتك ، وأدائك ، وأعمالك والخطة التي رسمتها فقد اختلفت الآراء : بعضهم يقولون أنك مجنون ، والبعض الآخر يعتقدون أنك باسل ، وبخك بائس تعس الحظ ، وفريق ثالث يجده في أن واحد مؤذياً ووقحاً ، وفي هذا الموضوع يذهبون في نهشك كل مذهب بحيث لا يدعون لك ولا لي أنا أي عظم واحد سليم .

فقال دون كيخوته : تأمل يا سنشو : في كل مكان تتجلى فيه الفضيلة بدرجة بارزة ، تضطهد دائماً . ونادر جداً بل ربما ولا واحد من الناس الكبار في العصور الماضية لم يستطع أن ينجو من سهام الوشاية والحسد : فيوليوس قيصر ، ذلك الشجاع ، العاقل ، والقائد المحنك ، أتهم بالطموح والتبذخ بإفراط في ملابسه وطريقة حياته . والاسكندر ، الذي استحق بجليل أعماله لقب « الأكبر » ، لم ينج من الطعن عليه بأنه سكير . وقالوا عن هرقل ، صاحب الأعمال الاثنى عشر^(١) ، أنه كان شهوانياً فاسقاً فاجراً ، وعن دون جلاور ، أخي أماديس الغالي ، أنه كان كثير العدالة ، وعن أخيه أنه كان دائم البكاء . وهكذا يأسنشو بين كل هذه المطاعن التي وجهت الى الأخيار ، يمكن المطاعن التي وجهت الى أن تمر بسلام ، اللهم إلا إذا كان هناك أكثر مما قلت .

فصاح سنشو : يا جسد أبي ، تلك هي العقدة .

- أهنأك شيء آخر ؟

- بقي أن يسلم الذيل : إن ماقلته ليس إلا فطائر وحلوى ، لكن إذا أردت أن تعرف كل المطاعن التي تشاع عنك ، فإني آتيك هنا بشخص يذكرها لك كلها دون أن ينقص منها شيئاً ، فمساء أمس وصل ابن برتلميه كرسكو ، الذي تخرج من شلمنقة ، وحصل على إجازة فذهبت للترحيب به وتهنئته بسلامة الوصول ، فقال لي أن تاريخك شاع في كل الدنيا تحت عنوان « البارع النبيل دون كيخوته دلا منتشا » وقال لي أيضاً أنهم وصفوني أنا الآخر فيه باسمي « سنشو بنتا » وكذلك السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وأمور أخرى كثيرة جرت بيننا ، نحن وحدنا ، مما جعلني أرسم ألفاً من علامات الصليب ، لأنني لا أستطيع أن أرسم كيف استطاع ذلك المؤرخ أن يعرفها .

(١) هي أشهر أعمال هرقل وهي : خنق أسد نيميا ، قتل الخنزير البري في أرومته وحية لرنأ ، ونفذ بسهامه في طيور بحيرة استومفا لا ، قهر ثور اقريطش واقراس ديوميد ، اختطف ثيران جريون وتفاحات الهسبريدس الذهبية ، لحق بالأروية ذات الأرجل النحاسية ، نظف اسطبلات أوجياس ، هزم الأمزونات وجر كيريوس خارج العالم السفلي ، خلص هسيون من وحش بحري ، فصل جبال كلفية وجبال أورلا ، التي كانت في الأصل متصلة جبلاً واحداً ، وتكون ما عرف فيما بعد باسم أعمدة هرقل (جبل طارق) . قتل القنطور نسوس الذي أراد اختطاف ديجانير زوجته ، حل وفاق بروميثيوس الذي كان مخلولاً ، على جبل القوقاز .

فقال دون كيخوته : أوكد لك يا سنشو أن هذا المؤرخ لا بد أنه ساحر حكيم : ومثل هؤلاء لا يخفى عليهم شيء .

فقال سنشو : وكيف يكون ساحراً وحكيماً ، إذا كان اسمه ، فيما يقولون سمسون كرسكر ، سيدي حامد برنجان ؟

فقال دون كيخوته : هذا اسم مغربي .

فقال سنشو : لا بد أنه كذلك ، لأنني سمعت مراراً من يقول أن المغاربة يحبون البرنجان (الباذنجان) .

فقال دون كيخوته : أنت مخطئ ، فيما يتعلّق باسم « سيّد » لأن معناه بالعربية : « مولى » .

فقال سنشو : هذا جائز ، لكن إذا رغبت في أن آتي به هناك ، فإني أذهب إليه حالاً .

فقال دون كيخوته : هذا يسرّني جداً يا صاحبي ، إنّ ما قلته لي يجعلني في لهفة حارة بالغة ، ولن أستطيع أن أستسيغ لقمة قبل أن أعرف كل شيء بدقة .

فقال سنشو : سأذهب حالاً . ثم ترك سيّده ، وذهب للبحث عن صاحب الإجازة ، ثم عاد به في خلال لحظات ، وقام بين ثلاثتهم حديث شائق لطيف .

الفصل الثالث

في الحديث الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو پنثا
وصاحب الإجازة سمسون كرسكو

بقي دون كيخوته مفكراً وهو ينتظر صاحب الإجازة ، وقد أمل في أن يعرف منه أخبار نفسه ، مستمدة من كتاب كما قال له سنشو . ولم يستطع أن يقنع نفسه بوجود مثل هذا التاريخ (القصة) لأن سيفه كان لايزال مضرباً بدماء الأعداء الذين قتلهم ، ومع ذلك طبعت أعماله الفروسية العظيمة . فخيّل إليه أن أحد السحرة ، صديقاً أو عدواً ، قد أجرى هذا الطبع بفن السحر ، فإن كان قد فعله كصديق فلا بد أن ذلك كان من أجل تمجيد أعماله ، ورفعها فوق أعظم أعمال الفرسان الجوّالة ، وإن كان عدواً ، فلا بد أنه حط من شأنها ، ووضعها تحت أخط أعمال أهزل وأتفه سائس رويت أعماله . ومع ذلك فإن وجد مثل هذا التاريخ (القصة) فلا بد أنه سام ، رفيع ، ممتاز ، رائع ، صحيح ، لأنه تاريخ فارس جوال . فبعثت هذه الفكرة السلوى في نفسه ، لكنه تأسّف من ناحية أخرى حين رأى أن مؤلف تاريخه رجل مغربي ، كما يدل على ذلك اسم «سيد» ، لأنه كان يعتقد أنه لايمكن أن ينتظر من مثله أن يقول الحقيقة ، لأنهم جميعاً كذّابون ، خدّاعون ، مزيفون . وخشي أيضاً أن يعالج المؤلف غرامياته بقليل من التحفظ ، وفي هذه إساءة إلى شرف سيده دلشيا دل توبوسو ، وكان يودّ منه أن يعلن عن إخلاصها ، ومحافظتها على كرامتها بترفعها عن الملكات والامبراطوريات ، والأوانس من كل مرتبة ، وكل مكانة ، ضابطة حركات الطبيعة . وهكذا ضل خاطره بين الأفكار ، حينما وصل سنشو وكروسكو ، فرحب به دون كيخوته بأدب جم . وصاحب الإجازة هذا ، وإن كان اسمه سمسون «شمشون» فإنه لم يكن فارغ القامة ، كان دحداحاً دقيقاً ، شاحباً ، لكنه ممتلئ الروح والحيوية ، وكانت سنّه أربعاً وعشرين سنة تقريباً ، ووجهه مستديراً ، وأنفه أفتس وفمه واسعاً ، وكل هذه العلامات تدل على أنه ماكر ساحر خبيث ، كما كشف عن ذلك حين أقبل على دون كيخوته ، وجثا على ركبتيه وقال :

سيدي دون كيخوته إنذن لي بتقبيل يدي عظمتك ، لأنه بحق زي القديس بطرس الذي أحمله ، وإن كنت لم ألتق بعد غير الترتيبات الأربعة الأولى ، أقسم بأن سعادتك من أشهر الفرسان الجوّالة الذين وجدوا على ظهر الأرض وسيوجدون . والله يحفظ من الشر سيدي حامد بن الأيل ، الذي أعطانا تاريخ وقائعك العظيمة ، والمستطلع الذي عمل على ترجمته من العربية الى الاسبانية ابتغاء التعليم العام للشعوب

فأنهضه دون كيخوته وقال له : صحيح اذن أنه كتاب تاريخي ، وأن المؤلف عربي

مغربي ؟

فأجاب سمسون : نعم يا سيدي ، وأنا متأكد أنه في اللحظة التي أكلّمك فيها الآن يوجد اثنتا عشرة ألف نسخة مطبوعة من هذا الكتاب ، في البرتغال ، وبرشلونة ، وبلنسية ، وهناك من يؤكّد أنه يطبع أيضاً في أنفوس . وفي رأيي أنه لن توجد أمة لن ترجمه الى لغتها .

فقال دون كيخوته : من الأمور التي ينبغي أن تعطى للرجل الفاضل الممتاز أعظم الرضا أن يكون محمود السمعة بين أقرانه الذين يطبعون وينشرون تاريخه ، وأقول محمود السمعة ، لأن العكس أسوأ من الموت .

فقال كرسكو : من الأمور التي ينبغي أن تعطى للرجل الفاضل فيجب أن ينال سعادتك قصب السبق على كل الفرسان الجوّالة ، لأن المسلم في لغته والمسيحي في لغته قد أرادا كلاهما أن يصوّر بسالتك تصويراً حاداً دقيقاً ، وأن يصف شجاعتك الكبرى في الأخطار ، وصبرك في الشدائد ، وتسليمك في البلايا والمحن ، وأمانتك ، وعقّتك في غراميات أفلاطونية مع السيدة دونيا دلثنيا دل توبوسو .

فقاطعه سنشو قائلاً : لم أسمع أبداً لقب «دونيا» يطلق على السيّدّة دلثنيا وإنما كانت تسمّى فقط السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وهكذا يخلط التاريخ في هذه النقطة .

فقال كرسكو : هذا الاعتراض ليس كبير الأهمية .

فقال دون كيخوته : كلا ، قطعاً ، لكن قل لي ، ياسيدي صاحب الإجازة ، أي أعمال

يمجد أكثر من غيره في هذا التاريخ ؟

فأجاب صاحب الإجازة : لما كانت الأذواق في هذه المسألة متفاوتة فإن الآراء أيضاً مختلفة : فالبعض يفضل مغامرة طواحين الهواء ، التي حسبها بريارات ومردة ، والبعض الآخر يفضل مغامرات طواحين الكبس ، وفريق ثالث ، وصف الجيشين اللذين صارا قطيعين من الضأن ، وهذا يفضل مغامرة الميت الذي كانوا يحملونه ليدفن في أشقوبية ، وذلك يعطي

الجائزة الأولى لتحرير المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وثالث يعطيها لقصة الماردين البندكتيين وصراعك مع البشكونشي الباسل .

فقاطعه سنشو قائلاً : خبرني ، ياسيدي صاحب الإجازة ، هل لم تذكر مغامرة البقالين الينجواسيين ، حينما لقي روئيناتته الطيب نصيبه من الرفسات لما حاول الاستمتاع ؟ فقال كرسكو : إن المؤرخ العلامة لم ينس أي تفصيلة في كتابه . بل تذكر كل شيء نقطة بنقطة ، حتى التطويحات التي تقاذفت سنشو المسكين في الملاءة .

فقال سنشو : لم يكن ذلك في الملاءة ، بل في الهواء ، وأكثر مما أردت . فقال دون كيخوته : أظن أنه لا يوجد تاريخ إنساني ليس فيه بلايا ، خصوصاً تاريخ حياة الفرسان الجوّالة ، إذ لا يمكن أن يكون الانتصار اللامع حليفهم باستمرار . فاستأنف صاحب الإجازة قائلاً : وعلى الرغم من هذا فإن بعض الذين قرأوا هذا الكتاب يقولون أنهم سيكونون أكثر ارتياحاً لو أن المؤلفين أغفلوا ذكر ضربات العصا العديدة التي انهالت على السيد دون كيخوته في لقاءات مختلفة .

فقال سنشو : هذا يدخل في باب الحقيقة التاريخية . فقال دون كيخوته : كان في وسعهم أن يسكتوا عنها ، على الأقل من باب الإنصاف ، لأن المرء ليس مرغماً على ذكر الأفعال التي لا تتغير ولا تبدل في حقيقة الوقائع ، وهكذا يمكن المرء أن يعفي نفسه من تعريف الناس بها ، خصوصاً إذا كانت تميل إلى جعل بطل القصة موضوع احتقار . وإني لأقسم لكما أن اينوس لم يكن من التقوى بالقدر الذي يزعمه فرجيوس ، وأن أوليس لم يكن من الفطنة كما يصوّره هوميروس .

فقال كرسكو : هذا صحيح ، لكن هناك فارق هائل بين أن يكتب بوصفه شاعراً وبوصفه مؤرخاً ، إذ الشاعر يمكنه أن يروي أو يتغنى بالأشياء لا كما حدثت وكانت بالفعل ، بل كما كان ينبغي أن تكون ، أما المؤلف فيجب عليه أن يوردها ، لا بالكمال الذي كان واجباً أن تكون عليه ، لكن كما كانت وحدثت بالفعل تماماً دون أن يزيد أو ينقص شيئاً من حقيقة الوقائع .

فقال سنشو : إذن إن كان ذلك السيد المغربي ملزماً بقول الحقيقة فمن العدل أن توجد بين الضربات بالعصا التي انهالت على مولاي - الضربات التي تلقّيتها أنا : لأن أكتافه لم تحك مرة دون أن يطحن جسمي أنا كله ، وليس في هذا ما يثير العجب ، لأن الأعضاء - كما يقول مولاي - يجب أن تشارك في ألم الرأس .

فقال دون كيخوته : أنت هازل سخيف ياسنشو ، وإني أرى جيداً أنك لاتعوزك الذاكرة حين تريد .

فقال السانس : وحين أود أن أنسى الرفسات التي أصابوني بها فإن العلامات التي لاتزال على أضلاعي لاتمكنني من ذلك .

فقال دون كيخوته محتداً : اسكت يا سنشو ، لا تقاطع السيد صاحب الإجازة ، وإنني أرجوه أن يتابع حكاية ما يخصني في هذا التاريخ .

فقال سنشو : وعني أنا ماذا يقال ؟ إذ يؤكّدون أنني أحد «الأشخاص» الرئيسيين .

فقال كرسكو : قل اذن «الأشخاص» يا صاحبي سنشو .

فقال سنشو : أوه! وهذا قاشر ألفاظ هو الآخر ، ولكن لنستمر ، وإلا لم نفرغ أبداً .

فقال كرسكو : ليعاقبني الله ياسنشو إذا لم تكن أنت ثاني شخصية في هذا التاريخ بل أن بعضهم يقول إنه يفضل أن يسمعك تتكلم على أن يسمع كلام أبرع من يذكرهم هذا التاريخ) ومع ذلك فإن آخرين يرون أنك لابد ساذج الاعتقاد جداً بحيث تتخيل أن حكم الجزيرة التي وعدك بها السيد دون كيخوته هنا يمكن أن يصبح أمراً فعلياً .

فقال دون كيخوته : لا يزال وراء الجبل شمس ، وحين تتقدّم السن لسنشو ، وبالتجارب التي سيمر بها خلال السنين ، سيصبح أقدر منه الآن على تولّي شؤون الحكم .

فقال سنشو : يا لله يا مولاي! إن الجزيرة التي لا أستطيع حكمها وأنا في سني هذه ، لن يكون حكمي لها أحسن إذا بلغت سن نوح ، ولكن المصيبة هي أن هذه الجزيرة توجد حيث لا أدري ، لأنّي لأشعر بعدم كفايتي حكمها .

فقال دون كيخوته : توكل على الله ، وسيسير كل شيء سيراً حسناً ، بل ربّما أحسن مما تتصوّر ، لأن الورقة لا تسقط من الشجرة بدون إرادة الله .

فقال سمسون : هذا صحيح ، وإذا أراد الله ، حصل سنشو على آلاف من الجزر يتولّى حكمها ، وبالأحرى على جزيرة واحدة .

فقال سنشو : لقد رأيت حكّاماً لا يرتفعون في نظري الى أعلى من كعب حذائي ، ومع ذلك تعطى لهم الأولويات ، ويقدم لهم الطعام في أطباق من الفضة .

فقال سمسون : هؤلاء ليسوا حكّام جزر ، بل وظائفهم أسهل ، لأن الذين يحكمون الجزر يجب على الأقل أن يعرفوا الغرامطيقا (النحو) .

فأجاب سنشو : أمّا «الغرامة» فأعرفها وأستطيع التخلص منها ، أمّا «طيقا» فلا أعرف ماذا تقصد بها فأدعها وشأنها لكن لا يهم ، إنّي أدع هذا الحكم بين يدي الله ، وهو يعرف أين يضعني في المكان الذي أكون فيه مفيداً ، وأقول لك يا سيدي صاحب الإجازة سمسون كرسكو إنّي معتبط جداً لأن مؤلف تاريخنا هذا قد تكلم عني بحيث لا يضايق القارئ ما يقال

عتي : لأنه ، قسماً بشرف السانس ، لو قال عتي أشياء لاتلائم مسيحياً عتيقاً مثلي ، لصحت صيحات قوية يسمعه حتى الصم .

فقال سمسون : سيكون هذا معناه صنع معجزات .

فقال سنشو : معجزات أو لا ، على كل امرئ ، أن يحاسب وهو يتكلم أو يكتب عن الناس ، ولا يكون كحاطب ليل ، يلقي بكل ما يخطر برأسه .

فقال صاحب الإجازة : من عيوب هذا التاريخ أن المؤلف أولج فيه حكاية عنوانها : المستطلع الفاسد الرأي ، لا لأنها في ذاتها رديئة ولا أسينت صياغتها ، لكن لا صلة لها بالموضوع ، ولا علاقتها بتاريخ السيد دون كيخوته .

فقال سنشو : أراهن أن ابن الكلب هذا خلط الكرب باللفت .

وقال دون كيخوته : حسبما أرى الآن فإن مؤرخي ليس حكيماً ، بل هو ثرثار جاهل حشر نفسه في زمرة الكتاب بدون عقل ولا ترتيب ، لقد صنع صنعة أوربنيخا ، رسام أبذة^(١) الذي أجاب حين سئل عم يرسم فقال : « ما يخرج من فرشاتي » . فمرة يكون ديكاً سبى الرسم بحيث كان من الضروري أن يكتب تحته بالخط العريض : « هذا ديك » . وهكذا الشأن في تاريخي لابد أنه كذلك ، فهو يحتاج الى شرح ليفهم .

فقال سمسون : أنت على خطأ . إنه من الواضح بحيث لا يجد المرء فيه أية صعوبة ، والأطفال يتصفحونه ، والشباب يقرأونه ، والرجال يفهمونه ، والشيوخ يمجّدونه ، وبالجمله أنه تصفح ، وقرئ ، وحفظه كثير من الناس عن ظهر قلب ، الى درجة أنه لا يكاد المرء يشاهد فرساً هزياً حتى يقول : « هذا هو روئيناته » .

لكن أكثر الناس عكوفاً على قراءته هم الوصفاء : فلا يوجد غرفة استقبال لسيد من السادة لا توجد فيها نسخة من « دون كيخوته » ، والبعض يأخذون الكتاب حالما يفرغ منه الآخرون ، هؤلاء يستولون عليه ، وأولئك يطلبونه ، وبالجمله فإن هذا التاريخ من أمتع وأشرق التواريخ التي يمكن قراءتها ، خصوصاً ولا توجد فيه كلمة نابية واحدة ، ولا فكرة لا يقرها كاثوليكي صحيح الإيمان .

فقال دون كيخوته : والكتابة بغير ذلك سيكون معناها كتابة أكاذيب لاحقائق ، والمؤرخون الذين يكذبون يستحقون أن يحرقوا مثل مزيفي النقود . لكنني لأدري ماذا دفع المؤلف لإدراج حكايات وقصص غريبة فيها وقد كانت لديه مادة وفيرة جداً في مغامراتي ،

(١) عاصمة إقليم Jaen ، بينها وبين بياسة سبعة أميال .

لا بد أنه تذكر الدور الذي يقول : « من التبن والدريس ، الخ » ، ولو أنه لم ينشر غير أفكاره وزفراتي ودموعي وحسن مقاصدي ومغامراتي لكان في ذلك ما يؤلف مجلداً أضخم وأطول من كل مؤلفات توستادو^(١) . ولتأليف تاريخ ياسيدي صاحب الإجازة أو أي كتاب آخر أياً كان ، لا بد من ذكاء كبير وعقل وافر ، ولكن معالجة الموضوعات اللطيفة أو المختلفة هي من شأن العقول الكبيرة . وأصعب شخصية في الملهاة « الكوميديا » هي شخصية المهرج .

وبجب ألا يكون المرء بسيطاً من أجل أن يكون في مقدوره أن يظهر بهذا المنظر . إن التاريخ أمر مقدس ، لأنه يجب أن يكون صحيحاً ، إذ حيث توجد الحقيقة يوجد الله ، لأنه هو الحقيقة نفسها . ومع ذلك يوجد قوم يؤلفون وينشرون كتباً كما تصنع الفطائر .

فقال صاحب الإجازة : لا يوجد كتاب مهما تكن رداءته لا يحتوي على شيء حسن . فقال دون كيخوته : لست أشك في هذا ، ومع ذلك فقد يحدث مراراً أن شخصاً ينال بمؤلفاته شهرة يعتقد أنه يستحقها عن جدارة ثم يفقدها كلها ، أو على الأقل يراها تتضاءل كثيراً حين يسلم كتاباته إلى المطبعة .

فقال سمسون : السبب في هذا أنه كان من الممكن فحص الكتب المطبوعة بتؤدة وروية وإمعان ، فمن الأسهل أن يكتشف ما فيها من العيوب أكثر مما يتيسر ذلك حين تسمع وشخص يقرأها ، ويمكن تتف ريشها بقوة تتزايد مع تزايد شهرة الذين ألفوها . إن الناس المشهورين بعبقرياتهم : الشعراء الكبار ، والمؤرخين العظام ، يحسداهم دائماً ، أو على الأقل في الغالب ، أولئك الذين لم ينتجوا شيئاً وليس لهم شغل غير نقد مؤلفات الغير .

فقال دون كيخوته : ليس في هذا ما يشير الدهشة ، فمثلاً عندنا كثير من اللاهوتيين العاجزين عن اسماع أصواتهم على المنابر ، لكنهم بارعون في الكشف عن عيوب من يخطبون .

فقال صاحب الإجازة : أنت على صواب ياسيد دون كيخوته ، لكنني كنت أود أن يكون هؤلاء الناقدون أقل قسوة وتزمتاً ، وألا يتوقفوا عند البقع التي لا يمكن رؤيتها في الشمس الساطعة التي يرونها أمام عيونهم ، وأن يتذكروا أنه إذا كان هوميروس العظيم تغفل عينه أحياناً فكم سهر الليالي في تأليف كتابه « الألياذة » ، ولربما كانت هذه البقع التي تظللها شبيهة بعلامات الرجاء التي كثيراً ما تزيد في روعة أعماله . ولهذا أقول أن من يطبع

(١) كاتب مطيل ألف أربعة وعشرين مجلداً في حجم النصف ، طبعت في البندقية بمنايا أنطونيو بيرث .

كتابه يستهدف الى خطر أكبر ، وهو يعلم أن من المستحيل ، بل من رابع المستحيلات أن يؤلف كتاباً يرضى عنه جميع القراء .

فقال دون كيخوته : إن من عالج مغامراتي لاشك أنه أرضى قليلاً من الناس ؟ فقال صاحب الإجازة : هذا ما يخدمك : لأن عدد المجانين لما كان لانهاية له ، فذلك عدد أولئك الذين قرأوه بلذة واستمتع . غير أن بعضهم مع ذلك يتهّم المؤلف بفقدان الذاكرة أو بالخبث ، لأنه مثلاً ينسى أن يذكر لنا من كان سارق حمار سنشو ، إنه لا يذكره أبداً ، ولكننا نستنتج فقط أن الحمار سرق ، ثم بعد ذلك بمدة قليلة نشاهد سنشو يركب نفس الحمار ، دون أن يعرف كيف حدث هذا^(١) . كذلك لا يذكر لنا المؤلف ماذا فعل سنشو بالمائة اسكودو التي وجدها في الحقيبة لما كان في أعماق سيرامورينا (جبل الشارات) ، ولم يعد لذكرها أبداً ، ومع ذلك يود المرء أن يعرف ماذا فعل بها ، وفيماذا أنفقها ، هذا نقص في الكتاب .

فقال سنشو بهذه المناسبة : ياسيد سمسون ، أنا لست في حال الآن تمكّني من الإجابة عليك في هذا الموضوع ، إذ أشعر بتوعك في المعدة إن لم أعالجه بشريتين من النبيذ المعتق فإنه سيسمرني على شوك القديسة لوقيا . أنا ذاهب الى بيتي ، حيث تنتظرني امرأتي ، وحين أفرغ من طعامي سأعود لإرضاء سيادتك وكل الناس ، فيما يتعلق بضياح الحمار واستخدام المائة اسكودو .

وخرج دون أن يزيد شيئاً أو ينتظر جواباً . والتمس دون كيخوته من صاحب الإجازة أن يشاركه غداء الرديء ، فوافق ، وأضيف حمامتان على الطعام المعتاد . وفي أثناء الطعام جرى الحديث عن الفروسية ، واستطاع كرسكو أن يتكيف مع مزاج دون كيخوته . وبعد الغداء ناموا القيلولة . ثم عاد سنشو ، وحمي الحديث .

(١) المجيب هو أن ثباتتس نفسه هو الذي أخطأ حين ادعى أنه يصحح هنا خطأين مزعومين : فهو لا يتذكر أن قال بصراحة في الفصل الثالث والعشرين من القسم الأول أن خينس دي ياسموتته هو الذي سرق حمار سنشو ، ثم إنه في الفصل الثلاثين يذكر أيضاً كيف أن سنشو عثر على خينس لابساً زي النجر واسترد منه حماره . وهذه الغفلة من المؤلف وهو ينتقد نفسه بنفسه تدل على أنه كان لا يعيد قراءة ما سبق أن كتبه ولا يراجعه حتى عندما يقتضي الأمر ، كما هو الحال هنا .

الفصل الرابع

حيث يجيب سنشو عن الأسئلة ويوضح شكوك صاحب الاجازة
سمسون كرسكو، وحوادث أخرى جديدة بأن تعرف وتروى

ولما عاد سنشو استأنف المناقشة حيث تركها فقال :

- تريد أن تعرف ، ياسيد سمسون ، من ومتى وكيف سرق متي حماري ؟ . وعلى هذا أجيب
فأقول أنه في الليلة التي فيها هربنا من الإخوة المقدسة واختبأنا في سيرا مورينا (جبل الشارات) .
فبعد المغامرة المنحوسة المتعلقة بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وتلك الخاصة بالميت الذي
كانوا يحملونه الى اشقوبيه ، دخلنا في غابة ، مولاي وأنا ، وكان يستند الى رمحه ، وأنا أستند
الى حماري ، فنمنا ونحن متعبون مطحونون بما وقع لنا في معاركنا الأخيرة ، ونعسنا كما لو كنا
ننام على أربع حشايا من الريش ، وخصوصاً أنا كنت أغط في نوم عميق ، حتى استطاع السارق
بسهولة أن يدق أربعة أوتاد في أركان البردعة الأربعة ، تاركاً إياي هكذا معلقاً فوقها ، ثم سحب
الحمار من تحتي دون أن أشعر . وكان أمراً سهلاً وليس جديداً ، لأن الحادثة نفسها وقعت
لسكرينته ، حينما استخدم اللص الشهير بروئل ، أثناء حصار البراق ، الحيلة نفسها وسحب منه
الفرس من بين ساقيه . وطلع النهار ، ولم أكد أتحرك قليلاً حتى انهارت العصا التي كانت تحملني
فسقط ثقيلاً على الأرض . وبحثت عن حماري فلم أجده . فأخذت في البكاء ، ونحت نواحاً إذا
كان مؤلف تاريخنا أغفله فعليه أن يعد نفسه لم يفعل شيئاً مفيداً . وبعد انقضاء ما لا أدري من
الأيام وأنا أسير مع السيدة الأميرة ميكوميكونا عثرت على حماري ، وشاهدت أن من كان يركبه ،
بزي غجري ، كان ذلك اللص الفاتك خينس دي باساموتته ، الذي نجاه مولاي وأنا من الأغلال .
فقال سمسون : ليس الخطأ هنا ، بل هناك كلام عن الحمار قبل هذه اللحظة والمؤلف
يقول إن سنشو كان يسير راكباً حمارة^(١) .

(١) في الفصل الخامس والعشرين ، راجع الجزء الأول من ٢٣٢ .

فقال سنشو : عن هذا لا أستطيع الجواب ، اللهم إلا أن أقول إن المؤلف أخطأ ، أو هنا غلطة مطبعية .

فقال سمسون : يحتمل ، لكن ماذا كان مصير المائة اسكودو ؟

فقال سنشو : أنفقتها على نفسي وامراتي وأولادي . وكانت هي السبب في صبر إمرأتي على ذهابي وغدوي في خدمة السيد دون كيخوته . فلو أنني عدت ، بعد كل هذه المدة ، الى البيت بغير حمار ولا نقود ، لكان علي أن أتوقع استقبلاً حزيناً . فإذا شئت أن تعرف متي أي شيء آخر فها أنذا على استعداد للجواب حتى أمام الملك نفسه ، وما كان لأحد أن يقلق لكوني وجدت هذه النقود أو لم أجدها ، أنفقتها أو لم أنفقها ، لأنه إذا كانت الضربات التي تلقيتها في أسفاري تقدر بالفلوس ، فحتى لو لم تتمن كل ضربة إلا بأربعة مرابطيات ، فلا بد من أكثر من مائة اسكودو على الأقل ثمناً لنصفها فقط . فليضع كل امرئ كنفه على ضميره ، ولا يتدخلن في عد الأسود أبيض والأبيض أسود . نحن جميعاً كما خلقنا الله ، بل وأسوأ في بعض الأحيان .

فقال كرسكو : سألني بالآ ينسى مؤلف هذا التاريخ ، إذا طبعه طبعة ثانية ، مقاله سنشو الطيب : فإن هذه الإضافة ستزيد كثيراً في قدر كتابه .

فسأله دون كيخوته : وهل ثم أمور أخرى ينبغي تصحيحها في هذا الكتاب ياسيدي صاحب الإجازة ؟

فأجاب : ربما بعض مواضع أخرى ، لكنها أقل أهمية من تلك التي ذكرت .

فقال دون كيخوته : وبهذه المناسبة هل وعد المؤلف بقسم ثانٍ ؟

- نعم من غير شك ، لكنه يقول إنه لم يجده بعد ، وإنه لا يدري أين يجده : حتى أننا في شك هل سيظهر . وعلى كل حال فإن البعض يقولون إن الأقسام الثانية ليست أبداً جيدة ، والبعض الآخر يزعمون أن ماكتب عن دون كيخوته فيه الكفاية : مما يؤذن بأننا لن نظفر بأكثر من القسم الأول . ومع ذلك فإن أولئك الذين هم أميل الى الفرح منهم الى الحزن لا يكفون عن القول : أعطونا دون كيخوتات ، وليعمل دون كيخوته ، وليتكلم سنشو : ومهما يكن مانعناه فسندرضى به .

فسأله دون كيخوته : وما الذي يوقف المؤلف إذن ؟

فقال صاحب الإجازة : ما الذي يوقفه ؟ إنه يسعى للبحث بعناية تامة عن كل أجزاء هذا التاريخ ، وبعد ذلك سيقدمها الى المطبعة ، معنياً بالفائدة التي ستستخلص منه أكثر من اهتمامه بالمدايح التي يمكن أن تزجى اليه .

فقال سنشو : إنه يتطلع إذن الى المال أكثر من أي شيء آخر ، ستكون عجيبة إذن أن يصنع شيئاً حسناً : إنه لن يفعل أكثر من أن يخطط بغرز واسعة ، مثل الخياط عشية عيد الفصح ، والمؤلفات التي تصنع بعجلة لا تبلغ الإتقان المطلوب أبداً ، فعلى السيد المغربي إذن أن يصمد ، وليحفظ فيما سيعمل لأن مولاي وأنا ، سنكفل له عملاً طويلاً ، فيما يتعلق بالمغامرات والأحداث المختلفة ، بحيث يستطيع أن يؤلف ليس فقط قسماً ثانياً ، بل مائة قسم . إن هذا الرجل البسيط يظن أننا ننام هنا على التبن ، لكن لیتبعنا قليلاً في جولتنا ، وسيرى بأي حطب نستدفئ . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنه لو شاء مولاي أن يتبع نصيحتي لكنا الآن في الحقول ، نصلح المظالم وننتصف من الإهانات ، كدأب الفرسان الجواله الحقيقيين .

ولم يكد سنشو يفرغ من هذه الكلمات حتى سمع صهيل روثيناته : وكان هذا الصهيل طالماً حسناً لدون كيخوته ، وجعله يصمم على القيام بخرجة أخرى في خلال ثلاثة أو أربعة أيام . وأفضى بخطته هذه الى كرسكو ، وسأله النصيحة في الطريق الذي يسلكه . وكان من رأي كرسكو أن يتوجه دون كيخوته الى مملكة أرغون ، وأن يذهب الى سرقسطه ، حيث ستقع بعد عدة أيام مباريات رسمية بمناسبة عيد القديس جورج ، وأضاف أن في هذه المدينة يمكن أن يرفع اسمه فوق الفرسان الأرغويين ، أي فوق كل فرسان العالم . وامتدح كثيراً شجاعته ، وعزمه النبيل ، لكنه رجاه أن يكون في المستقبل أقل تهوراً في الخطر ، لأن حياته ليست ملكه ، بل هي من أجل كل البائسين الذين يحتاجون الى عونهم في محنتهم .

فقاطعه سنشو قائلاً : هذا ما يثير ثائرة غضبي ياسيد سمسون ، لأن مولاي لا يهتم بمهاجمة مائة رجل مسلح أكثر من إهتمام طفل شره بمهاجمة ست شمامات لطيفة الحجم . يالله ياسيدي صاحب الإجازة ثم أوقات للطعان ، وأوقات للانسحاب ، ولا ينبغي الصياح باستمرار : « شنت يعقوب واسبانيا ، الى الأمام ! » ولقد سمعت ، إذا لم تخني الذاكرة - مولاي يقول إنه بين طرفي الجبن والتهور تقوم الشجاعة . فإذا كان الأمر هكذا ، فإني لا أريد منه أن يهرب بدون داع ، ولأن يهاجم حينما يقضي العقل بشيء آخر . وإني أنبهه الى أنه إذا كان يريد أن يأخذني معه ، فسيكون ذلك بشرط أن يتحمل هو كل المعارك ، ولا يكون عليّ غير الاهتمام بشخصه فيما يتعلق بالنظافة والأكل ، وفي هذا سأستبق حوائجه . لكن أن يظن أنني سأضع السيف في يدي ، حتى ضد أوغاد سفلة ، فهذا خطأ فاحش ، إني لا أطمح ، يا سيدي سمسون ، الى الاشتهار بالشجاعة ، بل بأن أكون أفضل سائس وأخلص من خدم فارساً جوالاً . فإذا شاء مولاي دون كيخوته ، اعترافاً منه بخدماتي العديدة الجليلة ، أن يعطيني

واحدة من تلك الجزر التي عليه أن يغزوها ، كما يقول ، فإنني سأكون مديناً له بأكبر الفضل ، وإن لم يعطني فليكن فأنا أعيش ، والإنسان ليس له أي عون في هذه الدنيا غير عون الله . ومن يدري لعل الخبز الذي أكله بدون حكم أن يكون أفضل من خبز الحاكم ، وربما دبر لي الشيطان في هذه الحكومة مكيدة يشغزني بها لأسقط على رأسي وأحطم أسناني ! ولدت سنشو وسنشو ساموت . وعلى الرغم من هذا ، وبدون كثير عناء ولا مخاطرة ، إذا أرسلت الى السماء بجزيرة أو شيء ، شبيه بها ، فلن أكون من الحماقة بحيث أرفضها ، لأنه كما يقال ، إذا أعطيت عجلة فضع حبلأ في عنقها ، وإذا جاءك الخير فضعه في بيتك .

فقال له كرسكو : يا أخي سنشو ، أنت تتكلم كالوعاظ . توكل على الله وعلى السيد دون كيخوته الذي سيعطيك لا جزيرة بل مملكة .

فأجاب سنشو : ما ينطبق على الأكثر ينطبق على الأقل ، وأستطيع أن أوكد للسيد كرسكو أن المملكة التي سيعطيني مولاي إياها لن تقع في زكية مخروقة . لقد حبست نبضي ، ووجدت نفسي كفاء لحكم جزر وإدارة ممالك ولقد قلت ذلك من قبل لمولاي . فقال سمسون : حذار يا سنشو فإن المناصب تغيّر الأخلاق ، فقد يحدث أنك إذا صرت حاكماً أنكرت أمك التي ولدتك .

فأجاب سنشو : هذا يجوز بالنسبة الى أولئك الذين ولدوا بين الأشرار ، لا أولئك الذين على قلوبهم ، مثلي ، سمك أربعة أصابع من شحم المسيحي العريق . وهكذا فإنني لن أنسى أبداً أصلي ، وسأكون لطيفاً مع كل الناس .

فقال دون كخوته : لتكن تلك إرادة الله ، وسنرى ذلك حين يأتي الحكم : ويبدولي أنه قد أصبح فعلاً أمام ناظري .

وبعد ذلك ، وجه الكلام الى صاحب الإجازة مستحلفاً إياه إذا كان شاعراً أن ينظم أبياتاً بمثابة توديع يرسله الى السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وأن يعنى بنظمها بحيث يبدأ كل بيت بحرف من اسمها ، حتى إذا ضمت كل الحروف الأوائل قرئت : دلثنيا دل توبوسو . فأجاب صاحب الإجازة قائلاً إنه وإن لم يعد بين الشعراء المشهورين في اسبانيا ، لأنه لا يوجد ، كما يقولون ، غير ثلاثة ونصف شاعر مشهور ، فإنه يوافق على نظم هذه الأبيات ، ولكنه سيجد في ذلك مشقة بالغة : والسبب هو أن الحروف التي تكون هذا الاسم عددها (في الاسبانية) سبعة عشر حرفاً^(١) ، فإن نظم أربع فقرات من أربع حروف ، على الطريقة

. Dulcinea gel Toboso (١)

القشتالية ، فسيبقى حرف ، وإن صنع الفقرات من خمسة أبيات ، وهي التي تسمى العشرييات أو «ريدوندياس» redondillas فسينقص ثلاثة حروف ، ولكنه سيعمل جهده حتى يختلس حرفاً قدر المستطاع بحيث يندرج اسم دلثنيا دل توبوسو في الرباعيات الأربع .

فأجاب دون كيخوته : لا بد من هذا ، لأنه إذا لم يوجد فيها الاسم واضحاً بجلاء ، فلن تعتقد أية امرأة أن هذه الأشعار نظمت فيها .

ولم يدفع المناقشة الى أكبر من هذا الحد ، واتفقا على أن يتم سفر دون كيخوته في خلال ثمانية أيام . وأوصى دون كيخوته صاحب الإجازة بالتزام الكتمان ، خصوصاً مع القسيس والأسطى نقولا ، وبنت الأخت والخادمة ، خوفاً من أن يضعوا العراقيل في طريق مغامرته المشرقة الباسلة . فوعد كرسكو بكل شيء ، ورجا دون كيخوته أن يخبره بأنباء حظه السعيد أو السيئ ، حينما تسنح له الفرصة . وودّع كل منهما الآخر ، وأخذ سنشوا في إعداد وترتيب ما هو لازم للسفر .

الفصل الخامس

في المحادثة العاقلة الممتعة بين سنشو بنتا وزوجته
تريزه بنتا، وحوادث أخرى جديدة بالذكرى الطيبة

ولما وصل مترجم هذا التاريخ الى هذا الفصل الخامس قال أنه يرى أنه منحول ، لأن سنشو يتكلم فيه بأسلوب غير ذلك الذي يتوقع من رجل محدود الذكاء مثله ، ولأنه يقول أشياء دقيقة من المستحيل أن تصدر منه . ومع ذلك فإنه لم يحجم عن ترجمة هذا الفصل إرضاء لما يمليه عليه واجبه فتابع هكذا ،

عاد سنشو الى بيته ، فرحاً جذلان ، حتى لاحظت عليه ذلك زوجته منذ أن لمحته من بعيد لم تتمالك من أن تسأله .

- ماذا جعلك فرحاناً هكذا يا عزيزي سنشو ؟

فقال سنشو : لو شاء الله لكنت أكثر سروراً من كوني لست راضياً كما يبدو علي .

- اني لا أفهمك يا زوجي العزيز ، ولأدري ماذا تقصد حين تقول إنه لو شاء الله لكنت راضياً بالأ تكون هكذا راضياً ، لأنني على الرغم من أنني مغفلة ، فإنني لا أظن أن أحداً يسخط من كونه راضياً .

- اسمعي يا تريزه! أنا راضٍ لأنني قررت العودة الى خدمة مولاي دون كيوخوته ، الذي سيقوم بخرجة ثلاثة سعياء وراء المغامرات ، وسأذهب معه ، لأن الضرورة تقضي بذلك ، مقرونة بالأمل الذي يسرني في العثور على مائة اسكودو أخرى كتلك التي أنفقناها . لكنني حزين حين أفكر في أن من الضروري أن أبتعد عنك وعن أولادي . ولو شاء الله أن يمنحني القوت في بيتي وقدماي جافتان ، ودون أن أضطر الى التجوال بين الجبال والأودية بكل عناء ومشقة ، وهو أمر يستطيع فعله بقليل من النفقة ، إذ يكفي أن يريده ، فإن من المؤكد أن سروري سيكون أتم وأنشط ، لأنه في هذه اللحظة مملوء بالحزن لفراقك . فكنت إذن على حق حين قلت أنه لو شاء الله لكنت راضياً بالأ أكون هكذا راضياً .

فقال تريزة : هل تعرف يا سنشو أنك منذ أصبحت عضواً في الفروسية الجواله صرت تتكلم بطريقة ملتوية بحيث لا يمكن فهمك ؟

فقال سنشو : يا امرأة ، يكفي أن يفهمني الله ، إنه وحده يفهم كل شيء . لكن لندع هذا . وأنتهك يا أختي أنه خلال هذه الأيام الثلاثة يجب الإعتناء بالحمار حتى يكون على استعداد لحمل السلاح ، ضاعفي عليه ، وافحصي برذعته وكل جهازه . إننا لسنا ذاهبين الى عرس ، بل نتجول في أنحاء الدنيا لنتعارك مع المردة والجن والأشباح ، وسنسمع تصفيرات ، وزئيرات ، ونباحات ، وخوارات ، وكل هذه لن تكون إلا كالورود إن لم نقابل بغالة ينجواسيين أو مغاربة مسحورين .

فقلت : إنني أعتقد تماماً يا عزيزي أن السواس الجواله لا يأكلون خبزهم مجاناً ، ولهذا سأدعو الله أن يحفظك من كل سوء .

فقال : أقول لك يا امرأة ، إنني إذا لم أوصل أن أصبح حاكماً على جزيرة في خلال مدة قصيرة ، فسأموت في الحال .

فقال تريزة : لا يا زوجي العزيز إذا كان الأمر كذلك فلتجني الدجاجة وإن كانت لها لهالة عش وليذهب الشيطان بكل حكومات العالم . فقد خرجت من بطن أمك بدون حكومة ، وبدون حكومة عشت حتى هذه الساعة ، وبدون حكومة ستذهب الى حيث يلحدونك في قبرك حين يشاء الله . وما أكثر عدد الذين يعيشون في الدنيا بخير أن يحكموا ، ومع ذلك يعيشون ويعتدون من بني الإنسان ، وأحسن أدام في الدنيا هو الجوع ، ولما كان الجوع لا يعوز الفقراء فإنهم يأكلون دائماً بشهية . ومع ذلك يا سنشو فإذا كان من حسن حظك أن تجد حكومة وتصبح حاكماً ، فلا تنسني لا أنا ولا أولادك . وتذكر أن سنتشيكو قد بلغ خمسة عشرة سنة كاملة ، وأنه آن الأوان لأن يذهب الى المدرسة إذا كان خاله الكاهن يريد أن يدرجه في السلك الكنيسي . ومارية سنتشا ، بنتك ، لن تموت إذا نحن زوجناها ، واعلم تمام العلم أنها تتحرق شوقاً الى زوج قدر تحرقك شوقاً الى حكومة ، وعلى كل حال فإن بنتاً سيئة الزواج أفضل من حسنة الغرام .

فقال سنشو : يا امرأة ، إذا تفضل الله فمنحني حكومة ، لزوجت مارية سنتشا زواجاً عظيماً كأنها سيده عظيمة .

فأجابت تريزة : أما هذا فلا ياسنشو ، زوجها بمن هو في مستواها ، فهذا أضمن ، لو حولت نعالها الى أحذية ، وقميصها الصوفي الى ديباج أو فساتين حرير ، وجعلت من ماريता التي تخاطب بأنت صاحبة عصمة وسيادة ، فإنها لن تعرف طريقها وتتعرع المسكينة في كل

خطوة تخطوها وتشف عن نسيج من الصوف الخشن الغليظ .
فقال سنشو : اخوسي ياحمقاء ، لن تحتاج الى أكثر من سنتين أو ثلاث لتتخذ السميت والهندام المناسب ، وحتى لو لم يجيئنا ، فماذا يهم ؟ ستكون سيدة فاضلة ، وليكن ما يكون .

فقال تريزة : قس نفسك على قدر حالتك يا سنشو ، ولا تحاول أن ترفع نفسك ، وتذكر المثل الذي يقول : مخط ابن جارك ، وضعه في بيتك . صحيح أنه سيكون أمراً جميلاً أن نزوج بنتنا مارية لكونت عظيم أو فارس : إذا شاء له هواه أراها المر ونعتها بأنها شريرة ، تغزل بالمغزل ، وبنت حطاب : إني لم أربتها لذلك . أحضر النقود ياسنشو وسأعني أنا بتزويجها . عندنا هنا لوبه توتشو ، ابن يوحنا توتشو ، وهو ولد طيب ، حسن العافية ، ونحن نعرفه . وأنا أعرف أنه لا ينظر الى بنتنا بعين شريرة ، ولما كان من مستوانا فسيكون الزواج موفقاً . وستكون دائماً تحت نظرنا ، والأب والأم والأولاد والصهر والأحفاد ستكون شخصاً واحداً ، وسيحل السلام وبركة الله بيننا . لكن لا تزوجها في تلك البلاطات ، وتلك القصور الباذخة ، حيث لا أسمعها أنا ولا تسمع هي نفسها .

فقال سنشو : تعالي هنا ، يا دابة ، يا امرأة برابا ، لماذا تريدان الآن أن تمنعيني من تزويج ابنتي لرجل يعطيني أحفاداً يتخذون ألقاب السادة ؟ اسمعي يا تريزة ، سمعت أن الشيوخ يقولون أن من لا يعرف كيف يستمتع بالنعمة حين تأتي اليه ، لا يحق له أن يشكو إذا ذهب عنه . فهل وهي تطرق بابنا نغلق دونها الباب ؟ دعينا ننقد بهذه الريح المواتية التي تسوقنا . (ويسبب هذه الطريقة في التعبير ، وماسيقوله سنشو عما قليل ، يرى مترجم هذا التاريخ أن هذا الفصل منحول) . ألا يبدو لك حسناً ، ياخنزيرة ، أنني ألقى بنفسي في حكومة مفيدة ، وأن أنقذ نفسي من الطين ، وأن أزوج ابنتنا ماريه سنتشا لمن أراه صالحاً ؟ سترين أنهم سينادونك بلقب دونيا تريزة بنتا ، وأنت ستجلسين في الكنيسة على طنافس فاخرة ، وبلاط ، على الرغم من كل زوجات نبلاء القرية . إنني لا أريد أبداً أن نبقي على الوضع نفسه ، لا نزيد ولا ننقص ، كتمائيل الزينة . وعلى هذا فلنكف عن الكلام في هذا الموضوع ، إن سنشيكما ستصبح كوثيسة ، مهما قلت أنت .

فأجابت تريزة : حذار مما تقول يازوجي ، لأنه مع كل هذا أخشى أن يتسبب هذا الكونت لابنتي في ضياعها . اصنع بها ماشئت ، حتى دوقة وأميرة ، لكنني لا أستطيع أن أقول أن ذلك لم يكن أبداً بمشيئتي ورضاي ، لقد كنت دائماً ، يا أخي نصيرة للمساواة ، ولا أستطيع احتمال الكبرياء . لقد سموني تريزة على حوض التغطيس (العميد) دون إضافات

أو تزويقات «دون»، و«دونيا»، وأبي كان يسمي كسكاخو، وأنا، لأنني زوجتك، اسمي تريزة بنتا، وإن كنت في الحق تريزة كسكاخو. ولكن الملوك يضعون من القوانين كما يشاءون: وأنا قانعة بهذا الاسم، دون أن يضاف إليه حمل «دون»، فهو حمل ثقيل لأقوى على حمله. ولا أريد أن أكون مادة حديث لأولئك الذين سيروني لابسة زي كونتيسة أو حاكمة. سيقولون حينئذ: أنظروا اذن الى راعية الخنازير هذه كيف انتفخت علينا: بالأمس كانت تشقى لتفصيل جزء الصوف، أو كانت تذهب الى القديس وهي تغطي رأسها بديل ثوبها، بدلاً من قلنسوة، وها هي ذي اليوم تلبس خزاناً ومطرزات، وكأنتا لا نعرفها. ولو حفظ الله حواسي الخمس أو الستة أو ماعندي، فإنني أمل ألا أساق الى رؤية نفسي في هذه المحنة. أما أنت يا أخي فخذ حكومة، وجزيرة، وكل الفخفة التي تريدها: وإني أقسم لك بحياة أمي أنه لا بنتي ولا أنا لن نترك سقف كوخنا هذا ولا خطوة واحدة. المرأة الشريفة تكسر رجلها في بيتها، والفتاة الشريفة العمل هو عيها. اذهب مع دون كيخوته هذا وتابع مغامراتك ودعنا هنا لبلايانا. والله يصلح لنا الأحوال، وهو يعلم أننا طيبون. والله لا أدري من ذا الذي أعطاه لقب «دون»، لأنه لا أبوه ولا أجداده حملوا هذا اللقب.

فأجاب سنشو: الآن أقول لك إنه يسكن بدنك عفريت. كان الله في عونك! كم من أشياء سردتها لي لا رأس لها ولا قدم! مالم الذي يجمع بين آل كسكاخو، والتوفيقات، والأمثال، والكبرياء وكل ما أقوله؟ تعالي يا بلهاء، يا جاهلة، إنني أستطيع أن أصفك بهذه الأوصاف لأنك لا تريدين أن تعقلي ما أذكر لك من أسباب من شأنها أن تمنحك السعادة: لو أرادت أن تلقي ابنتي بنفسها من أعلى برج، أو تذرع الدنيا مثل وريثة العرش دونيا أراكا^(١)، لكان لك الحق في ألا تتبعي نصيحتي، لكن لو أنني في غمضة عين منحتها لقب «دون»، و«سيادة»، وأنقذتها من الكوخ، ووضعتها تحت قبة، على عرش، على منصة مزودة بطنافس من القطيفة عددها بقدر ما في مراکش من مغاربة، فلماذا لا توافقين، ولا تريدين ما يريده زوجك؟

فقالت تريزة: أتدري لماذا؟ لأنني أذكر المثل الذي يقول: ما يغطييك يكشف عنك. الأنظار تمر مروراً على الفقير، ولكنها تتوقف طويلاً على الغني: فإن كان هذا الغني قد كان في الماضي فقيراً، تهامس الناس ولعنوه، وأسوأ من هذا يستمرّون في صبب اللعنات عليه، وتكرارها في الشوارع فتنتشر كخلايا النحل.

(١) بنت دون فريندو، التي راحت تذرع الدنيا لما أن حرّمها أبوها من الميراث.

فقال سنشو : أصغي يا تريزة الى ما أنا قائله الآن : لعلك لم تسمعيه أبداً . وهي كلمات ليست من عندي ، بل هي كلمات قالها أب واعظ كان في فترة صوم الفصح يعظ في قريتنا . قال إذا لم تختي الذاكرة ، إن كل الأمور الحاضرة التي تتجلى لنواظرننا تتجلى وتقيم في ذاكرتنا أرسخ من الأمور الماضية . (كل هذه الأسباب التي يسوقها سنشو هي في نظر المترجم براهين جديدة على أن هذا الفصل منحول ، لأنها فوق مستوى سنشو) . وهكذا فإننا حين نرى شخصاً جميل الهندام يلبس ملابس فاخرة ثمينة ويحيط به الخدم والحشم بجلال وأبهة ، يبدو لنا أن هذه الفخفة تحملنا على احترامه ، وإن كانت الذاكرة تذكرنا في الوقت نفسه بالانحطاط الذي كان فيه هذا الشخص نفسه وعرفناه فيه ، ذلك أن هذا الانحطاط ، سواء نشأ عن الفقر ، أو عن المولد ، قد مضى وزال ولم يعد موجوداً بعد ، وليس واقعياً إلا مانراه حاضراً ، وإذا كان قد رفعه الحظ من أعماق الانحطاط الى قيمة النعيم رجلاً طيباً ، سخيّاً ، مهذباً مؤدباً مع جميع الناس ، ولا يريد أن يسوي نفسه بأولئك الذين هم نبلاء الأصل ، فثقي يا تريزة أنه لن يوجد إنسان يتذكر ما كان عليه في الماضي ، ولا يوقر ما هو عليه الآن ، اللهم إلا الحسدة ، والحسدة ليس لأحد منهم أي حظ سعيد .

فأجابت تريزة : لا أفهم شيئاً مما تقول يا زوجي ، افعل ما تشاء ، ولا تكسر رأسي أكثر من ذلك بخطبك وبلاغتك ، وإذا كنت قد قدرت فعل ما تقول... فقاطعها سنشو : قولي : «قررت» يا امرأة ، ولا «قدرت» . فأجابت تريزة : لا تنازعني ، أنا أتكلّم كما يريد الله ولا تحاول التدخل . أقول فقط إذا كنت مصمّماً على الحصول على حكومة ، فخذ معك ابنك سنشو ، لتعلّمه كيفية الحكم ، إنها عادة حسنة أن يتعلّم الأطفال ويمارسوا مهنة أبيهم

فقال سنشو : حين أصبح حاكماً سأبعث في طلبه بالبريد ، وسأرسل اليك نقوداً ، وهي لن توزن ، لأن الحكام يجدون دائماً من يقرضهم إذا أعوزهم المال ، والبسي الولد ثياباً جديدة حتى لا يرى كما هو ، ويبدو كما ينبغي .

فقالت تريزة : ابعث بالنقود وأنا ألبسك كملاك صغير . فقال سنشو : وأخيراً نحن على اتفاق في أن تصبح ابنتنا كوثتيسة ؟ فأجابت تريزة : في اليوم الذي أراها فيه كوثتيسة سأعدها قد دفنت في التراب . ومع ذلك فإنني أقرّر وأقول لك : افعل ما تشاء ، إنّا معشر النساء نولد مع التزام الطاعة لأزواجنا حتى لو كانوا حميراً .

ولمّا قالت هذه الكلمات أخذت في البكاء بكاءً حاراً مخلصاً وكأنّها قد رأت فعلاً
 سنتشيكا ماتت ودفنت فواساها سنشو قائلاً إنه وإن كان في عزمه أن يجعل منها كوتتيسة
 فإن لم يفعل ذلك في آخر وقت ممكن .
 وهكذا انتهت محادثتهما ، وعاد سنشو الى دون كيخوته لترتيب السفر^(١) .

(١) بيّن كيلهايا Gailhava في كتابه «فن الكوميديا» أن موليير قد حاكى على طريقتة هذا الفصل الخامس ، وذلك في ملهاته
 «البرجوازي النبيل» الفصل الثالث ، المنظر الثاني عشر ، حيث يتنازع السيّد جوردان مع زوجته حول تزويج ابنتهما . فزوجه
 تريد تزويجها الى تاجر ، من مستواه ، أمّا السيّد جوردان فيريد لابنته أن تصبح دوقة أو على الأقل مركيزة .

الفصل السادس

فيما جرى بين دون كيخوته وبينت أخته وخادمتها،
وهو فصل من أهم فصول هذا التاريخ

بينما كانت تجري بين سنشو پنشا وتریزة كسكاخو زوجته المحادثة العجيبة التي أوردناها ، لم تكن إبنة أخت دون كيخوته والخادمة فارغتين ، لأنهما تعرفتا بآلاف من الدلائل والعلامات أن خالها وسيدها يفكر في انطلاقة ثالثة ، ويريد استئناف مهنة الفارس الجوال التعيسة عليهما . فحاولتا بكل الطرق الممكنة أن تثنياه عن هذه الخطة السيئة ، لكن كان ذلك بمشابة طرق الحديد وهو بارد ، أو الوعظ في البرية . ومن بين الأسباب التي ساقتاها ، قالت الخادمة له :

- الحق يا مولاي أنه إذا لم يقيد سيادتك قدميه ، ويقع هادئاً في بيته ، ويتخل عن التجوال بين الجبال والأودية ، كأنه روح شريرة في عذاب ، ساعياً وراء مايسمى بالمغامرات ، وماأسميه أنا النكبات ، فلن أكف عن الصراخ عند الله والملك ، لعلاج هذا الأمر .

فأجابها دون كيخوته : يا خادمتي! لا أدري بماذا سيجيب الله والملك عن هذه الشكاوي ، لكنني أعلم تمام العلم أنني لو كنت ملكاً لأعفيت نفسي من الرد على كل هذه التلال من الشكاوي غير الصحيحة التي يضايق بها كل يوم : وإن من أشق الأعمال على الملوك ، من بين أخرى كثيرة ، أن يضطروا ويلزموا بالإصغاء الى كل الناس والرد عليهم جميعاً . ولهذا فإني لأريد له أن يتضايق بسببي أنا .

فقابلت الخادمة : لكن يا مولاي ألا يوجد في بلاط جلالته فرسان ؟

فقال دون كيخوته : لكن يا مولاي ألا يوجد في بلاطه فرسان ، فرسان زينة للعرش وأتية للجلالة الملكية .

- اذن لماذا لا تكون سيادتك واحداً من هؤلاء الفرسان الذين في البلاط في خدمة

الملك ؟

- لاحظني يا عزيزتي ، أنه لا يمكن أن يكون كل الفرسان من أهل البلاط ، ولا كل رجال البلاط فرساناً جوالاً بل لابد أن يوجد في العالم من كل نوع ، وإن كنا جميعاً فرساناً ، فثم فروق عديدة بين بعضهم وبعض : لأن رجال البلاط ، دون أن يخرجوا من غرفهم ولا من عتبة القصر ، يسافرون في العالم كله بأن ينظروا في الخريطة ، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً ، ودون أن يتحملوا حمارة القيظ ولا صبرة البرد ، ولا الجوع ولا العطش ، أما نحن ، معشر الفرسان الجواله الحقيقيين ، فإننا نذرع الأرض كلها في الليل والنهار ، على الأقدام أو على صهوات الخيل ، ونعرف الأعداء ، لافي التصاوير فقط ، بل وفي لحمهم وعظامهم . وفي كل تصادم ، وفي كل مناسبة ، نهاجمهم ، دون أن تلتبث عند التفاهات أو قوانين المبارزة ، ودون أن نفحص هل رمح أو سيف الواحد أقصر من سيف أو رمح الآخر ، وهل يحمل الخصم بعض الذخائر أو التموينات الأخرى ، وهل يتقاسمان الشمس أو لا ، وماشاكل ذلك من مراسم ، تراعى في المبارزات الفردية بين رجل ورجل ، وهي أمور أنت لاتعرفينها ، ولكني أنا أعرفها تمام المعرفة . عليك أيضاً أن تعرفي أن الفارس الجوال الحق ينبغي عليه ألا يهاب شيئاً ، الواحد منهم مثل برجين هائلين ، وذراعا مثل ساريتي سفينتين ضخمتين ، والعين كبيرة مثل حجر الطاحونة ، وأشد لهيبها من الفرن . بل بالعكس عليه أن يهاجم رابط الجأش ثابت الجنان جسور القلب ، وأن ينقصر عليهم وإن استطاع يقهرهم ويحطمهم في لحظة واحدة ، حتى لو كانوا مسلحين بأصداق نوع من السمك يقال إنها أصلب من الماس ، وحتى لو كان معهم بدل السيوف ، قواضب دمشقية أو مرازب حديدية ، مزودة بأسنة من الصلب نفسه ، كما رأيت ذلك أكثر من مرتين . وأقول لك كل هذا ، يا عزيزتي ، حتى تستطيعي أن تحكمي على الفارق بين الفرسان بعضهم وبعض . وقد كان العدل يقضي بأن يقدر الأمير هذا الفريق الثاني ، أو بعبارة أصح ، هذا الفريق الأول المؤلف من الفرسان الجواله ، لأننا نقرأ في التواريخ أن منهم من تدين له بالنجاة ليس فقط مملكة واحدة ، بل عدة ممالك .

فقلت في هذه اللحظة بنت أخته : آه يا سيدي ، لاحظ أن كل ماتقول عن الفرسان الجواله ليس إلا كذباً وخرافة ، وإذا لم تحرق هذه التواريخ فإنها تستحق على الأقل أن تلبس لباس المحكوم عليهم بالإعدام من الديوان المقدس ، أو أية علامة أخرى تدل على أنها كتب شائنة تفسد الأخلاق .

فصاح دون كيوخوته : بحق الله الذي يعينني ! لو لم تكوني بنت أختي ، أختي أنا مباشرة ، لعاقبتك على التجديفات التي تفوتت بها عقاباً تسمعه الدنيا بأسرها . كيف ! هل

من الممكن أن بلهاء لاتكاد تحسن إدارة اثني عشر مغزلاً لعمل شبكة ، تتدخل وتتكلم لتعيب تواريخ الفرسان الجوّالة ؟

ماذا سيقول السيد أماديس لو سمع هذا الكلام ؟ ومع ذلك فإنه كان سيفغر لك ، لأنه كان أرق وأكثر فرسان عصره أدباً ، وخصوصاً كان حامياً عظيماً للفتيات . لكن ربّما سمعك آخر ، وجعلك تندمين على ما قلت ، لأنهم لم يكونوا جميعاً مؤدّبين معتدلين ؛ بل كثيرون منهم كانوا غذارين غلاظاً ، وليس كل الذين يسمّون فرساناً هم كذلك في كل شيء ؛ فبعضهم من الذهب ، والبعض الآخر من خليط ، وكلّهم يبدون فرساناً ، لكنهم لا يصمدون كلهم لمحكّ اختبار الحقيقة . فثم قوم من أصل وضع ينتفخون ليظهروا بمظهر الفرسان ، وثم فرسان من أصل رفيع يبدو أنهم يحاولون الظهور بمظهر عامة الناس ؛ وفريق يرتفع بالطموح أو الفضيلة ، وفريق ينحط بالرخاوة أو الرذيلة . والمرء في حاجة الى الفطنة لتمييز هذين النوعين من الفرسان ، الذين يتشابهون بالاسم ولكن يختلفون بالأفعال .

فقال بنت الأخت ؛ كان الله في عونى ! أعتقد يا خالي أنك تستطيع عند الحاجة أن ترقى منبراً أو تخطب في الطرقات ، لكن عماك العظيم ، وجنونك معروف بين ، حتّى لتظن في نفسك أنك شجاع قوي وأنت عجوز ، قوي البنية وأنت مريض ، مصحح للمظالم وأنت نفسك قد أحتكت السنون ، وفوق كل هذا فارس مع أنك لست كذلك ؛ لأنه لو أن النبلاء يمكن أن يصيروا فرساناً ، فإن الفقراء منهم لا يمكن أن يصيروا كذلك .

فقال دون كيخوته ؛ أنت على صواب فيما قلت يا بنت أختي ، وفي وسعك فيما يتعلّق بهذه الفوارق في الأصول ، أن أعلمك أموراً تخلب لبّك وتنتزع إعجابك ، لكنني لن أتحدّث عنها ، حتّى لا أخلط بين ما هو إلهي وما هو دنيوي ، استمعا لي يا عزيزتي ! إن من الممكن رد كل الأجناس التي في العالم الى أربعة ؛ جنس الذين كانت أولوياتهم متواضعة ، ثم انتشروا وتزايدوا حتّى بلغوا قمة العظمة ، وجنس أولئك الذين كانوا عظماء في أوليّتهم ، وحافظوا على عظمتهم ، ولا يزالون يحافظون عليها في المستوى نفسه ، وجنس الذين وإن كانوا في البداية أقوياء فقد تضاءلوا شيئاً فشيئاً على شكل هرمي ، ففقدوا بهاءهم ، وأصبحوا عدماً ، مثل قمة الهرم التي ليست إلا نقطة بالنسبة الى قاعدته ، وأخيراً جنس - وهو الأكثر عدداً - لم يكن له بداية عظيمة ، ولا وسط معقول ، وستكون نهايتهم بغير اسم ، وهذا هو الجنس المعتاد لعامة الناس . وعلى النوع الأول ، الذي كانت أولويته متواضعة ثم بلغ العظمة التي لا يزال يحافظ عليها حتى الآن ، عندك مثلاً آل عثمان ، الذين ولدوا من راعٍ بسيط حقير ، ثم وصلوا الى الدرجة التي نراهم

عليها الآن . ومن النوع الثاني ، الذي نشأ في العظمة ويحافظ عليها دون أن يزيدها ، نجد كثيراً من الأمراء الذي يحكمون - بحق الوراثة - كثيراً من الدول ، ويحافظون على ملكهم دون أن يزدوا فيه أو ينتقصوا منه ، وينحسرون بهدوء في داخل حدود ممالكهم . أما على أولئك الذين كانت أوليتهم عظيمة ثم انتهوا الى نقطة مدبّبة ، فلدينا آلاف الشواهد ، فكل فراعنة مصر وبطالمتها ، وقيصرية روما ، مع الحشد اللامتناهي من الأمراء والولاة والحكام الميديين والأشوريين والفرس واليونان والبرابرة ، كل أولئك الأجناس انتهت الى نقطة مدبّبة وأفضت الى العدم ، الى حد أنه لا يمكن العثور على أي واحد من ذريتهم الآن ، وإن واحد ، فسيكونون في حال من البؤس الشديد . أما الأسر العامة ، فليس عندي ما أقوله عنها سوى أنها لا تفيد إلا في زيادة عدد الأحياء ، دون أن تستحق أي ذكر .

ومن كل ما قلته ، يا أيّها الجاهلثان المسكينتان ، أريد منكما أن تستنتجا شدة الاختلاط بين الأجناس ، وأنّ التي تبدو عظيمة جليلة هي تلك التي تتميز بالفضيلة والثروة والكرم ، لأن العظيم الذي يكون شريراً ، سيكون شريراً جداً ، والغني بغير كرم لن يكون غير بخيل متسول . وليس امتلاك الأموال بل استخدامها هو الذي يجعل المرء سعيداً ، ولابدّ فوق هذا من معرفة كيفية استخدامها على الوجه الصحيح . والفارس الفقير ليس في حاجة - من أجل إثبات نبالته - إلا الى الفضيلة فليكن لطيفاً ، معقولاً ، مهذباً ، يقوم بالواجب بغير كبرياء ولا سوء قاله عن الناس ، وليكن محسناً ، وإذا أعطى عن طيب قلب مرابطيين لفقير ، فإنه ليس بهذا أقل كرمًا من ذلك الذي يبذل الصدقات على صوت الناقوس . ولن يراه إنساناً هكذا مزوّداً بكل الفضائل دون أن يحكم عليه أنه رجل من بيت رفيع العماد وإن كان لا يعرفه ، ولن تكون هذه معجزة ، لأن المديح كان دائماً مكافأة الفضيلة ، ومن المستحيل ألا يكون الفضلاء غير مقدّرين . وثمّ طريقان ، يا ابنتاي ، للوصول الى الثروة والجاه ، الأداب ، والأسلحة . وأنا أكثر تضلعاً في الأسلحة منّي في الأداب وقد ولدت ذا ميل غريزي الى الأسلحة ، تحت تأثير النجم المسمّى المشتري وهكذا فإني مضطر الى سلوك هذا الطريق ، وسأتبعه على الرغم من كل العالم بأسره . فعبثاً إذن تجاولان إقناعي بالسير ضد مشيئة السماء ، وضد أمر القدر ، وأمل العقل ورغبة نفسي . وأنا أعلم أنه إذا كانت أعمال الفروسية الجوّالة لاتحصى ولا تعد ، فإن الخيرات التي تجلبها هي أيضاً لانهاية لها ، وإذا كان طريق الفضيلة ضيقاً ، فإن طريق الرذيلة واسع رحب فسيح ، وأنّ هذين الطريقين مختلفان كل الاختلاف ، لأن طريق

الردذيلة ، وهو مفتوح وميسور ، يفضي الى الموت ، وطريق الفضيلة..القاسي الشاق يفضي بنا الى الحياة ، لالى حياة فانية ، بل الى تلك التي لن تنفذ أبداً وأنا أعلم ، كما قال^(١) أحد كبراء شعرائنا الاسبان ، أنه « عن هذه الطرق الشاقة يذهب المرء الى عرش الخلود ، حيث لا يصل اليه أبداً من يتخذ طريقاً آخر » .

فصاحت بنت الأخت : آه! يا لشقائي! إن خالي شاعراً أيضاً ، إنه يعرف كل شيء ، وأراهن أنه لو شاء أن يكون بئاء لبني منزلاً كالقفص .

فأجابها دون كيخوته : أؤكد لك ، يا بنت أختي ، لولا أن هذه الأفكار الفروسية اختلبت كل مشاعري ، لما بقي شيء لا أعمله ، ولا عجيبة إلا صدرت عن يدي ، خصوصاً الأقفاس والسواك .

وفي هذه اللحظة سمع طرق على الباب . فنودي من هناك . فأجاب سنشو : بأنه أنا . وفي الحال راحت الخادمة تختبئ حتى لاتراه ، لأنها كانت تفرع منه أشد الفرع . وفتحت ابنة الأخت الباب . فاستقبل دون كيخوته سائسه بذراعين مفتوحتين ، وأغلقا عليهما الغرفة ، وجرت بينهما مناقشة لا تقل في نفاستها عن السابقة .

(١) هو جريلاسو دلا بيجا (١٥٠٣ - ١٥٣٦) من أعظم شعراء اسبانيا ، ولد في طليطلة من أسرة شهيرة ، والغريب أن هذا الشاعر الذي تنقذ بنعمة الراحة وحياة الرعي والسلام ، أمضى حياته كلها في امثشاق الحسام ، ومات وهو يحارب . اشترك في كل الحروب التي شنتها كارلوس الخامس (شركمان) وبرز خصوصاً في معركة باليا (سنة ١٥٢٥) ، وقتل وهو يحارب أمام مرسيليا حين غزو الامبراطور لفرنسا ، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره . وأشعاره معظمها قصائد رعوية (أجلوجات) وأودات وإيليجمات ، ويمتاز شعره بالسهولة والبساطة والجرس الموسيقي العذب ولهذا لقب باسم « بتررکه الاسباني »... وأحسن طبعه لأشعاره هي طبعه مدريد سنة ١٧٦٥ وسنة ١٧٨٨ ، ثم طبعه أدولفو دي كاسترو سنة ١٨٥٤ (مكتبة المؤلفين الاسبان) ، وأحدثها طبعه نبرو توماس في مجموعة « الكلاسيك الاسبان » (ج٢) سنة ١٩١١ ، ثم توالى الطباعات بعد ذلك على أساس هذه الأخيرة .

الفصل السابع

فيما جرى بين دون كيخوته وسائسه،
وحوادث أخرى خليقة بالذکر

ولم تكذ الخادمة ترى سنشو يخلد الى سيدها حتى حذرت موضوع حديثهما . .
واقترنت أن هذا الحديث سيخرج عنه قرار القيام بخرجة ثالثة فلبست معطفها ومضت ، وهي
ملبئة بالهموم والأحزان ، الى صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وقد قدرت وهو المتكلم
الجميل الكلام والصديق الجديد لسيدها ، سيستطيع إقناعه بالعدول عن هذا المشروع
الجنوني . فوجدته يترئف في فناء بيته ، ولما أبصرته جثت عند قدميه وهي تلهث وتنحدر
منها قطرات من العرق غليظة . فلما رآها كرسكو مضطربة حزينة هكذا ، قال لها ،
- ماذا جرى أيتها السيدة القهرمانه ؟ ماذا حدث لك اذن ؟ لكأنك على وشك أن تلفظي
أنفاسك الأخيرة .

فأجابته ، يا سيدي الطيب! إنه مولاي يريد أن يرحل ، ومن المؤكد أنه سيرحل .
- كيف ، يرحل ؟ هل كسر عضو من أعضائه ؟

- كلاً يا سيدي ، سيرحل من باب جنونه ، أقصد ، يا صاحب الإجازة الفاضل ، أنه
عازم على القيام بخرجة جديدة ، وستكون هذه هي الثالثة ، بحثاً في العالم عما يسميه
بالمغامرات ، ولا أستطيع أن أتصور أن يسميها بهذا الاسم . في المرة الأولى رأيناه يعود
منها مرقداً بالمقلوب على حمار ، مطحوناً بضربات عصا ، وفي المرة الثانية عاد إلينا
محمولاً على عربة تجرها الثيران ، محبوساً في قفص تخيل أنه مسحور فيه ، وكان هزياً ،
نحيلاً ، حزياً ، حتى أن أمه نفسها ما كانت لتتعرف من هو ، وكانت عيناه غائرتين حتى
أعماق مخه . ولكي يستعيد حالته بعض الشيء ، كلّفني هذا أكثر من ستمائة بيضة ، والله
يعلم ذلك ، وكل الناس ، خصوصاً دجاجاتي التي لن تدعني أكذب .

فأجاب صاحب الإجازة : أنا أصدق هذا بسهولة ، لأن دجاجاتك جيدة ، سمينة ، ربيت

تربية حسنة ، بحيث لا تخط بين الكلام ، حتى لو كان في ذلك هلاكها . وهكذا ، يا سيدي القهرمان ، لا همّ عندك إلا الخوف مما يريد أن يفعله السيد دون كيخوته ؟ فأجاب : كلاً ، لا يوجد هم آخر .

فقال : اذن لا تقلقي ، وعودي بهدوء الى بيتك ، وأعدي لي شيئاً ساخناً آكله . وفي الطريق رتلي دعاء القديسة ألولينا اذا كنت تعرفينه ، سأحضر في إثرك ، وسترين العجائب .

فأجابته الخادمة : يا لتعاستي ! ألا تقول لي أن أرتل دعاء القديسة ألولينا ؟ كان سيكون مفيداً لو كان مولاي يشكو ألماً في أسنانه ، ولكنه يشكو من ألم في عقله .

فقال : أنا أعرف ما أقول ، يا سيدي القهرمان ، اذهبي ، ولا تنازعيني ، أنت تعلمين أنني صاحب إجازة من شلمنقة .

فمضت الخادمة ، ومضى صاحب الإجازة الى القسيس ليخبره بما سيأتيه نبأه في وقته ومكانه .

وفي تلك الأثناء اختلى دون كيخوته وسنشو ، وجرت بينهما محادثة يرويهما مؤرخهما بكل دقة وصحة .

قال سنشو لمولاه : مولاي ! لقد حفلت امرأتي على تركي أذهب مع سيادتك الى حيث تريد اقتيادي .

- قل « حملت » يا سنشو ، لا « حفلت » .

فقال سنشو : إذا لم تخني الذاكرة فإنني رجوتك مرة أو مرتين ألا تصيح أبداً كلماتي مادمت تفهم ما أقصده . فإن لم تفهمه فقل بكل بساطة : « سنشو يا شيطان ، أنا لا أفهم » . وحينئذ إذا لم أفهمك فصحني ، لأنني لطيف جداً .

- أنا لا أهم يا سنشو ، لأنني لا أعرف ما معنى : « إنني لطيف جداً » .

فأجاب سنشو : « لطيف » ، كمن يقول : « إنني كلي هكذا » .

- إنني لا أفهم يا سنشو .

- إذا كنت لا تفهم ، فليكن الله معي ، لا أدري بعد ماذا أقول .

- آه ، آه ، حزرت : أنت تريد أن تقول إنك « مطيع » جداً ، سلس القياد ، مهاود ، وأنت ستتحمل كل ما أقوله لك ، وتعمل بما أعلمك إياه .

فقال سنشو : أراهن أنك فهمتني من البداية ، لكنك يلذ لك أن تربكني حتى أقول منات العبارات غير المناسبة .

فقال دون كيخوته : يجوز ، على كل حال ، ماذا تقول تريزة ؟

- إنها تقول يا سيدي إن عليّ أن أعقد اتفاقات سليمة معك ، وإن المكتوب يتكلم ، ولكن الكلام يسكت ، ومن يعط الورق لا يفتنه ، وأنّ عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة أو في الغد . أما عن نفسي فأقول إن نصيحة المرأة قليلة القيمة ، لكن من لا يتبعها يكن مجنوناً .

فأجاب دون كيخوته : وأنا أعتقد مثلك ، لكن تابع كلامك ، يا صاحبي سنشو ، لأنك لاتعطينا اليوم إلا الدرر .

فقال سنشو : أقول لك إذن ، كما تعرف أنت خيراً مني ، أن كل نفس ذائقة الموت ، اليوم نعيش ، وغداً لا ، يموت الحمل كما يموت الكبش . لا يستطيع إنسان أن يزيد في عمره ساعة أكثر مما قدر الله ، لأن الموت أصم ، وحين يقرع على باب حياتنا يجرى دائماً ، ولا يستطيع أن يوقفه دعاء ولا قوة ولا صولجان ولا سيد ، كما يقول الكل ويعظ الواعظ على المنبر .

فقال دون كيخوته : كل هذا صحيح ، لكنني لا أرى إلى أين تريد الوصول .

فأجاب سنشو : أريد الوصول إلى أن تقرّر لي سيادتكم مرتباً محدداً عن كل شهر أخدمك فيه ، وهذا المرتب تدفعه لي نقداً ، لأنني لا أريد أن أعتد بعد الآن على مكافآت تأتي متأخرة أو قليلة أو لا تأتي أبداً ، والله يعينني فيما أملك ، وأخيراً أريد أن أعرف ماذا سأكسب ، قليلاً كان أو كثيراً . إن الدجاجة ترقد على بيضة ، كثير من القليل يصنع الكثير ، وطالما يكسب المرء شيئاً فهو لا يضيع شيئاً . صحيح أنه لو حدث - وهو ما لا أعتقد ولا أرجوه - أن أعطيتني الجزيرة التي وعدتني بها ، فإني لست من الجحود والشرهة بحيث لا أوافق على تقدير دخلي من هذه الجزيرة ثم يخضم من مرتباتي .

فقال دون كيخوته : يا صاحبي سنشو ، أحياناً يكون القط حسناً كالقار .

فأجاب سنشو : أنا فاهمك . لا يهم ، بشرط أن تكون قد فهمت قصدي .

فقال دون كيخوته : لقد فهمتك جيداً ، إلى حد أنني نفذت إلى أعماق عمانق خفي أفكارك ، وأعرف الهدف الذي تستهدفه بسهام أمثالك العديدة . اسمع ياسنشو ، عن طيب خاطر أقرّر لك مرتباً لو أنّني وجدت في تاريخ أي فارس جوال شاهداً يمكنني من أن أعرف ماذا يكسب السواس سواء في الشهر ، أو في السنة . لكن في كل الكتب التي قرأتها لم أجد أبداً أن أحد الفرسان قد قرّر مرتباً ثابتاً لسائسه : فالكل كانوا يخدمون بحسب ما تأتي به الظروف ، وفي الوقت الذي يكون فيه الأمر أبعد ما يكون عن تفكيرهم يكافأون

بجزيرة أو شيء مشابه ، أو يظفرون بلقب وإقطاع ، حينما يكون الحظ موافقاً لسادتهم . وهكذا يأسنشو إذا كنت قانعاً بهذه الآمال وبهذا الرجاء ، وأردت أن تعود الى خدمتي ، فيها ونعمت ، لكن أن تظن أنني سأخالف من أجل خاطرك العريق الذي جرت عليه الفروسية الجوّالة فهذا خطأ . عد إذن الى بيتك ، وخبر تريزاك بمقاصدي ، فإن استحسنّت هي وأنت أن تتبني بحسب ما تأتي به الظروف (بما فيه القسمة) ، فيها ونعمت ، وإلاّ فلنفرق كأصدقاء ، إن الحبّة حين لا يخلو منها برج الحمام ، فإن الحمام هو الآخر لايعوز ، وتنبه الى أن الأمل الطيب أفضل من الامتلاك السيئ ، والمطالبة الحسنة أفضل من الدفع الزهيد . إنّي أكلّمك هكذا يا سنشو لأبين لك أنني أستطيع مثلك أن أطلق الأمثال كالأمطار . وبالجملّة أقول لك إذا كنت لاتريد أن تتبني بحسب ما تأتي به الظروف ، وأن ينالك ماينالني ، فليكن الله معك ، وليبارك عليك ، ولن يعوزني أن أجد سواً أكثر طاعة ، وغيرة ، وأقلّ بلاهة وثرثرة منك .

فلما سمع سنشو قرار مولاه الحازم ، غشي على بصره ، وخار قلبه ، لأنه اعتقد اعتقاداً جازماً أن دون كيخوته لن يرحل بدونه ولو من أجل ذهب الدنيا بأسرها . وظلّ حائراً مبلساً مفكراً ، وهنا دخل سمسون كرسكو ، تتبعه بنت اخته والخادمة ، وهما متلهفتان لمعرفة ماذا سيستخدم صاحب الإجازة من حجج لثني مولاها عن الرحيل طلباً للمغامرات . وكان سمسون يحب المزاح ، فاقترب من الفارس ، وقبّله كالمرّة الأولى ، وبصوت جهوري قال له :

- أي زهرة الفروسية الجوّالة! نور الأسلحة الباهرا شرف الأمة الاسبانية ومرآتها! جعل الله القدير أولئك اللواتي أو الذين يريدون أن يعترضوا ويضعوا العراقيل في سبيل خرجتك الثالثة - لا يستطيعون هم الخروج من تيه رغائبهم ، ولا ينجحون أبداً في نواياهم السيئة . ثم تلفت الى الخادمة وقال لها :

- تستطيعين الآن أن تكفي عن قراءة دعاء القديسة أولينا ، لأنّي أعلم الآن أن النجوم قد قرّرت أن يعود دون كيخوته لتنفيذ أفكاره العالية الجديدة ، وأرى ضميري غير مستريح إذا لم أحث وأقنع هذا الفارس ألاّ يؤجّل طويلاً استخدام قوة ساعده الباسل وطيب شجاعته الجسور ، إنه بتأخيريه يسيء الى إصلاح المظالم ، وحماية اليتامى ، وشرف الأوائس ، والدفاع عن الأيامي ، وحماية الزوجات ، وأمور أخرى من النوع نفسه تمس ، وتنتسب اليّ ، وهي من صميم نظام الفروسية الجوّالة . فإلى الأمام اذن يا سيدي دون كيخوته ، أيها الفارس الشجاع الجميل ، لتبدأن عظمتك في المسير اليوم قبل الغد . وإذا أعوزك شيئاً في

سبيل التنفيذ ، فهأنذا مستعد لتلافيه بشخصي ومالي ، وإذا احتاجت عظمتك الى سانس ، فسأعد نفسي سعيداً جداً لو سمحت لي أن أخدمك .

وعند هذه الكلمة قال دون كيخوته لسنشو وهو يتلفت اليه ،

– هذا هو يا سنشو ، ألم أقل لك إنني لن يعوزني السواس ؟ هاهوذا يتطوّع ، إنه صاحب الإجازة العديم النظير سمسون كرسكو ، بهلول جامعة شلمنقة ، صحيح الجسم ، خفيف الحركة ، كتوم ، يستطيع احتمال البرد والحر ، الجوع والعطش ، وبالجملية يتصف بكل الصفات المطلوبة من سانس فارس جوال . وعلى ذلك فمعاذ الله أن أوافق – من أجل إرضاء رغبتى – على تحطيم عمود الآداب ، ورعاة العلوم ، وأن أنتزع فخر الفنون الحرة! ألا فليبق سمسون الجديد في وطنه ليشرّفه ، وكذلك الشعر الأبيض على رؤوس أهله الشيوخ ، سأقتنع بأي سانس كان ، مادام سنشو لا يريد أن يجيء معي .

فقال سنشو والدموع في عينيه ، نعم ، نعم سأجىء معك . يا مولاي! لن يتهمني أحد بسوء الصبحة بعد أن أكلت من خبز إنسان .

وما أنا من أسرة جاحدة ، فالكل يعرف ، خصوصاً أهل قريتي ، ماذا كان عليه آل پنثا الذين انحدر من أصلابهم . وأنا أعرف من ناحية أخرى ، بالآثار الطيبة والكلمات الطيبة ، رغبتك في أن تكافئني . فإذا كنت قد تجاوزت الحدود حين طلبت منك مرثباً ، فإنما فعلت ذلك إرضاء لزوجتي التي إذا وضعت شيئاً في رأسها تضغط عليك لتجعلك توافق أشد مما يضغط صانع البراميل على دوائر براميله لإدخالها بعضها في بعض . لكن في نهاية الأمر يجب أن يكون رجلاً ، والمرأة ليست إلا امرأة ، ومادمت رجلاً ، وهو مالا أستطيع إنكاره ، فإني أريد أن أكون رجلاً في بيتي ، رغم أنف الجميع . فلم يبق إذن الآن غير أن تضع وصيتك مع ملحقها ، حتى لا يمكن نسخها ، ولنأخذ في السير حالاً ، حتى لانجعل روح السيد سمسون تتعذب أكثر مما تعذبت ، إذ هو يقول أن ضميره يلزمه بإقناعك بالخروج للمرة الثالثة . وأنا أتقدم لخدمة سيادتك بإخلاص وأمانة ، مثله بل أحسن من كل السواس الذين وجدوا في العصور الماضية والحاضرة .

ودهش صاحب الإجازة من الطريقة التي عبر بها سنشو عن نفسه ، لأنه وإن كان قد قرأ القسم الأول من تاريخه ، لكنه لم يعتقد أبداً أنه متمتع هكذا كما صور ، لكن حينما سمعه يتكلم عن الوصية والملحق الذي لا يمكن نسخه ، بدلاً من فسحه ، صدق بسهولة كل ما قرأه عنه ، واعتقد أنه من أكبر الحمقى في هذا العصر ، وأنه لم يوجد أبداً مجنونان مثل المولى وخادمه .

وأخيراً قُتل دون كيخوته وسنشو بعضهما الآخر ، وبقياً صديقين ، ثم ، بناء على رأى وموافقة كرسكو العظيم ، الذي أصبح بمثابة وحي لهما .تم الإتفاق على أن يتم الرحيل في غضون ثلاثة أيام ، وفي تلك الأثناء يعد كل مايحتاجان اليه للسفر ، ويحصل على خوذة كاملة بعدتها ، لأن دون كيخوته أراد أن يكون له سلاح كامل مهما يكن الثمن . فوعده سمسون بأن يزوده بواحدة لأنه يعلم أن أحد أصدقائه عنده واحدة ، لن يرفض إعطائه إيّاها ، لأنها قد وستخها الصدا والرتوبة أكثر مما جلاها السنباذج وصقلها .

وراحت بنت الأخت والخادمة تصبّان اللعنات التي لاحصر لها على صاحب الإجازة ، وتنتزعان شعورهما ، وتخدشان وجهيهما ، مثل البواكي في العصر القديم ، كانتا تنوحان على رحيل سيدهما ، وكأنه مات . لكن الدور الذي لعبه سمسون ، بإقناعه دون كيخوته بالخروج مرة ثالثة ، كان قد اتفق عليه ، كما يقول مؤرخنا ، مع القستيس والحلاق .

وأخيراً ، وخلال الثلاثة أيام الباقية ، تزود دون كيخوته وسنشو بكل مااعتقدا أنهما سيكوانان في حاجة اليه . وسكّن سنشو روع زوجته ، ودون كيخوته روعي بنت أخته وخادمتها ، ثم رحلا أثناء الليل ، دون أن يراهما أحد ، وأخذوا طريق توبوسو ، دون كيخوته راكباً على فرسه الطيب روئيناته ، وسنشو على حماره العجوز ، وكان الخرج مزوداً بالزاد وكيس النقود الذي أعطاه دون كيخوته لسنشو للإنفاق على ماسيحتاجان اليه . وقبل سمسون الأرض ، واستحلفه بأن يوافيه بأنبائه حسنة كانت أو سيئة ، حتى يفتبط أو يبتس ، كما تقضي بذلك قواعد الصداقة . فوعده بهذا دون كيخوته . واتخذ سمسون طريقه الى قريته ، بينما تابع المولى والسائس الطريق الموصل الى مدينة توبوسو العظيمة .

الفصل الثامن

فيما وقع لدون كيخوته وهو ذاهب لرؤية سيدته
دلثنيا دل توبوسو

«تبارك الله العظيم!» هكذا يقول سيدي حامد بن الأيل في بداية هذا الفصل الثامن ، «تبارك الله!» وكرّرها ثلاث مرّات ، والسبب في هذه التبريكات هو كما يقول أن دون كيخوته وسنشو پنثا شرعا في الحملة ، وأن الذين يقرأون هذا التاريخ اللطيف يستطيعون الآن أن يتأكّدوا ، منذ الآن ، أنه قد بدأت مغامرات المولى ومساخر السانس . وفي نفس الوقت يدعو القارئ الى نسيان المغامرات السابقة التي قام بها الباربع النبيل ، وألا يشغل نفسه الا بالمغامرات القادمة ، وهي تبدأ الآن في طريق توبوسو ، كما بدأت الأولى في سهل مونتييل . وما يطلبه لا يعد شيئا لو قورن بما يعد به . وهو يتابع هكذا :

لما رحل سمسون صار دون كيخوته وسنشو وحدهما ، وأخذ روئيناتته في الصهل والحصار في النهق ، فعد صاحبانا المغامران هذا علامة فال حسن . لكن إذا كان علينا أن نقول الحق فإن نهقات الحمار كانت أطول من سهلات الفرس ، مما جعل سنشو يستنتج أن سعادته تفوق سعادة مولاه . ولا ندري هل استند في رأيه الى التنجيم الفضائي^(١) ، وكان له به بعض إلمام ، فإن هذا التاريخ لا يقول لنا عن هذا الموضوع شيئا .

لكن كثيرا ما سمع سنشو يقول حين يترنّج الحمار أو يسقط أنه كان يود ألا يكون قد خرج من بيته ، لأنه إذا ترنّج أو سقط لا يكسب غير تمزيق نعاله أو تكسير أضلاعه ، وعلى الرغم من أنه كان ساذجا مغفلا فإنه لم يخطئ في هذا الحزر كثيرا . ومع ذلك قال له دون كيخوته : لا يا صاحبي سنشو! كلما تقدّمنا في السير ازداد الظلام ، والأمل يضيع في أن نرى توبوسو عند مطلع النهار . وقد قرّرت الذهاب الى هناك قبل أن أخوض أية مغامرة .

(١) قسم من علم النجوم ، يتعلم منه المنجم القواعد التي بها يستخلص مسائر وأقضية المولودين اعتماداً على الأبراج . ويمكن أن نسمّيه «علم الطالع» .

وهناك أتلقى بركة دلثنيا المنقطعة النظير وأودعها ، وبهذا التوديع أتأكد أنني سأفلح في إنجاز أخطر مغامرة ، لأنه لا شيء في العالم يجعل الفرسان أكثر بسالة من أن يشعروا بعطف محبوباتهم .

فقال سنشو : وأنا اعتقد مثل اعتقادك ، ولكنني أظن أن من الصعب عليك أن تتكلم مع السيدة دلثنيا ، أو أن تراها في مكان تستطيع أن تتلقى فيه بركاتها ، اللهم إلا إذا رمتها عليك من فوق جدران حاصل الدجاج حيث رأيتها في المرة الأولى التي حملت اليها نبأالحماقات التي لذ لك القيام بها في سيرامورينا (جبل الشارات) .

فقاطعه دون كيخوته : جدران حاصل الدجاج ! إن خيالك أنت هو الذي يظهر لك على هذا النحو المكان الذي يسكن فيه هذا الجمال ، هذا اللطف الذي لايفي بوصفه واصف : إنه لا يمكن أن يكون إلا إبهاء وطنفاً ، وردهات ، أو كما يقال دهاليز قصور فاخرة غنية .

فقال سنشو : يجوز ، ولكنها بدت لي جدراناً كالحة إن لم تخني الذاكرة .
فقال دون كيخوته : لا يهم ياسنشو ، ولنذهب الى هناك على أي حال : مادمت سأراها ، حتى لو كان ذلك من فوق جدران ، ونوافذ ، وفتحات ، ومعشقات بستان ، ومادام شعاع من شمس جمالها سيبهل عيوني ، وينير عقلي ويقوي قلبي فيبقى وحيداً لا نظير له في الحكمة والشجاعة .

فقال سنشو : أعترف لك يامولاي أنني حينما رأيت شمس السيدة دلثنيا دل توبوسو هذه لم تكن ساطعة بحيث يمكن أن يصدر عنها أي شعاع ، وربما أيضاً ، وكانت مشغولة بغريلة القمح ، كما قلت لك ، تسبب الغبار المنتشر منها كالسحاب ، في حجب وجهها وجعله مظلماً .

فقال دون كيخوته : إنك تخطئ خطأ عجبياً ياسنشو حين تقول وتفكر وتعتقد وتقرر أن سيدتي دلثنيا كانت تغربل القمح ، فهذا عمل يتعارض تماماً مع ماتعمله وينبغي أن تعمله الشخصيات الممتازة ، فهؤلاء خصصن وقدرن لأعمال وازجاءات فراغ أكثر نبلاً ، مما من شأنه أن يبرز عظمتهم بكل جلاء . ألا تذكر ياسنشو أبياتاً لشاعرنا فيها يصف الأعمال التي كان يقوم بها ، في قصور من البلور ، الحوريات الأربع اللواتي خرجن من نهر التاجه ، ورحن ينسجن تلك الغلالات الرقيقة التي وصفها لنا الشاعر^(١) : لم يكن نسجها إلا من الذهب ، والدر والحريز . ومثل هذا كان شغل سيدتي حين رأيتها ، اللهم إلا إذا كان حسد ساحر

(١) جرتلاسو دلابيجا ، الرعوية رقم ٣ .

خبث قد عمل على تغيير كل الأشياء التي يمكن أن تسرتني ، الى أشكال وصور أخرى . وهذا ما يجعلني أخشى ، في تاريخ مغامراتي الذي يقال أنه مطبوع ، إذا كان المؤلف ساحراً من خصومي ، أقول أخشى أن يكون قد وضع شيئاً مكان شيء ، وخلط آلاف الأكاذيب بالحق ، ولذا له أن يروي مغامرات في غير محلها ، لا شأن لها بمجرى التاريخ . أيها الحسد ! يا منبع الشرور التي لا تنتهي ، وبإدودة تقرر كل الفضائل ! إن الرذائل ، يا صاحبي سنشو ، كلها تحمل معها شيئاً ساراً ، لكن رذيلة الحسد لاتعطي إلا الأحقاد وألوان الغضب وماتعافه النفس .

فأجاب سنشو : رأيي مثل رأيك . ولهذا فإني أعتقد أنه في هذه الأسطورة أو التاريخ ، الذي يقول صاحب الإجازة كرسكو أنه رآه ، لابد أن شرفي يسير فيه كما تسير العربة المتخلخلة ، مختلطاً ، مشيناً ، هنا وهناك ، كانساً الشوارع ، ومع ذلك فقسمياً بشرفي لم أقل أية كلمة سيئة عن أي ساحر ، وليس عندي من الثراء ما يغير الحسد . صحيح أنني ماكر داهية الى حد ما ، لكن سذاجتي ، وهي دائماً طبيعية وغير مصطنعة أبداً ، تغطي على كل شيء ، وحين لا يكون ثم غير الاعتقاد الجازم الصريح المخلص في الله وفي كل ما تعلمنا إياه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة ، وكراهيتي لليهود وأنا عدوهم اللدود ، وأجد نفسي عارياً ، فلن أفقد شيئاً ولن أكسب شيئاً بذلك ، وعلى الرغم من أنني أرى نفسي تدرع الدنيا في كتاب ينتقل من يد الى يد ، فلن أهتم أدنى اهتمام بما يمكن أن يقال عني .

فقال دون كيخوته : هذا شبه ، ياسنشو ، لما جرى لشاعر شهير في عصرنا هذا : ألف هجاء لاذعاً ضد كل سيدات البلاط ، إلا واحدة ، لا يستطيع المرء أن يقول هل هي سيّدة أو لا . فلما رأت أنها ليست في ثبث الأخريات ، شكت الى الشاعر ، وسألته ماذا لاحظ فيها مما جعله لا يدرجها ضمنهن ، ورجته أن يطيل في هجائه حتى تندرج ضمنه ، دون تمييز وبحسب المولد : فقبل الشاعر ، ووضعها في مرتبة الأخريات ، ورضيت لأنها رأت نفسها قد اشتهرت ، وإن كان ذلك بالقدح فيها . وإلى هذا ينتسب أيضاً ما يروي عن الراعي الذي أحرق معبد ديانا الشهير الذي كان إحدى عجائب الدنيا السبع : وهو لم يفعل ذلك إلا من أجل تخليد اسمه بين الأجناس المقبلة ، وعلى الرغم من أنه منع (بقرار عام) من ذكر أو كتابة اسمه (وإلا كانت العقوبة هي الإعدام) حتى لاتتحقق أمنيته ، فإن أحداً لايجعل أن اسمه ايروستراتس . وبهذه المناسبة يحضرني أيضاً ما وقع بين الامبراطور الكبير شارلكان (كارلوس الخامس) ونبيل في روما : لقد ودّ الامبراطور أن يرى ذلك المعبد الشهير

المستدير ، الذي سماه الأوائل باسم معبد جميع الآلهة^(١) ، ويسمى اليوم ، بتكريس أحسن ، باسم معبد جميع القديسين . وهو أسلم المعابد التي شيّدها الوثنية في روما ، ويعطينا أعظم فكرة عن عظمة القدماء وفخفتهم : شكله شبيه بنصف برتقالة ، لكنه كبير جداً ، وداخله في غاية الإضاءة ، وإن كان النور لا يدخل فيه إلا من نافذة ، أو بتعبير أدق ، من فتحة مستديرة في القمة . والامبراطور ، وهو يتطلع من هذه الفتحة ، أعجب بجمال البناء ، وكان معه نبيل روماني لفت انتباهه الى جمال هذه الفتحة المعمارية وأناقته . فلما خرج الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) قال هذا النبيل له : « يا صاحب الجلالة المقدسة ، آلاف المرات راودتني الرغبة في أن أمسك بجلالك بين ذراعي وأرتمي الى أسفل معك ، حتى أترك ذكرى خالدة لنفسي » . فقال له الامبراطور : « أشكر لك عدم تنفيذك لهذه الفكرة السيئة ، ولكن صدق أنني ، من الآن فصاعداً ، لن أعطيك الفرصة كي تدل على إخلاصك ، وتبعاً لهذا ، فإنني أمنعك من الكلام معي أبداً أوالمشول أمامي » . ولما قال هذا منحه منحة عظيمة .

أي سنشوا أريد أن أقول أن الرغبة في اكتساب الشهرة حارة وقوية فينا . من ذا تظن قد ألقى بهوراثيوس كوكلس^(٢) من أعلى الجسر في نهر التفره ، وهو في تمام سلاحه ؟ ومن أحرق يد وذراع موكيوس اسكفولا^(٣) ؟ ومن دفع كورتيوس الى الإلقاء بنفسه في تلك الهاوية المشتعلة العميقة التي انفتحت في وسط روما ؟ ومن جعل قيصر^(٤) يعبر الروبيكون ، رغم

(١) البانيون (= جميع الآلهة) .

(٢) بطل من أبطال أيام روما الأولى ، دافع بمفرده ضد دخول جيش بورسا (٥٠٧ ق. م) عن مدخل جسر سوليكيو ، بينما قام أصحابه بتحطيم هذا الجسر من ورائه ، ولما تحطم الجسر ، ألقى بنفسه في النهر وهو بكل سلاحه ، ودخل روماسليماً مغافى . وكلمة « كوكلس » معناها « أعور » ، وقد لُقب به لأنه فقد إحدى عينيه في القتال .

(٣) شاب روماني دخل في معسكر الأعداء الأوترسك حتى وصل الى خيمة ملك الأوترسك أثناء حصار بورسا لروما سنة ٥٠٧ ق. م ولكنه أخطأ فلم يقتل الملك ، بل قتل كاتبه ، ولما قبض عليه واستجوب ، لم يجب بل وضع يده على نار مشتعلة ، ليعاقبها على خطئها ، وتركها لتحترق ، وقال للملك أن لثلاثمائة شاب روماني على استعداد للنفوذ في المعسكر وقتل الملك فحاف بورسا ، وأطلق سراحه .

(٤) نهر صغير في إيطاليا ، يسمى اليوم فيومسينو ، أو بيسانلو ، يصب في الأدرياتي ، ويفصل بلاد الغال الواقعة في هذه الناحية من جبال الألب عن إيطاليا الأصلية . وكان ممنوعاً على القواد الرومان عبور هذا النهر على رأس جيش للدخول في إيطاليا ، لكن يوليوس قيصر عبر النهر على رأس جيشه ، فكان هذا إيذاناً حاسماً بتمرد على وطنه وبداية الحرب الأهلية سنة ٤٩ ق. م ، وكان يصيح وهو يعبر : « تقزرت الأقدار ! » ومن هنا جاءت عبارة « عبور الروبيكون » للدلالة على الإقدام على عمل جري ، وحاسم ، والسبب في ذلك التحريم الذي أصدره مجلس الشيوخ الروماني هو حماية روما ضد جيوش الغال ، وينص القرار على أن من يعبر النهر على رأس لياتي أو حتى كتيبة فإنه يعد خائناً لوطنه ومصيره الى آلهة الجحيم .

أما كورتيوس فشاب روماني كرس نفسه لآلهة العالم السفلي من أجل وطنه ، ذلك أنه انفتحت هاوية عميقة واسعة في وسط الغوروم في روما ، وأعلن الوحي أن الهاوية لن تغلق الا إذا أُلقت فيها روما بأثمن من لديها . وكان كورتيوس قد اشتهر بأعماله البطولية ، فالتى بنفسه في الهاوية وهو بكل سلاحه ، فانسدت الهاوية في الحال ، وذلك سنة ٣٦٠ ق. م .

النذر المضادة ؟ وإذا شئت أمثلة أحدث ، من أمر بإغراق سفن الاسبان البواسل بقيادة كورتيس^(١) العظيم في العالم الجديد ، حتى يسلبهم كل وسيلة للعودة ؟ كل هذه الأعمال المجيدة ، وكثير أخرى غيرها ، كانت وتكون وستكون أعمالاً تصنع الشهرة التي يطمح اليها الفنان ، كجزء من الخلود الذي استحقته أعمالهم العظيمة . أما المسيحيون الكاثوليك ونحن الفرسان الجواله ، فينبغي علينا بالأحرى أن نطمح الى مجد القرون المقبلة ، المجد السرمدي في عليين ، لا إلى غرور الشهرة الحالية التي مهما طال بها الزمان فإنها ستنتهي مع هذا العالم الفاني . ولهذا يانشو علينا ألا نجعل أعمالنا تخرج عن الحدود التي رسمها الدين المسيحي الذي نؤمن نحن به . ولنحطّم الكبرياء بقتل المردة ، والحسد بالقلب الطيب والكرم ، والغضب بالهدوء والاعتدال ، والشراسة والنوم بالقناعة والسهر الطويل ، والفجور والفسق بالثقة التي أوليناها لأولئك اللواتي جعلناهن سيدات أفكارنا ، والكسل بالتجوال في الدنيا والبحث عن الفرص التي يمكن أن تجعلنا ليس فقط مسيحيين أتقياء ، بل وأيضاً فرساناً طائري الصيت ، هذه هي يانشو الوسائل التي بها ينال المدائح الطيفة التي تكون السمعة الطيبة .

فأجابه يانشو : لقد فهمت جيداً ، يامولاي ، كل ماقلت حتى الآن ، لكنني أود أن تتفضل بترديد شك حاك في صدري الآن . فقال دون كيخوته : تريد أن تقول : « تبديد » ، إذن تكلم ، قل ماتريد أن تقوله ، وسأجيبك بما أعرف .

- قل لي يامولاي ، هؤلاء اليوليوس ، وهؤلاء الأوغسطس ، وكل أولئك الفرسان المغامرين الذين ذكرتهم ، وقد ماتوا ، أين هم الآن ؟

- الوثنيون منهم هم في الجحيم من غير شك ، والنصارى ، إن كانوا فضلاء ، هم في المطهر أو في السماء .

- حسن ، لكن ، قل لي ، القبور التي فيها أجسام هؤلاء السادة العظام هل هي مضأة بمصابيح من فضة ؟ والجدران هل هي مزينة بالعكاكات ، والأكفان والشعور والسيقان والعيون التي من شمع ؟

فأجاب دون كيخوته : قبور الوثنيين كانت في الغالب معابد فخمة ، فرماد يوليوس قيصر وضع في هرم من الحجر مرتفع جداً ، يسمى اليوم في روما باسم « مسلة القديس

(١) قائد اسباني ولد سنة ١٤٨٥ ، وانتقل الى الهند الغربية (امريكا) في سنة ١٥٠٤ وكانت آنذاك معبر مجد اسبانيا واثرائها . وفي سنة ١٥١٩ أبحر على رأس اسطول للاستكشاف فنزل في تيبسكو في المكسيك . وأخذ في غزو المكسيك كلها ، واستعمل في ذلك قسوة بالغة ، وعين بعدها حاكماً للمكسيك . وتوفي سنة ١٥٤٧ م فقيراً مهجوراً بعد الوشاية به وعزله وإرجاعه الى اسبانيا .

بطرس^(١)» والامبراطور هادريانوس دفن في قصر كبير كبر المدينة ، واسمه «صخرة هادريانوس» ويسمى اليوم باسم كاستل سانت أمجلو (قصر القديس الملاك) ، والملكة أرتميس شيدت لزوجها موسول بناء كان يعد من عجائب الدنيا السبع ، لكن كل هذه المقابر وكثير غيرها مما شيده الوثنيون لم تكن مزينة بالأكفان ولاقربين تدل على أن الموتى كانوا قديسين .

فقال سنشو : «الآن يا مولاي ، قل لي ، أرجوك ، ماهو الأجل : إحياء ميت ، أو قتل مارء ؟

فقال دون كيخوته : «الجواب سهل : إحياء ميت أجمل .
فصاح سنشو : «آه! أمسكت بك! إذن إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة ، والأعرج ، والمريض ، وأن يكون أمام الضريح مصابيح مشتعلة ، وهياكل حافلة بالأتقياء الذين يتعبدون حائين ذخائر ، كل هذا يعطي ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، سمعة أعظم من تلك التي يتركها أو تركها كل الأباطرة الوثنيين والفرسان الجواله الذين وجدوا ؟
فأجاب دون كيخوته : «أوافق على ما تقول .

فقال سنشو : «اذن أجسام وذخائر القديسين تنال هذه الشهرة ، وهذه الألفاف ، وهذه المزايا ، أو أي اسم تسميها ، وبموافقة كنيسة المقدسة أمنا يكون لهم مصابيح ، وأحجبة ، وأكفان وعكازات وصور ، وشعور ، وعيون ، وسيقان ، تزيد التقوى وتنمي سمعتهم المسيحية ، إن الملوك يحملون ذخائرهم على أكتافهم ، ويقبلون قطعاً من عظامهم ، ويزينون بها مصلاتهم ومذابحهم الثمينة .

فقاطع دون كيخوته قائلاً : «لكن ماذا ينبغي أن نستنتج من كل ما قلته لي ؟
فقال سنشو : «يا مولاي ، أقصد أن أقول أن ما علينا إلا أن نجعل أنفسنا قديسين ، فنحصل بسرعة على السمعة الطيبة التي نشتاقي إليها . بالأمس أو في اليوم الذي قبله (لأنه لم يمض الاوقت قصير على إمكان التكلم هذا) قدس أو طوب إخوان بيطان حافيان ، وهاهم الناس أخذوا يرون من الشرف العظيم أن يلمسوا ويقبلوا الأغلال الحديدية التي تمنطقا بها وعذباً جسميهما بواسطتها : وهذه الأغلال تنال من التوقير أكثر مما يناله سيف أورلندو في

(١) هي المسلة المصرية التي أمر كاليجولا بنقلها من مصر (معبد هيرابوليس) الى روما لوضعها في السيرك الذي أمر ببنائه في الميدان الفاتيكانى ، وسقي فيما بعد بسيرك نيرون . وتقوم اليوم في ميدان القديس بطرس أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما ، وارتفاعها ٢٥ ١/٢ متر . والذي أمر بنقلها الى هذا المكان الأخير هو البابا سكستوس الخامس في سنة ١٥٨٦ (بعد إقامة ثرياتس في ايطاليا) .

صوان مولانا الملك حفظه الله من كل سوء . وهكذا ياسيدي ، أن يكون المرء أخاً بسيطاً في أية طريقة رهبانية أياً كانت هذا أفضل من أن يكون فارساً جوالاً باسلاً ، وعشرتان من السياط أعظم عند الله من ألف ضربة رمح تسدّد الى المردة ، والوحوش ، والعفاريت . فأجابه دون كيخوته : كل ماتقوله صحيح ، لكننا لا نستطيع أن نصبح كلّنا رهباناً . إن هناك طرقاً عديدة يقتاد الله فيها عبيده الى الجنّة ، والفروسية دين ، وفي السماء (الجنة) فرسان قدّيسون .

فأجاب سنشو : حسن ، لكنني سمعت أن في السماء (الجنة) من الرهبان أكثر مما فيها من الفرسان الجوّالة .

- هذا بسيط : إذ يوجد رهبان أكثر من الفرسان على الأرض .

- وهؤلاء أيضاً كثيرون .

- لاشك أنهم كثيرون ، لكن القليل منهم يستحق اسم فارس .

وبهذه الأحاديث وأشباهاها قضيا الليل والنهار التالي دون أن يلقياً شيئاً جديراً بأن يروى ، مما ألمّ دون كيخوته أشد الإيلام . وأخيراً ، في اليوم التالي ، عندما وافى الليل ، شاهدا مدينة توبوسو العظيمة ، التي أنعش مرآها نفس الفارس وأحزن سنشو ، لأنه لم يكن يعرف أين بيت دلثنيا ، ولم يره أبداً من قبل ، لاهوولامولاه : حتى كان كلاهما مضطرباً : الواحد رغبة في رؤيته ، والثاني لأنه لم يره أبداً ، وسنشو لم يتخيل ماذا يستطيع أن يفعل لو بعث به مولاه الى توبوسو . وأخيراً لم يشأ دون كيخوته أن يدخل المدينة إلا ليلاً ، وفي انتظار أن يأتي الليل توقفا عند سنديان مجاور ، وفي الساعة الملعونة دخلا المدينة حيث جرى لهما ما ستعرف .

الفصل التاسع

وفيه يروى ما سيرى

أوشك الليل على الانتصاف حينما ترك دون كيخوته وسنشو الغابة الصغيرة ودخلا توبوسو . كان الصمت العميق يخيم في القرية ، لأن كل السكان كانوا يغطون في نوم عميق . وكانت الليلة واضحة بعض الوضوح ، وإن كان سنشو يود لو كانت دامسة الظلام ، حتى يجد في هذه الظلمة عذراً عن حماقته . ولم يكن يسمع في كل القرية غير نباح الكلاب يرن في مسامع دون كيخوته ويشيع الاضطراب في قلب سنشو . وبين الفينة والفينة كان يسمع حمار ينهق ، وخنازير توصوص ، وقطط تموء ، وكان يبدو أن هذه الصيحات المختلفة تتزايد مع صمت الليل ، فرأى فيها الفارس العاشق فال سوء . ولكنه قال لسنشو :
- يا بني! قدني الى قصر دلثنيا ، فربما نجدها ساهرة .

فقال سنشو : يا لله! الى أي قصر تريدني أن أقفادك ، لأن ذلك الذي شاهدت فيه عظمتها لم يكن غير بيت صغير ؟

فقال دون كيخوته : لابد أنها قد راحت تستريح إذا في جناح صغير من أجنحة القصر ، للتسلية مع وصيفاتها ، كما هي عادة السيدات العظيمات والأميرات .

فقال سنشو : يا مولاي! مادام سيادتك تريد ، على الرغم مني ، أن يكون بيت السيدة دلثنيا قصرأ فهل هذه الساعة التي نجد بابه مفتوحاً وهل من المناسب أن نطرق طرقات كبيرة ليفتح لنا ، فنبعث الذعر في نفوس الجميع ؟ وهل يقرع باب فتياتنا ، كما يفعل أولئك العشاق الذين من حقهم أن يأتوا ويطرقوا الباب ويدخلوا في أية ساعة كانت ؟

فأجاب دون كيخوته : اذن فلنبحث عن القصر من بيت الى بيت ، وبعد هذا أقول لك ما ينبغي أن تفعل . لكن إما أن أخطئ خطأ فاحشاً أو هذه الكتلة الهائلة الكابية التي ترى من هنا لابد أن تكون قصر دلثنيا .

فأجاب سنشو : قدنا سيادتك ، ربّما كانت كذلك ، لكن لو رأيته بعيني ولمسته بيدي لاعتقدته كما أعتقد أن الساعة وقت النهار الآن .

فسر دون كيخوته في المقدمة ، ولما أن سار مائتي خطوة صار بالقرب من هذا الظل الكبير ، فشاهد برجاً عالياً كبيراً ، وتبيّن له أن هذا البناء ليس قصرأ ، بل الكنيسة الكبرى في القرية . فقال لسنشو : «لقد لقينا الكنيسة» . فأجاب سنشو : «هذا ما أراه جيداً ، والحمد لله أنه لم يقدّر أن نلقي قبرنا أيضاً ، لأنه ليس من حسن الطالع أن نتجوّل في المقابر في مثل هذا الوقت ، لكن إذا لم تخني الذاكرة فإنّي أذكر أنني قلت لسيادتك أن بيت هذه السيدة يقوم في حارة مسدودة» .

فصاح دون كيخوته : لعنة الله عليك ، يا أحمق! أين رأيت أن القصور الملكية تشيّد في حارات مسدودة ؟

فقال سنشو : يا مولاي! لكل بلد عوائده ، يجوز أنه في توبوسو تبنى القصور والمباني الشاهقة في حارات ، ولهذا أرجوك أن تتركني أبحث في هذه الأزقة والحواري التي تتجلى أمام ناظري ، ولربّما أجد ، في ركن من الأركان ، ذلك القصر الملعون ، الذي أود لو أكلته الكلاب ، لأنه يعدّ بنا ويجعلنا نجري هنا وهناك .

فقال دون كيخوته : اسمع يا سنشو! تكلم بمزيد من الاحترام عن الأمور التي تخص سيّدتي ، ولنقض العيد في سلام ، ولا ترم اليد بعد الرمانة .

فقال سنشو : سأضبط نفسي يا مولاي ، لكن هل أستطيع أن أتحمّل ، بصبر ، وأنت تريد منّي أنا الذي لم أر بيت سيّدتك غير مرة واحدة أن يكون حاضراً دائماً في ذاكرتي وأن أجده في منتصف الليل ، بينما لا أستطيع أن أتعثر عليه ، وأنت الذي ربّما رأيته ألف مرة ؟

- أنت تجعلني أياس ياسنشو ، هكذا قال دون كيخوته . تعال هنا أيها الكافر ، ألم أقل لك ألف مرة أنّي في كل أيام حياتي لم أر أبداً دلثنيا المنقطعة النظير ، وإنّي عاشق لها بالسمع فقط وبناء على شهرتها العظيمة بالحكمة والجمال ؟

فأجاب سنشو : اليوم فقط أعلم منك هذا ، وأقول إذن مادمت لم ترها أبداً ، ولا أنا أيضاً...

فأجاب دون كيخوته : هذا غير ممكن ، لأنك قلت لي أنّك رأيته تغربل القمح بالغربال ، حينما أتيت لي بالجواب عن الرسالة التي بعثت بها .

فقال سنشو : لا تصدّق هذا يا مولاي ، إذ عليك أن تعلم أن زيارتي والردّ تمّ بالسماع فقط ، ولهذا فأنا أعرف السيدة دلثنيا بقدر ما أستطيع أن ألكم السماء .

فقال دون كيخوته : سنشو ، سنشو ، يوجد وقت للمزاح ووقت لايقبل فيه المزاح .
إذا كنت أنا أقول أنني لم أرَ أبداً السيدة دلثيا ، ولم أكلّمها بعد ، فأنت تستطيع أن تقول
الشيء نفسه ، لأنك تعرف العكس .
ولما كانا يتناقشان على هذا النحو أبصرا قادمًا اليهما رجلاً معه بغلان . وبحسب الضجة
التي أحدثها محراث وهو ينجر على الأرض ، حكما بأنه حرّاث استيقظ قبل طلوع الشمس
ليذهب الى عمله ، وكان يسير وهو يغني الرومانثة :

يا فرنسيون فتم صيدكم في رنصثال

فقال دون كيخوته : أراهن بحياتي لو جرى لنا شيء سعيد هذه الليلة ألا تسمع ما
يغني هذا القروي ؟

فقال سنشو : لكن ماذا يهمننا من صيد رنصثال ؟ في وسعه أيضاً أن يغني رومانثة
كلاينوس^(١) فالأمر سيان ، لن يحدث لنا بسببها أكثر ولا أقل ، واقترب الحرّاث ، فقال له
دون كيخوته : يا صاحبي ! منحك الله كل أسباب السعادة : هل تستطيع أن تقول لي أين قصر
المنقطعة النظير دلثيا دل توبوسو ؟

فأجاب الفلاح : سيدي ! أنا لست من هنا ، ولم تمض على إقامتي هنا غير وقت قصير ،
في خدمة مزارع غني . لكن ها هو ذا ، في المواجهة ، بيت خازن الكنيسة والقسيس ، وهما
يستطيعان أن يديلاك على تلك السيدة الأميرة ، لأن عندهم ثبّتاً بكل سكّان الناحية ، ومع
ذلك فأنا أعتقد أنه لا يوجد في كل القرية أية أميرة ، بل بعض السيدات الكبيرات اللواتي
يسلكن مسلك الأميرات في بيوتهن .

فأجابه دون كيخوته : لا أشك أن التي أسألك عنها هي واحدة من هؤلاء .
فقال الفلاح : يجوز ياسيدي ، لكن هاهو ذا النهار قد طلع ، وداعاً ! ثم ضرب بغليه
بالسوط ومضى لسبيله دون انتظار أسئلة أخرى .

فلما رأى سنشو مولاه مفكراً ومتضيقاً من هذه الإجابات قال له :
« مولاي ، اقترب مطلع النهار ، وليس من المناسب أن تفاجئنا الشمس هكذا في
الشارع . الأفضل أن نخرج من المدينة ، ونختبئ في غابة مجاورة وسأعود في وضع
النهار ، ولن أدع ركناً في كل القرية حتّى أعثر على بيت أو قصر أو سراي سيدتي . وسأكون

(١) هذه الرومانثة تقول انه كان على كلاينوس Calinos المغربي (المسلم) أن يطيح برقاب ثلاثة من أكفأ فرندسا ليحق له الزواج من
اهبيلية ، بنت الملك المنصور (ابن أبي عامر) غير أن رولدان قتله ، فيما تزعم هذه الاسطورة .

شقيّاً جداً إذا لم أعثر عليه . وحين أجده سأتكلم مع عصمتها ، وأخبرها أين أنت وكيف حالك ، وأذكّك تنتظر حتى تدلّك هي على الوسيلة لرؤيتها ، دون مساس بشرفها وسمعتها » . فقال دون كيخوته : يا صاحبي سنشو ، بهذه الكلمات القلائل قلت ألف جملة ، وأوافق من كل قلبي على النصيحة التي أسديتها إليّ . تعال يا ولدي ، ولنكن في مكان ما ، ثم تعود أنت ، كما تقول ، لتبحث عن مكانها وترى سيدتي وتكلّمها ، وأنا أرجو من حكمتها وأدبها أكثر من نعم خارقة .

وكان سنشو علّأحر من الجمر ليسحب موله الى خارج القرية ، خوفاً من أن يفتضح كذبه في الرد الذي أتى به في سيرامورينا (جبل الشارات) من طرف دلثنيا ، ولهذا حث دون كيخوته حقاً شديداً على الإسراع بالسير فوراً . وعلى ميلين من القرية وجدا غابة اختبأ فيها دون كيخوته ، بينما عاد سنشو الى القرية للتكلّم مع دلثنيا . وفي هذه السفارة التي قام بها جرت له أمور تقتضي انتباهاً جديداً وثقة جديدة .

الفصل العاشر

في الطريقة البارعة التي لجأ إليها سنشو لسحر السيدة دلثنيا،
وحوادث أخرى مضحكة ولكنها حقيقية

ولما وصل مؤلف هذا التاريخ العظيم الى الحوادث التي يرويها هذا الفصل قال أنه كان يود أن يجر عليها ذيل الصمت خوفاً من ألا يصدقها أحد ، لأن بوادر دون كيخوته الجنوبية قد اندفعت الى درجة لا يمكن تصوّرها ، بل تفوق أبعد مديي البندقية عن التصديق . ومع ذلك ، وبالرغم من مخاوفه ، فقد صمّم على أن يكتبها كما صدرت عن دون كيخوته ، دون أن يضيف أو ينقص من الحقيقة مثقال ذرة ، ودون أن يتوقّف عند ماعسى أن يوجّه اليه من اتهام بالكذب . وقد أصاب في هذا ، لأن الحقيقة تطهر ولاتدمر ، وتمضي دائماً فوق الكذب ، كالزيت فوق الماء . فتابع تاريخه قائلاً أن دون كيخوته لما اختبأ في الأيكة أو الحرش أو الغابة المجاورة لتوبوسو الكبيرة ، أمر سنشو بالعودة الى المدينة ، وبألا يرجع ويمثل أمامه إلا بعد أن يتكلّم باسمه مع سيده ليرجوها أن تتفضل فتسمح لعبدها الفارس بأن يراها ، وأن تباركه بعد ذلك ، حتّى يمكنه الرجاء في الفلاح في مغامراته الخطرة العسيرة ، فوعد سنشو أن يفعل بكل ما أمر به ، وأن يعود برد جميل مثل ذلك الذي تلقّاه في المرة الأولى . وقال له دون كيخوته :

- اذهب اذن يا ولدي ، ولا تضطرب أبداً حين ترى أمامك نور شمس الجمال التي أنت ذاهب اليها . يالك من سائس سعيد ، سعيد فوق كل السواس في العالم ! ولاتنس خصوصاً أن تحفظ في ذاكرتك الكيفية التي تقابل بها ، وتذكر هل يتغيّر لونها حين تعرض عليها موضوع سفارتك ، وهل تضطرب وهي تسمع اسمي ، وهل تتمكّن من الجلوس على حشاياها حين تجدها جالسة على المنصة الوثيرة اللامعة بالسيدات ذوات المكانة ، وحين تقف هل تستند مرة الى قدم ، ومرة الى القدم الأخرى ، وهل لاتكرّر الرد الذي ستعطيك إيّاه مرتين أو ثلاث مرّات ، وهل تغيّره من رقيق الى خشن ، وحامض الى غرامي ، وهل ترفع يدها الى

شعرها لترتبّه ، وإن لم يكن مضطرباً ، وبالجملة يا ولدي اطبع في ذاكرتك كل حركاتها وأفعالها ، أنك لو رويتها لي بدقة لاستطعت هناك أن أعرف أخفى خفايا أسرار قلبها ، فيما يتعلّق بغرامياتها . وأعلمك ياسنشو إذا لم تكن تعلم أن الأفعال والحركات الخارجية للعشّاق ، حين يتعلّق الأمر بغرامياتهم ، هي بريد أمين يحمل معه أنباء ما يجري في داخل نفوسهم . فاذهب أنت يا صاحبي ، لعلّك تكون أكثر توفيقاً منّي ، وأن تعود بنجاح أكبر من ذلك الذي أنتظره في الخطوة التي تتركني فيها!

فقال سنشو : سأضفي يا مولاي ، وسأعود بسرعة . لكن تشجّع ، وابسط قلبك الصغير المسكين الذي أنا متأكد أنه في هذه اللحظة ليس أكبر من بندقة ، لأنه مقبوض . وتذكّر أنه يقال عادة أن الشجاعة الجيدة تحطّم الحظ السيئ ، وأنه حيث لا يوجد لحم مملّح فلا يوجد وضم لتعليقه ، ويقال أيضاً أن الأرنب الجبلي يثب حين لا ينتظر ، لأننا إن لم نستطع هذه الليلة أن نجد مقر السيدة دلثنيا فالآن وقد طلع النهار أعتقد حقاً أنني سأعثر عليه في اللحظة التي يكون بعيداً عن ذهني ، وإذا عثرت عليه فدعني أعمل .

فقال دون كيخوته : نعم ياسنشو ، لعلّي أفلح فيما أنتظره فلاحك أنت في العثور على أمثال بمناسبة ماتتكلّم عنه .

وعند هذه الكلمات أدار سنشو ظهره ، ووضع البرذعة على حماره ، بينما بقي دون كيخوته منتعلاً ركابه ، منثبياً على رمح ، ونفسه مليئة بالأحزان والأفكار المشوشة . ولتركه في هذا الوقت ، ولنتابع سنشو ينثا الذي أخذ يسير ببطء وهو لا يقل تفكيراً ولا ارتباكاً عن مولاه . ولم يكد سنشو يخرج من الغابة حتّى أدار رأسه ، ولما لم يشاهد دون كيخوته بعد ، نزل من على حماره ، وجلس عند جذع شجرة وأنشأ يكلم نفسه هكذا :

... فلننظر الآن يا أخانا سنشو أين تذهب سعادتك . هل أنت ذاهب للبحث عن حمار فقدته ؟

... لا ، طبعاً .

... عم تبحث إذن ؟

... أوه ، أنا ذاهب للبحث عن أميرة ، وفيها الشمس والجمال وكل نجوم السماء .

... وأين تظن أنك ستجد ماتقوله هذا ، ياسنشو ؟

... أين ؟ في مدينة توبوسو العظيمة .

... حسن ! وباسم من ستبحث عنها ؟

- باسم (من طرف) الفارس الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، الذي يفك المظالم ،
ويطعم العطشان ، ويسقي الجائع .
- كل هذا حسن جداً ، ولكن هل تعرف بيت هذه الأميرة ؟
- يقول مولاي إنه لابد أنه قصر ملكي ، وسراي فخمة .
- وهل تصادف وأنت رأيته في بعض الأحيان ؟
- لكن يبدو لي أن سكان توبوسو سيحسنون صنعاً - إذا عرفوا أنك هنا بقصد إغراء
أميراتهم وإشاعة الفجور بين سيداتهم - لو أنهم رضوا أضلاعك بضربات العصي دون أن
يتركوا فيها موضعاً سليماً .
- لاشك أنهم سيكونون على حق إذا لم يعتبروا أنني مجرد رسول ، ونسوا هذه الأبيات
القديمة : « أنت رسول يا صاحبي ، فلا تستحق أي لوم » .
- لا تعتمد على هذا ياسنشو ، فإن المنتشاويين سراع الغضب بقدر ما هم أمناء ، وهم
خصوصاً حساسون جداً . الله حي لو شمّوك فقط ، للقيت الويل !
- آه ، لكن حذار! هل هذا يعنيني ؟ هل أنا في حاجة ، من أجل إرضاء شخص آخر ،
الى البحث عن ثلاثة مخالب في القط ؟ ثم أن البحث عن دلثيا في توبوسو هو بمثابة البحث
عن ماريكا في رافنا^(١) أو صاحب إجازة في شلمنقة إنه الشيطان ، نعم الشيطان وحده ، هو
الذي شبكني في هذه المسألة .
هكذا كان سنشو يكلم نفسه ، ووصل الى هذه النتيجة : « هيا ، هيا ، هكذا استمر
يقول لنفسه ، لكل داء دواء يستطب به إلا الموت الذي لامر منه ، شننا أولم نشأ ، في
نهاية أعمارنا . إن مولاي ، وعندي على هذا آلاف الأدلة ، مجنون ينبغي توثيقه ، وأنا لأقل
جنوناً ، بل أنا مجنون أكثر منه ، أنا الذي أخذته وأتبعه ، إذا صح المثل الذي يقول : « لا
من معه تولد ، بل من معه ترعى » ، وهذا المثل الآخر : « أخبرني من تصاحب أخبرك من
أنت » فمولاي مجنون ، بحيث يعتقد الشيء مكان الشيء الآخر ، الأبيض أسود ، والأسود
أبيض ، كما فعل حين قال أن طواحين الهواء مرده ، ويغال الرهبان ، هجن ، وقطعان الضأن ،
جيوش معادية ، وأمور أخرى كثيرة مشابهة ، ولهذا لن يكون من العسير أن نجعله يعتقد أن

(١) هناك مثل إيطالي معناه « البحث عن شيء في المكان الذي لا يوجد فيه هذا الشيء » ، ولكنه يستخدم هنا بعكس هذا المعنى ، أي :
البحث عن شيء في مكان مملوء منه ، كما يقول المثل العربي : كمهدي التمر الى حجر .
وكذلك « البحث عن » صاحب الإجازة في شلمنقة « حيث يوجد آلاف من حملة الإجازات الدراسية ، وكانت مشهورة بجامعة وكلياتها
الغائوية .

آية فلاحه تمر من هنا هي السيدة دلغيا . فإن لم يشأ أن يصدق ، أقسمت له ، فإن أقسم هو بدوره ، كررت القسم من جديد ، وإن أصر ، زدت أنا في إصراري . وبهذه الطريقة تكون لي دائماً الغلبة عليه ، وليكن ما يكون . وربما بسبب إصراري لا يكلفني بمثل هذه السفارات ، حين يرى أنها لاتفيده ، أو ربما يظن ، كما يخيّل إليّ ، أن ساحراً خبيثاً ، من أعدائه أولئك ، قد غيّر وجه سيدته على هذا النحو لإثارة غضبه » .

هذه الفكرة هدأت خاطر سنشو ، وبدا له أن المسألة قد سوّيت . ولكنه بقي مع ذلك وقتاً طويلاً في المكان الذي كان فيه ، حتّى يعتقد دون كيخوته أنه كان لديه الوقت الكافي للذهاب والعودة . وأفلح في كل شيء ، دبره ، حتّى أنه حين نهض ليركب حماره شاهد قادمات من توبوسو الى المكان الذي توقف فيه ثلاث فلاحات راكبات على حمير أو حمارات ، لسنا نعرف على وجه الدقة لأن المؤلف لم يحدّد ذلك ، ويمكن الظن أنها كانت أتاناً ، لأن عليها اعتاد الفلاحون الركوب ، لكن لما كانت هذه المسألة ليست بذات فائدة تذكر ، فمن العبث التوقّف لتحقيقها .

ولما رأى سنشو هؤلاء الفلاحات ، هرع للحاق بمولاه ، فوجده يتنهّد وينوح نواحاً غرامياً طويلاً . وقال لسنشو : ماذا هناك يا صاحبي سنشو ؟ هل عليّ أن أعلم هذا اليوم بحجر أبيض أو أسود ؟

فقال سنشو : الأحسن أن تعلمه بحجر أحمر ، مثل إعلانات المدرسة ، حتّى يرى من بعيد .

- لقد أتيتني إذن بأنباء سارة ؟

- سارة الى حد أنه ليس على سيادتك إلا أن تهمز روئيتاته ، وتخرج الى السهل لتشاهد السيدة دلغيا دل توبوسو التي قدمت لزيارتك مع اثنتين من وصيفاتها .

- ما أعظم فضل الله! ماذا تقول لي يا صاحبي سنشو ؟ حذار من التغيرير بي ومن جلب حزني بسرور زائف .

- وماذا أفيد من التغيرير بك وأنت على وشك اكتشاف الحقيقة ؟ اركض يامولاي وتعال لرؤية الأميرة سيدتنا ، مزينة بما يليق بها . إن وصيفتيها وهي ، لامعات من الذهب النضار والماس والياقوت والدياج ذي الأكثر من عشرة هدايات ؟ وشعورهن مسترسلات على أكتافهن ، كأنها أشعة شمس تتلاعب بها الرياح . وهن يركبن ثلاث مهطعات رقطاوات متعة للناظرين .

- تقصد مطهّمات ؟

- أوه! ليس ثم فارق كبير بين مهطّمت ومطهّمت ، وعلى كل حال فهن راكبات مالت أدري وما شأني ، وهن أرشق سيدات يمكن أن يراهن إنسان ، وخصوصاً الأميرة دلثنيا ، سيدتي ، التي تغلب العقول .

- لنسر يا ولدي سنشو . ومكافأة لك على هذه الأنباء السارة غير المنتظرة أعذك بأفضل غنيمة أكسبها في أول مغامرة . فإن لم يكفك هذا ، أضف اليه الأمهار التي تلدها هذا العام أفراسي الثلاث ، وهن على وشك أن يلدن ، كما تعرف ، في المرعى المشترك لقريتنا . فقال سنشو : سأكتفي بالأمهار ، لأنني لست متأكداً أن غنائم مغامرتك الأولى ستكون جيدة .

ولمّا أتم هذه الكلمات خرج هو ومولاه من الغابة فأبصرا بالقرب منهما الفلاحات الثلاث . وراح دون كيخوته يتطلّع بكل عينيه في طريق توبوسو ، فلمّا لم ير غير الفلاحات الثلاث اضطرب وسأل سنشو هل ترك هؤلاء السيدات خارج المدينة . فقال سنشو : كيف ، خارج المدينة؟ هل عينك وراء رأسك ، فلا تراهن قادمات لامعات ساطعات كالشمس في رائعة النهار ؟

- إني لا أرى يا سنشو غير ثلاث فلاحات على ثلاث أتانات . - أوه فلينبجنني الله الآن من الشيطان! أمن الممكن أن ثلاث مطهّمت ، أو كما تريد أن تقول ، بيضاء مثل الثلج تبدو لك أتانات ؟ الله حي! فلتنزع لحيتي إذا كان هذا صحيحاً . لكنني أقول لك يا سنشو إن هذا صحيح أنها أتانات أو حمير كما أنه صحيح أنني دون كيخوته وأنت سنشو : على الأقل هي تبدو لي هكذا . - اسكت يا مولاي ، لا تقل مثل هذا الكلام : افتح عينيك ، وتعال حيّ سيدة أفكارك ، فهي قادمة .

لمّا قال هذا الكلام تقدّم للقاء الفلاحات الثلاث ، وترجّل ، وأمسك بخطام حمار إحدهن ، وجثا على ركبتيه وقال لها :

- يا ملكة ، أميرة ، دوقة الجمال ، لتتنازل سموك وعظمتك فتتلقّى بالقبول والرحمة هذا الفارس ، عبدك ، الذي صار مثل تمثال من المرمر ، لاحراك فيه ولانبص ، لمّا أن صار في حضرتك الفخيمة ، أنا سنشو پنثا ، سائسه ، وهو الفارس الجوال دون كيخوته دلا منتشا ، الملقّب بالفارس الحزين الطلعة .

وفي الوقت نفسه جثا دون كيخوته على ركبتيه بجوار سنشو : وراح يتطلّع بعينين زائفتين مضطربتين في تلك التي سمّاها سنشو سيدة وملكة ، ولمّا لم ير منها غير بنت

فلاحة قبيحة ، لأنها كانت فطساء ووجهها منتفخ ، ارتج عليه دون أن يجزؤ على أن يفتح فمه . ولم تكن الفلاحات أقل دهشة لما أن أبصرن هذين الرجلين المختلفين كل الإختلاف راكعين يمنعانهم من المرور . وأخيراً قطعت الصمت تلك التي أمسك بخطام حمارها ، وقالت غاضبة : « ابتعدا عن طريقنا ، ودعانا نمر ، فنحن مستعجلات » .

فأجاب سنشو : « يا أميرة توبوسو وسيدتها الكلية ، لماذا لا يتعطف قلبك الرحيم وهو يرى راکعاً أمام حضرتك السامية عمود الفروسية الجوّالة وسندها ؟ وعند سماع هذه الكلمات صاحت إحدى الفلاحتين الأخريتين : « تعالي إذن لأضع فيك المهماز ، يا حمارة صهري ، انظري كيف يسخر هذان السيدان من الفلاحات كما لو كنّا لانستطيع أن نكيل لهما الصاع بصاعين . سيرا في طريقكما ، ودعانا نسير في طريقنا ، ومساء الخير » . فقال دون كيخوته : « انهض يا سنشو ، إني أتبين تماماً أن الحظ لم يرض بعد تماماً عن بلایانا . لقد غلق كل الطرق التي يمكن أن يأتي منها السرور لهذه النفس الهزيلة التي يضمّتها جسمي . وأنت ، يا أعظم كمال يمكن التطلع إليه ، يا غاية اللطف الإنساني ، أنت الدواء الوحيد لقلبي الحزين الذي يعبدك ! وما دام ساحر خبيث يطاردني ، ويغشي على عيوني بالغيوم والسحاب ، حتّى حوّل في نظرها وحدها لافي نظر غيرها ، جمالك المنقطع النظير الى مظهر فلاحة مسكينة ، إذا لم يعطني ملامح تين لأصبح كريهاً في نظرك ، فتنازلي وانظري إليّ برقة وغرام ، وتطلّعي ، في الخضوع والاحترام للذين أكثرهما لجمالك المشوه ، الى تواضع هذه النفس التي تعبدك » .

فقال الفلاحة : « يا لجدي ! هل أنا هنا إذن لسماع هذه الأباطيل ؟ ابتعد من هنا ، ودعني أمر ، أرجوك » .

فابتعد سنشو وتركها تمر ، وهو راضٍ عن تخلصه من المشكلة بهذه الطريقة . ولم تكد القروية التي أريد لها أن تلعب دور دلثنيا ، تتخلص ، حتّى نخست أتاها بمسلة موضوعة في طرف عصا ، وجعلت حمارتها تجري في المرح ، لكن الدابة ، وقد أحست أنها نخست أكثر من المعتاد ، أخذت ترفس وتقمص ، ثم ألقت على الأرض السيدة دلثنيا . فأسرع دون كيخوته لإنهاضها ، بينما أصلح سنشو البرذعة التي استدارت حول بطن الحمارة . ولما أعيدت البرذعة الى مكانها ، أراد دون كيخوته أن يأخذ بين ذراعيه سيده المسحورة ، ليركبها على البرذعة ، لكنّها أعفته من هذه المهمة ، لأنها بعد أن قامت ، تراجعت بضع خطوات ، ثم استعدت للوثوب ، ووضعت كفيها على مؤخرة الحمارة ، ووثبت على الحمارة وهي أخف من الصقر ، وركبت وكل رجل على ناحية مثل الرجال . فصاح سنشو : « بحق القديس روك ! سيدتنا أخف من الطائر : إنها تستطيع أن تعلم الركوب على

الخييل أبرع السواس في قرطبة أو المكسيك ، لقد استقرت بوثة واحدة فوق قبو السرج ، وبدون مهماز جعلت رهواتها تركض كحمار الوحش ، ووصيفتها لاتقلان عنها براعة ، لأن ثلاثهن يعدون عدو الرياح » .

وكان هذا حقاً ، لأن دلثنيا حينما ركبت انطلقت الثلاث بسرعة هائلة . ولم تكف عن العدو ، دون أن تلتفتن ، طوال أكثر من نصف فرسخ . وتابعهن دون كيخوته بنظره ، ولما غبن عن نظره ، تلقت الى سنشو وقال له : « ماذا ترى يا سنشو ؟ ألا يسيء السحرة معاملتي ؟ أنظر الى أى مدى يذهب خبثهم وحقدهم عليّ ، ماداموا يحرمونني من لذة رؤية سيدتي كما هي . ولدت لأكون نموذجاً وقدوة للبائسين ، وهدفاً يرمى بسهام النحس ، فهؤلاء السحرة الخونة لم يكتفوا بتحويل دلثنيا ، بل غيروها الى شكل دميم ممسوخ دني ، مثل شكل تلك الفلاحة ، وانتزعوا منها خصوصاً ماهو من شأن السيدات العظيمات ، وهو أن تنبعث منهن رائحة عطرة ، لأنهن دائماً وسط العنبر والأزهار ، لأنني أقول لك أنني حين تقدّمت لإركابها على رهونتها ، كما تقول ، ولكنها تبدو لي مجرد حمارة ، انبعثت منها ناحيتي رائحة ثوم نثي كادت منه روعي تخرج من بدني » .

فصاح سنشو : أيها الرعاع الملاعين! أيها السحرة الأنجاس الأشرار! بودي لو رأيتمكم جميعاً مسلوكين في أذانكم في خيط مثل السردينات! أتم تعلمون الكثير ، وتقعدون على الكثير ، وتفعلون ماهو أسوأ . لم يكفكم ، أيها الأوغاد ، أن تحولوا لآلىء عيون سيدتي الى بنادق من الفلين ، وشعرها الذي من الذهب الخالص الى وبر ثور أحمر ، وكل جسمها من خير الى شر ، دون أن تمسوا رائحتها ، حتى نستطيع على الأقل أن نحذر مااستتر تحت هذا اللحاء القبيح ، وإن كنت أستطيع أن أقول حقاً أنني لم أر أبداً قبحها ، بل جمالها ؟ كانت على شفرتها اليمنى علامة على شكل شارب ، فيه سبع الى ثماني شعرات حمراء كخيوط الذهب ، أطول من شبر .

فقال دون كيخوته : فيما يتعلّق بالتطابقات بين علامات النوجه وعلامات الجسم . لا بد أن يكون لدلثنيا شيء ، مشابه على الفخذ في الجنب نفسه .

فقال سنشو : أوكد يا مولاي أنه ليس به أن تكون قد ولدت فيها .

فقال دون كيخوته : وأنا أعتقد ذلك . يا صاحبي ، لأن الطبيعة لم تصنع في دلثنيا شيئاً ليس تاماً : ولهذا فإنه لو كان على جسمها مائة من العلامات التي تكلمت عنها فإنها ستكون بمشابة نجوم ساطعة . لكن قل لي يا سنشو ، إن بدا لي برذعة هل كان سرجاً مستويّاً أو سرج امرأة ؟

فقال سنشو : لقد كان سرجاً عربياً كسرج الفارس ، عليه لبّاد معسكر يساوي نصف مملكة ، لأنه كان وثيراً غنياً .
 فقال دون كيخوته : إني لم أرَ شيئاً من هذا كلّهُ ياسنشو ، وأكرّر ذلك لك وسأقوله ألف مرة ، إني أشقى الناس .
 ولكن سنشو الماكر وجد مشقة في ضبط نفسه من الضحك وهو يسمع بلاهات مولاه الذي غرّر به تغريباً بارعاً ، وأخيراً ، وبعد كثير من الأحاديث الأخرى ، ركبا دابتيهما ، واتخذا طريق سرقسطة ، وقدّرا أنهما سيصلان في الوقت المناسب لحضور المباريات الرسمية التي تقام كل سنة في تلك المدينة المشهورة ، لكن قبل أن يوصلا إليها ، وقعت لهما مغامرات عديدة ، عظيمة وجديدة ، تسحق أن تكتب وتقرأ ، كما سنرى .

الفصل الحادي عشر

في المغامرة الغريبة التي جرت للفارس دون كيخوته
مع عربة أو عريبة «محاكم الموت»

سار دون كيخوته مفكراً مشغولاً بالمكيدة التي دبرها له السحرة بتحويل سيده دلتنيا إلى فلاحه كريهة ، ولم يتخيل أي دواء يمكنه أن يستخدمه لإعادتها إلى شكلها الأول ، واستغرقته هذه الأفكار إلى حد أنه دون أن يدري ترك العنان لروثيناته ، فلما شعر هذا بحريته توقف عند كل خطوة لرعي العشب الذي يغطي هذه الحقول . فأخرجه سنشو من هذه الأفكار قائلاً له : «مولاي ، الحزن للدواب ، لا لبني الإنسان ، وإذا استسلم الناس تحولوا إلى دواب . عد إلى رشك ، وأمسك بعنان روثيناته ، واستيقظ ، وانتبه ، واكشف عن تلك الفحولة التي تليق بالفرسان الجواله . يا للشيطان ما هذا ؟ لماذا هذا التخاذل ؟ هل نحن هنا أو في فرنسا ؟ وليذهب الشيطان بكل دلتنيات الدنيا ! إن صحة فارس جوال واحد أفضل من كل السحرة وكل التحولات في العالم . فقال دون كيخوته بصوت حازم : اسكت ياسنشو ، اسكت ، أقول لك : لا تتفوه بأية تجديفات ضد سيدتي المسحورة : أنا السبب الوحيد في بليتها ومحتتها ، إنهما نشأتا عن الحسد الذي يحمله الأشرار ضدي .

- أنا موافق ، يا مولاي على ما تقول ، إذ هل يقدر المرء أن يكون قد رآها ثم يراها الآن دون أن يبكي ؟

- أنت في وسعك أن تقول هذا ياسنشو ، أنت ، لأنك رأيته في كمال جمالها ، والسحر لم يحجب عنك وجهها ولا مفاتها : فضدي أنا وحدي وضد عيني تفعل قوة السحر . لكن ثم أمراً يحيرني يا سنشو ، وهو أنني أعتقد أنك أسأت وصف جمالها : لقد قلت لي ، إن لم تخني الذاكرة ، إن عينيها كاللآلئ ، ولكن عيون اللآلئ هي عيون سمك أخرى من أن تكون عيون نساء . وأعتقد أن عيون دلتنيا لا بد أن تكون من الزمرد الأخضر الذي يعلوه

قوس قزح كحاجب . واللائي التي تتحدث عنها يا سنشو لابد أنها هي أسنانها : فلا بد أنك حسبت أسنانها عيوناً .

فقال سنشو : هذا جائز جداً ، يامولاي ، لأن جمالها ربّكني كما ربّكك قبحها . لكن لنكل كل شيء الى الله ، الذي يعرف كل مايجري في هذه الدنيا ، وادي الدموع ، هذا العالم الشرير الذي نحن فيه ، حيث لا يوجد شيء غير ممزوج بالشر والخداع واللؤم . إن شيئاً واحداً يقلقني يامولاي أكثر من غيره ، وهو إذا حدث وقهرت مارداً أو أي فارس ، وأمرته بالذهاب للمثول أمام جمال السيدة دلثنيا ، ففي أي مكان هذا المارد المسكين أو ذلك الفارس الشقي سيجدها ؟ يبدو لي أنهما سيذرعان كل أرجاء مدينة توبوسو كالأغرار ، باحثين في كل موضع عن السيدة دلثنيا ، وإذا وجداها في عرض الشارع فلن يتعرفاها كما لن يتعرفها أبي .

فقال دون كيخوته : ربّما لم يمتد الإنسحار ياسنشو الى حد انتزاع معرفة دلثنيا من المردة والفرسان المقهورين الذين سيمثلون أمامها . وسنجري التجربة مع أول اثنين أو ثلاثة أقهرهم ، لنرى هل سيجدونها أم لا ، وسأوصيهم بأن يعودوا إليّ ، ليرووا لي ماسيحدث لهم .

فقال سنشو : فكرتك تبدو لي جيّدة ، يا مولاي : وسنعرف بهذا ما نريد أن نعرفه . وإن كان جمال السيدة دلثنيا محجوباً عنك وحدك فإن البلية ستكون بليّتك أنت أولى من أن تكون بليّتها هي : وبينما تكون هي في حبور وصحة ، نكون نحن مشغولين بالبحث عن المغامرات ، تاركين للزمن أن يفعل فعله ، لأنه أحسن دواء لكل هذه العلل ولما هو أشدّ منها .

وكان دون كيخوته على وشك الرد على سنشو ولكن حال بينه وبين ذلك عربة تجتاز الطريق ، وعليها أغرب أشكال وأشخاص يمكن تخيلها ، وكان من يقود البغال ويقوم بمهمة السواق يمثل جنياً شريراً ، وكانت العربة مفتوحة بغير سقف .

وأول شكل تبدى لعيني دون كيخوته كان شكل الموت نفسه بوجه بشري ، وبالقرب منه ملاك له أجنحة كبيرة مرسومة ، وفي الجانب الآخر يشاهد امبراطوراً يحمل على رأسه تاجاً من الذهب . وعلى جانب الموت كان الإله كوبيدون ، بغير رباط على عينيه ، ومعه قوسه ، وجعبته وسهامه .

وشوهد بعد ذلك فارس مسلّح من رأسه حتى أخمص قدميه ، لكنه بدلاً من أن يحمل على رأسه خوذة كان يلبس قبعة مزينة بالريش المتعدّد الألوان وشوهد أشخاص

آخرون بأزياء مختلفة . هذا المنظر المفاجئ أشاع الاضطراب في نفس دون كيخوته ،
والذعر في سنشو ، ثم أفاق بسرعة وظن أنه أمام مغامرة خطيرة جديدة . وبناء على هذه
الفكرة ، وقف أمام العربية مستعداً لمجابهة الأخطار ، وبصوت عالٍ مهدّد صاح :
«عربي ، سواق ، شيطان ، أو أياً من كنت ، قل لي بسرعة من أنت ، والى أين ، هؤلاء
الناس الذين تحملهم في العربة التي تشبه زورق خارون أكثر من أن تشبه العربات
المعتادة» .

فأجاب الشيطان بصوت رقيق ، وهو يقف بالعربة : نحن يا سيدي ممثلون كوميدون
في فرقة أنجولو الردي^(١) . وهذا الصباح هو الثامن من عيد الله ، كنّا في القرية التي هي
وراء هذه الرابية لتمثيل مسرحية «محاكم الموت» ، وعلينا أن نمثلها أيضاً هذا المساء ،
في قرية أخرى قريبة من هنا . ولما كانت قريبة جداً ، فلتجنّب عناء خلع ثم لبس
ملابسنا ، فإننا نسير لابسين الملابس التي نستخدمها أثناء التمثيل ، وهذا الشاب الذي
تراه يمثل الموت ، وهذا الأخير يمثل ملاكاً ، وهذه السيدة ، وهي زوجة المدير ، تقوم
بدور الملكة ، وهذا يمثل الجندي ، وذلك يمثل الامبراطور ، وأنا أمثل الشيطان ، أحد
الممثلين الرئيسيين في المسرحية : وأنا الذي أفتتح التمثيل . فإن شئت سيادتك السؤال
عن أي شيء آخر ، فاسأل وسأجيبك بكل دقة : لأنني لما كنت الشيطان فأنا لا أجهل
شيئاً .

فقال دون كيخوته : قسماً بشرف الفارس الجوال أنني حين رأيت هذه العربة ظننت
أنني أمام مغامرة عظيمة ، وهأنذا أرى الآن أنه ينبغي مس الظواهر بطرف البنان ، إذا شاء
ألا يخدع . اذهبوا في سلام ، أيها الناس الطيبون ، احتفلوا بعيدكم ، وقولوا هل استطيع أن
أفيدكم في شيء : فإنني على استعداد لتقديم أية خدمة عن طيب خاطر . منذ نعمة أظافري
كنت أحبّ المساخّر ، وكانت الملهاة (الكوميديا) هوايتي المفضّلة .

وبينما كانا يتناقشان على هذا النحو شاء القدر أن يقترب منهما ممثّل كوميدي
يلبس لباس مهرج ، ويدقّ شخاشيخه ويحمل على طرف عصا ثلاث أنابيب^(٢) منفوخة .
ولما اقترب من دون كيخوته أخذ هذا الشخص الغريب يتلاعب بعصاه ، ويضرب الأرض

(١) مدير فرقة تمثيلية متجولة ، كان يلقب بهذا اللقب لتمييزه من ممثل له نفس الاسم ولكنه ممثل جيد . وكانت «الأسرار»
(التمثيلات الدينية) التي تمثّل ، خصوصاً في عيد الله وفي الفمانية منها ، يجري تمثيلها في المسارح والشوارع والميادين العامة ،
والكنائس ، وحتى أمام المجلس الأعلى للتحقيق (التفتيش) . ومالبت أن تحولت إلى تمثيلات فاجرة فافسحة .
(٢) مفانات بقر منفوخة .

بأنابيبه ، ويثب عدة وثبات على ضجة شخاشيخه . وهذا المنظر الشاذ أخاف الفرس روئينانته حتى أنه بالرغم من مجهودات دون كيخوته للإمساك به ، أخذ اللجام بأسنانه وراح يعدو في السهل ، بسرعة أكبر مما ينتظر من هذا الهيكل العظمي . فلما رأى سنشو ما فيه مولاة من خطر أن يهوى من الفرس على الأرض ، نزل عن حماره ، وعدا بكل قوته لمساعدته ، لكنه حين وصل كان دون كيخوته مجندلاً على التراب ، بجوار روئينانته ، الذي جره في كبوته ، وهي نتيجة معتادة من الأعياب روئينانته . ولم يكد سنشو يترك حماره حتى ركب الرجل صاحب الأنابيب ، وضربه بها بشدة ، حتى أن الضجة والخوف أكثر من ألم الضربات ، هيّجت الحمار وجعلته يطير في السهل ، ناحية المكان الذي سيجري فيه الإحتفال بالعيد . ونظر سنشو الى عدو حماره وسقوط مولاة ، ولم يدري أي هذين الشرين يبدأ بالعلاج ، لكنه بوصفه سائساً جيداً ، وخادماً مهذباً ، تغلب حبه لسيّده على عطفه على حماره ، وإن كان في كل مرة يشاهد فيها الأنابيب تعلقو وتهوي على مؤخر الحمار كان يحس بضربات خنجر تشق صدره هو ، وكان يفضل أن يتلقى هذه اللكمات على إنسان عينه من أن يراها تسقط على أدنى شعرة في ذيل حماره . وفي هذا الارتباك البالغ ، اقترب من دون كيخوته فوجده في حال أسوأ مما ظن ، وساعده على الركوب روئينانته ، وقال له : «مولاي إن الشيطان ولّى بالحمار . - أي شيطان ؟ الشيطان صاحب الأنابيب . - فأجاب دون كيخوته : سأعثر عليه ، حتى لو اختبأ في أعماق عمائق هوى الجحيم . اتبعني فقط : إن العربة تسير ببطء ، والبغال تعوّض مكان الحمار الضائع . - فقال سنشو : لا حاجة بك أن تحمل هذا العناء ، هدى من ثورة غضبك ، يبدو لي أن الشيطان ترك الحمار : وها هو ذا الحمار يعود .

وكان مايقوله صحيحاً ، فقد كبا الحمار والشيطان عليه ، ليحاكي كبوة روئينانته ودون كيخوته ، فمضى الشيطان على قدميه ، وعاد الحمار الى صاحبه فقال دون كيخوته : «ومع ذلك فمن المستحيل معاقبة وقاحة هذا الجنّي في شخص أحد رجال العربة ، حتى لو كان الامبراطور نفسه» .

فقال سنشو : دعك من هذه الفكرة ، يامولاي ، واتبع رأيي : ينبغي عدم مهاجمة المهرّجين أبداً ، لأن لهؤلاء أصدقاء في كل مكان . ولقد شاهدت ممثلاً هزلياً ، يوضع في السجن بسبب جنائتي قتل ارتكبهما : فأخرج من السجن دون أن يصيبه شيء . لأنهم قوم يوفرون المسرة ، ويفرحون الناس ، ولهذا فإن الناس جميعاً تحابيهم ، وتساندهم ، وتساعدهم وتقدرهم ، خصوصاً الفرق الملكية الرسمية وهؤلاء يعيشون عيشة الأمراء .

فأجابه دون كيخوته ، لا يهيم ، فأنا لأريد أن يفخر هذا المهزج الشيطان بأنه أفلت مني ، حتى لو كان مسنوداً من الجنس البشري كله .

وماقال هذه الكلمات حتى ركض وراء العربة ، وكانت بالقرب من القرية ، وصاح بكل قوة ، قفوا يافرقه التهريج والتفريح ، أريد أن أعلمكم كيف تعامل الحمير وسائر الحيوانات التي يركبها سؤاس الفرسان الجوّالة .

وكانت صيحات دون كيخوته عالية جداً بحيث سمعها أصحاب العربة ، فحكموا على نيّة من كلماته ، فقرّروا قرارهم ، نزل «الموت» أولاً من العربة ، تلاه الامبراطور ، ثم السائق الشيطان ، ثم الملاك ، والملكة والإله كوبيدون ، وكلهم جمعوا حجارة وعصي واصطقوا للمعركة مستعدين لاستقبال دون كيخوته بوابل من الحصى والحجارة . فلما شاهداهم دون كيخوته يؤلفون على هذا النحو كتيبة جريئة ، والأذرع مرفوعة ومتأهبّة لخي تصب على رأسه وابلأ من الحجارة ، شدّ عنان روثينانته ، وأخذ يفكر في الكيفية التي بها يستطيع أن يهاجمهم بأقل خطر . وفي هذه اللحظة وصل سنشو ، فلما أبصر مولاه مستعداً لمهاجمة كتيبة مصفوفة هذا التصنيف قال له : «مولاي» من الجنون المطلق أن تحاول هذه المغامرة . وتأمّل أنه لا يوجد ضد هذا الوابل من الحصى أي سلاح دفاعي غير الإختباء تحت ناقوس من البرونز ، ثم أليس من التهوّز لا من الشجاعة أن يهاجم رجل بمفرده جيشاً فيه الموت ، ويحارب فيه أباطرة بأشخاصهم ، يعاونهم ملائكة أخيار وأشرار ؟ فإن كان هذا الإعتبار لا يهمنك ولا يؤثّر فيك ، لاحظ أنه بين كل هؤلاء الناس الذين تراهم ، وإن بدوا ملوكاً أو أباطرة أو أمراء ، لا يوجد فارس جوال واحد .

فقال دون كيخوته ، ياسنشو! لقد مسست النقطة التي ستجعلني أعدل عن قراري ، إذ لا يجب ولايمكن أن أسحب سيفي على من لم يسلحوا فرساناً ، كما قلت لك من قبل مائة مرة . بل عليك أنت ياسنشو إذا شئت ، أن تنتقم للإهانة التي لحقت حمارك ، وأسأجلك وأنا واقف هنا بالكلمات ، وأساعدك بالنصائح الشافية .

فقال سنشو ، لا حاجة يا مولاي للانتقام من أحد . وليس يليق بالمسيحي الصالح أن يحمل قلبه غلاً بسبب الإهانة ، وسأعمل على أن يضع حماري إهنته بين يدي إرادتي ، وإرادتي هي أن أعيش بسلام طوال الزمان الذي تتفضل علي السماء بأن أحياء .

فقال دون كيخوته ، مادام هذا عزمك ياسنشو الطيب ، ياسنشو ياعاقل ، يا سنشو يا أمين يا صريح ، يا سنشو يا مسيحي يا ورع ، فلنترك إذن هذه الأشباح ، ولنمض في سبيلنا سعياً وراء مغامرات أفضل وأنبل لأنني أرى أنه لن تعوزنا أمثالها بل وأروع في هذا الإقليم .

وفي الحال أدار العنان ، واستردّ سنشو حماره ، وركب « الموت » وكل كتيبته في
العربة من جديد وتابع رحلته . وبذلك كانت الخاتمة السعيدة للمغامرات الخطرة ، مغامرة
عربة الموت . والفضل والشكر للنصيحة السليمة التي أسداها سنشو الى مولاه الذي جرت
له في اليوم التالي مغامرة أخرى مع فارس عاشق وجوال ، مغامرة لاتقل روعة عن هذه .

الفصل الثاني عشر

في المغامرة الغربية التي خاضها الفارس دون كيخوته مع فارس المرايا الهمام

والليلة التي تلت اللقاء «بالموت» قضاه دون كيخوته وسنشو تحت أشجار باسقة متشابكة ، وبناء على نصيحة سنشو أكل الفارس من الزاد الذي كان يحمله الحمار . وقال سنشو وهو يأكل : «أعترف يا مولاي ، بأنني كنت سأكون مغفلاً كبيراً لو أنني قبلت كمكافأة لي غنائم مغامرتك الأولى ، بدلاً من الأمهار التي ستلدها أفراسك الثلاث . والواقع أن عصفوراً في اليد خيراً من رخم يطير» .

فقال دون كيخوته : «ومع ذلك فلو أنك تركتني أفعل ماكنت أريد لكن نصيبك من الغنائم على الأقل تاج الامبراطور الذهبي ، وأجنحة كوبيدون المرسومة ، التي كنت سأحطمها بعكس ريشها وأضعها بين يديك» .

فقال سنشو : «لم يحدث أبداً أن كانت صولجانات وتيجان أباطرة التمثيل المسرحي من الذهب الخالص ، بل هي من الورق أو رقائق المعدن المذهب» .

فقال دون كيخوته : هذا صحيح ، فإن تزيينات الكوميديا ليست في العادة دقيقة ، بل هي مزيفة وظاهرية ، مثل الكوميديا ، وكذلك من يمثلونها ومن يؤلفونها . فهم جميعاً ذوو فائدة كبرى في الدولة ، لأنهم يقدمون لنا تحت أبصارنا مرآة ترتسم فيها كل أفعال الحياة الإنسانية ، ولاتستطيع أية لوحة أن تصوّر لنا على نحو أبرز وأكثر حيوية مانحن عليه ، وماينبغي أن نكون عليه ، أفضل من الكوميديا والممثلين الهزليين . قل لي ، ألم تر أبداً تمثيل كوميديات تدخل فيها الملوك ، والأباطرة ، والبابوات ، والفرسان ، والسيارات وشخصيات أخرى ؟ واحد يلعب دور المتنفّج (الفشار) ، والآخر دور المنافق ، وهذا دور التاجر ، وذاك دور الجندي ، وثالث دور رجل حكيم ورابع لدور عاشق - حتى إذا انتهى تمثيل الكوميديا ، وخلع الممثلون ملابسهم ، ألا يصير كل الممثلين متساوين ؟

فقال سنشو : نعم ، رأيت هذا .

فقال دون كيخوته : والأمر كذلك بالنسبة الى كوميديا هذا العالم ، البعض يعملون أباطرة ، والبعض الآخر بابوات ، وما إلى هذا من شخصيات تدخل في الكوميديا ، وحين نصل الى النهاية ، وهي حين تنتهي الحياة ، يجردهم الموت من كل الأزياء التي تميزهم ، ويعتبر الكل متساوين في القبر .

فقال سنشو : تشبيه جميل ، غير أنه ليس جديداً لأنني سمعته من قبل عدة مرات ، وكذلك تشبيه لعبة الشطرنج حيث تكون لكل قطعة وظيفتها طالما استمر اللعب ، لكن إذا انتهى ، اختلطت كل القطع وتجمعت بغير ترتيب في صندوق ، مثل الأجسام في القبر .

فقال دون كيخوته : ياسنشو ، أنت في كل يوم تقل سذاجة وتزداد حكمة .

فأجاب سنشو : ليس بعجب أن أقتبس شيئاً من حكمتك . إن الأراضي التي بنفسها تكون جافة عقيمة تنتج ثماراً طيبة ، حين تسمد وتزرع . أقصد أن أقول يا مولاي أن حديثك كان بمثابة سماد وضع في الأرض العقيمة لذهني ، والزراعة هي الزمن الذي مرّ منذ أن قمت بخدمتك واتصلت بك ، وأمل أن أنتج ثماراً مباركة لن تكون غير جديرة ، ولن تبعد عن التربية الصالحة التي لقيتها لعقلي .

فأخذ دون كيخوته في الضحك من العبارات المتحذقة التي استخدمها سنشو ، وإن كان مقالته عن تقدمه بدا له صحيحاً ، لأن سنشو كان يتكلم أحياناً كلاماً يثير الإعجاب في نفس مولاه ، لكن حين كان هذا الرجل الساذج يريد أن يتكلم بلغة منمّقة ، أو على طريقة البلاط ، كان يهوي من علياء سذاجته الى هاوية جهله . وكان أشد الأمور إظهاراً لذاكرته أناقته ، هو حين كان يتفوه بالأمثال ، سواء كانت مناسبة لمقتضى الحال أو غير مناسبة ، كما يمكن ملاحظة ذلك خلال هذا التاريخ .

وأضيا شطراً من الليل في مثل هذه الأحاديث ، وأخيراً شعر سنشو بالحاجة الى إسدال ستائر عينيّه ، كما اعتاد أن يقول حين يريد أن ينام فأنزل البرذعة عن ظهر حماره ، وتركه يرضى في حرّية ، أمّا روئبناته فلم يخلع سرجه ، لأن مولاه منع ذلك صراحة حين يقضيان الليل في الخلاء ولا ينامان تحت سقف ، وهذه عادة قديمة ، مقرّرة ، محفوظة بين الفرسان الجوّالة ، يخلع اللجام ويربط في قربوس السرج ، أمّا السرج فلم يكن يخلع . والتزم سنشو بهذا العرف ، ثم أطلق روئبناته . ثم أن الصداقة بين هذين الحيوانين كانت كبيرة ، فريدة حتى أن نقلاً متوارثاً من الأب الى الأبن يروي أن مؤلف هذا التاريخ الحقيقي خصّص لها فصلاً : لكن من أجل الاحتفاظ بالتزويق المناسب لتاريخ بطولي ، لم يولجها فيه . ولكنه أحياناً

ينحرف عن موضوعه ليقول لنا إنه حين كان هذان الحيوانان يلتقيان معاً كان يلذ لكل منهما أن يحك الآخر ، وإذا أشبعها هذه الحاجة تعانق عنقاهما بخلاف ، وكان طول عنق روثينانته يجعل عنقه يمتد الى أكثر من نصف ذراع في الجانب الآخر ، ويظل كلاهما في هذا الوضع ويعيونهما تحدق في الأرض ، طوال ثلاثة أيام أو على الأقل طوال المدة التي يسمح لهما بها ، إلا إذا أرغمها الجوع على الذهاب للرعي . وهم يؤكدون أيضاً أن المؤلف قارن صداقة هذين الحيوانين^(١) بصداقة : نيبوس وأوريال ، أو فولادس وأروسطس ، وهذا يدل على متانة الرابطة التي جمعت بين هاتين الركوبتين ، ومثل هذا يندى له جبين الناس الذين قليلاً ما يوفون بالعهد ، ومن هنا نشأ هذا المثل : لاصديق لصديق ، اليراع يصبح^(٢) رماحاً ، بين الصديق والصديق ما بين الإبهام والإذن . ولا يحسن أحد المؤلف قد حاد عن طريقه حين قارن بين صداقة الحيوانات وصداقة الناس ذلك أننا تلقينا من الحيوانات كثيراً من التنبيهات وتعلمنا كثيراً من الأمور المهمة : فالبلشون علمنا الحفن الشرجية ، والكلب علمنا المقيئات والاستكشاف ، والكرافي : اليقظة ، والنمل ، التدبير السابق ، والفيلة ، الحياء ، والفرس ، الإخلاص ، وأخيراً نعس سنشو عند جذر شجرة فلين ودون كيخوته تحت سديانة باسقة .

لكن بعد فترة قصيرة استيقظ دون كيخوته على ضجة سمعها وراءه فنهض واثباً ، وتلفت ، وتسمع من حيث تأتي الضجة ، فأبصر ، في الظلام الليل ، رجلين راكبين على فرسين ، وأحدهما وهو ينزل يقول للآخر : « انزل يا صاحبي ، وأخلع اللجام من الفرسين ، إن هذا المكان يبدو لي غنيّاً بالعشب لهما ، وبالصمت والوحدة المناسبين للخواطر الغرامية » . وأتم الكلمات لما نزل الى الأرض ، وأحدث سلاحه ضجة كبيرة ، وهو أمر لم يدع أي شك في أنّ هذا الرجل فارس جوال . فاقترب من سنشو وكان نائماً ، وشده من ذراعه ، ولم يتعب في إيقاظه ، وقال له بصوت خفيض : « يا أخي سنشو ، أمامنا مغامرة - فأجاب سنشو : الله يجعلها جيدة ، وأين هذه السيدة المغامرة ؟ - أين ، سنشو ؟ أدر عينيك ، وانظر ، ترّ هناك فارساً جوالاً يبدو لي أنه ليس مسروراً جداً ، لأنه انزل حزينا الى الأرض ، وفي سقوطه أحدث سلاحه ضجة . - هل هذا إذن ماتسميه مغامرة ؟ - لأقصد أن أقول لك

(١) نيبوس هو ملك نينارا ، كانت في رأسه شعرة من البرفير قال الوحي أن عليها تتوقف المحافظة على ملكه . وكانت له بنت تدعى سقولا عشقت مينوس الذي جاء وحاصر مينارا ، وإذا بسقولا تقطع شعرة أبيها وتحملها الى مينوس ، مما مكن هذا من الاستيلاء على المدينة ، لكنه أزدري حب سقولا وربطها في سارية سفينته . وحول الإله نيبوس الى باسق ، وابنته الى قبرة .
وقد تنبأ فرجيل في « الإلياذة » (الكتابان الخامس والسادس) بالصداقة الحميمة بين نيبوس وأربال ، ويظهر أنهما خرافيان .
(٢) هذان المثلان بيتان من رومانة ألفها خينس دي هيتا ، ووردت في « حروب غرناطة » تأليف خينس دي هيتا (الفصل السادس) .

إنها مغامرة كاملة ، بل بداية مغامرة ، لأن المغامرات تبدأ هكذا . لكن اسمع! اعتقد انه يسوي عوداً أو قيثارة وأنه يسعل استعداداً للغناء . - لا بد أنه فارس عاشق . - لا يوجد فارس جوال واحد ليس عاشقاً ، لكن لنزع السم ، فلربما أمسكنا بخيط أفكاره ؛ إن اللسان يتكلم من فيض القلب » . وأراد سنشو أن يجيب ، ولكن صوت فارس الأيكة ، ولم يكن بالصوت الجميل ولا الرديء ، أوقفه فأصغيا وسمعا غناء هذه السوناتة :

أعطني يا سيّدة
أي درب تتبعين
إن أمري طوع أمرك
عن هواك لن يحيد

وإذا شئت أموت ،
مسكتاً كل عذابي ،
فاحسبيني الآن مت
وإذا شئت العبارة
عن غرامي بالجديد
أترك الحب يعبر

في اختبارات التضاد
أنا من شمع طري
ومن الماس الصليب
بيد أتي أخضع الـ
نفس لقانون الغرام

وسواء كان رخواً
مثل شمع أو كـماس
هاك قلبي فخذيه
اطبعي فيه انقشي ما
شئت ، أحفظه للأبد

وختم فارس الأيكة أغنيته بزفرة عميقة بدا أنه يخرجها من اعماق قلبه ، وبصوت ضعيف نائح شاكٍ صاح : « يا أجمل النساء وأشدهن جحوداً ، يا كسلديه دي وندلياً ! أمن الممكن أن توافقي على أن يستهلك نفسه فارسك وعبدك ، في أعمال شاقة ، ورحلات مستمرة ؟ ألم يكفك أنني أرغمت كل فرسان نبرة ، وليون ، والأندلس ، وقشتالة ، وأخيراً كل فرسان المنتشا على الإقرار بأنك أجمل النساء ؟ » - « أوه أمّا هذا فلا ! هكذا صاح دون كيخوته ، إنني أنا من إقليم المنتشا ، ولم أقرّ بشيء من ذلك ، وما كان لي أبداً أن أقرّ بشيء سيء إلى جمال سيدتي . ها أنت ذا ترى ياسنشو أن هذا الفارس يحلم . ومع ذلك فلنصغ : ربّما عرفنا أمره على نحوٍ أدق . - فأجاب سنشو : لاشكّ ، لأنه يبدو عليه أنه يريد أن يتشكّى طوال شهر كامل » .

ومع ذلك فلم يحدث هذا ، لأن فارس الأيكة وقد خيّل إليه أنه يجري كلامه حوله ، نهض على قدميه ، وسأل ، بصوت جهوري رزين : « من هناك ؟ من أنت ؟ أواحد من السعداء أو البائسين ؟ » فأجاب دون كيخوته « من البائسين » . فقال فارس الأيكة : « اقترب إذن ، واعلم أنك لاقيت الحزن بشخصه » . فلما رأى دون كيخوته أدب هذه الدعوة اقترب ، وكذلك فعل سنشو . فقال الفارس البائس لدون كيخوته ، وهو يمسك بذراعه : « اجلس ياسيدي . لمعرفة أنك من أولئك الذين يمتنون مهنة الفروسية الجوّالة يكفيني أن ألقاك في هذا المكان ، في صحبة الوحدة والسكون وهما المقام المعتاد للفرسان الجوّالة » . فقال دون كيخوته : « أنا فارس من النوع الذي تتكلّم عنه ، وعلى الرغم من أن الحزن والبلايا والمحن تملأ نفسي ، فإنها ليست مغلقة دون الرحمة التي تثيرها مصائب الآخرين ، وتبعاً لما استنتجته من أغانيك فإن آلامك غرامية ، أعني أنها صادرة من غرامك بالجميلة الجاحدة التي ذكرتها في شكاواك » .

وكان الحديث يجري بينهما هكذا وهما جالسان إلى جوار بعض على الأرض ، في تفاهم جميل ، دون أن يقدرا أنه حين ينقشع الظلام سيكسر كل منهما رأس الآخر . وقال فارس الأيكة لدون كيخوته : « هل أنت ياسيدي الفارس عاشق ؟ » فأجاب دون كيخوته : « نعم ، لشقاوتي ، وإن كانت البلايا الصادرة عن العواطف النبيلة ينبغي أن تعد نعماً لا نقماً » .

فقال الآخر : « هذا سيكون صحيحاً لو أنّ ازدراء جميلاتنا لا يضيّع العقل وملكة الحكم بحيث يبدو لنا كاتقام » . فقال دون كيخوته : « أنا لم أشعر بأي ازدراء من جانب سيدتي لي » . فقاطعه سنشو قائلاً ، وكان هناك : « أبداً هذه السيدة رقيقة كالحمارة ، طريّة كالزبدة » .

فقال فارس الأيكة : « هل هذا الرجل سانسك ؟ » فاجاب دون كيخوته : « نعم ياسيدي ! » فقال فارس الأيكة : « لم أشاهد أبداً سانساً يسمح لنفسه بالتكلم حين يتكلم مولاه . ها هو ذا سانسى وهو كبير مثل الأب والأم ، وأتحدى أن يبرهن أحد على أنه فتح فمه حين كنت أتكلم » .

فقال سنشو : « نعم ، أنا تكلمت ، وأستطيع أن أتكلم أمام شخص آخر... ولا أقول أكثر من هذا ، لأن كلامي سيكون أسوأ » .

وفي اللحظة نفسها أمسك سانس فارس الأيكة من ذراعه وقال له : « لنذهب الى مكان نستطيع فيه أن تتناجى ودياً بكل ما يخطر ببالنا ، ولندع السادة يناقشون وهما يرويان أخبار غرامياتهما كل للآخر . وأنا متأكد أن النهار سيطلع عليهما قبل أن ينتهيا » . فقال سنشو : « موافق وسأقول لك من أنا ، وسترى ما إذا كنت جديراً بأن أسلك في عداد السواس الكثيري الكلام » . ثم ابتعدا قليلاً ، وبعد قليل جرت بينهما محادثة هازلة بقدر ما كانت محادثة سيديهما جادة .

الفصل الثالث عشر

تلاوة مغامرة فارس الأيكة، والحوار الجديد الحكيم الساار الذي جرى بين السائسين

انفصل السائسان عن الفارسيين ، الأولان يرويان لبعضهما قصة حياتهما ، والآخران يقصّان حكاية غرامهما . وهذا التاريخ يورد أولاً حديث الخادمين ، ثم ينتقل الى حديث السيّدين ، فيقول أنه لما اتّحى السائسان ناحية ، قال سائس فارس الأيكة لسنشو ، الحق ياسيدي أن الحياة التي نحياها ، نحن سواس الفرسان الجوّالة ، حياة شاقة مؤلمة ، ونحن نأكل خبزنا من عرق جبيننا ، وهذه إحدى النقم التي فرضها الله على أبويننا الأولين .

فقال سنشو ، ونستطيع أن نقول أيضاً إننا نأكله من برود جسمنا ، لأنه من ذا الذي يتحمّل القيظ والبرد أكثر من السواس البائسين للفرسان الجوّالة ؟ ولو كان يصيبنا ما يكفي من الخبز لهان الخطب ، لأن الخبز يخفّف الألم ، لكن قد يمضي اليوم واليومان دون أن نتغذى بغير الرياح التي تهب .

فقال الآخر ، على كل حال هذا يمكن تحمّله على أمل المكافأة ، لأنه اللهم إلا إذا كان الفارس الجوّال أتعس الناس حظاً ، فإن السائس الذي يخدمه يمكن أن يأمل في الحصول ، بعد فترة وجيزة ، على حكومة طيبة لجزيرة ما ، أو كونتيسة جميلة . فأجابه سنشو ، أمّا عن نفسي فقد قلت لمولاي أنني قانع بجزيرة ، وهو من النبل والكرم بحيث وعدني بها عدّة مرّات . فقال السائس الأخير ، أنا ترضيني^(١) كاهنية نظير خدماتي ، ومولاي قد سبق ومنحني إيّاها .

(١) أي لقب « كامن » .

فقال سنشو : مولاك إذن فارس كنسي بحيث يستطيع أن يمنح مثل هذه المكافات للسواس الممتازين ؟ أما فارسي أنا فعلماني خالص . وأذكر أن بعض العقلاء ، ولكن في نظري سينو النية ، نصحوه بأن يصير مطراناً لكنه رفض ، لأنه أراد أن يصير امبراطوراً ، وكنت أرتعد خوفاً من أن يقبل منصباً دينياً ، لأنني لم أستشعر في نفسي القدرة على شغل وظيفة دينية ، إذ على الرغم من أنني أبدو إنساناً فاني دابة فيما يتعلق بالأمور الكنسية .

فأجابه سانس فارس الأيكة : ربّما أنت مخدوع ، إذ ليست كل حكومات الجزر من نوع جيد ، فمنها ماهي ملتوية ، معوجة ، فقيرة ، محزنة ، وأحسنها تنظيماً تجر معها حملاً ثقيلاً من الهموم والمتاعب التي يحملها على عاتقه الحاكم البائس . إن الأفضل لنا ، معشر اللذين نقوم بهذه الخدمة اللعينة ، أن ننزوي في عقر دورنا ونقوم بأعمال أرحم ، مثل الصيد والقنص ، ومن هو السانس الذي بلغ به الفقر حداً لا يكون عنده مهر وزوج من الكلاب السلوقية وسنارة للصيد وإزجاء الوقت في البيت ؟

فأجاب سنشو : لا ينقصني شيء من هذا ، صحيح أنه ليس عندي مهر ، ولكن عندي حماراً يساوي ضعف ثمن فرس مولاي ، وليعكر الله صفو أيام فصحي المقبلة لو أبدلت فرسه بحماري ولو أعطاني علاوة على ذلك أربعة مكاييل من الشعير ، ولو حدثتكَ عن كل ميزات حماري ، لحسبتي أسخر . وأنا أسميه «الرمادي» لأن شعره رمادي اللون ، أما الكلاب السلوقية فلا تعوزني ، ففي قريتنا منها ، والقنص يكون أكبر كلما كان على حساب الغير .

فقال سانس فارس الأيكة : الحق يا سيدي السانس ، اعترف لك أنني قرّرت أن أترك كل حماقات الفروسية هذه ، وأن أعود الى قريتي لتربية أولادي الثلاثة ، هم لطاف مثل ثلاث لآلى شرقية .

فقال سنشو : وأنا عندي ولدان ، يمكن تقديمهما الى البابا نفسه بشخصه وخصوصاً عندي بنت أربيها لتصبح كوثيسة إن شاء الله ، رغم معارضة أمها الشديدة .

- وما عمر هذه الفتاة التي تربّيها لتصبح كوثيسة ؟
- خمس عشرة سنة تقريباً ، فارعة القوام كالرمح ، نضرة كالصباح في شهر أبريل ، وقوية البنية كالجمال .

- هذه الصفات تصلح ليس فقط لأن تكون بها كوثيسة ، بل وأيضاً حورية في خميلة خضراء . يالها من مضحكة! أي كف كفها هذه القحبة!

فقال سنشو في حدة : ها! إنها ليست مضحكة ولا قحبة ، لا هي ولا أمها ، ولن تكون

واحدة منهما كذلك طالما كنت حياً . تكلم بأدب ، إن كلامك لا يليق بمن تربى بين
الفرسان الجواله وهم قوم في غاية الأدب .

فأجابه فارس سانس الأيكة : أوه! كم أنت تسيء فهم المدح! كيف ألا تعرف أنه حين
يضرب الراكب الثور بضربة رمح قوية في الحلبة ، أو إذا فعل أحد الناس عملاً عظيماً ، فإن
من عادة العامة أن يصيحوا : آه يا ابن القحبة! والله شاطراً حتى أن ما يبدو أنه شتيمة يصبح
مدحاً عظيماً ، وعيك أن تبرأ من أولادك وبناتك إن لم يفعلوا شيئاً يستحق من أجله أبوهم
مثل هذه المدائح!

فأجاب سنشو : نعم أتبرأ منهم ، وبهذه الطريقة تستطيع ياسيدي أن تفرض على
زوجتي وأولادي كل قحابة الدنيا ، لأنهم لا يصنعون شيئاً غير جدير الى أقصى حد بمثل
هذه المدائح . لكني ، لكي أستطيع أن أعود اليهم ، فإني أدعو الله أن ينقذني من الخطيئة
الكبيرة ، أو بعبارة أخرى ، من هذه الحالة الخطرة ، مهنة السانس ، التي عدت إليها
جذعاً ، تحت إغراء كيس فيه مائة دوقه وجدته بين صخور سيرا مورينا (جبل الشارات) .
ومنذ هذه اللحظة والشیطان يلقي أمام عيوني ، هنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، بكيس
مليء بالنقود ، أتخيل في كل خطوة أني أمسك به بين يدي ، فأحتضنه ، وأحمله الى
بيتي ، وأشتري ضيعة ، ويدخل لي منها ريع ، وأعيش عيشة الأمراء ، وحين أفكر في هذا
تسهل عليّ الآلام التي عليّ أن أتحمّلها مع مولاي المجنون ، الذي حظّه من الجنون أكبر
من حظّه من الفروسية .

فقال فارس سانس الأيكة : ولهذا يقال أن الجشع يقطع الكيس . لكن إذا شئت أن
تتكلم عن المجانين ، فأنا أعتقد أنه لا يوجد في العالم مجنون أعظم جنوناً من سيدي أنا ،
لأنه من أولئك الذين يقال عنهم أن الهموم من أجل الغير تقتل الحمار ، فإنه من أجل أن
يشفي فارساً آخر فقد العقل ، عمل مجنوناً هو نفسه ، ومضى يبحث عما ربما لن يجده
حسناً حين يجده فعلاً .

فسأله سنشو : أياكون عاشقاً ؟

- نعم ، إنه يعشق فتاة تدعى كسلديا دي ونداليا ، وهي أشد سيدات العالم تكبراً
وقسوة . ومع ذلك فإن هذا ليس أشد مايؤلمه : بل في رأسه نزعات أخرى ، كما ستعرف
بعد قليل .

فقال سنشو : لا يوجد طريق معبد إلا وفيه موضع عثرة . في بيوت أخرى يطبخ الفول ،
وفي بيتنا يحترق ، وأتباع الجنون أكبر من أتباع العقل لكن إذا صح مايقال من أن الصحة

في المتاعب تجلب العزاء ، فأبني أستطيع أن أعزي نفسي مع سيادتك ، لأنك تخدم سيداً
مجنوناً مثل سيدي .

فأجاب سانس فارس الأيكة : هو مجنون ، ولكن شجاع ، وشرير أكثر منه شجاع
ومجنون .

فقال سنشو : سيدي أنا ليس كذلك ، ليس فيه أي شر ، وقلبه مفتوح ، ولا يستطيع أن
يؤذي أحداً ، بل على العكس يفعل الخير لجميع الناس ، وليس فيه أي خبث ، بل يمكن
طفلاً أن يجعله يعتقد في رائعة النهار أن الوقت ليل . وهذه السذاجة تجعلني أحبه كإنسان
عيني ، ورغم كل تهويلاته فأبني لا أقوى على التصميم على تركه .

فقال السانس الآخر : ومع هذا يا أخي فإن الأعمى إذا أراد أن يقود آخر فقد يحدث أن
يقعاً معاً في الهاوية : والأولى بنا أن نترك هذه الشغلة ونعود الى بيوتنا ، لأن الذين يبحثون
عن مغامرات لا يجدونها دائماً جيدة .

بيد أن سانس فارس الأيكة المحسن ، لما رأى سنشو يصبق في كل لحظة بصاقاً ثخيناً ،
قال له : « يظهر أن أحاديثنا ألصقت السنسنة بالحلق ، وعندني في قربوس سرجي شيء
عجيب » . وفي الحال نهض واقفاً ، ومضى ثم عاد بعد قليل ومعه قربة كبيرة فيها نبيذ ، وشريحة
طويلة طولها نصف ذراع ، لأنها كانت من أرنب منزلي كبير ، حتى أن سنشو ظنّه معزة
لاجدياً ، وقال له سنشو : « آه ، ياسيدي ، هل هذا زادكم ؟ » فقال الآخر : « هل تظنني سانساً
للأشياء ؟ إني أحمل على مؤخر فرسي زاداً أفخر مما يحمله قائد حملة » . وأخذ سنشو في
الأكل من غير أن يحتاج الى دعوة ، وراح يلتهم لقمات كبيرة مثل قبضة اليد ، وقال لزميله :

- الحق يا سيدي ، أنك سانس مخلص ، أمين ، فطين ، عاقل ، عظيم ، فخيم ، كما
يدل على ذلك طعامك الذي يبدو كما لو كان قد أتى به ساحر ، ولست هزيراً بانساً مثلي
أنا . أنا الذي ليس في خرجه غير قليل من الجبن الجامد جداً بحيث يمكن كسره على رأس
مارد ، ثم أربح أثني عشرات من الخروب ومثلها من الجوز والبندق ، وذلك بسبب بؤس
مولاي ، والفكرة التي كونها عن الفروسية وراعاها ، وهي أن الفرسان الجوّالة يجب عليهم ألا
يتغذوا إلا بالفواكة الجافة وأعشاب الحقل .

فصاح سانس صاحب الأيكة : يا أخي ، إن معدتي لم تخلق للشوك والكمثرى البرية
ولاجذور الغابات . فليذهب سادتنا بأفكارهم وقوانين فروسيّتهم ، وليأكلوا ما يريدون : أما
أنا فأحمل دائماً لحوماً باردة وهذه القارورة المعلقة بقرب سرجي ، مهما حدث ، وأنا أحب
هذه القارورة ، وأعزها ، حتى أنني في كل لحظة أقبلها آلاف القبل .

وفي الوقت نفسه وضعها بين يدي سنشو ، فحملها الى فمه وظلّ يتطّلع في النجوم ربع ساعة . ثم ألقى برأسه جانباً ، وقال بزفرة كبيرة : « آو ، إنه كاثوليكي صالح ، ابن القحبة ! » فقال عند هذه الكلمة سانس فارس الأيكة : « أعترف ، وأصرّح ، وأقرّ أنه ليس عاراً أن تلقّب أحداً بابن القحبة ، إذا كان المقصود مدحه . لكن قل لي ، بحياة أغلى من عندك ، أليس هذا النبيذ من ثيودا ريال (المدينة الملكية) ؟ » فصاح السانس الآخر : « يالك من أكل شهيراً نعم إنه لم يأت من مكان آخر ، وقد خزّن في الكهف عدة سنوات » . فقال سنشو : « إني أفهم في هذا ، ياسيدي السانس ، إن عندي غريزة حادة طبيعية لتعرف الأنبذة بحيث يكفي أن أشم النبيذ لأعرف من أي بلد ، ومانوعه ، وطعمه ، وعمره ، والتغيرات التي طرأت عليه ، وكل الظروف المتعلقة بالخمير ، واتعجب من هذا ، لأن في اسرتي من ناحية الأب والجدة أكبر متذوقي خمير عرفا في كل أقليم المنتشا منذ زمان طويل . وسأقدم لك دليلاً على عبقريتهما هذه : كلّفنا بتذوق نبيذ برميل ، وسئلا عن رأيهما في النوع ، والجودة ، والعيوب في هذا النبيذ . فمستأ أحدهما بطرف لسانه ، والآخر شمّه فقط ، وقال الأول إن فيه طعم الحديد ، وقال الثاني أن له طعم الجلد . وإدعى صاحب النبيذ أن برميله كان نظيفاً ، وأن النبيذ لا يمكن أن يكون به طعم الحديد ولا طعم الجلد . وأصرّ الذوّاقان على رأيهما . ومع الزمن بيع النبيذ ، ونظف البرميل (الجرن) ، فوجد في قاعه مفتاح صغير مربوط بسير من الجلد . ومن هذا تستطيع أن تحكم أن شخصاً ينحدر من مثل هذه الأسرة يمكنه أن يفهم في مثل هذه الأمور .

فقال السانس الآخر : هذا ما يجعلني أقول يجب علينا أن ندع المغامرات ، ومادام عندنا خبز ، فلا نبحتن عن الفطائر . لنعد الى أكواخنا : فهناك سيبجدنا الله إن شاء . فقال سنشو : أما عن نفسي فسأخدم مولاي حتّى نصل الى سرقسطة ، وهناك نتفاهم . وأخيراً تكلم سانسانا وشربا حتّى عقد النوم لسانيهما وهدا عطشهما ، لأن إطفاء عطشهما كان أمراً مستحيلاً . ونام كلاهما ، ممسكاً القربة نصف الفارغة ، والفم لا يزال مليئاً بلقم نصف مضبوغة . فلندعهما هناك يغطّان في النوم لنروي ماجرى بين فارس الأيكة والفارس الحزين الطلعة .

الفصل الرابع عشر

تلاوة مغامرة فارس الأيكة

من بين الأحاديث الكثيرة التي دارت بين فارسينا يروي التاريخ أن فارس الأيكة قال لدون كيخوته ،

- وأخيراً ياسيدي الفارس ، قدر المصير ، أو بالأحرى اختياري ، على أن أحب المنقطعة النظير كاسلديا دي ونداليل ، وأنعتها بوصف : «المنقطعة النظير» لأنها لانظير لها في النبل والجمال . لكن كاسلديا هذه تكافئ حبي ومقاصدي الطيبة بتعريضني ، كزوجة أبي هرقل ، لأعمال عديدة خطيرة ، واعدة دائماً حين أنتهي من أحدها ، بأنها بعد التالي ستستجيب لرغباتي . وهكذا تسَلَّتْ أعمالني واحداً بعد واحد ، دون أن أستطيع أن أحسب حسابها ، ولست أدري ماذا عسى أن يكون العمل الأخير الذي سيكون أول شاهد على سعادتي . ذات مرة أمرتني بتحدي مارد أشبيلية الشهير باسم «الخيرالده»^(١) ، المعروف بقوته وبسالته ، إذ له جسم برونز ، ودون أن يغيّر مكانه هو أشد النسوة تغييراً وتقلباً في الأهواء ، اقتربت منه ، وشاهدته ، وقهرته ، وثبته لأنه طوال اسبوع بأكمله لم تهب ريح غير ريح الشمال . ومرة أخرى أرادت مني أن أرفع وأزن ثيران جسدو^(٢) القديمة القوية ، وهي مغامرة جديدة بحمال لابفارس . ثم أمرتني بالإلقاء بنفسني من قمة جبل قبرا ، وفي هذا مخاطرة بحياتي ، وأن أقدم لها تقريراً عما تحتويه كهوف هذا الجبل . فثبّت الخيرالده ، ووزنت ثيران

(١) تمثال الإيمان . ممنوع من البرونز ، ارتفاعه أربعة أمتار وسُمّي باسم «خيرالده» من الفعل girara يدور ، لأنه يمسك باليد اليمنى علماً كبيراً يدل على اتجاه الريح ، والتمثال موضوع على محور ، ويدور حول نفسه بسهولة ، وهو لهذا يستخدم بمثابة ورده رياح ، وهو كله على أعلى برج كان في الأصل منذنة مسجد عظيم في اشبيلية .

(٢) جسدو دير على الطريق بين آبله وطليلة . وهذه الثيران تماثيل قديمة من الجرانيت ، تكسرت بعض أجزائها . ويقال أن الذين أقاموها هم أهل قرطاجنة . ويوجد تماثيل مثلها في اشقوبية ، وآبله ، وتورليه ، ولدسما ، ألخ...

جسندو ، وألقيت بنفسي في الهاوية ، وكشفت عن أخفى أسرار الكهوف ، واستمرت هي مع ذلك تتعالى عليّ . وأخيراً أمرتني بإجتياز كل مقاطعات اسبانيا وحمل كل الفرسان الجوّالة الذين ألتقي بهم على الإقرار بأنها أكمل النساء وأجملهن ، وبأنّي أشجع وأعشق الفرسان . وامتنالاً لأمرها زرت الشطر الأكبر من اسبانيا ، وانتصرت على الكثير من الفرسان الذين قرّروا عكس هذا ، لكن من بين كل هذه الأعمال الجليلة التي قمت بها كان أعظمها والذي أفخر به أكثر من غيره وهو في نظري ذو قيمة عظيمة هو انتصاري ، في مبارزة فردية ، على الفارس الشهير دون كيخوته دلا منتشاً وإرغامه على الإعتراف والإقرار بأن صاحبتني كاسلديا أجمل من صاحبتة دلثنيا . وبهذا الإنتصار وحده أرى أنّي انتصرت على كل فرسان العالم ، لأن دون كيخوته هذا الذي أتكلّم عنه قد انتصر عليهم جميعاً ، ومجده ، وشهرته ، وشرفه انتقلت كلّها الى شخصي أنا ، وأعماله التي لا تحصى قد صارت أعمالي أنا . وأنّ تعلم أنه كلّما كان المهزوم شهيراً كان المنتصر عليه أعظم مجداً .

فدهش دون كيخوته لهذا الكلام كل الدهشة ، وألف مرة حاول أن يفتح فمه ليكذب فارس الأيكة ، لكنه مع ذلك تمالك نفسه قدر المستطاع ، ثم حاول أن يجعله يقر بكذبه ، فقال له دون إنفعال : « ليس عندي ما أقوله ، ياسيدي ، بشأن كونك انتصرت على كل الفرسان الجوّالة تقريباً في أسبانيا بل وفي العالم كلّ ، أمّا أنّك انتصرت على دون كيخوته دلا منتشاً فانا أشك في هذا كثيراً . فربّما كان شخصاً آخر يشبهه ، وإن كان لا يشبهه إلا القليلون جداً » .

فأجابه فارس الأيكة : كيف لا بحق السماء التي تعلو علينا لقد نازلت دون كيخوته ، وانتصرت عليه ، وجعلته تحت رحمتي . إنه رجل فارغ القامة ، نحيف الوجه ، أشلاؤه طويلة معروقة ، وشعره مشعث ، وأنفه مدبّب كالنسر ومنحن ، وشواربه كبيرة سوداء مهدّلة ، ويحارب تحت اسم الفارس الحزين الطلعة ، وله سائس فلاح يدعى سنشو پنشا ، ويركب جواداً شهيراً اسمه روئينانته ، وأخيراً له سيدة أفكار تدعى دلثنيا دل توبوسو ، وكان اسمها من قبل ألدونثالورثو : مثل صاحبتني ، واسمها كاسلدا وهي من الأندلس ، وقد سمّيتها كاسلديا دي ونداليا ، فإن كانت كل هذه الإمارات لا تكفي لإثبات الحقيقة ، فها هو ذا سيفي يستطيع أن يقهر عدم تصديقك .

فأجابه دون كيخوته : على رسلك قليلاً ياسيدي الفارس ، واسمع ما أريد أن أقوله لك : دون كيخوته هذا الذي تتكلّم عنه هو أعز أصدقائي ، وهو صديق حميم الى حد أنني أستطيع أن أقول أنّي أحبّه كأنه ذاتي الأخرى ، وبالعلامات التي ذكرتها ، وهي دقيقة ، صريحة ،

لأستطيع أن أشك أنه هو الذي انتصرت عليه أنت . من ناحية أنا أرى بعيني ، وألمس بيدي أنه لا يمكن أن يكون هو ، اللهم إلا أن يكون - وهو رجل له أعداء كثيرون من بين السحرة ، وخصوصاً ساحر لاينثني عن مطاردته ، - قد اتخذ واحداً منهم شكله ليترك نفسه يهزم ، حتى يشوه بهذا سمعته التي اكتسبها بأعماله الجليلة في طول المعمورة . وكدليل على ما أقول لك عن خبث هؤلاء السحرة ، أقول لك أنه منذ يومين حولوا دلثنيا الجميلة الى فلاحه قبيحة حقيرة : فلابد أنهم حولوا أيضاً دون كيخوته . فإن لم يكفِ كل هذا الذي قلته لإقناعك ، فما هو ذا أمامك دون كيخوته هذا بعينه ، يؤيده لك والسلاح في يده ، راجلاً أو راكباً ، على أي نحو تريد .

ولما قال هذه الكلمات هبّ واقفاً ، وأمسك سيفه ، منتظراً قرار فارس الأيكة . فقال هذا الأخير بهدوء : « الدافع الجيد لا يخشى أبداً من إعطاء رهن ، إذا كنت قد انتصرت عليه محولاً ، ياستد دون كيخوته ، فأني أستطيع أن آمل في أن أهزمه بشكله الحقيقي . لكن لما كان من غير اللائق أن يتبارى فارسان إبان الليل كقطّاع طرق ، فانتظر حتى الصباح لتضيء الشمس أعمالنا . وشرط النزال هو أن يظل المقهور تحت رحمة القاهر ، وأن يفعل كل ما يطلبه هذا منه ، بشرط ألا يكون أمراً مخللاً بنظام الفروسية » . فأجاب دون كيخوته : « وأنا أوافق على هذا الشرط » .

وفي الوقت نفسه اقتربا من الموضع الذي كان فيه سائسهما ، فوجدانهما يشخران في الوضع نفسه الذي غلبهما فيه النعاس ، فأيقظاهما وأمرهما بأن يعدا فرسيهما ، لأنه لدى أول شعاع من الشمس عليهما أن يخوضا معركة حامية دامية الواحد ضد الآخر . فاضطرب سنشو لهذا الخبر أيما اضطراب ، وخشي كثيراً على مولاه ، بناءً على ماسمعه عن بسالة فارس الأيكة مما رواه سائسه . ودون أن يتفوّها بكلمة ذهب الخادمان لإحضار الأفراس الثلاثة والحمار وكلها قد بقيت مع بعضها بعد أن شتم كل منهما الآخر .

وفي أثناء الطريق قال سائس فارس الأيكة لسنشو : عليك أن تعرف يا أخي أنه في الأندلس حين يتبارز فارسان ، فإن تابعيهما يجب ألا يقف ساكتين ، مكتوفي الذراعين ، بينما الآخران يتبارزان ، وأنا أنبّهك الى هذا حتى تتبارز نحن من ناحيتنا ، بينما يتبارز سيدنا .

فقال سنشو : ربّما كان هذا العرف موجوداً ، ياسيدي السائس ، بين الفشارين والفياشين المدعين الشجاعة الذي تقول عنها ، ، أمّا أن يمارسه سواك الفرسان الجوّالة فهذا أمر لاأصدق منه شيئاً : على الأقل لم أسمع أبداً مولاي يتكلم عن مثل هذا العرف ، وهو

يحفظ عن ظهر قلب كل قوانين الفروسية ، وحتى لو افترضنا أن هناك قانوناً حقيقياً صريحاً يلزم السوأس بالقتال حين يتصارع أسيادهم ، فليست لديّ أية نية في إطاعة هذا القانون ، وأفضل دفع الغرامة المفروضة على السوأس المسالمين ، وهذه الغرامة ، فيما أظن ، لا تتجاوز رطلين من الشمع ، وأنا أفضل دفع هذين الرطلين ، لأتبي أعلم أن ذلك سيكلفني أقل مما يكلفه الشاش الذي لابد لي أن أشتريه لتضميد جراح رأسي ، إذ يلوح لي فعلاً الآن أنها انفلقت فلقتين ، أضف الى هذا أنني ليس معي سيف ، ولم أحمل سيفاً طوال حياتي ، ولا أستطيع استعماله .

فقال سائس فارس الأيكة : أعرف علاجاً ناجعاً لكل هذا كله ، معي زكيتان من التيل ذواتا حجم واحد ، أنت تأخذ واحدة ، وأنا الأخرى ، وتتضارب هكذا بسلاح متكافئ .
فقال سنشو : حسناً ، ننفذ غبار ملابسنا بدلاً من أن نجرح بعضنا بعضاً .

فقال الآخر : لأقصد هكذا ، فحتى لا ترفع الريح زكيتينا سنضع في كل منهما ست حصوات لامعة نظيفة متساوية الوزن ، وبهذه الطريقة نحك بعضنا بعضاً دون أن نوذي أنفسنا .

فصاح سنشو : بحق جسم أبي! انظر أي قطن مندوف أو أي قطع سمور يضعها في الزكائب حتى لا يكسر رأسنا أو يكسر عظامنا! حتى لو ملأناها بقطع من الحرير ، اعلم ياسيدي العزيز ، أنني لأرغب أبداً في العراك . لندع سيدينا يفعلان ما يشاءان ، وليتبارزا ماحلا لهما ، أما نحن فلنعش ونشرب ، والزمن كفيف وحده بانتزاع حياتنا ، دون أن نبحت عن وسائل اختصارها قبل الأوان .

فقال سائس فارس الأيكة : ورغم هذا كله لابد من أن تتضارب ولو لمدة نصف ساعة .
فقال سنشو : هذا ، لا ، ولن أكون عديم التهذيب جاحداً الى حد التنازع ، أي تنازع ، مع من شربت معه وأكلت ، وحينما لا يكون المرء غاضباً فبأي شيطان إذن يقرر أن يتعارك .
فأجاب سائس فارس الأيكة : أعرف أيضاً علاجاً ناجعاً لهذا ، قبل أن نبدأ المعركة ، أقترب منك ، أصفحك صفعتين أو ثلاثاً تجندلك على الأرض : هنالك يأتيك الغضب قطعاً ، حتى لو كنت مخدراً كل التخدير .

فقال سنشو : أما أنا فأعرف علاجاً خيراً منه : آخذ عصا ، وقبل أن يكلف سيادتك نفسه بإثارة غضبي ، أنوم غضب سيادتك بضربات من العصا متوالية ، بحيث لا تستيقظ الا في العالم الآخر . من المعلوم أنني لست ممن يتركون أحداً يأكل لحمهم ، وليأخذ كل إنسان حذرهما ومع ذلك فالأفضل تنويم الغضب ، لأنه لأحد يعلم ما يجري في نفس الآخر ،

هذا يأتي لبحث عن صوف فيعود مجزوزاً . بارك الله في السلام ، ولعن العراك! إذا كان القط قد طورد وشدّد عليه وحوصر يصبح أسداً ، فأنا الإنسان ، الله يعلم ماذا يمكن أن أصبح ، ولهذا ياسيدي السانس ، أنبّهك مقدماً الى أنك ستكون وحدك مسؤولاً عن كل ماعسى أن ينتج عن عراكنا من شرور .

فقال الآخر : هذا حسن ، إن شاء الله يطلع النهار ونرى!

ثم بدأت آلاف أنواع الطيور الصغيرة ، المتفاوتة الألوان الزاهية ، في التفريد على غصون الأشجار ، وبدا كما لو أنها كانت بأغانيها الفرحة المتنوعة تحيي اورورا (الفجر) النضيرة : فقد شوهدت (الفجر) وهي تقبل من خلال أبواب الشرق وطفنة ، وهي تهزّ بشعرها الأشقر كمّية هائلة من اللآلئ المائية التي تستنشقها بشراهة أعشاب المروج ، وتؤلّف على الخضرة شبكة لامعة فسيحة وأشجار الصفصاف تقطّر منها شهياً ، والينابيع تنشر أبسطها السندسية الخضراء لاستقبال الآلهة (اورورا) .

لكن لم يكد نور النهار يسمح بتمييز الأشياء ، حتى كان أول ماتبين لناظر سنشو هو أنف سانس فارس الأيكة ، وكان أنفاً كبيراً جداً حتى كان يظل جسمه كله . ويروى أن هذا الأنف كان ذا طول مفرط ، منحنيّاً عند الوسط ، مليئاً بالشامات ، بنفسجياً مثل الباذنجان ، وينزل الى أدنى من الفم بمقدار إصبعين ، وكان طول ، ولون ، وتقويس ، وشامات هذا الأنف تجعل وجه السانس بالغ الدمامة والقبح ، حتى أن سنشو أخذ يضرب بقدميه ويصفق بكفيه مثل طفل سقط ، ولهذا قرّر أن يدع نفسه ويتلقّى مائتي صفة بدلاً من إثارة هياج مثل هذا الشبح .

ودون كيخوته ، من ناحيته ، أخذ يتفحص خصمه : فرأى أنه قد وضع الخوذة على رأسه ، بحيث لا يمكن رؤية وجهه ، ولاحظ أنه شديد الأسر ، مفتول العضلات ، ولكنه قصير القامة ، وكان يلبس فوقه سلاح سترة بدت من التيل المرصع بالذهب الخالص ، وكان ينشر عليها مرايا لامعة ، على شكل أقمار صغيرة ، جعلت هذا الرداء ثميناً بقدر ما كان أنيقاً ، وكانت خوذته مملوءة بكمية كبيرة من الريش الأخضر ، والأصفر ، والأبيض ، وكان رمحه ، الذي أسنده الى شجرة ، كبيراً طويلاً مسلحاً بحديدة مدبّبة أطول من شبر . ولاحظ دون كيخوته كل شيء وفحص كل شيء ، وقدّر أن هذا الفارس لابد أن يكون قوياً جداً . ومع ذلك فإنه لم يرتعد مثل سنشو : بل بالعكس ، اقترب بثبات من خصمه ، وقال له : « إذا كانت الرغبة في القتال لاتغيّر أبداً أدبك فإنّي أستحلفك أن ترفع كمّامة خوذك ، حتى أرى ما إذا كانت الطيبة تتفق مع ثراء هندامك وهيئتك » .

فقال فارس المرايا : قاهراً أو مقهوراً ياسيدي الفارس ، سيكون لديك متسع من الوقت للتطلع في . وإذا كنت لأستجيب الآن لرغبتك فذلك لأنه يبدو لي أنه من الإهانة للجميلة كسلديا دي ونداليا أن أؤخر اللحظة التي أحملك فيها على الإقرار بما تعرف .

فقال دون كيخوته : لنركب فرسينا إذن ، وتستطيع حينئذ أن تحكم ياسيدي هل أنا ذلك الدون كيخوته الذي قلت أنك هزمته .

فقال الآخر : إنك تشبهه كما تشبه البيضة البيضة ، لكن مادمت تقول أنه يطارده السحرة ، فإني لأستطيع أن أجزم هل أنت هو .

فأجاب دون كيخوته : هذا يكفي ، إنني أدرك خطأك ، ولتبيده نهائياً فليؤت بأفراسنا ، وفي أقل من المدة المطلوبة لرفع كمامتك ، إذا ساعدني الله وسيدتي وذراعي ، سأرى وجهك ، وستتعرف أنت أنني لست ذلك الدون كيخوته الذي تعتقد أنك انتصرت عليه .

ودون أن يتابعا الكلام ، ركبا فرسيهما . أما دون كيخوته فأدار لجام روثيناته ليتخذ المسافة الكافية للقدوم للإنقضاض على خصمه ، الذي قام بالمناورة نفسها ، لكن لم يكد يسير عشرين خطوة حتى دعاه فارس المرايا وقال له : « تذكر يامولاي ، شروط قتالنا : المهزوم ، كما قلت لك ، يجب أن يصير تحت رحمة وتصرف الظافر » . فقال دون كيخوته : « أعرف ذلك ، بشروط ألا يفرض عليه شيء يتنافى مع قوانين الفروسية » . فقال فارس المرايا : « وأنا مقر بهذا أيضاً » .

وفي تلك اللحظة أبصر دون كيخوته غرابة أنف السانس ، فدهش منها دهشة لا تقل عن دهشة سنشو : فاعتقد أن هذا الشخص عجيبة من عجائب المخلوقات ، ونوع جديد من الناس ، لم يعتد أحد رؤيته . وسنشو من ناحيته حين رأى مولاه يسير لإتخاذ مسافة ، لم يشأ أن يبقى مع السانس العجيب الخلقة ، وخشي أن يلقي به على الأرض ويخنقه بضربة واحدة عى أنفه ، فراح يقف خلف روثيناته ، ويده على جانب السرج ، ولما رأى مولاه راجعاً ، قال له : « مولاي ، أتوسل اليك قبل أن تمضي ، أن تعاونني على الصعود على شجرة الفلين هذه ، التي منها أستطيع على نحو أحسن من الأرض رؤية لقائك الباسل مع هذا الفارس » .

فأجابه دون كيخوته : « أعتقد أنك ياسنشو إنما تريد بهذا أن تصنع صنيع أولئك الذين يقفون على السقالات ليروا مصارعة الثيران بغير خطر » .

فأجاب سنشو : « سيدي : أعترف لك بأن الأنف الفظيع لهذا السانس قد بعث رعباً شديداً في نفسي حتى إنني لأجسر على البقاء بجواره » .

فقال دون كيخوته : « صحيح أنه عجيب الخلقة . ولو لم أكن أنا من أنا ، لكنك خفت منه أنا أيضاً . تعال أساعدك على الصعود » .

وبينما كان دون كيخوته يساعد سنشو على الصعود على شجرة الفلين ، كان فارس المرايا قد اتخذ المسافة التي حسبها ضرورية ، واعتقاداً منه أن دون كيخوته فعل الشيء نفسه ، فإنه بغير انتظار البوق أو إشارة ، أدار عنان فرسه ، ولم يكن أحسن ولا أخف من روثينانته ، وبكل قوة عدوه ، ولم يزد عن كدفة خفيفة ، تقدّم لملاقاة خصمه ، لكن لما رآه مشغولاً مع سنشو ، توقف في وسط الميدان ، ضابطاً عنان فرسه ، الذي اغتبط لذلك ، لأنه لم يكن بوسع بعد أن يتحرك . فلما ظن دون كيخوته أن خصمه يريد أن ينقض عليه ، همز جانبي روثينانته بشدة ، وهيج ، الى حد أن هذه كانت - فيما يروي المؤرخ - المرة الأولى التي فيها ركض ، لأنه في العادة يكدف فقط . وبهذا التهيّج غير المعتاد ، أقبل على فارس المرايا الذي كان يحاول عبثاً أن يخز المهمازين في بطن فرسه ، دون أن يستطيع أن يحركه من المكان الذي وقف فيه مبهور الأنفاس . فارتبك على ركوبته ، وارتبك من رمحه ، فلم يستطع أن يصوبه في وضع القتال ، وهذا ، وبدون أي خطر ، دون كيخوته الذي لم يهتم بإضطراب خصمه صدمه بقوة كبيرة حتى أنزله عن سرجه وألقى به على الأرض بقوة ، حتى لم يحرك هذا يده ولا قدمه ، وظن أنه مات . ولم يكذب سنشو يراه يسقط حتى انزلق عن شجرة الفلين ، وجرى بسرعة الى حيث مولاه ، وكان هذا قد نزل من روثينانته وألقى بنفسه على فارس المرايا ، فحلّ رباط خوذته ليرى هل مات ، أو ليحمله يتنفس إذا كان لا يزال حياً ، لكن من ذا الذي يعرف ، ولا يدّش ، ولا يرتعد ، أي منظر تجلّى أمام ناظره! لقد رأى دون كيخوته ، وتعرّف ، هكذا يقول المؤرخ ، وجه وشكل ومظهر وسيماء وقسمات وملامح صاحب الإجازة سمسون كرسكو فلما رآه صاح : « تعال هنا ياسنشو ، انظر ترى شيئاً لا يمكنك أن تتصوره وتصدّقه ، انظر يا بني ، ماذا يمكن أن يفعل السحر ، وكم هي هائلة قوة السحرا » فتطّلع سنشو ، ورأى وجه صاحب الإجازة ، فأخذ يرسم آلافاً من علامات الصليب . لكنّ الفارس المغلوب لم يكشف عن أي علامات للحياة . فقال سنشو : « سيدي ، من رأيي مهما يكن الأمر ، أن تغرز سيفك في جسم المزعوم سمسون كرسكو هذا ، وبهذه الوسيلة ، تبديد واحداً من أعدائك السحرة » .

فقال دون كيخوته : « هذا رأى سليم ، إذ سينقص من عددهم واحد على كل حال » . واستل سيفه لتنفيذ نصيحة سنشو ، حينما اقترب سانس المغلوب ، وقد نزع أنفه الذي جعله قبيحاً جداً ، وصاح : « حذار مما أنت فاعل ، ياسيد دون كيخوته : إن من تراه تحت

قدميك هو صديقك صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وأنا سائسه . ولما رآه سنشو بوجهه العادي قال له : « والأنف ، أين هو ؟ » فقال الآخر : « في جيبي » . وفي الوقت نفسه أراه أنفاً من الورق المقوى الملون مثل أنف الأفعى ، وكما وصفناه . فتفحصه سنشو شيئاً فشيئاً متطلعاً في وجهه ، وصاح بدهشة بالغة : « ياللعذراء المقدسة مريم! رحماك! هذا هو اشبين ولدي وجاري توماس ثيال » . فقال السانس الذي بدون أنف : « صحيح ، تماماً أنا هو . وسأروي لك بعد قليل الحيل ، والمكائد ، والألاعيب التي اقتادتني الى هنا ، لكن أرجو ، وأتوسل الى مولاك ألا يمسه ، ولايسيء معاملته ، ولايضرب ، ولايقبل فارس المرايا الراقد عند قدميه ، لأنه من غير أدنى شك هو المسكين الفائل الرأي صاحب الإجازة كرسكو ، ابن قريتنا » .

وفي تلك الأثناء كان هذا قد استردّ وعيه ، ولما لاحظ هذا دون كيخوته وضع طرف سيفه على رقبته ، وقال له : « أنت مقتول يا فارس إن لم تقر في الحال أن المنقطعة النظير دلثيا يفوق جمالها جمال صاحبك كسلديا دي ونداليا ، وإن لم تتعهد لي بأن تذهب ، إذا نهضت من سقطتك ، الى مدينة توبوسو وتمثل أمام السيدة دلثيا ، لتتصرف فيك ، كما تشاء ، ثم تعود بعد ذلك لتلحق بي ، وسيكون أثر أعمالي الجليلة قدوة تحذيتها ، وتروي لي ماجرى بينها وبينك . بهذا الشرط أهبك الحياة والحرية : وهما تتفقان مع ماقدرناه من شروط قبل القتال ، ولتتجاوز حدود الفروسية الجوّالة » .

فأجاب الفارس المغلوب ، اعترف وأقر بأن حذاء السيدة دلثيا دل توبوسو ، حذاءها القدرالممزق أفضل من لحية كسلديا لحيتها غيرالممشوطة وإن تكن نظيفة ، وأتعهد بالمشول أمامها ، والعودة اليك لتقديم تقرير عن سفارتي .

فقال دون كيخوته ، وعليك أيضاً أن تعترف وتقر ، بأن الفارس الذي انتصرت أنت عليه ليس ، ولايمكن أن يكون ، دون كيخوته دلاً منتشاً ، بل هو شخص يشبهه ، كما أتى من ناحيتي أعتقد وأقر بأنك لست صاحب الإجازة سمسون كرسكو ، وإن كنت تبدو أنك هو ، بل أنت شخص يشبهه ، وأظن أن أعدائي قد اتخذوا شكله ليقفوا ويسكنوا اندفاع غضبي ، ولكي أستغل شرف انتصاري برحمة .

فأجاب الفارس المقهور ، اعترف ، وأحكم ، وأعتقد كل ماتحكم به ، وتعتقد وتراه . دعني أنهض ، أرجوك ، إذا مكنتني ألم السقوط من النهوض ، لأنني تحطمت تماماً . فساعده دون كيخوته على النهوض ، وكذلك ساعده توماس ثيال الذي لم يكف سنشو عن التطلع فيه . والأحاديث والأجوبة التي نطق بها السانس برهنت بكل وضوح أنه ليس

شخصاً آخر غير اشبين ولد سنشو وجاره ، لكن ماسمعه من مولاه عن خبث السحرة وتحول فارس المرايا ، منعه من الإعتماد على ماتشهد به عيناه . وأخيراً بقي السيد والخادم على خطئهما! وانفصل فارس المرايا وسانسه في ارتباك وتحطم ، عن دون كيخوته وسنشو ، بقصد البحث عن مكان يمكن فيه تضييد أضلاع كرسكو المحطمة . واستأنف دون كيخوته وسنشو طريقهما الى سرقسطة ، ويتركهما المؤرخ ليقرّر حقيقة فارس المرايا والسانس ذي الأنف الكبير .

الفصل الخامس عشر

وفيه يروى من كان فارس المرايا وسائسه

رضي دون كيخوته عن نفسه كل الرضا ومضى في طريقه مكللاً بغار النصر والمجد ، مزهواً بالانتصار الباهر الذي أحرزه على ذلك الفارس الباسل الذي اعتقد أنه فارس المرايا . ومليئاً بالثقة بكلمة الفروسية (العهد الذي تعهد به فارس المرايا) كان يأمل في أن يعرف بعد قليل هل لا يزال انسحار سيدته مستمراً ، لأنه لم يشك لحظة واحدة في أن الفارس المقهور سيعود اليه ويأتيه بنبأ المقابلة ، وإلا إنحط عن رتبة الفروسية . لكن دون كيخوته فكر في شيء ، وفارس المرايا فكر في شيء آخر ، وإن كان همه الوحيد في تلك اللحظة هو أن يضمّد نفسه كما قلنا ، ولكن التاريخ يروي هو أنه حين نصح صاحب الإجازة سمسون كرسكو فارسنا دون كيخوته أن يعود الى إستئناف السعي وراء المغامرات ، لم يتم ذلك إلا بعد أن استشار القسيس والحلاق ، للبحث في الوسائل الكفيلة بإرغام دون كيخوته على أن يقيم ساكتاً في بيته ، دون سعي وراء مغامرات فاسدة . وكان الرأي الذي أجمع عليه مجلسهم ، وخصوصاً رأي كرسكو ، هو أن يتركوا دون كيخوته يرحل ، إذ بدا من المستحيل منعه ، وأن يقوم سمسون كرسكو ، مسلحاً بشكل فارس جوال ، بالحملة ، ويستثيره للنزال (إذ بدا لهم أن الانتصار عليه أمر سهل) بشرط صريح وهو أن يصبح المغلوب تحت رحمة الغالب . فإن هزم دون كيخوته ، فرض عليه كرسكو أن يعود الى قريته وبيته ، وألا يخرج منه طوال عامين ، أو على الأقل حتى يتلقّى أمراً مضاداً . وبدا من المؤكد أن دون كيخوته سيراعي هذا الشرط بكل دقة وأمانة ، حتى لا يخالف قوانين الفروسية ، وكان من المحتمل أنه خلال هذه المدة الطويلة سينسى حماقاته ، أو يجدون دواء لعلاج من دائه . ولما تم الإتفاق على هذا ، أخذ كرسكو على عاتقه القيام بهذه المهمة ، وتطوّع توماس ثيغال ليكون سائسه : وكان جاراً واشبيين ولد لسنشو ، متقلّب المزاج يحب أن

يعيش . وتسَلَّحَ كرسكو على النحو الذي وصفناه ، ووضع ثييال أنفاً زائفاً من الورق المقوى حتى لايتعرّفه جاره سنشو ، ولما استعدّا هكذا تابعا الطريق نفسه الذي سلكه دون كيخوته ، وكانا على وشك اللحاق به وقت مغامرة عربية الموت . ثمّ لاحقاً به في الأيكة (الغابة) التي وقع فيها ماعرفه القارئ في الفصل السابق ، ولولأن خيال دون كيخوته المختل لم يقنعه بأن صاحب الإجازة ليس كرسكو ، لاستحال على السيّد صاحب الإجازة أن ينال بعد ذلك درجة الليسانس ، بسبب أنه لم يجد العش الذي ظنّ أنه سيعثر فيه على عصافير . ولما رأى توماس ثييال إخفاق رحلتهم وخطتهما قال لصاحب الإجازة : « ياسيّد سمسون ، لم نل إلا مانستحق ، يعتقد المرء أحياناً أنه سيتم عملاً بسهولة ، وغالباً لا يخرج منه إلا بعد صعوبات جمّة . إنّ دون كيخوته مجنون ، أمّا نحن فعقلاء ، إنه يمضي فرحاً سليماً ، أمّا أنت فحزين محطّم الأضلاع ، قل لي إذن من الأكثر جنوناً ، من هو مجنون لأنّه لا يمكن أن يكون غير ذلك ، أو من يتصنّع الجنون بإرادته ؟ » فقال سمسون : « الفارق بين هذين المجنونين هو أن المجنون رغماً عنه سيظل كذلك دائماً ، أمّا الآخر فسيتوقّف عن الجنون حينما يشاء » . فقال ثييال : « إذا كان الأمر كذلك فقد كنت أنا مجنوناً بإرادتي واختياري حين عملت سائساً لسعادتك ، وإبرادتي واختياري أيضاً أترك أنا خدمتك وأعود الى بيتي » .

فأجابه سمسون : « الأمر أمرك أنت ، لكن أرجوك أن تعتقد أنني لن أعود قبل أن أحطّم أضلاع السيّد دون كيخوته ، وليس لي الآن هدف من إعادته الى صواب العقل ، بل هدفي هو أن أنتقم منه ، لأنّ آلام أضلاعي لا تبعث في نفسي أية شفقة » . وكانا يتناقشان هكذا لما أن بلغا قرية وجدا فيها لحسن الحظ ، مجبراً ضمّد كرسكو المسكين . وتركه ثييال ليعود أدراجه . ولنترك سمسون يفكر في الانتقام ، فإن المؤرخ يعرف كيف يعثر عليه عند الحاجة . ولا نشغلن أنفسنا الآن إلا بالمشاركة في فرحة دون كيخوته .

الفصل السادس عشر

فيما وقع لدون كيخوته مع فارس عاقل من المنتشا

تابع دون كيخوته سيره كما قلنا ، بكبرياء وسرور ورضا ، متخيلاً بعد مثل هذا الإنتصار أنه أعظم فارس جوال في العالم كله ، ومعتقداً أن كل مغامراته المقبلة ستتم بنجاح تام ، ولم يعد يحفل كثيراً بالسحرة والإنسحارات ، غير متذكر بعد ضربات العصي التي لاتحصى ولا تعد والتي لقيها وأصابته خلال أعماله ، ولا الحجر الذي كسر نصف أسنانه ، ولا جحود المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، ولا أوتاد البغالة الينجواسيين .
وأخيراً قال لنفسه أنه لو استطاع أن يكتشف الفن ، والوسيلة والطريقة التي بها يستطيع أن يبطل مفعول سحر سيده دلثنيا ، فلن يحسد أعظم حظ ناله أسعد فارس جوال في العصور الماضية .

وبينما كان مستغرقاً في هذه التأمّلات اللذيذة قال له سنشو : « سيدي ! أليس من المضحك أنني أتصور دائماً أنني أرى أمام عيني هذا الأنف الكريه ، وهذين المنخارين الواسعين لجاري توماس ثييال ؟ » فقال له دون كيخوته : « وهل تعتقد إذن أن فارس المرايا هو صاحب الإجازة (البكالوريا) كرسكو ، وأن سائسه هو توماس ثييال جارك ؟ »
فقال سنشو : « والله لأعرف ، كل ما أعرفه هو أن العلامات التي ذكرها عن بيتي ، وزوجتي ، وأولادي لا يمكن أن تصدر إلا عنه هو ، وشكله ، حين لا يكون له الأنف المستعار ، هو تماماً شكل توماس ثييال كما رأيته ألف مرة في قريتنا ، لأن بيته ملاصق لبيتي ، فضلاً عن ذلك فإن نبرة صوته هي هي » .

فقال دون كيخوته : تعال هنا ياسنشو ، ولنتكلم قليلاً بعقل : لأي سبب ترى أن يأتي حامل البكالوريا توماس كرسكو ، على هيئة فارس جوال ، مدجج بالأسلحة الهجومية والدفاعية ، ليقاتلني ؟ هل أنا عدوه ؟ هل فعلت شيئاً في حياتي يسبب في نزاع معه ؟ هل أنا

منافسه ؟ هل هو يحترف مهنة السلاح ، حتى يكون غيوراً من المجد الذي حصلته عن طريقها ؟ فقال سنشو : لكن يامولاي ماذا تقول إذن عن هذا التشابه المدهش بين هذا الفارس ، أياً من كان هو ، وبين حامل البكالوريا كرسكو ، بين سانسو وبين توماس ثيغال جاري ؟ إذا كان هذا من فعل السحر كما تقول ، فإنه لا يوجد في العالم اثنان يشبهانهما هذا الشبه التام . فأجاب دون كيخوته : كل هذا ليس إلا خداعاً وتزييفاً من فعل السحرة الخبثاء الذين يلاحقونني ، فهم لما قدروا مقدماً انتصاري في المعركة ، أعطوا الفارس المغلوب شكل صديقي حامل البكالوريا حتى تحول المودة التي تجمع بيننا دون قوة ذراعي وغضب سيفي ، وتهديء من ثائرة غضبي العادل ، وبهذه الطريقة أبقى على حياة من استخدم الحيلة للقضاء على حياتي ، وللتدليل على ما أقوله لك أنت تعرف ياسنشو بتجربة لا يمكن أن تخدع كيف يسهل على السحرة أن يحدثوا تحويلات ، وإنهم يستطيعون إذا شاؤوا ، أن يحولوا الجمال الى قبح ، والجميل الى قبيح ، كما شاهدت مثلاً على ذلك منذ يومين في شخص دلثنيا ، التي شاهدت أنت جمالها في تمام روعته ، بينما لم أبصر أنا غير فلاحه حقيرة قبيحة جلقة في عينيها سحابة ، وتنبعث من فمها رائحة كريهة ، فهل من عجب إذن في أن يكون الساحر الشرير الذي أحدث هذا التحول الكريه قد أحدث أيضاً تحول كرسكو وجارك ثيغال ، كيما ينتزع من يدي ثمن النصر ؟ لكن مايعزييني ، أياً ماكان الشكل الذي اتخذه عدوي ، هو أنني انتصرت عليه .

فقال سنشو : « الله أعلم بحقيقة هذا كله » - ولم يكن سنشو مقتنعاً بالأسباب التي ساقها دون كيخوته ، لأنه كان يعلم حق العلم أن تحول دلثنيا كان من عندياته هو واختراعه ، لكنه لم يرد عليه ، خوفاً من أن يمكنه من كشف خدعته . وفي اللحظة نفسها سمعا قادمًا خلفهما مسافراً يسلك الطريق نفسه الذي يسلكانه : وكان يركب فرسة جميلة لونها رمادي تفاحي ، وعليه معطف من الجوخ الأخضر الفاخر ، المحاط بالقטיפ المصقولة ، وعلى رأسه قلنسوة من نفس القטיפ ، وكانت فرسه ذات سرج عربي من نفس الألوان ، وكان يعلّق في منطقتة الخضراء الذهبية سيفاً مغربياً ، وكانت الأحذية متشابهة في اللون للمنطقة ، ولم يكن مهمأزه مذهبين ، بل مطليين بطلاء أخضر ، يلعب في انسجام مع سائر هندامه ، فكان وقعها أجمل مما لو كانت من الذهب . ولما مر برجلينا (دون كيخوته وسنشو) حيّاهما بأدب ، وهمز فرسه وتابع الطريق ، حين قال له دون كيخوته : « سيدي ، إذا كنت سائراً في نفس طريقنا ولست متعجلاً السير والوصول ، فربّما لا يضايقك أن نسافر معاً » .

فأجاب الغريب : « يا سيدي إن السبب في إسراعي هو أنني خشيت أن يقلق وجود فرسي فرسك » .

فقال له سنشو : « تستطيع أن تكون مستريح البال من هذه الناحية : فإن فرسنا آمن وأكثر الأفراس أدباً في العالم ، إذ لم تصدر منه في مثل هذه الظروف أية قبيحة أبداً ، والمرة الوحيدة التي انطلق فيها دفعنا نحن ثمن ذلك غالياً ، مولاي وأنا . إذن لا شيء يمنعك من وقف ركوبتك ، لأنني واثق أن فرسنا لن يقربها أبداً مهما حدث وأغريناه بها بين صحتين من الطعام » .

فتوقف الغريب ، وأخذ يتأمل في شكل وحركات دون كيخوته الذي لم يكن على رأسه خوذه ساعته ، لأن سنشو حملها ، كحقيبة على تقويسة برذعته ، وإذا كان الرجل ذو الملابس الخضراء ينظر بإنتباه شديد إلى دون كيخوته ، فهذا هو الآخر كان يتطلع فيه ، إذ بدا له رجلاً عاقلاً رفيع المكانة : كان يبدو في سن الخمسين ، وأنفه محدودب ، وشعره لم يخطه الشيب بعد ، وبالجمل كانت هيئته هيئة رجل كريم المحتد . أما الغريب فلم يشاهد في حياته شكلاً يشبه شكل فارسنا هذا ، ودهش أيضاً من رؤية هذا الفرس الطويل الهزيل ، وتلك القامة الفارعة النحيلة ، وذلك الوجه الأصفر المعروق ، وهذين الذراعين ، وبالجمل كل تلك الهيئة العابسة المضحكة معاً .

وتفطن دون كيخوته لشدة تفحص المسافر له ، وقرأ الدهشة في عينيه . ولما كان مؤذياً جداً ، ومستعداً باستمرار ، قبل أن يوجه إليه الآخر أي سؤال ، فقد قال له : « لست مندهشاً ياسيدي من كونك تدهش من شكل مثل شكلي . شكل غريب مختلف عن الأشكال التي تراها عادة . ولكن دهشتك تزول حين أقول لك أنني واحد من أولئك الفرسان الذين يسIRON ، كما يقال ، سعيّاً وراء المغامرات . لقد هجرت بلدي ، ورهنت أملاكِي ، وتركت هناك كل اللذات ، لأرتمي في أحضان الحظ ، وأسلم قيادي إليه يقودني إلى حيث يشاء ، فقد أخذت على عاتقي بعث الفروسية الجوّالة ، ومنذ وقت طويل ، كابياً هنا ساقطاً هناك ، ناهضاً في مكان آخر ، فقضيت شطراً كبيراً من عملي في إعانة الأرامل ، والدفاع عن الفتيات ، وحماية السيدات المتزوجات ، وإغاثة اليتامى والقصر ، وهي المهمة التي أختص بها الفرسان الجوّالة . وأعمالي لعديدة محسنة قد جعلتني أستحق شرف أن تطبع عند كل أمم العالم تقريباً . لقد طبع من تاريخي ثلاثون ألف نسخة ، وإذا لم تعالج السماء الأمر فمن الممكن أن يطبع منه ثلاثون مليوناً . وبالإجمال واختصاراً للقول أقول لك إنني دون كيخوته دلا منتشا ، الملقب بالفارس الحزين الطلعة ، وإذا لم يكن من الملائم أن يمدح المرء نفسه ، فإنني أرى نفسي ملزماً أحياناً بأن أفعل ذلك ، على الأقل حين لا يتولّى أحد

ذلك . ولهذا فلا ينبغي ياسيدي الفاضل أن يدهشك هذا الفرس ، ولا هذا الرمح ، ولا هذا الترس ، ولا هذا السانس ، ولا كل هذه الأسلحة ، ولا حول جسمي ، ولا شحوب وجهي ، الآن وقد عرفت من أنا وأية مهنة أمارس .

وسكت دون كيخوته ، ولم يدر الرجل ذو الرداء الأخضر بماذا يجيبه ، وأخيراً وبعد صمت طويل قال له : « لقد أدركت ياسيدي دهشتي من رؤياك ، لكنك لم تبدّها بما أخبرتني به من مهنتك : بل على العكس ، ازدادت دهشة أكثر من ذي قبل . إذ كيف يتأتى أن يكون في العالم اليوم فرسان جوالّة ، وأن تطبع كتب صحيحة في الفروسية ؟ إنّي لأستطيع أن أقنع أن على الأرض شخصاً يعين الأرامل ، ويدافع عن الفتيات ، ويحمي السيدات المتزوجات ، ويغيث اليتامى ، ولن أصدق ذلك إذا لم أره بعيني في شخصك . بوركت السماء لأن تاريخ أعمالك الجليلة الحقيقية ، التي تقول أنها مطبوعة ، سينسى عمّا قليل الناس هذا العدد الضخم من الفرسان الخياليين الذين تملأ أساطيرهم الدنيا ، إفساداً للأخلاق وللتواريخ الحقيقية » . فقال دون كيخوته : هناك الكثير مما يمكن أن يقال بشأن الزيف المزعوم للتواريخ الفروسية .

فقال الغريب : ومن ذا الذي يشك إذن في زيف هذه التواريخ . فأجاب دون كيخوته : أنا ، يا سيدي ، إذا أمضيت سحابة النهار معك فأني آمل بعون الله أن أقنعك بأنه ينبغي ألا يثبّع المرء الرأي الشائع الذي يزعم أن هذه التواريخ خرافية . ولدى سماع هذه الكلمات أدرك الرجل ذو الرداء الأخضر أن دون كيخوته فيه مسّ من الجنون ، وانتظر بقية حججه ليتأيد عنده هذا الرأي . ولكن دون كيخوته وقد عزّفه بنفسه ، سأله قبل المضي في الحديث عن اسمه وحالته ، فأجاب الغريب : أنا يا سيدي نبيل ولدت في قرية آمل أن تتناول الطعام فيها معاً اليوم ، وأنا ميسور النعمة ، واسمي دون ديبجو دي ميرندا ، وأقضي حياتي مع زوجتي وأولادي وأصدقائي ، وهواياتي المفضّلة هي القنص والصيد : ومع ذلك فليس عندي بزات ولا كلاب سلوقية ، بل بلشون مدرّب ، وحجل مؤنس مروض ، وعندي قرابة سبعين مجلّداً ، بعضها باللاتينية ، والبعض الآخر بالإسبانية وبعضها في التاريخ ، والأخرى في الدين ، أمّا كتب الفروسية فلم تمر أبداً من عتبة بيتي ، وأفضّل الكتب العلمانية على الدينية ، لأنها تلذّ أكثر : فهي الى جانب جمال الاسلوب تمتاز بالإبتكار والإختراع ، لكن لا يوجد في اسبانيا إلا القليل من هذا النوع . وأتناول الطعام أحياناً عند جيراني وأصدقائي ، وفي أحيان أخرى أستقبلهم في بيتي : ومادبنا حافلة ، لا إسراف فيها ولا تقتير ، وتسودها النظافة . ولأحب الكلام في حق الناس ولا أحتمل

سماع إنساناً يذم في آخر أمامي ، ولا أتجسس على جيراني ، ولا أتدخل في شؤون غيري ، وأسمع القداس كل يوم ، وأجود بالصدقات على الفقراء دون تظاهر بالإحسان ، حتى لا يتسرب النفاق الى قلبي أو الغرور ، وهما عدوان يستوليان بهدوء على عقل الناس . وأسعى لإصلاح ذات البين بين الناس المتنازعين ، وأعبد العذراء ، وكلّي إيمان برحمة الله الواسعة . وسنشو - وكان يصغي باهتمام بالغ الى وصف الغريب لحياته وأعماله - وجد هذه الحياة طيبة ، مقدسة ، حتى ظن أن من يعيش هذه العيشة لابد أن يصنع المعجزات ، فنزل عن حماره ، وسارع الى الإمساك بالركاب الأيمن لهذا الرجل الفاضل ، وقبّل قدميه مراراً ، وعينه تغرورقان بالدموع . فقال له المسافر : « ماذا تصنع يا أخي ؟ لماذا هذه القبلات ؟ » فأجاب سنشو : « دعني أقبل قدمك ، لأنه يبدو لي أنك أول قديس خيال رأيته في حياتي » . فقال الغريب : « لست أبدأ قديساً ، بل خاطئ كبير الذنوب ، بل أنت الأولى يا أخي ، يا أخي ، أن تكون رجلاً طيباً ، كما تدل على ذلك بساطتك » . وعاد سنشو الى ركوب حماره ، وكان موضع إعجاب المسافرين . ودون كيخوته نفسه ، على الرغم من حزنه العميق ، لم يتمالك من الابتسام لسذاجة سنشو . وبعد ذلك بلحظات وجّه دون كيخوته الكلام مرة أخرى الى المسافرين فسأله كم عدد أولاده ، وأضاف قائلاً : « من الأمور التي عذها الفلاسفة القدماء من الخيرات العليا ، وهم الذين حرّموا من معرفة الله ، التمتع بهبات الطبيعة ، ورعاية الحظ ، وأن يكون للمرء كثير من الأصدقاء وأولاد حسان » .

فأجاب الغريب : « سيدي ، ليس لي غير ولد واحد ، وربما كنت أكثر سعادة لو لم يكن لي أي ولد ، لا لأنه شرير ، لكنني لأجده حسناً بالقدر الذي كنت أرومه . وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وقضى منها ستاً في شلمنقة ، يدرس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وحين أردت أن أوجهه لدراسات أخرى ، وجدته مولعاً بالشعر (إذا كان الشعر يمكن أن يعد علماً) الى درجة أنه من الممكن جعله يدرس القانون ، وكنت أريد له أن يدرسه ، ولا اللاهوت الذي هو ملك العلوم كلّها . وكنت أود أن أجعل منه فخرّاً لوطنه ، نحن نعيش في عصر يكافئ فيه الملوك الفضائل والآداب مكافأة مجزية ، لأن الآداب بدون الفضائل ، كاللآلئ في الزبل . وهو يمضي النهار كلّ في تحقيق هل هذا البيت من « الألياذة » جيد أو سقيم ، هل مارسيال ماجن أو غير ماجن في هذه الأهجية أو تلك ، وكيف ينبغي أن نفهم بعض أشعار فرجيليوس والخلصة أننا نجد كل محادثاته تدور حول هوراس ويريوسوس وجوفنال وتيبولس ، لأنه لا يعزو لشعرائنا المحدثين كبير قيمة ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من

ضالّة تقديره للشعر الاسباني ، فإنه مشغول الآن بعمل شرح على أربعة أبيات أرسلت اليه من شلمنقة ، وتبدولي جميلة جداً .

فقال دون كيخوته ، سيدي! إن الأطفال هم بمثابة أحشاء آبائهم ؛ ولهذا ينبغي علينا أن نحبهم ، سواء كانوا صالحين أو فاسدين ، كما نحب الروح التي تهبنا الحياة . وواجب الآباء هو إرشادهم في أثناء طفولتهم الى سبيل الرشاد والفضيلة ، وتهينة تربية جيدة لهم ، وأخلاق شريفة تقيّة مسيحية ، حتى إذا كبروا صاروا عكازات شيخوختنا ، وفخراً لذريتنا ، لكن الرغبة في إرغامهم على دراسة علم دون آخر ، أنا لأوافق عليها وإن لم يكن ثم خطر في محاولة إقناعهم بذلك . وحين لا يكون المرء مضطراً الى الدراسة كي يعيش ، وحين يكون الطالب الشاب من حسن الجذ بحيث يكون له أب يترك له مالاً ، فإنه يبدو لي من الملائم أن تتركه يدرس من العلوم ما يعجبه أكثر من غيره ، ولنن كان الشعر أدخل في الإمتاع منه في النفع ، فليس فيه مع ذلك شيء . يمكن أن يدنس شرف من يمارسه ، إن الشعر ، ياسيدي النبيل ، فتاة جميلة رقيقة يلد لفتيات أخرى كثيرة هي العلوم الأخرى - أن تغنيها ، وتزيّنها ، وتزوّقها . إنها (الشعر) تستفيد من الجميع ، والجميع يستمد منها سلطتها ، لكنها لاتريد أن تدنس ، وتجرب في الطرقات وينادى عليها في الميادين العامة ، وفي دهاليز القصور الخفية ، الشعر جوهر صاف ذو قوة تجعل من يعرف كيف يمارسه يحوله الى ذهب إبريز خالص جداً ، لاتصاب له قيمة . وعليه أن يضبطه ، وأن يمنعه من الفرار الى أهاج مخجلة وسوناتات صامتة ، وعليه أن لاينتج إلا القصائد البطولية ، والتراغوديات المؤثرة ، والقوموديات المشعشة بخفة الروح والفرح ، ولاينبغي له أن يسلم نفسه للمهزجين ، والجهلة العامة العاجزين عن معرفة وتقدير الكنوز التي ينطوي عليها ، ولاتحسبن ياسيدي أنني أقصد بالعامية الدهماء ، بل أقصد كل جاهل ، مهما يكن عظيماً أو أميراً . وهكذا ياسيدي ، من يمارس الشعر بكل ألوان العناية التي بسطتها لك ، يصبح شهيراً رفيع القدر في كل الأمم المتمدنة . أما قولك أن ابنك لا يقيم كبير وزن للشعر الاسباني فأنتني أعتقد أنه يخطئ في هذا الحكم وهاك السبب عندي : أن هوميروس العظيم لم يكتب باللاتينية لأنه كان يونانياً ، كذلك لم يكتب فرجيليوس باليونانية لأنه كان لاتينياً وبالجملة ، كل الشعراء القدماء كتبوا بلغاتهم الأصلية ، ولم يذهبوا للبحث عن لغات أجنبية للتعبير عن أسمى أفكارهم وتصوّراتهم ؛ وهكذا يشاء العقل أن يمتد هذا العرف الى كل الشعوب ، فلا يحتقر شاعر ألماني ينظم بالألمانية ، ولا إسباني ينظم بالإسبانية ، بل ولا بشكوني يكتب باللغة البشكونية . ولكن ابنك ياسيدي ، فيما أتصور ، ليس عدواً للغتنا العامية (الاسبانية) بقدر ماهو عدو لشعرائنا ، الذين هم أكثر عامية ، لأنهم لايعرفون لغات

أخرى ، ولا علوم أخرى يمكن أن توظف وتساعد ، وتغني أساسهم هم ؛ وحتى في هذا يجوز أن يكون ثم خطأ ، لأن ثم رأياً على أساس قويم يقول أننا نولد شعراء ، أي أن الشاعر الحق هو الذي يخرج شاعراً من بطن أمه وبهذه الموهبة التي منحت السماء فإنه بدون صناعة وبدون دراسة ينظم روائع تبرّر قول من قال « إن الله فينا ، الخ » وأضيف إلى هذا أن هذا الشاعر المطبوع ، الذي يستعين بالصنعة يفوق كثيراً من لا يعرف إلا الصنعة ، لأن الصنعة لاتفوق الطبيعة ، وهكذا يمزج الطبيعة بالصنعة والصنعة بالطبيعة يخرج شاعراً كاملاً . ونتيجة قلبي ياسيدي هي أن ترك ابنك يسلك المسلك الذي يقوده إليه نجمه ، ولما كانت الميزة كما ينبغي ، قد اجتاز بنجاح السلم الأول للعلوم ، أقصد معرفة اللغات ، فإنه بمعونتنا يبلغ أعلى درجات الآداب الإنسانية التي تليق برجل العلم أو الحرب لتزيّنه وتشرفه وتسمو به مثل القلائس للأساقفة ، والعباءات الطويلة (الأرواب) لعلماء القانون . ازجر ولدك إن نظم أهاجي للقدح في شرف الغير ، وعاقبه ، ومزّق شعره ، لكن إن نظم قصائد مثل قصائد هوراس ينقذ فيها الرذيلة بوجه عام بأسلوب صافٍ ، أنيق كأسلوب ذلك الشاعر اللاتيني ، فينبغي عليك أن تشني عليه لذلك ؛ لأنه من المسموح للشاعر أن ينظم ضد الحسد ، وأن يهجو الحاسدين ، وكذلك سائر الرذائل ، بشرط ألا يذكر اسم أحد من الناس ، إن هناك شعراء يجلبون على أنفسهم النفي إلى جزر البحر الأسود لتلذّذهم بالسب والهجاء ، فإن كان الشاعر عفيفاً في أخلاقه ، فإنه سيكون كذلك في شعره ؛ والقلم لسان الروح ؛ وبحسب ماتكون تصورات هذه يكون ما يكتبه ذاك ، ولهذا فإن الملوك والأمراء حين يرون علم الشعر الرائع يعالجه ناس فطنون ، أفاضل ، جادون فإنهم يشرفونهم ويوقرونهم ويغدقون عليهم الصلاة ، ويصنعون لهم تاجاً من تلك الشجرة التي لاتنالها الصواعق أبداً ، وكأنهم يريدون أن يعلموا الناس أن من الواجب عليهم ألا يهينوا أبداً أولئك الذين كلل جبينهم بأغصان من هذه الشجرة المقدسة » .

وبقي صاحب الرداء الأخضر في غاية الدهشة من أحكام براهين دون كيخوته ، وسرعان ماتبددت الفكرة التي كوّنوها عن جنونه ، وأثناء هذا الحوار الجاد ، الذي لم يكن أبداً على هوى سنشو ، انحرف هذا عن الطريق ليطلب قليلاً من اللبن من رعاة كانوا يرعون ، بالقرب من الطريق قطعاً من الأغنام . وحاول الغريب ، وقد رضي كل الرضا عن حكمة دون كيخوته وبلاغته ، أن يستأنف الحوار ، وإذا بهذا الأخير ، وهو يرفع رأسه ، يلمح على الطريق الذي يسلكونه عربة قادمة مزدانة بأعلام عليها الشارات الملكية ، وحسب أن هذه مغامرة جديدة مثلت له ، فدعا سنشو بأعلى صوته ليحضر له خوذته ، وعلى هذه الصيحات ترك سنشو الرعاة وركب حماره وعاد إلى مولاه الذي وقعت له بعد قليل مغامرة مضحكة ، بقدر ما هي مروعة .



General Organization of the Alexandria
Education

الفصل السابع عشر

حيث يذكر أعظم دليل على شجاعة دون كيخوته، والنهاية السعيدة لمغامرة الأسود

يروى هذا التاريخ أنه في اللحظة التي نادى فيها دون كيخوته على سنشو كي يحضر له خوذته ، كان هذا بسبيل شراء جبن طري من الرعاة .ولمّا كان صوت مولاه يستحثّه ، فإنه لم يدر أين يضع هذا الجبن ، ولم يشأ أن يضّيعه ، لأن ثمنه كان مدفوعاً ، فخطر بباله أن يضعه في خوذة مولاه ، وعاد بسرعة ليرى ماذا يطلب منه دون كيخوته . فقال له هذا « يا صاحبي ! أعطني خوذتي لأنه إمّا أنّي لأفهم شيئاً ، أو هذه مغامرة تلزمني بحمل سلاحي » . فتلفت ذو الرداء الأخضر في كل ناحية ، فلم ير شيئاً غير عربة مزدانة ، بعلمين أو ثلاثة ، مما جعله يعتقد أنها محمّلة بالنقود للملك ، وقال هذا لدون كيخوته ، لكنّ هذا الذي لم يكن يرى في كل شيء غير فرصة للمغامرة ، أجابه : « المكشوف نصف مهزوم ، لن أفقد شيئاً بالإحتياط وأخذ الأهبة ، وأنا أعلم بالتجربة أن لي أعداءً ظاهرين ومستترين ، لكنني لا أعرف متى وأين وبأي شكل سيهاجمونني » .

وفي الوقت نفسه تلفت الى سنشو وسأله عن الخوذة ، فأعطاها له سنشو قبل أن يجد متسّعاً من الوقت لإفراغها من الجبن الذي وضعه فيها ، فأخذها دون كيخوته ودون أن ينظر في داخلها ، وهكذا انضغط الجبن فبدأ اللبن المتخثر يسقط على طول صدغيه ولحيته ، فقال لسنشو : « ماهذا ؟ » - وكان سنشو مضطرباً - « لكأن مخي يصفى وانصهر ، أو أنّي أعرق من قدمي حتّى رأسي ، لكن إذا كنت أتصّبّب عرقاً فليس ذلك قطعاً بسبب الخوف . لاشك أن المغامرة التي تنتظرني ستكون رهيبة . أعطني إن كان معك ، بعض القماش لتجفيف نفسي ، لأن العرق يغشي على عيني » .

وسنشو دون أن ينطق بكلمة ، قدّم له منديلاً ، وحمد الله على أن مولاه لم ينتبه لشيء . فجفف دون كيخوته نفسه ، وخلع خوذته ليرى ماذا يربط رأسه هكذا ، فرأى

تلك القطعة البيضاء المتخففة ، فحملها الى أنفه ، وقال : « وحياء سيدتي دلثنيا! هذا جبن طري وضعته في خوذتي ياخانن ، ياوقح ، ياسانس قليل الأدب! » فقال سنشو ، بهدوء وبرود متكلف : « إذا كان هذا جبناً فأعطني إياه لأكله ، أو ليأكله الشيطان وهو لابد أنه يعرف من الذي وضعه في الخوذة . هل تظن أنني أتجاسر على توسيخ خوذة سعادتك ؟ أوه! أنك لم تقع يدك على الفاعل الآثم . بشرفي يامولاي وبحسب مايلهمني الله ، لابد أن ثم سحرة يطاردونني أنا الآخر ، بوصفي عضواً ومخلوقاً من قبل سعادتك ، ولابد أنهم هم الذين وضعوا هذه القذارة لإهانة ثائر غضبك ، وتحطيم أضلاعي كالعادة ، لكنهم أخطأوا هدفهم هذه المرة ، فيما أرجو : وأنا أترك الحكم لعقلك الصائب ، وسيقرر أنه ليس عندي جبن ولابن ولاأي شيء يشابهه ، ولو كان عندي منها شيء لوضعت في كرشي لافي الخوذة » .

فقال دون كيخوته : « كل شيء جائز » . وفي تلك الأثناء كان النبيل (ذو الرداء الأخضر) يتفحصه ، ويندهش ، وازدادت دهشته لما أن فرغ من تجفيف رأسه ووجهه ولحيته ونظف خوذته ووضعها على رأسه وتثبت في ركابه ، وامتشق حسامه ، وأمسك برمحه صائحاً : « ليأت من يشاء ، إني على استعداد لمنازلة الشيطان نفسه » .

وفي تلك اللحظة وصلت العربية ذات الأعلام ، ولم يكن فيها من أشخاص غير السائق بهغاله ، ورجل يجلس على المقدمة . فوقف دون كيخوته وقال لهما : « الى أين ياأخوي! ماهذه العربية ؟ وماذا تحملان عليها ؟ وماهذه الأعلام ؟ » فأجاب السائق : « هذه العربية عربتي ، وتحمل أسدين جميلين في قفصين ، بعث بهما والي وهران الى جلالة الملك ، وهذه الأعلام تحمل إشارات الملك للإشارة الى أن ما نحمله خاص بالملك » .

فقال دون كيخوته : « وهل هذان الأسدان كبيران ؟ » فأجاب الرجل الجالس على مقدمة العربية : « كبيران الى درجة أنه لم ير مثلهما مما ورد الى اسبانيا من أفريقيا . وأنا أعنى بهما ، وقد وردت كثيرين ، ولكن لم أورد من قبل أشباهاً لهذين ، إنهما أسد ولبوة ، الأسد في القفص الأول اللبوة في الثاني ، وهما جائعان الآن ، لأنهما لم يأكلا هذا اليوم ، ولهذا ابتعد ياسيدي قليلاً ، ودعنا نمر ، حتى نسرع بالوصول الى مكان نستطيع فيه أن نقدم لهما الطعام » .

فقال دون كيخوته وهو يبتسم ابتساماً خفيفاً : « إني أنا ترسل أشبال ، الي أنا في مثل هذا الوقت! يالله! إن من أرسلوها الى هنا سيعلمون هل أنا رجل يخاف من الأسود . انزل ، يارجل ياساذج ، مادمت أنت الذئ ، تعنى بهما ، فافتح هذين القفصين ، وأخرج هذين

الحيوانين ، وهنا في هذا المكان الفسيح سأعرفهما من هو دون كيخوته دلا منتشا ، على الرغم من السحرة الذين بعثوا بهما » .
فقال ذو الرداء الأخضر في نفسه : « أوه! أوه! الفارس الساذج قد كشف عن نفسه ، لاشك أن الجبن طرى رأسه وأنضج مخه » .
وفي هذه اللحظة اقترب منه سنشو ورجاه ، باسم الله ، أن يمنع مولاه من مقاتلة هذين الأسدين لأننا فيما قال : « سنمزق كلنا إرباً إرباً » .
فقال الغريب : « وهل تعتقد أن مولاك من الجنون بحيث يجرؤ على مهاجمة هذين الحيوانين المتوحشين ؟ » فأجاب سنشو : « إنه ليس مجنوناً ولكن متهوراً » . فقال النبيل : « سأعمل على صرفه عن هذا » .

ثم اقترب من دون كيخوته وكان يلح على رجل الأسدين ليفتح القفصين ، وقال لدون كيخوته : « سيدي! إن الفرسان الجوّالة ينبغي عليهم أن يبحثوا عن المغامرات التي تعطيهم الأمل في أن يتموها على نحو سعيد ، لاتلك التي لا يمكن أن تكون لها نتيجة ومخرج : لأن الشجاعة التي لا يقودها غير التهوّر هي أقرب الى الجنون منها الى الشجاعة . وانظر أيضاً من ناحية أخرى الى أن هذين الأسدين لم يأتيا الى هنا لمهاجمتك ولا يخطر ذلك ببالهما : إنهما سيمثلان أمام جلالة الملك ، ولن يكون عملاً طيباً أن تمنعهما من ذلك وتضع العراقيل في سبيل سفرهما » .

فأجاب دون كيخوته : « سيدي النبيل ، اهتم برعاية حجلك الخاص ، وبلشونك الشجاع ، ودع كل إنسان يؤذي وظيفته ، وهذه وظيفتي أنا هنا ، أنا أعرف هل هذان الأسدان جاءا ضدي ، أو لا » . قال هذا وتلفت ناحية الرجل صاحب الأسدين وقال له : « يا صعلوك ، أقسم أنه إذا لم تفتح في الحال هذين القفصين ، فأني سأسمرك بهذا الرمح في هذه العربة » فلما شاهد السائق عناد هذا المسلّح قال له : « سيدي! سنطيع أمرك ، لكن بالله دعني أحل البغال ، وأنجو بها قبل أن يخرج الأسدان ، لأنهما لو قتلاها لأفلسنا الى الأبد ، ليس عندي مال غير بغالي وهذه العربة » .

فأجاب دون كيخوته : « أيها الرجل القليل الثقة ، حل بغالك ، واذهب ، وافعل ما تشاء » وسترى بعد قليل أنك تشغل في غير طائل ، وإنك كنت تستطيع أن تتلافى هذه المشقة » . فنزل السائق على الأرض ، واسرع يحل بغاله . فصاح حارس الأسدين : « أنتم جميعاً شهود على أنه ضد إرادتي وبالقوة والإكراه اقتح قفص الأسدين ، وهكذا يكون هذا الرجل هو المسؤول الوحيد عن كل الضرر الذي يمكن أن يحدثه هذان الحيوانان ، مع

احتفاظي بكافة حقوقي وأجرتي ، لكن قبل أن أفتح أرجوكم ، ياسادة ، أن تضعوا أنفسكم في أمان ، أما عن نفسي فأنا واثق أنهما لن يصيباني بأي شر .

فعاود النبيل (ذو الرءاء الأخضر) الى دون كيخوته يحاول إقناعه بعدم القيام بهذه العملية الجنونية ، قائلاً أن هذا تحدٍّ لله . فاقترصر دون كيخوته على القول بأنه يعرف مايعمل . فقال النبيل : « خذ حذرك ، أعتقد أنك مخطئ » . فقال دون كيخوته : « إذا لم ترد أن تكون شاهداً على ماتعتقد أنه مأساة ، فامضِ بفرسك البقاء ، وضع نفسك في أمان » . وعند هذه الكلمات توسل سنشو والدموع في عينيه ، أن يتخلى عن مثل هذه المغامرة ، التي ليست بالقياس اليها مغامرة طواحين الهواء والمغامرة الأشد منها المتعلقة بطواحين الكبس ، وعلى وجه العموم كل تلك التي خاضها طوال حياته - لم تكن غير الأعيب أطفال . وقال له : « تنبه يامولاي أنه ليس هنا أي إنسحار » لقد شاهدت ، من خلال قضبان وثغرات القفص ، مخلب أسد حقيقي ، وإذا كان علينا أن نحكم بحسب هذا المخلب ، فلا بد أن هذا الأسد أكبر من جبل » .

فقال دون كيخوته : « إن الخوف سيجعلك تراه أكبر من نصف الكرة الأرضية . انسحب ياسنشو ، ودعني وحدي هنا . فإن مت فانت تعرف ما إتفقنا عليه منذ وقت طويل ، ستذهب لتجد دلثنيا ، ولازيد على هذا » . ومع ذلك فقد أضاف أسباباً أخرى انتزعت من الحاضرين كل أمل في أن يتخلى عن عناده وكان بود الرجل ذي الرءاء الأخضر أن يمنعه ، ولكنه لما رأى عدم تكافؤ الطرفين ، وأن من الجنون التنازع مع مجنون ، مثل دون كيخوته كما بدا له في كل حركاته ، همز فرسه ، ونخس سنشو حماره ، والسائق بغاله وابتعد الجميع قدر المستطاع عن العربة قبل أن يخلى سبيل الأسدين وراح سنشو يبكي موت مولاه ، لأنه في هذه المرة أيقن أنه سيسقط بين مخالب هذا الحيوان ، ولعن حظّه والساعة التي خطر بباله فيها أن يعود الى خدمة مولاه ، وكان وهو يبكي يضرب حماره بقدميه حتى يبتعد عن العربة .

فلما رأى حارس الأسدين أن الجميع ، فيما عدا دون كيخوته ، قد ابتعدوا راح يحاول إقناع دون كيخوته ، لكن هذا أجابه أن لافائدة في هذه المحاولة ، وأن عليه أن يبادر . وبينما انشغل هذا الفارس بفتح القفص الأول ، فكّر دون كيخوته هل يحارب راجلاً أم راكباً ، وأخيراً قرّر أن يكون راجلاً ، خوفاً من أن يفرز روثيناته من منظر الأسد ، فنزل عن فرسه ، وألقى برمحه ، وأخذ ترسه ، واستل سيفه ، وبقدم ثابتة ، وثقة بنفسه نبيلة ، وشجاعة لاتزعزع ، راح يقف أمام العربة ، متوكلاً على الله وعلى سيدته دلثنيا . وهنا يصيح المؤلف الحقيقي لهذا التاريخ الخالد :

«أي دون كيخوته دلا منتشا الباسل الجسور ألف مرة فوق الجميع ، أيها المرأة التي يمكن أن ينعكس فيها كل أبطال العالم الشجعان أنت أيها الدون مانويل دي ليون الجدير^(١) ، الذي كان مفخرة الفرسان الأسبان بأي عبارة أصف هذه المغامرة الرهيبة ؟ وكيف يتسنى لي أن أجعل العصور المقبلة تصدقها ؟ وأي مدائح تفي بحق فضلك ، حتى لو كانت أكداس من صيغ المبالغة بعضها فوق بعض ؟ أنت وحدك ، راجلاً شجاعاً ، صبوراً ، حليماً ، ليس معك غير سيفك . وهو سيف ليس حتى من طليطلة^(٢) ، ومعك ترسك ، الذي ليس حديده لامعاً ، هأنت تنتظر دون تأثر الأسدين المتوحشين الأشد افتراساً بين الأسود التي أنتجتها صحاري افريقية . أعمالك وحدك كفيلة بمدحك ، أيها المنتشايو الباسل إنني أتركها كما هي ، افتقاراً الى التعبيرات المناسبة لتمجيدها » . .

وهنا يقف المؤلف بعجبه ويستمر في حكايته هكذا :

ولمّا لاحظ حارس الأسدين من موقف دون كيخوته أنه لن يستطيع التأجيل في الإمتثال لأمره ، خوفاً من أن يصب عليه جام غضبه - فتح القفص الأول على مصراعيه ، وكان فيه كما قلنا الأسد ، وكان كبيراً جداً ذا مظهر مروع فعلاً ، وكانت أول حركة أبدائها الأسد هي أن تمرغ في قفصه ، ومدّ مخالبه وتمطى بكل جسمه ، ثم فتح شدقه الواسع ، وتشاءب طويلاً ، وبلسانه الذي بطول شبرين ، مسح كل وجهه ، ثم أخرج رأسه من قفصه ، وتلفت في كل ناحية بعينين أشد إحمراراً من الجمر المتقد ، وبمنظر يبعث الرعب في الجسارة نفسها . ووقف دون كيخوته وحده يتطلع اليه بإتباء ، منتظراً وراعياً أن يخرج من قفصه ويأتي لمنازلته واثقاً أنه سيمزق الأسد إرباً إرباً بسهولة وهو أمر كان في القمة من الجنون المطبق ، لكن الأسد الكريم ، وكان مؤدّباً أكثر منه متعجرفاً ، احتقر هذه الجرأة الصبانية ، وبعد أن تطلع في كل ناحية ، كما قلنا ، أدار كتفيه ، وإبان مؤخرته لدون كيخوته ، وعاد يرقد جليلاً في قفصه ، ولمّا رأى ذلك دون كيخوته قال للحارس أن يضرب الأسد بعضا لإهاجته وإخراجه ، فقال الحارس : «لأجرؤ على هذا ، لأتي لو فعلت ذلك لكنت أول من يمزقه الأسد . ياسيدي الفارس ، صدقني واقنع بما فعلت ، وهو أقصى حدود الشجاعة ، ولا

(١) دون مانويل بولت دي ليون الذي اشتهر في حروب غرناطة . ويروى أن أحد السيدات سقط منها ، أو سقطت عمداً ، قفازاً من نافذتها في فناء حبس فيه أسود أمر ملك اسبانيا إحضارها من افريقية ، فنزل مانويل الجسور ، وفتح باب الفناء ، والتقط القفاز ، وراح يردّه الى سيدته ، فأخذته ووضعه على رقبتها وهي تقول : سأحتفظ به طول حياتي » . وقد ذكره خينس دي هيتا في «حروب غرناطة» .

(٢) «سيف البريو» اسم أطلق على نوع ممتاز من السيوف كان يصنعه خوليان دل ري أحد كبار صنّاع الأسلحة في طليطلة وسرقسطة ، ولاتزال سيوف طليطلة مشهورة حتى اليوم وإن كانت للزينة طبعاً الآن

تتحدّ الحظ مرة أخرى . إن الأسد فتح عليه الباب وله أن يخرج أو لا يخرج ، ومادام لم يخرج منذ قليل ، فإنه لن يخرج طوال اليوم . وعظمة شجاعتك تجلب في وضح النهار وقد سمعت أن المحارب الشجاع ليس ملزماً إلا بتحدّي خصمه وانتظاره في مكان مكشوف فإن لم يأت ، فالعار عليه ، ومن تحده ينل النصر .

فأجابه دون كيخوته : أنت على صواب فيما تقول ، أغلق باب القفص وأعطني شهادة بما رأيته فعلته ، شهادة تامة التوثيق ، تقرّر فيها أنك فتحت الباب للأسد ، وأني انتظرت ، وأنه هو لم يخرج ، ثم انتظرت مرة أخرى ، ولكنه لم يرد أن يخرج وعاد للرقاد ، وبضميري أنا لست ملزماً بأكثر من ذلك . ألا سحناً للسحرة! الله يحمي العقل ، والعدل ، والفروسية الحقّة . أغلق ، يا صاحبي ، بينما أعطي الإشارة الى الجبناء والفرزارين ، ليعرفوا منك نبأ هذه المغامرة الشهيرة!

وامتثل الحارس ، ووضع دون كيخوته على طرف رمحه القماش الذي مسح به وجهه المستخ من الجبن ، ثم راح يشير الى أولئك الذين لم يكفوا عن الفرار ، وهم يديرون رؤوسهم في كل خطوة ، يتقدّمهم النبيل . وكان سنشو أول من رأى إشارة المندبل الأبيض فقال : «أموت إذا لم يكن مولاي قد انتصر على هذه الحيوانات المفترسة ، هاهو ذا ينادي علينا» . فتلّفوا وراءهم جميعاً ، وشاهدوا دون كيخوته يلوح لهم بإشارات ، فنزل عنهم بعض الخوف واقتربوا شيئاً فشيئاً ، وسمعوا بوضوح صيحات دون كيخوته ، وأخيراً وصلوا الى العربة ، وقال دون كيخوته ، موجّهاً الخطاب الى السواق : «ضع بغالك في العربة ، يا أخي ، وتابع سيرك ، وأنت ياسنشو أعطيه اسكودوين من الذهب له ولحارس الأسدين ، تعويضاً لهما عن الزمن الذي جعلتهما يضيّعانه» .

فقال سنشو : «أعطيهما عن طيب خاطر ، لكن ماذا صار اليه أمر الأسدين ؟ هل هما ميّتان أو حيّان ؟» .

هنالك أخذ حارس الأسدين يردّد تفصيلاً كل ماحدث ، مبالغاً في شجاعة دون كيخوته الى أقصى حد ، قائلاً أن منظره أخاف الأسد ، الى حد أنه لم يجرؤ على الخروج من قفصه الذي ظلّ مفتوحاً مدة طويلة ، وأضاف أنه أوضح لدون كيخوته أن من تحدّى الله أن يهتج الأسد لإخراجه بالقوة من القفص كما أراد : حتّى أن الباب ، طوعاً أو كرهاً ، أعاد إغلاقه . فقال دون كيخوته : «ما رأيك في هذا يا سنشو ؟ هل تستطيع السحرة شيئاً ضد الشجاعة الحقّة ؟ قد يستطيعون أن ينتزعوا منّي الفرصة لإظهار شجاعتي ، لكن أن يقضوا عليها ، هذا مستحيل» .

وأعطى سنشو ، الاسكودين ، ووضع السائق دوابه في العربيه ، وقبّل حارس الأسدين
يدي دون كيخوته ، ليشكره ، ووعدته بروايه هذه المغامرة الباسلة للملك نفسه حين يصل
الى البلاط .

فقال له دون كيخوته : « وإذا سألك من قام بها ، فقل له أنه فارس الأسود ، لأنني أريد
منذ الآن فصاعداً إتخاذ هذا اللقب ، واستبداله بلقب الفارس الحزين الطلعة » وفي هذا أنا
أتابع العرف القديم الجاري بين الفرسان الجواله ، فقد كانوا يغيّرون ألقابهم حين يشاؤون ،
أو حين تسنح الفرصة . واستأنفت العربيه مسيرها ، وكذلك تابع دون كيخوته وسنشو
والرجل ذو الرداء الأخضر طريقهم .

وبأن هذا لم يفتح دون ديبجو دي ميرنده فمه بكلمة ، إذ كان مشغولاً بملاحظة أفعال
دون كيخوته وأقواله وبدأ له أن هذا الفارس حكيم مصاب بالجنون ، أو مجنون مزوّد بالعقل
السليم . ولم يكن قد عرف بعد - القسم الأول من تاريخه المطبوع - ولو كان قد عرفه ، لما
كان قد دهش من حركاته وأفعاله ، إذ كان سيعرف أي نوع من الجنون ينتابه لكن لما كان
يجهله ، فإنه كان يعد دون كيخوته مرّة مجنوناً ، ومرّة عاقلاً لأن أقواله كانت صافية ،
أنيقة ، معقولة ، وأفعاله كانت بغير عقل ، متهورة ، جنونية .

وقال في نفسه : « أي جنون في أن يضع على رأسه خوذة مملوءة بالجبن ، ويعتقد بعد
ذلك أنّ السحرة طرّوا رأسه وهل هناك جنون أو تهوّر أكبر من أن يريد مقاتلة أسود » .
وأخرجه دون كيخوته من هذه الخواطر والمناجيات حين قال له :

- أراهن ياسيدي دي ميرنده ، أنّك تعدّني أحقق مجنوناً ، ولا يدهشني هذا ، لأن
أفعالي لاتدل إلا على هذا ، لكن مع ذلك أرجوك أن تصدّق أنني لست مجنوناً ممروراً كما
أبدوا لك ، هذا فارس يميّز في نظر الملك ، حين يضرب في الميدان الواسع ثوراً قوياً بضربة
محكمة من رمحه ، وهذا فارس آخر ، مدجج بالأسلحة اللامعة ، يدخل لحلبة أمام السيدات
ويبدي عن مهارته في المباريات ، وبالجملة ينظر بعين الرضا الى أولئك الذين ، في
التمرينات العسكرية أو التي تبدو كذلك ، يشغلون ، ويسلّون ، وبشرفون - إذا صح القول
- بلاط الأمراء . لكن لأجدر منه بالتقدير هو الفارس الجوال الذي يجوب القفار ، والأماكن
الموحشة ، ومفارق الطرق ، والغابات والجبال ، سعيّاً وراء أخطر المغامرات يخوضها ويخرج
منها ظافراً منتصراً ، لا لغرض سوى أن يظفر بمجد دائم ألا يخلق بالناس أن يفضّلوا من
يفيئ الأرامل في مكان موحش على رجل البلاط الذي يمارس الحب في وسط المدن ؟ لكل
فارس وظائفه الخاصة ، وعلى من في المدن أن يخدموا السيدات ، ويزيّنوا البلاطات

بملابسهم الزاهية ، ويدعوا الى موائدهم الفاخرة الفرسان الذين تولاهم سوء الحظ ، وليقيموا المباريات ، ويقترحوا البرجاسات ، وليظهروا ، بالجملة ، عظماء ، رائعين ، أسخياء ، وفوق كل شيء مسيحيين صالحين - فإنهم بهذا يؤذون واجبهم ، لكن الفارس الجوال يجب عليه أن يتجول في كل أركان العالم ، وينفذ في أشد الأتايه تشابكاً ، وأن يتحدوا المستحيل في كل لحظة ، ويتحملوا ، وسط القفار أشعة شمس الصيف المحرقة ، وقسوة ثلوج الشتاء ، وشدة الرياح ، لا يخافون الأسود ، ولا ترهبهم الأشباح ، ولا تفزعهم العفاريت يبحثون عن هؤلاء ، ويهاجمون أولئك وينتصرون على الجميع . هذه هي تمريناتها الحقيقية ، وما دام نصيبي هو زيادة عدد هؤلاء الفرسان ، فإنني لأملك نفسي عن القيام بكل ما يندرج في مهامهم ، وهكذا أستطيع أن أعفي نفسي من مهاجمة هذين الأسدين اليوم ، وإن كنت أعرف أن هذا منتهى التهؤز ، لأنني لأجهل أن الشجاعة وسط عادل بين طرفين هما الجبن والتهؤز ، ومع ذلك فمن الأفضل أن يرتفع الرجل الشجاع الى آخر درجات التطرف من أن ينحط وينزل الى الجبن كما أنه أسهل على المبدّر من البخيل أن يكون مجرّد كريم ، فكذلك المتهؤز يمكنه على نحو أسهل أن يحصر نفسه في حدود الشجاعة الحقيقية من الجبان الرعدي الذي يبلغها . أمّا عن تحدي المغامرات فصدقني ياسيدي الدون ديجو ، الأفضل أن يهلك المرء من أجل الأكثر خيراً منه من أجل الأقل ، لأن الأجل أن يقال : هذا الفارس متهؤز جسور ، من أن يقال : إنه جبان رعدي .

فأجاب دون ديجو : ياسيد دون كيخوته كل ما فعلته وقلته يتفق مع العقل السليم المستقيم ، ولو ضاعت قوانين الفروسية الجوّالة ، لعثر عليها في قلبك فهو مستودعها ، وخزانة حفظها ، لكنني أرجو أن تسرع السير ، والوقت تأخر بنا ، ولنسرع للوصول الى قريتي وبيتي ، وهناك تستطيع أن تستريح من عناء أعمالك التي إن لم تتعب الجسم فقد أتعبت الروح وهو ما يؤدي غالباً الى إتعاب الجسم أيضاً .

فأجاب عليه دون كيخوته : إنها لمكرمة عظيمة منك أن تدعونا هذه الدعوة الكريمة . وهناك حقاً المسير ، وكانت الساعة قرابة الثانية بعد الظهر حينما وصلوا الى بيت دون ديجو الذي سمّاه دون كيخوته باسم فارس الرداء الأخضر .

الفصل الثامن عشر

فيما وقع لدون كيخوته في قصر أو بيت فارس الرداء الأخضر
وأمر أخرى عجيبة

وجد دون كيخوته بيت دون ديجو فسيحاً ، شأن البيوت في الريف ، وكانت شارته فوق الباب منحوتة من الحجر الغليظ ، والكهف في الفناء ، والمخزن تحت البوابة ، وشوهد حواليه كثير من الأباريق الكبيرة المصنوعة في توبوسو ، مما ذكر فارسنا بسيّدته دلثيا المسحورة المتحوّلة ، ودون وعي ، وبغير أن يهتم ليرى هل تمّ شهود ، صاح وهو يتنهد ،

« أيتها الرهائن العزيرة التي وجدتها لتثير عذابي ! حلوة فرحة إذا شاء الله ! أي أباريق توبوسو ، يامن تذكّرني بموضوع حزني المرير ، موضوعه العذاب الرقيق ! »
وسمعه التلميذ الشاعر ، ابن دون ديجو ، الذي جاء في هذه اللحظة مع أمّه لملاقاة أبيه ، ولما شاهد شكل دون كيخوته الغريب عقدت الدهشة لسانهما . وأسرع هذا فنزل ، وراح يحيي هذه السيدة ويثبّل يدها بكل أدب واحترام . وقال لها دون ديجو : « تفضّلي ياسيّدتي فاستقبلي ، بلطفك المعهود ، السيد دون كيخوته الذي أقدمه إليك ، إنه فارس جوال ، وأعقل وأشجع فارس جوال في العالم » . فتلقّت السيدة ، واسمها دونياكرستينيا ، دون كيخوته بالترحاب والأدب ، وهذا بدوره أبدى عن تعفّل وأدب بالغ . وتبدلت التحيات نفسها بين دون كيخوته والشاعر الطالب ، الذي حكم عليه بأنه عالم خفيف الروح ، بناءً على الكلام الذي قاله الفارس .

وهنا يصف المؤلف بالتفصيل بيت دون ديجو ، ويبين كل الأشياء التي توجد عادة عند ثري في ريف نبيل ، لكن المترجم رأى من واجبه حذف هذه التفاصيل الدقيقة ، لأنها لاتلائم كثيراً الغرض الحقيقي من هذا التاريخ الذي يستند كل قوته من الحقيقة ، لا من الاستطرادات الباردة .

أدخل دون كيخوته في قاعة . وخلق سنشو سلاحه عنه : فبقي في سراويل واسعة وصديري ملون من الشامواه سوده حك السلاح ، وكانت ياقته واسعة كالتلاميذ ، بغير نشا ولا دنتله ، وكانت خفافه صفراء ، وحذاؤه مطلياً ، وأخذ سيفه البتار الذي كان معلقاً بجزام من جلد الذئب البحري ، لأنه فيما يقال كان مريضاً بكلتيه مدة طويلة ، وغطى نفسه بمعطف من الجوخ الأسمر الجيد ، ولكن ، وقبل كل شيء ، بخمسة أو ستة أباريق ماء ، وهناك خلاف في العدد الدقيق لهذه الأباريق ، غسل وجهه ورأسه ، وفي كل مرة كان الماء مبيضاً ، بسبب شراهة سنشو وشرائه الجبن . ولما تزيّن دون كيخوته على هذا النحو ، انتقل الى قاعة أخرى ، كان ينتظره فيها الشاب ليحدثه أثناء ماكانوا يعدّون الطعام : لأن دونيا كرستنيا أرادت ، بمناسبة مقدم هذا الضيف النبيل ، أن تبين أنها تعرف وتقدر على استقبال من يأتون إليها .

وبينما كان دون كيخوته يخلق سلاحه ، سأل دون لورنثو ، ابن دون ديجو ، أباه رأييه في هذا الرجل الذي أتى به معه ، وأضاف : « أن اسمه وشكله وصفته فارساً جوالاً وضعتنا ، أنا وأمي ، في دهشة بالغة » .

فقال له أبوه : « لأدري ماذا أقول لك يا ولدي ، لقد رأيته يأتي أعمالاً لاتصدر إلا عن أكبر مجنون في الدنيا ، بينما أقواله من الحكمة بحيث تنسي المرء أفعاله . تكلم معه أنت ، وجس نبضه فيما يتعلّق بما يعرف ، وأنت مثقّف ، وستحكم على حكمته أو جنونه ، وإن كنت في الحق أعتقد أنه مجنوناً أكثر منه عاقلاً » .

فذهب دون لورنثو اذن للتحادث مع دون كيخوته ، فكان من بين ماقاله هذا للإبن : « إن السيد والدك مدح كثيراً قريحتك النادرة ، ولطافة عقلك ، وقال لي خصوصاً أنك شاعر كبير » .

فقال لورنثو : « شاعر ، هذا جائز ، ولكن شاعر كبير ، فلا أظن : صحيح أن عندي ذوقاً مرهفاً للشعر وأحب قراءة الشعراء المجيدين ، لكن هذا لا يكفي لأستحقّ اللقب الذي نعتني به والدي » .

فقال دون كيخوته : يعجبني هذا التواضع ، إذ لا يوجد شاعر ليس متكبراً متعجرفاً يحسب نفسه أعظم رجل في العالم » . فقال لورنثو : « لاتوجد قاعدة بغير استثناء ، ومن الناس من هو شاعر دون أن يدري ، فقال دون كيخوته : « إن عددهم قليل ، لكن قل لي ياسيدي ، أي شعر تشتغل به الآن ويسبب لك ، حسبما يقول والدك ، كثيراً من الهموم والإنشغال . إذا كان الأمر يتعلّق بشرح ، فإنني أفهم في هذا بعض الفهم ، وسأكون مسروراً

لو رأيت شعرك . وإذا كان يتعلّق بمباراة أدبية ، فأبني أدعوك الى أن تنشّد الجائزة الثانية ، لأن الأولى تعطى في العادة بسبب محاباة للشخص أو صفة في شخصيته ، أما الثانية فتعطى بعدل ، وكذلك الثالثة ، حتّى أنه تبعاً لهذا الحساب فإن الأول يصبح الثالث من حيث الاستحقاق ، كما هو الشأن في الليسانسات التي تعطى في الجامعات : فدائماً شخص كبير هو الذي ينال الجائزة الأولى » .

فقال دون لورنثو بصوت هامس في نفسه : « حتّى الآن لا أستطيع أن أعدك مجنوناً . فلتتابع » . ثم قال بصوت مسموع لدون كيخوته :

- يبدو لي ياسيدي أنك دخلت المدارس : فأني علم تعلّقت به أكثر من غيره ؟

- علم الفروسية الجوّالة ، وهو جيّد مثل الشعر ، بل وأفضل .

- أنا لا أعرف هذا العلم : لم يبلغ علمي حتّى الآن .

فقال دون كيخوته : هذا علم يشمل العلوم كلّها ، أو على الأقل معظم علوم العالم . والذي يمارسه ينبغي أن يكون فقيهاً مشرعاً ، يعرف كل قوانين العدالة التوزيعية والعدالة التعويضية ، ليعطي كل ذي حقّ حقه ، وينبغي عليه أن يكون عالماً بأصول الدين ، ليستطيع تفسير وتبرير الشريعة المسيحية التي يؤمن بها ، ويشرحها بوضوح ومعقولة ، كلّما دعت الحاجة الى ذلك ، وينبغي عليه أن يكون طبيباً ، وخصوصاً عشّاباً ، ليعرف وهو في وسط القفار الأدوية المفردة التي تبرىء الجروح : لأنّ الفارس الجوّال يجب عليه ألا يبحث في كل لحظة عن شخص يضمّد جراحه ، وينبغي عليه أن يكون عالماً بالنجوم ، ليعرف ، بمعونة النجوم ، ساعات الليل ، في أي جو وأي مكان وجد ، وينبغي عليه أن يعرف الرياضيات لأنه يحتاج إليها في كل خطوة يخطوها . ولندع جانباً الفضائل اللاهوتية والأصلية التي ينبغي أن يمارسها ، ولننزل الى تفاصيل أقل : وينبغي عليه أن يعرف السباحة كما كان يسبح « السمكة نقولاس »^(١) ، وينبغي عليه أن يعرف كيف يصنع الحديد من نعل الفرس ، ويصلح السرج واللجام ، ولكي نعود الى حديثنا الأولى أقول : أن عليه أن يؤمن بالله ويثق بسيدته ، وأن يكون عفيفاً في أفكاره وأعماله ، شريفاً في كلامه ، سخيّاً فيما يقوله ، شجاعاً في أفعاله ، صابراً على الآلام ، محسناً على الفقراء ، والخلاصة أن عليه أن يعلن الحقيقة ، ويدافع عنها ، ويؤيّدنها ويسندنها حتّى لو كان في

(١) سباح مشهور عاش في نهاية القرن الخامس عشر ، أصله من قطنانيا في جنوب إيطاليا . وكان يمضي في الماء أكثر مما يمضي على البر ، وكان يتحدّى الأمواج في أحد الموانئ ، ليؤذي مهمّات للملاحين الذين كانوا في البحر . ولكنه هلك أمام مسينا ، وهو يحاول أن يلتقط صحناً من الذهب كان فريدريك ، ملك نابلي ، قد أمر بإلقائه في البحر لامتحان مهارة النواصين .

ذلك خطر على حياته : بكل هذه الصفات ، الكبيرة والصغيرة ، يجب أن يتحلى بها الفارس الجوال . فاحكم الآن ، ياسيد دون لورنثو ، هل هذا العلم يستحق الإحتقار ، وهل لايتكافأ مع أسمى العلوم التي تدرّس في المدارس والمعاهد ؟
فأجاب دون لورنثو : لو كان الأمر هكذا لقلت إن هذا العلم يفوق سائر العلوم .
فقال دون كيخوته : كيف ، لو كان الأمر هكذا ؟
فقال دون لورنثو : أقصد أنني أشك في أنه وجد أو لايزال يوجد فرسان جوالّة يتحلّون بكل هذه الفضائل .

فقال دون كيخوته : كثيراً ما لاحظت ، مثلك ياسيدي ، أن معظم الناس لا يصدقون أنه وجد فرسان جوالّة ، أمّا عن نفسي فأنا أرى أنه بغير معجزة من السماء فإنه لا أحد سيقتنع بهذه الحقيقة وكل مجهود يبذل في محاولة إقناعهم سيذهب عبثاً ، كما تدل على ذلك التجربة . ولن أحاول أبداً إنتشالك من هذا الخطأ الشائع المشترك ، وإنّما سأدعو السماء أن تنورك ، وتجعلك تفهم كم كان الفرسان الجوالّة ذوي نفع كبير في الماضي ، وكم سيكونون ذوي نفع كبير اليوم ، إن وجدوا . لكن اليوم لاينتصر غير الكسل والبطالة ، والشراهة والشهوة ، بسبب خطايا الناس .

فقال دون لورنثو في نفسه : « آه! لقد تخلصّ ضيفنا من المشكلة هذه المرة : إنه مجنون لطيف ممتع ، وسأكون أنا مجنوناً إذا حسبت شيئاً آخر » .

ووقفت المناقشة عند هذا الحد ، اذ دعيا للطعام . وسأل دون ديبيجو ابنه عن رأيه في الفارس . فأجاب : « كل الأطباء والكتاب المجيدين في العالم لن ينتشلوه من حمأة تهاويله الجنونية ، إنه مجنون مشتّت متوّع ، لكن يتخلّل جنونه فترات تعقل واضحة » .

وأخذوا في تناول الطعام ، وكانت وجبة ، كما أعلن دون ديبيجو في الطريق ، حافلة ممتعة شهية ، لكن أكثر مآثره دهشة دون كيخوته هو مراعاة الصمت الرائع على المائدة ، وكأنهم كانوا جماعة من الشارتريين .

ثم رفعت المائدة ، وتلي الحمد ، ورفعت الأيدي ، فرجا دون كيخوته من دون لورنثو بحرارة أن ينشده الأشعار التي كانت موضوع المباراة الأدبية ، فقال الفتى :

ـ حتّى لا أشبه أولئك الشعراء الذين يرفضون إنشاد شعرهم حين يرجون في ذلك ، ولكنهم يقذفون به في أنفك حين لاتطلب منهم ، سأقرأ عليكم شرحي ، الذي لانتظر عليه أية جائزة ، لأنّي لم أنظّمه الا من باب التمرين العقلي .

فقال دون كيخوته : كان لي صديق مثقف حكيم ، وكان من رأيه أنه ينبغي على المرء

ألا يضيّع وقته في كتابة^(١) شرح على الشعر : لأنه ، هكذا قال لا يمكن الشرح أن يساوي النص ، وفي أغلب الأحيان ينحرف عن القصد من الموضوع ، أضف الى ذلك أن قوانين الشرح قاسية جداً : فهي لا تسمح بالإستفهام ، ولا بكلمات مثل « قلت » ، « سأقول » ، ولا تسمح بتكوين أسماء من الأفعال ولا بتغيير المعنى ، فضلاً عن القيود الأخرى التي لا بد أن تعرفها .

فقال دون لورنثو ، الحق ، ياسيدي ، أنني ظننت أنني سأصطادك هنا ، ولكنني لا أستطيع ، فأنت تفلت مني دائماً ككعبان السمك .
فأجابه دون كيخوته : لا أفهم ماذا تريد ، ماذا تقصد بقولك أنني أفلت منك دائماً ؟
فقال دون لورنثو : سأفسّر لك فيما بعد ، أما الآن فتفضل ياسيدي بسماع الشعر والشرح . ها هما :

لو عاد ما كان لم أحتج الى الأمل
أو فليئن وقت ما لا بد أن يقعا

شرح

« وأخيراً ، وكما أن مصير كل شيء الزوال ، فقد مضى النعيم الذي منحني أياه الحظ الجواد ، ولم يردّه الا بعد ذلك ، لا بيد سخية ولا بتقتير . مضت قرون وأنت تراني ، أيها الحظ ، أجثو عند قدميك . رد اليّ نعيمي الماضي ، وسأكون سعيداً « لو عاد ما كان » .
« لا أريد لذة أخرى ولا مجدداً آخر ، ولا جائزة ولا غنيمة ، ولا انتصاراً ولا ظفراً ، غير أن أسترّد ذلك النعيم الذي تبعت ذكره الأسي في نفسي . فإن رددتني اليه ، أيها الحظ ، هدا أوار ناري في الحال ، خصوصاً إذا أتى هذا النعيم وشيكاً « لم أحتج الى الأمل » .
« أتى أطلب المستحيلات ، لأن العمل على إمكان عودة الزمان الذي قد كان ، أمر لم تصل الى تحقيقه أية قوة على ظهر الأرض . إن الزمان يجري ، ويطير ، ويمضي بسرعة حتى لا يعود ، ويخدع نفسه من يريد أن يكون الزمان قد مضى فعلاً ، « أو فليئن وقت » .
« والعيش في قلق مستمر ، بين الرجاء والخوف ، هو الموت ، والأفضل أن يموت المرء فعلاً لينجو من الآلام . وفائدتي في أن ينتهي عمري ، لكن لا ، لأنني إذا فكرت وجدت أن الحياة تثبت في الخوف ، « مما لا بد أن يقعا » .
ولم يكد دون لورنثو يتم إنشاد شرحه ، حتى نهض دون كيخوته وأمسك بيده اليمنى

(١) شرح منظوم على نص شعري ، وكان نوعاً من المباراة الشعرية التي يتنافس فيها الشعراء ، ويمنحون الجوائز عليها .

وقال : « الله حي! أيها الفتى الكريم ، أنت أعظم شاعر في الدنيا ، تستحق أن تتوّج بإكليل من الغار ، لافي قبرص ولاجنيتا ، ولكن كما قال شاعر يرحمه الله ، ولكن في أكاديميات أثينا إن كانت لاتزال قائمة ، أو على الأقل تتوّجك الأكاديميات الموجودة الآن في باريس وبولونيا (إيطاليا) وشلمنقة . ولتقدّر السماء أن ينفذ فيبوس سهامه في قلوب القضاة الذين يرفضون منحك الجائزة الأولى ، ولاتلمس ربات الشعر (الموساوات) عتبة أبوابهم! لكن ، قل لي ياسيدي ، ألم تنظّم أبداً أشعاراً كبيرة ؟ إقئ أود أن أعرف أعماق عقلك الرائع » .

ويخدع المرء نفسه إذا ظن أن لورنثو لم يتأثر بمديح دون كيخوته ، وإن كان يعده مجنوناً . بالقوة التملّق! إن أثرك لعظيم ، وحدود دولتك الممتعة الواسعة! ودون لورنثو يقدم الدليل على هذه الحقيقة ، لأنه امتثل لرغبة دون كيخوته ، بأنه أنشد سوناتة موضوعها يتعلّق بخرافة أو تاريخ فيريام وثسييه .

سوناتة

« نفدت من السور الفتاة الجميلة التي فتحت قلب فيرام الكريم . والحب رحل من قبرص ، ومضى فوراً ينظر الفتحة الضيقة العجيبة .

« هناك يتكلم الصمت ، لأن الصوت لايجرؤ على النفوذ من مثل هذا الثقب الضيق ، لكنّ الأرواح تمر من خلاله ، لأن الحب يسهّل كل صعب .

« الرغبة خرجت عن الحدود ، ومسالك العدراء المتهوّرة يفضي الى موتها ، بدلاً من متعتها . انظر أية حكاية!

« كلاهما ، في الوقت نفسه ، ياله من حظ غريب ، يقتلها سيف ، ويحتويهما قبر ، وتبعثهما الذكرى نفسها » .

فصاح دون كيخوته بعد أن سمع هذه السوناتة : « بارك الله فيك! أخيراً ، بين الحشد الهائل من الشعراء المجيدين الموجودين ، لقيت شاعراً ، هو أنت ياسيدي ، وهذه السوناتة دليل على هذا » .

وأمضى دون كيخوته أربعة أيّام في ضيافة ممتازة ، عند دون ديبجو . وعند نهاية المدة سأله الإذن في الرحيل ، معرباً عن أجزل آيات الشكر والإمتنان لهذه الضيافة الكريمة ، لكنّه أضاف أنه ليس من المناسب أن يستسلم الفرسان الجوّالة للراحة والرخاوة ، وأنه لذلك مضطر الى استئناف المسير ، والبحث عن المغامرات ، وهو يعلم أنها كثيرة في هذا الإقليم ، حتّى يحين أوان مباريات سرقسطة التي ينوي حضورها ، بيد أنه يريد قبل ذلك أن يزور كهف مونتسينوس الذي تروى عنه العجائب ، وأن يعرف بنفسه المنبع الحقيقي للبحيرات

السبع التي تسمى عادة باسم « برك رويديرا » فأثنى دون ديبجو وابنه على عزيمة الشريفة ، ودعواه الى أن يأخذ من بيتهما كل ما يراه مناسباً ، وأبدى له استعدادهما لتقديم كل خدمة ممكنة اعترافاً بقيمته وشرف مهنته .

ثم جاء يوم الرحيل ، وأبدى دون كيخوته من الرضا بقدر ما أبدى سنشو پنشا من الحزن والهم لأن هذا الأخير عاش عيشة رافهة جداً في بيت دون ديبجو ، ولم يشأ العودة إلا مكرهاً الى ألوان الحرمان التي يتلقاها المرء عادة في القفار والغابات ، حيث كان الزاد الفقير في خرجه قليل الفائدة ، ومع ذلك فقد ملأه بأحسن ما يستطيع . وقال دون كيخوته لدون لورنثو ، وهو يودع مضيفيه ، « لقد قلت لك ياسيدي ، وأكرّر لك أنك إذا شئت أن تقوم بالأعمال التي يمكن أن تفقدك الى قمة معبد الشهرة ، تلك القمة الصعبة البلوغ ، ليس أمامك إلا أن تترك الطريق الضيق للشعر ، وأن تتقدم بخطى ثابتة في الطريق الأضيّق ، طريق الفروسية الجوّالة ، فتستطيع أن تصبح ، في لحظة واحدة ، امبراطوراً » .

وبهذا أتمّ دون كيخوته الإبانة عن جنونه ، وخصوصاً حين أضاف قائلاً ، « الله يعلم كم يسرّني أن آخذ معي السيّد دون لورنثو ، لأعلمه كيف ينبغي أن نغفو عن المهزومين ونخضع المتمردين والمتكبرين ، وهما فضيلتان من صميم المهنة التي أمارسها ، لكن مادام فتاه سنّه ودراساته الحميدة تحول دون أمنيّاتي ، فإنّي أكتفي بأن أنبّهك الى أنه في ميدان الشعر ، تستطيع أن تجعل نفسك مشهوراً ، إذا قدّرت إنتاجك حسب رأي الآخرين لا تبعاً لرأيك أنت . لا يوجد أباء يرون أطفالهم قبيحين ، وهذا الخطأ أشدّ نكراً حين يتعلّق الأمر بشمار عبقريّتنا » .

وتعجب الولد من غرابة طباع دون كيخوته ، وهذا المزيج المستمر من الحكمة والجنون ، وخصوصاً إصراره على متابعة المغامرات التي كانت الهدف الوحيد لأمنيّته . وكرّر له استعدادهما لخدمته وتحيّاتهما ، ثم ودّع دون كيخوته راكباً روئيناته ، وسنشو راكباً حماره ، سيدة القصر وأخذا في المسير .

الفصل التاسع عشر

حيث تروى مغامرة الراعي العاشق، وحوادث أخرى
صادقة بقدر ما هي ممتعة

كان دون كيخوته غير بعيد عن قرية دون ديبجو ، حينما لقي نوعين من الكتّاب أو الطلبة ، يتلوهما فلاحان ، والأربعة يركبون حميراً ، وكان أحد الطالبين يحمل ، بدلاً من حقيبته ، بعض الخرق الملفوفة في قماش أخضر ، وزوجين من جوارب صوفية ، والآخر كان يحمل سيفين^(١) جديدين بزريرهما ، وكان الفلاحان يحملان مواد تموينية يبدو أنهما اشتريها من المدينة ليحضراهما الى قريتهما . واستولت الدهشة على الجميع لمراى دون كيخوته كدهشة كل من يراه لأول مرة ، وتحرقوا شوقاً لمعرفة من عسى أن يكون هذا الرجل العجيب . حيّاهم دون كيخوته ، ولما رآهم يسلكون الطريق نفسها ، عرض عليهم المرافقة ، راجياً منهم إبطاء سير ركوبتهم ، وكانت تجري أسرع من فرسه ، ولحملهم على ذلك قال لهم ، باختصار ، إنه فارس جوال ، وأنه يسير بحثاً عن مغامرات في كافة أجزاء الدنيا الأربعة ، وذكر لهم اسمه ، وأضاف اليه لقب « فارس الأسود » . أما الفلاحان فقد بدا لهما كل ما قاله لغة لا يفهمونها ، ولكن الطالبين تبينا بسهولة جنون دون كيخوته لكنهما نظرا اليه بدهشة ممزوجة بالإحترام .

قال له أحدهما : « سيدي الفارس! إذا كنت مثل أولئك الباحثين عن المغامرات لاتتخذ طريقاً معيّنأ ، فإني أدعوك الى المجيء معنا : وسترى واحداً من أجمل وأغنى الأعراس التي احتفل بها في إقليم المنتشا والنواحي المجاورة » .

فسأله دون كيخوته هل هذا عرس أمير أو رجل ذي لقب . فقال الطالب : « لا ، بل عرس حراث بسيط وفلاحة ، ولكن الرجل أغنى أهالي الإقليم ، والعروس أجمل فتاة .

(١) من السيوف المستخدمة في المسابقة (اللعب بالسيف) .

والإستعدادات لهذا العرس هائلة ، إذ سيجري الاحتفال في مرج مجاور لقرية العروس التي تدعى « كترية الجميلة » . كما يدعى خطيبها باسم « كمتشو الغني » . عمرها ثماني عشرة سنة ، وعمره هو إثنان وعشرون ، وبالاختصار كلاهما كفؤ للآخر ، وإن كان المتحذلقون الذين يعرفون كل أسرار الدنيا يدعون أن أسرة كترية أعظم من أسرة كمتشو ، لكن لا ينبغي أن نعبأ بهذا ، لأن الثروة ترتب كل شيء . والحق أن كمتشو كريم ، وقد قرر أن يغطي كل المرح بأغصان الشجر ، حتى لاتنفذ الشمس إلا قليلاً من خلال الخضرة ، لتذهيب عشب الحقول . ورقصة السيوف ، ورقصة الشخاشيخ ، ورقصات أخرى كثيرة سيزدان بها الاحتفال ، إذ في قريته راقصون بارعون . ولا أقول شيئاً عن الراقصين بأحذيتهم ، فهناك منهم عدد هائل . ولكن من بين أحداث هذا العرس حادث سيجعله خالد الذكر ، ألا وهو يأس باسيل . باسيل هذا راع شاب جارٍ لكترية ، بيتاهما متلاصقان ، ولذ للغرام ، أن يستغل الفرصة فيجذب المناظر المؤثرة بين فيرام وثسبيه . وكان باسيل يعبد كترية منذ نعومة أظفاره ، وهي بدورها استجابت لغرامه ، حتى كانت الشائعات في كل القرية تتحدث عن غرام هذين الولدين الواحد بالآخر . وكبرا في السن مع الزمن ، فقرّر والد كترية أن يحرم من الآن فصاعداً دخول بيته على باسيل ، ولكي يزيل منه كل حجة في الغيرة ، قرر أن يزوّج ابنته من كمتشو الغني ، لأنه رأى أن زواجها من باسيل غير مناسب ، لأن هذا الأخير لم يرهه الحظ كما رعته الطبيعة . ولكي نقول الحق بغير حسد ، نقول أن هذا الشاب هو أنشط شباب القرية ، وهو يرمي الجلة ، ويصارع ، ويلعب الكرة ، ويعدو كالغزال ، ويقفز كالמעزة ، ويكفأ^(١) الاسطوانات بما يشبه المعجزة ويغني كالبلبل ويعزف على القيثارة عزفاً مطرباً ، وفوق هذا كله يضرب بالسيف كأشجع الفرسان .

فقال دون كيخوته : لهذه الصفة الأخيرة وحدها يستحق أن يتزوج ليس فقط كترية الجميلة ، بل وأيضاً الملكة جنيفرا لو كانت لاتزال في قيد الحياة ، على الرغم من لانصلو وكل من يريدون الإعتراض على ذلك .

فقال سنشو ، الذي ظلّ حتى الآن يصغي ولايقول كلمة : « والله أن زوجتي من رأيها أنه يجب على كل واحد أن يتزوج التي في مستواه ، عملاً بالمثل القائل : كل نعمة ونعجتها ، وبودي لو أنّ هذا الدون باسيل ، وقد بدأت أحبه ، يتزوج هذه السيدة كترية ، أطال الله في عمرها ، ولعن الله من وضع عقبة في سبيل زواج المحبتين » .

(١) لعبة فيها يقلب الإنسان اسطوانات خشبية طويلة بواسطة كرة .

فقال دون كيخوته : إذا كان كل المحبين يتزوج بعضهم بعضاً ، فقد الآباء الحق في تزويج أولادهم متى وبمن يرونهم مناسبين ومناسبات ، وإذا اختارت الفتيات أزواجهن بإرادتهن ، فترى هذه تختار خادم أبيها ، وتلك أول من تراه يمر في الشارع فخوراً وسيماً ، وإن كان مجرد صعلوك . إن الحب يبهر بسهولة عيون العقل ، وعيون العقل ضرورية لمثل هذا الاختيار ، وحب الزواج من الدقة بحيث يتعرض المرء لخطر كبير إذا انخدع ، ولا بد من دقة في الحكم ومعونة السماء للحصول عليه . ومن يرد أن يقوم برحلة طويلة إذا كان حكيماً فعليه قبل أن يبدأ السفر أن يبحث عن رفقة ملائمة أمينة تساعد في تحمل متاعب الطريق ، فلماذا لا يسلك المسلك نفسه ذلك الذي ينبغي عليه أن يقوم برحلة الحياة الطويلة حتى باب القبر ، خصوصاً إذا كان رفيقه (أر رفيقه) سشاركه في الفراش والمائدة ، وتتبعه في كل مكان ، كما هو شأن الزوجة مع زوجها ؟ إن المرأة ليست سلعة تشتري ، وتباع ، ويقايس عليها ، وتستبدل بغيرها ، بل هي غرض لا يفترق عنك ، يبقى مابقيت الحياة ، إنها رابطة ، إذا وضعت في العنق ، تتحول الى عقدة لا انفكاك لها ، ولا يحلها إلا منجل الموت إلا بقطعها . ولاستطيع أن أضيف هنا أموراً أخرى كثيرة ، لكنني متشوق لمعرفة هل عند السيد حامل الليسانس تفاصيل أخرى عن باسيل .

فأجاب الطالب ، حامل البكالوريا ، أو الليسانس ، كل ما أعرفه هو أنه منذ أن عرف باسيل أن كثره الجميلة ستزوج كمتشو الغني لم يَرَ باسمًا ولا متكلماً بعقل ، إنه دائماً حزين ، يكلم نفسه كرجل فقد عقله ، يأكل قليلاً ، وينام غراراً ، والفاكهة طعامه الوحيد ، وينام في الحقول ، وينام على الحصباء كالدابة العجماء ، وكثيراً ما يتطلع في السماء ، وأحياناً أخرى يسمر عينيهِ في الأرض ، على حال من الوجد تحيله الى شبيه بتمثال لابس ، يحركه الخواء ، ويكشف في كل شيء عن قلب متقد بالوجدان ، حتى أن كل الذين يعرفونه لا يشكون في أن زواج كثره هو حكم عليه بالإعدام .

فقال سنشو : هياً الله له مصيراً أفضل ، وإن كان يعطي المرض فهو يعطي أيضاً العلاج . ولا يدري أحد ماذا سيحدث ، ومن الآن حتى صبيحة الغد ستمر ساعات عديدة ، وتكفي ساعة ، بل برهة ليتهدم البيت . رأيت هطول الأمطار وسطوع الشمس في وقت واحد ، هذا ينم في المساء صحيح البدن ، وفي الغد لا يستطيع التحرك . وقل لي هل تعرف أحداً استطاع أن يفخر بأنه وضع مسماراً في عجلة الحظ ؟ لا ، طبعاً ، بين نعم المرأة ولائها لاستطيع أن أدرس سن الإبرة ، لأنه ليس ثم مكان . اجعلوا كثره تحب باسيل حباً صادقاً ، وأنا أعطيه كيساً مليئاً بالسعادة ، لأن الحب ، كما يقال ، له نظارات تجعل النحاس يبدو ذهباً ، والفقر ثراء ، والزجاج لؤلؤاً .

فصاح دون كيخوته : الى أين أنت ماضٍ في تخليطك ياسنشو ياملعون ؟ حين تبدأ في سلك حكاياتك وأمثالك لا يأمل غير يوداس وحده أن تنتهي ، ألحقك الله به! قل لي ، يا حيوان ، ماذا تقصد بمساميرك وعجلاتك وسائر حماقاتك ؟
فأجاب سنشو : إذا لم أفهم ، فليس بعجب أن تظهر لكم عباراتي تخريفات ، لكن لا يهمني ، أنا أفهم ما أقصد ، وأعرف تماماً أنني لم أقل حماقات ، بل أنت ، ياسيدي ، دائماً الرقيب والمحاسب على أقوالي وأفعالي .

فقال له دون كيخوته : قل «المحاسب» يامفسد اللغة الجميلة ، عليك لعنة الله!
فقال سنشو : لاتغضب يامولاي ، فأنت تعرف جيداً بأنني لم أرب في البلاط ، ولم أدرس في شلمنقة ، حتى أعرف إذا أضفت حرفاً أو نقصت حرفاً في كلماتي . يالله لا يطلب من فلاح أن يتكلم مثل ساكن طليطلة ، بل يوجد بعض سكان طليطلة ممن لا يبهرون كثيراً بفصيح الكلام .

فقال حامل الليسانس : هذا صحيح ، لأن الذين يغشون الحانات والسوق لا يمكن أن يحسنوا الكلام مثل أولئك الذين يمضون اليوم في خلة الكاتدرائية ، ومع ذلك فكلهم من طليطلة . إن صفاء ووضوح وأناقة العبارة إنما توجد لدى أهل البلاط المستنيرين ، وفي أي مكان ولدوا ، وأقول المستنيرين لأن كثيرين جداً ليسوا كذلك ، والإستنارة هي النحو الصحيح للغة الجميلة ، التي يكملها الإستعمال بعد ذلك . وأنا ياسيدي ، بسبب ذنوبي ، درست القانون الديني في شلمنقة ، وأعتز بأنني أتكلم لغة صافية ، وبوضوح ، وحسن عبارة .

فقال له الطالب الآخر : لو لم تعتز أكثر بالمسايفة منك بممارسة اللسان ، لكنت أول الليسانس بدلاً من أن تكون في الذيل .
فقال الأول : يا حامل البكالوريا ، أنت تخطئ ، خطأ فاحشاً حين تظن أنه لافائدة في المسايفة .

فأجاب حامل البكالوريا وليم كورتشويلو : كلا ، أنا لأخطئ ، في هذا ، هذا ليس مجرد ظن ، بل حقيقة ثابتة مبرهن عليها ، وإذا كنت تشك في هذا فالبرهان سهل ، معك سيوفك ، وعندي قوتي ، وشجاعتي وهي ليست قليلة ، وسأحملك على الإعتراف بأنني لست على خطأ ، انزل ، والجا الى دوائرك ، وزواياك ، وأوضاع جسمك ، وكل علمك ، وبمهارتي الطبيعية الغليظة أريد أن أريك النجوم في عز الظهر . وأتحدى أن يرغمني إنسان على إدارة كثفي ، أو أن يوجد إنسان في العالم لأجندله على الأرض .

فصاح المساييف الماهر : أن تدير كتفك أو لاتديرها ، هذا لن أقول فيه شيئاً ، لكن قد يحدث أنه حين تضع قدمك مرة ، ستجد هناك قبرك وأن تهلك لأنك احترقت المهارة في السلاح .

فقال كورتشويلو : « هذا ماسنراه » . وفي الوقت نفسه نزل على الأرض برشاقة ، وانتزع غاضباً هائجاً أحد السيوفين الذين كان يحملهما حامل الليسانس ، واتخذ موقف انتباه .

فقال دون كيخوته فوراً : « ينبغي ألا تسير الأمور على هذا النحو : أريد أن أكون معلّم مساييف ، وحكماً في مسألة طالما تنوزع فيها عبثاً » .

ولما قال هذا نزل عن فرسه ، واعتمد على رمحه ووقف في وسط الطريق بينما تقدّم حامل الليسانس بمظهر المتحدّي ضد كورتشويلو الذي أقبل هو الآخر والشرر ، كما يقال ، ينقذ من عينيه . وبقي الفلاحان ، دون أن ينزلا عن حماريهما ، يتفرّجان على هذه المأساة الدامية ، وكانت ضربات الحد ، والسن ، والنصل ، والظهر باليدين التي انهال بها كورتشويلو كثيرة بغير حساب وتنزل كالبرد ، وبدا أنه أسد متهيج ، لكنّ كان يلقي دائماً زرار سيف حامل الليسانس ، الذي كان يوقفه في وسط هيجانه ، ويجعله يقبله كأنه ذخيرة ، وإن كان بورع أقل ، وأخيراً عد بسيفه كل زراير نصف الرداء الذي كان يلبسه ، وجعل قبّعه تقفز مرتين ، ونكأ فيه إلى حد أن الآخر وقد انقلب غيظه إلى جنون أمسك بسيفه من المقبض وقذف به في الهواء بشدة حتّى رمى به إلى أبعد من ثلاثة أرباع الفرسخ ، إذا صحّ مايقوله أحد الفلاحين وكان كاتباً . وهذا المثل الخالد الذكر يدل على أن القوة غالباً ما يغلبها الفن . وكان كورتشويلو قد تحطّم . فاقترب منه سنشو وقال له : « ياسيدي حامل البكالوريا ، إذا شئت أن تصدّقني ، في المستقبل لا تتحدّ إنساناً في المساييف ، بل في المصارعة أو قذف الجلّة ، لأن سنك وقوتك تمكّنك من هذا النوع من الرياضة ، لكن فيما يتعلّق بأصحاب السلاح ، كثيراً ما سمعت أنهم يستطيعون أن يضعوا سن السيف في ثقب الإبرة » .

فقال كورتشويلو : « أنا راضٍ عن الإعتراف بخطئي ، وقد برهنت لي التجربة كم كنت بعيداً عن الحقيقة » . وفي الوقت نفسه أسرع لتقبيل حامل الليسانس ، وصارا صديقين أكثر من ذي قبل . ثمّ بغير انتظار للكاتب ، الذي ذهب للبحث عن السيف ، مما كان سيؤخّره طويلاً ، تابعا طريقهم للوصول مبكراً إلى قرية كتريه ، التي ولدوا جميعاً فيها . وأثناء الطريق حدثهم حامل الليسانس عن مزايا المساييف شارحاً الأسباب الجليلة ، ومقدّمات

البراهين الرياضية ، حتى إن جميع الذين كانوا يستمعون اليه آمنوا بفائدة هذا العلم ، وشفى كورتشويلو من خطئه .

وكان الليل قد وافى حينما اقتربوا من القرية ، وبدأت لهم السماء المرصعة بالنجوم رائحة ، وفي الوقت نفسه سمعوا أصواتاً عذبة مختلطة تصدر عن عدد كبير من الآلات ، مثل النايات ، والطنابير ، والبسالتريونات ، والشبّابات ، والقرب والطبول . ولما ازدادوا قرباً ، شاهدوا أنّ الأشجار التي غرست على مدخل القرية قد زودت كلّها بالقناديل ، التي لم تكن الريح تؤثر فيها ، لأنّ النسيم كان عالياً لا يقوى على تحريك الأوراق . وكان الموسيقيون مكلفين بإشاعة الطرب والفرحة في العرس ، وكوّنوا مجموعات مختلفة في هذا المقام البديع ، البعض يرقص ، والبعض الآخر يغني ، والثالث يعزف بالآلات ، وفي كل مكان سادت اللذة والحبور ، وهذا يعدو ، وذاك يقفز ، وكل الوجوه يعلوها الابتسام . وكثيراً من الناس كانوا مشغولين بوضع سقالات ، يمكن منها في الغد مشاهدة الرقص والألعاب التي ستجري في المرج ، الذي هو مسرح عرس كمتشو وجنازة باسيل . ولم يشأ دون كيخوته أن يدخل القرية ، رغم إلحاح حامل البكالوريا والفلاح ، معتذراً بعذر وجيه جداً في نظره ، وهو العرف الجاري بين الفرسان الجوّالة والقاضي بالنوم في الحقول والغابات بدلاً من الأماكن المأهولة حتى لو كان ذلك تحت سقوف ذهبية . وتبعاً لذلك انحرف قليلاً عن الطريق ، ممّا ضايق سنشو ، الذي تأسف على الإقامة الجيدة التي ظفر بها في قصر أو في بيت دون ديجو .

الفصل العشرون

وفيه يروى أنباء عرس كمتشو الغني، ومغامرة باسيل الفقير

ولم يكد الفجر الأبيض يدع فيبوس (الشمس) الساطع يجفف بأشعته الحارة اللآلي،
السائلة من شعره الذهبي، حتى نهض دون كيخوته هازاً كسل أعضائه، ودعا سائسه سنشو
الذي كان لا يزال يغط في نومه ولمّا رأى سنشو على هذه الحال قبل أن يوقظه، قال له: «أنت،
أنت سعيد بين كل أولئك الذين يعيشون على وجه البسيطة، لأنك تنام هادئاً دون أن تعرف
الحسد، ودون أن يحسدك أحد، ولا يطارذك أي ساحر ولا تعرف حيلهم الخبيثة. نم، أقول لك
وأكرّر هذا القول مائة مرة، دون أن ترغمك غيرة سيدتك على السهر المتواصل، ودون أن
يؤزّك هم الديون، ولا هم معرفة كيف تستطيع غداً أن تطعم أسرتك البائسة الصغيرة، الطموح
لا يعذبك، وأنت تحتقر فخخة الدنيا الزائفة، ولا تهتم إلا برعاية ركوبتك، أما شخصك فأنا
وحدي الذي أهتم به، وهذا تعويض عادل تفرضه الطبيعة والعرف على السادة. الخادم ينام،
بينما يسهر السيد، مشغولاً بإطعامه، وتحسين حاله، ومكافأته عن حماسه، وعبثاً تصبح
السماء من البرونز وترفض أن تمنح الأرض الندى المفيد، فالخادم لا يهتم بهذا، بل سيده هو
الذي يجب عليه أن يطعم - في القحط والمجاعة - من خدمه في الخصب والوفرة».

ولم يجب سنشو بكلمة عن كل هذا، لأنه كان نائماً، ولا شك أنه لم يستيقظ حالاً،
لولا أن دون كيخوته مسّه بطرف رمحه. وأخيراً فتح عينيه المتعلقتين بالنوم، وتلفت في
كل ناحية، ثم قال: «من هذه التعريشة تأتي رائحة، إن لم يخب ظني، هي بالأحرى رائحة
شواء لارائحة صعتر ونمّام. والله إن العرس الذي تنبعث منه رائحة مثل هذه الروائح لا بد أن
يكون حافلاً بأطاييب الطعام».

فقال له دون كيخوته: اخرس، ياشره، وتعال، سنذهب لمشاهدة هذا العرس لنعرف
ماذا سيفعل باسيل البائس.

فأجاب سنشو : ليفعل مايشاء . لماذا هو فقير ؟ لو لم يكن فقيراً لكان في استطاعته أن يتزوّج كتره . لا يكون معه فلس^(١) ، ويريد أن يتزوّج في السحاب بصراحة « يامولاي » أنا من رأيي أن الفقير يجب أن يقنع بما عنده ، وألا يذهب ليبحث عن اللآلئ في الكروم ! أراهن بقطع ذراعي أن كمتشو يستطيع أن يغطّي باسيل كلّه بريالاته ، وإذا كان الأمر كذلك ، فستكون كتره مجنونة ، إذا تركت الزينات والحلي الذي أعطها إيّاها كمتشو ويمكن أن يعطيها أيضاً ، لنفضل مهارة باسيل في قذف الجلة... أو المسايقة . إن المهارة في قذف الجلة والمسايقة لاتعطيك انتمائاً بكأس من النبيذ في الحانة : فالمهارات والقرائح لا تكسب شيئاً ، وليست غير كلمات لافائدة فيها ، لكن إذا وجدت هذه المزايا عند أولئك الذين عندهم مال ، آه هنا أود أن تشبه حياتي حياتهم . على أساس متين يمكن إقامة بناء متين ، وأمتن أساس في الدنيا هو المال ، ما في ذلك أدنى ريب .

فقال له دون كيخوته : سنشو ، كفى خطابة ، وأنا أعتقد في الحق أنه لو ترك لك متابعة خطبك التي تبدوها في كل مناسبة ، لما كان عندك وقت للأكل والنوم ، بل ستستعمل كل وقتك في الكلام .

فأجاب سنشو : إذا كانت ذاكرة مولاي جيدة ، فتذكر مواد الإتفاق المعقود بيننا قبل أن نأخذ في خرجتنا هذه ، من بين هذه المواد مادة تقرّر أن عليك أن تتركني أقول ماأشاء ، مادام ليس ضد الجار ، ولا ضد سلطتك ، وحتى الآن لا أعتقد أنني خالفت هذه المادة . فقال له دون كيخوته : أنا لا أتذكر أبداً هذه المادة ياسنشو ، لكن حتى على هذا الفرض فإنّي أريد منك أن تسكت وأن تتبعني . إن الآلات التي سمعناها مساء أمس بدأت تبعث السرور في هذه الأودية ، ولاشك أن الإحتفال بالعرس سيتم في نضارة الصباح ، لا في الأشعة المحرقة لكوكب النهار .

فأطاع سنشو . ووضع السرج على روثينائه ، والبرذعة على حماره ، وتقدّما ثم دخلا معاً بعد قليل تحت العريشة .

وكان أول شيء تبدّى لنظر سنشو ثوراً فتياً كاملاً سفوده غصن وكان الخشب المخصّص لشوائه يكوّن جبلاً صغيراً ، وكان حول النار ستة قزانات ، أو بالأحرى ستة طسوت هائلة في كل منها خروف بأكملة كان يتراءى كأنه لايزيد عن حمامة ، والأرانب الجميلة المخلاة والدجاجات المنتوفة الريش كانت بغير حساب معلقة في الأشجار ،

(١) في الأصل ' ربع . والربع ' نقد من النحاس يساوي أربعة مرابطينات .

وستجد مقابرهما في هذه القزانات ، فضلاً عن عدد لانهاية له من الطيور وقطع القنص التي وضعت في الهواء لتجف . وعدّ سنشو أكثر من ستين قرية كبيرة ، في كل منها خمسون لتراً على الأقل وكلها مملوءة بأفخر الأنبة ، وتكدست تلال من الخبز الأبيض كالثلج على المرج ، كأنه القمح في الجرن ، وكانت أكوام الجبن تكون مايشبه سوراً من القرميد ، وغلايتان للزيت ، أكبر من غلايات الصباغة ، استخدمتا لقلي لقمة القاضي ، وكانت تستخرج من الغلاية بمجرفين كبيرين لنقلها الى غلاية أخرى مملوءة بالعسل المجهز . وكان عدد الطبّاخين والطباخات يزيد عن الخمسين ، وكلهم نظيفون نشيطون راضون . وفي بطن الثور وضع اثنا عشر خنزيراً لبنياً لإعطائه نكهة وجعله أطرى . وكانت الأفاويه من كل الأنواع تملأ صندوقاً كبيراً ، زنتها تقدّر لا بالأرطال بل بالقناطير . وبالجملّة كانت معدّات هذا الفرح ريفية ، من غير شك ولكن المأكولات كانت وفيرة جداً ، بحيث كانت تكفي لإطعام جيش بأسره .

وقف سنشو يتأمل كل شيء ، ويعجب بكل شيء . أولاً القزانات خلّبت عقله ، وكان بؤده أن يتذوّق منها بوفرة ، ثم أن قرب النبيذ دعتّه الى تحيّتها ، ثم لقمة القاضي التي كانت تستخرج من المقلاة إذا أمكن أن تسمّى مقلايات هذه الغلايات الضخمة ، ولم يتمالك نفسه ، فاقرب من أحد الطبّاخين بأدب ، وبكل تهذّب المعدة الجائعة سأله أن يأذن له في غمس قطعة خبز في القزان . فأجابه الطباخ : « أخي ، هذا اليوم ليس يوم صوم ، بفضل كمتشو الغني ، تقدّم ، وانظر هل تجد كبشة لتستخرج دجاجة أو دجاجتين ، وبالهناء والشفاء » . فقال سنشو : « لا أدري أية كبشة » . فقال الطباخ : « انتظر ، بالله إنك مرتبك » . ولما قال هذا تناول كسرولة ، وغمرها في قزان ، واستخرج منها ثلاث دجاجات وأوزتين وقال لسنشو : « خذ يا صاحبي ، وكل ، وافطر بهذه التصبيرة ، الى أن تأتي ساعة الغداء » . فقال سنشو : « لكن ليس معي إناء أضعها فيه » . فقال الطباخ : « اذن خذ الكسرولة بما فيها ، فكمتشو غني ويسعده أن يتحمّل هذا » .

وبينما كان سنشو يستغل وقته بأحسن استغلال ، شاهد دون كيخوته يدخل تحت العريشة اثنا عشر فلاحاً يركبون أفراساً مطّهمة ، على صدورهم شخاشيخ . وكانوا يلبسون ملابس احتفال وتجمّعوا على هيئة فرقة منظّمة السير ، وعدّوا عدة عدوات فوق المرج ، وهم يصيحون بفرح : « يحيا كمتشو وكثريه ! إنه غني بقدر ماهي جميلة ، وهي أجمل نساء العالم » . فلما سمع هذا دون كيخوته قال لنفسه : « واضح أن هؤلاء لم يشاهدوا صاحبتى دلثنيا دل توبوسو ، وإلا لو رأوها لخفّفوا من إطرانهم لكثريه هذه » .

وبعد هذا بدأت جماعات من الراقصين تدخل في نقاط مختلفة تحت التعريشة ، ومن بينهم فرقة من الراقصين بالسيوف ، وعددهم حوالي أربعة وعشرين شاباً وسيماً ، وكلهم يرتدون تيلاً أبيض ، وعلى رؤوسهم قلانس مختلفة الألوان مطرزة بأفخر الحرير . فسأل أحد الفلاحين الراكبين على الأفراس قائد الفرقة ، وهو شاب قوي البنية ، هل جرح أحد الراقصين .

فقال : « الحمد لله ، حتى الآن لم يجرح واحد منا ، نحن سليمون معافون » . وفي الحال بدأ بالإشتراك مع فرقته يأتي حركات ببراعة فائقة ، حتى أن دون كيخوته الذي طالما شاهد مثل هذه الرقصات لم يرَ في حياته رقصاً بهذه الروعة والكمال . وحكم بنفس الحكم على مجموعة مؤلفة من فتيات رائعات الجمال ، صغراهن في حوالي الرابعة عشرة ، وكبراهن في الثامنة عشرة من عمرها ؟ وكن يرتدين ثياباً خضراً ، وكانت شعورهن وبعضها مناسبة متطيرة ، وبعضها معقوصة ، أبهى من أشعة الشمس ، ومزدانة بأكاليل من الياسمين والورد وسالف العروس وسلطان الجبل ، وعلى رأسهن شيخ وقور وسيدة رهيبة ، أكثر خفة ونشاطاً مما يسمح به سنهما ، وينظّم الإيقاع قرابة موشيقية سمورية^(١) وتجلّت هذه الفتيات الجميلات ، والحياء يعلو وجوههن ، والخفة في أقدامهن ، أجمل راقصات في العالم

وبعدهن ظهرت جوقة من الرقصات التي تسمى «الرقصات الناطقة» ، وكانت الجوقة مؤلفة من ثماني حوريات منقسمات الى فرقتين ، إحداهما يقودها كوبيدون ، «اله الحب» كتبت أسماؤهن على أكتافهن بحروف كبيرة ، وهن : الشعر ، الحكمة ، النبالة ، الشجاعة ، واللواتي كان يقودهن إله الثراء أسماؤهن هي : السخاء ، العطاء ، الكنز ، الامتلاك الأمين ، وأمام الفرقة تقدم قصر من الخشب ، يجره أربعة متوخشون يلبسون التيل الأخضر وأوراق الغار ، وملابسهم التنكرية مطابقة الى حد أنهم بعثوا الرعب في نفس سنشو ، وعلى إفريز القصر نقش على جوانبه الأربعة هذه الكلمة : «قصر الفطنة» ، وكانت الموسيقى يعزفها أربعة من عازفي الناي والضاربين على الطبول . وافتتح كوبيدون الرقصة ، وبعد مدخلين ، رفع عينيه وأطلق سهماً في فتاة جاءت لتقف بين أسنان الحصن ، ثم أنشد هذه الأشعار .

أنا الإله القوي
العلو والأرض تعنوا ،
والبحر ذو العمق يجشو

(١) نسبة الى سمورة (لمورا) ، مدينة في غرب شلمنقة . ولكن رئيس Ravnisse يرى أن Zamorana ليست نسبة الى سمورة ، بل هي كلمة عربية وهي : زماره .

وكل مافي الهوى
لم أدر ما الخوف يوماً
وما أريد أنفد
حتى المحال أحقق ،
في كل ما هو ممكن
أعطي وأمنع
أنهني وأمر

ولما انتهت المقطوعة أطلق « الحب » سهماً آخر مرق من فوق القصر ، ثم انسحب .
وتبعه اله الشرة ، وقام بحركتين ، وسكتت الدفوف ، وقال :

إنني أقوى من الحب وأقدر
بيد أنني بالهوى والحب أرشد
إنني من خير ما ترعى السماء
فوق هذي الأرض ، إكراماً وشهرة
إنني الشرة ، لا يفهمني الا القليل
وبغيري لا يتم الفعل الا معجزة
هذه حالي ، وإنني مخلص
لك ، آمين ، الى أقصى الأبد

فلما انسحبت « الشرة » تقدّم الشعر ، وقام بحركاته ، كالآخرين ، ثم أنشد وعيناه
تتطلع في فتاة القصر .

إنني الشعر اللطيف
ربة الحسن العفيف
أبعث الروح معاني
ساميات بارعات
في ألوف من أغاني

فإذا لم تضججري
من طراي بالغلزل
تبلغني أوج الأعالي
فوق دارات القمر
تحسدي من كل فرد

وانسحب «الشعر» ، وخرج السخاء من مجموعة الثروة ، وبعد أن رقص قال :

إن السخاء عطاء
بين السفاه وضده
مما يبين ضعفنا
لكنني لنمائك
أريد بذلاً وفيراً
إن كان هذا رذيلة
يا حسنهما من رذيلة
تزين في قلب عاشق
تنم عنه الهدايا

وعلى هذا النحو تقدّم وانسحب كل أشخاص المجموعتين : رقصوا وأنشدوا أشعاراً ، بعضها جيّد والبعض الآخر مضحك ، ودون كيخوته ، على الرغم من قوة ذاكرته ، لم يحفظ غير التي رويها . ثم اختلط كل الراقصين ، وهم يعقدون ويحلّون حلقات بكل سهولة ورشاقة ، وفي كل مرّة كان «الحب» يمر أمام القصر ، كان يطلق سهامه ، بينما يرمي إله الثروة بكرات من الذهب . وبعد أن شبع إله الثروة من الرقص قذف القصر بكيس كبير مصنوع من جلد قط كبير من نوع الأنجورا ، وفي الكيس نقود وفيرة ، وتحت تأثير هذه الضربة تداعت جوانب القصر الأربعة ، تاركاً الفتاة مكشوفة بغير دفاع . وفي الحال رماها إله الثروة في رقبتها بسلسلة من الذهب ، وبدا أنه يريد أسرها ، فتظاهر «الحب» وأنصاه بالحيلولة دون ذلك : وكل هذا تمّ بإيقاع على صوت الطنابير «الدفوف» . وأخيراً حجز المتوخشون بين الفريقين ، وأصلحوا الألواح التي صنع منها القصر ، ودخلته الفتاة من جديد . وهكذا انتهت هذه الرقصة ، بعد أن أشاعت رضى تاماً في نفوس كل المشاهدين .

فسأل دون كيخوته إحدى الحوريات عن مؤلف هذه القطعة «البانتوميم» فأجابت بأنه مستفيد (وظيفة دينية) في القرية ، وهو رجل بارع جداً في هذا اللون من الاختراع . فقال دون كيخوته : «أراهن أن حامل البكالوريا هذا أو المستفيد أكثر صداقة لكمتشو منه لباسيل ، وأنه يعرف الهجاء أكثر مما يعرف صلوات الأصيل . وفضلاً عن ذلك فقد أتقن في قطعة تصويره ثروة كمتشو ومواهب باسيل» . وقال سنشو بعد أن أصغى إلى كلام مولاه : «الملك ديكي^(١) ، وأنا من أنصار كمتشو» . فقال دون كيخوته : «ظاهر من هذا ياسنشو أنك سافل ، وأنتك من أولئك الذين يصيرون : يحيا الغالب» فأجاب سنشو : «لأدري من أي فريق أنا ؟ لكنني أعلم حق العلم أنه لن تخرج من قزانات باسيل أطعمة شهية مثل تلك التي استخرجتها من قزانات كمتشو» . وأظهر الكسرولة المليئة بالأوز والدجاج ، وأخذ منها واحدة وشرع يأكل بشهية بالغة وهو يقول : «في لحية مواهب باسيل ، إنه يساوي بقدر ما يملك ، ويملك بقدر مايساوي . كانت إحدى جدتي تقول لا يوجد في الدنيا غير صنفين من الناس : من يملكون ومن لا يملكون ، وكانت من أنصار من يملكون ، واليوم ، ياسيدي دون كيخوته ، الناس يقدرون الأملاك أكثر مما يقدرون العلوم . الحمار المغطى بالذهب يبدو أحسن من الفرس الرديء السرج ، وهكذا أعود فأكرّر فأقول : أنا من أنصار كمتشو ، الذي تتألف رغبة قزاناته من الأوز والدجاج والأرانب الجبلية والأرانب المنزلية ، بينما قزانات باسيل لا بد هزيلة جداً» . فقال دون كيخوته : «هل انتهيت من خطبتك ؟» . فقال سنشو : «نعم يا مولاي ، لأنني أرى أن هذا يفضيك ، وإلا لكان عندي مايشغلني طوال ثلاثة أيام» . فأجابه دون كيخوته : «أرجو الله أن يريني إياك أخرس قبل أن أموت» . فقال سنشو : «على حسب مانحن سائرون عليه ، سأمضغ الأرض قبل أن تموت أنت يامولاي ، وهكذا قد يحدث ألا أقول كلمة من هنا حتى نهاية العالم ، أو على الأقل حتى يوم الحساب» . فقال دون كيخوته : «وحتى لو حدث هذا ، ياسنشو ، فأنتك لن تسكت بقدر ماتكلمت ، وتتكلم وستكلم طول حياتك . ثم إن نظام الطبيعة يقتضي أنه لا بد لي أن أموت قبلك ، وتبعاً لذلك ، لا يمكنني الأمل في أن أراك أبداً أخرس ، حتى حين تشرب أو تنام ، وهو كل ما أستطيع انتظاره» .

فأجابه سنشو : «يا سيدي ، لا يمكن الوثوق بالتمجرد ، أعني الموت ، فهو ينتزع الخروف كما ينتزع النعجة ، وقد سمعت قسيسنا يقول أن الموت يدوس بنفس القدم على

(١) تعبير إسباني معناه : أنا مع الأقوى ، مع الغالب .

قلاع الملوك الشامخة وأكواخ الفقراء الوضيعة^(١) . إن الموت فيه من السطوة أكثر مما فيه من الرقة ، وهو لا يعاف شيئاً ، بل يأكل كل شيء ، ويملاً خرجه بكل أنواع الناس والأعمار والمراتب . إنه ليس حصّاداً ينام القيلولة ، بل يحش في كل ساعة العشب الأخضر ويجفّفه ، إنه لا يمضغ ، بل يبتلع كل ما يقدّم إليه ، عنده شهية الكلاب ، شره لا يشبع أبداً ، وعلى الرغم من أنه ليس له بطن ، فإنه يشبه أن يكون مصاباً بالإستسقاء ، لأنه متعطش لشرب حيوات جميع الموجودات ، مثلما تشرب أنت جرّة من الماء العذب . فقال دون كيخوته : « كفى ياسنشو ، إبق حيث أنت ، ولا تنزلق تسقط . والحق أن ماقلتك عن الموت ، بعبارات ريفية ، هي كل ما يستطيع أن يقوله واعظ جيد ، ولما كنت تملك الحكمة وسلامة الطبع ، فإنك تستطيع أن تصعد المنبر وتجب الدنيا تعظ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة » . فقال سنشو : « يعظ وعظاً حسناً من يعيش عيشاً حسناً ، وأنا لا أعرف أي لاهوت آخر » . فقال دون كيخوته : « وأنت لست في حاجة إليه . لكنني لأستطيع أن أفهم كيف أنك وأنت الذي تخاف من السحلية أكثر مما تخاف الله ، مع أن خوف الله هو رأس الحكمة ، أقول كيف أنك مع هذا تعرف كل هذا » . فأجاب سنشو : « سيدي ، من فضلك اكتف بالحكم في أمور فروسياتك ، ولا تحكم على خوف الآخرين أو شجاعتهم . إني أخاف الله بقدر ما يخافه أشد الناس خوفاً منه . ومع ذلك دعني أبتلع هذه الرغبة (من الأوز والدجاج الخ) ، لأن ما عدا ذلك فهو كلام فارغ سنحاسب عليه في الحياة الآخرة » .

ولمّا قال هذه الكلمات استأنف الهجوم على كسرولته ، بشراة كبيرة أيقظت شهية دون كيخوته ، وهذا كان سيشارك ، لو لم يمنعه ماسندكره في الفصل التالي .

(١) هذه العبارة مأخوذة من هوراس ، الأود ١٤١ .

الفصل الحادي والعشرون

وفيه استمرار عرس كمتشو، ومغامرات أخرى ممتعة

وبينما كان دون كيخوته وسنشو يتبادلان الأحاديث التي أوردناها في الفصل السابق ، سمعت ضجة كبيرة وتصفيق ينبعث من الشبان الراكبين الخيل الذين ساروا في المقدمة أمام العروسين ، اللذين وصلا ، تسبقهما آلاف الآلات الموسيقية المنوعة ، ويصحبهما القسيس والأسرتان ، وأعيان القرى المجاورة ، وكلهم بلباس الإحتفال ، ولم يكد سنشو يلمح العروسة حتى صاح : « إنها لا تلبس لباس فلاحه ، بل لباس سيدة بلاط جميلة . وبحسب ما أرى فإن أنواطها من المرجان الفاخر ، والجوخ الأخضر المصنوع من قونكة^(١) وهو من القطيفة ذات الثلاثين وبرة ، وتحشية التيل الأبيض هي فيما أعتقد من الساتان . ولكن تأمل يديها المزدانتين بخواتم من الكهرمان الأسود ، وأموت إن لم تكن خواتم من الذهب الخالص المزودة بفصوص من اللؤلؤ الأبيض بياض اللبن ، وكل فص لابد يساوي عيناً في الرأس . آه ، يا عفرিতে! يالروعة شعرها! إذا لم يكن مستعاراً ، فإني لم أر في حياتي أطول منه ولا أبهى شقرة! وقامتها كأنها نخلة تمشي ، محملة بالبليح ، إذ الجواهر المعلقة في جيدها وشعرها تشبه البليح . وإني أحلف بحياتي أنها ثرثرة مأكرة ، وأنها ستمر من كئيب الفلاندر^(٢) . »

فأخذ دون كيخوته في الضحك على المدائح الريفية التي أطلقها سنشو ، إلا أنه وجد فعلاً أنه لم يشاهد أبداً امرأة بهذا الجمال الرائع ، فيما عدا سيدته دلشيا دل توبوسو .

(١) قونكة ، مدينة اسبانية ، كبيرة ، على مسافة ١٢٤ كم جنوب شرقي مدريد . وفيها ولد مولينا . وقد ظلت تحت حكم المسلمين دهرًا طويلاً ، ثم استولى عليها ألفونسو السادس سنة ١٠٧٢ ، ولكن المسلمين استردوها ، إلى أن أخذها ألفونسو التاسع . وهذا الجوخ كان يصنع خصوصاً في قونكة . وكان أجود أنواعه ماهوازرق اللون . لكن كان يوجد نوع منه أخضر أيضاً .

(٢) كئيبان رملية خطيرة جداً على المسافرين .

وكانت كثرية شاحبة بعض الشحوب ، ولكن هذا كان راجعاً من غير شك الى سهر العرائس عشية يوم العرس اعداداً لزيتتهن .

واتجهت الجماعة كلها الى مسرح أعد في ركن من المرج مغطى كله بالأغصان ، وهناك كان سيجري الإحتفال بالزواج ، ومنه تشاهد الرقصات والألعاب ولما اقتربوا من المسرح ، سمع من الخلف صوت يصيح . « انتظروا قليلاً أيها المتعجلون غير المتدبرين ! » هنالك أدار الناس رؤوسهم ، فشاهدوا رجلاً يلبس عباءة سوداء ، بأطرافها شرائط حمراء ، وكان متوجاً بالسرو ، وبيده عصا كبيرة . ولما أصبح قريباً عرفوا أنه باسيل ، وصاروا حيارى ، لا يدرون ماذا يحدث كلامه ، وهم يخشون أن يكون مجيؤه في هذه المناسبة مصدراً لإشاعة الاضطراب . جاء مهتاجاً ووقف أمام العروسين ، وغرس في الأرض عصاه ، وكانت تنتهي بسن مدببة من الصلب ، وتطلع في كثرية بنظرات حائرة ، ثم قال لها بصوت مرتجف مبحوح : « أنت تعلمين ، أي كثرية الجاحدة ، أنه وفقاً لشريعتنا المقدسة لاتستطيعين أن تتخذي زوجاً طالما كنت أنا في قيد الحياة ؟ وأنت تعلمين أيضاً أنه بينما كنت أنتظر أن يصلح الزمان والاجتهاد أحوالي المادية ، لم أكف عن التمسك بأهداب العفاف الخليق بأمانتك ، لكثك وقد نسيت عرفان الجميل الذي تدنين به لحبي الطاهر ، تريد أن تملكي شخصك ، الذي ينتمي الي ، لشخص آخر يدين بكل سعادته لثرائه ، لكن لئلا يقف شيء في سبيل سعادته التي يدين بها - في رأيي - لنعم السماء لا لفضله هو ، أريد أن أحطم بيدي القبة التي تحول دون سعادته ، بأن أنتزع حياة نفسي . وليحيى كمتشو الغني وكثرية الجحود ، طوال عدة قرون متوالية وليهلك باسيل المسكين ، الذي قص الفقر جناحي سعادته ، وألقى به في القبرا » وفي اللحظة نفسها أمسك بالعصا التي غرزها في الأرض ، وأظهر غماد سيف قصير ، أسند مقبضه الى الأرض ثم وثب بجسمه بسرعة على السن ، فانغرز في بدنه وخرج بين كتفيه يفيض دماً .

وسقط غارقاً في دمائه ، مضروباً بسلاحه . فانزعج أصدقاؤه من هذا الحادث الأليم ، وهرعوا لمساعدته ، ونزل دون كيخوته بسرعة عن فرسه ، وأنهضه ، وأخذ به بين ذراعيه ، ووجده لا يزال يتنفس . وأريد إخراج السيف من جسمه ، لكن القسيس ، الذي كان موجوداً هناك عارض في ذلك قبل أن يتلقى اعترافه ، لأنه كما قال بأنه سيسلم الروح حالاً . واسترد باسيل شيئاً من وعيه وقال بصوت ضعيف : « لو شئت أي كثرية القاسية ، في هذه اللحظة الأخيرة القاضية ، أن تعطيني إقرارك فساعتقد على الأقل أن تهوذي يمكن التماس العذر له ، لأنه سيعطيني سعادة أن أكون لك » ولما سمع القسيس هذا الكلام ، طلب منه أن يفكر بالأحرى في نجاة روحه لافي متعة جسده ، وأن يسأل الله الغفران لذنوبه ولقراره اليانس ،

فأجاب باسيل أنه لن يعترف إلا بعد أن تقر بأنها زوجته ، لأن الرضا الذي سيشعر به من جراء ذلك سيمنحه القوة والإرادة للإعتراف .ولمّا سمع دون كيخوته طلب الجريح ، قال بصوت عالٍ إن هذا مطلب عادل معقول ، وينبغي إجابته ، خصوصاً وسيكون شرفاً عظيماً للسيد كمتشو أن يتلقّى كثرية أرملة لباسيل الباسل ، في الحالة نفسها التي كان سيتلقّاها عليها من والدها ، وليس ثمّ مايمكن عمله غير الموافقة ، لأن سرير الزفاف سيكون القبر . واستمع كمتشو الى كل شيء ، وبقي حائراً متردداً ، لا يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وأخيراً استطاعت توستلات أصدقاء باسيل أن تؤثر حتى وافق كمتشو على أن تقر كثرية بأنها زوجة باسيل ، حتى لا يضيع هذا روحه وهو يموت موت البانس ، فقال إذن أنه إذا وافقت كثرية فهو يوافق أيضاً ، وإن كان في ذلك بعض التأخير لتحقيق أمانيه . وفي الحال اقترب الجميع من الجميلة ، واستحلفها الكل ، بعضهم بالتوستلات ، وبعضهم بالدموع ، لكنّها كانت أقسى من المرمر ، وأبرد من تمثال ، ولم تدب ، ولم تشأ ، ولم تستطع أن تجيب بكلمة واحدة ، ومن المحتمل أنها كانت لن تجيب أبداً ، لولا أن القسيس حثّها على اتخاذ قرار بسرعة ، وقال لها أن باسيل الموت بين أسنانه ، ولايستطيع انتظار ترددها . وأخيراً اقتربت من باسيل ، مضطربة ، حزينة ، لا تنطق بكلمة ، وكان هو يقلب عينيه ، ولكن تخرج أنفاسه ، وهو يتمتم بين أسنانه باسم كثرية ، ويريد أن يموت كما يموت الوثني لا كما يموت المسيحي الصالح ، ثمّ جثت كثرية على ركبتيها ، وطلبت يده بالإشارات . فرفع باسيل بصره ، وتطلّع فيها بانتباه ، وقال لها : « أي كثرية شفقتك بعد فوات الأوان هي الخنجر الذي سيجهز على حياتي ، إذ لاأملك القوة على احتمال المجد الذي تمنحيني إياه باختيارك ، ولا على تسكين الألم الذي يغشي على عيوني بغشاوة الموت المظلمة . ولكنني على الأقل استحلفك ، أيها الكوكب النحاس ، ألا يكون قرارك بإعطائي يدك لم يكن من باب المجاملة ولا من أجل خداعي : أقرّي بصوت عال أنك بفعل حر من إرادتك تتخذي نيني زوجاً شرعياً لك ، ولايليق بك أن تستخدمني المرأة مع من أظهر لك دائماً كل صراحة » . وكان هذا المسكين وهو يتكلّم يغمى عليه في كل لحظة ، حتى اعتقد المشاهدون أنه سيسلم الروح في كل لحظة ، فأخذت كثرية بيد باسيل ، في ارتباك متواضع ، وقالت له : « لا تستطيع أية قوة أن تغيّر إرادتي : حرة وبمحض اختياري أعطيك يدي بوصفي زوجتك الشرعية ، وأتناول يدك ، إذا أعطيتني إياها بمحض اختيارك ، دون أي تشوش على عقلك الحالة التي أنت فيها » . فقال باسيل ، بغير اضطراب ، ولااحتجاج ، بل بتمام عقله : « هاهي ذي يدي أعطيك إياها ، وعيشي الآن سنوات طويلاً ، ولا تتركيني الا للذهاب الى القبر » .

وهنا قال سنشو : « يلوح لي أن هذا الشاب يتكلم أكثر مما ينبغي لجريح بالجراح » حذار أن تطلع روحه ، إنها أشد تعلقاً باللسان منها بالأُسنان .

وبينما كان العاشقان يتماسكان هكذا باليد ، بارك عليهما القستيس والدموع في عينيه مباركة الزواج ، داعياً الله من كل قلبه للزوج المسكين . لكن ، باللمعزة لم يكذب باسيل يتلقى البركة ، حتى نهض ببطء ، وانتزع السيف الذي بدا أن جسمه كان غمداً له . فوقع جميع المشاهدين في حيرة مبلسين ، وصاح السذج منهم : « معجزة! معجزة! » ولكن باسيل قال : « لا معجزة ، بل مهارة! » ووضع القستيس ، وهو في حيرة تامة ، يديه على موضع الجراح ، فوجد أن السيف نفذ لا من الجسم ولا من بين أضلاع باسيل ، بل من النبوة من الحديد مملوءة بالدم المحضّر - كما عرف فيما بعد - بحيث لا يتجمّد . وأخيراً أدرك القستيس وكمتشو والآخرين جميعاً أن الأمر كله بتدبير وحيلة خدعوا بها . ولم تبد العروس أي انزعاج لهذه الحيلة المدبرة : بل على العكس ، لما سمعت من يقول أن الزواج باطل لأنه تم بالخديعة ، أيدت الزواج من جديد ، مما جعل كل واحد يستنتج أن المكيدة قد تمت بتدبير مثقف عليه فيما بينهما سرّاً . ولكن كمتشو ورجاله هاجوا لهذا الخداع واستلّوا سيوفهم وهاجموا باسيل الذي سرعان ما التفت حوله عدد كبير من الأنصار ، ولكن دون كيخوته ، والرمح في يده ، ومغطى بترسه ، أفسح مكاناً لنفسه ، أمّا الذي لم يحجب أبداً أمثال هذه المشاحنات ، فقد راح يختبئ بين القزانات التي سحب منها تلك الرغبة الفاخرة ، وهو يعد هذا المكان مقدساً وجديراً بالاحترام .

ورفع دون كيخوته صوته صائحاً : « كفوا ، يا سادة ، كفوا! ليس من العدل أن نتقم من الإهانات التي يصيبنا بها الحب ، فالحب شبيه بالحرب ، والحرب خدعة ، وترى من المسموح به ومما جرى به العرف استخدام الحيل والمكائد من أجل النصر ، والأمر كذلك بالنسبة إلى حيل الحب ومكائده من أجل الوصول إلى رغباته ، بشرط ألا تهدف إلى تدنيس شرف المحبوب ، كانت كثره لباسيل ، وباسيل لكاتريه ، بتأثير السماء العادل المواتي ، وكمتشو غني ، وسيجد بسهولة ما يرضيه حين يشاء . أمّا باسيل فلم تكن له غير نعمة^(١)

(١) إشارة إلى المثل الذي ضربه ناتان الحكيم وهو يوتخ داود على اغتصابه لزوجته أوريا الحبي . بحسب ماورد في سفر الملوك الثاني . الفصل ١٢ ، « فأرسل الرب ناتان إلى داود فأتاه وقال له : كان رجلان في إحدى المدن أحدهما غني والآخر فقير . وكان للغني نمارج وبقرة كثيرة جداً . والفقير لم تكن له غير نعمة واحدة صغيرة قد اشتراها وورثها وكبرت معه . فنزل الرجل الغني ضيفاً ، فشح أن يأخذ من نمارجه وبقره ليهيئ للضيف الوافد عليه ، فأخذ نعمة الرجل الفقير وهيأها للرجل الوافد عليه . فغضب داود على الرجل جداً وقال لناتان : حي الرب أن الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت . فقال ناتان لداود أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إله إسرائيل إني منحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول . وأعطيتك بيت سيدك وأزواج سيدك » . وكذلك ماورد في سفر صموئيل =

واحدة هي كثرية ، ولا يستطيع إنسان في العالم مهما يكن غنياً وقوياً ، أن ينتزعها منه ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفصل ما ربطه الله ، ومن يجزؤ على محاولة ذلك عليه أولاً أن يجرب سن هذا الرمح » .

ولما قال هذه الكلمات شهر رمحه بقوة ومهارة حتى أخاف كل الذين لا يعرفونه . ومن جهة أخرى ألقى الحب مكانه للإحتقار في قلبي كمتشو ، حتى أتمت نصائح القسيس - وهو رجل عاقل فطن - تسكين ثائرتة . فأعاد هو ورجاله سيوفهم الى أغمادها ، وأنحوا باللائمة على طيش كثرية أكثر من لومهم لبراعة تدبير باسيل . كذلك فكر كمتشو أنه إذا كانت كثرية قد أحبت باسيل وهي بنت ، فربما ستحبّه وهي زوجة ، وعليه إذن أن يحمد الله على أنه سلبها منه ، لا على أنه أعطاها إيّاه ، ولكي يبين كمتشو على أنه لا يحمل موجدة ، أراد أن يستمر الاحتفال ، وكأنه هو الذي سيتزوج . لكن باسيل ، وزوجته ، وأصدقائه اعتذروا عن الحضور ، وراحوا جميعاً الى بيت باسيل ، إن الفقراء ، الأفاضل العقلاء ، لا يعوزهم من يتبعونهم ويكرمونهم ، ويساعدونهم ، كما أن الأغنياء يجدون دائماً متملقين يصحبونهم . وأخذوا معهم دون كيخوته ، وهم ينظرون اليه على أنه رجل ذو شجاعة فائقة ، وسنشو هو وحده الذي كان حزيناً إذ رأى أن من المستحيل عليه أن يشهد مأدبة كمتشو العامرة واحتفاله الفخم ، اللذين استمرّا حتى الليل . فتبع مولاه وهو حزين كئيب ، بينما مولاه يسير مع جماعة باسيل ، وأدار ظهره لقزانات مصر ، وإن كان يحملها في قلبه ، لأن الرغبة التي ابتلعها كلها تقريباً ذكّرتة بالمجد والخير اللذين فقدهما ؛ وهكذا مضى في أثر روثيناته ، مثقلاً بالخواطر الحزينة والغموم ، مع أنه لم يكن جوعان .

= الثاني ، الفصل (٩ - ١٢) : « لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عيني . قد قتل أوريا الحفي بالسيف ، وأخذت امرأته وإياه قتل بسيف بني عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحفي لتكون لك امرأة » . وقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة ص : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نجاة ، ولي نجاة واحدة ، فقلت اكفلنيها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نجعتك الى نجاها ، وإن كثيراً من الخطاء ليبيي بعضهم على البعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

الفصل الثاني والعشرون

وفيه تروى المغامرة الكبرى في كهف مونتسينوس الموجود في وسط اقليم المنتشا، وهي مغامرة أتمها بنجاح الشجاع دون كيخوته دلا منتشا

احتفل العروسان بدون كيخوته احتفالاً عظيماً ، اعترافاً منهما بفضلهم في الدفاع عن قضيتهم ، ووجد أن حكمته كفاء شجاعته وعدوه مثل « السيد » في الشجاعة ومثل شيشرون في الفصاحة ، وتمتع سنشو بأطيب الطعام طوال ثلاثة أيام على حساب العروسين الجديدين . وعرف منهما أن كثره لم تكن تعلم شيئاً عن حيلة باسيل ، بل كان كل شيء من اختراع هذا ، ولم يخب أمه ، ولكن أفضى بمشروعه هذا الى بعض أصحابه ، حتى يساعدوا في إتمام المكيدة في الوقت والمكان ، فقال دون كيخوته : « لا يمكن أن يسمى خديعة ما يهدف الى غاية حميدة ، وزواج شخصين محتابين هو أنبل الغايات . ومع ذلك فإن ألد أعداء الحب هما الجوع والبؤس المستمران » فالحب إله طروب ، يحب الملذات ، خصوصاً إذا امتلك المحب ، موضوع أمانيه أما إن هاجمته الحاجة ، فوداعاً للذات ، ووداعاً للحب » . وكان دون كيخوته وهو يتكلم على هذا النحو ، يريد إقناع باسيل بالإنصراف عن التمرينات البدنية التي جلبت له تلك الشهرة الواسعة ، لكنها لا تجلب له مالاً ، وأن يعمل على الحصول على الأموال بوسائل الاجتهاد المشروعة ، وهي لا تعوز أبداً العقلاء المجدين . وقال دون كيخوته متابعاً : « الفقير (إن كان أحد يحترمه) يملك كنزاً بامتلاك امرأة جميلة ، وانتزاعها منه هو انتزاع لشرفه ، والمرأة المحبوبة الجميلة ذات الزوج الفقير تستحق أكاليل الغار وجوائز الإنتصار . والجمال ، وحده ، يجذب كل القلوب ، وكل إرادات من يعجبون به ، إنه شبيه بالطعم الذي ينقض عليه النسر الملكي وسائر الطيور البواشق . لكن إذا انضم الى الجمال الفقر والحاجة ، هناك تهاجمه الغربان والحداء وسائر طيور النهب والسلب ، والتي تصمد وسط كل هذا الهجوم ، تستحق أن تدعى تاج زوجها . اسمع أي باسيل البارح . كان من رأي أحد الحكماء ، ولاأذكر الآن

ما اسمه ، أنه لا يوجد في العام غير امرأة واحدة صالحة ، وكان ينصح كل واحد أن يفكر ويعتقد أن هذه المرأة الوحيدة هي امرأته ، ويقول أن هذه هي الوسيلة كي يعيش المرء راضياً . إني لست متزوجاً ، ولم يخطر ببالي حتى الآن فكرة الزواج ، ومع ذلك فإني أجرو على أن أسدي النصيحة لمن يسألني النصيحة في كيفية اختيار الزوجة ، وأقول له أولاً انظر الى طيب السمعة أكثر من النظر الى الثروة ، لأن المرأة الشريفة لا تقدر فقط لأنها امرأة صالحة في ذاتها ، بل وتبدو للناس كذلك ، إن الطيش وإن الخفة والاستهتار التي يترخص فيها النساء علناً تسيء اليهن أكثر جداً من مكائدهن الخفية . فإذا وضعت في بيتك امرأة فاضلة ، فسيكون من السهل عليك أن تحافظ على طيبتها بل وأن تزيد فيها وتحسنها ، لكنك إذا أخذت زوجة رديئة ، فإلك ستضيق جهودك سدى في محاولة إصلاحها ، لأنه ليس من السهل أبداً الانتقال من طرف الى طرف ، ولست أقول أن هذا مستحيل ، ولكنه أمراً على الأقل عسير جداً » .

وكان سنشو حاضراً يصغي لهذا الكلام ، فقال في نفسه : « من عادة مولاي ، حين أقول شيئاً مفيداً جيداً ، أن يقول إنني أستطيع أن أحمل منبراً بيدي وأعدو للوعظ مواظ جميلة ، وأنا أقول أنه حين يبدأ في سرد جملة وإسداء نصائح ، فإنه ليس فقط يستطيع أن يحمل منبراً في يده ، بل منبرين في كل إصبع ويبدو واعظاً في الميادين العامة لكل من هب ودب . يا له من شيطان ! كفارس جوال ما أوسع ما يعرف ! لقد كنت أظن أنه لم يكن يعرف غير الأمور المتعلقة بالفروسية ، لكن لا يوجد شيء لا يستطيع أن يفرس ملعقته فيه » .

وسمعه دون كيخوته يتكلم بين أسنانه فقال له : « بم تتمم يا سنشو ؟ » فأجاب : « أنا لا أتمم بشيء ، بل أقول فقط أنني كنت أود لو سمعت كل ما قلته الآن ، قبل أن أتزوج ، لأنني ربما أقول الآن إن الثور المحلول قيده يلحق نفسه كما يشاء » . فقال دون كيخوته : « هل ترياك شريفة الى هذا الحد ؟ » فقال سنشو : « مولاي ! إنها ليست شريفة جداً ولا طيبة جداً ، لكنها ليست من الطيبة بمقدار ما كنت أود » . فقال دون كيخوته : « ليس حسناً يا سنشو أن تدم زوجتك ، فهي أم أولادك » . فأجاب سنشو : « نحن متخالصان ، فهي أيضاً تدمني حين يحلو لها ، وخصوصاً حين تغار ، لأنه في مثل هذه اللحظات ، لحظات الغيرة ، لا يستطيع الشيطان نفسه أن يتحملها » .

وأضى المولى والسائس ثلاثة أيام في ضيافة العروسين ، وهما يحتفى بهما كاميرين . ورجا دون كيخوته باسبل أن يعطيه دليلاً يرشده الى كهف موتسينوس ، لأنه يرغب رغبة

شديدة في الدخول فيه ليرى بغيته العجائب التي تروى عنه في كل الإقليم . فقال له باسيل أنه سيعطيه أحد أبناء عمومته ، وهو طالب شهير ومولع كبير بكتب الفروسية ، ويطيب له أن يرشده حتى مدخل الكهف نفسه ، ويريه أيضاً برك رويديرا ، المشهورة ليس فقط في إقليم المنتشا ، بل وأيضاً في اسبانيا بأسرها ، وأضاف أن هذا الشاب سيكون محدثاً ممتعاً ، لأنه يقدر على تأليف كتب جديدة بأن تطبع وتقدم الى الأمراء .

وأخيراً وصل ابن العم راكباً حمارة حبلى ، على برذعتها سجادة رديئة . وأسرج سنشو روثينانته ، ووضع البرذعة على حماره ، وملاً خرجه ملاً تاماً ومعه خرج ابن العم حافلاً هو الآخر بالزاد . ثم توكلوا على الله ، وودعوا الجميع ، وتابعوا الطريق الذي سيقودهم الى كهف مونتينوس الشهير .

وفي أثناء الطريق ، سأل دون كيخوته ابن العم من أي نوع تمريناته ودراساته ، ومهنته . فأجابه بأنه مشغول بالعلوم الإنسانية ، وأن عمله هو تأليف الكتب ثم طبعها لنفعه والمنفعة العامة ، وأنه ألف كتاباً عنوانه : «شارات الموكب» ، وفيه وصف سبعمنة وثلاث شارات ، بألوانها وأرقامها ونقوشها الكتابية ، مما يمكن رجال القصر أن يختاروا منها في أوقات الأعياد والمباريات ، دون أن يحطموا رؤوسهم ويرهقوا أمخاخهم في البحث عن شارات تتلاءم مع مبتكراتهم . وأضاف : «لأنني أعطي للقبور ، والمهجور ، والمنسي ، والغائب ، وماهو مناسب تماماً» . وأنا أشتغل في كتاب آخر ، عنوانه «التحولات أو أوفيد الاسباني» وهو كتاب مبتكر فريد في نوعه ، لأنني أحكي أوفيد في النوع الساخر ، فأعرف بماذا كانت خيرالده أشبيلية ، وملاك المجدلية ، ومجرور بسنجرا في قرطبة ، وثيران جسنسو ، وسيرامورينا (جبل الشارات) ، ونافورات لجانيتوس ولافايس (غسيل القدم) في مدريد ، دون أن أنسى نافورات بيوجو ، والأنبوبة الذهبية والديرائية^(١) ، وكل هذا مع رموز ، وأمثال ، ومجازات ، وتحويلات ، تدهش ، وتسلي ، وتعلم القارئ . وأقوم بتأليف كتاب آخر بعنوان : «ملحق بيوليدور فرجيليوس^(٢)» ، وفيه

(١) ذكرنا قبل هذا خيرالده أشبيلية وثيران جسنسو الأربعة ، أما سهل لجانيتوس فيقع في الشمال الشرقي من مدريد ، ويطل على نهر منترنس ، وقد أقيمت فيه نافورات ذات ماء صاف جداً . أما لافايس (غسيل القدم ، مفصلة القدم) فكانت نافورة في مدريد ، في ميدان كانت تجري عنده مسابقات الثيران ، ونافورتا بيوجو والأنبوبة الذهبية كانتا في حديقة البرادو الفسيحة الفخمة في مدريد ، ونافورة الديرائية كانت في حدائق إقليم عليها دير ، وملاك المجدلية شكل منحوت في ناقوس كنيسة المجدلية في سلمته .

(٢) بوليودور فرجيليوس ، مؤرخ إيطالي ولد حوالي سنة ١٤٧٠ في أوربينو ، وتوفي سنة ١٥٥٥ . ودخل الطريقة الرهبانية ، ودرس في بولونيا ، وانتقل الى انكلترا . وعين رئيساً لشمامسة ولز في سنة ١٥٠٧ . وله من المؤلفات : «التاريخ الإنكليزي في ٢٦ مقالة» ، «بازل سنة ١٥٢٤» ، «في مكتشفي الأشياء» في ثمانين مقالات وكذلك «في المجانب» في ثلاث مقالات ، أمستردام سنة ١٦٧١ .

أبحث في اختراع الأشياء : وهو كتاب احتاج الى مجهود شاق وإطلاع واسع ، لأنني أعرض فيه ، بإسلوب شائق ، كل ما غفل يوليدور الكلام عنه . فهو مثلاً نسي أن يقول لنا من أول من أصيب بنزيف ، ومن أول من لجأ الى الحك لعلاج الداء الفرنسي : أمّا أنا فأقرر الأمر تماماً ، مستنداً الى خمسة وعشرين مؤلفاً . وبهذا . تستطيع أن تحكم هل اشتغلت بذمة ، وهل كتابي مفيد » .

وكان سنشو يستمع بانتباه شديد الى كلام ابن العم ، وقال له : « سيدي هيا الله لك النجاح في طبع كتابك ، هل تستطيع أن تقول لي... لكنك تعرف ، لأنك تعرف كل شيء ، من هو أول من حك رأسه ؟ رأيي أنا أنه لابد أن يكون هو آدم » فأجاب ابن العم : « لا شك في ذلك ، فمما لا ريب فيه أنه كان لأدم رأس وشعر ، فلما كان أول إنسان في العالم فلا بدّ أنه حك رأسه بين حين وآخر » . فقال سنشو : « وأنا أعتقد ذلك أيضاً ، لكن قل لي الآن من أول من وثب وطار ؟ فأجاب ابن العم : « الحق يا أخي أنني لا أستطيع أن أجيبك الآن : وسأدرس هذه المسألة بمجرد عودتي الى كتبي ، وسأعطيك الجواب الشافي في أول مرة نلتقي فيها بعد ذلك (لأنني أظن أن هذه ليست الأخيرة) . فقال سنشو : « لا حاجة بك بإسبيدي الى كل هذا العناء ، لأنني وجدت الآن ما سألتك عنه : أول من طار في العالم هو لوسيفر (الشيطان) حينما ألقى به من السماء ، وسقط طائراً حتى أعماق الهاوية » . فقال ابن العم : « أنت على حق يا صاحبي » .

فقال دون كيخوته بدوره : « ياسنشو هذا السؤال وهذا الجواب ليسا من عندك ، بل سمعت أحداً يقولهما » . فقال سنشو : « اسكت يا مولاي ، لأنني والله لو شرعت في وضع أسئلة وأجوبة فلن أنتهي قبل أسبوع ، وللسؤال عن ترهات والإجابة ببلاغات لا حاجة بي الى سؤال جيراني » . فقال دون كيخوته : « لقد قلت أكثر مما تعي ، لأن ثم أشخاصاً يعدّون أنفسهم لمعرفة وتحقيق أمور لاتفيد العقل ولا الذاكرة أدنى فائدة » .

ومضى النهار في مثل هذه الأحاديث ، وفي الليل أقاموا في قرية صغيرة تبعد عن كهف مونتسنوس بحوالي فرسخين ، حسبما يقول ابن العم الذي نبّه دون كيخوته الى أنه إذا كان يريد حقاً النزول الى أعماق الكهف فلا بدّ من التزوّد بحبال يربط بها . فقال دون كيخوته إنه يريد أن يصل الى أعماقها ، حتى لو كانت هي الهاوية بعينها . وفي الغد في الساعة الثمانية بعد الظهر ، وصلوا الى الكهف ، وكانت فتحته واسعة ، لكنها كانت مملوءة بالزعرور والشوك والتين البري والعليق الكثيف حتى كان المدخل كله مغطى بها .

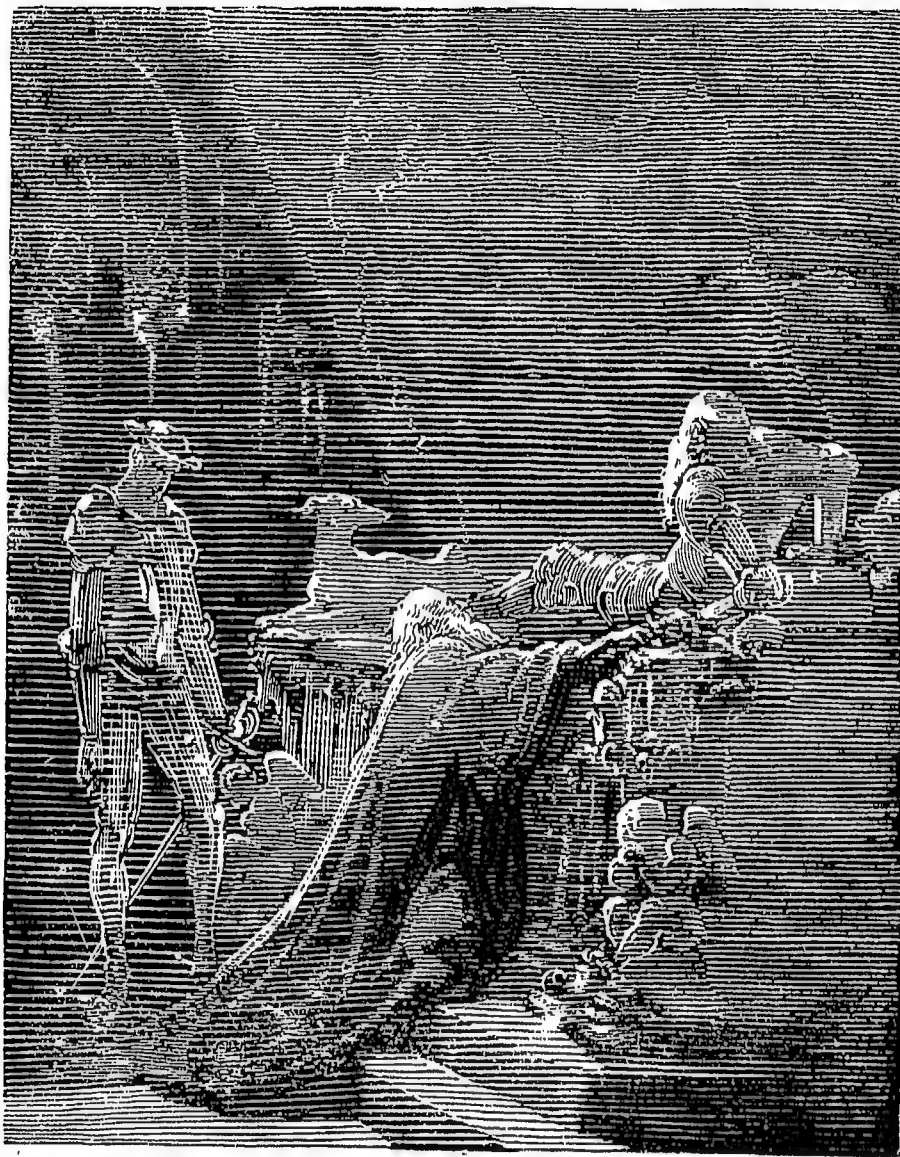
فنزول دون كيخوته وابن العم وسنشو عن ركائبيهما ، وربط دون كيخوته بحبال ربطاً وثيقاً ، وقال له سنشو وهو يربطه : « سيدي! خذ حذرك مما أنت فاعل ، لاتدفن نفسك حياً ، وتشق نفسك كالقربة التي تنزل في بئر لتبريدها . إنه ليس من شأنك أن تنزل لفحص هذا الكهف الذي لابد أن يكون أسوأ من سجن المغاربة »...

فقال دون كيخوته : اربط ، واسكت ، لي أنا ، يا صاحبي سنشو ، توكل مغامرة مثل هذه . فقال له مرشده (ابن العم) حينئذ : سيدي! أتوسل إليك أن تفحص بمائة عين كل ماستراه في داخلها : إذ لاشك في أنك ستري فيها أشياء أستطيع وصفها في كتابي عن التحولات .

فقال سنشو : إطمئن ، المسألة في أيدي أمينة .

وقال دون كيخوته وقد ربط ربطاً محكماً ، لافوق سلاحه ، بل تحته وعلى الصدرية : « لم نفكر في الحصول على جرس صغير ، لاستخدامه في إبلاغكم أنني لأزال حياً ، لكن مادماً لا نستطيع الحصول على جرس الآن ، فلنمض في عناية الله وحراسته » . وفي الحال ركع ، ووجه الى السماء صلوات بصوت خفيض ، سائلاً الله أن يكون في عونه وأن يكلل بالنجاح هذه المغامرة الجيدة الخطرة معاً ، ثم قال بصوت عالٍ : « يا سيدة أفعالي وعواطفي ، أي دلشيا دل توبوسو الرائعة المنقطعة النظير ، إن كان من الممكن أن تصل الى أذانك دعوات وتوسلات عاشقك المغامر ، فأني أستحلفك بحق جمالك المنعدم النظير ، أن تصغي اليها برضا ، لأني لأسألك إلا عدم حرمانني من عطفك وحمايتك اللذين احتاج اليهما في هذه الساعة أشد الاحتياج . إني بسبيل أن ألقى بنفسي ، وأضيع وأغوص في الهاوية التي تفتح تحت أقدامي ، لا لشئ ، إلا من أجل أن يعرف الكون أنه لا يستحيل على شجاعتي شيء طالما كنت تمنحني عطفك ورضاك » .

وما أتم هذه الكلمات حتى اقترب من الفتحة وأدرك أن من المستحيل الدخول فيها إلا بقوة ذراعيه وبضربات السيف القوية . هنالك أمسك بسيفه وأهوى على الأشواك والحشائش المتكاثفة التي سدّت المدخل . وعلى أثر الضجة الكبيرة التي أحدثها طارت أسراب من الغربان متلاحمة عنيفة بحيث قلبت دون كيخوته ، ولو كان ممن يتشاءمون بقدر ما كان كاثوليكيّاً صالحاً ، لكان قد أبصر في سقطته هذا نحساً وشؤماً ، ولم يجسر على النفوذ في مثل هذا المكان . ولكنه نهض ، ولمّا رأى أنه لا يخرج بعد غربان ولاخفافيش ولا أي طيور ليلية أخرى ، انزلق في الأعماق بواسطة الحبل الذي أمسك به ابن العم وسنشو . وفي اللحظة التي دخل فيها منحه سنشو البركة ، ورسم بالإشارة إليه



دون كيخوته في كهف مونتسينوس

آلافاً من علامات الصليب وقال له : «الله يهديك»^(١) ، وصخرة فرنسا ، وثالوث منيتا ، أنت يازهرة وزبدة ، ورغوة الفرسان الجوّالة! امض يا بطل العالم ، وقلب الحديد وذراع البرنزا ليكن الله مرشدك وهاديك مرة أخرى ، وليعدك سالماً معافى بغير جراح - الى نور هذه الحياة ، الذي تتركه لتدفن نفسك في هذه الظلمات التي تسمى إليها! وردّد ابن العم الدعوات نفسها والمناجيات تقريباً . واستمر دون كيخوته ينزل ، صانحاً بترك المزيد من الحبل ، فانزلا الحبل شيئاً فشيئاً ، ولما لم يعودا يسمعان كانا قد مدا له من الحبل مائة ذراعاً هنالك رغبا في إعادة دون كيخوته ، لأنه لم يكن في وسعهما بعد أن يمداه بالحبل . ولكنهما انتظرا نصف ساعة بعدها بدأ يسحبان الحبل بسهولة كبيرة ، دون أن يشعرا بثقل ولا مقاومة ، مما جعلهما يعتقدان أن دون كيخوته بقي في أعماق الكهف . فأخذ سنشو في البكاء الشديد المرير ، وشد بأسرع ما يستطيع ليوضح شكوكه ، ولكن حينما سحب حوالي ثمانين ذراعاً من الحبل ، أحسّ بالثقل ، مما أفرجهما الى أقصى حد ، وأخيراً شاهدا دون كيخوته بوضوح ، فصاح سنشو : «عود حميد ، يا مولاي ، لقد حسبنا أنّك بقيت هناك لتجد جذورك» . فلم يجب دون كيخوته بكلمة ، ولما أخرجاه الى خارج الكهف ، لاحظا أن عينيه مغمضتان ، وأنه بدا نائماً . فوضعا على الأرض ، وحلّ الحبل عنه ولكنّه مع ذلك لم يفتح ، ثم قلباه على جنبيه ، وأعادا تقلبيه ، وهزّاه بشدة حتّى أنه بعد مرور فترة طويلة فتح عينيه ، واستردّ وعيه ، وتمطّى كرجل استيقظ من نوم عميق ، ثم تلقّت في كل ناحية وقال في شيء من الفزع : «يا صاحبي سامحكما الله ، لقد حرمتاني من ألد حياة ، وأمتع منظر حظي به إنسان ، وأنا أقر الآن ، عن تجربة ، أن كل لذائذ الحياة تمضي كالظل ، أو الحلم ، أو تذبل كأزهار الحقول . أي مونتسينوس»^(٢) البائس أي^(٣) دوراندرا الجريح بنذالته! أي بلرما

(١) صخرة فرنسا ، جبل عال في مقاطعة شلمنقة ، على بعد سبعة فراسخ من ثيودا رود ريجو . ويقال أن أحد الفرنسيين اكتشف هناك ، في سنة ١٤٤٣ صورة لمذراء ولهذا أقيم دير للدومينيكان على هذه الصخرة . أمّا ثالوث «جيتا» فاسم يطلق على كنيسة ودير أسسهما فرنندو ملك أرغون في جيتا ، أحد الموائى الإيطالية ، في مملكتي نابلي ، وكان البعارة يتبركون بهما كثيراً .

(٢) مونتسينوس لقب لُقّب به تيوبلد ، ابن كونت جريميلدو وابن أخي شارل مارتل ، وقد فقد إقطاعه في فرنسا ، ونفي ، فرحل للإقامة في اسبانيا في منطقة جبلية ، ولهذا سمي «مونتسينوس» أي الجبلي ، وعاد الى فرنسا في أيام شارلمان ، وصار أحد أكفأ فرنسا الأثني عشر ، وخاض مغامرات غرامية عديدة ، وعاد الى اسبانيا حتّى توفّي . وتزوَّج في اسبانيا من الأنسة روسا فلوريدا ، سيدة قصر يدعى روتشغريدا ، في سهل مونتهيل . وغير بعيد عن هذا القصر كان يوجد كهف مونتسينيوس .

(٣) دوراندرا كان أحد أكفأ فرنسا الأثني عشر ، وابن عم مونتسينوس ، وعاشقاً «لبلرما» وقد جرح جرحاً قاتلاً في معركة رونسفال ، فكلف مونتسينوس بالعمل على نقل جثمانه ، وحمله الى بلرما .

الشقية! أي جودا^(١) ديانا الشاكي الباكي ، وأنت يابنات روديرا الحزينات يامن ليست مياهنن الغزيرة غير العبرات التي سفحتها عيونكن الجميلة! » .

وفتح ابن العم وسنشو عيونهما دهشة ، وأصغيا باهتمام الى عبارات دون كيخوته ، التي كان ينطق بها وكأنه يسحبها بألم بالغ من أعماق أحشائه : وتوسلا اليه أن يشرح ما قال ، ويروي لهما ما شاهد في ذلك الجحيم .

فقال دون كيخوته : تقولان الجحيم ؟ لا تسميانه بهذا الاسم ، من فضلكما ، إنه يستحق اسماً آخر ، كما ستعرفون بعد قليل ، لكن قبل هذا أعطيني ، من فضلكما ، شيئاً أكله ، لأتني أشعر بجوع شديد . فمذا على العشب السجادة التي كان يستخدمها ابن العم سرجاً ، وفتح الخرجين وجلس الثلاثة على العشب المزهر وتغذوا وتعتشوا في وقت واحد ترفرف عليهم المودة والأخوة .

ولما رفعت السجادة قال لهما دون كيخوته :

— لا يتحركن أحداً والآن ، يا ولدي ، أعيراني كل أسماعكم

(١) جواديانا (الوادي البانع ، وكلمة وادي=نهر) ، نهر في اسبانيا ، لم تكن مثابمه معروفة في عهد ثربانتس ، مما جعله يظن أنه ينبع من ينابيع تحت الأرض في كهف موتسينوس ولكن الوادي البانع «جواديانا» ينبع في الواقع من شمال الكرز ، ويؤلف أولاً نهيراً صغيراً يصب في أولى برك رويديرا ، ولما يخرج من البرك يتشعب في الأرض . وبعد ٢٤ كم من المجرى تحت الأرض غير بعيد عن ديميسيل توجد بحيرتان كبيرتان تسميان «العينان» عينا الوادي البانع ، وهذه البحيرة تؤلف منبعاً جديداً للنهر ، ثم يدخل بعد ذلك في البرغال ، ليصب نهائياً في المحيط الأطلسي — أما رويديرا فكانت قرية ، يملكها طريقة هنت يعقوب ، ثم صارت مكاناً مهجوراً .

وكهف موتسينوس عمقه ٦٠ متراً وسمته أربعون متراً . ويقع في ناحية قرية اسمها «أوسا دي موتيل» ، ومدخلها تسده الصخور والأعشاب والأشواك ، وإذا ما نزل فيه على اليمين وجد فراخ كبير يلوذ به الرعاة . وتوجد بركة مياه تجري في أعماق الكهف ثم تصب في برك رويديرا ، وهذه عددها ثلاثة عشر ، وثربانتس يسميها هنا «بنات رويديرا الحزينات» ، وبعد منها تسماً ، فقط ، سبع هن بنات هذه السيدة ، وإثنتان هما بنتا أختها ، والسبع الأولى للملك . والإثنتان الأخريتان لطريقة القديس يوحنا .

الفصل الثالث والعشرون

في الأمور العجيبة التي قال الرائع دون كيخوته أنه رآها
في كهف مونتسينوس العميق، وهي أمور مستحيلة لا تصدق،
حتى أن هذه المغامرة تعد منحولة

كانت الساعة الرابعة مساءً تقريباً بعد الظهر ، والشمس ، وكانت نصف محجوبة
بالغيوم التي خففت شدة حرارة أشعتها ، لم تكن تنشر غير ضوء هادئ ، ومكنت دون
كيخوته أن يروي ، بغير حرارة ولا تعب لسامعيه الفخيمين ، ما رآه في كهف مونتسينوس .
بدأ هكذا :

« على عمق إثنتي عشرة أو أربع عشرة ذراعاً من هذا الكهف يوجد عن يمين فراغ
فسيح ، يمكن أن يحتوي على عربة كبيرة ببغالها ، ويدخل فيه نور ضئيل من شقوق وخروق
تمتد حتى سطح الأرض . وحينما أبصرت هذا التجويف ، كنت متعباً من الشعور بأثني معلق
بجبل دون اتخاذ طريق معين . فقررت أن أدخل في هذا التجويف لأستريح قليلاً . وقد
ناديتكما حتى لا ترسلا حبلاً بعد إلى أن أطلب منكما ، ولكن لا بد أنكما لم تسمعاني .
فجمعت الحبل الذي أرسلتماه ، وصنعت منه كومة جلست عليها مفكراً ، لست أدري ماذا
أفعل لبلوغ القاع ، لأنه لم يعد ثم من يمسك بي وشغلتنني هذه الفكرة واستغرقتني وأنا
حائر ، فغصت في نوم عميق بغير إرادتي ، ثم بدون أن أشعر ، ودون أن أعلم كيف
استيقظت فوجدت نفسي في وسط أجمل مرج وألذ وأمتع ما يمكن أن تنتجه الطبيعة أو يحلم
به الخيال الخصب ، وفتحت عيني ، وفركتهما ، وأيقنت أنني لم أنم ، وأنني كنت يقظان
فعلاً . ولكي أتأكد أنه أنسياً وليس شبحاً عابثاً ، تحسست صدري ورأسي : فأكد لي
اللمس ، والشعور والبراهين التي أقمتها في داخل نفسي أنني كنت كما أنا الآن . وفي
الوقت نفسه تجلّى أمام بصري قصر ملكي فخم ، بدا أن أسواره من البلور الأصفى . وفتح
بابان كبيران : فرأيت شبحاً وقوراً يخرج منهما ويتقدم إلي ، متدثراً بمعطف من السرج
اللازوردي ، يتجرجر على الأرض ، وكان كتفاه وصدرة مغطان بوشاح طالب من الساتان

الأخضر ، وكانت على رأسه قلنسوة ميلانوية من القطيفة السوداء ، وكانت لحيته البيضاء تتهدل الى أدنى من حزامه . ولم يكن معه أي سلاح ، بل كان في يده مسبحة فقط ، حباتها أكبر من الجوز ، والعشرات مثل بيض النعام ، وكان وقاره وسمته ، ونبل طبعته والمكان الذي وجدت نفسي فيه - كل هذه ملائني دهشة وإعجاباً . واقترب مني ، وعانقني عناقاً وثيقاً ، وقال لي :

« منذ زمن بعيد ، أيها الفارس الشجاع دون كيخوته دلا منتشا ، ونحن ننتظر وسط هذه الخلوات المسحورة ، حتى تخبر العالم بما يحتويه كهف مونتسينوس الذي دخلت فيه ، وهي مغامرة كانت مخصصة لشجاعتك التي لا تقهر ، وتصميمك الجسور . تعال معي أيها السيد العظيم جداً ، وسأريك العجائب التي يحتويها هذا القصر الشفاف الذي أنا ربّه وحارسه الدائم ، لأنني أنا مونتسينوس الذي يحمل هذا الكهف اسمي » .

ولم يكذب يقول لي إنه هو مونتسينوس حتى سألته هل صحيح ما يقال في العالم ، إنه انتزع بخنجر قلب صديقه دورندار ، وحمله الى السيدة بلرما ، بناء على التماس دورندار منه وهو يموت . فأجاب : « نعم ، هذا كله صحيح ، فيما عدا الخنجر ، لأنه كان نصلاً لامعاً ، حاداً مثل المخرز » .

فقال سنشو : « لا بد أن هذا النصل من صنع رامون دي هوتس في اشيلية » . فأجاب دون كيخوته : « لا أعرف ، لكنني لا أعتقد ذلك لأن رامون هذا يعيش في عصرنا ، بينما معركة رونصفال التي قتل فيها دورندار أقدم بكثير ، وعلى كل حال فإن هذه الجزئية ليست بأقل أهمية ولا شأن لها بالقصة » . فقال ابن العم : « أنت على حق ، تابع ياسيد دون كيخوته : إنني أصغي اليك بمنتهى الشوق والرضا » .

فقال دون كيخوته : « عندي الكثير ، وأقول لك إذن أن مونتسينوس الوقور أدخلني في قصر البلور هذا ، حيث رأيت في قاعة دنيا ، كلها من الألبستر ذات طرأة لذيدة ، شاهدت قبراً من المرمر البديع الصنع يتمدد على طوله فارس ، لا من البرنز ، أو المرمر أو اليشب ، مثلما يرى على سائر القبور ، بل من لحم وعظم ، وكانت يده اليمنى موضوعة على قلبه وبدت لي هذه اليد عصبية كثيفة الشعر ، وهذا دليل على القوة الكبيرة وقبل أن أسأله أي سؤال ، لما رأى مونتسينوس دهشتي من منظر القبر والفارس قال لي : « هذا هو صديقي دورندار ، زهرة الشجعان ومرآتهم وزهرة العشاق في عصره . ومرلان ، هذا الساحر الفرنسي الذي قيل أنه ابن الشيطان ، لأنه ، كما أظن ، يعرف أكثر منه ، ومرلان هذا هو الذي يمسك مسحوراً في هذا القصر صديقي دورندار وأنا وكثيرين من

الفرسان والسيدات . ولا يدري أحد كيف ولماذا يمسكنا مسحورين في هذا القصر . وستعرف ذلك فيما بعد ، كما يخيل اليّ . إنّ ثمّ شيئاً يدهشني : فأنا أعلم علم اليقين وعلمي أنّ الآن نهار ، أنّ دورن دار أنهى حياته بين ذراعي ، وبعد موته انتزعت بيدي قلبه ، وكان كبيراً حتّى ليزن رطلين على الأقل ، لأن علماء التاريخ الطبيعي يقولون أنّ صاحب القلب الأكبر هو الأشجع » . فقلت له : « إذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا الفارس قد مات فعلاً ، فكيف يتأتّى إذن أنّه يتنهد ويتشكّى ، في كل لحظة كأنه حي فعلاً ؟ » وفي اللحظة نفسها صاح دورن دار البانس ، بصوت شك : « أي ابن عمي مونتسينوس ، كان آخر شيء طلبته منك هو أنّه حين أموت وترحل روحي ، أن تحمل قلبي الي بلرما باستخراجه من صدري إما بخنجر أو نصل » . فلما سمع الوقور مونتسينوس هذه الكلمات جثا على ركبتيه أمام الفارس البانس وقال والدموع في عينيه : « سيدي دورن دار! أي ابن عمّي العزيز جداً ، لقد فعلت ما أمرتني به في اليوم المشؤوم لهزيمتنا ، وانتزعت منك القلب على خير وجه استطعته ، دون أن أترك في الصدر أية فدرة منه ، ومسحته بمنديل من الدنتلة ، ورحلت الي فرنسا بعد أن وضعت جثمانك في قلب الأرض وأنا أذرف العبرات ما يكفي لغسيل يدي وتنظيفها من الدم الذي صرّجها حين فتّشت في أحشائك والدليل على ما أقول لك ، أي ابن عمّي العزيز وروحي ، أنّه في أوّل قرية مرتت بها وأنا خارج من وادي رونصفال وضعت بعض الملح على قلبك ، حتّى لا تفسد رائحته ويمكن تقديمه الي السيدة بلرما التي هي ، مثلك أنت ، وأنا ، وجواديانا سانسك ، والدونيا رويديرا وبناتها السبع ، وإبنتي أختها وكثيرين غيرهم من أصدقائك ومعارفك ، ممسوكة بالسحر في هذا القصر بواسطة الحكيم ملان ، منذ سنوات عديدة ، وعلى الرغم من أنّه قد مرّت على هذا خمسمائة سنة فإنه لم يمّت واحد منّا ، ولا ينقصنا غير رويديرا وبناتها وبنتي أختها ، اللواتي يكيّن باستمرار ومن باب العطف حولهن ملان الي بكر تسمى في عالم الأحياء وفي اقليم المنتشا باسم برك رويديرا ، والبنات السبع يملكن ملك اسبانيا أمّا بنتا الأخت فيملكهما فرسان طريقة موقرة جداً ، تسمّى طريقة القديس يوحنا أمّا جواديانا (الوادي اليانع) سانسك ، الذي لم يكف عن النوح على نهايتك الفاجعة ، فقد حوّل الي نهر يحمل اسمه ، لكن حين وصلت أمواجه الي سطح الأرض ، وأبصر شمس العالم الآخر فإن أسفه على تركك قد جعله يغوص من جديد في أحشاء الأرض ، لكن لمّا كان من الممكن أن يترك مجراه الطبيعي ، فإنه يتبدى ، من موضع الي موضع على مسافات يتبدى للشمس والناس . والبرك التي حدثت عنها تزيد في مياهه ، وبها وبكثير

غيرها مما يتلقى في مسيره ، يدخل بجلال في البرتغال . لكن في أي موضع تريض بمجره فإنه يتبدى أبدأ عن حزنه وأسفه ، لأنه يستكبر أن يغذي من مياه الأسماك الفاخرة الرقيقة ، والأسماك التي تغذيها غليظة لا طعم لها ، تختلف تماماً عن سمك نهر تاجه الذهبي . وما أقوله لك الآن ، يا ابن العم العزيز ، قلته لك من قبل مائة مرة ، ولما كنت لاتجيبني فإني أتصور إما أنك لا تصدقني أو أنك لا تسمعنني ، والله يعلم ما يسببه هذا لي من ضيق وألم . ومع ذلك فإني أريد أن أخبرك بنبا أن لم يواس ألمك ؛ فهو على الأقل لن يزيده ، أعلم أن أمامك (افتح عينيك تراه) ذاك الفارس المشهور دون كيخوته دلا منتشا ، الذي تنبأ له الحكيم مرلان بالكثير من الأشياء ، وقد بعث بمجد أعظم مما كان في الماضي ، الفروسية الجواله ، المنسية اليوم . وربما حدث ، بواسطته ، أن يزول الانسحار عنا ، لأن المغامرات الكبرى محفوظة للناس العظام . فقال دورندار بصوت ضعيف شاك : « إذا لم يحدث هذا يا ابن عمي ، فصر جميل ولنفتنط^(١) الكوتشينه » . ولما أتم هذه الكلمات تلفت جانباً ، وغرق في الصمت .

« ومع ذلك سمعت صيحات عالية ، وشكايات وتنهدات عميقة ، فأدركت رأسي ، ومن خلال أسوار من البلور شاهدت في قاعة أخرى موكباً مؤلفاً من فتيات جميلات على صفتين ، وكن مجلات بالحداد ، وعلى رؤوسهن عمام بيض على طريقة الأتراك (المسلمين) . ووراء الصفتين أقبلت سيدة تدل مشيتها على أنها ذات مرتبة رفيعة . وكانت تلبس السواد هي الأخرى ، وعليها نقاب أبيض طويل جداً بحيث كان ينجر على الأرض ، وكانت عمامتها أكبر بمرتين من عمامات الباقيات ، وكان حاجباها متماسين وأنفها أفتس وفمها واسعاً ، وشفتاها ملونتين ، وأسنانها واضحة سيئة التصفيف ، ولكتها بيض كاللوز المقشور ، وكانت تحمل في يدها قماشاً رقيقاً جداً ، كان فيه ، بقدر ما تمكنت من الحكم ، قلب من لحم مومياء لأنه كان جافاً متيبساً . فقال مونتسينوس أن كل هؤلاء النسوة كن وصيفات عند دورندار ويلرما ، وهن مسحورات مثل سيدهن ، والأخيرة التي كانت تحمل في يديها القلب الملفوف هي بلرما نفسها ، التي كانت تسير في هذا الموكب مع وصيفاتها أربعة أيام في الأسبوع ، وهي تنشد أو بالأحرى تبكي على جثمان ابن عمها وقلبه المتيبس ، وأضاف أنها إذا بدت لي قبيحة ، أو أقل جمالاً مما اشتهر عنها ، فالسبب في هذا الإنسحار ، كما يدل على ذلك شحوب لونها وغرور عينيها مما لا يمكن أن يعزى الى التوعكات الدورية الخاصة

(١) هذا تعبير يستخدم للدلالة على أنه مادام لا علاج للأمر فالأفضل أن نسلم الأمور .

بالنساء ، لأنها منذ وقت طويل لم تعد تأتيها العادة ، بل الى الألم المتجدد من المنظر القاسي الذي يذكّرها في كل لحظة بالنهاية الفاجعة لعاشقتها البائس . ولولا هذا لما كادت أن تعدلها في الجمال والطف والأناقة دلثنيا دل توبوسو العظيمة ، ذات الشهرة الواسعة في هذه الناحية بل وفي العالم كله . فقلت له : « قف هنا يا سيد مونتسينوس : قص حكايته كما يجب ، وعليك أن تعرف أن كل مقارنة كريهة . إن المنقطعة النظير دلثنيا هي من هي ، والسيدة بلرما هي من هي ، أو من كانت . فلندع هذا . فأجابني مونتسينوس : « عفواً ياسيد دون كيخوته ، أعترف بأنّي أسأت التعبير حين قلت إن دلثنيا لا تكاد تعدلها . كان يكفي أن يذكر لي أحد أنك فارسها ، إذن لكنت عضضت لساني قبل أن أقارنها بغيرها حتى ولا باللواتي في السماء نفسها » .

وعند هذه الكلمات هدأت ، ونسيت تلك المقارنة المهينة .

ـ فقاطعه سنشو قائلاً : « سيدي ، إني مندهش لأنك لم تنقص على هذا العجوز لتطحن أضلاعه أو تنتزع لحيته دون أن تترك فيه شعرة واحدة » . ـ فقال دون كيخوته : « لا يا صاحبي سنشو ما كان يخلق بي أن أفعل هذا ، لأننا ملزمون جميعاً بتوقير الشيوخ ، سواء أكانوا فرساناً أو لم يكونوا ، خصوصاً إذا كانوا مسحورين . وأنا أعلم أيضاً أننا لا ندين بعضنا بعضاً بشيء بسبب الأسئلة والأجوبة التي تتبادلها فيما بيننا » .

فقال ابن العم : « لكن كيف استطعت في هذه المدة القليلة التي بقيتها في الكهف ، أن ترى كل هذه الأشياء وتتناقش كل هذه المناقشات الطويلة ؟ » فسأل دون كيخوته : كم من الزمن بقيت إذن في الكهف ؟ فأجاب سنشو : « أكثر من ساعة بقليل » . فقال دون كيخوته هذا غير ممكن ، لأنني رأيت الليل والنهار ثلاث مرّات : حتّى أنني وفقاً لحسابي ، أقمت ثلاثة أيّام في هذه المناطق تحت الأرض ، المجهولة للفنانين من بني الإنسان » . فقال سنشو : « لا بد أنك على حق يا مولاي ، إذ مادام كل ما حدث لك قد تمّ بالسحر ، فمن الجائز أن ما بدا لنا ساعة ، لنا نحن ، يبدو ثلاثة أيّام وثلاث ليال هناك في تلك المواضع » . فقال دون كيخوته : « هذا محتمل » . ـ فقال ابن العم : « لكن يا سيدي ، ألم تأكل شيئاً طوال كل تلك المدة ؟ » ـ فأجاب دون كيخوته : « ولا لقمة واحدة ، ولم أكن في حاجة الى ذلك ، بل ولم أفكر في الطعام » .

فقال ابن العم : « وهل المسحورون يأكلون ؟ » فقال دون كيخوته : « كلا إنهم لا يأكلون ، وليست عندهم حاجة لإرضائها ، وإن كانت اللحية ـ حسب الرأي الشائع ـ والشعر والأظافر تنمو » . فسأله سنشو : « وهل ينامون ؟ » فقال دون كيخوته : « أبداً ، فطول

الأيام الثلاثة التي مكثتها بينهم لم يغمض لأحد منهم جفن ، ولا لي أنا . - فقال سنشو : « هذا ما يبرّر المثل الذي يقول : أخبرني من تصاحب أخبرك من أنت . لقد وجدت نفسك بين مسحورين يسهرون ويصومون فتصوم وتسهر مثلهم . أليس هذا عجيباً ؟ لكن إغفر لي يا مولاي إذا قلت لك هذا : ليتوقني الله (وكدت أقول ليأخذني الشيطان) إذا كنت أصدق كلمة واحدة من كل ماقلت » . فقال ابن العم : « ولماذا إذن ؟ أظن أن السيد دون كيخوته يكذب ؟ وحتى لو أراد ذلك أفكان في وسعه أن يخترع كل هذه الأساطير في كل هذا الوقت القصير ؟ » . - فأجاب سنشو : « أنا لا أعتقد أن مولاي يكذب » . فقال الفارس (دون كيخوته) : « فماذا تعتقد إذن ؟ » فقال سنشو : « أنا أعتقد أن مرلان ، أو السحرة الذين سحروا كل الجماعة التي تقول أنك رأيتهما هناك ، قد دستوا في محك ، بالسحر ، كل الحكايات التي رويتها لنا أو التي بقي عليك أن ترويها » . - فأجاب دون كيخوته : « هذا الأمر ممكن ، ومع ذلك فإن كل ماحكيت له كما قد رأيته بعيني ، ولمسته بيدي . وماذا ستقول إذن إذا أضفت أنه - بين عدد لاينتهي من العجائب التي أرايتها مونتسينوس ، وسأرويها لك على مهل أثناء السفر ، لأن الكثير منها لا ينتسب الى هذا البلد ، أقول إن من بين هذه العجائب أراي ثلاث فلاحات كن يقفزن ويحجلن مثل الماعز في تلك المروج الناعمة ، وأني تعرفت على إحداهن دلثنيا دل توبوسو المنقطعة النظير ، والفلاحتان الأخريان كانتا الفلاحتين نفسيهما اللتين كانت في صحبتها وتحدثنا اليهما ونحن خارجان من توبوسو ؟ وقد سألت مونتسينوس هل يعرفهن ، فأجاب بالنفي ، قائلاً أنهن لابد أن تكن سيدات عظيمات مسحورات ، لأنهن لم يشاهدن إلا منذ أيام قليلة في هذا المروج ، وأنه ليس لي أن أدهش ، لأنه يوجد في هذا المكان نفسه كثيرات من سيدات القرون الماضية والعصر الحاضر ، وهن مسحورات تحت أشكال في غاية الغرابة ، وقد تعرف من بينهن الملكة جينيفر ودونيا ككتانيونه التي قدمت الخمر للانصلو حين عاد من بريثاني » .

ولما سمع سنشو مولاه يتكلم عن الفلاحة ، ظن أنه سيفقد عقله أو يموت من الرغبة في الضحك ، فهو وحده الذي كان يعرف انسحار دلثنيا المزعوم والذي كان من اختراعه هو وشهده وهو بنفسه ، فتيقن تماماً أن مولاه فقد عقله وصار مجنوناً من كل ناحية . وقال لمولاه : « أي سيدي العزيز ، لقد نزلت الى العالم الآخر في ساعة نحس ، وفي يوم أنحس ، ومن المؤسف جداً أنك التقيت بالسيد مونتسينوس الذي أطار صوابك . لقد كنت هنا في حال حسنة ، بتمام عقلك ، كما وهبك إياه الله ، تنطق بعبارات حكيمة ، وتسدي نصائح في كل خطوة ، لا كما أنت الآن تهرف بتخريفات هي أبعد ما يتصور الخيال . » - فأجاب دون

كيخوته : «إني أعرفك يا سنشو ، ولهذا لا أقيم أي وزن لكلماتك .» فرد عليه سنشو : «ولا أنا أقيم أي وزن لكلماتك أنت . إضربني ، أقتلني من أجل ما قلته لك أو ما أريد أن أقوله ، إذا لم ترد أنت ، نعم أنت ، أن تصلح لقتك : لكن قل لي ، بينما نحن في سلام ، كيف وبأية علامة تعرفت سيدتك ؟ وإذا كنت قد كلمتها ، فماذا قلت لها ؟ وبماذا أجبتك ؟» - فقال دون كيوخوته : «تعرفتها لأنها كانت تلبس الثياب نفسها التي كانت تلبسها حينما أريتنيها أنت ، وقد كلمتها ، لكنها بدلا من أن تجيب أدارت لي كتفيها وهربت بسرعة حتى ان السهم نفسه لم يكن ليلحق بها . وأردت الجري وراءها ، لكن مونتسينوس صرفني عن ذلك قائلا إن محاولتي ستذهب سدى ، ثم أن اللحظة التي يجب علي فيها أن أرجع إلى العالم الآخر (الدنيا) قد اقتربت . وأضاف أنه مع الزمن سأخبر كيف يزول الانسحار عنه هو وبلرما ودورندار والآخرين . لكن ما أحنيني أكثر من غيره في كل ما رأيت ولاحظت هناك في ذلك المكان ، هو أنه بينما كان مونتسينوس يتكلم معي ، اقتربت مني إحدى رفيقتي دلثينا المسكينة دون أن أراها قادمة ، وقالت لي بصوت خفيض ، والدموع في عينيها ، وفي حالة اضطراب تام : «سيدي ، ان سيدتي دلثينا دل توبوسو تقبل يدك ، وترجو أن توافيها بأخبارك ، انها الآن في حاجة ماسة ، وتستحلفك بالراح أن تقرضها مبلغ ستة ريالات ، أو ما تستطيع اقراضه ، على هذه التنورة القطنية الجديدة التي ألبسها : وهي تعدك بشرفها أن تردها إليك بسرعة» . وقد دهشت كل الدهشة من هذه الرسالة الغريبة ، فالتفت إلى مونتسينوس وقلت له : «هل من الممكن أن يشعر المسحورون بالحاجة ؟ فأجابني : «سيدي ، ما يسمى بالحاجة يشعر بها في كل مكان ، ولا يفلت منها حتى المسحورون ، وما دامت السيدة دلثينا تطلب منك ستة ريالات ، والرهن حسن ، فإني أنصحك بأن تقرضها هذا المبلغ ، إذ لا بد أنها في ميسيس الحاجة إليه .» فقلت له : «إني لا أريد رهنا ، ولن أعطيها ستة ريالات ، إذ ليس معي غير أربعة .» وكانت هذه ، يا سنشو ، هي تلك التي أعطيتها ذات يوم لإعطاء الصدقات للفقراء الذين ألغاهم في الطريق . فأعطيت الفتاة الأربعة ريالات وقلت لها : «يا عزيزتي ، أخبري سيدتك أنه لا شيء يؤلمني مثل الأحزان التي تعانيتها ، وبودي لو كنت فوكار^(١) لأعالج الأمر ، ولكني لن أنعم بالصحة والراحة طالما بقيت محروما من رؤية طلعتها الجميلة ومن حديثها الشائق الحكيم ؛ ولهذا أتوسل إليها بكل خضوع أن تتنازل ليراهما خادماها الأسير وفارسها الفقير ، وأنها في

(١) آل فوكار : كانوا تجارا أغنياء في أوجسبورج بألمانيا ، وأصلهم من كونستانس ، وكانت قروضهم تمتد الى كل أوروبا ، وبخاصة أسبانيا .

اللحظة التي يكون الأمر أبعد ما يكون عن ذهنها ستسمع أنني نذرت نذرا شبيها بنذر
مركيز منتوا ، حين قرر أن ينتقم لابن أخيه بودوان لما وجده يموت على الجبل ، وهذا النذر
هو ألا يأكل خبزا على مفرش ، وسائر الالتزامات المعتادة ، قبل أن ينتقم له . وأنا أيضا
سأنذر بالآلة أتوقف ، وأن أذرع أرجاء العالم السبعة ، بلهفة أكبر من لهفة ولي العهد دون
بدرودي برتغال ، حتى أخرجها من انسحارها . « فأجابت الفتاة : « هذا واجبك قبل سيدتي ،
وثم واجبات أخرى كثيرة عليك أن تؤديها لها » ، وأخذت الأربعة ريالات ، وبدلا من أن
تحيي تحية الاحترام ، وثبت وثبة سعدت بها ست أقدام على الأقل في الهواء » .
فصاح سنشو : يا إلهي! هل من الممكن سماع مثل هذه الأشياء ، وهل للمسحرة
والسحر كل هذه القدرة على تحويل عقل مولاي إلى مثل هذا الجنون ؟ مولاي ، مولاي! عد
إلى صوابك ، ثب إلى رشدك ، وصونا لشرفك لا تصدق شيئا من كل هذه التخريفات التي
تنزع عقلك .

فأجاب دون كيخوته ، سنشو ، إن تعلقك بي هو الذي يجعلك تتكلم هكذا ، ولما كنت
لم تجرب شيئا من أمور هذا العالم ، فإن ما يشكل صعوبة يبدو لك مستحيلا ، ولكن سيأتي
الوقت ، كما قلت لك ، الذي فيه أروي لك بعض مشاهداتي هناك ، وستجعلك تصدق تلك
التي رويتها لك الآن ، والتي لا تحتمل حقيقتها أي شك أو مناقشة .

الفصل الرابع والعشرون

وفيه آلاف من الترهات غير المقبولة ولكنها ضرورية
من أجل الفهم الصحيح لهذا التاريخ الكبير

من ترجم هذا التاريخ الكبير عن الأصل الذي ألفه مؤلفه الأول سيدي حامد بن الأيل يقول إنه حين وصل إلى الفصل الخاص بمغامرة كهف مونتسينوس وجد على هامش المخطوط التأملات التالية ، مكتوبة بخط حامد نفسه : « لا أستطيع أن أتصور ولا أن أقتنع أن المغامرات الموصوفة في الفصل السابق قد وقعت فعلا للشجاع دون كيخوته ، لأنه حتى الآن كانت كل مغامراته محتملة وممكنة ، أما مغامرة الكهف فلا سبيل إلى عدها صحيحة لأنها تتجاوز حدود العقل . ومع ذلك فمن المستحيل أن نفترض أن دون كيخوته قد كذب ، وهو أصدق النبلاء وأنبل الفرسان في عصره ، ولا يكذب كذبة مهما رشق بالسهام . وألاحظ أيضا أنه يروي هذه المغامرة بأدق التفاصيل ، ولم يكن من الممكن أن يكون قد ألف في هذا الوقت القليل خرافة بهذا التعقيد . فإن بدت كاذبة منحولة ، فلا أملك في هذا شيئا ، وليس الخطأ خطأي ، وأنا أوردها من غير أن أؤكد أنها صحيحة أو كاذبة . وأنت أيها القارئ ، بوصفك إنسانا فطنا ، أحكم عليها كما يحلو لك ، فلا أملك في الأمر شيئا وهم يؤكدون مع ذلك أن دون كيخوته ، عند احتضاره ، تنصل من هذه المغامرة ، وقال انه تخيلها لأنها بدت له تتناسب تماما مع كل تلك التي قرأ عنها في كتبه . » وبعد تقرير هذا ، يستمر المؤلف على النحو التالي :

ودهمش ابن العم هو الآخر من جرأة سنشو پنثا وصبر دون كيخوته عليه ، وقدر أن التسامح وصفاء المزاج عند هذا الأخير نشأ عن اغتباطه لمشاهدة سيدته دلثنيا ، وإن كانت مسحورة ، وإلا لولا هذا لاستحق سنشو على كلامه أن يطحن بضربات العصا ، لأنه لم يحترم سيده . وقال ابن العم مخاطبا دون كيخوته :

« إني يا سيدي أعد هذا اليوم قد أحسن الانتفاع به ، لأنني اكتسبت فيه أربعة أمور :

الأول معرفة سيادتك ، وهو أمر أعده شرفا عظيما ، والثاني هو أنني عرفت ما يحتويه كهف مونتسينوس ، وتحولات جوادايايا وبرك رويديرا ، وهذا سيفيدني في «أوفيدوس الأسباني» الذي اشتغل الآن بتأليفه ، والثالث هو اكتشافي لقدم عهد ورق اللعب ، إذ لا بد أنه كان مستعملا في زمان الامبراطور شرلمان ، إذا كان لنا أن نحكم بحسب الكلمات التي سمعت دوراندار يقولها حين صاح بعد محادثته مع مونتسينوس : «صبر جميل ، ولنفنت الكوتشينة» . وهذا التعبير لا يمكن أن يكون قد تعلمه وهو مسحور ، إذن لا بد أن ذلك كان ، أي معرفته بهذه التعبير ، في عهد إقامته في فرنسا ، أيام حكم الامبراطور شرلمان . وهذا الاكتشاف مناسب لي جدا في الكتاب الآخر الذي أولفه ، وهو «ملحق لپوليدر فرجيل» ، عن اختراعات القدماء ، لأنني أعتقد أنه أغفل في هذا الكتاب أن يذكر أصل الكوتشينة . ولهذا سأسد هذا النقص وهو أمر بالغ الأهمية ، خصوصا حين أستند إلى رواية رجل جاد صادق مثل السيد دورندار . والأمر الرابع هو أنني أعرف الآن بيقين أين يقع منبع نهر جوادايايا (الوادي البانع) ، وهو أمر كان مجهولا حتى اليوم» .

فقال دون كيخوته : أنت على صواب ، لكنني أود أن أعرف إلى من تنوي أن تهدي كتبك ، على فرض أنه سيسمح لك بطبعها ، وهو أمر أشك فيه كثيرا .

فقال ابن العم : إن أسبانيا لا تخلو من السادة والعظماء الذين يمكن إهداؤها إليهم . فقال دون كيخوته : إنهم ليسوا كثيرين ، لا لأنهم لا يستحقون كلهم تقريبا هذا الإهداء ، ولكن لأنهم يرفضون قبوله ، حتى لا يقرأوا بما يدينون به لعمل المؤلفين وأدبهم . ولكنني أعرف مع ذلك أميرا يمكن أن يعوض نقيصة الآخرين ، مع مزايا كبيرة لو فصلتها هنا لأثرت حسد أسخى القلوب^(١) . لكن لنوغل هذا الحديث إلى فرصة أنسب ، ولنبحث أين يمكن أن تمضي الليل .

فقال ابن العم : أنا أعرف غير بعيد عن هنا صومعة يسكنها راهب كان ، فيما يقال ، جنديا ، وقد اشتهر بأنه مسيحي صالح ، محسن ، حكيم . وبالقرب من صومعته بنى بيتا وإن يكن صغيرا فسيسعنا .

فسأله سنشو : هل عند هذا الراهب دجاج ؟

فقال دون كيخوته : قليل من الرهبان هم الذين ليس عندهم دجاج ، لأن رهبان اليوم لا يشبهون رهبان الصحارى في مصر ، الذين كانوا يتدثرون بسعف النخيل ولا يأكلون غير

(١) الأمير الذي يشير إليه تراثتس هنا هو ، من غير شك ، كونت ليموس ، الذي أهدى إليه القسم الثاني من «دون كيخوته» .

الجدور . ولا أقصد من هذا أن أقول لأن هؤلاء كانوا صالحين فإن الآخرين طالحون ، وإنما أريد فقط أن أفهمكم أن زهادات اليوم لا تقترب من تقشف وقساوة زهادات الماضي . لكنهم مع ذلك جميعا طيبون ، أو هذا على الأقل رأيي فيهم ، وما دامت كل الأوضاع مقلوبة فإن المنافق الذي يدعي التقوى أقل ضررا من الخاطئ صراحة وعلائية .

وفي هذه اللحظة أبصروا قادما عليهم رجلا ماشيا على قدميه بخطى سريعة ، وهو يضرب بغلا محملا بالرماح والحراش ، يسير أمامه . ولما اقترب منهم حياهم دون أن يقف . فقال له دون كيخوته : أيها الرجل الطيب ، توقف قليلا ، فإنك تمشي أسرع مما يريد بـغلك . فأجاب : « سيدي لا أستطيع الوقوف فإن الأسلحة التي تراها يجب استعمالها غدا ، ولهذا فإنني مضطر إلى الإسراع . وداعا ! وإذا أردت أن تعرف مصيرها ، فإنني أنوي التوقف وقضاء الليل في الفندق الذي في أعلى الصومعة ، وستجديني هناك ، وسأروي لك العجائب . لكن ، وداعا مرة أخرى . » ثم دفع بغله ، دون أن يترك لدون كيخوته الفرصة ليسأله عن هذه العجائب ما هي ، ولما كان هذا الأخير طلعة يريد أن يعرف دائما أشياء جديدة فقد صمم أن يتابع طريقه لينام في الفندق ، دون التوقف عند الصومعة ، حيث كان ابن العم يفضل أن يقضي الليل . فأخذ ثلاثتهم طريقهم إلى الفندق ، ومروا بالصومعة قبل المساء بقليل . فاقترح ابن العم على دون كيخوته التوقف قليلا لشرب كأس خمر . وفي الحال أدار سنشو العنان ناحية الصومعة وتابعه الاخران . ولكن يشاء الحظ ألا يكون الراهب موجودا في الصومعة ، وإنما وجدوا خادمتهم : فسألها نبيذا من أفخر النبيذ ، فأجابت بأن سيدها ليس عنده نبيذ ، أما إذا أرادوا ماء ، بـشمن بخس ، فأنها تعطيتهم عن طيب قلب . فقال سنشو : « إذا كنت أريد ماء فعلى الطريق آبار أستطيع أن أروى منها عطشي . أهـ أي عرس كمتشوا أي وفرة بيت دون ديبجوا كم مرة سأسف عليك في حياتي ! » .

فتركوا الصومعة ، وتقدموا ناحية الفندق . وعلى مسافة قليلة التقوا بشاب كان يمشي الهوينا ، فبلغوه بسهولة ، وكان يحمل على كتفه سيفاً ، في طرفه علق حزمة تحتوي من غير شك ، على حاجياته ومعطفه وبعض الأقمصة ، وكان يلبس صدرية من القطيفة ، ووشاحات من الساتان ، وفوقهما القميص ، وكانت جواربه من الحرير ، وحذاءه مربعا ، على حسب « موضة » القصر ، وبدأ أنه في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ، وكان وجهه سمحا ، نشط السير ، وكان يمشي وهو يغني السجديات ليبدد ملل الطريق . ولما صار بالقرب منهم ، أتم غناء الأغنية التالية التي حفظها ابن العم عن ظهر قلب :

إلى الحرب تقتادني حاجتي ولو عندي المال ما خضتها

وكان دون كيخوته أول من كلمه ، وقال له : « مسافر أنت خفيف الحمل يا سيدي ، أهذه هواية ؟ وأين أنت إذن ذاهب ؟ » فقال الشاب : « الحرارة والفقر هما اللذان يجعلانني أمشي هكذا بهذا اللباس ، إني ذاهب إلى الحرب . » - فقال دون كيخوته : « أما عن الحرارة فهذا جائز ، لكن الفقر ؟ » - فأجاب الشاب : « سيدي ، إني أحمل في هذه الحزمة ثبانات من القطيفة شبيهة بالصدريّة ، فلو أفسدتها في الطريق ، فإنها لن تجملني في المدينة ، وليس معي من المال ما أشتري به غيرها ، فلهذا السبب وحتى لا أشعر بالحر فإنني ألبس هذا اللبس حتى ألحق بفرق المشاة التي تبعد عشرين فرسخا من هنا ، وسأخطر فيها جنديا . هنالك لن تعوزني عربة لوضع حاجياتي فيها إلى حين الوصول إلى ميناء الإبحار الذي قيل لي أنه ميناء قرطاجنة (أسبانيا) . وأنا أفضل أن يكون الملك مولاي ، وأن أخدمه في الحرب ، لا أن أكون أي مأفون في قصره . »

فقال ابن العم : لكن ألم تستفد من بعض المزايا ؟

فأجاب الشاب : لا شك أنني لو كنت خدمت عظيما في إسبانيا ، أو شخصا ذا أهمية ، لكنت استفدت ، وهذا هو ما ينتج عن خدمة النبلاء : من غرفة الاستقبال يصبح المرء حامل علم أو نقيب ، أو يحصل على معاش جيد ، لكنني أنا المسكين لم أخدم غير صعاليك ، مفلسين ، بأجر زهيد ، ينفق نصفه في تنشية الياقة ، وستكون إحدى المعجزات أن يقدر خادم هؤلاء الناس أن يدخر شيئا .

فسأله دون كيخوته : لكن قل لي يا صاحبي ، أمن الممكن أنه طوال كل مدة خدمتك لم تحصل على أي كسوة ؟

فأجاب الشاب : أعطوني مرتين ، لكن كما أنه ينزع اللباس الديني من أولئك الذين يتركون الخدمة الدينية قبل رسمهم وتعاد إليهم ملابسهم ، فكذلك خلعت سادتي الكسوتين اللتين أعطيتني إياهما للتباهي حين عادوا إلى بيوتهم بعد أن أنهوا أعمالهم في القصر . فقال دون كيخوته : يا لها من كرازة^(١) كما يقول الإيطاليون . ومع كل هذا فينبغي أن تعد من حسن حظك أن تغادر البلاط بهذه النية الحسنة . إذ لا يوجد على الأرض شيء أكثر تشريفا ، وفي الوقت نفسه أكثر مكسبا ، من خدمة الله أولا والملك ثانيا ، الذي هو مولانا

(١) الجملة قالها بالإيطالية في الأصل .

الطبيعي ، خصوصاً في مهنة السلاح التي يكتسب المرء إن لم يكن أموالاً أكثر فعلى الأقل شرفاً أعظم مما تأتي به مهنة الآداب ، كما قلت ذلك مراراً ، لأنه على الرغم من أن الآداب ربما قد أفادت مناصب أكثر من السلاح ، ومع ذلك فإن رجال هذه الطبقة الأخيرة فيهم شيء أشرف وأمع يعطيهم الميزة على الآخرين . احفظ جيداً ما أنا قائلة لك ، وستكون أرائني ذات فائدة كبيرة لك ، وتنفعك عزاء في عملك أكبر . أبعد عن فكرك المصائب التي يمكن أن تقع لك . وأسوؤها الموت ، ولكنه أشرفها ، وعليك أن تنظر إليه على أنه أعظم النعم . سنل يوليوس قيصر ذات يوم ، وهو الامبراطور الروماني الباسل ، أي موت أفضل . فقال الموت غير المتوقع ، الموت الأشد مفاجأة ولا شك أن جوابه كان جواب رجل وثني غريب عن معرفة الله الحق ، لكنه مع ذلك أحسن الجواب ، لأنه نحى جانبا كل المخاوف الإنسانية .

افرض أنك قتلت في أول هجوم ، أما بالنار ، أو بانفجار لغم ، فماذا يهم ؟ إنه دائماً موت ونهاية عمر . وفي رأي تيرانتوس أن الجندي الذي يموت في المعركة أفضل من ذلك الذي ينجو بالفرار ، وأن من يطيع بكل دقة قائده ورؤسائه هو الأجدر بالتقدير ، وأشرف له أن يستروح البارود من أن يستروح المسك . وإذا فاجأته الشيخوخة في هذا العمل النبيل ، وإن كان مغطى بالجراح ، أعرج ، مبتوراً ، فلن يكون بغير شرف ، ولا يمكن الفقران يحط من قدره ، لأن البحث جارٍ ، الآن عن توفير وسائل المعونة والعيش للجنود القدماء ، المبتورين . والواقع أنه من غير الإنسانية أن يعاملوا معاملة الزنوج ، الذين تطلق حريتهم حين يصبحون عجوزين ولا يستطيعون الخدمة بعد فيتركون بيت أسيادهم بلقب أحرار ويصبحون عبيداً للجوع الذي لا يستطيعون التخلص منه إلا بالموت . ولا أريد الآن أن أقول لك أكثر من ذلك ، لكن اركب ورائي ، واصحبني حتى الفندق . وسنأكل معاً ، وغداً تتابع طريقك . وأرجو أن يوفقك الله لما فيه الخير بقدر ما يتكافأ مع مشروعك الشريف .

فوافق الخادم (الشاب) على اقتراح مصاحبته حتى الفندق ، لكنه لم يرض ابداً أن يركب وراءه... ولكن سنشو تمتع في نفسه : « يا لله ! هل من المعقول أن رجلاً يقول مثل هذه الأشياء الجميلة الحكيمة ، يدعى أنه شاهد كل تلك المحاولات التي رواها عن كهف مونتينوس ؟ » ووصلوا الفندق عند اقتراب الليل ، وكان شعور سنشو بالرضا غير قليل حين رأى أن مولاه قد عده فندقاً ، وليس قصرأ ، كما كانت عادته . ولم يكادوا يدخلون حتى سأل دون كيهوته عن الرجل صاحب الرماح ، فقال صاحب الفندق أنه في الاسطبل مشغول بالعناية ببغله . واقتاد ابن العم سنشو ركوبهم إلى هناك وحرصوا على أن يعطوا روئيتانته خير مكان وخير مفرش في الاسطبل .

الفصل الخامس والعشرون

وفيه تروى مغامرة نهيق الحمام، والقصة اللطيفة الخاصة
باللاعب بالعرائس، مع التكهّنات الخليقة بالذكر
التي قالها النسناس المتكهن

كان دون كيخوته متلهفاً لمعرفة العجائب التي أعلن عنها الرجل الذي كان يقود حمل السلاح . فراح يبحث عنه في المكان الذي أشار إليه صاحب الفندق ، ولما وجده رجاء أن يفي بوعده ويروي له ما سأله عنه أثناء الطريق . فأجاب هذا الرجل : « يا سيدي الطيب ، ان رواية هذه العجائب لا يمكن أن تتم ونحن وقوف هنا وفي لحظة ، دعني أتم إعطاء العليقة لبغلي وسأروي لك أموراً رائعة » . فقال دون كيخوته « عن طيب خاطر ، بل وأريد أن أساعدك » . وفي الوقت نفسه أخذ دون كيخوته يغربل الفول ، وينظف الطوالة ، وهذا التواضع ألزم الرجل بأن يروي له عن رضا ما سأله عنه . فجلسا الواحد الى جانب الآخر على دكة من الحجر وبدأ قائد البغل قصته ، ويسمع له ابن العم ، والشاب الخادم ، وسنشو پنتا ، وصاحب الفندق .

« ستعلمون يا سادة أنه في قرية على مسافة أربعة فراسخ ونصف من هنا كان هناك ناظر فقد حماره بمكيدة من خادمته ، وقام عبثاً بالبحث المتواصل عنه للعثور عليه . ومضى خمسة عشر يوماً ، فيما يظن ، وذات صباح كان هذا الناظر في الميدان العام ، فقال له أحد زملائه : « أيها الزميل ، أعطني حلواناً ، فقد عثر على حمارك » . فأجاب الناظر : « أعدك وعداً صادقاً بحلوان ، لكن أين رأيته ؟ » فقال الزميل : « في الغابة هذا الصباح ، كان بغير برذعة ولا خطام ، وهزيراً بحيث يثير الشفقة . وقد حاولت مطاردته أمامي لأعيده اليك ، لكنه صار متوحشاً ، شريراً ، حتى أنني حين اقتربت منه هرب واختبأ في الجبل . فان شئت أن نذهب معاً للبحث عنه ، فدعني أقتد حماري الى البيت ، وسأعود في الحال » .

فأجاب الآخر : « سيسرني هذا كثيراً ، وخدمة بخدمة ، واعتمد علي » .

هكذا على الأقل يروي الحكاية من عرفوها . وأخيراً ذهب الناظران إلى الغابة ، مشياً على الأقدام ، للبحث عن الحمار حيث ظنا العثور عليه ، لكنهما لم يجدها هناك ، ولا في النواحي المجاورة . ولما وجدوا أن تعبهما بغير فائدة قال من أبصره للآخر : « يا زميلي ، عندي فكرة ، لا شك في أنها ستمكننا من العثور على هذا الحيوان ، حتى لو كان مختبئاً لا في داخل الغابة ، بل في حشايها الأرض . اني أحسن التهييق تماماً ، فإن كنت تقدر على التهييق ولو قليلاً نجحت خطتنا » . فقال الآخر : « كيف ، ولو قليلاً ؟ اعلم اذن أن أحداً لا يفوقني فيه ، ولا أخشى حتى من الحمير » . فقال الأول : « هذا ما سنراه . تابع هذه الناحية من الغابة ، وأنا أتابع الناحية الأخرى ، وبهذا نُدور دورة : أنت تنهق من ناحيتك ، وأنا أنهق من ناحيتي ، ومن المستحيل الا نسمعا الحمار ، ولا يجيبنا ، اذا كان في الغابة » . فقال الآخر : « يا زميلي هذه فكرة رائعة وجديرة بعقلك » .

ثم انفصلا ، وراح كل من ناحيته . شاءت الصدفة أن يأخذا في التهييق في وقت واحد ، فهرع كل منهما ، مخدوعاً بصياح الآخر ، ومعتقداً أن الحمار ظهر . فلما رأى كلاهما صاحبه قال أحدهما : « أمن الممكن الا يكون ما سمعته ينهق هو حماري ؟ » فأجاب الآخر : « انه أنا » . فقال الأول : « الحق يا زميلي اني لا أميز بينك وبين الحمار فيما يتعلق بالتهيق ، وأعترف لك بأنني لم أسمع نهيقاً بهذا الإتقان » . فأجاب الآخر : « هذا المديح أنسب لك مني ، فبحق الله الذي خلقتني أنت تستطيع منافسة بل والتغلب على أبرع حمار . إن صوتك مليء ، مسنود ، موزون ، والاستناقات عديدة ومتنوعة ، وبالجملة فإنني أعترف بهزيمتي ، وأسلم لك الجائزة » . فقال صاحب الحمار : « ما دمت تقول هذا ، فإنني سأقدر نفسي أكثر من ذي قبل ، وأعتقد أنني أعرف شيئاً . لقد كنت أظن أن عندي موهبة ما ، ولكنني لم أحسب أنني بغلت درجة الإتقان التي تقول عنها » . فقال الآخر : « أعترف يا زميلي إذن أن في العالم مواهب مدفونة ، أو أسية استخدامها من جانب أولئك الذين لا يعرفون كيف يستفيدون منها على الوجه الأتم » . فقال الأول : « إن مواهبنا لا يمكن أن تفيدنا إلا في حالة مثل هذه التي نحن فيها الآن ، بل حتى في هذه الحالة نرجو الله أن تكون لها فائدة » .

فانفصلا مرة أخرى ، وبدأ في التهييق ، وفي كل لحظة كانا ينخدعان ويلتقيان ، حتى أنهما اتفقا على أن يكررا صيحاتهما مرتين متواليتين حتى لا يخطئا . وبهذه التنهيقات المزدوجة تجولوا في كل الغابة ، - دون أن يظهر الحمار أو تصدر عنه إشارة حياة . وأنى له

هذا والحيوان المسكين قد وجدوه في أعماق الغابة قد أكلته الذئاب! ولما رآه صاحبه صاح : « لقد دهشت لأنه لم يرد علي ؛ ومن المؤكد أنه لو لم يمت لأخذ في النهيق وإلا لما كان حمارا . ولكن ، يا زميلي ، بعد أن سمعتك تنهق عن طيب خاطر ، فإني لا آسف على تعبتي ، وإن كنت وجدت دابتي ميتة » . فأجاب الآخر : « ليكن ، لأنه إذا كان رئيس الدير يغني جيدا ، فإن الراهب لا يقل عنه » .

وعادا إلى قريتهما حزنيين مبوحين . ورويا لأصحابهما وجيرانهما ومعارفهما ما وقع لهما في بحثهما عن الحمار ، مبالغاً كل منهما في إطرأ ملكة زميله على النهيق . وانتشرت هذه الحكاية في القرى المجاورة . وإذا بالشیطان ، وعينه لا تغفل أبدا ، ويلذ له أن يبذر الشقاق في كل مكان ، وأن يثير المنازعات على أتفه الأمور ، عمل عمله بحيث أنه حين يلقي سكان القرى المجاورة واحدا من قريتنا ، يأخذون فورا في النهيق ليسخروا من نظارنا . واشترك الأطفال في هذه العملية ، وكان كل شياطين الجحيم قد شاركوا بنصيب . وانتشرت هذه السخرية من قرية إلى قرية ، وصار أهل قريتنا يعرفون بهذا النهيق اللعين ، مثل الزوج بين البيض . فحنقوا لهذا حنقا شديدا حتى أنهم كثيرا ما خرجوا كالجيش للهجوم على الساخرين منهم ، دون أن يستطيع الملك ولا العدالة ولا الخوف ولا العار أن يمنعهم . واعتقد أنهم غدا أو بعد غد سيخرجون للهجوم على أهل قرية تبعد بمسافة فرسخين عن قريتنا ، وهم أشد أهالي القرى سخرية منا ، وحتى يكونوا مسلحين خير تسليح فإني اشتريت الرماح والحراب التي شاهدتها . تلك هي العجائب التي أردت أن أقصها عليك ، فإن لم تجدها كذلك ، فإني لا أعرف غيرها » . وهكذا انتهى هذا الرجل من رواية حكايته .

وفي تلك اللحظة دخل رجل يلبس جلد الوعل والسراويل والجوارب والصدريّة - في الفندق ، وقال : « يا صاحب الفندق هل عندك مكان ؟ ها هوذا النسناس المتكهن ، ومنظر تحرير مليساندره » . فقال صاحب الفندق : « آه! هل أنت المعلم بطرس ؟ سنقضي سهرة جميلة » . وقد نسي أن أقول لك أن المعلم بطرس هذا كان يحمل على عينه اليسرى رباطا من التافتا يغطي نصف وجهه ، كما لو كان مريضا . وتابع صاحب الفندق كلامه قائلا : « أهلا وسهلا ، يا معلم بطرس . لكن أين النسناس والمسرح ؟ إني لا أراهما » . فأجاب : سيكونان هنا بعد لحظة ؛ لقد سبقت لأعرف هل نستطيع المبيت هنا » فقال صاحب الفندق : « آه يا معلم بطرس ، إذا اقتضى الأمر طردت دوق ألبا واستقبلتك أنت ؛ أحضر النسناس والمسرح ؛ إن في فندقي ناسا يدفعون الكثير من أجل مناظر الواحد ومهارة الآخر » . فقال الرجل ذو الرباط : « الحمد لله! وسأخفض الأسعار ، وما دمت سأعوض عن المصروفات ،

فسأكون راضيا . وسأتي بالعربة التي فيها النسناس والمسرح » . وفي الوقت نفسه خرج من الفندق وسأل دون كيخوته صاحب الفندق من يكون المعلم بطرس هذا وما النسناس والمسرح فأجاب صاحب الفندق « سيدي! إن هذا الرجل لاعب بالعرائس شهير يتجول منذ زمن طويل في كل منتشا أرغون ؛ ويحمل معه مسرحا يمثل مليساندره وقد خلصها دون جايثيروس ، وهي حكاية من أجمل الحكايات وخيرها تمثيلا مما شوهد منذ زمن بعيد في هذا الإقليم . ومعه أيضا نسناس ، هو أبرع نسناس عرف ؛ إن سألته عن شيء أصغى إلى ما تقول . ثم وثب على كتف صاحبه ، واقترب من أذنه ، وهمس فيها بالجواب ، فيرده صاحبه بصوت عال ؛ ويجيب عن الأمور الماضية خيرا مما يجيب عن المستقبل ؛ وإذا لم يكن يرد دائما ، فإنه لا يخطئ أبدا ، مما يجعل المرء يظن أن الشيطان في جسمه . وكل سؤال أجرتة ريلان ، إذا حصل المرء على جواب من النسناس ، أو بالأحرى من المعلم الذي يتكلم بالنيابة عنه ؛ ولهذا يعتقد أن المعلم بطرس غني جدا . إنه رجل لطيف ، وأيسر الرفقة ، ويعيش عيشة كلها حبور وسرور ؛ ويتكلم كسنة أشخاص ، ويشرب كائني عشر . وكل هذا على نفقة لسانه ، ونسناسه ، ومسرحه » .

وفي هذه اللحظة دخل المعلم بطرس تتبعه العربة التي وضع فيها المسرح والنسناس . وهو نسناس كبير ، بغير ذنب ، ومؤخرته من اللبد ، وملامحه حسنة . ولم يكد دون كيخوته يلمحه حتى قال له : « سيدي المتكهن ، أخبرنا عن بختنا . ماذا سيقع لنا غدا ؟ ها هما ريلان » . وفي الوقت نفسه أشار إلى سنشو ليعطي ريلان للمعلم . فقال بطرس ، وهو يتكلم بالنيابة عن النسناس : « إن هذا الحيوان لا ينبئ عن المستقبل ؛ بل يعرف الماضي وشيئا قليلا من الحاضر » . فقال سنشو : « لا ، أنا لا أعطي فلسا لأعرف ماذا وقع لي ؛ لأنه من ذا الذي يعرف ذلك خيرا مني أنا ؟ ومن الغفلة التامة أن أدفع شيئا لأعرف ما أعرفه بالفعل . لكن ما دمت تعرف الحاضر ، ها هما ريلاني ، قل لي ، أيها النسناس الصغير الجميل ، ماذا تفعل وتقول الآن تريزه بنتا ، زوجتي ؟ » لكن بطرس لم يشأ أن يأخذ النقود . قائلا إنه لم يعتد أخذ الأجرة قبل العمل . وضرب بيده اليمنى ، على كتفه اليسرى نمربتين ، فوثب عليه النسناس في الحال . وأخذ يهمس في أذن صاحبه ، وهو يقضم أسنانه ؛ وبقي الزمن الكافي لتلاوة « صلاة » ، ثم نزل بخفة على الأرض . وفي الحال تقدم المعلم بطرس ناحية دون كيخوته ، وركع أمامه ، وقبل ساقيه وقال « سيدي! إنني أقبل هذين الساقين وكأنني ألمس أعمدة هرقل ، أيها المجدد الشهير للفروسية الجواله التي نسيت منذ زمن بعيد! أيها الفارس دون كيخوته دلا منتشا الذي لا يفني حقه من الثناء مادح! يا سند

الضعفاء ، ومعين من يسقطون ، وذراع من سقطوا وعزاء كل المحزونين! فدهش دون كيخوته كل الدهشة ، وخجل سنشو ، وأرتج على ابن العم ، ودهش الخادم الشاب ، وفغر الرجل صاحب النهيق فاه من الدهشة ، وصاحب الفندق تحير ، وبالجمله فإن جميع الذين سمعوا المعلم بطرس ماتوا من الفزع . فاستأنف المعلم بطرس كلامه قائلاً : وأنت ، أي سنشو وبنثا الطيب ، يا خير سانس لأعظم فارس ، إفرح : فإن الطيبة تريزه في صحة وعافية ، وهي تفصص الآن رطلا من التيل ، وللتدليل على هذا أقول أن بجوارها جرة مكسورة الفوهة ، مليئة بالنبيذ ، بها تسلي نفسها أثناء الشغل . - فقال سنشو : « يا لله! أنا أصدق هذا بغير عناء ، لأنها امرأة ناضجة ، ولو لم تكن غيورا لما استبدلت بها أندندونا الماردة التي كانت ، بحسب ما يقول مولاي ، امرأة كاملة وربة بيت صالحة . وتريزي من اولئك اللواتي لا يحرمن أنفسهن من شيء ، حتى لو كان ذلك على حساب ورتتها » . فقال دون كيخوته : « الآن نستطيع أن نقول أن من قرأ كثيرا وسافر كثيرا يرى ويعرف الكثير . من كان يستطيع إقناعي بأنه توجد نسانيس تتكهن وتحزر ، كما شاهدت الان ؟ نعم يا سادتي ، أنا دون كيخوته نفسه الذي ذكره هذا الحيوان الطيب ، لكنه بالغ في إطراني من غير شك . وأنا بما أنا أحمد السماء لأنها أعطتني قلبا طيبا ، وبرأتني بحيث أكون متأهبا دائما لفعل الخير ، دون أن أؤذي أحدا » . فقال الخادم الشاب : « لو كان معي نقود لالتمست من سيادة النسناس أن يخبرني بما سيحدث لي في رحلتي » . فقال المعلم بطرس واقفا : « لقد قلت لكم من قبل أن هذا الحيوان لا يجيب عن المستقبل ، وإلا لما كنتم في حاجة إلى المال ما دتمتم في صحبة السيد دون كيخوته ، وأنا من أجله مستعد لنسيان كل مصالح المادية ، والآن لكي أؤدي له ما يجب علي ، وللترويح عنه ، سأنصب مسرحي وأريه لجميع من في الفندق ، دون أن يدفعوا شيئا » . ولدى سماع هذه الكلمات عين صاحب الفندق - وهو فرح مسرور - المكان الذي يمكن نصب المسرح فيه ، وتم هذا في الحال . ولم يكن دون كيخوته راضيا كل الرضا عن تكهنات النسناس ، لأنه بدا له من غير الطبيعي أن يعرف حيوان من هذا النوع الحاضر أو الماضي . وبينما كان المسرح يعد ، انسحب إلى زاوية في الاسطبل هو وسنشو حيث قال له دون أن يسمعه أحد : « يا صاحبي! لقد فكرت جيدا في براعة هذا النسناس المدهشة ، أما عن نفسي فأنا لا أشك في أن المعلم بطرس هذا ، صاحبه ، قد عقد ميثاقا صريحا أو ضمنيا مع الشيطان » . - فأجاب سنشو : « إذا كانت العجينة غليظة ومن صنع الشيطان ، فلا بد أن تنبعث منها رائحة كريهة ، لكن فيم تفيده هذه العجائن ؟ فقال دون كيخوته : « أنت لا تفهمني يا سنشو ، إنني لا أكلمك عن

العجيين : أقصد أن أقول أنه لا بد قد عقد اتفاقا ما مع الشيطان ، ليعطي هذه الموهبة للنسناس ، ابتغاء اغناء المعلم ، وحين يصبح هذا غنيا ، يبيع روحه للشيطان ، وهذا هو كل ما يرجوه هذا العدو لبني الإنسان . وما يؤيد هذا في نظري هو أن النسناس لا يخبر الا عن الماضي والحاضر ، وعلم الشيطان لا يمتد إلى ما بعد ذلك ، فهو لا يستطيع أن يعرف المستقبل ، إلا بالتخمين ، وفي أحيان قليلة فقط ، لأن الله هو وحده الذي يعرف الأزمنة ، وبالنسبة إليه كل شيء حاضر ، وليس عنده ماض ولا مستقبل . ولما كان الأمر هكذا ، فمن الواضح أن النسناس لا يتكلم إلا بواسطة الشيطان ، واني مندهش جدا من أنه لم يتهمة أحد حتى الان أمام الديوان المقدس ، ولم يأمر بفحصه لمعرفة بفضل أية قوة هو يتكهن ، لأنه لا شك في أن هذا النسناس ليس عالما بالنجوم ، ولا يستطيع هو ولا معلمه أن يرتب الأشكال التي تسمى طوابع النجوم ، وقد انتشرت اليوم في أسبانيا بحيث لا توجد امرأة ولا خادم ولا إسكافي لا يشتغل في ترتيب هذه الأشكال مثل الشايب ذي ورقة البرسيم ، أو ذي المربعات ، وهم بهذا يفسدون ، بجهلهم وأكاذيبهم ، حقيقة العلم الرائعة . وقد علمت أن سيدة طلبت يوما من أحد هؤلاء العرافين هل تحبل كليتهما الصغيرة ، وكم من الجراء تلد ، وماذا سيكون لونها . فأجاب العراف ، بعد أن رسم أشكاله ، إن الكلبة ستلد ثلاثة جراء ، جرو أخضر ، وجرو أحمر ، والثالث مختلط الألوان ، بشرط أن يتم التلقيح بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة في النهار أو في الليل ، في يوم إثنين أو يوم سبت ، والذي حدث هو أن الكلبة ماتت من سوء الهضم بعد يومين ، وكان هذا العراف مشهورا بأنه عراف ماهر ، شأنه شأن كل العرافين في الناحية » .

فقال سنشو : « سيدي! ولكنني مع ذلك أريد منك أن تقول للمعلم بطرس أن يسأل نسناسه هل كل ما شاهدته في كهف مونتينوس صحيح ، لأنني أعتقد ، واعتذرتي فمن ذلك ، إنه أكاذيب وأوهام ، أو على الأقل رؤى أحلام . » - فقال دون كيخوته : « يجوز ، وسأفعل ما تنصح به ، وإن كنت أشعر بشيء من التأنيب » .

وفي تلك اللحظة جاء المعلم بطرس إلى دون كيخوته وقال له إن المسرح معد ، ولا ينتظرون غيره . فأنبأه دون كيخوته بفكرته ، وطلب منه أن يسأل في الحال نسناسه هل بعض الأمور التي رآها في كهف مونتينوس صحيحة أو كاذبة ، وأضاف أنها بدت له بين بين . فذهب بطرس - دون أن يجيبه - وأحضر نسناسه ، ثم قال له : « سيدي النسناس! هذا الفارس يريد أن يعرف هل بعض الأمور التي رآها في كهف يقال له مونتينوس ، صحيحة أو زائفة » . ثم أشار الإشارة المعتادة : فوثب النسناس على كتفه ، وبدأ أنه يهمس في أذنه :

وقال بطرس : « النسناس يقول إن جزءاً مما شاهدته زائف ، والجزء الآخر محتمل : هذا كل ما يستطيع أن يقوله . فإذا شئت أن تعرف المزيد ، فإنه سيستطيع الإجابة يوم الجمعة القادم ، عن كل ما تسأله عنه ، أما الآن فإن حصّة التكهن قد انتهت ولن تعود إلا يوم الجمعة القادم » .

فقال سنشو : أولم أقل لك يا مولاي أنني لا أستطيع أن أتصور أن ما قلت إنك شاهدته في ذلك الكهف هو صحيح^(١) ، ولا حتى نصفه ؟

فأجاب دون كيخوته : الزمان سيعلمك يا سنشو : إنه يكشف كل شيء ، ولا يدع شيئاً لا يظهره في وضوح النهار ، حتى لو اختبأ في مركز الأرض . لكن لنُدع هذا الآن ، ولنذهب لمشاهدة مسرح الرجل الطيب المعلم بطرس هذا : لا بد أنه شيء جديد طريف . فقال المعلم بطرس : شيء ؟ كيف ! إن مسرحي يحتوي أكثر من ستين ألف شيء . وأقول لك يا سيد دون كيخوته ، أنك ستري مناظر من أجمل مناظر الدنيا التمثيلية ، وصدق الأفعال ، لا الكلام . والآن هيا بنا . الوقت متأخر ، وعندنا الكثير لنقوله ، والكثير لنفعله ، والكثير لنعرضه .

فتبعه دون كيخوته وسنشو إلى الغرفة التي نصب فيها المسرح ، وكان مضاء من كل ناحية بشموع كثيرة صغيرة . ووقف بطرس وراء الستارة لأنه هو الذي يحرك العرائس . وفي مقدمة المسرح صبي صغير يشرح ، ويفسر كل الحكاية ، وييده عصا ، يشير بها إلى الأشياء . واحتل سنشو ودون كيخوته والخدام الشاب وابن العم خير الأماكن ، وكل الآخرين الذين كانوا في الفندق جلسوا أو ظلوا واقفين أمام المسرح ، وبدأ الصبي الصغير يشرح ما سترأه في الفصل التالي .

(١) كان هذا النوع منتشرًا في إسبانيا في عهد ثربانتس ليس فقط في القرى بل وفي المدن ، وكان يطلق عليه اسم « صوانات المجانب » Retables de maravillas .

الفصل السادس والعشرون

استمرار المغامرة اللطيفة للاعب العرائس وأمر أخرى من المؤكد أنها لطيفة

سكت الجميع ، أهل صور وأهل طروادة ، أعني أن كل الذين كانوا يتفرجون على المسرح انتظروا في صمت رواية المفسر (الصبي) ، وإذا بهم يسمعون ، خلف الستارة ، ضجة عظيمة للأبواق والطبول وهجمات المدفعية ، وبعد ذلك قال الصبي ، - سادتي! إن التاريخ الصحيح الذي تشرف بتقديمه اليكم مستمد ، كلمة فكلمة ، من الأخبار الفرنسية والقصص الأسبانية ، التي على لسان كل الناس ، وحتى الأطفال . وستشاهدون فيها كيف أن السيد دون جايفيروس خلص زوجته مليساندرة ، التي كانت أسيرة في اسبانيا في قبضة المسلمين ، في مدينة سنسونية ، وهو اسم مدينة سرقسطة آنذاك . ولاحظوا يا سادة كيف يلعب دون جايفيروس لعبة المناضد ، ناسيا مليساندرة . وهذا الشخص الذي ترون التاج على رأسه والصولجان في يده هو الوالد المظنون لمليساندرة الجميلة ، الامبراطور شرلمان الذي غضب من عدم اكتراث صهره فجاء لينحي عليه باللائمة والتوبيخ : أنظروا بأي عنف يوبخه ، وكأنه يريد بصولجانه ، أن يضربه ست ضربات ، بل هم يؤكدون فعلا أنه ضربه ضربات محكمة ، وبعد أن يقول له الكثير من الأشياء عن الخطر الذي يتعرض له شرفه بعدم محاولته تخليص زوجته ، يقال أنه أضاف : « قلت لك ما فيه الكفاية ، فخذ حذرك . » - أنظروا الآن ، يا سادة ، كيف يدير الامبراطور شرلمان ظهر كتفيه ويترك دون جايفيروس حائقاً استبد به الغضب فرمى بالعبة بعيدا ، وطلب سلاحه ، والتمس من ابن عمه أورلندو أن يعيره سيفه المسمى دورندال . وها أنتم ترون دون أورلندو يرفض أن يعطيه السيف ، لكنه يعرض عليه أن يرافقه في هذه العملية العسكرية . ولكن الباسل دون جايفيروس ، غاضبا ، يرفض هذا العرض قائلا إنه الكفيل وحده بتحرير زوجته حتى لو كانت أسيرة في مركز الأرض . تسلم ورحل . أنظروا الآن إلى هذا

البرج الذي تبصرونه هناك ، إنه أحد أبراج سرقسطة ، ويسمى اليوم بإسم «الجعفرية» . وهذه السيدة التي تشاهدونها في هذه الشرفة ، لابسة الزي المغربي ، هي مليساندرة المنقطعة النظير ، وكثيرا ما تصعد اليها تنظر إلى طريق فرنسا ، وتتسلى في أسرها ، وهي تفكر في باريس وفي زوجها . أنظروا الآن شيئا جديدا لم ير مثله من قبل ، أنظروا الآن هذا المغربي الذي يسترق الخطى كالذئب ، وإصبعه في فمه ، خلف مليساندرة ، ويفاجئها بقبلة . وانظروا كيف تبصق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، وتشكو وتنوح وتشد شعرها الجميل كما لو كان هو السبب في هذه الإهانة ، وانظروا إلى هذا المغربي الوقور ، في هذا البهو ، إنه مرسليو ، ملك سنسونيه ، الذي شاهد وقاحة المغربي ، فأمر حراسه بأن يقبضوا عليه ، على الرغم من أنه قريبه وخليته ، ويأمر بجلده مائتي جلدة ، وأن ينادي عليه في الشوارع .

وانظروا إلى الحرس يخرج لينفذ الأمر ، على الرغم من أن الجريمة لم ترتكب إلا منذ وقت قصير جدا ، لأنه عند المغاربة لا يوجد استخبار ولا تحقيق أدلة ، كما عندنا . فقاطعه دون كيخوته قائلا : يا ولد ، تابع تاريخك في خط مستقيم ، دون أن تنحرف في طرق جانبية ملتوية ، لإيضاح واقعة ، لا بد غالبا من معلومات وأدلة . فقال المعلم بطرس (من خلف الستارة) السيد (دون كيخوته) على حق ، إفعل ما يقولون ، لا تبد تأملات ، تابع النغم المستوي دون أن تتوقف عند الطباق ، فهو أمر دقيق جدا .

فقال الصبي ، سأفعل .

واستمر الصبي قائلا : « هذا الشكل الذي ترونه على فرس ، وعلى رأسه قلنسوة على الطريقة الجسكوتية ، هو دون جايفيروس نفسه الذي تنتظره زوجته ، وقد انتصف لها من إهانة المغربي العاشق . وهي تكلمه من أعالي البرج ، وهي تحسبه ، وما قالت له مذكور في الرومانشة ، «أيها الفارس ، إذا كنت ذاهبا إلى فرنسا ، فاستعلم عن دون جايفيروس .» ولن أزيد على هذا ، لأن الاسهاب يولد الملل . فيخبرها دون جايفيروس عن هويته ، فتفرح مليساندرة ، مما يدل على أنها تعرفته ، وها هي ذي تريد أن تقفز من الشرفة لتقع على مؤخرة فرس زوجها ، لكن ويا للأسف ! تعلق جونتتها بطرف مدبب في الشرفة ، وظلت معلقة في الهواء ، دون أن تستطيع بلوغ الأرض . لكن أنظروا كم تساعدنا النساء ونحن في أشد الأخطار ، يقترب دون جايفيروس ، ودون أن تزعه الجونلة التي تلبسها يجرها إليه ، وينزلها إلى الأرض . ويلقي بها على مؤخرة فرسه ، ورجلاها على كلا الجانبين مثل الرجال ،

ويوصيها بأن تعانقه بشدة حتى لا تقع ، لأنها لم تتعود ركوب الخيل هكذا . وأنظروا كيف أن سهيل الفرس يشهد على اللذة التي يستشعرها وهو يحمل هذا الحمل اللذيذ العذب ، صاحبه وصاحبه . وأنظروا كيف يستديران ويخرجان من المدينة ويتخذان ، مسرورين ، الطريق إلى باريس . سيروا في سلام ، أيها الزوجان النموذجيان للعشاق الكمل : ولتصلا بالسلامة إلى وطنكما العزيز ، دون أن يعكر سوء الحظ صفو رحلتكم ! ولتشاهدكما عيون أقاربكما وأصدقائكما تقضيان في سلام وهدوء ، سنوات مثل سنوات نسطور ١.

فقال المعلم بطرس : قف هنا ، يا ولد ، ولا تتحمس هكذا ، فإن كل تصنع فاسد .

فلم يرد الصبي ، واستمر قائلاً : « ولا يخلو مكان من متطفلين يتجسسون على كل شيء ، لقد شوهدت مليساندره وهي تنزل من الشرفة وتركب الفرس ، فأبلغوا الملك مرسلينو ، فأمر فوراً بالتنبيه . أنظروا بأية سرعة تنفذ أوامره ، أسمعون صوت النواقيس القائمة في مآذن المساجد ؟ »

فقال دون كيخوته : « على رسلك يا ولد ، إن المعلم بطرس أخطأ فيما يتعلق بالأجراس ، لأنه لا توجد أجراس في مآذن المساجد ، والمغاربة ليس عندهم نواقيس ، بل يستخدمون صنجا ونوعاً من الصفارات يشبه أرغولنا ،

فجعل الأجراس تدق في سنسونية هذا خطأ فاحش » .

فقال المعلم بطرس : بعد أن كف عن دق الأجراس ، أرجوك ألا تلقي بالاً لهذه التفاهات ، وألا تأخذ الأمور بشكل حرفي . ألا ترى آلاف الكوميديات التي تمثل وهي مليئة بألوان الجنون وعدم الاحتمال ؟ ومع ذلك فإنها ناجحة جداً : تسمع ليس فقط بللدة ، بل وبإعجاب . استمر يا ولد ، ودع النقد يقل ما يشاء ، ما دمت أكسب منها ، فلا يهم إذا كانت الأخطاء عديدة مثل ذرات الشمس .

فقال دون كيخوته : أنت على حق .

واستمر المتكلم (الصبي) قائلاً : « انظروا كم يخرج فرسان لامعون من المدينة راكضين وراء المحبين المسيحيين ، وكم من أبواب تصيح ، وكم من صفارات وصيحات وطبول ! إنني أخشى أن يلحقوا بهما ، وأن يعيدوهما موثقين بذيول خيولهم ، وسيكون هذا منظرًا رهيباً » .

ولدى رؤية هذا العدد الهائل من المغاربة في حملة ، وسماع آلات الحرب هذه المدوية ، اعتقد دون كيخوته أنه آن الأوان لنجدة المحبين الهاربين ، ولهذا نهض باندفاع وصاح : « كلا ، إنني لا أسمح في حضوري وطالما كنت حياً بأن يخان فارس شهير ومحـب

شجاع مثل دون جايڤيروس . قفوا أيها الأوغاد الملعين ، كفوا عن مطاردته ، أو استعدوا للقتال » . ثم استل سيفه وانقض على المسرح ، هانجا ثائرا ينهال بضربات شديدة من سيفه على العرائس المغربية ، يحطم بعضها ، وينتزع البعض الآخر ، ويبتتر هذا ، ويقطع أوصال تلك . وأهوى عليها بضربة شديدة من فوق إلى أسفل حتى أنه لولا أن المعلم بطرس ألقى في الركن لطار رأسه هو الآخر مثل قطعة من الخبز . وبج صوت المسكين وهو يصيح : « كف يا سيد دون كيخوته ! إن الذين تجندلهم وتقتلهم ليسوا مغاربة حقيقيين ! بل هم أشكال وتمائيل من العجين . يا لي من مذنب ، لقد خربت بيتي وقضيت على كل ما أملك . » وعلى الرغم من هذه الصيحات فإن دون كيخوته لم يكف عن الضرب طولا وعرضا وبالظهر بضربات شديدة تنهمر كالمطر . وأخيرا وفي أقل مما يحتاجه قول « دعائين » ، ألقى المسرح على الأرض ، وقطع الجبال وحطم كل التماثيل والأشكال ، وجرح الملك مرسلبو جراحا بالغة ، وانشق رأس الامبراطور شرلمان وتواجه إلى نصفين ، وشاع الفزع في كل المشاهدين ، وهرب النسناس إلى سقف البيت ، وارتعدت فرائص ابن العم ، ودهش الخادم الشاب كل الدهشة ، وسنشو نفسه خاف خوفا شديدا حتى أنه بعد العاصفة أقسم أنه لم ير مولاة أبدا في مثل هذا الغضب الشديد .

وبعد أن تحطم كل شيء ، هدا دون كيخوته قليلا وقال : « كنت أود أن يكون هنا كل أولئك الذين ينكرون فائدة الفرسان الجواله للعالم ! أنظروا ، لو لم أكن موجودا في هذا المكان ، فماذا كان سيؤول إليه أمر الطبيب دون جايڤيروس والجميلة مليساندره ؟ لا شك في أنهم كانوا سيقعون الآن في قبضة أولئك الأوغاد الذين كانوا سيسومونهم كل عذاب وإهانة . لتحجى الفروسية الجواله فوق كل ما هو حي على سطح الأرض ! » - فقال المعلم بطرس بصوت شاك نائح : لتحجى ، نعم ، لكن لأمت أنا ، أنا البائس بؤسا أستطيع معه أن أقول مع الملك دون رودريجو : « لقد كنت بالأمس سيد أسبانيا ، أما اليوم فلم يبق ثقب أستطيع أن أقول إنه ملكي . » منذ نصف ساعة فقط ، بل منذ لحظة ، كنت سيدا على ملوك وأباطرة ، وكانت اسطبلاتي مملوءة بعدد لا نهاية له من الخيول ، وكانت خزانتي وأكياس حافلة بما لا نهاية له من أدوات التزيين . أما الآن فأنا فقير ، شحاذ ، محطم ، بائس ، وفوق كل شيء ، ليس عند نسناس ، إذ علي قبل أن أستطيع استرداده أن أعرق حتى أسناني ، وكل هذا يحدث لي بسبب الهياج الجنوني لهذا الفارس الذي يقال عنه أنه حصن اليتامى ، وراد المظالم ، إنه يسدي الخير للآخرين ، أما أنا فيحرمني من نواياه الكريمة ، ليتبارك الله ألف مرة حتى عرش مجده ! لقد كان على الفارس الحزين الطلعة أن يشوه وجوه تماثيلي » .

فقال سنشو پنتا ، وقد تأثر من شكايات المعلم بطرس : « لا تبك يا معلم بطرس ، ولا تتشك هكذا ؛ إنك تذيب قلبي . أعلم أن مولاي دون كيخوته رجل صالح ذو ضمير ، وحين يدرك أنه أصابك بالضرر فإنه سيعوضك عنه ، بل ولصالحك . » - فقال المعلم بطرس : « ما دام السيد دون كيخوته يريد أن يدفع قسما من الأضرار التي أصابني بها ، فإنني سأكون راضيا ، وبيرو ذمته ويريح ضميره : إذ لا نجاة لمن يأخذ مال الغير ضد إرادته ، ولا يرده إليه . » - فقال دون كيخوته : « أنت على حق يا معلم بطرس لكني لا أرى أنني قد أخذت منك شيئا حتى الآن فقال المعلم بطرس : « كيف لم تأخذ شيئا ؟ وهذه الأنقاض على الأرض ، وهذه التماثيل من الذي بددها ، وحطمها ، إن لم يكن قوة ذراعك الذي لا يهزم ؟ والأجسام التي كومتها ، لمن هي إن لم تكن لي أنا ؟ ومم كنت أتعيش إن لم يكن من هذه التماثيل والأشكال ؟ » - فأجاب دون كيخوته : « لقد انتهيت بأن أصدق ما ظننته من قبل مرارا ، وهو أن السحرة الذين يضطهدونني يضعون تحت عيني أشكال الأشياء ، كما هي ، ثم يحولونها كما يريدون ، وإنني لأشهد وأقرر يا سادتي أمامكم جميعا يا من تستمعون إلي ، أنه خيل إلى أن كل ما جرى أمامي كان واقعا يحدث فعلا وحرفيا ، وأن مليساندره كانت هي مليساندره بعينها ، وكذلك دون جافيروس حبيبها ، ومرسلو ملك سنسونية وشرلمان الامبراطور هو بعينه ، وهذا المنظر قد أشعل غضبي ، ولأداء واجبي بوصفي فارسا جوالا ملزما بنجدة المضطهدين ، فعلت بقصد شريف ما رأيتموني أفعله . فإن كان قد حدث عن هذا ضرر ، فليس ذلك ذنبي ، بل ذنب الأشرار الذين يطاردونني ويضطهدونني . ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن غلطي لم ينشأ عن قصد الأضرار ، فإنني أحكم على نفسي بدفع التعويض . فانظر يا معلم بطرس ماذا تطلب تعويضا عن تماثيلك المحطمة ، وأعرض عليك أن أدفعه في الحال بالعملة الأسبانية الصحيحة . » - فقال المعلم بطرس وهو ينحني : « لم أكن أتوقع أقل من هذا من الأمانة المسيحية للباسل دون كيخوته دلا منتشا ، السند الحقيقي ، والحصن الحصين للمحتاجين والمتشردين ، وسيكون صاحبا الفندق حكيمين يقرران قيمة هذه الأشكال والتماثيل المحطمة » .

وتمت الموافقة على هذا العرض ، وقال المعلم بطرس ، وهو يرفع من على الأرض الملك مرسلو ملك سرقسطة ، الذي لم يكن له رأس بعد : « سادتي ! ها أنتم ترون أن هذا الملك لا يمكنه أن يجلس على العرش من جديد ، ولهذا أعتقد ، إلا إذا كان هناك رأي أحسن ، إنه يمكن إعطائي أربعة ريات ونصف تعويضا عن نهايته وموته وتحطيمه »

- فقال دون كيخوته : « موافق » . - فقال المعلم بطرس وهو يشير إلى شرلمان : وعن هذا الرأس المشقوق إلى نصفين ، ليس بالكثير مبلغ خمسة ريات وربع » . - فقال سنشو : « هذا كثير » . - فقال صاحب الفندق : « ليس هذا بكثير ، قيسوا الجرح ، على كل حال لنقل خمسة ريات » . - فقال دون كيخوته : « أعطوه ما يطلب ، فإن ربحا بالزيادة أو النقصان لا يؤثر كثيرا في هذا الاضطراب الشديد . لكن لنسرع ، فالوقت وقت الطعام ، وأنا أشعر بالجوع » . - فقال المعلم بطرس : « أما هذا التمثال الذي ينقصه الأنف وإحدى العينين ، فهو مليساندره الجميلة ، وأنا أطلب تعويضا عنه ، وأنا مستريح الضمير ، مبلغ رياتين واثني عشر مرابطيا . - فقال دون كيخوته : « ستكون من مكاند الشيطان إذا لم تكن مليساندره وزوجها قد وصلا إلى حدود فرنسا ، لأن الفرس الذي كان يحملها بدا أنه كان يطير ولا يجري . ولست أنا الذي يباع له قط على أنه أرنب ، وتقدم إليه مليساندره بدون أنف ، بينما مليساندره الحقيقية توجد في فرنسا ، تستمتع هي وزوجها . ليقنع كل بما عنده ، يا معلم بطرس ، ولنسر في طريق مستقيم بغير عث ولا مكر ، استمر » لكن بطرس لما أدرك أن دون كيخوته يخرف وعلى وشك أن يعود إلى حالته السابقة ، خاف أن يفلت منه ، فقال : « نعم ، ليست هي مليساندره بل إحدى وصيفاتها ، وهكذا فإن ستين مرابطيا تكفي » . وبالطريقة نفسها تم تشمين سائر التماثيل والأشكال المبتورة ، وكان الحكمان يعدلان في الثمن بموافقة الطرفين . وبلغت جملة المبلغ أربعين رياتا وثلاثة أرباع الريال ، فدفعها سنشو في الحال . وطالب بطرس بريالين آخرين تعويضا عن المجهود الذي سبذل في العثور على النسناس . فقال دون كيخوته : « أعطه إياهما ، لا للعثور على النسناس ، بل للشراب على صحتي . وسأعطي مائتين عن طيب خاطر لمن يقول لي بيقين إن دونيا مليساندره والسيد دون جاييفيروس هما الآن في فرنسا بين ذويهما » . - فقال المعلم بطرس : « لا يستطيع أحد أن يخبرنا بهذا خيرا من النسناس ، لكن المصيبة هي في الإمساك به ، لكنني أرجو أن يضطره الجوع وتعلقه بي إلى البحث عني في هذه الليلة . وسيطلع النهار غدا ، وسنرى » .

وأخيرا لما أصلح الضرر ، تعشى الجميع في سلام ، بعضهم مع بعض ، على حساب دون كيخوته الذي كان سخيا جدا . ورحل الرجل ذو الرماح قبل مطلع النهار ، وفي وقت مبكر ودع ابن العم والخادم الشاب دون كيخوته ، فعاد الأول إلى بيته ، وتابع الثاني طريقه ، وأعطاه دون كيخوته اثني عشر رياتا مساعدة . ولم يشأ المعلم بطرس أن يكون له أي شأن مع دون كيخوته ، وهو كان يعرفه تمام المعرفة ، ولهذا استيقظ قبل مطلع

الشمس ، وجمع بقايا مسرحه ، واستعاد نسناسه ، ورحل باحثا ، من ناحيته ، عن مغامرات . وصاحب الفندق ، وكان لا يعرف دون كيخوته ، اندهش من سخائه بقدر ما اندهش من جنونه . وأخيرا دفع له سنشو مبلغا محترما بأمر من مولاه ، وودعه ؛ وفي الساعة الثانية صباحا أخذ السيد والسانس يسلكان طريقهما . ولندعهما يسيران ، ولنرو بعض الخصائص التي تتعلق بهذا التاريخ الخالد الذكر .

الفصل السابع والعشرون

وفيه يذكر من هو المعلم بطرس ونستاسه، وأخفاق دون كيخوته
في مغامرة النهيق التي لم تجر كما اعتقد

سيدي حامد ، مؤلف هذا التاريخ العظيم ، يبدأ هذا الفصل بهذه الكلمات العظيمة :
« إنني أقسم بوصفي مسيحيا كاثوليكي ، الخ » ، ويلاحظ المترجم أن هذه الكلمات ، على
لسان سيدي حامد الذي كان مغربيا ، لا تعني غير أنه كما أن المسيحي الكاثوليكي حين
يقسم ، يقول أو عليه أن يقول الحقيقة ، فكذا سيدي حامد يحلف أنه سيقول الحقيقة فيما
يتعلق بدون كيخوته ، وخصوصا فيما يختص بالمعلم بطرس ونستاسه المتكهن الذي كان
موضوع إعجاب كل الإقليم .

يقول إذن أن الذين قرأوا القسم الأول من هذا التاريخ لا بد أنهم يذكرون شخصا يدعى
خينس دي باسمونه الذي حرره دون كيخوته من بين ما حرر من محكوم عليه بالأشغال
الشاقة ، ولم يلق عن صنيعه الخير هذا غير الأذى من هذا الجنس الفاسد المتعود على
الإجرام . خينس دي باسمونه هذا الذي سماه دون كيخوته باسم خنسيو دي بريرا ، كان هو
الذي سرق حمار سنشو ، ولأنه ، في القسم الأول ، نسي - بسبب غلط من الطابعين - أن
يذكر متى وكيف حدثت هذه السرقة ، فإن كثيرين قد نسبوا إلى فقدان ذاكرة المؤلف ما لم
يحدث إلا عن خطأ في الطباعة . وبالجمل ، فإن خينس سرق الحمار بينما كان سنشو ينام
عليه ، مستخدما الحيلة التي استخدمها برونل ليسرق من سكر بنته ، أثناء حصار البراق ،
فروسه من بين رجليه . وقد استعاد سنشو حمارة بعد ذلك ، كما قلنا . وكان خينس هذا
هاربا من ملاحقة القضاء ، الذي كان يبحث عنه بسبب ما لا نهاية له من الجرائم التي بلغ من
عددها أنه ألف عنها هو نفسه مجلدا ضخما : فقرر إذن أن ينتقل إلى مملكة أرغون ، مخبئا
عينه اليسرى برباط كبير ، واشتغل لاعبا بالعرائس ، وهي مهنة كان يحسنها كما كان
يحسن مهنة صانع المكاييد . فاشترى من نصارى عاندين من المغرب نسناسا علمه القفز

على كتفه ، عند إشارة معينة منه ، والتظاهر بالتكلم في أذنه . ولما تم له هذا فإنه قبل أن يدخل قرية ما لاستعراض ألعاب نسناسه ومسرحه ، كان يستعلم ، بقدر ما يمكن ، عن الأمور التي جرت في هذا المكان ، وعن الأشخاص ، ويضع كل هذه المعلومات الممنوعة في ذاكرته ، ثم يبدأ بعرض مسرحه الذي كان يمثل أحيانا حكاية أو أخرى وكلها سارة ممتعة ومعروفة . حتى إذا انتهى العرض أعلن عن مواهب نسناسه قائلا إنه يحزر الحاضر والماضي ، دون المستقبل ؛ وعن كل جواب كان يتقاضى ريالين ، أو أقل ، حسبما يجس بعض المشاهدين ، ولما كان يدخل أحيانا في بيوت أولئك الذي كان يعرف شئونهم ، وإن لم يكن قد دعى بعد ، فإنه كان يشير بالإشارة المعلومة إلى النسناس ، ثم يقول إن النسناس اكتشف كذا وكذا من الأمور التي كانت مطابقة . وبهذه الحيلة ، حصل على ثقة كبيرة ، وجرى الكل وراءه . وفي أحيان أخرى ، وكان رجلا شاطرا جدا ، كان يؤلف أجوبته بحيث تتناسب مع الأسئلة ، أيا كانت ، ولما لم يفكر أحد في أن يعرف بأية طريقة يمكن نسناسه أن يحزر ، فإنه كان يخدع الجميع ، ويملا جيوبه بالمال المتحصل . فلما دخل الفندق ، تعرف في الحال دون كيخوته وسنشو ؛ فكان من السهل عليه إذن أن يفاجئهم بمفاجأة عظيمة ، ويفاجئ سائر الحاضرين ، ولكنها مفاجئة كادت أن تكلفه غاليا ، وكان مقضيا عليه لو كان دون كيخوته قد خفض يده إلى أسفل قليلا حين قطع رأس الملك مرسلينو ، وحطم كل فرسانه ، كما قلنا في الفصل السابق . وهذا ما كان علينا أن نقوله بشأن المعلم بطرس ونسناسه .

ولنعد إلى دون كيخوته . لما خرج من الفندق قرر أن يزور شواطئ نهر الابررو وكل النواحي المجاورة ، قبل أن يدخل سرقسطة ، لأنه كان لديه متسع من الوقت حتى يحين موعد المباريات ؛ تابع إذن الطريق الكبير وسار طوال يومين دون أن يلقي شيئا يستحق الذكر ؛ ولكن في اليوم الثالث ، بعد أن صعد رابية ، سمع ضجة طبول كبيرة وصياح أبواق وبنادق فظن أولا أن فرقة من الجنود كانت تمر من هذا المكان ، ولكي يشاهدها نخس روثيناته حتى أعلى الرابية هناك رأى عند سفحها أكثر من مائتي شخص مسلحين بأسلحة مختلفة بالرماح ، والقسي ، والبرتجانات^(١) ، والحراب ، والخوازيق ، والتروس وبعض البنادق . فنزل ، واقترب من هذه الفرقة حتى شاهد الأعلام والألوان والشارات ؛ فوجد أن منها علما من الساتان الأبيض ، رسم عليه حمار صغير ، مرفوع الرأس ، فاغرا شذقيه .

(١) البرتجانة « كلمة ايطالية » ، حربة حديثة قاعدتها مزودة بأذنين .

ممدود اللسان ، والخلاصة أنه في موقف حمار ينهق ، وحول الرسم كتبت هذه الكلمات بحروف كبيرة وتؤلف بيتين من الشعر : «لم يكن عبثاً أن نهق كلا العمدين» .

وهذا ذكر دون كيخوته بأن هؤلاء الناس لا بد من القرية التي فيها الناظران اللذان قلدا الحمار : وقال ذلك لسنشو وهو يقرأ له ما هو مكتوب على العلم ، وأضاف إن من روى له الواقعة قد أخطأ ، من غير شك ، حين قال إنهما ناظران ، لأنه يحسب هذا الشعر يبدو أنهما كانا عمدين . فقال سنشو : «مولاي ، يجوز أن يكون الناظران قد صارا مع الزمن عمدين : وهكذا أمكن تلقيبهما بهذين اللقبين ، وعلى كل حال فهذا لا ينقص فتيلاً من صحة الحكاية : عمدين كانا أو ناظرين ، فقد سمعا ينهقان ، وأحدهما يساوي الآخر .»
والخلاصة أنهما اقتنعا بأن قرية قد زحفت على قرية أخرى ، بهياج وإصرار أكثر مما يتوقع من جارتين . فاقتربا دون كيخوته من الفرقة ، على شدة تضايق سنشو ، الذي لم يحبب أبداً مثل هذه المصادمات ، فتلقاها الفلاحون بينهم ، حاسبين أنه محارب من أنصارهم . ورفع دون كيخوته حافة الخوذة عن رضا ، واقترب من الموضوع الذي كان فيه العلم ، وهناك أحاط به أعيان الناحية وتأمّلوا فيه بهذه الدهشة التي يشعر بها كل إنسان حين يراه لأول مرة . فلما شاهداه دون كيخوته مهتمين بتفحصه ، دون أن يفتح واحد منهم فمه بكلمة أو يسأله أي سؤال ، أراد استغلال هذا الصمت ، ولهذا وبصوت مرتفع قال لهم : «سادتي الأعزاء ، أرجوكم ألا تقاطعوا الخطبة التي أود القاءها عليكم ، ولن تستمر أكثر مما ترغبون ، وعند أقل إشارة سأضع خاتماً على فمي ، وعناناً في لساني .»

فاكدوا له جميعاً أنه يستطيع أن يتكلم كما يشاء ، فسيصفون إليه عن طيب خاطر . واستناداً إلى هذا التوكيد ، استأنف دون كيخوته كلامه فقال :

- سادتي! أنا فارس جوال ، ومهنتي هي السلاح ، ومهمتي هي نجدة المساكين والمحتاجين . وأنا أعلم منذ عدة أيام نبأ محتكم والسبب الذي يسلحكم في كل لحظة لتنتقموا من أعدائكم . وقد فكرت طويلاً في قضيتكم وأرى أنكم ، وفقاً لقانون المبارزة ، مخطئون في اعتقادكم أنكم أنتم ، لأن رجلاً فرداً لا يمكن أن يهين شعباً بأسره ، إلا إذا اتهمه بالخيانة ، لأنه حينئذ وهو يجهل من الذي ارتكب هذه الخيانة يمسك بالجمهور ، وعندنا مثل على ذلك في شخص دون ديبجو أوردنيث دي لارا ، الذي اتهم شعب سموره لأنه جهل أن يبيد دولفوس كان هو وحده قاتل ملكه ، فانقض على الجميع : فكان على الجميع إذن أن يرووا وينتقموا للإهانة التي وجهت إليهم . وأنا أعترف مع ذلك بأن السيد دون ديبجو كان طائشاً بعض الشيء ، وتجاوز حدود الاتهام المشروع ، لأنه لا يستطيع

أن يتهم الأموات ، ولا الأطفال الذين لم يولدوا بعد ، ولا المياه ، ولا المحاصيل ، وسائر الأعمال الجنونية التي تشاهد في رسالة تحديه . لكن لندع هذا إن الغضب حين يفيض فلا يمكن أن يردعه والد ولا سيد ولا عنان . فلما كان من المعترف به إذن أن رجلا فردا لا يمكن أن يهين مملكة ، أو جمهورية أو مقاطعة ، أو مدينة ، أو شعبا بأسره ، فمن البين أيضا أنه لا يمكن إجراء الانتقام من مثل هذه الإهانة ، لأنها غير موجودة ؛ وإلا لكان على الكاثوليروسيين^(١) ، والباذنجانيين^(٢) ، والسماكين^(٣) ، والصبايين^(٤) وكل أولئك الذين ينبذهم العامة والأطفال بالألقاب الساخرة أن يتقاتلوا معهم بسبب هذه الألقاب ؛ وكان لابد إذن أن يظل هؤلاء المواطنون الطيبون مسلحين باستمرار يستولون سيوفهم لأقل نزاع . لا ، لا ، الله لا يريد هذا ولا يسمح به . إن العقلاء والحكماء ، والدول الصالحة الحكومات لا تقرر حمل السلاح وامتشاق السيوف ، وتعريض الأشخاص والحيوان ، والأموال إلا لأربعة أسباب ؛ للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ، وللدفاع عن حياتهم ، وهذا أمر يقضي به الشرع الإلهي والقانون الطبيعي ، وللدفاع عن شرفهم وأسرهم وأموالهم ، ورابعا لخدمة الملك ، في حرب عادلة ؛ وإذا شئنا أن نضيف سببا خامسا ، ويمكن أن يعد السبب الثاني ، نقول ؛ وللدفاع عن وطنهم . ويمكن أن ترغم على حمل السلاح ، لكن حمل السلاح بسبب أمور تافهة هي بالأحرى ملح وفكاهات أكثر منها إهانات ، فهذا معناه انعدام العقل والتمييز . وأكثر من هذا ، السعي إلى الانتقام الظالم (لأنه لا يمكن أن يوجد انتقام عادل) هو السير مباشرة ضد الشريعة المقدسة التي ندين بها ، والتي تأمرنا بالإحسان إلى الأعداء ، وحب مبغضينا ، وهو أمر إن بدا أن من العسير اتباعه فإنه ليس عسيرا إلا على أولئك الذين يفضلون الدنيا على الله ، والجسد على الروح . ويسوع المسيح ، الإنسان - إله الحق ، الذي لم يكذب أبدا ولا يمكن أن يكذب وهو شارعنا ، قال إن نيره عذب وحمله خفيف ؛ فهو لا يمكن إذن أن يأمرنا بشيء مستحيل التنفيذ ، وهكذا يا سادتي ، أتم ملزمون ، بناء على الشرائع الإلهية والإنسانية ، بأن تهدنوا أنفسكم» .

(١) نسبة إلى كاثوليروس ، أو كيروس ، وهو لقب نيز به سكان مدينة بلد الوليد ، الذين شنقوا أوغسطين دي كثيا - بحسب شرح ديولونه ، أو نسبة إلى Canzoloros «محبو الكسرولات» بحسب منديثابل .

(٢) لقب نيز به سكان طليطلة لإكثارهم من أكل الباذنجان .

(٣) على سكان مدريد ، بسبب حكاية مشهورة عن حوت نهر اغثنارس .

(٤) لقب على سكان Getafe بحسب شرح ديولونه ، أو مدينة أشبيلية بحسب منديثابل «طبعة فاكس ، مدريد سنة ١٩٤٢» ، لكثرة إنتاج الصابون فيها .

فقال سنشو في نفسه : أخذني الشيطان إن لم يكن مولاي لاهوتيا ، وعلى الأقل إذا لم يكن كذلك ، فإنه يشبه اللاهوتي شبه البيضة للبيضة . »
وتوقف دون كيخوته قليلا ، ولما رأى أنهم يصغون إليه بانتباه عاطف ، كان على وشك أن يستأنف كلامه ، لما أن أنشأ سنشو ، الرقيق ، وقد رأى مولاه يسكت ، أنشأ هو يقول :

- « إن مولاي ، السيد دون كيخوته دلا منتشا ، المسمى سابقاً بإسم الفارس الحزين الطلعة ، والآن يسمى فارس الأسود ، رجل نزيه عاقل ، إنه يعرف اللاتينية والأسبانية مثل أي حامل بكالوريا ، وفي كل ما يقوله وينصح به يسلك مسلك الجندي الحسن ، وهو يعرف عن ظهر قلب كل قوانين وقواعد المبارزة ، وهكذا ليس عندكم أفضل من أن تتبعوا نصيحته ، وإذا أخطأ فعلى وزر ذلك ، وتذكروا خصوصا ما قاله وهو أنه من السذاجة التامة أن يتقاتل الناس من أجل نهيق حمار . وأذكر ، حين كنت صغيرا ، أنني كنت آخذ في النهيق حين يحلو لي ، ودون أن يدعوني أحد إلى ذلك ، بكل لطف ورقة حتى أن جميع حمير قريتنا كانت ترد على صوتي وتتجاوب معه ، ولم أكن مع هذا غير ابن أبي وأمي ، وكلاهما كان محترما جدا في الناحية ، وبالرغم من أنه حسدني على هذه الموهبة أكثر من أربعة من عفاريت القرية ، فإن ذلك لم يجلب إلي أي مكسب ولا مليما واحدا . وحتى تتروا أن ما أقوله صحيح ، انتظروا واسمعوا : إن هذا العلم مثل علم السباحة ، إذا تعلمه المرء مرة لم ينسه أبدا . » وفي الحال رفع يده إلى أنفه وأخذ ينهق بقوة شديدة جعلت كل الأودية تتجاوب بنهيقه ، لكن أحد الذين كانوا بالقرب منه خيل إليه أنه يريد أن يسخر منهم ، فرفع خازوقا كان يحمله في يده وضربه ضربة جندلت سنشو پئشا على الأرض فلما شاهد دون كيخوته ما أصاب سنشو ، انقض والرمح في يده على من ضربه ، لكن حجز بينهما عدد كبير من الناس بحيث لم يستطع أن ينتقم لسائسه . ولما أحس بأن سحابة من الحجارة وآلafa من اللقى وعددا لا يقل عن ذلك من البنادق موجهة ضده ، أدار عنان فرسه فورا ، وابتعد بأسرع ما يمكن أن يعدو روئيناته ، متوسلا إلى الله بكل قلبه أن يخلصه من هذا الخطر ، وهو يظن في كل خطوة أنه سيتلقى رصاصة في أكتافه أو في صدره ، وممسكا أنفاسه في كل لحظة حتى يعرف هل سيلفظها ، لكن الفرقة ، وقد اكتفت برؤيته يهرب ، امتنعت من الاطلاق ، وأنهض سنشو ، ووضع على حماره ، لما أن أفاق قليلا من سقطته ، وتركوه يلحق بمولاه ، ولم يكن في حالة تسمح له بأن يتماسك ويأخذ طريقه ، ولكن الحمار تابع بنفسه أثر روئيناته ولم يكن

يسير بغيره . وبعد أن جرى دون كيخوته مسافة طويلة بفرسه دفعة واحدة ، أدار رأسه ، فشاهد سنشو قادما إليه ، دون أن يطارده أحد فتوقف في الحال لانتظاره . وبقي الفلاحون في الخلاء حتى المساء ، ولما لم يظهر أعداؤهم عادوا أدراجهم فخورين مسرورين . ولو كانوا عرفوا العادة القديمة عند اليونان ، لما قصرُوا في إقامة نصب في هذا المكان .

الفصل الثامن والعشرون

في الأمور التي ذكرها ابن الأيل، وسيعرفها القارىء
لو قرأها بانتباه

إذا هرب شجاع فمعنى هذا أنه اكتشف كميناً ، لأن من الكياسة أن يوفر المرء نفسه
لفرصة أحسن . هذه الحقيقة برهن عليها دون كيخوته ، إذ لم يشأ أن يقف في وجه هيجان
وعداوة الفيلق الغاضب ، فأثر الفرار ، دون أن ينتظر سنشو ، ودون أن يفكر في الخطر الذي
تركه يتعرض له ، وابتعد إلى حيث اعتقد أنه في أمان فتابعه سنشو ، راقداً بخلاف على حماره ،
كما قلنا ، ثم لحق به أخيراً ، ولما عاد نهائياً إلى رشده ، سقط من الحمار عند سنايك
روثيناته ، وهو يلهث محطماً مكسوراً . ونزل دون كيخوته إلى الأرض ليفحص جراحه ، فلما لم
يجد أي جرح ، ووجده سليماً من رأسه حتى أخمص قدميه ، قال له غاضباً : « لقد أسأت اختيار
الوقت للنهيق يا سنشو . وأن وجدت أن من الحكمة أن يتكلم المرء عن الجبل في بيت
مشنوق ؟ ولموسيقى النهيق أي مصاحبة تناسب غير ضربات العصي ؟ أحمد ربك يا سنشو لأنك
لم تعط البركة إلا بعضاً ، وأنت سعيد الحظ لأنهم لم يرسموا عليك علامة الصليب بسيف . »
- فقال سنشو : « لست في حال تسمح لي بالرد عليك ، إذ يبدو لي أنني أتكلم من
أكتافي . لنركب ولنبتعد من هنا . من الآن فصاعداً سأحاذر النهيق ، لأنني لن أكف عن القول
بأن الفرسان الجواله يهربون مثل سائر الناس ، ويتركون سواهم الطيبين محطمين
مطحونين كالقمح ، بين أيدي أعدائهم . » فقال دون كيخوته : « من ينسحب لا يهرب :
وأنت تعلم جيداً يا سنشو أن الشجاعة التي لا يرشدها الفطنة تصبح تهوراً ، وأن نجاحات
المتهور يجب أن تعزى إلى الحظ ، لا إلى شجاعته : ولهذا فأنا أعترف بأنني انسحبت ،
ولكنني لم أهرب ، وفي هذا قد حاكيت كثيراً من الشجعان الذين قدروا أن عليهم أن يوفروا
أنفسهم لمناسبات أفضل . والتواريخ مليئة بأشباه هذه الأمثلة ، ولا أذكرها لك ، لأنها لن
تفيدك فتيلاً ، ولا مزاج عندي لروايتها . »

ركب سنشو حماره ، بمساعدة دون كيخوته ، وكلاهما وصل إلى غابة صغيرة كانت تلمح من رفع فرسخ . وبين الفينة والفينة كان سنشو ينفث أنات عميقة ، وحين كان يسأله مولاه عن السبب في هذه الشكايات المريرة كان يجيب بأنه من شوكة الظهر حتى القفا كان يشعر بالألم يفقده الإحساس . فقال دون كيخوته : « لا شك في أن السبب في هذا الألم راجع إلى أن الخازوق الذي ضربوك به كان قاسيا وواسعا ، ومر على كل أكتافك ، ولهذا تؤلمك ، ولو مرت على مواضع أخرى من بدنك لآلمتكم أيضا . »

فقال سنشو ، الحق يا مولاي أنك تزيل بهذا شكا كبيرا ، وتشرحه لي بعبارات في غاية الوضوح . يا الله! هل كان السبب في ألمي خفيا إلى حد أن أحتاج أن تقول إنني أتألم حيث أصابتني العصا ؟ لو كنت أحس بالألم في كعبي ، لكان من الحزر أن تقول لي السبب ، لكن لا حاجة بالمرء أن يكون ساحرا عظيما ليقول أنني أتألم لأنني ضربت . والحق يا سيدي ومولاي أن ألم الغير لا يمسننا أبدا ، وكل يوم أكتشف شيئا فشيئا ضالة ما علي أن أنتظره من صحبتك ، لأنك إذا كنت قد تركتني في هذه المرة أضرب بالعصا ضربا مبرحا ، فمرة أخرى ومئات المرات سنعود إلى التطويحات وسائر اللطائف ، هذه المرة اقتصر الأمر على أكتافي ، وفي مرة أخرى سيكون الدور على عيني . والأفضل لي - لكنني لست إلا همجيا ، ولن أفعل شيئا مفيدا طوال حياتي - أقول إن الأفضل لي أن أرجع إلى بيتي ، بالقرب من زوجتي وأولادي ، لأربيهم وأطعمهم بما يتفضل الله علي به من الرزق ، بدلا من متابعة سيادتكم في طرقات ودروب ليست بالطرق السليمة ، أشرب شربا سيئا وأكل أكلا أسوأ . إذا أراد المرء النوم ؟ آه ، اختر يا أخي السائس سبع أقدام من الأرض ، وإذا شئت أكثر من ذلك فخذ سبعا أخرى ، ثم تمدد كما تشاء على راحتك . آه! بودي أن أرى أول من اخترع الفروسيّة الجوالّة يحترق ويتحول إلى رماد ، أو على الأقل أول من وافق على أن يكون سائسا لأولئك المغفلين الكبار الذين كانوا فرسانا جوالّة في العصر الماضي! ولا أقول شيئا عن الفرسان الجوالّة في هذا العصر ، إنني أحترمهم ، لأنك واحد منهم ، وأعترف بأنك تعرف أكثر مما يعرف الشيطان ، في كل ما يمكن قوله والتفكير فيه .

فقال دون كيخوته : وأعترف أيضا يا سنشو أنك بينما تتكلم بغير هدى خبط عشواء ، دون أن يمنعك من ذلك أحد ، لا تشعر بأي ألم تكلم إذن يا ولدي ، ما حلال لك الكلام ، وقل كل ما يأتي على لسانك ، بشرط ألا تحس بالألم فأني سأحتمل الملل الذي تحدثه وقاحتك . وإذا كنت تريد العودة إلى زوجتك وأولادك إلى هذا الحد ، فلا قدر الله أن أريد

منعك من هذا! إن معك نقودي ، فاحسب كم من الزمن مر منذ بدء خرجتنا الثالثة ، وانظر ماذا يمكنك ويجب أن تكسبه في أشهر ، وادفع أجرتك لنفسك بنفسك .

فقال سنشو : مولاي ، حين كنت أخدم توماس^(١) كرسكو ، والد حامل البكالوريا سمسون ، الذي تعرفه جيدا ، كان يعطيني دوقتين في الشهر ، إلى جانب الطعام ، لكن معك لا أعرف ماذا يمكن أن أكسب ، وإن كنت أعلم أن سانس الفارس الجوال يشقى أكثر من خادم حراث ، فمهما يكن شغل وتعب هذا فإنه على الأقل حين يأتي الليل يتعشى وينام في سريره ، وهو ما لم أفعله أنا منذ أن خدمتك ، اللهم إلا المرة القصيرة التي أقمناها عند دون ديجو دي ميرانده ، والأكل الشهوي الذي أكلته برغوة قزانات كمتشو ، وما شربته وأكلته ونمته عند باسيل ، وما عدا ذلك فقد نمت على الأرض الحصباء ، والتحفت السماء ، وتعرضت لقاسي الأنواء ، بقطعة جبن وكسر خبز عجفاء ، وشربت من ماء الجداول والتافورات التي مررنا بها أثناء الطريق .

فقال دون كيخوته ، أقر بأن كل ما قلته الآن صحيح ، كم يترأى لك أن أعطيك أكثر من توماس كرسكو ؟

فقال سنشو : يترأى لي أنه بريالين زيادة أكون موفى الأجرة ، هذا فيما يتعلق بأجرة عملي ، أما فيما يتعلق بتعويضني عن الوعد الذي وعدتني به من إعطائي حكم جزيرة ، فيبدو لي من العدل أن تضيف ستة ريالات ، مما يجعل الجملة كلها ثلاثين ريالا .

فقال دون كيخوته ، حسن جدا ، والآن فقد مر على بدء خرجتنا هذه خمسة وعشرون يوما ، فاحسب جيدا ماذا تستحق عنها ، تبعا للأجرة التي حددتها أنت بنفسك ، وادفع لنفسك بنفسك كما قلت لك .

فقال سنشو يا لله! يا مولاي ، كم تخطئ في الحساب! إن الوعد بالجزيرة ينبغي أن يحسب ابتداء من اليوم الذي وعدت فيه إلى الآن .

- وكم من الوقت منذ أن وعدتك ؟

- إذا لم أكن مخطئا في الحساب فقد مر عشرون سنة إلا ثلاثة أيام ، تحت العجز والزيادة .

فضرب دون كيخوته على جبهته وأنشأ في الضحك من كل قلبه وقال : عشرون سنة! مع أننا لم نقض شهرين في كل رحلاتنا في سيرا مورينا وغيرها ، ثم تدعي يا سنشو أنني وعدتك

(١) رأينا في الفصل الثاني من هذا القسم الثاني من دون كيخوته أن ثريباتس يسميه بارتلمي ، لاتوماس ، لكننا رأينا من قبل أمثلة على هذا السهو من جانب ثريباتس .

بالجزيرة منذ عشرين سنة ؟ إنني أرى جيدا أنك تريد استيفاء كل ما معك من أموال في مرتباتك ؛ فإن كانت هذه هي رغبتك ، فكن راضيا ، فإنني أعطيك إياها ، لكن قل لي ، يا مفسد قواعد ولوائح الفروسية الجواله فيما يتعلق بالسواس ، وليبارك الله فيها ؛ وإنني أفضل أن أكون فقيرا وبغير نقود على أن أحتفظ بسائس شرير مثلك . أين رأيت أو قد قرأت أن سائسا التحق بخدمة فارس ، بشرط أن يدفع له مشاهرة أجر خدماته ؟ أدخل ، يا قاطع طريق ؛ انفذ ، يا صعلوك ، غص في البحر المحيط لتواريخ الفروسية ، وإذا وجدت لي سائسا واحدا قال أو فكر فيما قلت ، فإنني أوافق على أن تسمر في جبهتي بالمسمار ، وأن تعطيني أربع ضربات قوية . إذهب ، واستعد حطام حمارك ، وعد إلى بيتك ، ولا أريد منك أن تخطو بعد الآن خطوة معي . أيها الخبز المجحود ، أيتها العودة التي أسى استثمارها ! تتركني حين كنت مهتما بأن أوفر لك الاستقرار وأرقى بك إلى أعلى فتتال اقطاعا على الرغم من زوجتك ؛ تتركني حين كنت قد قررت قرارا راسخا قاطعا ايجابيا أن أجعلك حاكما لأحسن جزيرة في الدنيا ! لقد صدقت حين قلت أن العسل لم يخلق لفم الحمار ؛ وحمارا كنت أنت ، وحمار أنت الآن وحمارا ستكون حتى آخر عمرك ؛ لأنني أعتقد أنك ستموت قبل أن تدرك أنك لست إلا دابة .

وبينما كان دون كيخوته ينهال هكذا بالشتائم والإهانات على سنشو المسكين ، كان هذا يحدث فيه ؛ وبعد قليل قال لمولاه ، والدموع في عينيه وبصوت مرتجف : « نعم يا سيدي . أنت على حق ، وأعترف أنه لا ينقصني لأكون حمارا كاملا غير الذيل ؛ فإن تفضلت بوضعه في ، فسأرى أنه في محله ، وأخدمك كالحمار طوال عمري . أرجو أن تصفح عني ، وترحم شبابي . إنني أعرف القليل من الأمور ؛ وإذا كنت أتكلم كثيرا فإن هذا ضعفا أكثر منه خيلا ؛ لكن من يذنب ويكفر يكل أمره إلى الله . » - فقال دون كيخوته : « لقد دهشت لأنك لم تمزج بكلامك بعض الأمثلة . بودي أن أصفح عنك ، لكن بشرط أن تصلح نفسك ، ولا تظهر أبدا بمظهر النفعي المستغل . تشجع فقط ، واعتمد على وعودي التي وإن تأخر ثمرها فلن يصير مستحيلا . » - فقال سنشو : « سأفعل ذلك إذا استطعت ، وإن كنت محطما خامدا . »

وفي هذه اللحظة دخلوا الغابة . فتمدد دون كيخوته عند قدم شجرة دردار ، وسنشو عند قدم شجرة زان لأن هذه الأشجار ، كسائر الشجر ، لها أقدام وليس لها أيد . وكان الليل مؤلما لسنشو ، لأن الصفاء جعل كدماته محسوسة أكثر . أما دون كيخوته فإنه أمضاه في تأملاته المعتادة . ثم أغمضا جفونهما . وفي الفجر استأنفا طريقهما إلى شواطئ الابرو ، حيث جرى لهما ما سنقرؤه في الفصل التالي .

الفصل التاسع والعشرون

في المغامرة الشهيرة للسفينة المسحورة

سارا طوال يومين ، وبعدهما شاهدا أخيرا شواطئ الابرو . فخفف فيض أمواجه وصفاءها وهي تخبب في مجراها الهادئ الشواطئ الباسمة - تقول خفف هذا كله الهموم المستمرة التي جثمت على صدر دون كيخوته ، وحمل إلى روحه أفكارا غرامية ، فتذكر خصوصا المنظر الذي شاهده في كهف مونتسينوس ، وكان في أعماق قلبه يرى دائما أنه حقيقة ، وإن كان نسناس المعلم بطرس قال إن جزءا من هذا المنظر (أو الرؤية) كاذب ، وعلى الرغم من أن سنشو استمر ينظر إليه على أنه أسطورة . ولما كانا يسيران على طول النهر شاهدا سفينة صغيرة ، بغير مجاذيف ولا أجهزة مربوطة إلى جذع شجرة . فتلفت دون كيخوته في كل ناحية ، ولما لم ير أحدا ، نزل بسرعة عن فرسه ، وأمر سنشو أن ينزل هو الآخر ، وأن يربط الركوبتين في شجرة صنصاف أو جور كانت قائمة هناك . فسأله سنشو عن السبب في هذا العمل ، فأجابه : « إعلم يا سنشو أن هذه السفينة التي تراها تنتظرني ، ولا يمكن أن يكون الأمر بخلاف هذا ، وتدعوني إلى الدخول فيها وركوبها لنجدة فارس ، أو أي شخص مهم ، لا بد أنه واقع في خطر جسيم . ذلك هو العرف في كتب الفروسية ، والسحرة اعتادوا عمل هذا : فحينما يصير الفارس في مأزق شديد بحيث لا يمكن إنقاذه منه إلا بفارس آخر ، وإن كان هذا الأخير بعيدا عنه بمسافة ثلاثة آلاف فرسخ على الأقل ، فإنهم يرفعونه على سحابة أو يرسلون إليه سفينة ، وفي غمضة عين ينقلونه ، إما بالبحر أو في الهواء ، إلى حيث يحتاج إلى نجدة . وهكذا يا سنشو أكرر لك أن هذه السفينة موضوعة هناك لسبب كهذا : وهذا مؤكد تأكد أن الوقت نهار الان . وقبل أن يوافي المساء أربط روئياتته والحمار معا ، ولنبحر على بركة الله ، والله يرشدنا : ولو أراد كل الرهبان الحفاة أن يمنعوني ، فلن أترجع عن الإبحار » .

فقال سنشو : «مولاي! أنت تريد إذن في كل خطوة أن ننساق وراء أوهامك التي يمكن أن تسمى أعمالاً جنونية؟ أما عن نفسي فأني لا أملك إلا طاعتك وأن أحنني رأسي ، لأن المثل يقول : إفعل ما يأمر بك به سيدك ، وتعال لتجلس معه على المائدة . لكن إبراء لضميري يجب علي أن أنبهك إلى أن هذه السفينة لا يبدو لي أنها من أملاك السحرة ، بل هي لصياد في هذا النهر ، إذ يصاد فيه أحسن شابل (صابوغة) في الدنيا .

وربط الدابتين وهو يقول هذا الكلام ، تاركا إياهما ، لشديد أسفه ، إلى حماية ورعاية السحرة . فقال له دون كيخوته لا تحزن ، فإن من يرشدنا في هذه الأماكن النائية يقدر على رعايتهما . فقال سنشو : «مولاي ، أنا لا أفهم كلمة (النائية) هذه ، ولم أسمع أحدا يقولها طول حياتي .»

فقال دون كيخوته : «نائية ، أي بعيدة ، ولكن لا عجب في أنك لا تفهمها ، فأنت لست ملزماً بمعرفة اللاتينية ، مثل بعض الناس الذين يعتقدون أنهم يعرفونها ولا يدركون .» فقال سنشو : «والآن ، وقد ربطت الدابتان ، فماذا بقي علينا أن نفعله؟» فقال دون كيخوته : «رسم علامة الصليب ، ثم رفع المرساة ، أي أن نبحر ونقطع الحبل الذي يربط السفينة» .

وفي الحال وثب في السفينة ، وتبعه سنشو ، وقطع الحبل . وبدأت السفينة تبتعد عن الشاطئ . ولما رأى سنشو أنه بعد بمقدار مترين في وسط الماء ، أخذ يرتجف ، وهو يخشى أن يهلك ، لكن لا شيء ، كان أكثر تأثيراً في نفسه من سماعه حمارة ينهق ، ورؤية روثينانته يبذل جهوداً ليفك قيده فقال له دون كيخوته : «مولاي ، ان الحمار ين من غيابهنا ، بلغته ، وروثينانته يبذل كل ما يستطيع للانفكاك ، والعدو في أثرنا . أي صديقنا العزيزين إبقيا في سلام ، والجنون الذي يبعدنا عنكما سيعيدنا حين يتنبه . ثم أنشأ في البكاء بمرارة» ، فقال له دون كيخوته غاضباً : «وماذا تعتقد أيها المخلوق الجبان؟ لماذا تبكي ، يا شجاعة الزبدة؟ من يطاردك ، ويلاحقك ، يا شجاعة الفأر المنزلي؟ ماذا ينقصك أيها المحتاج ، وسط الفيض؟ لو سمعك إنسان لظنك تصعد عاري القدمين جبال ريفيا ، بينما أنت تجلس على هذه الألواح كأذك أرشيدوق ، مسترخياً ، مسلماً أمرك إلى مجرى هذا النهر العذب الذي سيجمعنا ، في لحظات قليلة ، إلى لجة البحر ، لأننا قطعنا سبعمائة وثمانية فرسخ . ولو كان معي اسطرلاب ، أستطيع أن أقيس به ارتفاع القطب ، لقلت لك بالدقة كم قطعنا من مسافة : فإما أنني لا أفهم شيئاً ، أو نحن قد اجتزنا فعلاً خط الاستواء الذي يقوم على مسافة متساوية من كلا القطبين ، أو على الأقل سنجتازه بعد قليل» .

فسأله سنشو : وإذا تجاوزنا هذا الخط الذي تتكلم عنه ، كم من المسافة نكون قد قطعنا ؟

فقال دون كيخوته : كثيرا ، لأننا نكون قد قطعنا النصف من الثلاثمائة وستين درجة التي تكون محيط الكرة الأرضية والماء ، تبعا لحساب بطليموس ، أعظم جغرافي فلكي ، إذا وصلنا إلى هذا الخط^(١) .

فقال سنشو : مولاي ، أنت تستشهد بشخص لطيف : أحذب ، أبرص ، مع إضافة « ميوس » أو ما لست أدري » . فأخذ دون كيخوته في الضحك من تفسير سنشو لحساب بطليموس الجغرافي الفلكي . فقال له دون كيخوته : « اسمع . من الطرق التي يستخدمها الأسبان ، واولئك يبحرون من قادس إلى الهند الشرقية للتأكد من أنهم تجاوزوا الخط الذي كلمتك عنه هو أن يُفَلَّوْا أجسامهم ، لأنهم إذا تجاوزوه . فإن كل القمل الذي فيهم يموت ، ولا توجد قملة واحدة في السفن ، ولو وجدت لدفع ثمنها بالذهب ففتش في جسمك جيدا ، فإن وجدت فيه شيئا من الأحياء ، فلن يكون ثم أي شك ، وإلا فسيكون هذا دليلا على أننا تجاوزنا ذلك الخط »

فقال سنشو : أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقول ، ومع ذلك فسأقوم بالتجربة التي أشرت بها علي ، وإن كنت لا أشعر بضرورة إلى هذا ، لأنني أرى بعيني رأسي ، أنا لم نبتعد عن الشاطئ أكثر من خمسة أذرع ، ولم نبعد عن المكان الذي تركنا فيه روثيناته والحمار بأكثر من ذراعين ، وعشا أطلع ، وأنا أؤكد لك أننا لا نتقدم إلا بخطوات النمل .

فقال دون كيخوته : قم يا سنشو بالتجربة التي دلتك عليها ، ولا تشغل نفسك بشيء آخر ، فأنت لا تعرف خطوط التعامد ، وخطوط الطول ، وفلك البروج ، وخط الزوال ، والقطبين ، والانقلابين والاستواء ، والكواكب ، والبروج ، والنقط ، والقياسات التي منها تتألف الكرة السماوية والكرة الأرضية ، ولو عرفت كل هذه الأشياء ، أو جزءا منها فقط ، فسترى بوضوح كم قطعنا من خطوط الطول ، واجتزنا من بروج ، وما تركنا خلفنا من مجموعات نجمية ، كما سنترك وراءنا بعد ذلك . وأقول لك مرة أخرى : فتش في جسمك ، وأنا متأكد أنك أنظف من ورقة بيضاء . » وأخيرا تحسس سنشو نفسه ، ثم رفع رأسه وتطلع في موله وقال له : « إما أن التجربة زائفة ، أو نحن لا نزال بعيدين عما تقول » . - فقال

(١) الواقع أن ١٨٠ درجة تصل من قطب إلى قطب ، لا من القطب إلى خط الاستواء . وعدد الدرجات ما بين ابرو وخط الاستواء ٤٠ درجة . ونهر الابرو يسب في البحر الابيض المتوسط ولكن ماذا يهم دون كيخوته من كل هذه الوقائع العلمية المهم هو أن يصل إلى خط الاستواء بأية طريقة!



دون كېخوته وسنشو ینگدان من الغرق عند الطاحونة في مغامرة السفينة المسحورة

دون كيخوته : « كيف!! هل وجدت حشرة ؟ » - فأجاب سنشو : « لا حشرة واحدة ، بل حشرات عديدة . » وفي نفس هز أصابعه ، وغسل يديه في النهر .

وكانت السفينة تسير بهدوء في مجرى الماء ، دون أن يحركها أي عقل سماوي ، ولا أي ساحر ، ولا شيء غير التيار الرقيق الهادئ . وفي هذه اللحظة لمحا طاحونة ماء كبيرة قائمة في وسط النهر . ولم يكد دون كيخوته يلمحها حتى صاح : « أنظر يا صاحبي ، أخيرا عثرنا على المدينة ، والقصر والحصن الذي فيه يوجد ذلك الفارس المضطهد ، وتلك الملكة ، وولية العهد هاتيك ، وتلك الأميرة البائسة ، التي دعيت أنا لنجدتهم » .

فقال سنشو : « عن شيطان أية مدينة أو قصر أو حصن تتكلم إذن يا مولاي ؟ ألا ترى أن هذه طاحونة ماء لطحن القمح ؟ » - فقال دون كيخوته : « أخرس يا سنشو ما يبدو لك أنه طاحونة ليس طاحونة ، ألم أقل لك أن السحرة يغيرون في طبائع الأشياء كما يريدون ؟ لا أنهم يحولونها فعلا ، ولكن في الظاهر فقط ، كما يدل على ذلك تحويل دلتنيا ، ملاذ امالي الوحيد . » ثم بدأت السفينة ، وقد صارت وسط التيار ، تسرع المسير .

وشاهدما الطحانون وأدركوا أنها على وشك أن تدخل بين عجلات الطاحونة ، فهرعوا بعصي طويلة لوقف السفينة ، ولما كانوا جميعا معفرين بالدقيق ، وملابسهم كلها بيضاء ، فقد كانت أشكالهم غريبة . وصاحوا بكل قوة : « إلى أين أنتما ذاهبان أيها الشيطانان ؟ هل أنتما يانسان تريدان الانتحار ؟ أتريدان أن تمزقكما هذه العجلات إربا إربا ؟ » - فقال دون كيخوته : « ألم أقل لك يا سنشو أننا وصلنا في اللحظة التي يجب علي فيها أن أظهر قوة ساعداي ؟ أنظر إلى هؤلاء الأوغاد السفلة الذين جاءوا لمهاجمتي ، وكل هذه الأشباح التي تريد أن تقاوم شجاعتي ، وهذه الأشكال القبيحة الكريهة التي تعبس فينا . انتظروني يا أوغادا » وفي الحال وقف ، وتمدد بطوله وأخذ يهدد الطحانيين . وصاح فيهم : « يا غوغاء يا ملاعين يا أشرارا أطلقوا فوراً سراح الشخص ، أيا كانت صفته ، الذي تمسكون به أسيرا في قلعكم ، في هذا السجن المظلم ، لأنني أنا دون كيخوته دلا منتشا ، الملقب بفارس الأسود ، الذي قضيت له العناية الإلهية أن ينفذ هذه المغامرة » . وما قال هذه الكلمات حتى استل سيفه ، وراح يسايف في الهواء ضد الطحانيين ، وهؤلاء دون أن يلقوا بالا لكلماته الجنونية حاولوا أن يمنعوا السفينة ، بعصيتهم ، من الدخول بين العجلات . وكان سنشو راكما يدعو السماء بتقوى أن تنجيه من هذا الخطر العظيم ، وهذا ما استطاع اجتهد واحتيال الطحانيين فعله ، ففرزوا عصيتهم في السفينة واستطاعوا تحويل اتجاهها ، ولكن ذلك لم يتم بمهارة كافية ، ولهذا وتحت تأثير الصدمة سقط دون كيخوته وسنشو في الماء . ولحسن

حظ الأول كان يعرف السباحة مثل البط ، وإن كان ثقل سلاحه جعله يغوص مرتين في الماء ، ولولا نجدة الطحانيين الذين نزلوا في الماء لإنقاذهما كليهما ، لكانت هذه المواضع طروادة جديدة بالنسبة إليهما .

وضعوهما على البر ، وهما في بلل وجوع قاتل . ورفع سنشو طرفه ويديه إلى السماء . وجثا على ركبتيه ، داعيا الله دعاء طويلا حارا ، ليكون في المستقبل بأمن من الأعمال الجنونية التي يقوم بها مولاة . والصيادون الذين كانوا أصحاب السفينة لما رأوها تحطمت بعجلة الطاحونة أخذوا يجردون سنشو ، وطلبوا من دون كيخوته أن يدفع التعويض . لكن هذا لم يتأثر وكأنه لم يحدث شيء ، فأجابهم بأنه سيدفع التعويض عن طيب خاطر ، بشرط أن يطلقوا في الحال سراح الشخص أو الأشخاص الذين يعتقلونهم أسرى في قصرهم . فسأله أحد الطحانيين : عن أي شخص وأي قصر تتحدث أيها الرجل المجنون ؟ لعلك تريد أن تخطف الذي يجيئون لطحن غلالهم في الطاحونة ؟ » .

فقال دون كيخوته بين أسنانه : كفى ! وإنه لمن الوعظ في البرية أن يريد المرء أن يدفع هؤلاء السوقة إلى فعل فاضل . في هذه المغامرة لا بد قد التقى ساحران قويان : أحدهما حطم ما أراد الآخر فعله ، أحدهما بعث إلي بالسفينة ، والآخر رمى بي بين عجلات الطاحونة . الله يصلح الأمور كل ما في هذا العالم مؤلف من آلات وعناصر متضادة ، ولا أملك فعل شيء في ذلك . ثم رفع صوته ونظر ناحية الطاحونة وقال : « يا أصحابي ، أيا من أنتم ، يا من أنتم محبسون في هذا السجن ، اصفحوا عني إذا كنت لا أستطيع ، لشقائي وشقائكم ، أن أخلصكم ، إن هذه المغامرة لا بد أنها مخصصة لفارس آخر » . ولما قال هذه الكلمات دعا الصيادين ، واتفق معهم على مبلغ التعويض عن الأضرار التي لحقت بالسفينة ، وقدره خمسمائة ريال ، فدفعها سنشو رغم أنفه . وقال : « برحلتين بحريتين مثل هذه ، سنغوص حتى قاع الماء ، نحن ونقودنا » .

ولم يكف الطحانون والصيادون عن التعجب من هذين الشكليين ، المختلفين عن سائر الناس ، ولما لم يفهموا شيئا من كل الأسئلة التي وجهها اليهم دون كيخوته ، اعتقدوا أن هذين الرجلين مجنونان ، وعادوا : البعض إلى طاحونتهم ، والبعض الآخر إلى شباكهم . وذهب دون كيخوته وسنشو لاسترداد دابتيهما ، اللتين هما أقل منهما درجة في الحيوانية . وهكذا انتهت مغامرة السفينة المسحورة .

الفصل الثلاثون

فيما جرى لدون كيخوته مع صيادة جميلة

عاد السيد والسائس إلى دابتيهما حزنيين مكسوفي البال ، خصوصا سنشو ، الذي لا يفكر إلا في النقود ، فإذا اضطر إلى إعطائها كان ذلك كما لو كانت حدقتاه تنتزعان من عينيه . ودون أن ينطقا بكلمة ركبا ، وابتعدا عن النهر الشهير . كان دون كيخوته غارقا في خواطره الغرامية ، وسنشو في مشروعاته للشراء ، الذي بدا له يزداد بعدا عن التحقيق ؛ لأنه ، وإن كان ساذجا ، فقد أدرك جيدا أن كل أعمال مولاه هي أعمال جنونية ، ويبحث في رأسه عن الوسائل لتركه ذات يوم ، دون أن يناقشه في حساب أو يودعه ، ثم يعود إلى بيته ، لكن القدر قدر غير ذلك الذي قرره وصمم عليه .

وفي اليوم التالي عند مغيب الشمس ، لمح دون كيخوته وهو خارج من الغابة مرجا أخضر عند نهايته أبصر عدة أشخاص ، ولما اقترب منهم عرف أنهم صيادون بالبزة ، فاقترب أكثر ، وميز في الجماعة سيدة جميلة ، راكبة على فرس زينة أو مهرة بيضاء كانت عدتها خضراء وقربوس سرجها من الفضة ، وكانت ترتدي ثوبا أخضر ، فيه من الذوق بقدر ما فيه من الفخامة ، وعلى قبضة يدها بازي ، مما جعل دون كيخوته يحكم أنها من طبقة عالية ، وأنها سيدة سائر الصيادين ، وكانت كذلك فعلا . فنادى سنشو وقال له : « أترى هذه السيدة الجميلة ذات البازي وفرس زينة ، أجر وقل لها إن فارس الأسود يقدم تحياته لجمالها الرائع ، وإذا سمحت عظمتها فسأذهب لتقبيل يديها وخدمتها في كل ما يطلبه سموها ، بقدر ما تسمح قواي . واحتط كل الاحتياط فيما ستقول لها يا سنشو ، ولا يخطرن ببالك أن تحشو كلامك بالأمثال » .

فقال سنشو : لقد وجدت الحاشي : ولي أنا يجب أن يقال هذا الكلام ؛ ليست هذه أول مرة في حياتي أقوم بالسفارة لدى سيدات قويات عاليات المقام .

فقال دون كيخوته : إن لم يكن تلك السفارة التي قمت بها لدى السيدة دلثنيا فإني لا أعرف أنك قمت بسفارات أخرى ، أو هذا على الأقل مدى علمي .
فقال سنشو : هذا صحيح يا مولاي ، ولكن الدافع الواثق لا يخشى أن يعطي رهونا ، وفي البيت الجيد الزاد ، العشاء يكون حاضرا بسرعة ، أقصد أن أقول أنه لا حاجة إلى تلقيني دروسا وتنبيهات ، لأنني أعرف كل شيء وأعرف القليل عن كل شيء .
فقال دون كيخوته : أعتقد هذا يا سنشو : إذهب إذن على بركة الله ، والله يهديك .
فمضى سنشو ، مسرعا في خطو حماره ، ووصل بعد قليل إلى المكان الذي كانت فيه الصيداء الجميلة . وهناك نزل عن حماره ، وثنى ركبتيه ، وقال لها : « سيدتي الجميلة هذا الفارس الذي تربيته هنا ، والملقب بفارس الأسود ، هو مولاي ، وأنا سائسه ، الذي يسمى في بيته باسم سنشو پنتا . وفارس الأسود هذا ، الذي كان يسمى منذ مدة وجيزة باسم الفارس الحزين الطلعة ، بعثني إليك لأقول لعظمتك أنه يود أن تأذني له ، إذا شئت ووافقت ، أن يحقق رجاءه وهو ليس شيئا آخر - كما يقول هو وأعتقد أنا - غير أن يخدم بازيتك العالية وجمالك المنقطع النظير . فإن أذنت سيادتك له في هذا ، فإنك تصنعين صنيعا يفيديك ، ومولاي يناله منه حظ عظيم ورضا كبير » .

فأجابت السيدة : « نعم أيها السائس الصالح ، لقد قمت برسالتك بكل الشكليات التي تقتضيها مثل هذه السفارة . إنهض ، فليس من العدل أن يظل راکعا سائس فارس عظيم مثل الفارس الحزين الطلعة ، الذي نعرفه معرفة جيدة : إنهض يا عزيزي ، وقل لسيدك إنه إذا شاء الحضور إلى بيت استمتاع لنا هنا قريب ، فإنه سيستقبل مني ومن الدوق زوجي خير استقبال » .

فنهض سنشو ، وكله إعجاب بجمال السيدة ورقتها وأدبها ، لكن أكثر ما أدهشه هو أنها تعرف مولاه ، الفارس الحزين الطلعة ، الذي لم تسمه فارس الأسود ، لأن هذا الاسم كان حديثا جدا . وقالت الدوقة التي لم يعرف اسمها^(١) أبدا : « يا أخي السائس أليس سيدك هو الذي طبع تاريخه تحت عنوان « البارع النبيل دون كيخوته دلا منتشا » ؟ أليست سيدة أفكاره تدعى دلثنيا دل توبوسو ؟ فقال سنشو : « نعم هو يا سيدتي ، والسائس المذكور ، أو يجب أن يكون مذكورا ، في هذا التاريخ ، والمسمى سنشو پنتا ، هو أنا

(١) يرى Pelliter أن هذا الدوق ليس متخيلا ، كما قد يعتقد ، وإنما قصد تربيته أن يشير إلى دون كارلوس دي بورخا ، ودونيا ماريه دي ارغون ، دوقي بلاد هرموسا . وكان قصر أو بيت استمتاعهما هذا يسمى « الطريق الحسن » Buennavia وكان موقعه بالقرب من فلادبرولا . وسيد الدوق خوان دي ارغون ، ابن عم الملك فرناندو الكاثوليكي .

بعيني ، اللهم إلا أن يكونوا حولوني إلى مربية ، أقصد في الكتاب . » - فقالت الدوقة : « هذا يسرني كثيرا . إذهب إذن يا أخ پشا ، وقل لسيدك على الرحب والسعة في ضياعنا . وأنه لاشيء يسرني أكثر من حضوره عندنا » .

وبهذا الجواب الجميل عاد سنشو فرحا مسرورا إلى سيده : وروى له كل ما قالته السيدة العظيمة ، مثنيا ثناء عاليا جدا ، بلغته الريفية ، على جمالها ولطفها وأدبها . فتمكن دون كيخوته على السرج ، وثبت قدميه في الركاب ، وأصلح حافة خوذته ، وهمز جانبي روئينائته ، وبانطلاقة تقدم لتقبيل يدي الدوقة ، التي كانت قد دعت في الحال زوجها الدوق ، وأبلغته السفارة . وكان كلاهما قد قرأ القسم الأول من تاريخ دون كيخوته : وعرفا إذن جنونه ، وتحرقا شوقا لمعرفته شخصا ، وانتظراه بلهفة ، واتفقا على أن يماشيا هواه . ويوفقا على كل ما يقول ، ويعامله بوصفه فارسا جوالا ، طوال المدة التي يقضيها بينهما ، مع كل المراسم الواردة في كتب الفروسية الجواله التي قرآها وكانا مولعين بها .

وظهر دون كيخوته في هذه اللحظة ، وحافة خوذته عالية ، ولما تهيأ للنزول من فرسه أراد سنشو أن يمسك بالركاب له : لكنه كان سيء الحظ حتى أنه لما وثب من فوق حماره اشتبكت رجله في جبل البرذعة ، دون أن يستطيع التخلص ، حتى ظل معلقا ، وصدره وفمه يلمسان التراب . ودون كيخوته ، الذي لم يتعود أبدا على النزول من فرسه بدون أن يمسك أحد بركابه ، ظن أن سنشو يقوم بهذه المهمة : فلما نزل أخذ معه السرج الذي لم يكن محكم الرباط ، حتى إنه سقط هو والسرج على الأرض ، والتخلل الشديد يعلوه ، وهو يصب آلاف اللعنات هلى سنشو المسكين الذي ظل دائما معلقا . فأمر الدوق في الحال صياديه أن يذهبوا لإنهاض السيد والسائس . وأراد دون كيخوته ، وهو محطم من السقطة ، أن يجشو أمام سيادتيهما ، لكنهما رفضا . ونزل الدوق من فرسه ، وجاء واحتضن دون كيخوته ، قائلا له : « إني مستاء جدا ، يا سيدي الفارس الحزين الطلعة ، من الحادث الذي وقع لك في أول مرة تضع قدمك على ضياعي ، لكن إهمال السياس يسبب غالبا حوادث مؤسفة جدا » .

فقال دون كيخوته : إن الفضل الذي تخمروني به في هذه اللحظة ، أيها الأمير الشجاع ، يمنعني من استشعار أي ألم : ولو كنت قد ألقي بي في أعماق الهاوية فإن مجد رؤيتك ينتشلني منها . وسائسي ، لعنه الله ، يستطيع أن يحل لسانه ليقول كلمات خبيثة خيرا من أن يستطيع ربط سرج كما ينبغي . وعلى كل حال فأيا ما كانت حالي ، على الأرض أو واقفا ، على قدمي أو فرسي ، فسأكون دائما في خدمتك وخدمة السيدة الدوقة ، قرينتك الفاضلة ، سيدة الجمال ، والأميرة العالية للأدب الجم .

فقال الدوق : مهلا يا سيد كيخوته : حيث تكون السيدة دونيا دلثنيا ، لا يمكن الشناء على جمال آخر غير جمالها .

وسنشو ، وقد تخلص من البرذعة ، وصار بالقرب منهما ، تكلم قبل مولاه ، فقال : « لا يمكنني إنكار أن السيدة دلثنيا دل توبوسو جميلة جدا ، لكن الأرنب يظهر حيث لا يتوقع ، وقد سمعت أن ما يسمى الطبيعة هي مثل فخار يصنع أواني من الطين : فمن يصنع أنية جميلة يمكنه أن يصنع اثنتين وثلاثا ومائة ، وعلى هذا أقول أن السيدة الدوقة لا تقل أبدا عن مولاتي ، السيدة دلثنيا دل توبوسو .

وتلفت دون كيخوته ناحية الدوقة وقال : « سيدتي ! ينبغي لسيادتك أن تعتقدي أنه لم يوجد في العالم سائس لفارس جوال ثرثار ومضحك مثل سائسي هذا ، وتستطيعين الحكم على هذا بسهولة إذا أذنت سموك بأن أضع خدماتي بين يديك لمدة بضعة أيام . » فقالت الدوقة : « إذا كان سنشو الطيب مضحكا ، فهذا يزيد من تقديري له ، وهو دليل على أنه مليح النادرة ، لأن اللطف والنكات الجيدة ، كما تعرف يا سيد دون كيخوته ، لا يوجد أبدا في الثقيل الروح البليد ، وأكرر وأقول ما دام سنشو الطيب مضحكا صاحب نوادر ، فإنني أرى أنه ظريف . » - فأضاف دون كيخوته : « وخصوصا ثرثار جدا » . - فقال الدوق : « هذا حسن ، لأن كثيرا من النكات لا يمكن أن تقال في قليل من الكلمات ، لكن حتى لا نتهم ، نحن أيضا ، بأننا نضيع الوقت في الكلام ، تعال أيها الفارس الحزين الطلعة العظيم... » - فقاطعه سنشو قائلا : « ليقل سموك : فارس الأسود ، من فضلك ، لم يعد ثم حزين الطلعة ، بل فارس الأسود » . - فاستأنف الدوق كلامه قائلا : « تعال إذن ، أي فارس الأسود إلى قصري القريب من هنا ، وسنستقبلك هناك الاستقبال اللائق بشخص ممتاز مثلك ، وهو الاستقبال الذي تستقبل به ، الدوقة وأنا ، كل الفرسان الجواله الذين يقدمون لزيارتنا » .

وأصلح سنشو سرج روثيناته وصعد عليه دون كيخوته ، وركب الدوق فرسا جميلا ، وبينهما كانت الدوقة ، واتخذوا سبيلهم إلى القصر وشاءت الدوقة أن يسير سنشو بجوارهم ، لأنها كانت تلتذ كثيرا بما يبدر عنه . ولم يتأخر سنشو ، بل دخل بينهم ، وكان الرابع في الحديث ، مما التذ له الدوق والدوقة ، وقد رحبا بأن يستضيفا في قصرهما مثل هذا الفارس الجوال مثل هذا السائس .

الفصل الحادي والثلاثون

وفيه كثير من الأمور المهمة

كان فرح سنشو عظيما وقد حسب أنه كان يحظى برضا الدوقة ، لأنه أمل في أن يجد في قصرها ما وجده عند دون دييجو وفي بيت باسيل ، ذلك أنه كان يحب الطعام الجيد قبل كل شيء ، وفي كل مرة تسنح الفرص ، له للتمتع بالأكل كان يهتبلها ويتشبت بها . ويروي التاريخ أنه قبل وصولهم إلى بيت الاستمتاع ، استبق الدوق ليخبر الخدم كلهم بالطريقة التي ينبغي أن يستقبل بها دون كيخوته . فلما ظهر هذا مع الدوقة لدى باب القصر ، خرج خادمان أو قواصان يلبسان ملابس « طويلة من الساتان القرمزي ، رفعا ، دون أن يشعر ، بين ذراعيهما ، وقالوا له : « فليذهب عظمك لمساعدة السيدة الدوقة على النزول . » فخرج دون كيخوته ليفعل هذا : وقام بينهما معركة على الأدب ، وأخيرا انتصرت الدوقة ، ولم ترد أن تنزل إلا بين ذراعي الدوق ، قائلة إنها لا ترى نفسها جديرة بأن تعطي لمثل هذا الفارس العظيم هذا العبء غير المفيد . فكان الدوق إذن هو الذي تلقاها . ولما دخل بهوا فسيحا تقدمت آنستان جميلتان ، وألقتا على كتفي دون كيخوته معطفا كبيرا من الاكرلات الدقيق . وفي اللحظة نفسها ، امتلأت كل الدهاليز بالخدم والحشم الذين صاحوا : « مرحبا بزبدة وزهرة الفرسان الجواله . » وفي الوقت نفسه رشوا على دون كيخوته من الماء المعطر هو والدوق والدوقة . ولاحظ دون كيخوته كل هذا الاحتفاء والمراسم وكان هذا حقا هو أول يوم في حياته يعتقد فعلا أنه فارس جوال حقيقي ، لا خيالي ، وقد رأى نفسه يعامل بالطريقة نفسها التي قرأها في كتب الفروسية أن الفرسان الجواله كانوا يعاملون بها . وترك سنشو حماره ، وتعلق بالدوقة ودخل القصر ، لكنه شعر في الحال بتأنيب الضمير من جراء تركه حماره وحده . فاقترب من دونيا محترمة ، جاءت مع وصفات أخرى لاستقبال الدوقة ، وقال لها بصوت هامس : « يا سيدة جونثالث ، أو كما تسمى عصمتك... » فقالت :

« اسمي دونيا رودريجت دي جريخليا : ماذا تريد مني يا أخ ؟ » - فأجاب سنشو : « أود أن تذهب عصمتك إلى باب القصر ، وهناك ستجدين حمارا هو حماري ، وأرجوك أن ترسله أو تقتنيه بنفسك إلى الاسطبل : أن هذا الحمار الصغير المسكين يخاف ، ولم يتعود أن يكون وحده » . - فقالت الدونيا : « الحق أنه لو كان السيد عاقلا مثل الخادم ، فقد أفلحنا . إذهب إلى الشيطان ، يا أخ ، أنت ومن أتى بك إلى هنا . تكفل أنت بحمارك ، واعلم أن الدونيات (الوصيفات) في هذا القصر لم يتعودن اقتياد الحمير إلى الاسطبل » . - فأجاب سنشو : « إنه حينما عاد لانصلو من بريتاني ، عنيت به السيدات ، واهتمت الوصيفات بشأن فرسه ، وأنا لا أوافق على أن أبادل بحماري فرس السيد لانصلو » . - فقالت الدونيا : « يا أخ ! إذا كنت مازحا فاحتفظ بمزاحك لمن يجده مسليا ، ويدفع لك الثمن ، أما مني أنا فلن نال غير تينة » . فقال سنشو : « ناضجة على الأقل ، ما دامت تفوق بدرجة سنوات عصمتك » . - فصاحت الدونيا غاضبة : « يا ابن القحبة ! إذا كنت عجوزا فلا حساب لي إلا مع الله على ذلك ، لا معك أنت أيها الجلف ، العتل ، أكل الثوم » . وكانت ترمي بهذه الشتائم بلهجة عالية حتى أن الدوقة سمعتها فرجعت إليها ، فلما رأتها هائجة ، وعيناها تكاد تبرزان من الرأس ، سألتها ما الخبر . فأجابت : « إن هذا المغفل ، يريد مني ، بكل قوة ، أن أذهب لوضع حماره في الاسطبل ، حماره الذي يقف على باب القصر : ويذكر لي ، كقدوة سيدات ضمرن من يدعى لانصلو ، ووصيفات عنين بفرسه ، وفوق هذا كله قال إنني عجوز » . - فقالت الدوقة : « هذه أفضح إهانة يمكن أن توجه إلى امرأة . أسمع يا صاحبي سنشو ، أنبهك إلى أن دونيا رودريجت شابة جدا ، وتلبس هذه القبعة اتباعا للعرف ولتناسب مع مركزها ، لا بسبب سني عمرها » . - فقال سنشو : « لعن الله ما تبقى في عمري من سنين لو كنت قلت هذا بقصد اهانتها ! أن حبي الشديد لحماري هو الذي جعلني أتوجه إليها بالرجاء ، واعتقدت أنني لا أستطيع أن أكله إلى سيدة أكثر احسانا من السيدة رودريجت » . وحضر دون كيخوته هذا النزاع ، فقال : « يا سنشو ، هذا هو مكان استعمال مثل هذه العبارات ؟ » - فأجاب سنشو : « مولاي ! كل إنسان يطلب ما يحتاج إليه أينما وجد ، وهنا تذكرت حماري ، وهنا أتكلم عنه . وإذا تذكرته في الاسطبل ، تكلمت عنه في الاسطبل » . - فقال الدوق : « سنشو على حق ولا ينبغي لومه ، لكن ليظمن ، فإن حماره سيعامل بكل ما يريد ، وسيعنى به عناية المرء بنفسه » .

فأشاعت هذه العبارات السرور في الجميع ، فيما عدا دون كيخوته ، الذي طلب إليه أن يدخل قاعة مغطاة الجدران بالبروكار المزخرف بالذهب ، ونزعت ست أنسات سلاحه ،

ووقفن في خدمته ، وكلهن فهمهن الدوق ما ينبغي أن يفعلنه حتى يعتقد دون كيخوته أنه يعامل معاملة الفرسان الجواله : فبقي اذن بدون سلاح ، لابسا سراويله المحبكه ، وصدريته التي من الشاموا ، طويلا نحيلاً ، جافاً ، شاحباً ، وفكاه متقارباً ، يكاد يقبل نفسه : وكان منظره من شأنه أن يميت الفتيات من الضحك لولا أن الدوق أوصاهن صراحة بالامتناع من أي ضحك ، وأردن خلع ملابسه ليضعوا قميصاً ، لكنه رفض بعناد ، قائلاً إن الحياة يليق بالفرسان الجواله مثل الشجاعة ، ورجاهن أن يعطينه إلى سنشو ، الذي دخل معه في غرفة كان فيها سرير وثير جداً ، وهناك خلع ملابسه ولبس القميص . فلما رأى نفسه وحيداً مع سنشو قال له : « قل لي يا مغفل يا أحمق من قديم الأزل ، هل ترى من اللائق أن تسب امرأة محترمة مثل الدونيا ؟ أكانت تلك هي اللحظة المناسبة كي تذكر حمارك ، وهل أصحاب هذا البيت قوم يتركون الدواب تنن وتتألم ، وهم الذين يستقبلون ضيوفهم بكل هذا الترحاب الفخم ، بحق الله يا سنشو ، لا تكشف عن خرقتك فيرى الناس أنك وغد ، جلف ، رديء المعدن . تذكر أيها الخاطئ الشقي ، أن السادة يناولون المزيد من الاحترام بقدر ما يكون خدمهم شرفاء أصلاء ، وأن من أكبر مزايا الأمراء على سائر الناس أن يكون لهم خدم حسنو المنبت طيبون مثلهم . ألا تدرك ، أيها الشقي ، ويا لشقائي بك ، أنهم إذا أدركوا أنك لست إلا وغداً كبيراً ، ومهرجاً ثقيلاً ، فسينظرون إلي على أنني مزيف ، وفارس مستعار ، لا ، لا ، يا عزيزي سنشو ، لا بد لك أن تتجنب هذه المخاطر ، إن من يتعثر كمهرج وثرثار ، يسقط على الأرض من أول صدمة ، ولا يكون إلا مجرد مهرج بائس . أمسك لسانك وزن كلماتك مرتين قبل أن تدعها تخرج من فمك . وأنبهك إلى أننا وصلنا برعاية الله وقوة ساعداي » . فوعد سنشو بأن يخطط فمه ويعض لسانه كما أوصاه مولاه ، قبل أن تبدر منه كلمة طائشة ، وأضاف أنه ينبغي له ألا يخشى منه ، ولن يقول شيئاً يمكن أن يكشف هويتهما .

ولبس دون كيخوته ، وأخذ حمالته وسيفه ، ووضع على كتفيه معطف الاكرلات ، وعلى رأسه قبعة من الساتان الأخضر أعطتها له الأنسات . وبهذا اللباس ذهب إلى القاعة الكبرى ، فوجد الأنسات مصطفات على صفين ، ومعهن قوارير الماء المعطر ، فصبت على يديه بكثير من الاحترام والمراسم . ثم جاء اثنا عشر خادماً يسبقهم رئيس الخدم ليأخذوه إلى غرفة الطعام ، حيث كان الدوق والدوقة في انتظاره . ووضع الخدم وسطهم ، واقتادوه بحفاوة بالغة إلى قاعة أخرى نصبت فيها مائدة أنيقة ، عليها أربعة أغذية (أدوات الأكل) فقط . وجاء الدوق والدوقة لاستقباله لدى الباب وكان بصحبتهما رجل دين وقور ، من أولئك

الذين يحكمون بيوت الأمراء ، وهم ، لأنهم لم يولدوا أمراء ، لا يمكنهم أن يعلموا الواجبات لمن هم أمراء ؛ نعم من أولئك الذين يريدون أن تقاس عظمة العظماء بحجارة عقولهم ؛ من أولئك الذين وهم يريدون أن يعملوا من يحكمونهم الاعتدال يظهرهم بأنسين مساكين ؛ هكذا لا بد كان الرجل الكهنوتي^(١) الذي جاء مع الدوق لاستقبال دون كيخوته . وبعد آلاف التحيات ، جلسوا إلى المائدة ؛ وأراد الدوق أن يجلس دون كيخوته في مكان الشرف ، وعلى الرغم من تمنعات الفارس فقد اضطر للتسليم ، وجلس الكهنوتي في مواجهته والدوق والدوقة على الجانبين . وكان سنشو حاضرا ، ولم يتوقف عن الاعجاب بما عومل به مولاه من حفاوة بالغة ، ولما رأى إلحاح الدوق على دون كيخوته ليجلس في مكان الشرف ، أخذ يقول : « لو أذن سياداتكم رويت لكم حكاية وقعت في قريتنا تتعلق بالأولوية » . ولم يكذب يلفظ هذه العبارة حتى خشي دون كيخوته من الخطر ، مقتنعا بأن سنشو سيقول حماقة من حماقاته ، وفطن هذا لشعور مولاه فقال : « لا تخش أبدا يا مولاي ، أن أصدق أو أقول شيئا غير مناسب ، إنني لم أنس النصائح التي أسديتها إلي منذ قليل عن الكلام الكثير أو القليل ، الحسن أو الرديء » فقال دون كيخوته : « إنني لا أذكر يا سنشو ، قل ما تشاء ولكن أوجز » فقال سنشو : « إن ما أريد أن أقوله صحيح إلى حد أن سيدي دون كيخوته الحاضر هنا لن يدعني أكذب » . فقال دون كيخوته : « أكذب كما تشاء يا سنشو ، فلن أمتنع منه ، لكن أحتط لما ستقول » . فقال سنشو : « لقد أخذت احتياطي ، لأن من يقرع الناقوس مكشوف كما سترون » . فقال دون كيخوته : « الحق أن على عظمتكم أن تطردوا هذا المجنون ، الذي سيتفوه بآلاف المحامات » . فقالت الدوقة : « وحياتة الدوق لن يبعد عني سنشو لحظة . إنني أحبه جدا لأنه مسل جدا » . فقال سنشو : « أعطت السماء قداستك كثيرا من الأيام المسلية ، لحسن ظنك بي ، وإن كنت لا أستحق ذلك . ولكن هاهي ذي الحكاية التي أردت حكايتها . في قريتنا دعا نبيل ذات يوم... وكان هذا النبيل غنيا جدا ممتازا ، لأنه ينحدر من آل ألموس في مدينة الكمبو ، وتزوج دونيا منثيا دي كنيونس ، بنت دون ألوثو دي مارانيون ، فارس من طريقة شنت يعقوب ، غرق في جزيرة هر دوره ، وبسببه كان هذا النزاع الكبير في قريتنا ، الذي اشترك فيه ، بحسب ما قيل لي ، سيدي دون كيخوته ، وفيه جرح توماسيو الخسيس ، ابن بلبسترو البيطار . أليس هذا كله صحيحا يا مولاي ؟ قل بحياتك حتى لا يعتقد هؤلاء السادة أنني ثرثار

(١) يرى نبريته أن هذا الهجوم موجه إلى الراهب الذي كان يفشي مجالس دون بيخار ، وعارض في أن يقبل الدوق اهداء ثريانتس القسم الأول من « دون كيخوته » إليه .

وكذاب . - فقال الكهنوتي : « حتى الآن أعتقد أنك ثرثارا أكثر منك كذابا ، لكني لا أعرف بماذا أحكم عليك بحسب ما ستقول بعد » . وقال دون كيخوته : « إنك تذكر من الشهود والدلائل ما يجعلني لا أستطيع أن أوافق على أنك تقول الحقيقة . استر ، واختصر حكايتك ، لأنني أرى أنك لو سرت على هذا المتوال لما فرغت قبل يومين » . فقالت الدوقة : « لا يختصر شيئا ، من فضلك ، إذا كان يريد إرضائي ، دعه إذن يحكيها كما يعرفها ، وحتى لو لم يفرغ منها في ستة أيام ، فستكون من أمتع ما سمعت في حياتي » . - فتابع سنشو قائلا : « أقول إذن ، يا أصحاب السعادة أن هذا النبيل ، الذي أعرفه كما أعرف يدي لأنه لا يوجد بين بيته وبيتي مسافة مدى رمية منجنيق ، دعا يوماً حراثا فقيرا لكنه أمين » . - فقال رجل الدين : « عد عن هذا أخ ، وإلا فعلى هذا النحو ستقتاد حكايتك إلى آخر الدنيا » . فأجاب سنشو : « إلى نصفها على أكثر تقدير ، إن شاء الله ، هذا الحراث المسكين لما وصل إلى بيت النبيل الذي دعاه ، رحمه الله ، لأنه مات ، ويقال إن نهايته كانت نهاية ملك : ولم أحضر ساعة الوفاة ، لأنني كنت قد ذهبت لحصاد القمح في تمبليكا » . - فقال رجل الدين : « وحياتك يا ولدي الا عدت من تمبليكا ، وبدون أن تدفن نبيلك هذا تسير في جنازته ، أتم حكايتك » . - فاستمر سنشو : « ولما كان الضيفان إذن على وشك الجلوس إلى المائدة... ويبدو لي أنني أراهما الآن أحسن من أي وقت... » وتلذذ الدوق والدوقة كثيرا من عدم صبر رجل الدين الطيب ، لكن دون كيخوته كان يستهلك نفسه غيظا . واستأنف سنشو : « أقول إذن أنه لما كان كلاهما ، كما قلت ، على وشك الجلوس إلى المائدة ، أراد الحراث أن يجلس النبيل في مكان الشرف قطعا بينما أصر هذا على أن يجلس فيه الحراث ، قائلا له أنت صاحب البيت لكن الحراث ، وهو رجل مؤدب حسن التربية لم يوافق على ذلك ، إلى أن قام النبيل وقد عيل صبره ، فوضع يده على كتفيه وأجلسه بالقوة قائلا : « اجلس إذن ، أيها الثقيل الكبير ، ألا تعلم أنني في أي مكان جلست فساكون دائما في موضع الشرف ؟ » هذه حكايتي ، وأنا أعتقد حقا أنها هنا في محلها تماما » .

فتغير لون دون كيخوته تغيرا شديدا ، وكان لون الشيب صبغ بشرته النحاسية . وامتنع الدوق والدوقة ، وقد أدركا خبث سنشو ، من الضحك حتى لا يزيذا من غضب الفارس ، وتغير الحديث ومنع سنشو من متابعة حماقاته . - سألت الدوقة دون كيخوته عن أبناء دلثنيا ، وهل لم يبعث إليها بهدية مؤلفة من مردة أو قطاع طريق ، لأنه لا بد قهر الكثير منهم . فأجاب دون كيخوته : « سيدتي! بلإياي كانت لها بداية ، ولكنني لا أظن أن لها نهاية . ولا شك في أنني انتصرت على مردة وقطاع طرق ومجرمين وقد بحث بهم إليها ،

لكن أنى لهم أن يجدوها بينما هي مسحورة ، تحولت إلى أفبح فلاحه يمكن تخيلها ؟ . -
فقال سنشو : « إنى لا أعرف لكنها بدت لي أنا أجمل مخلوقة في الدنيا ، على الأقل أكثرهن
خفة ونشاطا ، لأنها فيما يتصل بالقفز ، تتفوق على أعظم راقص بالجبل ، والله يا سيدتي
الدوقة إنها تقفز على الحماره مثل القطة » . - فقال الدوق لسنشو : « هل رأيته
مسحورة ؟ » . - فأجاب سنشو : « وأي شيطان إن لم يكن أنا الذي اخترع حكاية
اتسحارها ؟ إنها مسحورة مثل أبي » ولما سمع رجل الدين أنهم يتكلمون عن المردة
والمجرمين ، والانسحارات حزر أن هذا لا بد أن يكون دون كيخوته دلا منتشا ذلك الذي
طالما قرأ الدوق تاريخه ، وقد لامه كثيرا على ذلك ، قائلا إنه من الجنون قراءة كل هذه
الحماقات الجنونية ، وأدرك صحة حزره فقال للدوق غاضبا : « يا سيدي! إن الله سيحاسبك
ذات يوم عن حماقات هذا الأبله ، هذا الدون كيخوته ، هذا الدون مغفل أو أيا كان اسمه ،
لا ينبغي أن يكون من الجنون بقدر ما يود سعادتك أن يكون ، وذلك بتمكينه من فرص
تنمية حماقاته » . ثم توجه بالكلام إلى دون كيخوته قائلا : « وأنت يا روح الكوز ، من ذا
الذي دس في رأسك أنك فارس جوال ، وأنتك هزمت مردة وحاربت قطاع طرق ؟ إمض
بسلام ، هكذا ينبغي أن يقال لك ، عد إلى بيتك ، رب أولادك ، لو كان عندك أولاد ، واهتم
بمالك ، وكف عن التجوال في الدنيا ، تسامر وقد الريح ، مشيرا الضحك في نفوس كل من
يعرفونك أو لا يعرفونك . أين إذن وجدت أنه وجد ولا يزال يوجد فرسان جواله ؟ وفي أي
مكان في المنتشا أو في أسبانيا توجد مردة وقطاع طرق ، ودلثنيات مسحورة ، وكل
الترهات التي تروى عنك ؟ » .

وكان دون كيخوته يستمع في صمت إلى كلام هذا الرجل الوقور . ولما رآه أنهم
كلامه ، نهض ، دون احترام للدوق ولا للدوقة ، وعينه تتقد غيظا ، وبصوت منفعل ، قال...
لكن رده يحتاج إلى فصل خاص .

الفصل الثاني والثلاثون

في رد دون كيخوته على لائمه، وحوادث أخرى جادة ولذيذة

نهض دون كيخوته إذن وهو يرتعد غضبا ورد بصوت متغير ،
 - إن المكان الذي أجدني فيه ، وحضور أصحاب البيت ، والاحترام الذي أكنه دائما
 للأشخاص الذين من مهنتك تمنع غضبتي العادلة : كل إنسان يعرف ، أن أصحاب مهنتك
 ليس لهم سلاح غير سلاح المرأة ، ألا وهو اللسان . وسأخوض معك إذن ، بالسلاح
 نفسه ، في معركة ، معك أنت الذي كنت أنتظر منه أن يسدي نصائح مفيدة لا توبيخات
 مهينة . والتوبيخات التقية الحسنة النية تقتضي مناسبات أخرى وتتطلب عناية من نوع آخر ،
 لأن توبيخي علنا بكل هذه الحدة ، هو خروج على حدود المحبة المسيحية التي تعامل دائما
 برفق ، لا بشدة وقسوة . وإلا فقل لي هل من الإحسان ، دون أن تعرف الخطيئة التي يتهم
 بها المرء ، أن تدعو هذا الخاطي مجنونا ، فاقد العقل ؟ أي جنون لاحظته علي ، يسمح لك
 بإدانتني ، وإهانتني ، وأمري بالعودة إلى بيتي لأديره ، وأهتم بزواجتي وأولادي ، وأنت لا
 تعرف هل أنا متزوج ، هل عندي أسرة ؟ هل يكفي المرء إذن أن يتدخل خبط عشواء في
 بيت الغير ليتحكم في أربابه ، ويعيش فترة في نطاق خائفه ضيقة ، دون أن يكون قد رأى
 في حياته إلى أبعد من مسافة عشرين أو ثلاثين فرسخا من البلد ، ليتدخل في إعطاء قوانين
 للفروسية ويحكم على الفرسان الجواله ؟ هل هي مغامرة لا فائدة فيها وزمن يضيع هباء أن
 يتجول المرء في العالم تاركا الملذات ، غير ساع إلا إلى المشاق التي يرتفع بها أهل الخير
 إلى مرتبة الخلود ؟ إذا كان الأمائل ، والعريقو الأنساب ، والكرماء والأكابر قد وضعوني
 مرتبة المجانين ، لحسبت هذه إهانة لا تمحى ، لكن أن يقول هذا عني متحذلقون لم
 يسلكوا أبدا مسالك الفروسية ، فهذا أمر لا أحفل به بل أجعله دهر أذني وتحت قدمي ولا
 يساوي فلسا واحدا : فارس أنا ، وفارسا سأموت لما يريد الله العلي القدير . البعض

يسلكون بيداء الطموح المستكبر والبعض الآخر يتخذون سبيل التملق الوضع الحقيير ، وهؤلاء الأخيرون يتقنعون بقناع الرياء الخادع ، واولئك الأولون يسلكون الصراط المستقيم للدين الحق . أما عن نفسي ، مهتديا بنجمي فأني أسير في الطريق الضيق للفروسية الجواله ، التي تعلمني كيف أحترق المال لا الشرف ، لقد أصلحت مظالم ، وانتقمت من إهانات وعاقبت وقاحات ، وقهرت مرده وأخضعت أشباحا ، أنا عاشق ، هذا صحيح ، لأنه يجب على كل فارس أن يكون عاشقا ، لكنني لست من أولئك العشاق الفاسدين ، فأنا أحب حبا أفلاطونيا عفيفا ، وكل مقاصدي تتوجه إلى غاية حسنة ، هي فعل الخير للجميع ، وعدم إيذاء أحد ، فإن كان من يدين بهذه المبادئ ويمارسها عمليا ، ولا ينحرف عنها ، يستحق أن يدعى مجنونا ، فأني أضع الأمر بين يدي سعادتي كما أي سيدي الدوق وسيدتي الدوقة . فقال سنشو ، أحسنت ، أحسنت جدا ، أستحلفك بالله لا تضيف كلمة إلى دفاعك ، فلا مزيد عليه لقائل ولا لمنكر ، ولا عليك إلا أن تثابر وما دام هذا السيد قال ، إنه لا يوجد ولم يوجد أبدا فرسان جواله ، فليس بعجب ألا يعرف ما يريد أن يقول . فقال رجل الدين ، يا أخ ألا تكون ذلك السنشو پنشا الذي يتحدث عنه ، والذي وعدك مولاك بجزيرة ؟

فأجاب سنشو ، نعم ، أنا هو وحقا إنني أستحقها كغيري . ضع نفسك مع الخيار تصبح خيرا . وأنا من هؤلاء . وقل لي مع من ترعى لا مع من تولد ، من يستند إلى شجرة حسنة ينعم بظل حسن . وأنا أستند إلى سيد حسن ، وأرافقه منذ وقت طويل ، وينبغي أن أصير صورة أخرى منه ، إذا أذن الله . يحيا هو ! يحيا أنا ! إنه لن يخلو من امبراطورية يحكمها ؟ ولا أنا من جزر أحكمها . - فقال الدوق ، « لا ، يا صاحبي سنشو ، فتكريما للسيد دون كيخوته أنا أمنحك ، منذ الآن حكومة جزيرة أملكها وليست بضئيلة القيمة » . - فقال دون كيخوته ، سنشو ، اذهب وأجث أمام سعادة الدوق ، وقبل قدميه شكرا له على ما منحك من فضل ونعمة » .

وهرع سنشو لتنفيذ هذا الأمر . ولما رأى رجل الدين هذا الموقف قام من عند المائدة ، غاضبا ، وقال للدوق ، « بحق الزبي الذي أرثديه أقرر أن سعادتك مجنون مثل هذين الخاطئين التعسين . وكيف لا يكونان كذلك وهما يريان العقلاء يكرسون حماقاتهم ؟ لتبقى سعادتك معهما : أما أنا ، فطالما بقيا هنا ، سأبقى في بيتي ، وسأبرئ ذمتي من تشريب ما لا أملك له دفعا » . ولما أتم هذه الكلمات ترك المائدة وخرج ، ورغم دعوة الدوق له بالبقاء ، وإن لم يلح عليه كثيرا ، لأنه لم يملك نفسه من الضحك على غضبه غير المناسبة .

ثم استعاد الدوق جده ، وقال لدون كيخوته : « سيادتك ، أيها السيد فارس الأسود ، قد رددت رداً مفحماً بحيث لا يمكن أن يلتبس في كلامك شيء يبدو إهانة ، وحقا ليس فيه شيء من ذلك . فكما تعرف خيرا مني شتائم رجال لا تهين ، شأنها شأن شتائم النساء » .

فقال دون كيخوته : هذا صحيح ، والسبب في هذا أن من لا يمكن أن يهان لا يمكن أن يهين ، والنساء ، والأطفال ، ورجال الدين لما كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الإهانات ، فإنه ينتج عن هذا أنهم لا يمكن أن تغالهم إهانة بالمعنى الدقيق ، وأنت تعرف أن هناك farkا بين السب والإهانة ، وهو أن الإهانة تصدر عن يملك فعلها ويفعلها ، ويؤيدها أما السب فيمكن أن يصدر عن أي إنسان كائن من كان ، بدون إهانة . وهاك مثالا ، رجل في الشارع لا يخطر بباله شيء ، ثم يفاجأ بعشرة رجال مسلحين يضربونه بالعصى ، فيمسك سيفه ويقوم بواجهه ، لكن التفوق العددي يمنعه من الانتقام . هذا الرجل سب ، ولكنه لم يتلق إهانة . ومثلا آخر . رجل يمشي ، ثم يأتي خلفه رجل آخر ، ويضربه بالعصا ويهرب . فيطارده الأول ولا يستطيع اللحاق به . هذا تلقى سبا لا إهانة لأن الإهانة ينبغي تأييدها وسندها . ولو أن من ضرب بالعصا وإن كان من الخلف ، أمسك بسيفه وواجه عدوه ، فإن المضروب يكون قد تلقى سبا وإهانة معا . سبا لأنه ضرب غدرا وإهانة لأن الآخر أيد بثبات ما ارتكبه من غير أن يحني كتفيه . وهكذا ، فإنه تبعا لقوانين المصارعة الملعنة ، ربما كنت قد سببت ، ولكنني لم أتلّق إهانة لأن الأطفال والنساء لا يشعرون أبدا بالسب ، إذا كانوا لا يستطيعون الفرار وليس لديهم أي سبب للانتظار . والأمر كذلك فيما يتعلق بالأشخاص المكرسين لديننا المقدس . فهذه الطبقات الثلاث من الأشخاص ليس لديها أسلحة هجومية ولا دفاعية ، ومع أنهم ملزمون طبعا بالدفاع عن أنفسهم فإنهم ليسوا ملزمين بسبب أحد . وهكذا ، فعلى الرغم من قول أنني ربما سببت فإنني أقرر الآن أنني لم أسب ، لأن من لا يقدر على تلقي إهانة لا يمكن أن يفعلها . ولهذا فإنه ينبغي علي ألا أتذكر ، وأن أنسى كل ما قاله هذا المتغفل . لكنني كنت أود أن ينتظر قليلا ، حتى أنتشله من الخطأ الذي تردى فيه حين ظن أنه لا يوجد ولم يوجد فرسان جواله . ولو أن أماديس ، أو أحد أبناء أسرته العديدة ، سمع كلامه ، لما خرج سالما .

فقال سنشو : وأنا أقسم ، أنا ، أنهم كانوا سيضربونه بالسيف ضربة تفلق هامته كالرمانة أو الشمامسة الناضجة . لقد كانوا قوما لا يحتملون مثل هذه التفزات وبحق علامة الصليب ، وأكد أنه لو كان رينو دي مونتلبان سمع أقوال هذا الطرق الصغير من رجل ، لكان

قد أغلق فمه بحيث لا يتكلم لمدة ثلاث سنوات ، عليه فقط أن يلقاهم ، وسيبقى كيف يفلت من بين أيديهم» .

واختنقت الدوقة من الضحك وهي تسمع سنشوي يتكلم : وكان في نظرها أكثر جنونا وإضحكا من سيده ، وفي ذلك العهد كان الكثيرون على هذا الرأي .

وأخيرا هدأ دون كيخوته وانتهى الطعام . ورفع المفروش ودخلت أربع أوانس إحداهن تحمل حوضا من الفضة ، والثانية تحمل إبريقا من نفس المعدن ، والثالثة تحمل فوطتين في غاية الرقة ، والرابعة كان ذراعاها عاريتين حتى المرفق ، وتحمل في يدها البيضاوين (لأنهما كانا بيضاوين دون شك) كرة من الصابون النابوليتاني . والتي كانت تحمل الحوض وضعت تحت ذقن دون كيخوته ، الذي مد رقبته دون أن يقول شيئا ، مدهوشا من هذا الاحتفاء والمراسم ، لكنه اعتقد أنه في هذا البلد اعتاد الناس أن يغسلوا اللحية بدلا من الأيدي وفي الحال أخذ ماء الإبريق يؤدي دوره ، والتي كانت تحمل الصابون أخذت تنظف بالصابون ليس فقط اللحية ، بل وكل وجه الفارس المطيع الذي اضطر إلى إغماض عينيه لتجنب الرغبة البيضاء التي غمر بها . والدوق والدوقة ، اللذان لم يعرفا شيئا عن هذا الأمر انتظرا بصبر نهاية هذا المغسل الغريب . وبعد أن وضع على وجهه سمك قدم من الرغبة ، تظاهرت الأنسة التي كانت تضع الصابون على دون كيخوته أن الماء نفذ ، وأرسلت الأنسة حاملة الإبريق لإحضار ماء ، ورجت السيد دون كيخوته أن يتفضل بالانتظار . فبقي هذا بأعرب وجه يمكن تصويره وعيناه مغلقتان ، وفمه مملوء بالصابون ، وهو يمد رقبته بطول ذراع ولونها أسود كثيرا . وحاول الحاضرون وكان عددهم كبيرا ، أن يكتموا الضحك فلم يفلحوا . والأوانس اللواتي دبرن هذه المزحة كن يفضضن من أبصارهن ، دون أن يتجاسرن على النظر إلى سيدتهن وسيدهن اللذين توزعهما الغضب والرغبة في الضحك ، فلم يعرفا هل ينبغي عليهما أن يعاقبا وقاحتهم ، أو يكافئاهن على المتعة التي جلبتها . وأخيرا عادت الأنسة حاملة الإبريق ، وفرغ من غسل دون كيخوته ثم مسحت لحيته بعناية ، وأرادت الأوانس الأربع أن ينسحبن وهن يحيينه تحية عميقة ، لكن الدوق - حتى لا يفتن دون كيخوته للمزحة - أمرهن بأن يغسلن له لحيته هو الآخر موصيا خصوصا بالآل ينقد الماء . ففهمت الفتيات الماكرات اللطيفات ، غرض سيدهن . فقدمن إليه الحوض مثلما فعلن مع دون كيخوته ، وغسلنه ، ووضعن على وجهه الصابون ، ثم جففنه وأنسحبن وهن ينحنين إنحناء عميقة . وقد قال بعد ذلك أنه لو لم يطعنه ويغسلنه كما فعلن مع دون كيخوته ، لدفع كل ظن مزاح ، لعاقب وقاحتهم .

وتأمل سنشو كل هذه المراسم ، وقال بصوت هامس : « الله يحفظني أيكون العرف هنا أيضا يقضي بتصبين لحية السواس مثل لحية الفرسان ؟ إنني إلى هذا لفي أشد الحاجة ، وحتى لو أعطوني موسى لأسدوا إلي خدمة جلي » .

فسألته الدوقة : بماذا تتمم بين أسنانك يا سنشو ؟ فقال سنشو : أقول يا سيدتي ، إنه في بلاطات السادة الآخرين سمعت أنه حين ترفع المائدة تغسل الأيدي لا اللحية . لكن من يعيش طويلا يزكثيرا ، وإن كان يقال أيضا أن الذي تطول حياته يطول عذابه ، لكن مثل هذا الغسل لذة وليس عذابا .

فقال : لا تتعذب يا عزيزي سنشو ، فسأجعل أوانسي يغسلنك ، بل وينظفنك إذا احتاج الأمر .

فأجاب سنشو : يكفيني الان غسل ذقني ومرة أخرى الله يرى ما أحتاج إليه .
فقال الدوقة : يا رئيس الخدم ، إفعل حرفيا ما قاله هذا الرجل الطيب سنشو .
وأجاب رئيس الخدم بأن سنشو سيلقى ما يرضاه وذهب ليأكل ومعه السائس . وبقي الدوق مع دون كيخوته ، يتحدثون مختلف الأحاديث لكنها تدور كلها حول مهنة السلاح أو الفروسية .

رجت الدوقة دون كيخوته أن يرسم ويصف لها جمال وصفات دلثنيا لأن ذاكرته قوية ، وأضافت قائلة : « لأنها بحسب ما ذاع عنها أجمل مخلوقة في إقليم المنتشا ، بل وفي العالم كله . ولدى هذا السؤال تنهد دون كيخوته تنهيدة كبيرة وقال : « سيدتي ، لو كان في وسعي أن أنتزع قلبي ، وأن أعرضه أمام عينيك ، هنا فوق هذه المنضدة ، وفي صحن لأعفيت لساني من مؤونة وصف ما لا يكاد يتصور ، لأنك سترينها مرسومة على الطبيعة في هذا القلب العاشق ، ولكن محاولة أن أرسم لك ، قسمة بقسمة ، وأن أصف نقطة فنقطة ، جمال دلثنيا المنقطعة النظير - مهمة فوق قواي ، وعمل خليق بأن يشغل فرشوات فرهسيوس ، وتيمينثوس أو أفلس^(١) ، وأزميل لوسينوس^(٢) ، لرسم مفاتها على التيل ، وفي المرمز وعلى البرنز ، ولا بد من كل الفصاحة الششرونية والديموسثينيسية » . فقلت الدوقة : « الديموسثينيسية ؟ ما هذه الكلمة ؟ لم أسمعها في

(١) هؤلاء الثلاثة رسامون يونانيون . وأولهما عاش حوالي سنة ٤٢٠ ق م . ومن بين رسومه المشهورة لوحة رمزية تمثل شعب أثينا . وملياجر واطلنط . والثاني كان معاصرا ومنافسا للأول ، واشتهرت له لوحة « قوقلوف النائم » ، و « تضحية ايفجنيا » . والثالث ازدهر حوالي سنة ٣٢٢ وعاش في بلاط الاسكندر المقدوني .

(٢) نحاس يوناني ، ازدهر حوالي سنة ٣٥٠ ق م . ومن أشهر قطعه - وقد ضاعت كلها - تمثال لسقراط ، وآخر لهرقل . وثالث « للصدقة » . وقد نسب فنكلمن إليه تمثال اللاوكون الشهير .

حياتي» فأجاب دون كيخوته : «الديموسثينيسية مثل أن تقول : المنسوبة الى ديموثينيس ، كما أن الفصاحة الشيشرونية هي المنسوبة الى شيشرون وهما كانا أعظم خطيبين عرفا في التاريخ» . فقال الدوق : «نعم لا شك أين كان عقلك حتى تسألني هذا السؤال ؟ على أن السيد دون كيخوته يهبنا فضلاً عظيماً لو رسم لنا دلثيا ، ولو مجرد تخطيط ، وأنا واثق أنها ستثير حسد أجمل النساء» .

فقال دون كيخوته : « كان بودي أن أجيبكما إلى ما تطلبانه لو لم يكن خيالي لا يزال يهتز من البلية التي أصابتها ، بحيث ينبغي علي بالأحرى أن أرثي لها لا أن أصفها وأرسمها . وسيعلم سعادتكما أنني كنت ذاهبا في الأيام الماضية لأقبل يديها وأسألها أن تبارك علي وأودعها وأنا خارج هذه الخرجة الثالثة ، ولكنني وجدتها غير ما توقعتها ، لقد سحرت وحولت من أميرة إلى فلاحه ، من جميلة إلى قبيحة ، من ملاك إلى شيطان من رقيقة إلى ملعونة ، من مهذبة إلى جلفه ، من متواضعة إلى وقحة من نور إلى ظلمة ، والخلاصة من دلثيا دل توبوسو إلى فلاحه من سياجو^(١) » .

فصاح الدوق : يا إلهي ! من ذا الذي تجاسر على ارتكاب هذه الجريمة النكراء ؟ ومن ذا الذي استطاع أن يحرمها من هذا الجمال الذي سحر العالم أجمع ، ومن هذا اللطف الذي أسر كل القلوب ، ومن تلك الأمانة التي جعلتها موضوع احترام بالغ ؟

فأجاب دون كيخوته : ومن عسى أن يكون غير واحد من أولئك السحرة الخبثاء الذين يضطهدونني ؟ ذلك الجنس اللعين ، الذي خلق لتخطيط وتشويه كل الفعال العظيمة التي يقوم بها أهل الخير ابتغاء إيضاح وحماية جرائم الأشرار - هذا الجنس اللعين اضطهدني ، ولا يزال يضطهدني وسيضطهدوني إلى أن يلقي في هوة النسيان أعمالني الفروسية النبيلة العظيمة ، وهو يضربني في أشد المواضع حساسية ، لأن انتزاع سيدة فارس جوال منه ، معناه انتزاع عينيه اللذين يبصر بهما ، والشمس التي يستضيء بها ، والغذاء الذي يعيش منه ، ولقد قلت مرارا ، وأعود فأكرر ، إن الفارس الجوال بدون سيدته هو كالشجرة بغير أوراق والبناء بغير اسمنت ، والظل بغير الجسم الذي يحدثه .

فقالت الدوقة : لا شك في هذا ، ومع ذلك فإذا كان للمرء أن يصدق تاريخ السيد دون كيخوته ، الذي نشر منذ قليل وأعجب به الناس جميعا فينبغي أن نستنتج ، إن صحت

(١) سياجو : منطقة بين سموره وثيودار ودريجو ، ويسكنها قوم غلاظ جفاة لهم لغة وزي خاصان .

ذاكرتي ، إنك لم تر أبدا السيدة دلثنيا ، وأنها ليست شخصية حقيقية ، بل كائن خيالي خلقته في خيالك ، وورسمته بكل المفاتن الممكنة .

فأجاب دون كيخوته : في هذه المسألة كلام كثير ، والله وحده يعلم هل توجد دلثنيا أو لا توجد أية دلثنيا ، هل هي حقيقية أو خيالية ، فهذا ليس من الأمور التي ينبغي التعمق فيها تماما ، ولست أنا الذي خلقت سيدتي ، إنني أتصورها مزودة بكل الصفات التي يمكن أن تتميز بها على سائر النساء : جميلة بغير عيب ، محترمة بغير كبرياء ، حساسة ولكنها شريفة ، محبوبة لأدبها الجم ، حسنة التشنة ، رفيعة الأصل ، لأن الجمال يضفي نورا أقوى على النسوة اللواتي انحدرن من دم عظيم المقام منه على أولئك اللواتي من أصل وضع .

فقال الدوق : أنت على حق ، من غير شك ، ولكنك تأذن لي ، مع ذلك ، أن ألاحظ ، بحسب تاريخ أعمالك الجليلة الذي قرأته ، أنه يمكن استنتاج أنه توجد من غير شك دلثنيا في توبوسو أو في غيرها من البلاد ، وأنها جميلة كما تصورها ، ولكن فيما يتعلق بالمولد والأصل فإنها لا تقترب أبدا من أوريانه ، وألستراخاه ، ومدسمه^(١) ونساء أخريات من المرتبة نفسها ، تحفل بها الكتب التي تعرفها .

فقال دون كيخوته : عن هذا أجيب فأقول أن دلثنيا بنت أفعالها ، وأن الفضائل تهب النبالة ، وأنه ينبغي أن نقدر المتواضع الأصل لكنه فاضل أكثر من الرفيع المرتبة لكنه شرير ، ودلثنيا تجمع صفات يمكن أن تجعلها سيدة على مملكة كبيرة ، وفضل المرأة الجميلة المتحلية بالفضائل يفعل الكثير من المعجزات الكبيرة ، ومن حيث^(٢) الإمكان ، إن لم يكن من حيث الشكل ، يمكن فضلها أن يكون مبدءا لعظيم المال .

فقالت الدوقة : حقا يا سيد دون كيخوته ، أنت تسلك في كل شيء باحتياط ولباقة وبقدمين من الرصاص ، وكما يقال : والمسبار في يدك ، ومن الآن فصاعدا سأعتقد اعتقادا راسخا ، وسأبذل جهدي لأقنع كل رجالي ، بل والدوق سيدي ، إذا اقتضى الأمر بأنه توجد دلثنيا دل توبوسو ، وأنها حية فعلا ، وأنها جميلة ، من أصل كريم وتستحق أن يخدمها فارس مثل السيد دون كيخوته ، وهو أعظم شرف يمكن أن يطمح إليه إنسان . ومع ذلك فلا أستطيع أن أمنع نفسي من بعض الظنة والحنق على سنشو پنثا ، فإن التاريخ الذي ذكرته يروي أنه حين أرسلت سنشو إلى دلثنيا يحمل إليها رسالتك ، وجدها

(١) سيدات في روايات الفروسية .

(٢) محاكاة للغة الاسكلانيين « فلاسفة العصور الوسطى المسيحية » ، ويقصد أنه وإن كانت دلثنيا لا تملك « شكل » أو « صورة » فضائل وصفات عظيمة ، فإن عندها « الإمكان » « بالقوة » لأن تصبح ذات فضائل وصفات عظيمة .

تغربل زكية من القمح ، وأن هذا القمح كان أسود ، مما يجعلني أشك في نبالة عنصرها . فأجاب دون كيخوته : سيدتي! عظمتك تعلم حق العلم أن كل ما يصيني يخرج عن الطابع المعتاد لمغامرات سائر الفرسان الجواله : وهذا الفارق ناشئ إما عن قدر لا يدرك كنهه ، أو خبث ساحر غيور ، ومن المحقق أنه بين أشهر الفرسان ، البعض عندهم القدرة على ألا يمكن سحرهم والبعض الآخر لحهم قد بحيث لا يمكن النفوذ فيه ولهذا لا يمكن أن يخرجوا ، مثل أورلندو الشهير ، أحد أكفاء فرنسا الإثني عشر الذي يروى عنه أنه لا يمكن أن يجرح إلا في باطن قدمه اليسرى ، و فقط بدبوس ضخم ؛ ولهذا فإنه حين قتله برنردو دل كرييو في رونسفال ، كان قد أدرك أنه لا يستطيع جرحه بسلاح ، فرفعه بين يديه وخنقه ، متذكرا كيف قتل هرقل أنتيوس هذا المارد الشرس الذي قيل إنه ابن الأرض . وأستنتج أنا من كل هذا أنني في وسعي الحصول على بعض هذه الفضائل ، لا ميزة أن أكون غير قابل لأن أجرح ، لأنني لاحظت مرارا عديدة أن لحمي رقيق وليس غير قابل للنفوذ فيه ، ولا ميزة ألا أنسحر ، لأنني رأيت نفسي موضوعا في قفص ، وهو أمر لولا الانسحار ما كانت كل قوى العالم قادرة على فعله أعني حبسي في قفص ، لكنني تخلصت منه ، وهو ما يجعلني أعتقد أنه ليس علي أن أخاف بعد الآن من السحرة ، وهؤلاء حين يرون أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ضدي ، فإنهم ينتقمون من أعز ما لدي ، ويسعون لهلاكه بالإساءة إلى دلثيا التي من أجلها وحدها أحيأ . وأعتقد إذن أنه حين ذهب سائسي يحمل رسالتي إلى دلثيا حولها السحرة إلى فلاحة ، مشغولة بأعمال حقيرة مثل غربلة القمح ، لكنني قلت من قبل أن هذا الحب ليس قمحا ولا شعيرا ، بل حبات من اللآلئ الشرقية . والدليل على هذه الحقيقة أنني حين ذهبت مؤخرا إلى توبوسو لم أستطع مطلقا العثور على قصر دلثيا . وفي الغداة شاهدتها سائسي بشكلها الطبيعي أعني أجمل امرأة في الدنيا ، بينما بدت لي ، أنا فلاحة قبيحة ، غليظة وقحة اللسان ، مع أنها الحكمة عينها . ولما كنت غير مسحور ولا يمكن أن يسحرني أحد بعد ، كما قلت منذ قليل ، فهي إذن المسحورة ، والمهانة والمتحولة ، والمتغيرة والمتبدلة مرات ومرات . وفي شخصها انتقم أعدائي ومن أجلها سأعيش في بكاء دائم حتى أراها قد عادت إلى حالتها الأولى ؛ ولهذا ينبغي ألا يهتم المرء بما يقوله سنشو من أنه رآها تتخل وتغربل ؛ لأنه إذا كان السحرة قد غيروها علي أنا ، فلا عجب في أن يغيروها عليه هو أيضا . إن دلثيا من أصل حسن ، ونبيلة ، وتنحدر من أسرة نبيلة في توبوسو ، حيث يوجد أسر عريقة كثيرة ، أبناؤها من أهل الخير ؛ وهي لا شك تشارك في مزاياها ، لأن مكان مولدها

سيصبح مشهورا إلى الأبد في القرون المقبلة ، كما كانت طروادة بفضل هيلانه الجميلة ، ووطننا أسبانيا بفضل «القحبة»^(١) ، ولأسباب أوجه . ومن ناحية أخرى أود أن ألفت انتباهكم يا أصحاب السيادة إلى أن سنشو من أضحك السواس الذين خدموا فارسا جوالا ، وعنده أحيانا من السذاجات اللطيفة التي لا يدري المرء معها هل هي لطافة أو سذاجة ؛ وفيه خبث يجعل المرء يعتقد أنه شرير ، وسذاجة تجعل المرء يعبده أبله مغفلا ؛ إنه يشك في كل شيء ، ويعتقد كل شيء ؛ وحين أحسب أنه تعثر في حماقة ما ، أجده بعد ذلك يتخلص منها وبحكمة ترفعه إلى السحاب ؛ والخلاصة أنني لن أستبدل به سائسا آخر ، ولا في مقابل مدينة بأكملها . ولكنني مع ذلك في ريب أود أن أعرف هل من الحكمة منحه حكم جزيرة كما تريد يا صاحب العظمة ، وإن كنت قد لاحظت فيه بعض الاستعداد للحكم والادارة ، مما يجعلني أظن أنه إذا أرهف عقله قليلا أمكنه القيام بالحكم ، مثل ملك فيما يتعلق بضرائب الملح ؛ ثم إن التجربة برهنت لنا على أنه لا يجب الكثير من المهارة ، ولا الكثير من التعليم من أجل الحكم ؛ فإننا نشاهد بالمشات من لا يكادون يعرفون القراءة ، ويحكمون مثل النسور . المهم هو أن تكون مقاصدهم حسنة ، لأنهم لن يعدموا أبدا أناسا يبينون لهم ما عليهم أن يفعلوه ، كما يقع للحكام النبلاء غير المتعلمين ، الذي يحكمون في القضايا مع قاض . أما أنا فأنصحهم خصوصا ألا يرتكب أية مظالم ، مع محافظته على حقوقه ، وسأضيف ، حين يئبن الأوان ، بعض النصائح الأخرى لفائدة سنشو وتمام سعادة جزيرته .

وهكذا جرى الحديث بين الدوق والدوقة ودون كيخوته ، حين سمعوا صيحات وضجة هائلة في القصر . وفي اللحظة نفسها دخل سنشو القاعة ، في فزع شديد ، وفي رقبته خرقة على شكل مبصقة ، وبتلوه كثير من الخدم ومساعدتهم ؛ وكان أحدهم يحمل علبة مملوءة بالماء الذي يستدل من قذارته ولونه أنه استخدم في غسل الأواني ؛ ولاحق سنشو ، وهو يريد أن يضع لحيته في هذا الماء ، بينما حاول شخص آخر أن يغسل وجهه . فقالت الدوقة : « ما هذا ؟ ماذا تفعلون ، وماذا تريدون من هذا الرجل الطيب ؟ ألا تتذكرون أنه قد عين حاكما ؟ » - فقال من تظاهر بمهنة الحلاق : « سيدتي ، إنه لا يريد أن يغسله ، كما هو العرف ، وكما غسلنا الدوق ومولاه (دون كيخوته) » . - فأجاب سنشو غاضبا : « إنني أود أن أغسل ، ولكن بماء أنظف ، وبأيدي أنظف ، وفوط أكثر بياضا ؛ إنه ليس بين مولاي وبينني

(١) فلورنده ، ابنة الكونت يوليان .

من الفارق ما يجعل مولاي يغسل بماء الملاك^(١) ، وأغسل أنا بغسالة الشيطان . إن العادات الجارية في قصور الأمراء حسنة طالما كانت لا تسبب متاعب ، لكن عادة الغسل التي تمارس هنا أسوأ من رياضة الضاربين أنفسهم بالسياط ؛ إن لحيتي نظيفة ، ولا تحتاج إلى هذا الانعاش الذي من هذا النوع ؛ ولهذا فإن أول شخص يقترب مني ليغسل أو يلمس شعرة من رأسي ، أقصد من لحيتي ، سأضربه - مع احترام الجماعة - لكلمة يبقى أثرها على اليافوخ! مثل هذا الغسل والماراس إنما قصد بها إلى السخرية من الناس لا الاحتفاء بهم .

واختنقت الدوقة من الضحك وهي تشاهد غصبة سنشو وتسمع كلامه ؛ لكن دون كيخوته لم يجد مسليا أبدا أن يراه لابساً هذه الخرقة القذرة ، ويطارده مساعدو الخدم ؛ ولهذا انحنى أمام الدوق والدوقة انحناء عميقة ، وكأنه يستأذنها في الكلام ، وقال لهؤلاء الرعا ، بصوت متزن ؛ « ما هذا يا سادة يا مهذبون ، اتركوا ذلك الفتى ، وعودوا من حيث أنيتم ، إن سائسي نظيف مثل أي إنسان ، ولا يحتاج إلى تنظيفاتكم . اتبعوا نصيحتي ، صدقوني ، فلا هو ولا أنا نحب هذا المزاج » . فقطع سنشو عليه الكلام قائلاً ؛ « فليقتربوا ، وليحاولوا أن يلمسوني ، وأنا أتحمل هذا كما أن الآن وقت ليل^(٢) . وليأتوا بمشط إذا أرادوا ، وليمشطوا لحيتي ؛ فإن وجدوا فيها أية قذارة ، فإنني أوافق على قصها » . - فقالت الدوقة ، دون أن تتوقف عن الضحك ؛ « سنشو على حق فيما يقول ، وسيكون له الحق دائما ؛ إنه نظيف ، وكما يقول ، لا حاجة به إلى أن يغسل ؛ فإذا كان عرفنا لا يسره ، فهو حر في رفضه ، أما أنتم ، يا وزراء النظافة ، فأنتم مهملون ، فاسدو الرأي لأنكم قدمتم لمثل هذه الشخصية أحواضا من الخشب وخرقا لتجفيف الأواني ؛ ولا بد أنكم قليلو الأدب ، أشرار ؛ إنكم لا تستطيعون ردع أنفسكم عن إظهار الكراهية التي تحملونها لساسنة الفرسان الجواله » .

وظن مساعدو الخدم ورئيس الخدم الذي كان يتبعهم أن الدوقة غاضبة فعلا ؛ فنزعوا الخرقة عن سنشو ، وانسحبوا في خجل . ولما رأى سنشو أنه تخلص مما بدا له خطرا كبيرا ، جثا على قدميه أمام الدوقة وقال لها ؛ « من السيدات العظيمات ينبغي أن تتوقع الخدمات الجليلة ؛ والخدمة التي أسديتها إلي يا صاحبة العظمة لا تكافأ إلا بالرغبة الشديدة في أن أسلح جوالا ، لاستخدام كل أيام حياتي في خدمة سيده عظيمة مثلك . إنني حراث واسمي سنشو پنشا ، ومتزوج ، وعندي أولاد ، وأخدم سائسا ؛ فإن كان شيء من هذه

(١) ماء معطر يسمى بهذا الاسم .

(٢) أي لن أتحمل هذا أبدا ، إذا الوقت كان ظهرا .

الأشياء يمكن أن يكون مفيدا لعظمتك ، فسأكون طوع أمرك » . - فقالت الدوقة : « من هذا يرى جيدا أنك تعلمت الأدب في نفس مدرسة الأب الرفيع ، أي أنك تلقيت دروس السيد دون كيخوته ، الذي هو زهرة المراسم ، وزبدة التحيات والمجاملات . ما أشرف السيد والخادم ، أحدهما بوصلة الفروسية الجواله ، والاخر نجم السواس المخلصين ، انهض يا عزيزي سنشو ، إني ، اعترافا بأدبك ، سأحث الدوق زوجي على تسليمك بأسرع ما يمكن الحكم الذي وعدك به » .

وهنا انتهت المحادثة . وذهب دون كيخوته لينام القيلولة ، ودعت الدوقة سنشو إذا لم يكن عنده رغبة ملحة في النوم ، أن يأتي لقضاء فترة ما بعد الظهر في قاعة عليلة الهواء معها ومع وصيفاتها . فأجاب سنشو بأنه وإن كان من عاداته أن ينام القيلولة لمدة أربع أو خمس ساعات في الصيف فإنه تقديرا لفضلها سيحاول ألا ينام ، ويطيع أوامرها ، وقد كان . والدوق هو الآخر أصدر أوامر جديدة كي يعامل دون كيخوته معاملة الفارس الجوال ، دون أي انحراف عن الأعراف المسجلة في الكتب فيما يتعلق بالفرسان الجواله في القرون الماضية .

الفصل الثالث والثلاثون

في المحادثة الشائقة التي جرت بين الدوقة ووصيفاتها
وبين سنشو بنثا، وهي خليقة بأن تقرأ وتسجل

ويروي التاريخ أن سنشو لم ينم القيلولة ذلك اليوم ، وتنفيذاً لوعده مضى إلى الدوقة التي كانت تستمتع بكلامه استمتاعاً بالغاً ، وأجلسته على كرسي واطى بجوارها ، وإن كان قد رفض هو أن يجلس ، كما يقضي الأدب الرفيع ، لكنها قالت له أنه يستطيع أن يجلس بوصفه حاكماً ، وأن يتكلم بوصفه سائساً ، قائلة إنه بهاتين الصفتين يستحق أريكة^(١) السيد القمبيطور ، روى ديثا . فأنحنى سنشو ، وأطاع وجلس . وأحاطت به وصيفات الدوقة وأنساتها ، وهن ينتظرن في صمت بالغ ماذا سيقول ؟ لكن الدوقة هي التي كانت أول من تكلم ، فقالت لسنشو : « الآن ونحن وحدنا ولا يسمعننا أجنبي ، أود أن يوضح لي السيد الحاكم بعض الشكوك التي تولدت في نفسي وأنا أقرأ تاريخ العظيم دون كيخوته . وأول هذه الشكوك هو : ما دام سنشو الطيب لم ير دلثنيا أبداً ، أقصد السيدة دلثنيا دل توبوسو ، ولم يسلمها أبداً رسالة السيد دون كيخوته ، الذي بقي في مجاهداته في سيرا مورينا (جبل الشارات) ، فكيف تجاسر على تزيف رد ، والقول بأنه رآها تغربل القمح ، وهو يعلم تماماً أن هذا كذب يسيء إلى سمعة المنقطعة النظير دلثنيا ، وغير لائق بأمانة سائس أمين ؟ » ولدى سماع سنشو لهذه الكلمات ، نهض سنشو ، وخطا بضع خطوات ، وحنى جسمه ، وأصبعه على شفتيه ، وتجول في القاعة ، ورفع المفارش ، ثم عاد بعد ذلك وجلس وقال : « الآن يا سيدتي ، وقد تأكدت أنه لا يسمعننا أحد في الخارج ، أجيبك إلى ما سألتني عنه ، وعن كل ما تريد من معرفته » . وأقول لك أولاً أنني أعتقد أن السيد دون كيخوته مجنون تام الجنون ، وإن كان في بعض الأحيان يقول - في رأيي ورأي من يسمعونه

(١) أريكة escano ، كانت هذه الأريكة من العاج ، وقد غنمها السيد القمبيطور أثناء استيلائه على بلنسية . وأهداها إلى القونسو . ملك لثشاله ، وكانت الأريكة لحفيد على المأمون ، ملك بلنسية ، بحسب أخبار السيد ، وهي في الغالب أخبار خرافية .

- أمورا عاقلة مرتبة لا يستطيع الشيطان نفسه أن يقول أحسن منها حقاً وبغير شك ، وأنا أعده مجنوناً ، واستقر هذا في ذهني حتى أنني أجعله يعتقد أمورا لا قدم لها ولا رأس ، مثل الجواب عن رسالته تلك ، لكن ما لم يستطع التاريخ المكتوب أن يقوله ، هو أنني جعلته منذ ستة أو ثمانية أيام يعتقد أن السيدة دلثنيا مسحورة ، وهذا صحيح مثل أنني أجري في هذه اللحظة على جبال أبدة » .

فسألته الدوقة أن يقص عليها حكاية هذا الانسحار ، أو هذا التزييف والتمويه ، فروى الأمور كما وقعت ، مما أمتع السامعين كثيرا . فقالت الدوقة : « إن ما قاله الطبيب سنشو ولد في نفسي شكاً جديداً ، وإنني أسمع في أذني صوتاً يقول : ما دام دون كيخوته مجنوناً ، ممروراً ، متوهماً ، وما دام سنشو بنتاً ، سائسه ، يقر بأنه هكذا ، ومع ذلك هو يخدمه ، ويتبعه ، ويعتمد على وعوده الزائفة ، فإن ينتج عن هذا من غير شك أن سنشو أكثر جنونا ، وحماسة من سيده ، وإذا كان الأمر كذلك ، يا سيدتي الدوقة ، فهل يليق بكم أن تعطوا لسنشو هذا جزراً ليحكمها ؟ إذا كان هو نفسه لا يستطيع أن يسير أمور نفسه ، فكيف يحكم الآخرين ويسوي أمورهم ؟ » - فأجاب سنشو : « والله يا سيدتي هذا الشك في محله تماماً ، وأنا أعترف لك صراحة بأنك تقولين الحق : لو كنت أنا عاقلاً لكان علي أن أترك سيدي منذ وقت طويل ، لكن هذا قدرتي وشقائي ، ولا أملك منع نفسي من متابعتي : نحن من المكان نفسه ، وأكلت من خبزه ، وأنا أحبه ، وهو ليس جاحداً ، وقد أعطاني أولاد حميره ، وفوق هذا كله أنا رجل أعترف بالجميل ، مخلص ، ولهذا لا يمكن أن يفصل بيننا إلا الموت . فإن رأيت سموك أنه من غير المناسب إعطائي الحكم الموعود به ، فإن الله خلقني في حال أدنى ، وعسى أن يكون في عدم الحصول عليه راحة لضميري . وعلى الرغم من أنني لست إلا دابة ، فأنا أعرف المثل الذي يقول : لشقاء النملة أعطيت أجنحة . وربما صعد سنشو السائس إلى السماء أسرع من سنشو الحاكم . يصنع هنا خبز جيد مثل خبز فرنسا ، وفي الليل كل القطط رمادية . بانس من لم يتغد في الساعة الثانية بعد الظهر . لا توجد معدة أكبر بشهر من أخرى ، وكما يقال : إن من الممكن أن تملأ بالقش أو بالفول . طيور البرية يمونها الله ، وأربع أذرع من جوخ قوئقة تدفئ أكثر من أربع أذرع من الجوخ الدقيق المصنوع في اشقوبية . حين نترك الدنيا يكون الطريق ضيقاً بالنسبة إلى الأمير كما هو بالنسبة إلى الأجير . جثمان البابا لا يشغل من الأرض أكبر مما يشغله جثمان خادم الكنيسة ، وإن كان أحدهما أعظم من الآخر . حين ندخل اللحد نرتب الأمور فيما بيننا أو نرتب لنا الأمور بأقل سوء ممكن ، وليلة سعيدة . وأكرر لسيادتك أنك إذا لم تريدي إعطائي

هذه الجزيرة لأني مجنون ، فسأكون عاقلا بألا أهتم بها . سمعت أن وراء الصليب الشيطان ، وأنه ليس كل ما يلتمع ذهباً ، وأنه أخذ من بين الثيران والمحارث الفلاح « ومبه » لتنصيبه ملكاً على أسبانيا ، وأخذ رودريج (لذريق) من بين الثراء والترف واللذات لالقائه إلى الأفاعي تأكله ، إذا صح ما تقوله الأغاني القديمة ، ولم تكن هذه كاذبة . - فصاحت دونيا رودريجت الوصيصة وكانت حاضرة : « كيف ، كاذبة ؟ إن أغنية تقول إن الملك لذريق سجن حياً في قبر مليء بالخنافس والأفاعي والسحالي ، وبعد يومين سمع يقول بصوت نائح :

تلتهم الجسد وترعى

من حيث خطئت كثيراً

ولهذا فإن هذا السيد له الحق في أن يفضل أن يكون حراثاً على أن يكون ملكاً ، إذا كان هؤلاء سيأكلهم الدود » .

ولم تتمالك الدوقة من الضحك من سذاجة الوصيصة ، وسرت أيما سرور بحجج سنشو وأمثاله الحكيمه . وقالت له : « أنت لا تجهل أن الفارس إذا وعد بشيء فإنه يسارع إلى تنفيذ وعده ، حتى لو كلفه ذلك حياته . والدوق ، زوجي وسيدي ، فارس ، وإن لم يكن جوالاً ، وهكذا سينفذ وعده بمنحك الجزيرة ، على الرغم من حسد الناس وخبثهم . فتشجع إذن ، ففي الساعة التي يكون الأمر فيها أبعد ما يكون عن فكرك ، ستري نفسك جالساً على عرش جزيرتك ، ودولتك ، وستتولى الحكم ، اللهم إلا إذا استبدل به ما هو أهم . وكل ما أوصيك ، هو أن تهتم خصوصاً بطريقة سياسة رعيتك ، لأنني أنبهك أنهم جميعاً مخلصون أخيار طيبون . » - فقال سنشو : « أما عن حسن الإدارة والحكم ، فلا ضرورة لتوصيتي به ، لأنني محسن بطبعي ، وأعطف على الفقراء ، ومن يعجن ويخبز لا أنتزع منه خبزه . وبحياتي ! لن يوقعني أحد في الباطل ، فأنا كلب عتيق وأسمع الصفارة ، وأعرف كيف أتأثر عند اللزوم . ولا أسمح بإمرار الغيوم أمام عيوني ، لأنني أعرف أين يوجعني الحذاء . وأقول هذا حتى يكون مفهوماً أن الأخيار سيجدون عندي حسن اللقاء والترحيب ، ولكن الأشرار لن يضعوا قدماً ولن يدخلوا . ويبدو لي أنا أنه فيما يتصل بالحكم المهم هو البداية ، ويجوز أن يحدث أنه بعد خمسة عشر يوماً أعرف مهنة الحكم خيراً من مهنة الحرث التي نشئت فيها » - فقالت الدوقة : « أنت على حق يا سنشو ، فالإنسان لا يولد تام التعليم ، والأساقفة يصنعون من الناس ، لا من الحجارة . لكن لنعد إلى انسحار السيدة دلثنيا . إنني متأكد وأرى أنه مما لا نزاع فيه أن الفكرة التي خطرت ببالك من خداع مولاك ، بجعله يعتقد أن الفلاحة



الدوقة وسنشو

هي دلثنيا ، وأنه إذا لم يتعرفها فالسبب في أنها مسحورة ، أقول إنني أعتقد واثقة أن هذه الفكرة قد أوحى بها إليك مكر واحد من السحرة الذي يلاحقون ويضطهدون السيد دون كيخوته : لأنني أعلم تمام العلم ومن مصدر وثيق أن تلك الفلاحة التي قفزت على الحمار كانت فعلا وحقا دلثنيا دل توبوسو نفسها : بحيث أنه بينما اعتقد سنشو أنه خدع سيده ، فالواقع أنه هو الذي انخدع . وينبغي عليك ألا تشك في هذا مثلما أنه لا ينبغي لك أن تشك في الأمور التي لم تشهد بها بعد : ومن الخير أن نعرف أن بيننا نحن سحرة يحبوننا ويخبروننا بأمانة عن كل ما يجري في الدنيا ، دون أن يخدعونا ولا أن يوقعوا ذلك في أوهامنا نعم يا سنشو ، صدقني ، إن الفلاحة التي كانت نشيطة جدا في القفز على حمارتها هي دلثنيا ، التي هي مسحورة انسحار أمها التي ولدتها . وحين نكون أبعد ما تكون عن التفكير منها ، سنراها بشكلها الحقيقي ، وتقر أنت بالخطأ الذي وقعت فيه » .

فقال سنشو : كل هذا جائز ، ومنذ الآن لن أجد صعوبة في تصديق ما يقول مولاي أنه رآه في كهف مونتينوس ، إذ ادعى أنه قابل السيدة دلثنيا بالزي نفسه الذي نسبته إليها حين جعلتها أنا مسحورة على هوا ، بينما الأمر بالعكس كما تقولين ، لأنه لا يمكن أن نفترض أن عقلا ثخيناً مثل عقلي قد تخيل في وقت قصير مثل هذا الخداع الرقيق ، ومن ناحية أخرى لا أستطيع أن أصدق أن سيدي من الجنون بحيث يصدق أمورا غير معقولة حقا ، استنادا إلى حجة واهية مثلي أنا . ومع ذلك فإني لا أريد منك يا سيدتي أن تحسبيني لهذا السبب سيء النية ، فإن خلقا مثلي لا يمكن أن يكون من الذكاء بحيث ينفذ إلى أفكار ومكائد السحرة الخبيثاء ، ولقد تخيلت هذه الحيلة للتهرب من مضايقات مولاي ، لا بقصد إهانته ، فإن كانت قد انقلبت عن وجهها ، فالله موجود ، وهو يقرأ ويعلم ما في القلوب .

فقالت الدوقة : أنت على حق ، لكن قل لي ، ما كهف مونتينوس هذا الذي تتكلم عنه ؟ إنني شغوف لمعرفة هذه المغامرة .

هنالك روى لها سنشو بالتفصيل كل ما قرأناه من قبل عن هذا الموضوع . فقالت الدوقة بعد سماعها لهذه الحكاية : « أظن أنه يجب أن نستنتج من هذه المغامرة أنه ما دام دون كيخوته العظيم يقول إنه شاهد الفلاحة نفسها التي لقيها سنشو ، وهو خارج من توبوسو ، أنها هي دلثنيا بعينها : فالسحرة هنا أناس لطاف ومتطلعون » .

فقال سنشو : على كل حال إذا كانت السيدة دلثنيا مسحورة فتبا لها : فإني لا أريد أن أشغل نفسي بنزاع مع أعداء مولاي وعددهم لا بد كبير وهم أشرار . إن التي رأيتها أنا كانت فلاحة لقد حسبتها وحكمت عليها بأنها فلاحة ، فإن كانت هي دلثنيا ، فإني لا

أستطيع شينا في هذا الأمر ، ولا ينبغي أن يطلب مني حساب عنه . وإلا لتعلقوا بي وقالوا في كل لحظة : سنشو قال هذا ، سنشو فعل هذا ، سنشو يدور ، سنشو يلف ، كما لو كان سنشو أي واحد من عرض الطريق ، ولي نفس ذلك السنشو پشا الذي يتحدث عنه الناس في أنحاء العالم ، بحسب ما قال لي سمسون كرسكو ، وهو ليس أقل من حامل البكالوريا من شملتقة . ومثل هؤلاء الناس لا يمكن أن يكذبوا : اللهم إلا من حيث يلذ لهم أو يلائمهم أن يكذبوا وهكذا لا يستطيع أحد أن يتعلق بي ، ويمسك بمخنقي ، وأنا رجل حسن الصيت ، وقد سمعت مولاي يقول إن حسن الصيت أفضل من الحزام المذهب . فليضعون إذن في حكومة جيدة وسترون العجائب ومن استطاع أن يكون سائسا جيدا ، يستطيع أن يكون سياسياً جيداً .

فأجابت الدوقة : كل ما قاله سنشو الطيب كلمات كاتونية ، أو على الأقل مستمدة من أحشاء ميخائيل فرينو^(١) ، « الذي مات في زهرة عمره » ، وعلى حد تعبيره : تحت معطف رديء غالبا ما يرى شارب جيد » .

فقال سنشو : سيدتي ، إنني لم أشرب عن خبث أبدا ، عن عطش ، ربما ، لأنني لست منافقا : إنني أشرب حين أرغب ، وأحيانا حين لا أرغب ، إذا ما قدم لي خمر ، حتى لا أظهر بمظهر المتكبر القليل الأدب ، لأنه إذا تعلق الأمر بالمشاركة مع صديق ، فلا بد أن يكون قلب المرء قد من المرمر ليرفض الاستجابة إليه لكنني إذا لبست سراويل « تبا » فإني لا أوسخه . ثم أن سواس الفرسان الجواله يشربون الماء غالبا أكثر مما يشربون النبيذ ، لأنهم دائما في الغابات والأحراش والمروج ، وعلى الجبال ، والصخور ، ولا يجدون قطرة واحدة من النبيذ حتى لو كلفهم ذلك إنسان عينهم .

فقالت الدوقة : وأنا أعتقد هذا . لكن إذ ذهب الآن واسترح : وسنستأنف الحديث في ساعة أخرى . وسنصدر الأوامر كي تذهب وشيكا إلى حكومتك .

مرة أخرى قبل سنشو يدي الدوقة ، ورجاها أن تعمل على أن يعامل الرمادي معاملة حسنة قائلا إنه إنسان عينه . فقالت وما هذا الرمادي ؟ . فقال سنشو : « حماري الذي لا أود أن أسميه بهذا الاسم ، ولهذا أطلقت عليه اسم « الرمادي » . وحين دخلت هذا القصر رجوت السيدة الوصيفة هذه أن تهتم به : فغضبت ، كما لو كنت قلت عنها أنها عجوزة أو دميمة ، ومع ذلك فإن الوصيقات وجدن بالأحرى من أجل العناية بالركائب أولى من التحكم

(١) ميخائيل فرينو (١٤٦٨ - ١٤٨٧) مؤلف كتاب باللاتينية عنوانه : « أقوال في آداب الصبيان » . . سرسطة سنة ١٥٢٥ ، والجملية التالية « الذي مات... » هي استهلال رثائه الذي ألفه بوليغيانو ، وقد وردت باللاتينية . وقد توفي في سن التاسعة عشرة من عمره .

في الصالون ، يا لله كم كن سيقضين وقتا سيئا مع نبيل من قريتي . » - فقالت دونيا رودريجت : « لا بد أنه شرير وغد ، لأنه لو كان رجلا مهذبا حسن التربية لرفعهم فوق دارة القمر . » - فقالت الدوقة : « كفى ، اسكتي يا دونيا رودريجت ، وليطمئن سنشو ، فإنني سأتولى رعاية حماره ، وما دام هو حليته ، فسأرعاه كأنسان عيني . » - فقال سنشو : يكفي يا سيدتي أن يكون في الاسطبل : فلا أنا ولا هو جدير في أية لحظة بأن يعنى به كأنسان عيني عظمتك ، ولا أقبل هذا بأي حال من الأحوال : وعلى الرغم من أن مولاي يقول أنه في مسائل الأدب والمجاملات الأحسن أن يتجاوز المرء الحدود خيرا من البقاء في المؤخرة ، فإنه مع الحمير ينبغي السلوك والفرجار في اليد وبحساب . » - فقالت الدوقة : يا سنشو ستأخذ حمارك معك في حكومتك ، وهنالك تستطيع أن تمتعه كما تشاء ، وتعفيه من العمل . » - فقال سنشو : « لا تظني أنك تمزحين يا سيدتي ، فقد رأيت أكثر من حمارين في الحكومات ، وعلى هذا فإن أخذ حماري إلى هناك لن يكون شيئا جديداً . »

وأثارت كلمات سنشو ضحك الدوقة مرة أخرى . وأرسلته - ليستريح ، وراحت هي تقص على الدوق كل ما حدث . واتفقا على وسائل تدبير مزحة لطيفة مع دون كيخوته ، تتفق مع أسلوب الفروسية الجواله ، وأفلحوا في هذا بمهارة فائقة ، حتى أن هذه المفامرات هي أجمل ما يحتوي عليه هذا التاريخ العظيم .

الفصل الرابع والثلاثون

حيث يروى كيف اكتشفت وسيلة لرفع السحر عن المنقطة النظير
دلثينا دل توبوسو، وهي احدي المغامرات
الأكبر شهرة في هذا الكتاب

استمتع الدوق والدوقة استمتعا شديدا بمحادثة كيخوته ومحادثة سنشو . ولما كانا قد قررا وصمما على أن يدبرا مزاحمة مع ضيفيهما يبدو عليها أنها مغامرة فإن كهف مونتينوس أعطاهما فكرة تدبير مزاحمة من النوع نفسه . لكن ما أعجب الدوقة فوق كل شيء هو سداجة سنشو ، الذي صار يظن أن انسحار دلثينا أمر حقيقي واقعي ، مع أنه هو مخترعه . وبعد ستة أيام وبعد أن لقنوا رجالهما الأدوار المختلفة التي عليهم أن يقوموا بها ، اقتادوا الفارس (دون كيخوته) إلى حفلة صيد عظيمة ، مع جهاز جيد يليق برأس متوج وأعطى دون كيخوته وسنشو ملابس صيد ذات لون أخضر رقيق ، لكن دون كيخوته رفض حلتها ، لأنه رأى أن عليه أن يعود إلى مهنة السلاح الشاقة ، فلم يكن يستطيع أن يحمل ملابس معه . أما سنشو فقد قبل راضيا ما قدم إليه ، مع نية بيعه في أول فرصة .

ولما جاء اليوم المحدد للحفلة ، تسلح دون كيخوته ، ولبس سنشو حلتها الجميلة ، وركب حماره ، وإن كانوا قد قدموا إليه فرسا ، وبهذا الزي والاستعداد اختلط مع جماعة الصيادين . وبدت الدوقة لابسة فاخر الثياب ، وسارع دون كيخوته كفارس مهذب ، إلى الامساك بعنان فرسها المطهم ، وإن كان الدوق أراد أن يعارض في هذا . وأخيرا وصلوا إلى غابة قائمة بين جبلين عاليين ، ووزعت الجماعة ، واتخذ كل مكانه ، وأخذ يترصد ، وبدأ الصيد ، بضوء شديدة وتصفيقات عالية حتى لم يكن في الوسع التفاهم بين بعضهم وبعض ، بسبب ضجة الأبواق ونباح الكلاب ونزلت الدوقة عن فرسها ، وتسلمت بحربة حادة جدا ، ووقفت في موضع تعرف أن الخنازير البرية تمر منه ، واقتدى دون كيخوته والدوق بها ، ووقفا على جانبيها ، ووقف سنشو خلفهم ، دون أن ينزل عن حماره إذ لم يجروا على مفارقتة خوفا من الإصابة بسوء ولم يكادوا يصطفون صفوفًا مع كثير من رجالهم ،

حتى شاهدوا قادمة إليهم خنزيرا متوحشا ، كان يعضض بأسنانه ويلقي من فمه بالرغوة ، وكانت تطارده الكلاب وتتلوها جماعة الصيادين . وفي الحال لبس دون كيخوته ترس ، واستل سيفه ، وتهيأ لاستقباله ، وفعل الدوق الشيء نفسه بحريته ، لكن الدوقة كانت تريد أن تسبقهما لولا أن منعها زوجها . وسنشو وحده لما رأى هذا الحيوان الرهيب قفز من فوق حماره ، وأخذ في الجري قدر المستطاع وحاول تسلق سديانة ، لكنه لم يفلح في هذا إذ لم يبلغ نصف الشجرة وهو يريد الوصول الى القمة حتى انكسر غصن تحته ، فسقط وتعلق بغصن وظل على مسافة بضعة أقدام من الأرض دون أن يستطيع الوصول اليها . وفي هذا الوضع وقد أحس بأن الكسوة الخضراء الجميلة تتمزق ، وخاف أن يصيبه الوحش إذا مر ، فأخذ يصيح صيحات عالية طالبا النجدة حتى أن الذين سمعوه ظنوا أنه بين فكي حيوان مفترس . وأخيرا وقع الحيوان ذو الأنياب الحادة تحت ضربات الصيادين . فهرع دون كيخوته حينئذ إلى صرخات سنشو ، وقد تبينها بسهولة ، فوجده معلقا في غصن ، ورأسه إلى أسفل ، وإلى جواره حماره الذي لم يتركه في محنته . ولهذا فإن سيدي حامد يلاحظ عند هذا الموضوع ، أنه لم يشاهد سنشو بدون حماره أبدا ، ولا الحمار بدون سنشو ، لأن صداقتهم عظيمة وإيمان كليهما بالآخر عميق . فأنزله دون كيخوته ، ولما رأى نفسه حرا وعلى الأرض فحص حزينا تمزقات حلتها ، مما أدمى قلبه ، لأنه كان يعتقد أنه بهذه الحلة يملك ضيعة .

وفي تلك الأثناء رفع جسم الخنزير البري المتوحش ، وغطى بإكليل الجبل وأغصان الاس ، وحمل على بغل ، ثم نقل في احتفال ، ووضع تحت خيام نصبت في وسط الغابة ، وهناك كانت المائدة قد وضعت ، وقدم الطعام بوفرة وفخامة جديرتين بسخاء رب الضيافة . وقال سنشو وهو يري الدوقة حلتها الممزقة : « لو كان صيدا للأرانب أو الطيور الصغيرة ، لما كانت حلتني على هذه الحال . ولا أدري أية لذة يمكن أن توجد في مطاردة حيوان يمكنه أن ينتزع الحياة بضربة من أسنانه وأذكر أنني سمعت أغنية قديمة تقول : « التهمتكَ الدببة مثل فافيللا الشهير » - فقال دو كيخوته : « لقد كان هذا أحد ملوك القوط ، وقد التهمه دب أثناء الصيد » - فقال سنشو : « وهذا ما أقوله ، إنني لا أريد أن يعرض الملوك والأمراء أنفسهم عن طيب خاطر ، لمثل هذه المخاطر ، من أجل لذة ليست لذة ، لأنها عبارة عن قتل حيوان مسكين لم يرتكب أي ذنب » - فقال الدوق : « أنت مخطئ يا عزيزي سنشو : إن ممارسة صيد الحيوان الكبير ضرورية ، وتناسب الملوك والأمراء أكثر من غيرها ، إن الصيد صورة من صور الحرب : ففيه مكايدها ، وخداعها ، وكماثنتها ،

للانتصار على العدو بدون خطر ، وفيه يعاني المرء من قسوة البرد ، وحمارة القيظ ، وينفي النوم والراحة ، ويكتسب الجسم بواسطته قوة جديدة ، والأعضاء خفة ومرونة أكثر ، والخلاصة أنه تمرين يمكن ممارسته بغير الاضرار بأحد ، ويسر الكثيرين . وأفضل ما فيه أنه ليس لكل الناس ، مثل سائر أنواع الصيد ، فيما عدا صيد الطيور ذوات الطيران العالي ، وهو أيضا مخصص للملوك وكبار النبلاء ، وعلى هذا فعليك يا سنشو أن تغير رأيك ، وحين تصبح حاكما إذهب إلى الصيد ، وسترى أنك ستستمتع وتستفيد به » .

فأجاب سنشو : لا إن الحاكم الصالح رجله مكسورة ويبقى في بيته ، إذ سيكون عجيبا حقا أن يتعب الذين لهم أعمال معه في البحث عنه ، بينما يكون هو في الغابات يستمتع . هنالك يفسد الحكم . والحق يا سيدي أن الصيد والملاهي صفة بالأحرى للكسالى لا للحكام . والتسلية الوحيدة التي سأسمح لنفسي بها هي تسيير المواكب في الأعياد الأربعة الكبرى في العام ، واللعب بالكرة في أيام الأحاد والأعياد . أما كل تلك الألوان من الصيد فلا تناسب حالتي ، ولا تتفق مع ضميري .

فقال الدوق : نرجو الله أن يكون الأمر كذلك ، لأن بين القول والعمل مسافة طويلة . فأجاب سنشو : طويلة إلى أبعد حد تشاء ، والدافع المليء لا يرفض أن يعطى ضمانات (رهونات) ، من يكن الله في عونه يفلح أكثر ممن يصحو مبكرا ، البطن تجعل الأقدام تمشي ، وليست الأقدام هي التي تجعل البطن تمشي ، أقصد أنه إذا ساعدني الله ، وإذا فعلت ما علي بقصد حسن ، فسأحكم خيرا من النسر . ليضعوا الاصبع في فمي وسيرون هل أعض أو لا .

فقال دون كихوته : لعنك الله وكل القديسين ، متى يأتي اليوم الذي فيه ، كما قلت لك مرارا ، تقول كلاما معقولا مرتبا بغير أمثال ، لتتركوا سيادتكم هذا المجنون ، وإلا لأزعجكم بآلاف الأمثال التي يلقيها دون مناسبة ، والله يرضى صحتي إذا كنت أريد سماعها .

فقالت الدوقة : إن أمثال سنشو ، وإن كانت أكثر عددا من أمثال الكومندادور^(١) اليوناني ، فإنها ليست أقل قيمة من أجل إيجاز العبارة ، أما أنا فأني مسرورة بها أكثر من تلك التي هي أجمل قليلا وأكثر مناسبة .

(١) كان هذا لقبا أطلق على فرناندو نونيث قزمان . وكان يلقب بلقب البنياندي ، لأنه ولد في بلد الوليد واسمها عند الرومان « بنشيا » . وكان من فرسان طريقة شنت يعقوب ، وصار أستاذا لليونانية واللاتينية والخطابة في جامعة شلمنقة ، مما جعلهم يطلقون عليه لقب الكومندادور اليوناني . وقد اهتم خصوصا بجمع عدد كبير جدا من الأمثال الإسبانية ، بقصد نشرها مع شرحها ، لكن حال بينه وبين ذلك موته في سنة ١٥٥٣ ، وظهرت هذه المجموعة فيما بعد .

وخرجت الجماعة ، وهم يخوضون في هذا الحديث ، من الخيمة من أجل تفقد الشباك التي نصبوها . وانحدر النهار وأقبل الليل ولم يكن صافيا ساجيا كما كان يرجى ، إذ كان الوقت في منتصف الصيف ، وشيء من الوضوح - الغامض انتشر في الجو وساعد كثيرا على الاستعدادات التي أمر بها الدوق . وفجأة ، وبعد الأصيل بقليل ، بدت الغابة من زوايا الأفق الأربع مشتتة ، وسمع من كل ناحية ضوضاء ، الأبواق وسائر أدوات الحرب ، وكأنها جماعات كبيرة من الفرسان تمر في الغابة ، وسطوح النار ، وضجة الآلات الحربية تعمي وتصم كل جماعة الصيادين . وبعد قليل سمعت تكبيرات ، على طريقة المغاربة حين يدخلون المعركة . والأبواق والطبول والصفارات رنت في وقت واحد ، بقوة واستمرار لا بد أن يتأثر به المرء ، وإلا كان لا يحس . فاضطرب الدوق ، وأرتج على الدوقة ، ودش دون كيخوته ، وارتعدت فرائص سنشو خوفا ، والذين كانوا يعرفون الحقيقة هم أيضا ذعروا . لقد فرض الخوف الصمت عليهم ، وفي تلك اللحظة شوهد ساعي البريد متدثرا في زي عفریت ، وهو ينفخ في بوق ضخم ، ذي صوت أصحل رهيب فقال له الدوق : « صه يا أيها الساعي ! من أنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ ومن هم المحاربون الذين يريدون أن يخرقوا هذه الغابة ؟ » .

فأجاب ساعي البريد بصوت مروع سريع : « إنني أبحث عن دون كيخوته دلا منتشبا ، والذين يتبعونني جماعة من السحرة يحضرون المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، محمولة على عربة نصر ، لقد أتت مسحورة ، مع الشجاع الفرنسي موتسينوس ، لتخبر دون كيخوته عن الطريقة التي ينبغي بواسطتها رفع السحر عن هذه الأميرة (دلثنيا) . فقال الدوق : « إذا كنت أنت الشيطان ، كما تقول ، وكما يدل عليه وجهك وشكلك ، لكنت قد تعرفت الفارس دون كيخوته دلا منتشبا ، لأنه أمامك .

فقال الشيطان (ساعي البريد) : « بحق الله وضميري إنني لم أشاهده ، إن في رأسي كثيرا من المشاغل ، لدرجة أنني نسيت الأمر الرئيسي الذي من أجله قدمت . فقال سنشو : « لا شك في أن هذا الشيطان رجل طيب تقي مسيحي ، لأنه يحلف بالله ويضميره . وأنا أعتقد الآن أنه في الجحيم نفسه يمكن أن يوجد ناس طيبون .

ودون أن ينزل الشيطان عن ركوبته مضى ووقف أمام دون كيخوته وقال له « إليك يا فارس الأسود (أراك الله بين مخالبيها) أرسلني الشجاع البائس موتسينوس لأطلب إليك أن تنتظره في هذا المكان ، لأنه يقتاد معه تلك التي تدعى دلثنيا دل توبوسو ، ويريد أن يجعلك تعرف وسائل رفع السحر عنها . أما عن نفسي ، فلأني لم آت من أجل أمر آخر ،

فإني لن أتوقف طويلا . ولتبق العفاريت التي من نوعي معك ، والملائكة الطيبون مع هؤلاء السادة » . ولما قال هذه الكلمات ، صاح في نفيه ، وأدار ظهره ، ومضى دون أن ينتظر الجواب .

وصارت دهشة الجميع بالغة ، خصوصا دون كيخوته وسنشو . ولم يفهم سنشو أنه على الرغم من الحقيقة فإن هؤلاء يعتقدون أن دلتنيا مسحورة ؛ ولم يستطع دون كيخوته أن يقرر على وجه اليقين هل ما رآه في كهف مونتسينوس حق أو لا . ولما كان مستغرقا في تأملاته ، سأله الدوق هل قرر الانتظار . فقال دون كيخوته : « ولم لا ؟ سأنتظر هنا بقدم ثابتة كل الجحيم » . وقال سنشو : « وأنا إذا رأيت عفريتاً آخر ، وسمعت بوقاً آخر ، فإنني سأنتظر هنا كما أني هنا في الفلاندر^(١) » .

وطوال هذا الوقت ، صار الليل مظلماً ، وشوهد في الغابات أضواء تجري شبيهة بتلك الأنفاس الجافة المنبعثة من الأرض وترتفع في الهواء وتظهر نجوما مذنبه . ثم سمعت بعد ذلك ضجة مروعة ، شبيهة بالضجة التي تحدثها العجلات الضخمة لعربات تجرها الثيران ، التي تجعل صراخها الحاد المستمر الذئب والدببة تهرب . وتلت هذه العاصفة أخرى أشد هولاً وبدا أنه في أركان الغابة الأربعة ، كان ثم أربع معارك . وهنا كان يمزق السمع فرقعات مدفعية هائلة ؛ وهناك انطلقت آلاف البنادق ، وفي موضع ثالث سمعت صيحات المقاتلين ، وفي الموضع الرابع تكبيرات المغاربة . وأخيرا الأبواق ، وقرون الصيد ، والترومبيتات ، والكليرونات والطبول والمدفعية والبنادق ، وفوق كل شيء ضجة العربات الهائلة ؛ كل هذه أحدثت ضجة هائلة ، احتاج معها دون كيخوته إلى كل شجاعة لتحملها ؛ لكن سنشو لم يستطع مقاومة الخوف . فسقط مغشياً عليه عند قدمي الدوقة ، فأمرت بإحضار ماء ليرش على وجهه . فعاد إلى وعيه في اللحظة التي ظهرت فيها إحدى العربات ذات الضجيج ؛ وكان يقود العربة أربعة ثيران ضخمة ، كلها مغطاة بالقماش الأسود ، ويحمل في كل قرن شعلة كبيرة مشتعلة . وعلى العربة نصب عرش جلس عليه شيخ وقور ، ذو لحية أبيض من الثلج ، طويلة بحيث تجاوزت الحزام ؛ وكان يلبس عباءة طويلة من البوكاسان الأسود . وكانت الأضواء التي تضيء العربة تكشف عن كل ما فيها ؛ وكان يقودها عفريتان يلبسان من نفس البوكاسان ، وكانا قبيحين ، مخيفين ذوي وجهين مفزعين ، حتى أن سنشو أغمض عينيه كي لا يراهما . ولما وصلت العربة إلى أمام الجماعة ، وقف الشيخ العجوز وقال : « أنا الحكيم

(١) أي لن أنتظر أبداً .

لير جندي» . وتابعت العربة طريقها . وتقدمت عربة أخرى بالطريقة نفسها ، وعليها شيخ عجوز آخر ، أوقف العربة وقال بجلال مثل الأول : « أنا الحكيم القيف ، الصديق الكبير لاورجنده المتجاهلة » ، وتابع طريقه . وظهرت عربة ثالثة شوهد عليها ، لا شيخ مثل العربتين الأخريين ، بل رجل قوي البنية كرية الطلعة : ولما توقف قال بصوت أصحل شيطاني : « أنا الساحر أرخلاوس ، العدو اللدود لأماديس الغالي وكل جنسه » : ثم مر هو أيضا . وسارت العربات الثلاث بضع خطوات ثم توقفت : وهنالك توقفت ضجة عجالاتها غير المحتملة ، وسمع صوت موسيقى عذبة منسجمة أطربت سنشو ، وبدت له فألا حسنا ، ولهذا قال للدوقة ، التي لم يبتعد عنها لحظة : « سيدتي ، حيث توجد موسيقى ، لا يمكن أن توجد أمور سيئة » . فأجابت الدوقة : « ولا حيث يوجد النور والوضوح » . - فقال سنشو : « النار تعطي النور ، والحرائق تعطي الوضوح ، كما تري فيما حولنا . ولكن الموسيقى هي دائماً علامة على الأعياد والاحتفالات والمتع » . فقال دون كيخوته ، وكان يصغي إليهما : « إنه على حق » . وقوله كان صوابا ، كما ستري في الفصل التالي .

الفصل الخامس والثلاثون

حيث يتابع ذكر وسيلة رفع السحر عن دلتينا
وأحداث أخرى رائعة

وعلى صوت هذه الموسيقى العذبة ، شاهدوا عربة تتقدم ، من ذلك النوع الذي يسمى عربة النصر ، وتجرها ستة بغال رمادية يكسوها قماش أبيض . وعلى كل بغل ركب تواب يلبس البياض ، ويحمل في يده شعلة كبيرة ، وكانت العربة أكبر بمترين أو ثلاثا من العربات الأخرى ، وكانت على الجوانب وعلى العربة اثنا عشر توابا أبيض من الثلج ، يحملون شعلات مشتعلة . وأشاع هذا المنظر الخوف والدهشة معا . وفي وسط العربة على منصة مرتفعة كانت حورية منطاة بشاش فضي ، يلمع فيه رقائق الذهب ، مما أضفى عليها هندا إن لم يكن غنيا فهو لامع . وكان على وجهها نقاب من الشاش خفيف شفاف ، لا يحجب القسمات الدقيقة لفتاة جميلة سنّها بين الثامنة عشرة والعشرين . وبالقرب منها شخص يلبس رداء طويلا ويغطي رأسه بنقاب أسود .

ولما صارت العربة قبالة الدوق ودون كيخوته ، توقفت نغمات الشبابات ، وموسيقى الهاربات والأعواد ، التي كانت تعزف على العربة . ووقف الشخص الطويل الرداء ، وفتح ملبسه ، وأنزل قناعه ، وكشف عن وجه الموت ، الهزيل المخيف حتى أن دون كيخوته خاف ، وسنشو ارتعد ، وبدا الخوف على وجهي الدوق والدوقة . وأخذ «الموت» الحي يتكلم بصوت بطيء ، متناوم ، وقال :

«أنا مرلان ، الذي تقول عنه الحكايات إن أباه الشيطان (وهذا كذب بث الزمان التصديق به ؟) وإنه أمير السحر ، وسلطان وخزانة علم زرادشت ، ومنافس القرون والعصور ، التي تدعي إغراق أعمال الفرسان الجواله الشجعان ، الذي أحمل لهم دائما ولا أزال ودا كبيرا .
«ولئن كان مزاج السحرة والمجوس والكهان دائما قاسيا شديدا حادا ، فإن مزاجي رقيق ، لطيف ، عاشق ، مولع بفعل الخير للجميع .

«وفي كهوف المصير^(١) المظلمة ، التي انشغلت فيها نفسي بتكوين الأخلاق والأشكال السحرية ، جاءني الصوت النائح ، صوت الجميلة المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو . وعرفت انسحارها ، ومحتها ، وتحولها من سيدة مهذبة إلى قروية جلقة ، وتأثرت عطفًا وشفقة ، ثم أغلقت على روحي في تجويف هذا الهيكل الفظيع ، بعد أن تصفحت مائة ألف كتاب في علمي الشيطاني العاثر ، وأتيت لأقدم العلاج المناسب لهذا الداء العضال ، وهذا الألم الشديد .

«وأنت ، يا شرف ومجد كل الذين يلبسون قمصان الصلب والماس ، أي نور ، ومصباح ، ودليل وبوصلة أولئك الذين تركوا النوم الثقيل والريشة المتبيلة ، ووافقوا على اتخاذ مهنة الأسلحة الثقيلة الدامية ، وهي مهنة شاقة ،

« لك أقول ، أيها البطل الذي يقصر عن حقه طويل الثناء ، الشجاع الألمعي معا ، أي دون كيخوته ، مجد المنتشا ، وكوكب أسبانيا ، إنه من أجل رد المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو إلى حالتها الأولى ، لا بد أن يضرب سنشو - سانسك - نفسه ثلاثة آلاف وثلاثمائة ضربة بالسوط على ردفه الكبيرين ، وهما عاريان في الهواء ، بحيث يتألم ألما شديدا وتبقى آثار الضربات عليهما . هذا ما قرره كل الذين أسهموا في صنع محتها ، ومن أجل هذا جئت إلى هنا ، يا سادة » .

فصاح سنشو : آه! سأضرب نفسي لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاث ضربات بالسوط ، مثل ثلاث ضربات بالسكين . وإلى الشيطان طريقة رفع السحرا وما من شأن ردفني بالانسحارات ؟ يا لله! إذا كان السيد مرلان لم يجد وسيلة أخرى لرفع السحر عن السيدة دلثنيا دل توبوسو ، فإنها يمكنها أن تبقى مسحورة حتى القبر .

فصاح دون كيخوته : وأنا سأمسك بك ، أيها الدون الجلف المحشو بالشوم وأربطك في شجرة ، عاريا كما ولدتك أمك ، وأضربك ، لا ثلاثة آلاف وثلاثمائة ، بل ستة آلاف وستمائة ضربة بالسوط ، وبإحكام شديد بحيث لا تستطيع التخلص منها بثلاثة آلاف وثلاثمائة هزة من وسطك ، ولا ترد علي بكلمة واحدة ، وإلا انتزعت روحك » .

فلما سمع مرلان هذا ، قال : كلا ، ينبغي ألا يتم الأمر هكذا ، بل لا بد أن تكون ضربات السوط التي يتلقاها سنشو تعطى له بمحض إرادته ، لا بالقوة ، وفي اللحظات التي يلذ له أن يختارها ، لأنه لم يحدد له وقت معين . ومع ذلك فإنه إذا أراد أن يتخلص

(١) لي الأصل : « ديه » لقب إله العالم السفلي بلوتون .

من نصف هذا العدد ، فإنه يستطيع ذلك بشرط أن يكون ضاربه يدا أجنبية ، حتى لو كانت ثقيلة...

فقال سنشو ، لا أجنبية ، ولا ثقيلة ، ولا خفيفة ، ولا أية يد ستمسني . وهل أنا ، مثلا ، الذي ولدت السيدة دلثنيا دل توبوسو ، حتى تدفع أردافي ثمن الخطيئة التي ارتكبتها عينها الجميلتان ؟ هذا حسن بالنسبة إلى مولاي ، إذ هو جزء منها ، ما دام يدعوها في كل خطوة ، حياتي ، نفسي ، روحي ، سندي . إنه يمكنه ويجب عليه أن يضرب نفسه بالسوط من أجلها ، ويقوم بكل الاجراءات الضرورية لرفع السحر عنها ، أما أن أجلد أنا ؟ فهذا ما أرفد^(١) .

ولم يكذ سنشو يفرغ من هذه الكلمات حتى نهضت الحورية الفضية التي كانت واقفة إلى جوار روح مرلان ووقفت ، ونحت نقابها الخفيف ، وكشفت عن وجه بدا للجميع مفرط الجمال جدا ، ثم ، بحركة رجولية وصوت قوي قليل الأنوثة ، وجهت الكلام مباشرة إلى سنشو بنتا قائلة :

- أيها السائس الشقي ، يا قلب الدجاجة ، وروح البرنز ، وأحشاء الحصى والحجارة ، إذا أمرت ، أيها اللص الوقح ، أن تلقي بنفسك من برج عال وإلى أسفل ، وإذا طلب منك ، يا عدو الجنس البشري ، أن تأكل عشرات من العلاجم ، وضعفها من السحالي ، وثلاثة أضعافها من الأفاعي ، وإذا أقنعت بأن تقتل زوجتك وأولادك بحد صفيحة^(٢) فظيعة ، فلن يكون من المدهش أن تظهر السخط وتقطب الجبين . أما أن تصرخ بسبب ثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة ، بينما لا يوجد تلميذ من اخوان المذهب ، أيا من كان سيئا ، لا يتلقى مثلها شهريا ، هذا في الحق شيء يدعو إلى الدهشة ، والحيرة ، ويذهل الأحشاد المسكينة لكل الذين يسمعون مثل هذا الجواب ، بل وكل أولئك الذين سيعرفون ذلك على مجرى الزمان . أيها الحيوان الشقي الغليظ ، ألق عينيك ، عيني البغل الهباب ، على حدقة عيني ، اللامعتين كالنجوم الساطعة ، وستراهما تبكيان قطرة قطرة ، نهرا فنهرا ، تخط أخاديد ، وطرقا ودروبا . خلال الحقول الجميلة في خدي . أنظر ، أيها المرائي الشرير ، أيها الوحش السيئ النية ، أنظر زهرة سنواتي التي لم تبلغ العشرين ، لأن عمري تسع عشرة سنة لا عشرين ، أقول أنظر زهرة سنوات تستهلك تحت اللحاء الخشن لفلاحة ، لأنني إذا كنت في

(١) في النص الأصلي كلمة لاتينية Abernuncio محرفة عن الكلمة Abrenuntio اللاتينية التي يستعملها الخاطي ، تما لطقوس الكنيسة الكاثوليكية ، حين يرفض الشيطان وأعماله وما يزينه .

(٢) الصفيحة ، السيف العريض .

هذه اللحظة أبدو بشكل آخر ، فهذا فضل عظيم من السيد مرلان ، الحاضر هنا ، الذي أراد أن يجعلك ترق لجمالي ، لأن دموع الجميلة المحزونة تحول الصخور إلى قطن ، والنمور إلى نعاج . اضرب إذن هذا اللحم السميك ، أيها الدابة العنيدة ، وأخرج من هذا الكسل الجبان الذي يجعلك لا تصلح إلا للأكل والأكل باستمرار . أعد إلي رقة بشرتي ، وحلاوة طبعي ، وجمال وجهي . وإذا لم أستطع ترقيق قلبك ، وردك إلى الشعور المعقول ، فدع نفسك ترق لهذا الفارس المسكين الواقف إلى جوارك ، مولاك ، التي روحه في وسط الحلقوم ، وعلى عشرة أصابع من الشفتين ، ولا تنتظر غير جوابك ، بالموافقة أو الرفض ، لتنال الحياة أو يصيبها الموت » .

وعند هذه الكلمات تلفت دون كيخوته إلى الدوق وقال : « بحق الله ، لقد قالت دلثنيا الحقيقة ، إن روحي محشورة في وسط حلقومي منذ بندقة البندقية » فقالت الدوقة : « ماذا تقول في هذا إذن يا سنشو ؟ » - فقال سنشو : « ما أجيب به يا سيدتي عن ضربات السوط هو ، أرفد » . - فقال الدوق : « قل إذن أرفض » . فقال سنشو : « عفوك يا مولاي ورضاك ، دعني ، لست في وضع يسمح لي بمراجعة هذه التدقيقات وقشر الكلمات . هذه الجلدات التي يجب أن أضربها أو أضرب نفسي بها ، تعكر فكري بحيث لا أعرف ماذا أقول ولا ما أعمل . وبودي أن أعرف من الذي علم السيدة دلثنيا أن تستحث الناس بهذه الطريقة ، إنها تطلب مني أن أمزق جلدي بالسوط ، ولتحتني على هذا تدعوني بروح الطين ، والدابة غير المكبوحة ، وسلسلة متواصلة أخرى من الشتائم التي لا يمكن الشيطان نفسه أن يحتملها . هل لحمي من البرنز ؟ ماذا يهمني أنا أن تكون السيدة دلثنيا مسحورة أو لا بدلا من أن تقدم إلي قُمصاً وتيلاً ومناديل وأحذية » وإن كنت لا ألبس هذا » لا تقدم إلا شتائم . أليس عليها أن تعرف المثل الذي يقول إن الحمار المحمل بالذهب يصعد إلى الجبل أسهل ؟ وأن الهدايا تفتت الصخر وإن عصفورا في اليد خير من عشرة في الغد ؟ ثم السيد مولاي ، بدلا من أن يتملقني ويلطفني من أجل أن أصنع لنفسني صوفا أو قطناً ملحوجاً ، يريد أن يربطني عارياً بشجرة ، ويضاعف جرعة الجلدات . هؤلاء السادة المحسنون هل يحسبون أن الذي يريدون جلده ليس فقط سائسا ، بل وأيضا حاكم ؟ ليتعلموا إذن ، على نفقاتهم ، كيف يطلبون ، وكيف يتوسلون ، وأن يكونوا مؤدبين ، كل الأزمنة لا تتشابه ، والناس ليسوا جميعا حسني المزاج ، هم لا يزالون يروني محزوناً بسبب حلتني الخضراء الممزقة المسكينة ، ومع ذلك يأتون ليتكلموا عن جلدي ، وهو ما أوده بقدر رغبتني في أن أصبح رئيس قبيلة » . - فقال الدوق : « الحق يا عزيزي سنشو ، إذ أردت ألا تهوّد ، فمن

المستحيل أن تحصل على الحكم» : إذ سيكون أمرا عجيبا أن أرسل إلى رعيتي في الجزيرة حاكما قاسيا ، أحشاؤه من الصخر ، لا يتأثر بدموع الأواني المحزونات ، ولا دعوات السحرة الحكماء الأقوياء المحترمين . والخلاصة : سنشوا أنه إما أن تجلد نفسك ، أو يجلدك شخص آخر ، أولن تكون حاكما» - فأجاب سنشو : «مولاي! ألا يمكن إعطائي مهلة يومين حتى أترى في الأمر؟» - فقال مرلان : «لا ، لا بد أن تتخذ قرارك في هذه اللحظة ، وفي هذا المكان ، فإما أن ترجع دلثنيا إلى كهف مونتسينوس وتستعيد شكل فلاحه ، أو وهي في الحالة التي تراها عليها الآن تنتقل إلى عليين في انتظار نهاية انسحارها» . - فقالت الدوقة : «هيا يا سنشو أيها الرجل الطيب ، تشجع ، وكن عارفا بالجميل عن الخبز الذي أكلته مع السيد دون كيخوته ، الذي ينبغي علينا جميعا أن نساعده ونخدمه نظرا لصفاته الجليلة وفروسيته العالية . أحقر هذه الجلدات ، وهذه المخاوف الصبيانية التي يبثها الشيطان في نفسك ، إن القلب الطيب يعرف كيف ينتصر على سوء البخت» .

وعلى كل هذه الحجج لم يرد سنشو إلا بكلمات مضطربة لا منطق فيها . ثم قال : «لكن قل لي ، يا سيد مرلان ، حينما جاء ساعي البريد الشيطان قال لمولاي أن ينتظر السيد مونتسينوس ، لأنه سيأتي ليعرفه كيف يمكن رفع السحر عن السيدة الدونيا دلثنيا دل توبوسو ، وحتى الآن لم نر مونتسينوس ولا شخصا يشبهه .» - فأجاب مرلان : «يا عزيزي سنشو ، هذا الشيطان أحقق مرتبك جدا ، وأنا الذي أرسلته إلى مولاك ، لا مونتسينوس ، لأن هذا لم يخرج من كهفه ، منتظرا دائما رفع السحر عنه ، ولا بد من الفراغ من هذا . فإن كان عليه نقود لك ، أو لك شأن معه ، أتيت به وسلمته إليك في أي مكان تريد ، أما الآن فالأمر يتعلق فقط بجلدك وصدقني أن جلدك سيكون ذا فائدة كبيرة لروحك وبدلك : لروحك ، بسبب فعل الخير الذي ستفعله ، وبدلك لأنني أرى أنك دموي المزاج ، ولا بأس من سحب شيء من دمك» . - فقال سنشو : «في العالم كثير من الأطباء ، والآن السحرة يشتغلون بالطب ، وما دام كل الناس يريدون ذلك ، وإن كنت لست أبدا من هذا الرأي ، فإني أوافق على أن أجلد نفسي ثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة بالسوط ، بشرط أن يحدث ذلك حين أشاء دون أن يفرض علي وقت ولا يوم معين ، وسأعمل على الخروج من هذه المشكلة السيئة بأسرع وقت ممكن ، حتى يستمتع العالم بجمال السيدة الدونيا دلثنيا دل توبوسو ، وهي في الواقع أجمل مما كنت أعتقد وأضع شرطا آخر وهو أنني لن أضطر إلى جلد نفسي حتى أدمى ، وإذا طارت بعض الجلدات في الهواء فستحسب ، وأن تخبروني إذا زاد العدد

أو قل» . - فقال مرلان : « لا خوف عليك من أن تضرب نفسك عددا أكبر ، لأنه في اللحظة التي فيها تتم الضربة الثلاثمائة وثلاثة آلاف ، سيرفع السحر فورا عن السيدة دلثنيا ، وتأتي لتشكر لسنشو الطيب ، ولمكافأته عن هذه الخدمة الجليلة . وهكذا أكرر القول فأقول لا تخف من الزيادة ولا من النقصان . والسماء لا تسمح بأن أخدع أحدا ، ولا بشعرة» . - فقال سنشو : « فوضت أمري إلى الله ، أوافق على هذه المحنة ، وأقبل العذاب ، بالشروط المعروفة» .

ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات ، حتى استأنف الموسيقى العزف ، والبنادق الإطلاق ، وارتدى دون كيخوته على رقبة سنشو يقبله آلاف القبلات على جبينه وخديه . وعبر الدوق والدوقة وكل الحاضرين عن امتنانهم لسنشو . وتحركت العربة ، وسارت ، وانحنى دلثنيا برأسها للدوق ، وبتحية كبيرة لسنشو .

وفي تلك الأثناء كان الفجر الباسم الوردي قد بدأ في البزوغ ، ورفعت أزهار الحقول رؤوسها المائلة ، وبدت كأنها تلقت حياة جديدة ، وهمس السائل البلوري في الجداول خلال الحصى الأبيض والرمادي ، وأسرع لتغذية الأنهار التي كانت تنتظره . واستردت الأرض شبابها ، وسجو السماء ، وصفاء الجو ، و سطوع النور كل هذا كان مبشرا بأن اليوم الذي أعلنه مثل هذا الفجر الجميل سيكون ساجيا هادئا . وعاد الدوق والدوقة إلى القصر ، راضيين عن صيدهما ، ومسرورين لاتمام المغامرة العظيمة من أجل رفع السحر عن دلثنيا ، وهما يفكران في تسليات جديدة ، تلذهما كل اللذة .

الفصل السادس والثلاثون

وفيه تروى مغامرة غريبة لم يسمع بمثلها وقعت للوصيفة
المكروية، واسمها الكونتيسة تيفالدى
والرسالة التي كتبها سنشو بنتا إلى زوجته تريزة بنتا

كان عند الدوق ناظر على القصر مليح النادرة ، بارع الحيل ، لعب دور مرلان ، وكان هو الذي أدار كل جهاز الاحتفال ، وألف الأشعار ، وأسند دور دلثيا إلى فتى وصيف . وبأمر من مولاه ، دبر هذا الناظر مغامرة أخرى ، لا تقل غرابة وتسلية .
وفي يوم آخر سألت الدوقة سنشو هل بدأ تعذيبه من أجل رفع السحر عن دلثيا ، فأجاب بنعم ، وأنه في الليلة الأخيرة ضرب نفسه خمس مرات . فقالت الدوقة « بماذا ؟ » - فأجاب « ببدي » فقالت الدوقة : « هذه صفعات وليست جلدات ، وأنا أشك كثيرا في أن يرضى الحكيم مرلان عن هذه الرخاوة ، لا بد أن تجلد بجلدة من الشوك أو ذات عقد ، وأن توجعك ، لأنك تدرك جيدا أن خلاص سيدة عظيمة مثل دلثيا يجب ألا يتم بهذا الثمن البهخس » .

فقال سنشو : لتعطني سيادتك درة مناسبة وأنا أستعملها ، بشرط ألا أتألم منها كثيرا ، لأنني وإن كنت ريفيا ، فإن لحمي أقرب إلى القطن منه إلى اليراع ، وليس من المعقول أن أمزق لحمي من أجل غيري .

فقالت الدوقة : حسنا ، سأعطيك غدا درة توافق رقة بشرتك ، وكأنها أختها .
فقال سنشو : سيدتي ، ينبغي أن أخبر سموك ، يا سيدة روجي ، أنني كتبت إلى زوجتي ، تريزة بنتا ، لأخبرها بكل ما جرى لي منذ أن فارقتها . والرسالة في عبي ، ولا ينقصها إلا العنوان ، وبودي أن تتفضلتي بحكمتك فتقرأها ، لأنني أعتقد أنها جديرة بحاكم ، أي متفقة مع الطريقة التي ينبغي على الحكام أن يكتبوا بها .

فسألت الدوقة : ومن الذي أملاها ؟

فأجاب : ومن عسى أن يكون غيري أنا الخاطئ المسكين ؟

فقلت : وأنت الذي كتبتها ؟

فقال سنشو : لم يقتصر دوري على مجرد الفكرة ، لأنني لا أقرأ ولا أكتب ، وأعرف فقط التوقيع بإسمي .
فقلت الدوقة : ننظر ما في هذه الرسالة ، وأنا واثقة أنني سأجد فيها ما يدل على مقدرتك العقلية .

فأخرج سنشو الرسالة من عبه كانت مفتوحة ، وقدمها إلى الدوقة ، فقرأت ما يلي :

رسالة سنشو پنثا إلى زوجته تريزة پنثا

« لو ضربت ضربات جيدة بالسوط ، لكنت فارسا جيدا ، وإذا حصلت على حكومة جيدة ، فهذا يكلفني ضربات جيدة بالسوط ، وأنت لا تفهمين هذا الآن ، يا عزيزتي تريزه ، ولكنك ستفهمينه فيما بعد . وسأقول لك أنني قدرت أن تذهبي في عربة ، وهذا هو ما يجب أن يشغلنا الآن ، وكل طريقة أخرى لا تناسب غير القطط... أنت زوجة حاكم ، فانظري هل يمكن أن يدوس على قدميك أحد . وأبعث إليك بكسوة خضراء للصيد ، أعطتنيها السيدة الدوقة ، ففصلتها بحيث تصبح بلوزة وتنورة لبنتنا . ومولاي دون كيخوته ، بحسب ما سمعت في هذا البلد ، مجنون حكيم ، ومعتوه لطيف ، وأنا لا أقل عنه في شيء من هذا . وكنا في كهف موتسينوس ، واختارني الحكيم مرلان لرفع السحر عن دلثنيا دل توبوسو ، التي تسمى باسم آخر هو الدونثا لورثو ، وبثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة إلا خمسا ، أضرب نفسي بها ، سيرفع السحر عنها ، مثل الأم التي وضعتها في الدنيا . لا تقولي شيئا من هذا لأحد ، لأنك لو عرضت الأمر على حكم الغير ، لقال البعض هذا أبيض ، وقال البعض الآخر هذا أسود . وفي خلال أيام قليلة سأرحل لحكومتي ، حيث أذهب بغرض جمع الكثير من المال ، لأنه قيل لي أن كل الحكام الجدد عندهم النية نفسها . وسأجس نبض الإقليم ، وأخبرك هل ينبغي عليك أن تأتي أولا . الحمار في صحة جيدة ويتضرع إليك . والسيدة الدوقة تقبل يديك ألف مرة ، لا شيء يساوي أكثر ، ويكلف أقل من المجاملات والأدب والتحيات ، كما قال سيدي . ولم يشأ الله حتى الآن أن أعثر على حقيبة أخرى فيها مائة اسكودو أخرى ، مثل المرة الأولى ، ومع ذلك لا تحزني يا عزيزتي تريزه : فإن من يدق ناقوس الخطر هو في أمان ، والحكومة تعطيني كل شيء . لكن ثم أمرا يزعجني : إذ يقال إنه إذا مسها المرء مرة ، أكل أصابعه حتى الكوع ، فإذا كان الأمر هكذا ، فإنه لن يكلفني قليلا ، لكن المبتورين

والذين بيد واحدة يقيمون كاهنيتهم على الصدقات التي تعطى لهم : وعلى هذا ، فعلى نحو أو آخر فينبغي عليك أن تكوني سعيدة وغنية . حفظك الله يا عزيزتي تريزه ، وحفظني أيضا لخدمتك .

« تحرر في هذا القصر في ١٢ يوليو سنة ١٦١٤ »

زوجك ، الحاكم

سنشو پشنا

ولما فرغت الدوقة من قراءة هذه الرسالة ، قالت لسنشو : « إن الحاكم الطيب قد ضل في أمرين ، فهو يقول ، أو يجعل الناس تفهم أن الحكومة أعطيت له بسبب الضربات التي سيضرب نفسه بها ، ولكنه يعلم ، ولا يستطيع أن ينكر ، أنه حين وعده الدوق زوجي بالحكم ، لم يكن ثم كلام أبدا عن الجلد . وثانيا السيد الحاكم جشع جدا ، ولا أود أن يكون جشعا هكذا ، فإن الجشع يقطع الكيس ، والحاكم البخيل لا يقيم العدل » . فأجابها سنشو : « لم أقل بهذا الغرض ، وإذا بدا لك أن الرسالة ليست كما ينبغي ، فما علي إلا أن أمزقها وأعمل غيرها ، لكن يجوز أن تكون هذه أسوأ ، إذا كان الأمر موكولا إلي وحدي » . - فقالت الدوقة : « لا ، لا ، إنها حسنة هكذا ، وأود أن يراها الدوق » . وفي الواقع أرت الدوق هذه الرسالة ، وضحك كلاهما منها كثيرا .

ثم تناولوا الطعام ، وبعد أن رفعت المائدة ، غب حديث ممتع مع سنشو ، سمع صوت حزين لصفارة ، مصوبا بصوت أصح ناشز لطبل ، فأدهش هذا الانسجام العسكري الحزين - الجميع ، خصوصا دون كيخوته ، فلم يستطع أن يبقى في مكانه على كرسيه . أما عن سنشو فلا شيء . يمكن أن يقال غير أن الخوف ألجأه إلى ملجأ المعتاد ، وهو جوار تنورة الدوقة . والحق أن الأصوات التي سمعت كانت حزينة جدا ، ومؤثرة . وبينما كان الكل يصفون في صمت ، شوهد يدخل في الحديقة رجلان يلبسان السواد ، يجران رداءهما على الأرض ، وكانا يقرعان طبولا ضخمة ، مغطاة بالسواد ، وإلى جوارهما سار العازف بالصفارة ، لابس السواد مثلهما . وخلف هؤلاء الرجال الثلاثة قدم شخص ماردي القامة ، غريب اللباس ، يلبس ثوبا أسود كبيرا ، كان ذيله طويلا جدا ، وكان يلبس حمالة سوداء ، علق فيها صفيحة (سيف) هائلة كان عمادها أسود أيضا ، وكان وجهه مغطى بنقاب أسود شفاف جدا ، من خلاله ترى لحيته الطويلة الأكثر بياضا من الثلج ، وكان يسير بجذ على ايقاع الطبول ، وكانت قامته المديدة ، وترجحه في السير ، وملابسه السود ، وكل شخصه من شأنها أن تثير الدهشة ، بل والخوف في نفوس من ينظرون إليه . واقترب من الدوق ، الذي انتظره مع الآخرين ، وجاء ليحشو على قدميه

أمامه ؛ لكن الدوق أمره بالنهوض ؛ فوقف هذا المخيف الفظيع ، ورفع النقاب الذي كان يغطي وجهه ، وأبدى عن أفطح لحية ، وأطول ، وأوفر ، وأشدّ اللحى بياضا شاهدها إنسان . وسحب بعد ذلك من أعماق صدره الواسع صوتا جادا رنانا ، وثبت العيون في الدوق ، وقال له ؛ «أيها السيد العظيم الرفيع ، اسمي تريفالدين^(١) ذو اللحية البيضاء ؛ وأنا سانس الكونتيسة تريفالدي ، الملقبة بالسيدة المكروبة ، وقد بعثتني رسولا إلى عظمتك ، لألتمس من كرمك الإذن برواية مصائبها لكم ، وهي من أفطح وأغرب ما يمكن أن تتخيله النفس المحزونة ، لكنها تريد خصوصا أن تعرف هل عندك في قصرك بالصدفة الفارس الباسل الذي لا يقهر أبدا دون كيخوته دلا منتشا ، الذي جاء من أجله للبحث عنه ماشية على قدميها دون أن تذوق طعاما ، من مملكة قندية حتى بلادكم ، وهو أمر يمكن أن يعد معجزة ومن أثر السحر . وهي على باب حصنكم أو بيت استمتاعكم ، ولا تنتظر لتدخل غير رغبتكم . هذه رسالتي » . ثم صمت ، وداعب لحيته من أعلى إلى أسفل بيديه ، وانتظر في هدوء جواب الدوق .

فقال الدوق ؛ «أيها السانس الطيب تريفالدين الأبيض اللحية ، مضى وقت طويل منذ أن عرفنا بلايا السيدة الكونتيسة تريفالدي ، التي ألزمها السحرة بأن تسمى «الدونيا دولوريدا» (المكروبة) ؛ وتستطيع أن تقول لها ، أيها السانس المدهش ، إننا نرحب بها ، وأنه في هذه اللحظة يوجد معنا الباسل الفارس دون كيخوته دلا منتشا ، وخلقه الكريم يعدها من غير شك بالمساعدة والحماية ؛ فأكد لها إذن ، أنه إذا كانت توصيتي ضرورية لها ، فإنها تستطيع أن تعتمد عليها ، لأن صفتي فارسا تلزمني بحمايتها ، ومعاونتها ونجدة كل نوع من النساء ، وخصوصا الأرامل المحزونات ، المهجورات ، ولا بد أن سيادتها منهن » . ولدى سماع هذه الكلمات حنا تريفالدين ركبته ، وأشار إلى الصفارة والطبل بالعزف ، وعاد بالمشية نفسها ، وعلى الصوت نفسه كما جاء ، تاركا الجميع مدهوشين من منظره .

وتلفت الدوق إلى دون كيخوته وقال له ؛ «أخيرا ، أيها الفارس الشهير لا يمكن ظلمات الخبث والجهل أن تعكر أو تحجب نور الشجاعة والبسالة . لم تكد تمضي ستة أيام على وجود سيادتكم في قصري ، وما هم أولاء يفدون عليك من أقاصي البلاد ، لا في عربات ، ولا على هجن ، بل على الأقدام صائمين ؛ إنهم المحزونون والمكروبون ، قد جاءوا ، وملؤهم الثقة بقوة ساعدك ، ليسألوك العلاج لآلامهم ، وقد جذبتهم شهرة أعمالك العظيمة التي غطت سطح الأرض .

(١) أوحى إلى فريانتس بهذا الاسم اسم «تروفالدين» في «أورلندو الغاضب» لاريوستو . والاسم الإيطالي معناه ؛ «المزاح الخادع» .

فقال دون كيخوته : سيدي الدوق ، كان بودي أن يكون معنا الآن رجل الدين الذي أبدى الكثير من السخط وسوء الظن بالفرسان الجواله ، ويستطيع أن يحكم ، بعينه ، هل هؤلاء الفرسان ضروريون للعالم ، وسيلمس بأصابعه أن أولئك الذين في حزن عميق ، ممن لا أمل لهم ولا عزاء ، وفي أكبر المصائب والمحن غير المتوقعة ، لا يذهبون ليطلبوا النجدة من رجال الدين ، وخازني كنائس القرية ، ولا من السيد الذي لا يغامر أبدا بالخروج من منزله ، ولا من البطانة الكسول الذي يكتفي بالسعي وراء النوادر ليقصها بعد ذلك ، بدلا من أن يفعل أفعالا رائعة ، يرويها الآخرون ويسجلونها في سجلات التاريخ . ومواساة المحزونين ومساعدة البائسين ، وسند الأوانس ، وحصن الأرامل - لا توجد خيرا منها عند الفارس الجوال : ولهذا أشكر للسماء ، وأرى فائدة الهموم والمتاعب التي تتحمل في هذه المهنة الشريفة . فلتأت إذن هذه السيدة ، ولتطلب ما تريد ، وسأحصل لها عليه بقوة ساعدي وجري، تصميمي .

الفصل السابع والثلاثون

تلاوة المغامرة الشهيرة التي قامت بها الوصيصة المكروية

اغتبط الدوق والدوقة اغتباطا شديدا لما شاهدا دون كيخوته مستعدا بنفسه للتجارب مع ما دبراه . ولكن سنشو قال معلقا على ما قاله مولا : « لا يرضيني أبدا أن تأتي السيدة الدونيا لتضع العراقيل في حكومتي . لقد سمعت فعلا من صيدلي في طليطلة ، كان يتكلم مثل الحسون ، إنه حيث يتدخل النساء لا يمكن أن يحدث شيء طيب . كان الله في عوني ، كم شقي هذا الصيدلي بسببهن ! أما أنا عن نفسي فأني أعلم أن كل النسوة متعبات سفیهات ، مهما تكن منزلتهن . فما بالك بهؤلاء المكروبوات ، ولهذه الكونتيسة تريفالدا^(١) أو تريكولاس ، لأنه في بلدنا « فلدا » وكولا بمعنى واحد .

فقال دون كيخوته : أسكت ، يا عزيزي سنشو ، ما دامت هذه السيدة قد قدمت من بعيد للبحث عني ، فإنها لا يمكن أن تكون من ذلك النوع الذي سجله صيدليكم هذا في دفتره ، خصوصا وهي كونتيسة ، وإذا خدمت الكونتيسسات كوصيفات ، فلا يكون ذلك إلا للملكات أو الامبراطورات . إن هؤلاء الوصيفات سيدات عظيمات ، يخدمهن في بيوتهن وصيفات أخريات .

فقالت دونيا رودريجت بهذه المناسبة وكانت حاضرة : سيدتي الدوقة تخدمها وصيفات يمكنهن أن يكن كونتيسات ، لو شاء الحظ ، لكن القوانين تسير كما يشاء الملوك . وعلى كل حال فلا يتكلمن أحد بسوء عن الوصيفات ، خصوصا عن أولئك اللواتي هن متقدمات في السن وآنسات ، لأنني ، وإن لم أكن هذا الآن ، فأني أفهم تماما ميزة الدونيا الآنسة على الأرملة . فمن يرد أن يجزنا ، يبق المقص في يده .

(١) Tres Faldas = طيات . Tres colas = ذبول ، Falda = طية (الثوب) . Cola = ذيل .

فقال سنشو : ومع ذلك فتم الكثير مما ينبغي جزءه من على الوصيفات تبعا لما يقوله هذا الصيدلي ، بحيث يكون من الأفضل عدم تحريك الأرز وإن كان لاصقا .
فردت عليه دونيا رودريجت قائلة : دائما كان السواس أعداءنا . لأنهم عفاريت وجنيات غرف الانتظار ، ويرونا في كل خطوة ، فإن اللحظات التي لا يستخدمونها في الصلاة ، وهي كثيرة جدا ، يقضونها في نتف ريشنا ونقدنا ، ونبش عظامنا ، ودفن سمعتنا ، لكنني أبعت بهم إلى الليمان . وعلى رغم أنوفهم ورغم أنف الحسد ، فسنوجد دائما في البيوتات الكبيرة وإن كنا نموت فيها جوعا ، ونغطي بشرتنا بطبقة سوداء ، بشرتنا الرقيقة أو غير الرقيقة ، كما تغطي كومة الزبل بسجادة ، في يوم الموكب . ولو أذن لي ، وكان عندي الوقت ، أثبت ليس فقط للأشخاص الموجودين هنا ، بل ولكل الناس ، أنه لا توجد فضيلة تخلو منها الوصيفة .

فقالت الدوقة : أعتقد أن الدنيا الطيبة رودريجت على حق تماما ، لكن من الأخلق أن تنتظر مناسبة أخرى للدفاع عن نفسها وعن سائر الوصيفات ، لتحطيم الفكرة السيئة التي عبر عنها ذلك الصيدلي الشرير ولا تتزاع الفكرة التي لدى العظيم سنشو - من قلبه .
فقال سنشو : منذ أن تصاعدت أبخرة الحكم في رأسي تركبني دوارات السائس ، ولا يهمني أية وصيفة .

ولا شك في أن الحديث كان سيجري على هذا النحو وبهذه اللهجة لولا أن الصفارة والطبول دقت من جديد ، معلنة عن وصول الدنيا المكروية . وسألت الدوقة زوجها أليس من المناسب أن يتقدم للقائها ، لأنها كوثيسة وامرأة مهمة . فقال سنشو دون أن ينتظر جواب الدوق : « بصفتها دونيا (وصيفة) ينبغي ألا تخطو خطوة . » - فقال دون كيثوته : « وما شأنك أنت في هذا » . فقال سنشو : « من ؟ سيدي إني أتدخل لأنني أستطيع أن أتدخل ، بوصفي سائسا تعلم قواعد الآداب في مدرسة أكثر الفرسان أدبا ، وفي هذا الموضوع سمعتك تقول أن المرء يخسر بورقة أكثر كما بورقة أقل . ومن يجد السمع يكفه القليل من الكلام . » - فقال الدوق : « سنشو على حق . ولهذا سنرى هيئة الكوثيسة ، ونسدي إليها ما هو واجب » .

وهنا يختم المؤلف هذا الفصل القصير ويبدأ فصلا جديدا يحتوي على تلاوة هذه المغامرة ، وهي من أجدر المغامرات بالذكر في هذا التاريخ كله .

الفصل الثامن والثلاثون

وفيه تروى مصائب الوصيفة المكروبة

وبعد الموسيقيين ذوي الأنغام الحزينة شوهد يدخل في الحديقة اثنتا عشرة وصيفة على صفين ، يلبسن فساتين واسعة من العهن المصقول ، وعليهن نقب من الموصلي الأبيض ، طويلة بحيث لا يكشفن عن حافة الفساتين . وخلفهن أقبلت الكونتيسة تريفالدي يأخذ بيدها سائسها تريفالدين الأبيض اللحية ، وكانت تلبس ثوبا من القماش الباييت الرقيق الأسود غير المجهر ، الذي لو مشط لكشف وبره عن حبوب كبيرة مثل الحمص ، وكان ذيل الفستان ذا أطراف ثلاثة يحملها ثلاثة غلمان يلبسون السواد ، ويشكلون شكلا لطيفا بالزوايا الثلاث الحادة للأطراف الثلاثة . مما أوحى إلى الحاضرين بأن اسمها (تريفالدي) جاء من « ترس فلداس » (ثلاث طيات) ، مما يجعل المرء يقول أنها الكونتيسة ذات الذبول الثلاثة . ولهذا فإن ابن الأيل يقول إن هذه هي الحقيقة ، وأن اسمها الحقيقي هو (لويونا) ، لأنه يوجد في كونتيها كثير من اللوبوات Lobos أي الذئاب ، ولو وجدت ثعالب بدلا من الذئاب لسميت الكونتيسة ثرونا (من Zorras = ثعالب) ، لأن العرف جرى في بلادها بأن يتخذ النبلاء أسماء الأشياء الموجودة بكثرة في أقاليمهم . ولكن هذه الكونتيسة ، بسبب جده ذيلها تركت اسم (لويونا) واتخذت اسم تريفالدي .

وسارت الوصيفات الاثنتا عشرة والكونتيسة بخطى المواكب ووجوههن عليها نقب سود لم تكن شفافة ، مثل نقاب تريفالدين ، بل محكمة بحيث لا يمكن رؤية شيء من خلالها . ولما دخلت المجموعة كلها وقف الدوق وزوجته ودون كيخوته والباقون وابتعدت الوصيفات ، وأخلى المكان ، (للمكروبة) التي تقدمت دون أن تغادر يد سائسها ؛ هنالك خطا الدوق والباقون بضع خطوات للمقائنها ، وجثت (المكروبة) على ركبتيها وبصوت خفيض مبحوح قالت : « أتوسل إلى عظمتكم ألا تقوموا بكل هذه التحيات لخادمكم ، أقصد

لخادمتمكم فإني محزونة إلى حد أنني لا أستطيع الإجابة عما يقتضيه الأدب لأن بلاياي الغريبة التي لم يسمع بمثلها قد سلبتني ملكة التمييز . ولست أدري ماذا جرى لها ، لكنها لا بد نائية ، لأنني كلما بحثت عنها بعدت عني . - فأجاب الدوق : « لا بد ، يا سيدتي الكونتيسة ، أن يكون مسلوب التمييز أيضا ذلك الذي يراك ولا يكتشف فوراً مزاياك : فأنت بغير حاجة إلى مزيد من الرؤية ، تستحقين كل زبدة الأدب وزهرة أرق التحيات » . وفي الوقت نفسه أمسك بيدها واقتادها إلى كرسي ، بالقرب من الدوقة ، التي رحبت بها كل الترحيب . وسكت دون كيخوته ، وكان سنشو يتحرق شوقاً لرؤية وجه تريفالدي أو وجه إحدى وصيفاتها ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، إلا لما أن كشفوا عن وجوههن بإرادتهن . والتزم الكل الصمت ، وهو يتشوف ليرى من سيقطعه . وكانت (المكروية) هي التي تكلمت هكذا :

- أنا واثقة ، أيها السيد العظيم جدا ، وأيتها السيدة الجميلة جدا ، وأنتم جميعاً أيها الحاضرون العقلاء جدا ، إن كربي العظيم جدا سيجد في قلوبكم الكريمة جداً قبولاً حسناً عاطفاً حساساً ، لأن شقوتي من شأنها أن ترقق المرمر ، وتطري الماس ، وتلين حديد القلوب الشديدة القسوة ، ولكن قبل أن أبلغها أسماعكم ، أود أن أعرف هل يوجد ، في هذا الاجتماع أو الجماعة أو الصحبة ، الطاهر جدا الفارس دون كيخوته دلاً منتشاً جداً ، وسائسه جداً پنثاً .

فقال سنشو ، قبل أن يرد أحد : البنثا هنا ، وكذلك دون كيخوته جدا هو نفسه ، وتستطيعين إذن ، أيتها الوصيصة جدا المكروية جدا ، أن تحكي لنا ما ترغبين به جدا ، ونحن مستعدون جدا ومتهينون جدا لنكون خادمين لك جدا .

هنالك نهض دون كيخوته واقترب من المكروية وقال لها : إذا كانت مصائبك ، أيتها السيدة المحزونة ، يمكن أن تنال مواساة ما من قوة وبسالة فارس جوال ، فإني أقدم لك قوتي وبسالتي وإن كانتا ضعيفتين وقليلتي القيمة فسيستخدمان في تحقيق ما تطلبين . أنا دون كيخوته دلاً منتشاً ، ومهنتي هي إغاثة كل المحتاجين والملهوفين ، وعلى هذا فلست في حاجة يا سيدتي إلى الالاحاق في الرجاء ، واستهلاك نفسك في المقدمات ، فبغير لف ولا دوران ولا تلثم ، خبرينا عن متاعبك . ومن يصغون إليك سيعرفون كيف يواسونك إذا لم يستطيعوا تقديم العلاج .

ولدى سماع هذه الكلمات أرادت (المكروية) أن تلقي بنفسها عند ركبتني دون كيخوته ، وألقت بنفسها فعلاً ، وسعت لمعانقة ركبته وقالت : « إنني أجثو عند قدميك ، أيها

الفارس الظافر الذي لا يقهر ، بوصفك أنت أسس وأعمدة الفروسية الجواله ، وينبغي أن أقبل آثار خطواتك التي يتوقف عليها علاج مصائبي ، أيها الفارس الباسل الذي تفوق أعماله الحقيقية الروايات الخرافية التي وصلتنا عن أماديس وإسبلنديان وبلانيس . ثم تلفتت ناحية سنشو وأمسكت بيديه ، وقالت له : « وأنت يا أشد السواس إخلاصا في خدمة فارس جوال في العصور الحاضرة أو الماضية أنت يا من طيبتك أعظم من لحيه تريفالدين ، سائسي الحاضر هنا ، إنك تستطيع أن تفخر وتزهي بأنك في خدمة العظيم دون كيوخوته ، لأنك في شخصه وحده تخدم كل جماعة الفرسان الذين حملوا السلاح منذ ميلاد العالم . أستحلفك ، بما تدين به بطيبتك المخلصة جدا ، أن تتشفع لي عند مولاك ، حتى يتنازل ويحمي هذه الكونتيسة البائسة جدا المهانة جدا . » - فقال سنشو : « أما أن طيبتي يا سيدتي كبيرة بقدر لحيه سائسك ، فهذا أمر لا يهمني كثيرا ، أما أن تكون لروحي لحيه وشوارب حين أذهب إلى العالم الآخر ، فهذا ما أتأثر له كثيرا ، لأنه فيما يتعلق باللحي في هذه الدنيا فأني لا أقيم لها أي وزن . لكن بدون هذه التملقات والاستعطافات سأرجو مولاي الذي يحبني كثيرا ، خصوصا في هذه اللحظة التي يحتاج فيها إلي من أجل مسألة معينة ، سأرجوه أن يهتم بك ويغيثك في كل ما يستطيع ، كوني على سجيتك إذن ، واروي لنا مصائبك ونحن جميعا نصني إليك » .

وضحك الدوق والدوقة ضحكا تشهاقا من كل هذه الأقاويل ، لأنهما اللذان اخترعا ورتبا هذه المغامرة المزعومة ، ولم يكفا عن الإعجاب بمهارة وقريحة تريفالدي التي جلست ثم قالت :

« في مملكة قندية الشهيرة ، الواقعة في بحر الجنوب وترابوبان الكبير ، على مسافة فرسخين من رأس كومورين ، تحكم المملكة السيدة مجوئثيا ، أرملة الملك أرخبيل . ومنهما ولدت وريثه العرش أنطونيو ماسيا ، التي وكلت إلي لأني كنت أقدم وأبرز سيدات أمها ، ونمت هذه الأميرة الصغيرة تحت رعايتي ، حتى بلغت الرابعة عشرة . وكانت منقطعة النظر في الجمال عاقلة بقدر ما كانت جميلة ، وأجمل النساء طرا ، ولا تزال كذلك إذا لم يقطع القدر الغيور والباركات^(١) القاسيات خيط عمرها ! وهن لم يقطعن ولم تسمح السماء بأن يصاب الجنس البشري بهذه المصيبة ألا وهي أن يقطع قبل نضجه هذا العنقود الذي من أجمل عنب الدنيا . وعشق هذا الجمال ، الذي يعجز لساني الكليل عن وصفه ، ما لا نهاية

(١) البارك : ربة المصير . والباركات ثلاث : كلوتو ، لأكسيس ، وأتروپوس . وهن يهيمن على حياة الإنسان ، ويقررن خيطها .
والأولى تمسك المغزل ، والثانية تنزل ، والثالثة تقطع خيط الحياة .

له من الأمراء ، الأجانب وأبناء الوطن ، ومن بينهم فارس بسيط كان يقيم في البلاط ، تجرأ على أن يرفع أفكاره إلى سماء الكمال هذه فاستغل لطفها ورقتها ومواهبها ومفاتها وسهولة أو سعادة روحها ، وعلي أن أقول لك أنه كان يحسن العزف على القيثارة إلى حد أنه كان ينطقها ، وكان شاعرا ، وراقصا ، ويحسن عمل الأقفاص ، وكان في وسعه أن يكسب عيشه من هذه الصنعة ، إذ ألجأته الحاجة إلى ذلك . وكل هذه المزايا كانت كفيلة لهز جبل ، وبالأحرى قلب فتاة . ومع ذلك فإن لطفه وحسن طبعه ، وكفاءته ومواهبه كانت كلها ستتهار أمام حصن تلميذتي الصغيرة هذه ، لو لم يحاول هذا اللص الوقح أن يكسبني أولا . هذا الصعلوك ، هذا المتشرد الفاسد الطوية ، نصب مدفيعته ، ورسم خطة لجعلي أسلم له مفاتيح القلعة التي كنت أنا حارسة عليها غير أمينة . فلافني ، وتملقني وأسرنني بلطفه واجتذب احساني بتفاهات أعطانيها ، لكن أكثر ما أثر في هو بعض المثنائي التي سمعته ينشدها ذات ليلة كنت فيها أطل من النافذة المطلة على الحارة التي كان فيها . وهذه إحدى المقطوعات ، لو صدقت ذاكرتي ،

من عدوتي العذبة
يتولد داء يجرح النفس
وزيادة في العذاب
تريد مني أن أحس
به ولا أفصح عنه^(١)

بدأت لي المقطوعة عقدا من اللؤلؤ ، وصوتها من المبرت^(٢) ، ومنذ ذلك الحين ومنذ أن شاهدت البؤس الذي أوقعني فيه هذا الشعر وشبهه أرى أن من الواجب ، كما نصح أفلاطون أن ينفي الشعراء من الممالك المنظمة ، وعلى الأقل الشعراء الشهوانيون ، لأنهم ينظمون قصائد لا مثل شكاة مركيز متوا ، التي تسر النساء وتبكي الأطفال ، بل قصائد مرهفة تنفذ في الروح كالأشواك الرقيقة دون أن تؤلم الأبدان ، وتحرق النفوس مثل الصواعق ، دون أن تمس الثياب . ومرة أخرى أنشد :

تعال أيها الموت خفيا
بحيث لا أشعر بقدمك

(١) يرى بيشر أن هذه المقطوعة مترجمة من مقطوعة لسيرافينو أوكولانو ، الشاعر الإيطالي .
(٢) الكلمة الأسانية Almbir عريتها هي التي أثبتناها ومعناها السكر المعقود .

لئلا تردني لذة الموت إلى الحياة^(١)

وأستطيع أن أورد مقطوعات أخرى من النوع نفسه تسحر حين تنشُد ، وتخلب اللب حين تقرأ ، وخصوصا لون من الشعر شائع الاستعمال في قندية ، ويسمى سجديا ، فالسجديات تلذ النفس وتغير الضحك وتهز البدن ، وهي بمثابة زنبق لكل العواطف . أقول إذن يا سادة ، أن من الواجب نفي هؤلاء الشعراء إلى جزر العطايا^(٢) ، وإن لم يكن الذنب ذنبهم بل ذنب الحمقى الذين يقرأونهم ، والبله الذين يصدقونهم ، لأنني لو كنت وصيفة صالحة كما ينبغي ، لما تأثرت باختراعاتهم العتيقة ولم أصدق كلامهم حين يقولون ، أحيّا ميتا ، واحترق في الثلج ، وارعد في النار وآمل في غير أمل ، وأرحل وأبقى . ثم يعدونك بعنقاء البلاد العربية وتاج أريان ، وأفراس الشمس ولآلى بحر الجنوب ، وذهب التبر^(٣) وبلسم بنكيا ، ثم يطلعون العنان لريشتهم ، إذ لا يكلفهم شيئا أن يعدوا بما لم يفكروا فيه أبدا . لكن إلى أين أضل أنا الشقية البائسة ؟ وما جنوني بالاستمتاع برسم عيوب الآخرين ، وأنا بسبيل أن أعرب عن عيوبي أنا ؟ نعم أنا بائسة ، لأنه ليس الشعر ولا الموسيقى هما اللذان جذبانني بل طيشي وسذاجتي . فتح جهلي الكبير وقلة تمييزي الطريق وشقا السبيل إلى دون كلافيجو ، وهذا هو اسم الفارس ، وبواسطتي سمح له مرة ومرات ، بدعوى أنه زوج شرعي حقيقي بالدخول في مخدع أنطونوماسيا ، وقد خدعتها أنا لا هو ، لأنني وإن كنت كثيرة الذنوب ، فإني لم أكن لأسمح أبدا بأن يمس كعب حذاها إن لم يكن زوجها ، كلا ، كلا وألف مرة كلا ، إن الزواج سيكون دائما في مقدمة كل الأمور التي من نوع ما أنا مشغولة به . وأكبر خطأ ارتكبته في هذه المسألة هو عدم التكافؤ بين الطرفين ، لأن دون كلافيجو لم يكن غير مجرد فارس ، وأنطونوماسيا كما قلت كانت وريثة عرش مملكة كبيرة . وهذا التدبير ظل مستورا وقتا طويلا ، بفضل الاحتياطات التي اتخذتها ، إلى أن بعث الخوف في نفسي انتفاخ في بطن أنطونوماسيا ، قد يكشف عما وقع فتشاورنا ، وكانت نتيجة مشاوراتنا هو أن يطلب كلافيجو الزواج من أنطونوماسيا علنا ،

(١) هذه المقطوعة أصلها للكومندادور اسكربيا ، مع تغيير بسيط .

(٢) جزر غير مسكونة ، ربما كانت من ممتلكات البرتغال في الهند ، كان ينفي فيها المجرمون العاثات والعطايا ، السحالي .

(٣) في النص De tibar el oro ويرى كوبياروياس أن المقصود هو نهر التبر ، ولكن البعض يرون أن المقصود بـ Tibar هو الكلمة العربية ، التبر ، أي الذهب التبر . غير أن التبر في العربية يدل على الذهب غير المضروب .

استنادا على وعد بالزواج قطعه على نفسها وريثة العرش ، وصنعتة أنا بمهارة وقوة بحيث لا تستطيع كل قوة شمشون الجبار أن تنقضه . وبدنت الاجراءات ، وقرأ الكاهن الوعد ، وتلقى اعتراف السيدة فاعترفت بكل شيء بغير صعوبة ، وهنالك اقتادها إلى بيت محضر شريف في القصر .

فصاح سنشو : ماذاا هل في مملكة قندية محضرون في البلاط وشعراء سجديات ؟ يا لله! أعتقد أن العالم كله واحد . لكن أسرع يا سيدتي تريفالدي ، فقد تأخر الوقت ، وأموت شغفا لمعرفة تتمة هذه الحكاية الطويلة .
فقال الكوتيسة : وهذا ما أنا فاعلته .

الفصل التاسع والثلاثون

حيث تتابع الكونتيسة تيفالدي تاريخها العجيب الجدير بالذكر

اغتبطت الدوقة بكل كلمة كان يقولها سنشو بقدر ما تضايق منها دون كيخوته ، فأسكت سائسه ، وتابعت « المكروبة » قصتها هكذا .

« وبعد كثير من الاستجابات التي أخضع لها الكاهن وريثة العرش ، وقد شاهد أنها تصر على كلامها ، دون أن تعدل في أو تعدل عن تصريحها الأول ، أصدر قرارا لصالح كلافيجو ، فقرر أن وريثة العرش زوجة شرعية له . فتضايقت الملكة مجونثيا ، أم أنطونوماسيا من هذا الزواج حتى إنه بعد ثلاثة أيام كان علينا أن ندفنها » .

فقال سنشو : لقد ماتت إذن ؟

فأجابت تريفالدين : طبعاً ، لأنه في قندية لا يدفن إلا الأموات .

فقال سنشو : سيدي البائس ، كثيراً ما دفن شخص أصيب بغيوبة على اعتقاد أنه مات . ولهذا يبدو لي أنه كان من الأفضل للملكة مجونثيا أن تصاب بغيوبة بدلا من أن تموت ، لأنه بالحياة يعالج الكثير من الأمور ، وغلطة وريثة العرش لم تكن كبيرة بحيث ينبغي لها كل هذا الاغتمام . ولو كانت تزوجت غلاماً أو خادماً في بيتها ، كما فعلت الكثيرات كما سمعت ، لكان الداء بغير دواء ، لكن الاقتران بفارس نبيل حسن التربية ، كما وصف لنا ، الواقع أنه ولو أن هذه حماقة فإنها لم تكن من الفظاعة بقدر ما ظن ، لأنه ، تبعاً لمبادئ مولاي الحاضر هنا ، وهو لا يدعني أكذب ، كما إنه من الناس المثقفين يصنع أساقفة ، فكذلك من الفرسان خصوصاً إذا كانوا جوالاً ، يمكن عمل ملوك وأباطرة .

فقال دون كيخوته : أنت على صواب يا سنشو ، لأنه على قيد أصبعين من الحظ يمكن الفارس الجوال أن يصير أعظم سيد في العالم . لكن استمري أيتها السيدة المكروبة ، إذ يبدو لي أنه بقي عليك أن تروي الجانب المر في هذه الحكاية العذبة حتى الآن .

فقال الكونتيسة : أوه ، نعم ، بقي الجانب المر ، المر إلى حد أنه لو قورن بالحنظل كان هذا حلوا والدفلى لذيدة . ماتت إذن الملكة ولم تصب بغيوبة ، دفناها ، لكننا لم نكد نواريتها التراب ونودعها الوداع الأخير ، حتى (من الذي يسمع هذا ويتوقف عن البكاء ؟) ظهر فجأة على قبر الملكة المارد ملبرونو ، ابن عمها لحا ، وهو يركب فرسا من الخشب ، وهذا الساحر القاسي ، سحر على القبر نفسه كلافيجو وأنطونوماسيا عقابا لوقاحة الأول وجنون الثانية . فتحولت الأميرة إلى قردة من البرنز ، وتحول زوجها إلى تمساح مخيف من معدن مجهول . وهذان الشكلان يفصلهما نوع من القاعدة ، نقش عليها باللغة السريانية نقش ترجم إلى لغة قندية ، ثم إلى الأسبانية ، هو : «هذان العاشقان الطاشان لن يستردا حالتهم الأولى إلا إذا جاء الباسل المنتشاي لمنازلتي في مبارزة فردية . إن المصائر احتفظت لبساته وحدها بنهاية هذه المغامرة التي لم يسمع بمثلها .» وبعد ذلك استل الساحر من غمده صفيحة هائلة ، وأمسكني من شعري ، وبدا عليه أنه يريد أن يحتز رأسي . فتملكني الفزع ، وتعلق لساني بلهائي ، وحسبت أن هذه لحظتي الأخيرة ، ولكنني تغلبت على نفسي ، وبصوت متهدج نائح قلت له أشياء مؤثرة جعلته يوقف تنفيذ قراره القاسي ، وأخيرا أتى بكل وصيفات القصر ، وهن هؤلاء المائلات أمامكم هنا ، وبعد أن بالغ في خطيئتنا وأنحى باللائمة على الأخلاق الفاسدة ، وأحوال الوصيفات ، وحيلهن ومكائدهن وألقى عليهن جميعا مسؤولية الإثم الذي كنت وحدي مسؤولة عنه ، قال لنا إنه لا يريد أن يعاقبنا بالموت ، ولكنه يعاقبنا بعقوبة أبطأ تعطينا موتا مدنيا متواصلا ، وفي اللحظة نفسها ، شعرنا بمسام وجوهنا تفتح وبدا لنا أننا في كل مكان نشك بسانن الإبر ، فرفعنا الأيدي إلى أوجهن ووجدنا ما سترون .»

وفي اللحظة نفسها نزعنا المكروبة وسائر الوصيفات النقب التي تغطي وجوههن ، وكشفن للحاضرين عن لحي كبيرة حمراء ، وسوداء ، وبيضاء مختلطة ، أدهشت - فيما يبدو - الدوق والدوقة ، وذهل منها دون كيخوته وسنشو وكل الحاضرين ، واستمرت المكروبة تقول : «وبهذه الطريقة عاقبنا هذا الخائن ، هذا الشرير ملبرونو ، مغطيا وجوهنا الرقيقة المريضة بهذا الوبر القاسي الحاد . وكنا نفضل أن يقطع رؤوسنا بصفيحته الرهيبة ، على أن يسود روعة جمالنا بهذا الزغب الذي يغطي الوجه لأننا إذا رويناه الأمر يا سادة (وبودي لو جعلت من عيني نافرتين ، ولكن مصائبي والبحار التي اخترقناها قد أنضبتها وجعلتها جافة كالقفار) ، ففي أي مكان ، قولوا لي ، يمكن أن تسير سيدة

ذات لحية ؟ وأي والد ، أو والدة يمكن أن يشفق عليه ؟ ومن ذا الذي ينجدها ؟ إذا كانت البشرة النضرة المصقولة ، والوجه الذي أنهكته مئات المساحيق يصعب عليهما أن يسرا ، فما بالكم بوجه يغطيه غابة ؟ أيتها الوصيفات ، أي صواحيبي لقد ولدنا في برج نحس !»
ولما أتمت هذه الكلمات تظاهرت بالإغماء .

الفصل الأربعون

في الأمور المتعلقة بهذه المغامرة وبهذا التاريخ الخالد الذكر

الحق أن الذين سيقرأون هذا التاريخ ينبغي عليهم أن يشكروا لسيدي حامد ، مؤلفه الأصلي ، لعنايته بإيراد كل التفاصيل ، دون أن ينسى أي شيء ، وبوضوح بارز ، إنه يرسم أفكار الممثلين ، ويكشف عن مشروعاتهم ، ويجيب على ما لا يذكر صراحة ، ويوضح الشكوك ، ويحل المشاكل ، وبالجملة ، يكشف في كل موضع عن عناية بالغة . أيها المؤلف الشهير أي دون كيخوته السعيدا أي دلشيا الذائعة الصيتا أي سنشو پنتا المحبوبا ألا ليت كل واحد منكم ، وأنتم جميعا ، تعيشون طوال قرون متوالية إمتاعا لبني الإنسان .

والتاريخ يروي أن سنشو حين شاهد «المكروية» مغمى عليها ، صاح :
- وديني وإيماني ، أحلف بحياة كل الپنثاوات أسلافي ، أني لم أسمع ، ولم أر ، وأن مولاي لم ير ولم يتخيل أبدا مغامرة شبيهة لهذه . فليأخذك ألف شيطان أيها الساحر المارد الملعون ملمبرينوا أليس عندك عقاب آخر غير أن تعطي لحى لهؤلاء الخاطئات المسكينات ؟ أما كان الأفضل أن تشق أنوفهن إلى شقين ، حتى لو اضطررن إلى الكلام بأنوفهن بدلا من أن تجعلهن ذوات وبر هكذا ، وأنا أراهن أنه ليس معهن الوسيلة لدفع أجرة من يحلق لحاهن !

فأجابت إحدى الوصيفات الاثنتي عشرة : لقد قلت الحق ، يا سيدي ، فليس معنا مال لجز لحانا ، ولهذا تخيلت البعض منا هذا العلاج ؛ وهو أن نضع على وجوهنا لبخة فيها قطران ، ثم ننتزعها بعد ذلك بقوة ، فنجد بعد ذلك ذقوننا محلوقة وناعمة مثل قاع مونة من الحجر ؛ لأنه ، على الرغم من أنه توجد في قندية ، سيدات يذهبن من بيت إلى بيت لمشط النسوة ، وتلميع حواجبهن ، وبذل العناية المتعلقة بتجميل النساء ، فإننا معشر وصيفات

السيدة ، لم ترد أن نسمح بدخولهن علينا ، لأن غالبيةن يعملن قوادات ، وإذا لم يأت السيد دون كيخوته لنجدتنا ، فسنحمل لحانا حتى القبر .
فقال دون كيخوته : أفضل أن تنتف لحيثي في بلاد المسلمين على ألا أخلصكن من لحاكن .

وفي هذه اللحظة أفاقت الكونتيسة تريفالدي من إغمائها ، وقالت له : « إن رئين وعدك ، أيها الفارس الباسل ، وصل إلى أذني وسط إغمائي ، وهذا ما جعلني أفيق وأسترد وعيي . لهذا أستحلفك من جديد ، أيها الفارس اللامع ، الجوال ، الذي لا يقهر ، أن تنفذ في الحال وعدك العظيم اللطيف » . فأجاب دون كيخوته : « إنه لا يتوقف على عدم تنفيذه ، أنظري يا سيدتي ما ينبغي فعله ، وشجاعتني مستعدة لخدمتك » .

فقال المكروبة : من المؤكد أن المسافة من هنا حتى مملكة قندية ، إذا كان السفر برا ، مقدارها خمسة آلاف فرسخ ، إلا فرسخين تقريبا ، زيادة أو نقصانا ، لكن إذا سافرنا جوا ، في خط مستقيم ، فإن المسافة تصبح ثلاثة آلاف ومائتين وسبع فراسخ فقط . وأنت تعلم أن ملمبرونو قال لي إنه إذا كان من حسن حظي أن أجد الفارس الذي يحررني ، فإنه سيرسل إلي ركوبة أفضل وأقل سوءا من فرس بالأجرة ، لأنه هو الفرس نفسه من الخشب الذي عليه حمل الباسل بطرس ماجلونه الجميلة ، وهو يتحرك بواسطة مفتاح في وجهه يستخدم للكبح ، ويطير في الهواء بسرعة هائلة حتى ليخيل إلى المرء أن كل العفاريت تحمله . وتبعا للنقول القديمة فإن هذا الذي صنعه الحكيم مرلان ، وأعاره إلى صديقه بطرس ، الذي استخدمه في الأسفار الكبيرة ، ومن أجل اختطاف ماجلونه الجميلة ، كما سبق أن قلت ، وقد حملها في الهواء ، تاركا في ذهول كل أولئك الذين كانوا ينظرون إليها وهم على الأرض ، لكن مرلان كان لا يعير هذا الفرس الثمين إلا لأولئك الذين يحبهم أو يدفعون له أجرة أكبر ، ومنذ بطرس البروفنصالي حتى الآن لم يعرف أن أحدا استخدمه . وقد استولى عليه ملمبرونو بحيلة منه ، وهو في حوزته ، ويستخدمه في أسفاره المختلفة في أركان العالم الأربعة . فهو هذا الصباح في فرنسا ، وغدا في بوتوسي . وأعجب ما هناك أن هذا الفرس لا يأكل ولا ينام ، ولا يستهلك نعاله الحديدية ، وهو يسير رهوا في الهواء ، بغير أجنحة ، وسيره لطيف حتى أن من يركبه يمكنه أن يمسك في يديه فنجانا مملوءا بالماء دون أن يسقط منه قطرة ، وهذا هو السبب في أن ماجلونة الجميلة كانت تحب ركوبه .

فقال سنشو : إذا كانت المسألة مسألة السير بهدوء ، فإن حماري ، ولو أنه لا يطير في الهواء ، ينافس على الأرض كل ركائب العالم .

فضحك الجميع ، واستمرت المكروبة في كلامها قائلة : « هذا الفرس إذا كان في نية ملمبرونو أن يضع حدا لمصائبنا ، سيكون هنا في موعد غايته نصف ساعة بعد زوال النهار ، لأنه قال لي أن العلامة التي أتعرف بها أنني وجدت الفارس المطلوب هو أن أرى الفرس » .
فقال سنشو : وكم يستطيع الفرس حمله من أشخاص ؟
فأجابت المكروبة : اثنين ، واحدا على السرج والآخر في الخلف ، وفي العادة يكون الفارس وسائسه ، إذا لم يكن ثم آنسة للاختطاف .
وما اسمه ؟

ـ اسمه بيجاس ، مثل فرس بليروفون ، لابوسيغال ، كما هو اسم فرس الاسكندر ، ولا بريادور ، مثل اسم فرس أورلندو الغاضب ، ولا بايار ، مثل فرس رينو دي موتوبان ، ولا فرونتان ، مثل فرس روجيه ، ولا بوتس أوبيرتوا ، مثل أفراس الشمس ، ولا أورليا ، مثل الفرس الذي ركبه اباثس رودريج (لذريق) آخر ملوك القوط ، حين فقد التاج والحياة .
فقاطع سنشو قائلا : أراهن أنه ما دام لم يعط اسم أي واحد من هذه الأفراس المشهورة ، أنه ليس اسمه روئيناته ، اسم فرس مولاي ، وهو اسم حافل بالصفات أعظم من كل الأسماء التي ذكرتها .

فأجابت الكونتيسة ذات اللحية : لقد قلت الحق ، ومع ذلك فاسمه يليق به تماما ، لأن اسمه هو « اللحم الخفيف » بسبب المفتاح الذي في جبهته ، وخفة سيره ، وهكذا فإن اسمه ملائم تماما مثل روئيناته .

فقال سنشو : هذا الاسم لا يضايقني ، لكنني أود أن أعرف بأي كابح أو عنان يوجه .
فأجابت الكونتيسة تريفالدي : لقد قلت لك : ، بواسطة المفتاح ، فإذا أدير من ناحية أو أخرى ، وجهه الفارس كما يشاء ، أما إلى أعلى الهواء ، أو على سطح الأرض ، أو بينهما وهو ما ينبغي فعله في كل أمر حسن .

فقال سنشو : أود أن أراه ، لكن أن أركب عليه ، سواء على السرج أو على المؤخرة ، فهذا مثل البحث عن الكمثرى تحت شجرة الدردار : إنني بمشقة أمسك بنفسي على حماري ، وعلى برذعة أنعم من الحرير ، وتريد مني أن أركب على مؤخرة فرس من الخشب ، بغير خشية ولا شجاعة لا ، والله لا أريد أن ألمح نفسي من أجل إزالة اللحي من أي إنسان ، وليخلق كل إنسان كما يريد ، أما عن نفسي ، فلا أشعر بأية رغبة في مصاحبة مولاي في هذه الرحلة ، ثم إنه فيما يتعلق بجر هذه اللحي ، فلا فائدة في ، كما هي الحال بالنسبة إلى رفع السحر عن السيدة دلثيا .

فقال تريفالدي : بل أنت مهم ، وضروري لنا حتى أنه بدونك لا نستطيع شيئا .
فقال سنشو : وهذه مصيبة أخرى! ما شأن السواس في مغامرات أسيادهم ؟ هل ينالهم منها شرف ؟ وهل علينا نحن أن نتحمل عناء العمل ؟ يا لموت حياتي! لو أن المؤرخين على الأقل قالوا : هذا الفارس قد أنجز هذه المغامرة أو تلك بمعونة سائسه ، ولولاه لكان من المستحيل إنجازها لكنهم يكتفون بأن يكتبوا : «دون باراليبومينون ذو النجوم الثلاثة أتم مغامرة العفاريت الستة» ، دون ذكر شخص سائسه ، الذي كان حاضرا في كل شيء ، وكأنه لم يوجد أبدا . وأكرر لكم القول يا سادة فأقول إن مولاي يستطيع أن يذهب وحده ، والله يوفقه ، أما أنا فسأبقى في صحبة السيدة الدوقة ، ويجوز أنه حين يعود السيد دون كيخوته سيجد مسألة السيدة دلثنيا قد انتهت ثلاثة أرباعها ، لأنه في أوقات فراغي نويت على أن أضرب نفسي ضربات لا يبقى علي بعدها أي شعر .

فقال الدوقة : ومع هذا يا سنشو الطيب ، لا بد أن تصحب مولاك ، إذا كان في حاجة إليك ، وكل أهل الخير يرجون منك أن تفعل هذا ، وليس من اللائق ، بسبب خوف لا محل له ، أن تترك وجوه هؤلاء السيدات يسكنها هذا الوب .

فقال سنشو : هذه مصيبة أخرى ، هكذا أقول ، لو أن هذا الإحسان يتم لصالح آنسة مترهبة ، أو بنت من بنات الرهبة ، لتحمل الإنسان هذا العناء ، لكن أن يتعذب من أجل إزالة اللحية عن وصيفات ، فذلك ثلاثة الأثافي! إنني أفضل أن أراهن جميعا ذوات لحى ، من أكبرهن حتى أصغرهن ، ومن أكثرهن غنجا حتى أشدهن لباقة .

فقال الدوقة : أنت لا تحب الدونيات يا عزيزي سنشو ، وتتمسك كثيرا برأي صيدلي طليطلة ، وأنت في هذا على خطأ ، إن عندي وصيفات هن نماذج ، والدليل على هذا هو الدونيا رودريجت الحاضرة هنا ، ولا أذكر المزيد .

فقال السيدة رودريجت : أتمني يا صاحبة السعادة ، والله يعلم الحقيقة ، أننا معشر الوصيفات ، طيبات كن أو رديئات ، بغير لحى أو بلحى ، قد ولدتنا أمهاتنا كسائر النساء ، وما دام الله خلقنا في الدنيا ، فإنه يعرف السبب . وإنني أكل أمري إلى رحمته ، لا إلى لحية أي إنسان .

فقال دون كيخوته : كفى يا سيدة رودريجت ، وعلى السيدة تيفالدي وصواحبها أن يتشجعن ، وآمل أن ترحمهن السماء في محنتهن ، أو يفعل سنشو ما أمره به . وليأت «اللحم» فقط ، ولأننازل ملمبرونو : ولن يستطيع أي موسى أن يحلق لحاكم أسرع من إطاحتي برأس هذا المارد من فوق كتفيه . إن الله يمهل الأشرار ، ولكن ذلك لا يدوم طويلا .

فصاحت المكروبة : آه! رعتك نجوم المناطق السماوية بعيون مشفقة يا صاحب العظمة ، أيها الفارس المغوار ، ولتعطك من الشجاعة بقدر ما تعطيك من السعادة ، والقوة ، حتى تكون دائما حصنا ودرعا للجنس المهان المحقر ، جنس الوضيعات ، اللواتي يكرههن الصيادلة ، ويسبهن السواس ، ويحتال عليهن الغلمان إلا لعنة الله على الحمقاء التي كانت في زهرة عمرها أول من فضلت أن تكون وضيعة على أن تكون راهبة! ما أشقانا! لو انحدرنا في خط مباشر ، من ذكر إلى ذكر ، من هيكتور الطروادي ، لما تنازلت سيداتنا وشرفتنا بالخطاب باحترام ، حتى لو كان ذلك يجعلهن ملكات . أيها المارد ملمبرونوا على الرغم من أنك ساحر فأنت أمين على وعودك : إبعث إلينا « باللحام » المعدوم النظير ، حتى تنتهي محنتنا ، لو جاء القيظ ، وبقيت لحانا ، فما أشقانا!

ونطقت المكروبة بهذه الكلمات بتأثر وانفعال جعل الجميع يبكون ، وخصوصا سنشو ، الذي قرر في نفسه أن يصحب مولاه إلى آخر العالم لو توقف عليه سقوط الشعر عن هذه الوجوه المحترمة .

الفصل الحادي والأربعون

وصول «اللحام» ونهاية هذه الحكاية الطويلة

وأخيرا دخل الليل ، ومعها اللحظة التي لا بد أن يقدم فيها الفرس الشهير المسمى «اللحام» ، الذي بدأ تأخره يشيع القلق في نفس دون كيخوته ، لأنه حين لم يره يظهر ، لم يدر لعل هذه المغامرة تتعلق بفارس آخر غيره ، أو أن ملمبرونو تردد في منازلته . لكن فجأة شوهد يدخل في الحديقة أربعة متوحشون ، كلهم مغطون باللبلاب ، ويحملون على أكتافهم فرسا كبيرا من الخشب ، وضعوه على الأرض ، وقال أحدهم : «فليركب الفارس الذي يأنس في نفسه الشجاعة» فقال سنشو : «إذن ليس إياي ، لأنني ليس عندي أية شجاعة ، ولست فارسا» . فاستمر المتوحش قائلا : «وليركب السائس إذا وجد ، في المؤخرة ، وليشق بالمغوار ملمبرونو ، لأنه ليس له أن يخشى أي كمين ، ولا أي شيء آخر غير سيف الخصم . وما عليه إلا أن يدير المفتاح الموجود في عنق الفرس ، وهو يقودهما في الهواء إلى المكان الذي فيه ملمبرونو ، ولكن نظرا إلى أن الارتفاع الهائل الذي سيكونان فيه قد يسبب لهما دوارا ، فمن المستحسن ربط عينيتهما . فإذا صهل الفرس ، فهذه علامة على نهاية رحلتهما» . وبعد هذا الكلام ، ترك المتوحشون الفرس هنا ، وعادوا .

ولما أبصرت «المكروبة» الفرس قالت لدون كيخوته : «أيها الفارس المغوار! لقد أنجز ملمبرونو وعده : فهذا هو الفرس ، ونحن نشعر بلحانا تنمو ، وبحق كل شعرة فيها نستحلفك أن تحلقنا أو تجزنا : ولا ينبغي من أجل هذا إلا أن تركب على الفرس أنت وسائسك ، وتبدأ رحلتك الجديدة بداية موفقة» .

فقال دون كيخوته : سأفعل ، يا كوتيسة تريفالدي ، عن طيب خاطر وشجاعة كبيرة ، وسأركب بغير سرج ولا مهماز ، حتى لا أتأخر ، لأنني متلهف على رؤيتك بغير لحية أنت وصواحبك كلهن .

وقال سنشو : أما أنا فلن أفعل هذا ، لا عن رضى ولا عن كراهية ، بأي حال من الأحوال ، وإذا لم يتم هذا الجز دون الركوب في مؤخرة الفرس ، فإن مولاي يستطيع العثور على سانس آخر غيري يصحبه ، أو تجد هؤلاء السيدات وسيلة أخرى لصقل وجوههن : أنا لست ساحرا حتى أطيّر هكذا في الهواء . وماذا عسى أن يقول رعيتي في الجزيرة إذا عرفوا أن حاكمهم يتجول في الفضاءات الخيالية ؟ ثم إنه ما دام ثم ثلاثة آلاف فرسخ وكذا فرسخ من هنا حتى قندية ، فلو أن الفرس تعب أو المارد غضب ، أمضينا ست سنوات في العودة ، ولن يكون هناك جزيرة ولا جُزيرة تعرفني . ثم إن المثل الشائع يقول إن الخطر في التأخر ، وأننا إذا أعطينا البقرة فينبغي أن نمسك بالحبل . ولا تنزعج لحي هؤلاء السيدات إن القديس بطرس مبسوط في روما ، إنني مبسوط في هذا القصر ، وفيه أعامل معاملة طيبة ، وربّه يؤمّني في نعمة أن أكون حاكما .

فقال الدوق : يا عزيزي سنشو ، إن الجزيرة التي وعدتك بها ليست متحركة ولا هراية ، إن لها في أحشاء الأرض جذورا عميقة لا تستطيع أكبر الجهود أن تززعها من مكانها . ومن ناحية أخرى ، أنت لا تجهل أنه لا يوجد أي منصب ذي أهمية لا يشترى ببعض القيود المتفاوتة في الشدة وما أطلبه منك من أجل الحكم ، هي أن تصحب مولاك دون كيخوته ، لتعطي البداية والنهاية لهذه المغامرة الخالدة الذكر . اصعد إذن على الفرس « اللحام » ، وعد بكل السرعة المنتظرة منك . وإذا شاء الحظ العاثر أن تعود سيرا على الأقدام كحاج ، يذهب من بيت إلى بيت ، ومن نزل إلى نزل ، فمهما تكن المدة التي تستغرقها في العودة فستجد دائما جزيرتك كما تركتها ، ورعيتك مستعدين دائما لاستقبالك حاكما . وقراري لا يتزعزع ، وشكك فيه يا سنشو سيكون إهانة بارزة لرغبتني الشديدة في إسداء المعروف إليك .

فقال سنشو : لا تزدد على هذا يا سيدي : أنا لست إلا سائسا مسكينا ، ولا أملك الرد على كل هذا التلطف . فليركب إذن مولاي ، وليربطوا على عيني ، ولأتكل على الله ، وليقولوا لي هل حين أكون هناك فوق ، أستطيع أن أدعو الله وملائكته . فقال تريفالدي : طبعا ، تستطيع أن تدعو من تشاء : ولمبرونو ، وإن كان ساحرا ، فإنه مسيحي ، وهو يقوم بعمليات سحره بكل فطنة وتمييز ، دون أن يجلب على نفسه الملامة .

فقال سنشو : ليكن إذن ، وليكن الله في عونني ، والثالوث المقدس في جثيتنا . فقال دون كيخوته : الحق أنه منذ المغامرة الخالدة الذكر المتعلقة بطواحين الكبس ،

لم أشاهد سنشو مرتاعا مثله الآن ، ولو كنت مثل غيري أتأثر ، لطمانت جباتته شجاعتي .
لكن اسمع يا سنشو ، بعد إذن الجماعة أريد أن أقول لك كلمتين .

واقتراد سائسه إلى تحت أشجار الحديقة ، وأمسك بيده وقال : «أنت ترى ، يا أخي سنشو ، السفرة الطويلة التي سنقوم بها ؟ الله يعلم متى نعود منها ، وأي فراغ تتركه لنا الأمور : ولهذا أود منك أن تنسحب لحظة إلى غرفتك ، وكأنك تبحث عن شيء ضروري للرحلة ، وفي زمن قليل تضرب نفسك خمسمائة أو ستمائة ضربة ، تطرحها من الثلاثة آلاف وثلاثمائة التي تعهدت بها ، وتدخلها في حسابك ، لأن بدء الشيء نصف اتمامه » . فقال سنشو : «والله يا سيدي لا بد أنك مجنون ، إنك تشبه من يقال عنه : أنت تراني في مصيبة ، وأنت تطلب مني ابنتي ! علي الآن أن أركب الفرس عاريا ، وأنت تريد مني مع ذلك أن أمزق أردافي بضربات السوط الآن ، الحق أنك فقدت عقلك . هيا بنا نحلق هؤلاء السيدات ، وعند العودة أعدك بأن أبذل جهدي لإنجاز وعدي والتزامي ، بحيث ترضى ، أما الان ، فلا تتحدث عن هذا الأمر » . فقال دون كيخوته : «هذا الوعد يواسيني يا سنشو يا طيب ، وأنا واثق أنك ستفي به ، لأنك وإن كنت ساذجا بعض السذاجة ، فأنت مخلص وصادق » . فقال سنشو : «أنا أسمر ، ولست أخضر ، ولكن حتى لو كنت متعدد الألوان ، فسأفي بوعدتي » .

وعادا إلى حيث الفرس «اللحام» . ولما اقتربا منه قال دون كيخوته : «هيا بنا يا سنشو ، اعصب عينيك ، واركب . إن من يبعث إلينا من مثل هذه البلاد البعيدة ، لا يقصد التغير بنا ، وأي مجد يناله من خداع من يثقون به ؟ وإذا لم تسر الأمور كما نأمل ، فإن مجد القيام بمثل هذه المغامرة بمأمن من كل نقد . فأجاب سنشو : «هيا بنا يا مولاي إن على قلبي دموع هؤلاء السيدات ولحاهن ، ولن أكل لقمة مفيدة حتى أراهن في حالتهن الأولى . لكن اركب أنت أولا ، لأنني ما دمت سأركب في المؤخرة فمن الواضح أن من يركب على السرج ينبغي عليه أن يركب قبل الآخر » . فأجاب دون كيخوته : «أنت على حق» ، واستل من جيبه منديلا ، وطلب من المكروبة أن تعصب عينيه ، لكنه رفع الرباط بعد قليل وهو يقول : إذا صدقت ذاكرتي ، فإنني قرأت في فرجيليوس ما يقوله عن بلاديوم طروادة : وكان فرسا من الخشب قدمه اليونان إلى الآلهة بلاس ، ويحتوي في داخله على فرسان مسلحين ، قاموا بعد ذلك بتهديم المدينة : فمن الخير إذن أن نرى ما في باطن الفرس «اللحام» . فقالت المكروبة : «لا داعي لهذا ، وأنا زعيمة أن ملمبرونو ليس خائنا ولا شريرا ، فلتركب سيادتك دون خوف ولا وجل ، وأنا مسؤولة عن أي أذى يصيبك » .

ففكر دون كيخوته أنه لو ألح لكان في ذلك اتهام لشجاعته ؛ ولهذا وبدون أي اعتراض ركب على الفرس «اللحام» ، ووضع يده على المفتاح ، فدار بسهولة . ولما لم يكن له ركاب ، فقد كان ساقاه يتدليان ، وكان يشبه شكلا مرسوما في أبسطة الفلاندر ، يمثل انتصارا رومانيا . ثم أخذ سنشو يركب ، ولكن ببطء وعن كره ؛ ورتب أمره على المؤخرة بقدر ما استطاع ، ولما وجدها قاسية ، سأل الدوق ألا يستطيع الحصول على مخدة أو حشية ، ولو من منصة الدوقة أو من سرير أحد الغلمان ، لأن مؤخرة الفرس تشبه المرمر لا الخشب ، كما قال . فقالت الكونتيسة تريفالدي إن الفرس اللحم لا يتحمل أي زينة أو عدة عليه ، وإذا شاء سنشو فله أن يركب مثل النساء حتى لا يشعر بقساوة المقعد . ففعل سنشو ذلك ، وتركهم يعصبون عينيه ، وودع الجماعة ؛ لكنه كشف العصابة بعد لحظة ، وتطلع في كل الحاضرين ، والدموع في عينيه واستحلف كل واحد بأن يقول له دعوة «أبانا» و«سلام لك...» حتى يساعدهم الله إذا وجدوا في مثل هذه الرهبة . فقال دون كيخوته : «أيها الجبان! هل أنت على المشنقة أو في نهاية حياتك ، لتطلب هذه الدعوات ؟ ألست جالسا ، أيها المخلوق الجبان ، في الموضع نفسه الذي كانت تجلس فيه ماجلونه الجميلة ، ومنه نزلت لا لتدفن بل لترتقي عرش فرنسا ، إذا صدق المؤرخون ، وأنا الذي أركب معك ، ألا تستطيع أن أقارن نفسي بالمغوار بطرس ، لأنني أشغل المكان نفسه الذي كان يشغله ؟ غط عينيك إذن ، غطها ، أيها الحيوان العديم الشجاعة ، ولا تخرجن من فمك مثل هذه الكلمات الجبانة ، على الأقل في حضوري» . فقال سنشو : «أعصب عيني إذن ، وما داموا لا يريدون أن أكل أمري إلى الله ، ولا أن يفوض أمري إليه ، فإني أخشى تماما أن نجد هناك كوكبة من الشياطين تقتادنا إلى برليبيو^(١)» . وعصبوا عيونه ، ولما استقر دون كيخوته في السرج ، أدار المفتاح ، وفي الحال صاحت كل الوصيفات والحاضرون : «الله يرشدك ، أيها الفارس المغوار! الله يرشدك ، الله معك ، أيها السائس الجسورا! إنكما تشقان الهواء أسرع من السهم ، وتشيرون إعجاب من ينظرون إليكما من أسفل . أثبت تماما ، أي سنشو الباسل ، أنت تتحرك فقط ، حذار أن تقع ، إن سقوطك سيكون أشد فظاعة من سقوط المتهور الشاب الذي أراد أن يسوق مركبة الشمس» . وكان سنشو يسمع هذا الكلام ، وقال وهو يحتضن مولاه بشدة : «مولاي! لا أعرف لماذا يقول هؤلاء الناس أننا نصعد عاليا ، إن صوتهم يصل إلينا وكأنهم

(١) قرية بالقرب من فيودريال ، كان يعدم فيها قطاع الطرق الذين تحكم عليهم محكمة طليطة بالاعدام .

يتكلمون في اذاننا . فقال دون كيخوته : « لا تستند إلى هذا ، يا سنشو ، لأنه لما كانت هذه الطريقة في السير خارجة عن الطرق المعتادة ، فإنك سترقى آلاف الفراسخ ، وستسمع دائما الصوت . لكن لا تحتضني بشدة هكذا ، وإلا أوقعتني . والحق أنني لا أعرف ما الذي يجعلك تضطرب وتخاف ، وإنني لأقسم أنني لم أركب في حياتي فرسا وديعا كهذا . لكنه لا يتحرك من مكانه . أبعد المخاوف عنك إذن ، يا عزيزي ، الأمور تجري كما ينبغي لها أن تجري ، إن الريح في مؤخرتنا . فقال سنشو : « هذا حق لأنه من هذه الناحية أشعر بريح شديدة وكأن آلاف المنافيخ مصوبة نحونا » . وهو لم يخطئ في هذا ، لأنهم أحدثوا ريحا كبيرة بواسطة منافيخ كبيرة ، والدوق والدوقة وناظر البيت قد رتبوا اللعبة بإحكام ، بحيث لم ينقص شيء لجعلها كاملة . ولما أحس دون كيخوته هو الآخر بالريح ، قال : « لا شك في أننا وصلنا إلى منطقة الهواء الثانية ، حيث يتكون البرد ، والثلج ، والبروق ، والرعود ، أما أشعة الشمس فتكون في المنطقة الثالثة ، وإذا استمررنا في الصعود هكذا ، وصلنا بسرعة إلى منطقة النار ، لأنني لا أعرف كيف أضبط هذا المفتاح حتى لا نصل إلى حيث نحترق » . وفي هذه اللحظة ، وبعبوة مشاقات^(١) مشتعلة ومواد قابلة للاحتراق وسهلة الاطفاء ، وضعت على طرف يراعات طويلة ، بدأوا يمشون الحرارة في وجوههم . فلما أحس سنشو بالحرارة ، قال : « لأمّت إذا لم تكن الآن في منطقة النار ، أو بالقرب منها ، إن نصف لحييتي قد شوي . وعندي رغبة في أن أرفع العصاة لأشاهد أين نحن » . فقال دون كيخوته : « حذار من هذا ، وتذكر القصة الحقيقية التي وقعت لحامل اليسانس تورليا^(٢) ، الذي حملته الشياطين في الهواء ، ممتطيا عصا ، وعيناه مغمضتان . وفي مدى اثنتي عشر ساعة أصبح في روما ، واستراح في برج كانوفا ، وهو شارع في روما ، وشاهد كل الضجة والهجوم وموت بوريون ، وفي الصباح عاد الى مدريد ، حيث قدم تقريراً عن كل ما شاهده . وتورليا هذا روي عنه أيضا أنه بينما كان يجتاز الهواء ، أمره الشيطان بفتح عينيه ، ففتحهما ووجد نفسه ، كما خيل إليه قريبا جدا من جسم القمر ، بحيث كان يستطيع أن يمسك به بيديه ، لكنه لم يجرؤ على النظر إلى الأرض ، خوفا من أن يصاب بدوار . ولهذا إذن يا سنشو ، ينبغي ألا ترفع العصاة عن

(١) ذبالات .

(٢) حكمت محاكم التفتيش على الدكتور يوخنيو تورليا بالإعدام بتهمة أنه ساحر في سنة ١٥٣١ . وقد كان في الواقع رجلا مجنوناً زعم أن في خدمته عفريتاً اسمه زقيال ، وكان يكلمه برطانة نصفها ايطالية والنصف الآخر اسبانية ، ويدعي أنه تحمله بجسمه في الهواء .

أعيننا ، ومن التزم باقتيادنا سيقدم تقريراً عنا ، وربما نحن نقوم بهذه التوجيهات في الهواء نسقط دفعة واحدة على مملكة هندية ، كما يفعل البازي حين ينقض على البلشون من أجل أن يأخذه من أعلى ، مهما حاول أن يرتفع . وعلى الرغم من أننا لم يمض علينا في الظاهر غير نصف ساعة منذ أن تركنا البستان ، فصدقني أننا لا بد قطعنا مسافة عظيمة من الطريق » . فأجاب سنتو : « والله لا أدري أين نحن ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنه إذا كانت السيدة مجانن أو مجلونه قد رضيت عن هذه المؤخرة ، فلا بد أن جلدها ليس رقيقاً » .

وكل هذا الحوار بين الشجاعين سمعه الدوق والدوقة ومن كانوا في الحديقة وملأهم سرور . وأخيراً ، لإعطاء نهاية جيدة لهذه المغامرة الغريبة المتقنة الصنع ، أشعلت النار في ذيل الفرس « اللحم » بواسطة المشاقات ، وفي اللحظة نفسها ، لما كان الفرس مليئاً بالصواريخ والمفرقات ، انفجر في الهواء بضجة مروعة ، ملقياً دون كيخوته وسنشو على الأرض وكلاهما شائط .

وقبل ذلك بلحظات كانت كوكبة الوصيفات ذوات اللحى قد تركت الحديقة مع الكونتيسة تريفالدي وكل حاشيتها ، والذين بقوا في الحديقة صاروا كالمغمى عليهم متمددين على الأرض . ونهض دون كيخوته وسنشو وهما في حالة سينة ، وتلفتا في كل ناحية ، ودهشوا كل الدهشة لما وجدا نفسيهما في الحديقة نفسها التي بدءا منها ، ووجدا الكثير من الناس ممددين على الأرض بغير حراك . وزادت دهشتهم حينما شاهدا عند نهاية الحديقة ، رمحا مغروزا في الأرض علق به برشمان ، بحبلين من الحرير الأخضر ، والبرشمان مصقول أبيض وعليه قد كتب بحروف كبيرة من الذهب :

« الفارس المغوار دون كيخوته دلا منتشاً قد أتم وأنجز مغامرة الكونتيسة تريفالدي ، الملقبة بلقب الوصيفة المكروبة وحاشيتها ، لأنه حولها فقط ، ولمبرونو يعد نفسه راضياً كل الرضا . وذقون الوصيفات حلقت وصارت ملساء ، والملك ، دون كلافيجو والملكة أنطونوماسيا عادا إلى حالتهم الأولى . وحين يتم الجلد السائسي ، تفلت الحمامة البيضاء من المخالب المطعونة للهواء التي تضطهدها ، وتصبح بين ذراعي ذكر الحمام العزيز . وبهذا أمر الحكيم ملان الساحر الأول بين كل السحرة » .

ولم يكذب دون كيخوته يفك رموز البرشمان حتى فهم في الحال أن المقصود هو ارتفاع السحر عن دلثنيا . فشكر للسماء قيامه بهذه المهمة العظيمة بأقل التكاليف ، ولأن النعمة قد عادت إلى وجوه الوصيفات الموقرات اللواتي ذهبن ، ثم اقترب من المكان الذي كان فيه

الدوق والدوقة لا يزلان في حذر . فحرك بيده الدوق وقال له : «هيا يا سيدي الكريم تشجع ، ليس في الأمر شيء ، انتهت المغامرة ، دون خطر على النفس والجسم ، كما يدل على ذلك البطاقة المكتوبة المعلقة هناك » . وشينا فشينا عاد الدوق إلى وعيه ، كأنسان يخرج من نوم ثقيل . وفعلت الدوقة الشيء نفسه وكذلك كل الذين كانوا ممددين في الحديقة ، وعليهم آثار الدهشة والإعجاب بحيث كان يخيل إلى المرء أنه وقع لهم حقا ما تظاهروا به من أجل التسلية والضحك . وقرأ الدوق البطاقة ، وعيناه نصف مغمتضين ، ثم فتح ذراعيه وذهب ليعانق دون كيخوته ، وهو يقول إنه أحسن فارس عرفته العصور . وفتش سنشو عن «المكروبة» ، ليرى وجهها بدون لحية ، وهل هي جميلة وذقنها مصقولة كما يؤذن بذلك سماحة وجهها . لكن قيل له إنه في اللحظة التي نزل فيها الفرس الخشبي محترقا من أعلى الهواء ، وسقط على الأرض مفرقا ، اختفت كوكبة الوصيفات هن والكوتيسة تريفالدي ، وأنهن حلقت لحاهن دون أن يبقى أي أثر للشعر .

وسألت الدوقة سنشو كيف حاله بعد هذه الرحلة الطويلة ، وماذا جرى له فيها فقال : «أنا ، يا سيدتي ، شعرت بأننا نطير ، حسب ما يقوله مولاي ، في منطقة النار ، وأردت أن أفتح عيني لحظة ، لكن مولاي ، الذي استأذنته في رفع العصاة ، لم يوافق . هنالك وأنا رجل متشوق يدغدغني الميل إلى معرفة ما يراد منعي من معرفته ، بكل هدوء ودون أن يراني أحد نحيث قطعة صغيرة من الرباط ، بجانب الأنف ، تطلعت منها إلى ناحية الأرض ، وبدا لي أنها كلها ليست أكبر من حبة خردل ، وأن الناس الذين يمشون عليها ليسوا أكبر من حبات البندق ، فاحكمي تبعا لهذا على مقدار ارتفاعنا في تلك اللحظة » .

فقاطعت الدوقة قائلة : لكن حذار يا عزيزي سنشو مما تقول . يظهر أنك لم تر الأرض ، بل الناس الذين يمشون عليها ، لأنه إذا كانت الأرض قد بدت لك كحبة خردل ، وكل رجل كبندقة ، فمن الواضح من هذا أن الرجل الواحد يكفي لتغطية الأرض كلها .

فأجاب سنشو : هذا صحيح ومع ذلك فأني أبصرتها من زوايا صغيرة وشاهدتها كلها . فقالت الدوقة : لاحظ أنه من زوايا صغيرة لا يمكن رؤية مجموع الشيء الذي ينظر إليه .

فقال سنشو : أنا لا أفهم شيئا في هذه التدقيقات . كل ما أعرفه هو أن سيادتكم لا بد أن تفهم ، أنه ما دمنا نطير بالسحر ، فبالسحر أيضا استطعت أن أرى الأرض كلها وكل الناس . بأية طريقة شاهدتهم بها ، فإن كنت لا تصدقين هذا ، فإنك لن تصدقي أيضا أنني حين كشفت عن عيني من ناحية الحواجب شاهدت نفسي بالقرب من السماء بحيث لم يكن

بينها وبينني غير شبر ونصف ، وأستطيع أن أقسم لك ، يا سيدتي ، أن السماء كبيرة بشكل فظيع . وحدث أننا كنا نطير من الناحية التي فيها السبع عنزات^(١) ، ولما كنت في صفري معازا في بلدي فإني أحلف بالله وبروحي أنني حين رأيته شعرت برغبة شديدة في الحديث معها لحظة ، ولو لم أحقق هذه الرغبة لمت منها . فاقتربت منها إذنا وماذا فعلت! دون أن أقول لأحد ، ولا لمولاي ، نزلت ببساطة عن الفرس الخشبي «اللحام» وأخذت أتحدث مع الماعز ، وهي في الحقيقة رقيقة مثل المنثور ، حلوة مثل الأزهار ، لمدة ثلاثة أرباع الساعة على الأقل ، وفي أثناء هذه المدة لم يتحرك الفرس من موضعه .

فسأل الدوق : لكن حينما كان سنشو الطبيب يتحدث مع الماعز ، ماذا كان يفعل دون كيخوته ؟

فأجاب دون كيخوته : لما كانت هذه الأمور قد وقعت خارج العادة ، وخارج النظام الطبيعي للأمور ، فليس بعجيب أن يقول سنشو ما يقول أما أنا فإني أستطيع أن أقول إنني لم أكتشف عيني لا من أعلى ولا من أسفل ، ولم أر السماء ولا الأرض ولا البحر ولا الصحارى الرملية . صحيح أنني أحسست بأنني كنت أمر في منطقة الهواء ، بل وأنا لمست منطقة النار ، أما أن نكون قد واصلنا السير إلى أبعد من ذلك فذلك ما لا أعتقد . والواقع أنه لما كانت منطقة النار بين السماء والقمر وآخر طبقات الهواء ، فإننا لم نكن نستطيع الوصول إلى السماء التي توجد فيها العنزات السبع التي تكلم عنها سنشو دون أن نحترق ، فما دمننا لم نحترق فما أن سنشو يكذب ، أو سنشو يحلم .

فقال سنشو : أنا لا أحلم ولا أكذب وإلا فأسألوني عن علامات هذه العنزات ، وسترون إذا كنت أقول الحقيقة أم لا .

فسأله الدوق : طيب ، ما شكلها يا سنشو ؟

فقال سنشو : هكذا : إثنان خضراوان ، وإثنان حمراوان ، وإثنان زرقاوان ، والأخيرة متعددة الألوان .

فقال الدوق : هذا جنس جديد من الماعز ، وفي هذه المنطقة من أرضنا لا ترى مثل هذه الألوان .

فقال سنشو : هذا واضح! تصور الفارق بين عنزات السماء وعنزات الأرض .

فقال الدوق : قل لي يا سنشو ، هل رأيت بين هذه العنزات كبشا ؟

(١) اسم يطلقه الفلاحون الأسبان على الثريا (وهي مؤلفة من سبعة نجوم) .

فقال سنشو : لا يا سيدي ، لكنني سمعت أنه لا حيوان بقرون يجتاز قرون ^(١) القمر .
ولم يشأ الدوق والدوقة أن يسألا سنشو المزيد من أنباء رحلته ، لأنه بدا لهما أنه
بسبيل التجوال خلال السماوات السبع ، وإنبائهما بأخبار كل ماجرى ، دون أن يتحرك من
الحديقة . وهكذا انتهت مغامرة الوصيصة (المكروية) ، التي أثارت الكثير من الضحك ، ليس
فقط طوال المدة التي جرت فيها ، بل وأيضا طوال حياتهما كلها ، وزودت سنشو بزاد من
الحكايات لمدة قرون . واقترب دون كيخوته من سائسه وهمس في أذنه قائلا : « سنشو ،
ما دمت تريد أن يصدقوا ما شاهدته في السماء ، فأنا أريد بدوري أن تصدق ما شاهدته أنا
في كهف مونتسينوس ، ولا أزيد على هذا » .

(١) يتلاعب الدوق وسنشو بالكلمة Canbrpn التي تدل في الوقت نفسه على الكبش وعلى أقرن (= ذو قرون) .

الفصل الثاني والأربعون

في النصائح التي أسدها دون كيخوته إلى سنشو پنثا
قبل أن يذهب هذا لحكم جزيرته، وأمر أخرى معتبرة جداً

وكانت النهاية الشائقة السعيدة لمغامرة «المكروبة» مما بعث الرضا في نفس الدوق والدوقة حتى انهما قررا الاستمرار في هذه الممازحات وقد شاهدا أي شخص مناسب وقع بين أيديهما يحسب هذه الممازحات جدا لا هزلا . فوضعا الخطة وأصدرا الأوامر لرجلتهما وأتباعهما فيما يتعلق بالتصرف مع سنشو في حكم الجزيرة الموعودة ، في اليوم التالي لطيران الفرس الخشبي ثم طلب الدوق من سنشو أن يتزين ويتهيأ للذهاب لحكم الجزيرة ، قائلا أن رعيته في الجزيرة ينتظرونه انتظار الغيث في شهر أيار .

فجثا سنشو حتى الأرض وقال له : منذ أن نزلت إلى الأرض ، ومنذ أن تأملت ، من أعاليها اللامتناهية ، الأرض ورأيته صغيرة جدا شعرت بهدوء الرغبة العارمة التي تغلج في صدري حبا في الحكم . فأين العظمة في حكم حبة خردل ؟ وأية مهابة ، وسلطات في حكم ستة من الناس الذين لا يزيد حجمهم عن البندق ؟ إذ بدا لي أنه لم يوجد أكثر من هذا العدد على ظهر الأرض . فإذا شاء سيادتك أن تمنحني قسما صغيرا جدا من السماء ، ولو نصف فرسخ ، فإني أفضله على أكبر جزيرة في العالم .

فأجابه الدوق : تنبه يا عزيزي سنشو إلى أنني لا أملك أن أعطي إنسانا أي جزء من السماء ، ولا أكبر من سعة الأظفور لأنه لله وحده الحق في منح مثل هذه المنح والنعيم . وما أستطيع أن أعطيكه ، أعطيكه ، جزيرة كاملة ، مستديرة متناسبة ، خصبة جدا ووفيرة الغلة ، فيها يستطيع إذا أحسنت السلوك ، أن تكتسب ثروات الأرض وثرورات السماء معا .

فأجاب سنشو : هذا حسن ، فلتأت هذه الجزيرة ، وسأعمل على أن أكون ذلك الحاكم الذي يغدو توا إلى السماء على الرغم من فساد المحكومين . وليس هذا بسبب طموحي إلى الخروج من كوكبي ولا للترقي إلى أعلى عليين ، ولكن لأنني أريد محاولة تذوق طعم الحكم .

فقال الدوق : إذا طعمت منه مرة يا سنشو ، التهمت أصابعك بعدها ، لأنه أمر جميل أن تأمر وتطاع . ومن المؤكد أنه حين يصبح سيدك امبراطورا - وهو سيكون امبراطورا من غير شك ، إذا حكمنا على مجريات الأمور بالنسبة إليه ، فلن يكون من السهل خلعه ، وسترى أنه سيتأسف في أعماق نفسه على كل الزمن الذي مضى ولم يكن فيه امبراطورا . فقال سنشو : سيدي ، أنا أتخيل أنه حسن أن يحكم الإنسان ولو كان على قطيع من الغنم .

فقال الدوق : ليقتبروني معك يا سنشو إذا لم تكن عالما بكل شيء ، وآمل أن تصير حاكما صالحا بقدر ما يؤذن به حسن تمييزك . لكن لتقف عند هذا ، وتنبه إلى أنك ذاهب غدا صباحا لتولي الحكم في الجزيرة . في هذا المساء ستزود بالكسوة اللازمة التي ينبغي عليك ارتداؤها ، وكل الأشياء الضرورية لسفرك .

فقال سنشو : ليلبسوني ما يشاؤون ، فمهما لبست فإنني سأكون دائما سنشو پنثا . فقال الدوق : هذا حق ، ومع ذلك فإن الملابس ينبغي أن تتلاءم مع المهنة التي يمارسها الإنسان ، أو المنصب الذي يشغله . وليس من اللائق أن يلبس القاضي الزي العسكري ، ولا الرجل العسكري زي رجل الدين . وأنت يا سنشو ستلبس نصف عالم ، ونصف قائد ، لأنه في الجزيرة التي أعطيك إياها ، السلاح ضروري مثل الآداب ، والآداب مثل السلاح .

فقال سنشو : في الآداب لا أعرف شيئا ، لأنني لا أعرف حتى ألف باء . ولكن يكفيني أن أعرف عن ظهر قلب (المسيح)^(١) من أجل أن أكون حاكما صالحا ممتازا . أما السلاح فإنني أمارس منه ما يعطى لي إلى أن أسقط ، وأصبح تحت رحمة الله .

فقال الدوق : بمثل هذه الذاكرة الفذة لا يمكن سنشو أن يخطئ في شيء . وفي تلك الأثناء وصل دون كيخوته . ولما علم بما جرى ، وعرف ضرورة التعجيل في سفر سنشو إلى جزيرته ، استأذن الدوق وأخذ بسنشو من يده ، واقتاده إلى غرفته ، ابتغاء أن يسدي إليه نصائح تتعلق بالكيفية التي ينبغي عليه بها أن يشغل وظيفته . ولما بلغا الغرفة ، أغلقها على نفسيهما ، وأجلس سنشو بالإكراه تقريبا ، وقال له بصوت هادئ مترن :

(١) المسيح Christos ، علامة التصلب التي تسبق (ألف باء) في كتب المطالعة للمبتدئين في المدارس الأولية . ثم أطلقت بوجه عام على كتاب (ألف باء) . ولكن سنشو يطبق هذه الفكرة ببراعة على المثل الذي يقول أنه للحكم حاكما صالحا أخرى بك أن تجعل الله حاضرا من أن تعرف معلومات كثيرة ، وبعبارة أخرى : مراعاة الله أهم في الحكم من كثرة العلم .

«أحمد الله على جزيل نعمه ، يا عزيزي سنشو ، لأن الحظ قد واثاك وأخذ بيدك قبل أن أصادف حظا سعيدا ، وأنا الذي كنت أظن أنني سأجد في النعم التي سيمنحني الحظ إياها ، ما أدفع به أجر خدماتك ، لا أزال أرى نفسي في مستهل طريقي ، وأنت ، قبل الأوان ، وضد قانون كل تقدير معقول ، قد تحققت أمانيك . بعض الناس يوزعون الهدايا والمكرمات ، ويصلون ، ويستيقظون ويترجون ، ويصرون ، ولا ينالون ما يطلبون . ثم يأتي شخص آخر ، ودون أن يعرف كيف ولماذا ، يحظى بالمنصب الذي ألح في تلمسه الكثيرون . وفي الظفر بالمناصب ينبغي أن يقال أن المسألة مسألة حظ أو عدم حظ . وأنت ، ولست في نظري غير حمار كبير ، دون أن تصحو في الصباح ولا تسهر الليالي ، ودون أن تقوم بأي مجهود ، وفقط لأن الفروسية الجواله مستك بأنفاسها ، ها أنت تصبح حاكم جزيرة لا أكثر ولا أقل . أقول لك هذا يا سنشو حتى لا تعزو إلى كفايتك النعمة التي أسبغت عليك بل تشكر أولا السماء التي دبرت الأمور بإحسان ، ثم تشكر العظمة التي تنطوي عليها في ذاتها حماية فارس جوال . والآن وقد صار قلبك مهينا لاعتقاد ما قلته لك ، فكُن يا ولدي ، متنبها إلى كاتون^(١) الجديد هذا الذي يريد أن يسدي إليك النصح ، ويريد أن يكون بوصلتك ومرشدك للوصول إلى بر الأمان على هذا البحر العاصف الذي تريد أن تقتذف بنفسك فيه ، لأن المناصب العليا ليست غير هاوية عميقة سحيقة ، مغطاة بالظلام وحافلة بالعقبات .

«أولاً يا ولدي اتق الله ، لأن في تقواه الحكمة ، وإذا صرت حكيما لم تضل أبدا .
«ثانيا ، أنظر دائما فيمن أنت ، وابذل كل الجهود الممكنة لتعرف نفسك وتلك أشق معرفة يمكن تحصيلها . فإن عرفتها فإنك لن تنتفخ مثل الضفدعة التي أرادت أن تسوي نفسها بالثور^(٢) . وفي هذه الحالة إذا جعلك الغرور تنفش زمكا كالطاووس ، فإن ثم اعتبارا أجعله بديلا من التطلع في قبح رجليك^(٣) وهو أن تتذكر أنك كنت ترعى الخنازير في قريتك . فقاطعه سنشو قائلا : « لا أستطيع أن أنكر هذا ، لكن ذلك كان حين كنت صبيا صغيرا . وبعد ذلك ، ولما صرت شابا ، رعت الإوز ، لا الخنازير لكنني أظن أن هذا لا شأن له بما نحن فيه ، لأنه ليس جميع الحكام من أصلاب الملوك » . فأجاب دون كيخوته :

(١) ثريانتس بقصد هنا ديونسيوس كاتون ، الذي كان كتابه « Disticha de moribus ad filiam » كتابا كلاسيكيا في جامعات أسبانيا .

(٢) إشارة إلى إحدى خرافات إيسوفوس ١ ٢٤١ .

(٣) إشارة إلى الطاووس إذ يقال أنه يطوي زمكاه (ريش ذيله) إذ نظر في رجليه ، لأنهما قبيحتان فيطمئن حين يراهما من غروره . وقد قال الأخ لويس دي غرناطة مستعملا التشبيه والمجاز نفسيهما : « أنظر أفتح ما ليك ، تطوي حالا زمكي غرورك » .

« هذا صحيح ، ولهذا فإن الذين ليسوا من أصل نبيل ينبغي عليهم أن يقرنوا بجلال المهنة التي يمارسونها رقة ولطفا ، يمنعهم إذا أحسنت الفطنة توجيههم من عضات النميمة وسوء القالة ، ولا يوجد منصب بمنجاة منهما » . ثم تابع النصائح قائلا :
 « اقتخر يا سنشو بوضاعة أصلك ، ولا تخجل من القول بأنك تنحدر من أسرة حراث . فإذا رأوك لا تخجل من ذلك فلن يتخذ منها أحد ذريعة لتغييرك ، وتفاخر بأنك فاضل متواضع بدلا من أنك خاطئ متكبر . وما أكثر الذين ولدوا من أصل وضع ثم ارتفعوا إلى أعلى مراتب الدين أو السلطان ، وأستطيع أن أذكر لك من الأمثلة ما يتعبك » .
 « وتنبه يا سنشو إلى أنك إذا اتخذت الفضيلة دليلا ، وتفاخرت بفعل الخير ، فينبغي عليك أن تحسد أولئك الذين كان أسلافهم أمراء وأعيانا عظاما ، لأن الدم يورث والفضيلة تكتسب ، والفضيلة تساوي بنفسها وحدها ما لا يمكن الدم أن يساويه » .
 « وما دام الأمر هكذا فإنه إذا جاء لزيارتك أحد من أقاربك ، فلا تطرده ولا تهنه ، بل بالعكس عليك بحسن استقباله وملاطفته والاحتفاء به . بهذه الطريقة تؤدي واجباتك نحو السماء ، هي لا تحب أن يحتقر إنسان ما خلقته ، وواجباتك نحو الطبيعة » .
 « وإذا أخذت زوجتك معك (ولا يليق بمن في الحكم أن يبقوا زمنا طويلا بغير زوجاتهم) ، فاعتنِ بتلقينها ، وتنحيفها ، وإخراجها من جلافتها الطبيعية ، لأن كل ما يمكن الحاكم الفطن أن يكتسبه يضيع هدرا بواسطة الزوجة الحمقاء الجافية الأخلاق .
 « وإذا تصادف وصرت أرمل ، وهو أمر يجوز أن يقع لك ، وإذا مكنتك منصبك من العثور على زوجة ثانية من أصل أفضل ، فلا تأخذها على الأقل من أجل أن تكون لك طعما ويراعا للصيد ، أو ممن يتظاهرن برفض ما يتحرقن شوقا للحصول عليه ، لأنني أقول لك : في الحق أن كل ما تأخذه زوجة القاضي يقع على حساب الزوج ، في يوم الحساب ، وبعد موته يدفع أربعة أضعاف ثمن الخطايا التي لم يرتكبها أثناء حياته .
 « ولا تحكم الهوى في نفسك ، فهذا من شأن الجهلة ، الذين يتصورون أنفسهم أذكاء دون سائر الناس » .
 « وليكن لدموع الفقير تأثير في نفسك أكثر ، لا عدالة أكبر ، من شكاوى الغني » .
 « واعمل على الكشف عن الحقيقة ، من خلال وعود الغنى وهداياه ، كما من خلال زفرات الفقير ومضايقته » .
 « وحين يمكن ويجب الاصغاء للعدالة ، فلا تلق بكل شدة القانون على المذنب ، لأن سمعة القاضي القاسي ليست أفضل من سمعة القاضي العاطف » .

« وإذا تركت أحيانا درة العدالة تلين ، فلا يكون هذا تحت تأثير الهدايا ، بل تأثير الرحمة » .

« وإذا قدر لك أن تحكم في قضية أحد أعدائك ، فانس إهانتته ، ولا تعتبر إلا حقيقة الوقائع » .

« ولا يعمينك الهوى في أمور الغير : فإن أخطاءك إما أن تصبح بغير علاج ، أو لا يكون لها علاج إلا على حساب مالك وشرفك » .

« وإذا طلبت منك الانصاف امرأة جميلة ، فأغمض عينك عن دموعها ، وأذنبك عن نواحيها : وافحص طلبها بنزاهة ودقة ، حتى لا يغرق عقلك في دموعها ، وتخفق زفرائها فضيلتك » .

« ومن ترد عقابه ، لا ترهقه بالشتائم : فيكفي عذابه ، دون أن تضيف إليه كلمات السباب » .

« وفي الذنب الذي يقع تحت طائلة حكمك ، أنظر دائما بؤس الإنسان ، وأنه معرض لانحرافات الطبيعة الفاسدة . وفي كل ما تستطيع ، كن رحيمًا ورحمنًا ، دون أن تجرح العدالة ، لأنه على الرغم من أن صفات الله كلها متساوية ، فإن رحمته تلمع بسطوع أعذب من عدالته » .

« فإن أتبع يا سنشو هذه النصائح ، طالت أيامك ، وقرن بالخلد مجدك ، وتطهرت متعك ، وحظيت بسعادة لا توصف ، وتزوج أولادك كما تريد ، وهم وذريتهم يظفرون بالألقاب المشرفة ، وتعيش في سلامة ، محبوبًا ، مبجلًا من كل الناس ، وشيخوختك تكون هادئة عذبة ، وتبلغ نهاية العمر بغير تأنيب مفيد ، فتغلق عينيك أيدي أحفادك الناعمة الرقيقة » .

« والنصائح التي أوردتها تتعلق بكمال النفس . فاسمع الآن نصائح تتعلق بتزيين البدن » .

الفصل الثالث والأربعون

تلاوة نصائح دون كيخوته لسنشو بنثا

من ذا الذي يسمع أقوال دون كيخوته هذا ولا يظنه امرءا حكيما مزودا بعقل كبير ؟
والواقع أنه لم يكن يخرف ، كما رأينا مرارا في هذا التاريخ الكبير ، إلا حين يتعلق الأمر
بالفروسية ، وفيما عدا ذلك كان يكشف عن عقل سليم ، وفكر نير ، حتى أن أفعاله كانت
في كل لحظة تكذب أقواله ، وأقواله تكذب أفعاله . وفي تلاوة النصائح التي أسداها إلى
سنشو كشف عن استقامة في الحكم ووفرة في العقل . وكان سنشو يصني إليه بانتباه بالغ ،
محاولا أن يحتفظ في ذاكرته بهذه النصائح الغالية ، التي أمل من ورائها أن يصل إلى مرفأ
الأمان في إدارة حكومته الشاقة .

وتابع دون كيخوته نصائحه هكذا :

« وفيما يتصل بحكم شخصك وبيتك فإن أول ما أوصيك به يا سنشو ، أن تكون نظيفا
وتقص أظافرك ، ولا تدعها تنمو مثل بعض الجهلة الذين يعتقدون أن طول الأظافر يزيد في
جمال الكف ، وهذه لوثة كريهة خسيصة ، كما لو كانت هذه الزيادة القبيحة التي يرفضون
بترها تشبه بالأحرى مخالب طائر صيد لا أظافر إنسان .

« لا تظهر أمام الناس بثوب مهلهل ، فإن هذا الإهمال يكشف عن جبن صاحبه وضعفه ،
اللهم إلا إذا كان يستر مكيدة كبيرة ، كما ظن بيوليوس قيصر .

وافحص جيدا قيمة منصبك . فإن كان يكفيك لإعطاء زي رسمي لرجالك ، فأعطه
محتشما مفيدا ، لا لماعا وثيرا ، وقسمه بين خدامك والفقراء ، أقصد أنه إذا كان عندك ما
يكفي لكسوة ستة غلمان ، فلا تكس غير ثلاثة فقراء ، وبهذا تكون لك غلمان في السماء
على الأرض . وهذه الطريقة الجديدة في إعطاء الأرياء ليست معروفة لمن ينصرفون إلى
الفخفة الزائفة .

« ولا تأكل ثوما ولا بصلا : فإن رائحتهما الكريهة تدل على وضاعة أصلك . إمش بوقار ، وتكلم باتزان ، لكن بحيث لا يظهر عليك أنك تصغي إلى نفسك ، لأن كل تصنع فاسد .

« كل قليلا ، وتعش أقل : فصحة كل الجسم تتوقف على المعدة وحدها » .

« إشرب باعتدال : فإن السكر لا يعرف كيف يحفظ السر ولا أن ينفذ العهد » .

« ولا تمضغ بشديقك معا ، وحذار أن تتجشأ أمام الناس » .

فقال سنشو : مولاي ، أنا لا أفهم معنى (أتجشأ) .

فقال دون كيخوته : « تجشأ » أي « تكرر » وهي من أخس كلمات لغتنا ، وإن كانت قوية التعبير ، ولهذا فإن الذين يتباهون بحسن التعبير اقتربوا من اللاتينية وقالوا Bruter بدلا من Regoldar. وإذا لم يفهم أحد هذه الكلمات فلا بأس عليه : والاستعمال والزمان يدخلها شيئا فشيئا ، وهناك تصبح مفهومة : وهذا هو ما يسمونه إغناء اللغة ، وللاستعمال والعامة تأثير كبير عليها .

فقال سنشو : « الواقع يا مولاي أن هذه النصيحة الأخيرة هي من تلك التي سأعمل بها خصوصا : لأن عندي عادة سيئة هي التكرع في أحيان كثيرة » .

- « ثم يا سنشو - هكذا استمر دون كيخوته في إسداء نصائحه - ينبغي ألا تخلط بكلامك هذا الحشو الهائل من الأمثال التي تلقيها كل يوم : لأنه وإن كانت الأمثال جملا قصارا ، فإنك أحيانا تشدها من شعورها بحيث تبدى هوسا أكثر منها أمثالا .

فقال سنشو : « هذا أمر لا يستطيع أن يعالجه إلا الله وحده ، لأنني أعرف من الأمثال أكثر مما في كتاب : وحين أتكلم تأتي إلى فمي بغزارة بحيث تتنازع أيها يخرج منه أولا ، ولساني يمسك بأول مثل يلقاه ، سواء كان مناسبا أو غير مناسب : ولكنني سأعنى منذ الآن فصاعدا بالأناثة إلا بالأمثال التي تتفق وكرامة منصبي : في بيت الثري العشاء حاضر في الحال : من يعط أوراق الكوتشينة لا ينفطها : من يدق ناقوس الخطر في أمان منه : الإعطاء والامتلاك يستبدان بالأذهان » .

فقال دون كيخوته : هيا يا سنشو استمر ، أسلك ، واحش ، وراكم الأمثال ، فلا أحد يمنعك : أمي تعاقبني ، وأنا أضرب الحذاء . في الوقت الذي أطلب فيه منك أن تقضي على أمثالك ، تصب منها كالمر من ينسب إلى موضوعنا إنتساب جبال أبدة إليه . ألم أقل لك إن المثل الذي في غير محله يضايق ؟ وتكديسها خبط عشواء يجعل الكلام مهلهلا سمجا تافها .

« حين تركب الفرس ، لا تنحن على قربوس السرج ، ولا ترفع رجلك ، ولا تبعدها عن بطن الدابة ، ولا تنطلق مثلما تفعل على حمارك : إن الطرق المختلفة لركوب الفرس تميز بين الخيال وبين غلام الاسطبل .

« اعتدل في نومك : فإن من لا يستيقظ مع الشمس لا يستمتع بجمال النهار . وتذكر يا سنشو أن الاجتهاد أبو الحظ السعيد ، وأن الكسل ، عدوه ، لا يبلغ أبدا الغاية التي ينشدها .

« واسمع نصيحة أخيرة ، وإن لم تنفع في كمال البدن ، فإنها تستحق أن تغرزها في ذاكرتك ، لأنني أعتقد أنها لن تكون أقل فائدة لك من سائر النصائح . لا تتناقش أبدا في الأسر ، على الأقل فيما يتعلق بالمقارنة بينها ، إذ لا بد أن يكون بعض الأسر أفضل من بعض : إذ ستجعل عدوا لك من حططته ، دون أن تلقى من الغير أي جزاء » .

« ينبغي أن يتكون لباسك من سراويل محكمة ، وصديريّة طويلة ، ومعطف أطول . أما التبانة^(١) فأرى أنها لا تليق بالفارس ولا بالحاكم » .

« تلك ، يا عزيزي سنشو ، هي كل ما عندي من نصائح لك الآن . ووفقا للوقت والظروف سأسدي لك أخرى ، بشرط أن توافيني بأنباء أمورك وأحوال حكومتك » .

فقال سنشو : مولاي! إنني أدرك تماما أن كل ما تفضلت علي به هو لصالحني ؛ لكن فيماذا تفيدني نصائحك إذا لم أتذكر واحدة منها ؟ أما فيما يتصل بزواجي ثانية وبعدم ترك أظافري تطول ، فهذا سأذكره . لكن فيما يتعلق بكل هذه الترهات والالتواءات والتدقيقات ، فإنني لن أفكر فيها أكثر من تفكيري في ثلوج العام الماضي . ولهذا فمن الضروري أن تعطيني إياها مكتوبة ، فإنني وإن لم أعرف الكتابة ولا القراءة ، فإنني سأعطيها لمتلقي اعترافاتي ، وسيزودني بها عند الحاجة .

فقال دون كيخوته : يا لي من خاطئ! إنه لعار ألا يعرف الحاكم الكتابة والقراءة! أنت لا تعرف يا سنشو أنه حين يشاهد رجل أعسر ، أو لا يعرف القراءة ، فإنه سيتنتج من هذا أنه إما من أسرة بائسة من أخط الطبقات ، أو أنه فاسد الطبع رديء النجيزة بحيث لم يستطع العلم الصحيح والعرف الحسن أن ينفذ في عقله . إن هذا عيب فيك كبير ، يا عزيزي ، وأود منك على الأقل أن تعرف كيف توقع باسمك .

فقال سنشو : هذا أعرفه ؛ لأنني حين كنت خادما في كنيسة قريتنا ، تعلمت عمل

(١) التبان Greguescos : سروال من الخصر إلى الركبة .

حروف مثل تلك التي توضع على الحزم وكان يقال إن هذا يكون اسمي ؛ لكني سأصنع خيرا من هذا إذ سأقول إن يدي اليمنى مشلولة ، ويوقع غيري نيابة عني ؛ لكل داء دواء يستطب به إلا الموت . إنني حين أمسك بالعصا والقيادة ، سأفعل ما أريد ، خيرا من العمدة ، لأن الحاكم أكبر من العمدة . اقتربوا يرحب بكم . وإلا فليحتقروني وليسينوا القول في ؛ هؤلاء ، يأتون للحصول على الصوف فيعودون مجزوزين ؛ لأنه حين يريد الله أن يصيب أحدا بخير ، فإنه يظهر في بيته . حماقات الغني يعدها الناس حكمة ؛ وأنا ، بما أنني سأصبح غنيا ، لأنني سأكون حاكما ، وسخيا جدا ، كما أود أن أكونه ، فإن أحدا لن يتعقب أغلاطي . كن عسلا يأكلك الذباب . قيمتك حسب ما تملك ، هكذا كان يقول أحد أجدادي . من رجل غني لن تستطيع الانتقام أبدا...

فصاح دون كيخوته ؛ أوه! لعنة الله عليك! ستون ألف شيطان يأخذونك أنت وأمثالك! مضت ساعة وأنت تنظمها وراء بعضها وكل واحد منها يعذبني . وأؤكد لك أن أمثالك ستؤدي بك يوما إلى المشنقة ؛ وستكون سببا في أن تطلب رعيته طردك من الحكم ، أو ستقوم الفتن ضدك . قل لي أيها الجاهل ، من أين تأخذها ، هذه الأمثال ؟ وكيف تطبقها ؟ حين أريد أن أورد مثلا مناسبا ، أتصب عرقا من الجهد والتعب ، كما لو كنت أحفر الأرض .

فقال سنشو ؛ يا مولاي ، وافقني علي أنك تغضب لأمر تافه جدا . أي شيطان يلومني على أن أستغل مالي ؛ وأنا لا أملك درهم ، وكل ثروتي هي أمثالي ، وفي هذه اللحظة تبادر إلى فمي أربعة أمثال جاءت في محلها ، أو كالكثرة في السلة ؛ لكني لن أقولها ، لأن سنشو يسمى « الفم المسدود » .

فقال دون كيخوته ؛ لا ، سنشو هذا ليس إياك ؛ لأنك لا تفعل غير الكلام والتنازع بحق وبغير حق خبط عشواء ؛ ومع ذلك فإنني أريد أن أعرف ما هي هذه الأمثال الأربعة الملائمة جدا فيما تقول ؛ فإنني عبثا أحاول أن أفتش في رأسي ، وهو ليس غبيا فلا أجد شيئا منها .

فقال سنشو ؛ وأي أمثال أجمل من هذه ؛ لا تضع إصبعك أبدا بين ضرسين طاحنين ؛ لا جواب على من يقول « أخرج من بيتي » ومن يقول « ماذا تريد من زوجتي » ؛ إذا اصطدم الأبريق بالحجر أو الحجر بالأبريق فالويل للأبريق ؛ كل هذه أمثال مناسبة جدا للمقام . ومعناها ؛ لا يتهمجن أحد على الحاكم أو من بيده الأمر ، لأنه سيخرج من هذا محطما مثل من يضع الإصبع بين ضرسين طاحنين ، وحتى لو لم يكونا طاحنين فماذا يهم ، ما دام سنين

وما يقوله الحاكم لا معقب عليه ، ولا من يقول : أخرج من بيتي ، أو ماذا تريد من زوجتي ؟ أما مثل الابريق فالأعمى يرى انطباقه . ولا بد لمن يرى القذاة في عين جاره أن يرى الجذع المعترض في عينه ، حتى لا يقال عنه الموت : خائف من المشنوق . وأنت تعرف جيدا يا مولاي أن المجنون يعرف عن بيته أكثر مما يعرف الحكيم عن بيت غيره .

فقال دون كيخوته : لا يا سنشو ، المجنون لا يعرف شيئا عن بيته ولا عن بيت غيره ؛ لأنه على أساس جنونه لا يمكن أن يبني بيت حكمة . لكن لنكف عن الاسترسال في هذا ، يا صاحبي ؛ إذا أسأت الحكم ، فالذنب ذنبك أنت ، والعار يقع علي أنا ؛ لكني أواسي نفسي فأقول إنني فعلت ما يجب علي ، لأنني نصحتك بكل صراحة وحكمة ممكنتين ؛ ولهذا فأنا خالص من وعدي والتزامي . أرشدك الله يا سنشو ؛ وهناك إلى حسن الحكم ، وأزال عني قلقي من أن تنزل من أعلى إلى أسفل مع جزيرتك ، وهو قلق كنت أستطيع تجنبه لو أنني كشفت للدوق عن حقيقتك ، وقلت له إن كرشك الكبير ليس إلا زكبة مملوءة بالأمثال والخبائث .

فقال سنشو : مولاي ، إذا كنت تعتقد أنني لا أصلح للحكم فإني أتخلى عنه فورا ؛ إنني أفضل أقل ذرة في روحي على كل بدني . وسنشو يعيش عيشة طيبة بالخبز والبصل عيشته حاكما يأكل الحجل والديوك . وعلى كل حال فإننا نتساوى جميعا حينما ننام ، الكبار والصغار ، الفقراء والأغنياء ، وإذا فتشت جيدا يا مولاي لوجدت أنك أنت الذي دفعتني إلى أن أكون حاكما ؛ لأنني لا أعرف كيف أحكم جزرا ولا أفضل في هذا حداة . فإذا كنت تظن أنني إذا صرت حاكما فسيأخذني الشيطان بالضرورة ، فإني أفضل أن أذهب إلى السماء بوصفي سنشو الرجل البسيط ، لا إلى الجحيم بوصفي حاكما .

فقال دون كيخوته ، الحق يا سنشو أنك بهذه الكلمات الأخيرة التي نطقت بها ، أحكم عليك أنك جدير بأن تحكم ألف جزيرة ؛ فأنت طيب الطباع ، وبدونه لا فائدة في العلم . ففوض أمرك إلى الله ، واجتهد في ألا تخطئ في نيتك الأولى ؛ أقصد أن تكون دائما ثابتا مصمما على الوصول إلى العدل والحق في كل الأمور التي تعن لك ؛ فالسماد تساعد دائما المقاصد الحسنة . ولنذهب لتناول الطعام ، لأنني أظن أن الدوق والدوقة بانتظارنا .

الفصل الرابع والأربعون

كيف تولي سنشو الحكم؟

مغامرة غريبة وقعت لدون كيخوته في القصر

زعموا أنه لما رأى سيدي حامد ، في الأصل لهذا التاريخ ، أن مترجمه لم يترجم هذا الفصل كما وضعه ، تضايق من نفسه لأنه ألف حكاية جافة محدودة كهذه ، لأنه يعتقد أنه ملزم بأن يتكلم باستمرار عن دون كيخوته ، دون أن يجرؤ على الاستطرد ، أو ذكر حادث عارض أكثر تشويقاً وامتناعاً ، وهو يقول ان تصويب العقل على شيء واحد باستمرار ، والكتابة عن موضوع واحد ، وعدم القدرة الا على جعل عدد قليل من الأشخاص يتكلمون ، هو عمل لا يحتمل ولا يمكن أن ينال منه المؤلف مجداً ولا كسباً ، ولتلافي هذا العيب أولج في القسم الأول من الكتاب بعض الأفاصيص ، مثل أقصوصة «المستطلع الفاسد الرأي» و «الأسير» وكتاتهما مفصولتين عن التاريخ ، بينما سائر ما يرويه قد وقع فعلاً لدون كيخوته ، ولا يمكن أن يغفل ذكره . ومع ذلك فهو لا يستبعد من فكره أن معظم القراء ، وهم سيفرقون في الاهتمام بالأعمال الرائعة التي يقوم بها دون كيخوته ، لا يعلقون أهمية على هذه الأفاصيص ، ولا يلقون كثير انتباه إليها ، أو لا يقرأونها الا بسرعة وكرهاً ، دون أي انتباه الى ما في هذه القطع من متعة وتسلية تتجليان أكثر حينما تطبع على حدة ، مفصولة عن حماقات دون كيخوته وسذاجات سنشو ، ولهذا لم يشأ أن يولج في هذا القسم الثاني أية أقصوصة منفصلة ، بل فقط بعض التفاصيل المستمدة من صلب هذا التاريخ ، وبكثير من الاعتدال ، ودون أن يستخدم من الالفاظ أكثر مما ينبغي لروايتها . ثم انه حصر نفسه بدقة في حدود تاريخه (قصته) ، وان كان يكشف عن كثير من العبقرية في معالجة أي موضوع آخر ، ويرجو القارئ الا يحتقر عمله ، بل وأن يتلقاه بالترحاب والقبول ، من أجل ما لم يشأ أن يقول أكثر مما هو من أجل ما قال ^(١) .

(١) هذه الأحداث والأفاصيص الاستطردية كانت من الأمور التي أخذت على القسم الأول من دون كيخوته ، «المستطلع الفاسد»

ولما فرغ دون كيخوته من طعامه أعطى سنشو في المساء نفسه النصائح التي أسداها إلى سنشو مكتوبة ، وكلفه بأن يجد قارنا يقرؤها له ، لكن سنشو لم يكده يحصل على هذا الدفتر الذي قيد فيه مولا النصائح حتى وقع منه ، ووصل إلى الدوق والدوقة يعد قليل ، فلم يدريا ماذا يعجبان به أكثر ، حكمة دون كيخوته أو حماقته وجنونه . ولمتابعة المزحة التي بدأها ، بعثا في اليوم نفسه ، بسنشو مصحوبا بموكب كبير إلى القرية التي ستكون بالنسبة إليه جزيرة^(١) . واقتاده إليها أحد نظار قصر الدوق ، وهو رجل مازح وعقل معا ، لأنه بدون حكمة لا توجد متعة حقيقية . وهو الذي قام بدور الكونتيسة تريفالدي ، بكل النجاح الذي شاهدناه : وعقله وتعليمات الدوق كانت مرشده في هذه المزحة الجديدة . ولما رآه سنشو خيل إليه أنه يرى الكونتيسة تريفالدي بشخصها ، حتى أنه تلفت إلى مولا وقال له : « إما أن يأخذني الشيطان مهما كنت عادلا ومؤمنا ، أو توافقني على أن وجه هذا الناظر هو وجه المكروبة » . فتطلع فيه دون كيخوته بانتباه وقال : « يا سنشو ، لا ينبغي أن يأخذك الشيطان لا عادلا ولا مؤمنا ، ولا أدري ماذا تقصد بقولك أن وجه المكروبة هو وجه هذا الرجل ، لأن الناظر لا يمكن أن يكون المكروبة ، فهذا أمر ينطوي على تناقض شديد . ثم إنه ليس الوقت الآن وقت تحقيق هذا الأمر ، وإلا أدخلنا هذا في تيه لا تتبين الطريق فيه . صدقني يا صاحبي ، أننا في حاجة إلى أن نتوجه بأحر الدعاء إلى الله ليخلصنا كلينا من السحرة . » - فقال سنشو : « هذا ليس مزاحا يا مولاي ، لقد سمعته يتكلم ، ويخيل إلي أنه صوت المكروبة يطن في أذني . سأسكت الآن ، لكنني لن أكف عن تصيد أية علامة أخرى تحطم أو تؤيد شبهاتي . » - فقال دون كيخوته : « هذا حسن جدا ، أخبرني بكل ما ستكشف ، وما سيقع لك في حكومتك هذه » .

ورحل سنشو ، أخيرا ، مصحوبا بكثير من الناس ، وكان يلبس زي أهل العلم ، وعليه معطف واسع من الوبر الأشقر المتماوج ، وقبعة عالية من نفس القماش ، ويركب بغلا . ووراءه سار ، بأمر من الدوق ، حماره وعليه عدة فاخرة . وكان سنشو يتلفت خلفه دائما ليراه ، وكانت هذه لذة لا تعادلها في نظره امبراطورية ألمانيا . ولما ودع الدوق والدوقة

= الرأي ، « الأسير » ، « غراميات كردليو » . ولهذا حاول المؤلف أن يتجنب هذه الاستطرادات والقصص العارضة في هذا القسم الثاني حتى تتوافر فيه الوحدة والاحكام والترابط .

(١) يرى بيثير أن الجزيرة التي سماها ثريانتس باسم جزيرة « برتريا » Barataria هي قرية قلعة الأوبرو Alcala de ebro الواقعة على نهر الأبرو . وكانت تدخل في ممتلكات دوقات فلا هرموسا . ومن المحتمل أن يكون اسم Baratarin مؤلفا من كلمة Barato أي خدعة ، لأن العملية كلها خدعة وحيلة للسخرية والضحك . وسنجد أن المؤلف نفسه يشرحها على أساس أنها ربما كانت من الصفة Barato أي رخيص ، لرخس السعر الذي دفعه سنشو للحصول على حكومتها .

قبل أيديهما ، وتلقى من مولاه البركة وقلبه حزين تائب ، فمنحه البركة والدموع في عينيه .
دع ، يا عزيز القارئ ، دع سنشو الطيب يمضي بسلام وهو سعيد . واستعد للضحك
المتواصل ، حين تعرف سلوكه في منصبه الجديد ، وتنظر فيما جرى لمولاه في الليلة
نفسها . فإن لم تضحك من ذلك ، فعلى الأقل ستفتقر شفتاك ؛ إن أعمال دون كيخوته العظيمة
لا بد أن تتلقى بالإعجاب أو الضحك .

ويروي التاريخ أنه لم يكد سنشو يرحل ، حتى أحس دون كيخوته بالوحدة ؛ ولو كان
في استطاعته إلغاء القرار لألغاه . ولاحظت الدوقة اكتنابه ، وسألته عن السبب ، وقالت إن
كان السبب هو غياب سنشو فإن في قصرها سواسا ، ووصائف وأوانس لخدمته وإشباع كل
رغباته . فأجاب دون كيخوته : « صحيح يا سيدتي إنني أشعر بفراغ بسبب غياب سنشو ،
لكن هذا ليس السبب الرئيسي في أحزاني . أما العروض الكريمة التي تفضلت بها فأني أقبل
منها فقط لإرادة الخيرة والنية الحسنة التي أملتها ، ولكنني أرجوك أن تسمح لي بأن أتولى
أنا وحدي خدمة نفسي في غرفتي . » - فقالت الدوقة : « الحق أن الأمر لن يكون هكذا . بل
سأعطيك أربع أوانس لخدمتك جميلات كالآزهار . » - فقال : « بالنسبة لي ، يا سيدتي لن
يكن إلا أشواكا يلدغن قلبي في أعماقه ؛ ولهذا لن يدخلن في غرفتي ، لا هن ولا ما
يشابههن ، كما أنني لا أطير الآن^(١) . فإذا تفضلت عظمك بإسداء عطف لا أستحقه ،
فدعيني أخدم نفسي بنفسي ، والأبواب محكمة الإغلاق ؛ ولا بد لي أن أبني جدارا بين
رغباتي وبين أمانتي ، وعدم إضاعة فضيلتي بإفراط سخاء سموك . ولا خلاصة يا سيدتي أنني
أفضل أن أنام بكل ملابسي على أن أوافق على أن يدخل لي أحد ملابسي » .

فقالت الدوقة : لا تزد علي هذا يا سيد دون كيخوته ؛ وسأصدر الأوامر كيلا يدخل غرفتك
ولا ذبابة ، وبالأحرى لا تدخل آنسة . إنني لست امرأة تريد أن تكشف عوار السيد دون
كيخوته ، لأنني أعتقد ، بحسب ما أستطيع أن أحكم ، أن الأمانة هي أعز فضائلك . فلتلبس وتخلع
ملابسك وحدك كما تشاء ، وحين تريد ، فلا أحد سيضع العراقيل ؛ وستجد في غرفتك كل
الأواني الضرورية لمن يريد أن ينام وأبوابه مغلقة ، حتى لا تضطرك أية حاجة ضرورية إلى فتحها .
ولتحبي السيدة دلثيا دل توبوسو آلاف القرون ؛ وليتردد اسمها على سطح البسيطة كلها ، لأنها
تستحق أن يحبا فارس أمين مغوار مثلك ؛ ولتلهم السماء الرحمة سنشو پنثا ، حاكمنا ، أن يتم
بسرعة العقوبة ، حتى يستطيع العالم أن يتمتع بجمال هذه السيدة الرائعة الجمال ؛

(١) هذه العبارات وأمثالها آثرنا أن نترجمها حرفيا ، وهي تدل دائما على النفي القاطع .

فأجاب دون كيخوته : سموك يا سيدتي تتكلمين من قلبك : وعن فم سيدة جلييلة مثلك لا يمكن أن يصدر شيء سيء . ودلثنيا ستكتسب مجدا وشرفا أكبر في الدنيا لأنك امتدحتها ، أعظم مما تناله من أفصح الألسنة .

فقالت الدوقة : لنترك هذا يا مولاي ، الساعة ساعة العشاء ، وأظن أن الدوق ينتظرنا . فتعال إذن نتعشى ونستريح ، لأن الرحلة التي قمت بها بالأمس إلى قنذية كانت طويلة ولا بد أنها أتعبتك .

فقال دون كيخوته : لا أشعر بتعب من جرائها ، بل وأتجاسر على أن أقسم لك أنني لم أركب في حياتي دابة أنطف وأحسن سيرا من « اللحم » . ولست أدري ماذا حمل ملمبرونو على التخلص من ركوبة رشيقة لطيفة مثل هذه ، خصوصا وأن يحرقها هكذا .

فأجابت الدوقة : بقدر ما أستطيع أن أتصور ، فإنه ندم على الأذى الذي أصاب به الكونتيسة تريفالدي وصواحبها ، والأفعال الشريرة التي ارتكبتها بوصفه ساحرا ، ولكي يضع حدا لها ، أراد أن يحطم آلاف شروره ، وخصوصا « اللحم » الذي لم يكن يجعله يهدأ ، حاملا إياه من بلد إلى بلد ، ولكن رماد هذه الآلة ودعوة المباراة التي أرسلها لملمبرونو غنية باقية تخلد ذكرى مجد ويسالة العظيم دون كيخوته دلا منتشا .

وعاد الفارس إلى شكر الدوقة ، وبعد العشاء أوى إلى غرفته ، دون أن يقبل أن يتبعه أحد ، لأنه كان يخشى أن تسنح له فرصة فقدان الإخلاص نحو دلثنيا ، مستحضرا في ذهنه باستمرار فضيلة أماديس ، زهرة الفرسان الجواله ومرآتها . وأغلق على نفسه الباب بضلتيه ، وخلع ملابسه على ضوء شمعتين ، لكنه وهو يخلع جواربه (ويا لها من محنة لم يسمع بمثلها بالنسبة إلى مثل هذا الشخص ، أحس بانطلاق) لا زفرات وقحة تجرح الاداب ، بل أربع وعشرين غرزة من أحد جواربه حتى صار مثل الشماسي . فتضايق من هذا كل الضيق ، وكان على استعداد أن يدفع أوقية من الفضة ثمنا لغرزة ابرة بالحرير الأخضر ، لأن جواربه كانت بهذا اللون .

وفي هذا الموضع يصيح ابن الأيل : « إيه أيها الفقرا إيه أيها الفقرا ! لست أدري لماذا يسميك شاعر قرطبة^(١) الكبير باسم « الهدية المقدسة التي لا يقدر ثمنها كله » . ويستمر قائلا : إني وإن كنت مسلما فإني قد عرفت ، من اتصالاتي بالنصاري ، أنهم يقولون أن القداسة في المحبة ، والتواضع ، والإيمان ، والطاعة والفقير ، ورغم هذا فإني أقول إن الذي

(١) هو خوان دي مينا ولد في قرطبة ، وتوفي سنة ١٤٥٦ ، والشعر المذكور في كتابه « التيه » .

يعرف كيف يقنع بالفقر يدين لله بالشكر العظيم ، بشرط أن يكون الفقر من ذلك النوع الذي أشار إليه كبار القديسين (الأولياء) حين قالوا : أمتلك كل شيء كما لو كنت لامتلكه ، وهم يسمون هذا فقر الروح ؛ لكنك أنت ، أيها النوع الثاني من الفقر ، وهو الذي أتكلم عنه الآن ، لماذا تأتي لتتعلق بالبلاء والعريقي الأصل أخرى من غيرهم ؟ ولماذا تلزمهم بأن يخفوا ، برقع ، ثقبوا أحذيتهم ؟ ولماذا تلجنهم إلى أن تصبح أزرار صدرياتهم بعضها من الحرير ، والبعض الثاني من الوبر ، والبعض الثالث من الزجاج ؟ ولماذا بنيقاتهم الصفراء المهلهلة مغلقة وليست مشدودة كما ينبغي أن تكون (مما يدل - ولنقل هذا عابرين - على عدم استعمال النشا والياقات المفتوحة) ؟ ما أبأس الرجل الكريم العنصر الذي يضطر ، صونا لشرفه ، إلى أن يأكل الكفاف في داخل بيته ، ثم يفتح أساريه في الشارع ، وفي يده مسوك ، مع أنه لم يأكل شيئا يلجئه إلى استخدام المسوك لتنظيف أسنانه ؟ نعم شقي ألف مرة من هو مشغول باستمرار بصون شرفه ، ولهذا يحسب أن الناس يتطلعون من مسافة فرسخ في أحذيته المرقعة وقبعته القذرة ، ومعطفه المهلهل ، ومعدته التي تصرخ من الجوع ! » .

كل هذه المخاطر مرت في رأس دون كيخوته وهو ينظر إلى جواربه المخروقة ، لكنه تعزى عن ذلك بأن سنشو ترك له أحذية من الشمواه فقرر أن يلبسها غدا . ثم نام مفكرا حزينا ، بسبب غياب سنشو وبسبب جواربه المخروقة ، التي كان يود لو رتقها ولو بحري من لون آخر ، ولو أن هذا أبلغ دليل على الفقر عند نبيل . وأطفأ الأنوار ، لكن الحر كان شديدا ، ولم يستطع النوم ، فنهض ، وفتح النافذة حتى نصفها ، وكانت تطل على الحديقة الجميلة ، فسمع كلاما تحت تقاطعها ، فأخذ في الانصات باهتمام ، وارتفع صوت المتكلمين ، فاستطاع أن يسمع ما يقولون .

قال صوت : « لا ترغميني على الغناء يا اموشيا ، فأنت تعلمين أنه منذ اللحظة التي دخل فيها هذا الغريب في هذا القصر ، ومنذ أن أبصرته عينا ، فإنني أعرف البكاء خيرا من الغناء ، ومن ناحية أخرى أنت لا تجهلين أن سيدتنا خفيفة النوم ، ولا أريد ، ولا بذهب الدنيا ، أن تعلم أننا في هذا المكان ، لكن لو كانت تنام من غير أن تستيقظ ، فماذا يفيدني الغناء ، إذا كان أييوس الحديد هذا ينام ، وقد جاء إلى هنا لإغرائني ؟ »

فأجاب صوت آخر : لا تخافي شيئا يا عزيزتي ألتسيدورا ، فلا شك أن الدوقة نائمة ، وجميع من في هذا البيت ، ما عدا سيد قلبك ، ويقظة روحك ، لأنني سمعته يفتح النافذة من قليل ، وهذا يدل على أنه لا يزال يقظان . غني ، أيتها المسكينة ، بلحن هادئ عذب ، على صوت الهارب ، وإذا سمعنا الدوقة اعتذرنا بشدة الحر .

فقال السيدورا : ليس هذا ما يمنعني يا امرئثيا ، لكنني لا أود أن ينم غنائي عن حال قلبي ، حتى لا يظن أولئك الذين لا يعرفون قوة الحب إنني فتاة طائشة ، قليلة الحياء ، ومع ذلك فليكن ما يكون ، فالخجل على الوجه أهون من الجرح في القلب .

وفي الوقت نفسه بدأت بصنع تقسيمات على الهارب برقة بالغة ، أشاعت النشوة في نفس دون كيخوته وكان يصغي إليها . وفي هذه اللحظة مرت بذاكرته آلاف المغامرات المشابهة ، التي كان فيها نوافذ ، وحدائق ، وموسيقى ، واعترافات غرامية ، وإغماءات ، وأمور أخرى قرأها في كتب الفروسية الحافلة بالتهاويل العاطفية ، وفي الحال تخيل أن إحدى أوانس الدوقة مغرمة به ، وأن الشرف يقضي عليها بكتمان السر في هذه المسألة ، وخشي من أن يقهر ، فحاول أن يقاوم وفوض أمره إلى سيدته دلثيا ، ولكنه أراد مع ذلك أن يسمع هذه الموسيقى . ولكي يلصق إلى أنه في النافذة ، تظاهر بالعطس ، وهذا ما سر الفتاتين ، لأنهما لم تكونا تريدان غير هذا ، وهو أن يسمعهما دون كيخوته . وسوت السيدورا هاربيها من جديد ، وأخذت تغني هكذا :

« أنت يا من ترقد في سريرك ، بين فرش من التيل الهولندي ، نائما متمددا ، من المساء حتى الصباح ،

« يا أعظم فارس مغوار أنجبه اقليم المنتشا ، أظهر وأبرك من كل ذهب البلاد العربية الأبريز ،

« أصغ إلى فتاة حزينة تحب دون تبادل ، وتستشعر ، على ضوء شمسك ، أن روحها تحترق .

« أنت تنشد المغامرات ، وتتسبب في مصائب الآخرين ، وتصيب بالجراح ، وترفض العلاج للشفاء منها .

« قل لي ، أيها الشاب الشجاع (خلصك الله من كل الشرور) هل ولدت في ليبيا أو على جبال خاك .

« هل أرضعتك الأفاعي ؟ أو كانت مرضعاتك من الغابات القاسية والجبال المتوحشة ؟
« إن في وسع دلثنيك النضرة المنتفخة ، أن تتفاخر بأنها أخضعت نمرا ودابة متوحشة .
« ومن أجل هذا فقط سيذيع صيتها من «هنارس» حتى «خرما» ، ومن التاجه إلى المنشارس ، ومن بسورجه حتى أرلشا .

« بودي لو بأدلتها ، في مقابل ثوب من أجمل ثيابي ، مزين بهدايا من الذهب .
« أوه بودي لو رأيت نفسي بين ذراعيك أو على الأقل بالقرب من سريرك ، أحك رأسك لتنظيفه .

« إنني أطلب الكثير ، ولا أستحق كل هذه النعمة ؛ وأود فقط أن أدغدغ قدميك ؛ ففي هذا مقنع لفتاة متواضعة .

« كم كوفيات^(١) أعطيك ، وكم أحذية من الفضة ، وكم سراويل من ديباج دمشق ، ومعاطف من نسيج هولندية!

« كم من لآلي جميلة ، كبيرة مثل العفص^(٢) لا مثيل لها ، وفريدة في نوعها!
« لا ينظر أبدا من العلياء صخرتك التاربية^(٣) إلى الحريق الذي يستهلكني ، أي نيرون المنتشاي ، ولا تحضأه بقساوتك وصدودك!

« إنني شابة ، وعذراء رقيقة ؛ وعمري لا يتجاوز الخامسة عشرة ، لأنني في الرابعة عشرة وثلاثة أشهر ؛ وأقسم على هذا بالله وبحياتي .

« ولست حذاء ولا عرجاء ؛ ولا ينقصني عضو من الأعضاء وشعري كالزنابق يجزر ذيله على الأرض عند قدمي .

« وقمي كمنقار النسر ، وأنفي فيه فطسة ؛ لكن أسناني من الزبرجد ، وهي تجعل جمالي جديرا بالسماء .

« وصوتي ، إذا أصغيت إليه ، يعد أعذب الأصوات ؛ وقامتي فوق المتوسطة بقليل .
« هذا اللطف ، وهذه المفاتن ، وما أملكه منها بعد ، غنائم محفوظة لجعبتك ، وأنا وصيفة ، واسمي التسيدورا .»

وهكذا ختمت التسيدورا الشاكية النائحة . فقال دون كيخوته لنفسه ، وهو يزفر زفرة عميقة ، « أما من بد أن أكون فارسا شيقا بحيث لا تنظر إلي فتاة دون أن تصبح عاشقة مولهة بي! وماذا فعلت المنقطعة النظير دلثنيا للآلهة ، حتى لا تتركها تستمتع في سلام بإخلاصي الذي لا مثيل له ؟ أيتها الملكات ، وأيتها الامبراطورات ، لماذا تضطهدنها ؟ أيتها الفتيات في سن الرابعة عشرة إلى الخامسة عشر ، لماذا تلاحقنها ؟ دعن هذه السيئة الحظ تنصير ، لتفخرن ظافرة بالمصير الذي هياه لها الحب بأن أسلم إليها قلبي ، وأخضع لها روحي . أنظري ، أيتها الجماعة العاشقة ، إنني من أجل دلثنيا وحدها من الشمع والعجين ، ولكن بالنسبة إلى الباقيات أنا من الصخر القاسي ، من أجلها أنا من غسل ، ولكن أنا مرء

(١) في الأصل الاسباني الكلمة العربية « كوفية » Cofias أي قبة ، ولكنها كانت تستعمل للدلالة على غطاء الرأس للمرأة فقط .

(٢) العفص ، حمل شجرة البلوط .

(٣) هي الصخرة التي كان يلتق من حالقها بالمجرمين في روما ، وكانت جزءا من تل الكابيتول ، ومن فوق صخرة تربيا تطلع نيرون إلى روما وهي تحترق ، لما أمر بإحراقها لبناء مدينة جديدة مكانها .

كالحنظل ؛ في نظري دلثنيا وحدها هي الجميلة ، الحكيمة ، الشريفة ، اللطيفة ، العريقة الأصلية ، وباقي النسوة قبيحات ، كنييات ، مجنونات ومن أصل حقير . والطبيعة خلقتني في هذا العالم من أجل أن أكون لها ، لا لغيرها ولتبتك التسيدورا ، أو تتغن ، ولتقنط السيدة التي من أجلها أسيئت معاملتي في قصر المغربي المسحور ؛ إنني أريد أن أكون وفيا لدلثنيا ، حيا أو ميتا ، طاهرا ، ومن أجلها ينبغي أن أظل أمينا جديرا ، على الرغم من كل حيل العام السحرية » .

وعند هذه الكلمات الأخيرة أغلق النافذة فجأة بشدة ، وألقى بنفسه في السرير ، حزينا معكر المزاج ، وكأنه وقع له حادث أليم . فلندعه الآن في سريره ، لأن العظيم سنشو پنشا يدعونا ، وها هو يبدأ في حكومته الشهيرة .

الفصل الخامس والأربعون

كيف استولى العظيم سنشو بننا على حكم جزيرته،
وكيف بدأ حكمها

أننا يا من تكتشف نصف الكرة الآخر باستمرار ، يا عين السماء ، ومصباح العالم
والمؤلف الرقيق لاهتزاز الأباريق ، هنا فيبوس ، وهناك تمبريوس ، من ناحية طيبة ، ومن
الأخرى ربة الشعر ، ومخرعة الموسيقى ، يا من تشرفين دائما ولا تغيبين أبدا ، إليك
أتوجه ، أيتها الشمس! بمعوتك يلد الانسان! إليك أتوجه لإغاثتي وإضاءة ظلام روحي ،
حتى أستطيع أن أروي بالتفصيل كل أعمال حكمه المجيد ، وبغيرك ، أيتها الشمس ، أنا
ضعيف ، مضطرب ، منهوك .

وأقول إذن أن سنشو وصل بكل حاشيته إلى قرية عدد سكانها حوالي ألف نسمة ،
وكانت من أغنى القرى التي يملكها الدوق ، وأفهموه أنها تسمى جزيرة « برتريا » ، أما لأن
المكان يسمى فعلا برتريا ، أو لرخص^(١) السعر الذي حصل به على حكومته . وعند أبواب
القرية ، وكانت محاطة بالأسوار ، تجمع الشعب للقائه ، ودقت الأجراس ، وعبر الجميع عن
سرورهم البالغ ، واقتيد في احتفال مهيب إلى الكنيسة الرئيسية ، لتقديم الشكر والحمد
لله . وأجريت بعد ذلك عدة مراسم مضحكة لتسليمه مفاتيح المدينة ، وأقر تعيينه حاكما
مدى الحياة لجزيرة برتريا . وكانت قامة الحاكم الجديد الغليظة القصيرة ، ولحيته الكثنة وزيه
الغريب مثار الدهشة في نفوس من لم يكونوا على علم بالأمر ، وحتى أولئك الذين كانوا
يعرفون المزحة ، وما أكبر عددهم ، وبعد أن خرجوا من الكنيسة . اقتادوه إلى قاعة

(١) وحينئذ تكون من الصفة Baroto = رخيص ، أو من الاسم Baroto = غش ، احتيال ، وحينئذ ينبغي أن يترجم الأصل هكذا ، أو
للفش الذي تم به إعطاؤه الحكم .

ويظن بعض النقاد أن المقصود هو قلعة الابرو Alcala de Ebro ، وهو ناحية يكاد يحيط بها نهر الابرو من كل نواحيها بما يجعل
منها جزيرة أو شبه جزيرة .

العدالة ، حيث أجلسوه ، وقال له الناظر الذي أرسله الدوق معه بأن العرف القديم جرى بأن الحاكم الجديد ، وهو يتولى حكم الجزيرة ، يجيب عن بعض الأسئلة الصعبة بعض الشيء التي تعرض عليه ، امتحانا لعقله ، حتى يعرف الشعب هل يقتبط أو يحزن للاختيار الجديد للحاكم .

وبينما كان الناظر يتكلم ، كان سنشو يتأمل حروفا كبيرة مكتوبة على حائط القاعة ، في مواجهة كرسیه ، ولما كان لا يعرف القراءة ، فقد سأل ما معناها . فقيل له : سيدي ، هذا النقش يسجل اليوم الذي توليت أنت فيه حكم الجزيرة . وهو يقول : « في يوم كذا ، من شهر كذا ، من عام كذا تولى حكم هذه الجزيرة السيد الدون سنشو پنثا ، أطال الله ملكه » - فقال سنشو : ومن ذا الذي يسمى الدون سنشو پنثا ؟ فأجابوا : « إنه سيادتكم ، لأنه لم يدخل هذه الجزيرة پنثا آخر غير الجالس على هذا الكرسي » . - فقال سنشو : « إذن أنبئك يا أخي ، أني لا أحمل لقب «دون» ولم يحمله أي فرد من أفراد أسرتي ، واسمي هو فقط سنشو پنثا ، وسنشو هو أيضا اسم أبي ، وهو اسم جدي ، وكلهم كانوا يسمون پنثا ، دون إضاف ل لقب «دون» ولا «دونيا» . وإنني أفترض أنه لا بد يوجد في هذه الجزيرة «دونات» بقدر عدد الأحجار ، لكن صبرا دعني أحتفظ بالحكم أربعة أيام ، وأنا أشتت كل هؤلاء «الدونات» الذين يطنون طنين الذباب . وليقترح الناظر سؤاله ، وسأجيب عنه بقدر ما أستطيع ، سواء حزن الشعب أو لم يحزن .

وفي اللحظة نفسها دخل القاعة رجلان ، أحدهما بزي فلاح ، والآخر بزي خياط ، لأنه كان يحمل في يده مقصا . وقال الخياط : « سيدي الحاكم لقد أتينا إليك هذا الرجل وأنا ، وقد دخل دكاني بالأمس ، لأنني مع احترام الجماعة ، خياط أقسم اليمين ، وقدم إلي قطعة قماش ، وسألني هل تكفي لصنع قبعة . ففحصت قطعة القماش ، وأجبت بالإيجاب . هنالك تخيل ، كما أظن ، أنني أريد أن أسرق منه بعض قماشه ، إما لأنه يميل إلى الخبث ، أو بسبب الفكرة السيئة التي لدى الناس عن الخياطين ، فسألني هل لا أستطيع أن أصنع منها قبعتين فحزرت قصده ، وأجبت بالإيجاب . واستمر هو في قصده السيء ، وزاد في عدد القبعات ، حتى وصلنا إلى عدد خمسة ، والآن وقد تم صنعها وقدمتها له فإنه ليس فقط يرفض أن يدفع لي ثمن الخياطة ، بل يريد مني أن أدفع ثمنها أو أرد إليه قماشه .

فسأل سنشو الفلاح : هل هذا صحيح كله يا أخ ؟

فأجاب هذا نعم ، لكنني أرجو من سيادتكم أن يزوك الخمس قبعات .

فقال الخياط : « بكل ارتياح » . وفي الوقت نفسه وضع يده تحت معطفه ، وأخرجها

وفيهما خمس قبعات صغيرة وضعها على أطراف أصابعه ، وقال : «ها هي ذي ، كما طلبها مني هذا الرجل ، وأحلف بروحي وضميري أنه لم يبق عندي مقدار أصبع من قماشه ، وأنا أحتكم إلى الخبراء» .

فأخذ الجميع الحاضرين في الضحك من هذا النزاع الجديد في نوعه ، من هذه القبعات الصغيرة . ففكر سنشو لحظة ثم قال : « يبدو لي أن هذه القضية يمكن الفصل فيها بعدالة وسرعة : ولهذا فأنا أمر الخياط أن يضيع عليه تفصيله والفلاح يضيع عليه قماشه ، وأن تصدر القبعات لصالح المسجونين . ولا كلام في هذا الموضوع بعد ذلك . »

ونفذ هذا الحكم ، الذي أثار فرحة الحاضرين . ثم ظهر بعد ذلك عجوزان أحدهما يتوكأ على عصا غليظة ، وقال الآخر لسنشو : « سيدي ، لقد أقرضت هذا الرجل عشرة اسكودوات ذهبية لمساعدته ، بشرط أن يردها إلي حينما أطلبها منه . ومضت عدة أيام دون أن أطلبها منه ، حتى لا أضعه في حرج شديد ، لكنني لما رأيت أنه لا يفكر في ردها إلي ، طالبة مراراً بالدفع : لكنه ليس فقط يرفض الدفع ، بل وينكر الدين ، ويقول إنني لم أقرضه أبداً عشرة اسكودوات ، أو إذا كنت أقرضته فقد ردها إلي ، وليس عندي شهود على القرض ، ولا على الرد لأنه لم يتم ، فأرجو من سيادتك أن تطلب إليه أن يحلف : فإن حلف بأنه ردها إلي ، عفوت عنه أمام الله .

فقال سنشو : بماذا ترد على هذا ، أيها العجوز الطيب ذو العصا ؟ فأجاب هذا : أقر يا سيدي بأنه أقرضني العشرة اسكودوات ، وما دام يحيلني إلى حلف اليمين ، فإني أرجو أن تخفف مخصرتك ، وسأحلف بأنني رددتها إليه فعلاً وحققاً .

فخفف سنشو مخصرته التي كان يمسك بها بوصفه يفصل في الدعاوى ، وأعطى العجوز الثاني للآخر عصاه التي كانت تضايقه ، ثم بسط كفه على صليب المخرصة وأقسم بأنه رد إلى العجوز الآخر العشرة اسكودوات التي أقرضه إياها ، وردّها فعلاً وحققاً ، وأنه إنما طلبها منه من جديد لأنه لا يتذكر أنه ردها إليه . هنالك سأل سنشو الدائن عن اعتراضه على هذا القسم ، فقال هذا إن المدين لا بد أنه قال الحقيقة ، لأنه يقر بأنه رجل صالح وطيب ، ولا بد أنه قد نسي أنه ردها إليه ، ومنذ الآن لن يطالب الآخر بالدين . فاسترد المدين عصا ، وحيا القاضي ، وأخذ في الانسحاب .

ولما رأى سنشو تسليم الطالب وذهاب الآخر ، خفض رأسه ، ورفع يده إلى جبهته ، وأخذ يفكر لحظة ، ثم رفع رأسه ، وأمر بإرجاع العجوز ذي العصا . ولما عاد قال له سنشو : « أيها الرجل ، هات عصاك » . فقال العجوز : « تفضل . » فأخذها سنشو وأعطاهما إلى



سنشو في منصة الحكم في جزيرة برتريا

العجوز الآخر وقال له : « خذ هذه وامض بحمد الله : لقد دفع دينك . » - فقال سنشو : « تمام ، تمام ، أو أنا أكبر أحقق في العالم ، سترون فورا هل عندي عقل لحكم مملكة بأكملها ، فلتكسر هذه العصا أمام الناس جميعا . »

وكسرت العصا ، وفي وسطها وجدوا العشرة اسكودوات الذهبية . فامتلا الحاضرون اعجابا ، وشبهوا سنشو بالملك العظيم سليمان . وسألوه ماذا حمله على أن يظن أن في العصا عشرة اسكودوات ، فأجاب سنشو أنه حين رأى العجوز يعطي عصاه للآخر قبل أن يحلف أنه رد المبلغ ثم رآه يستردها بعد ذلك ، حزر بأن المال في العصا ، وأضاف أن هذا المثل ينبغي أن يبين أن الله يهدي من يكلفون بالحكم إلى الصواب في أحكامهم ، وإن كانوا بسطاء ، وأنه سمع حكاية شبيهة بهذا من قسيس قريته^(١) ، وأن ذاكرته لا نظير لها ، وإن كان ينسى كثيرا من الأمور التي يريد تذكرها . ثم انسحب العجوزان ، وأحدهما قد دفع له دينه ، والآخر خجلان ، وأعجب الكل بحكم الحاكم ، ومن كلف بتسجيل أفعاله وأقواله لم يدر هل ينبغي عليه أن يعده مجنوناً أو عاقلاً ،

ولما رحل العجوزان ، دخلت القاعدة امرأة ، وهي تمسك بخناق رجل بزي راع غنم وهي تصيح : العدالة! العدالة! يا سيدي الحاكم ، هذا الرجل الشرير قابلني في وسط الحقول ، اعتدى علي بالإكراه ، ودنسني كأني خرقة بالية . ما أشقائي! لقد سلبني ما حافظت عليه طوال ثلاث وعشرين سنة ، وما دافعت عنه ضد المسلمين والمسيحيين والأجانب وأبناء الوطن ، لقد كنت أشد مراساً من شجرة الفلين ، وحافظت على نفسي كاملة مثل السمندر في النار ، والصوف بين الشوك ، والآن جاء هذا القزم ليدنسني بيديه الكريهيتين .

فقال سنشو بين أسنانه : « هذا هو ما علينا أن نتحقق منه : هل يد هذا الفتى الرشيق قذرة أولاً . » ثم تلفت ناحية الرجل : « ما قولك في كلام هذه المرأة ؟ » فقال الرجل خجلاً مضطرباً : « سيدي ، أنا راعي خنازير مسكين ، وفي هذا الصباح جئت إلى هذه القرية لأبيع - ولا مؤاخذه - أربعة خنازير ، بسعر أقل من سعرها الحقيقي بسبب المكوس ومكائد التجار وعدت إلى قريتي ، وفي الطريق قابلت هذه الثرثرة ، وأغراني الشيطان الذي يتدخل في كل شيء ، والخلاصة أنني دفعت أجرتها مجزية ولكنها مع ذلك لم تكن راضية : فارتمت علي ، وجرتني إلى هنا ، كما ترى ، وقالت أنني فسقت بها كرها ، وهي تكذب أقسم على ذلك . تلك هي الحقيقة كلها . »

(١) الواقع أن هذه الحكاية مأخوذة من « الأسطورة الذهبية » ليعقوب الفورايجيني ، في الباب الخاص بحياة القديس نقولا دي باري .

سأله سنشو : « هل معك نقود ؟ » .

فقال الراعي : معي عشرون دوقه في كيس من الجلد .

فقال سنشو : أعطها للشاكية .

فأعطاه المسكين وهو يرتعش : وأخذتها منه المرأة وهي تحيي الحاضرين بآلاف التحيات ، وتدعو الله أن يديم صحة الحاكم ، الذي يشفق على اليتيمات والمحتاجات ، ومضت وهي تمسك بالكيس بيديها ، وهي تنظر جيدا هل يحتوي على نقود حقا .

ولم تكد ترحل حتى قال سنشو للرجل الذي كان يبكي وقلبه وراء كيسه : « أيها الرجل ، إجر وراء هذه المرأة ، وخذ منها كيسك ، وعد إلى هنا معها . » ولم يسلك الرجل مسلك المغفل ولا الأطرش ، بل انطلق كالسهم امتثالا لقرار الحاكم . وبقي الحاضرون مشدوهين ، في انتظار نهاية هذه المسألة .

وبعد لحظات ، عاد الرجل والمرأة ، وكل منهما يمسك بخناق الآخر أشد من أول مرة : وكانت المرأة تشمر ثوبها ، والكيس في صدرها ، والرجل يبذل جهودا في غير طائل لاسترداده ، بينما كانت هي تقاوم بشدة ، وتصبح : « العدالة عدالة الله والناس ! أنظر يا سيادة الحاكم ، أنظر وقاحة هذا الشرير : علنا ، وفي وسط الطريق ، انقض علي لاسترداد الكيس الذي أعطته لي سيادتك . » - فسألها سنشو : « وهل انتزعه منك ؟ » - فأجابت : « انتزعه ؟ أخرى من هذا أن ينتزع حياتي ، إن الكيس في أيد قوية ، ولا بد من ققط أخرى غير هذا الوغد المسكين ليخدش وجهي ، والكماشات ، والمطارق ، والقدائم ، والمقصات ، ومخالب الأسد لن تستطيع انتزاع الكيس مني ، بل أفضل أن أمزق إربا إربا . » فقال الرجل : « عندها حق ، وأنا أعترف بهزيمتي ، وأقر بأن قواي غير كافية لاسترداده » - فقال سنشو : « أيتها المرأة الأمينة الباسلة ، أرني هذا الكيس » . فأرته إياه ، وأخذه سنشو ورده إلى الرجل ، ثم تلفت إلى من ادعت انتهاك عرضها وقال : « يا أختاه ، لو كنت في الدفاع عن شرفك بذلت نصف ما بذلته من شجاعة فقط في الدفاع عن هذا الكيس ، لما استطاعت قوة هرقل أن تتغلب عليك . اذهبي في رعاية الله ، أو بالأحرى في رعاية الشيطان ، ولا تظهرني بعد الآن في هذه الجزيرة ، ولا على بعد ستة فراسخ حولها ، وإلا جلدت مائتي سوط . أخرجني من هنا ، أيتها اللصة الوقحة » .

فخرجت المرأة خفيضة الرأس ، متضايقه ، مسربلة بالعار . وقال سنشو لراعي الخنازير : « عد إلى بلدك مع نقودك ، أيها الرجل ، وإذا أردت ألا تضعيها مرة أخرى ، فلا

تسل نفسك بعد الان باللعب مع أبة امرأة . « فشكر له الرجل أجزل الشكر ، ثم مضى
لسييله^(١) .

وكل هذه التفاصيل أرسلت إلى الدوق وكان ينتظرها بصبر نافذ . ولنترك سنشو الآن
هناك ، ولتعد إلى مولاه الذي كان لا يزال مضطربا من أغاني التسيدورا .

(١) هذه الحكاية مأخوذة من كتاب « جمال البلاد » تأليف فرنشكو دي أهونة .

الفصل السادس والأربعون

مغامرة غريبة للأجراس والمقطط، وقعت لدون كيخوته أثناء غرامياته مع التسيدورا المولثة

تركنا العظيم دون كيخوته مدفونا في الخواطر التي ولدتها في عقله أغاني التسيدورا العاشقة . وحركته هذه الخواطر ، كما تفعل البراغيث ، وانضافت إلى الذكرى الحزينة لجواربه الممزقة فمنعته من النوم بل ومن إغماض عينيه . لكن لما كان الزمان أخف الأشياء ، ولا حاجز يعوقه ، فإن دون كيخوته ركض على الساعات ركضا ، وسرعان ما بلغ النهار . فترك الريش الكسول ، ولبس صدرية من الشمو ، وحذاء السفر ليخفي خروق جواربه ، ولبس معطف الاكرلات ، وغطى رأسه بقبعة من القطيفة الخضراء ، المزودة بزينة من الفضة ، وحزم حملاته ، وفيها سيفه البتار ، وأمسك بمسبحة كبيرة اعتاد حملها . وبهذا الهندام ذهب إلى القاعة حيث كان ينتظره الدوق والدوقة لابسين ، وكان عليه من أجل الوصول إلى القاعة أن يجتاز رواقا وقفت فيه التسيدورا وصاحبته عن قصد وترتيب . فلما شاهدته ، تظاهرت التسيدورا بالإغماء ، فتلقتها صاحبته بين ذراعيها ، وأسرعت لحل أربطتها . واقترب دون كيخوته ، وقال : « أنا أعلم تماما من أين جاء هذا الحادث » . فقالت الصديقة : « لست أدري ، لأنني أعلم أن التسيدورا أحسن الأوانس صحة ، ومنذ عرفت لها لم أسمعها تزفر زفرة . ألا لعنة الله على كل الفرسان الجواله في العالم ، إن كانوا جميعا جاحدين ! إمض يا سيدي ، لأنك طالما بقيت هنا ، فإن هذه البنت المسكينة لن تفيق . » - فأجاب الفارس : « آنستي ، أرجوك أن تعملني على أن يوضع في هذا المساء عود في غرفتي ، وسأعمل كل ما في وسعي لمواساة هذه المحزونة المسكينة ، لأنه ، في بداية الغراميات ، من الأسهل علاج الأمر بآراء سريعة » . ولما قال هذه الكلمات ابتعد حتى لا يقال عنه أنه ممن يمرون في هذه القاعة . ولم يكد يمضي ، حتى قالت التسيدورا ، وقد كفت عن التظاهر بالإغماء ، لصاحبته إنه لا بد من تزويد دون كيخوته بعود ، لأنه يريد

من غير شك أن يعزف ، وهو أمر لن يكون ردينا منه . وفي الحال ذهبنا لإناء الدوقة بما جرى ، وبما طلبه دون كيخوته . فاعتبطت الدوقة أيما اعتباط ، واتفقت مع الدوق ليعبثوا به بمزحة مأكرة غير خبيثة ، فانتظرا الليل بصبر نافذ ، فجاء سريعا كما أسرع النهار في البزوغ . وأزجى الوقت في أحاديث لطيفة مع دون كيخوته . وأرسلت الدوقة إلى تريزه بنتا أحد غلمانها ، وهو الذي لعب دور دلثنيا ، وأمرته أن يسلم إليها رسالة سنشو ، وحزمة من الملابس المهلهلة تركها لها . وأوصته بأن يلاحظ بدقة كل ما يراه ، ليروي الأحوال بدقة .

ثم جاءت الساعة الحادية عشرة مساء . ولما دخل دون كيخوته غرفته وجد فيها قيثار «جيتار» ، فسواه وعدله ، وفتح النافذة ، وسمع حركة في الحديقة ، فبدأ تقسيمات ، وسعل وتنحنح ، وبصق ، وبصوت مترنح ، ولكنه صحيح ، أنشد الرومانشة التالية ، التي نظمها في اليوم نفسه :

لفتاة عاطلة	إنما الحب خطر
مشعلا أقوى لهيب	إنه يغرزو الكسول
في انشغال وعمل	وإذا تغدو الجميلة
ليولى دون مدخل	عبثا يأتي الغرام
لارتباط بالزواج	وإذا اشتاقت فتاة
بتزايين العفاف	فعليها أن تحلى
ل وزننا للعب	لا يقيم الفارس الجوا
من فضيلات النساء	لا ولا يحتار شيئا
تشتري بالمال نقدا	ومن الحب صنوف
وإذا أشرق غاب	فإذا أورق صوح
إن أتى ولى ، انصرف	وكذا حب الصدف
لحظة تكفي لدفنه	لحظة تكفي لبدنه
لا يرى منه أثر	إن خطأ فوق خط
لا يثنى في الغرام	وكذا القلب الأمين
نقشها باق عميق	إن دلثنيا بقلبي
من جبال من حديد	ذكرها في العقل أقوى
ص وصدق وثبات	خير ما في الحب إخلا
ب ، على الحب العفاء	وبغير الصدق في الحد

ولم يكد دون كيخوته يفرغ من إنشاد رومانثته وكان الدوق والدوقة يصغيان إليها هما والتسيدورا وكل أهل القصر باهتمام ، حتى أنزل من رواق يطل من أعلى على نافذة الفارس جبل علفت فيه أكثر من مائة جرس صغير ، وفي الوقت نفسه قلبت زكية مملوءة بالقسط ، في ذيولها هي الأخرى أجراس صغيرة . وكانت الضجة التي أحدثتها الأجراس الصغيرة والقسط هائلة جدا حتى أن الدوق والدوقة ، وإن كانا هما اللذان اخترعا هذه المزحة ، قد فزعا منها بعض الفزع ، واستولى الفزع على دون كيخوته . ولسوء الحظ دخل قطان أو ثلاثة في غرفته من خلال القضبان وعدت هنا وهناك فزعة كأنها كوكبة من العفاريث . وفي محاولتها الهرب أطفأت الأنوار المشتعلة ، ولكن حبل الأجراس لم يكف عن القرق ، محدثا ضجة مروعة . وأهل القصر الذين لم يعرفوا السر في هذه المزحة بقوا في حيرة . واستل دون كيخوته سيفه ، وراح يسدد الطعنات من خلال القضبان ، وهو يصيح بكل قوة : « أخرجوا من هنا ، أيها السحرة! أخرجوا يا أوغاد ، أنا دون كيخوته دلا منتشا ، وضدي ستتحطم كل أحابيلكم » . وطارد القسط التي دخلت الغرفة ، فاستطاعت أن تهرب من النافذة ، فيما عدا قطا واحدا ، لما رأى نفسه وقد احتوشه دون كيخوته عن قرب قفز في وجهه ، وأنشعب أظافره في أنفه ، وكذلك أسنانه ، وجعله يصرخ صرخات هائلة . وعلى هذه الصرخات هرع الدوق والدوقة ، وهما على علم بما وقع ، وفتحا الباب بمفتاح صالح لفتح الأبواب كلها ، فوجداه في صراع مع القط ، يحاول عبثا أن ينتزعه من وجهه ، وكانت المشاعل تضيء هذه المعركة غير المتكافئة . واقترب الدوق لنجدة دون كيخوته ، الذي لم يكف عن الصياح قائلا : « لا تنتزعوه ، دعوني ، دعوني أنازله جسما لجسم ، هذا الجني ، هذا الساحر ، وسأعرفه من هو دون كيخوته دلا منتشا » . ولكن القط لم يحفل بهذه التهديدات ، ولم يكف عن الدمدمة . وأخيرا انتزعه الدوق ، وألقى به من النافذة . وبقي دون كيخوته مخدوش الوجه ، ممزق الأنف ، غاضبا لأنهم لم يتركوه ينهي وحده المعركة مع هذا الساحر الوغد . وأتوا بزيت أبرثيو^(١) ، ووضعت التسيدورا بيدها البيضاء المرهم على كل وجهه ، وقالت له بصوت حنون : « كل هذه المصائب ، أيها الفارس العنيد ، هي عقاب لك على قساوتك وعنادك . وأرجو الله أن ينسى سنشو ، سائسك ، أن يجلد نفسه ، حتى لا تخرج المعشوقة جدا دلثيا من حالة الانحسار التي هي فيها ، ولا تنعم أنت بعناقتها ، وقبلها ، على الأقل طول حياتي ، لأنني أعبدك » . وعلى كل هذا لم يرد دون كيخوته بكلمة واحدة ،

(١) زيت لملاج الجروح ، اخترعه في القرن السادس عشر ابرثيودي ثوبيا ، وكان غالي الفمن جدا لأن مركباته كانت غالية .

مقتصرًا على إطلاق زفرة عميقة . ثم رقد في السرير ، وشكر للدوق أجزل الشكر ، لا لأنه شعر بخوف من هذه المجموعة من القطط السحرة الأوغاد ، بل اعترافًا منه بالجميل الذي أسداه نحوه بنجدة إياه . وتركه الدوق ليستريح ، ومضى ساخطًا على هذه المزحة التي لم يكن يظن أنها ستكون دون كيخوته هذا الثمن الفادح .

ذلك أن هذا اضطر إلى التزام الفراش لمدة خمسة أيام ، حدثت له أثناءها مغامرة أشد إمتاعًا من الأولى ؛ لكن المؤرخ يؤجل روايتها إلى فرصة أخرى ، ليعود إلى سنشو پنثا ، الذي كان راضيًا كل الرضا عن حكومته وفي الوقت نفسه مشغولًا بها كل الانشغال .

الفصل السابع والأربعون

كيف تصرف سنشو في إدارة حكومته

ويروي التاريخ أنه حين رفعت الجلسة ، اقتيد سنشو إلى قصر فاخر ، نصب في القاعة الكبرى منه مائدة حافلة كموائد الملوك . ولدى دخوله نفخ في الأبواق ، وجاءه أربعة غلمان ليغسل يديه ، فغسلهما بكل وقار . وتوقفت الموسيقى ، وجلس سنشو عند الطرف النهائي من المائدة ، حيث لم يكن يوجد غير كرسي واحد وأدوات لشخص واحد ووقف إلى جانبه شخص عرف فيما بعد أنه طبيب ، وكان يمسك في يده بعضا من ريش الحوت . ورفع نقاب أبيض ثمين كان يغطي الفاكهة وعددا وافرا من ألوان الطعام ، باركها كاهن ، بينما قدم غلام الفوطة لسنشو . ووضع رئيس الطهاة أمامه طبقا من الفاكهة ، ولكن سنشو لم يكده يمسسه بيده ، حتى مس الرجل ذو العصا الطبق وفي الحال رفع . ثم أتى رئيس الطهاة بطبق آخر ، قبل أن يستطيع سنشو أن يذوق منه كانت العصا تؤدي وظيفتها ، وأسرع غلام برفع الطبق بسرعة كما في المرة الأولى . ودهش سنشو ، وتطلع في الجميع ، وسأل هل جرت العادة في الجزيرة باختلاس الأطباق من على المائدة ، كما يفعل المشعوذ بالجوز . فقال الرجل ذو العصا : « سيديا ينبغي عليك أن تأكل مثلما يأكل الحكام في سائر الجزر التي فيها حكام . إني طبيب ، تدفع الدولة مرتبي ، للاعتناء بالحكم : إن صحته ينبغي أن تكون عندي أعلى من صحتي أنا ، وأدرس ليل نهار تركيب مزاجه ، حتى أكون أقدر على علاجه حين يمرض . وأهم واجباتي أن أحضر وجبات طعامه ، وألا أدعه يأكل إلا ما يناسبه ، مستبعدا كل ما لا يوافق صحته ، ولهذا أمرت برفع طبق الفاكهة ، لأن هذا المأكول رطب جدا ، أما الطبق الآخر فكان على العكس حارا جدا ، فيه الكثير من التوابل ، التي تثير العطش ، ومن يشرب كثيرا يحطم ويستهلك الرطب الأصلي ، الذي يكون أصل الحياة » .

فقال سنشو : لكن ، هذا الحجل المحمر ، المعد خير إعداد ، لا يمكن أن يضر بي أي إضرار .

فأجاب الطبيب : سيدي ، لن تأكل منه طالما كنت حيا .
- ولماذا ، من فضلك ؟

- لأن شيخنا بقراط ، بوصلة الطب ، يقول في أحد فصوله : كل امتلاء مضر ، وأسوء الامتلاء من الحجل^(١) .

- إذا كان الأمر هكذا يا سيدي الدكتور ، فانظر بين الأطباق الموجودة على المائدة أيها يوافقني وأستطيع أن أتناول منه ، ودعني أكل ، دون أن تمسها بعصاك ، لأنني بحق الحاكم (أطال الله عمري) أموت من الجوع ، ومنعي من الطعام هو انتزاع الحياة مني ، ولا مؤاخذه لا المحافظة عليها .

- سيادتك على حق ، ولهذا أنت لن تأكل من هذه الأرانب المحشوة ، لأنها طعام عسير على الهضم ، وهذا اللحم العجالي ، يمكن الإذن بأكله ، إذا لم يكن محمرا أو بالدقية ، لكن مطبوخا على هذه الطريقة ، لا يجوز أن تأكل منه .

فقال سنشو : أوه! هذا الصحن الذي أمامي ، أعتقد أنه الطورلي^(٢) ، ومن بين الأشياء التي يتألف منها لا يخلو الأمر من شيء يسرني ويوافقني .

فقال الطبيب : مستبعدا بعيد عنا مثل هذا الخاطر الرديء ، ليس ثم في الدنيا ما هو أكثر ضررا بالصحة من الطورلي ، وينبغي ترك هذا المقسس ، ونظار المعاهد ، وأعراس الفلاحين ، إنه ليس طعام حاكم أبدا ، إذ الحاكم ينبغي عليه ألا يأكل إلا الأطعمة الدقيقة غير المختلطة . والسبب في هذا أنه في جميع الأحوال الأدوية المفردة أفضل من الأدوية المركبة ، وفي الأولى لا يمكن الغلط ، لأن الثانية تتغير بحسب كمية الأشياء التي تتألف منها ، ولهذا فإنه للمحافظة على صحة سيادة الحاكم بل وتقويتها ، فإنه سيأكل الآن مائة ماسورة حلويات ، وبعض شرائح دقيقة من السفرجل ، لتقوية المعدة وتيسير الهضم .

ولما سمع سنشو هذا ارتد إلى سائد كرسيه ، وتطلع بدقة في الطبيب وقال له بصوت جاد : « ما اسمك ؟ وأين درست ؟ » .

(١) لم يرد في أصل فصول بقراط ، الحجل Berdicis بل Banis أي الخبز ، ولكن ثربانتس غيره لتتم النكتة . وقد وردت الجملة في الأصل باللاتينية .

(٢) طبق متعدد المواد ويتألف من لحم بقري وديوك ودجاج ، وأكارع خنزير وثوم ، وبصل ، وسجق . الخ .

فأجاب الطبيب : سيدي الحاكم ، اسمي الدكتور بدرو رثيودي أجويرو من مواليد قرية تدعى ترتيافويرا ، بين كركويل والمدوردل كمبو ، عن يمين ، وحصلت على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة أشونه .

فقال سنشو وقد استبد به الغضب : إذن يا سيدي الدكتور بدرو رثيودي مالي أجويرو^(١) ، من مواليد ترتيافويرا ، وهي قرية على اليمين بين كركويل والمدوردل كمبو ومتخرج في أشونه ، أخرج من هنا حالا ، وإلا فقسما بالشمس ، سأمسك بعصا ، وأبدأ بك ، ولا أدع أي طبيب في الجزيرة ، بين أولئك على الأقل الذي هم ليسوا إلا جهلة ، لأنه ، فيما يتعلق بالأطباء الحكماء ، المتعلمين ، الفطنين ، أضعهم على رأسي ، وأحترمهم كأناس إلهيين . وأكرر قلبي ، امش يا بدرو رثيو ، وإلا أمسكت بهذا الكرسي وشققت مخك . وليتهموني بعد ذلك ، وسأقول تبريرا لهذا أنني أسديت خدمة جليلة بقتل طبيب شرير ، جلادا للمواطنين . فليعطوني أكلا لآكل ، وإلا فليأخذوا الحكومة ، فكل منصب لا يكفل الطعام لصاحبه لا يساوي فولتين » .

بقي الطبيب حائرا مرتبكا من غضبة الحاكم الشديدة ، وأراد الخروج من القاعة ، وإذا بصوت النفير يسمع في الطريق . فتطلع رئيس الطهاة من النافذة وقال إنه رسول من قبل الدوق ، ولا شك أنه يحمل رسالة سريعة مهمة . وظهر الرسول والعرق يتصبب منه ، والذعر يتملكه ، ثم أخرج رسالة من عبه ، وقدمها إلى سنشو ، فأعطاه إلى ناظر القصر ، وأمره بقراءة ما فيها من عنوان قد كان هكذا :

إلى دون سنشو پنشا ، حاكم جزيرة برتريا ، ويسلم إلى يده شخصيا أو إلى سكرتييره .

فقال سنشو : « وأين سكرتيري ؟ » .

فقال أحد الحاضرين : أنا ، أنا أعرف الكتابة والقراءة ، وبشكونسي .

فقال سنشو : بهذه الصفة الأخيرة يمكن أن تكون سكرتير الامبراطور نفسه .

افتح هذه الرسالة وانظر ما فيها .

فأطاع السكرتير ، وقرأ الرسالة ، ثم قال إنه لا يستطيع أن يفضي بمضمونها إلا في

السر ، فأشار سنشو إلى الحاضرين بالخروج ، ولم يبق إلا على ناظر القصر ورئيس الطهاة .

فقرأ السكرتير الرسالة وهذا نصها :

(١) = المنحوس .

« علمت ، أيها السيد دون سنشو پنثا ، أن بعض أعداء جزيرتك وأعدائي يفكرون في الهجوم الشديد عليكم في أثناء الليل ، لكنني لا أعرف على وجه التحديد متى يتم ذلك ، ولهذا يجب أخذ الحيطة ، حتى لا تفاجأوا . وأعرف أيضا ، بواسطة جواسيس موثوق بهم ، أنه دخل مدينتكم أربعة أشخاص متخفون ، بقصد انتزاع حياتكم ، لأنهم يخشون ذكاءكم . فخذ حذرك إذن ، وراقب من يقتربون منك ، وخصوصا لا تأكل شيئا مما يقدم إليك ، ولن أتخلى عن نجاتكم ، إذا كنتم في خطر . وفي هذه المسألة كلها ، تصرف بالفتنة المعتادة فيك . ووداعا .

« من هذا المكان ، في ١٦ أغسطس ، في الساعة الرابعة صباحا .

ضديقك : الدوق »

فدهش سنشو والباقون . وتلفت إلى ناظر القصر وقال : « ما علينا عمله الآن ، وفورا ، هو أن نلقي في السجن بالدكتور رثيو ، لأنه إذا كان ثم إنسان لديه نية قتلي فهو هو ، من غير شك ، قتلي بموت بطيء ، قاس هو بالجوع » . - فقال رئيس الطهاة : « يبدو لي أنه يحسن بسيادتك ألا تأكل شيئا مما على المائدة لأن هذه الأطعمة وردها رجال دين ، وكما يقول المثل : وراء الطبيب يقف الشيطان » . - فأجاب سنشو : « أنا لا أقول لا ، لكن أعطني فقط قطعة كبيرة من الخبز وأربعة أرطال من العنب : إذ لا يمكن أن يكون في داخلها سم ، ولا أستطيع التخلي عن الطعام .

وإذا كنا نريد أن نكون مستعدين لهذه المعارك التي يهددوننا بها ، فلا بد أن نكون مليئي البطون ، فالبطن تعطي الشجاعة ، ولكن الشجاعة لا تعطي بطنا أبدا . وأنت ، أيها السكرتير ، أكتب ردا على مولاي الدوق وقل إننا سنعمل ما يأمر به ، دون إخلال بأي شيء . وابعث بتقبيل يد السيدة الدوقة ، وقل لها إنني أرجوها ألا تنسى أن ترسل رسالتي وحزمتي إلى زوجتي تريزة پنثا ، وسيكون هذا منة عظيمة تمنحها لمن يريد استخدام كل قواه في خدمتها . وبالمناسبة أولج قبلة يد للسيد دون كيخوته : حتى يعرف أنني لست جاحدا لنعمته علي . وأنت ، بوصفك سكرتيرا صالحا ، وبشكونسيا صالحا ، تستطيع أن تضيف إلى هذا كل ما تريد وما تراه مناسبا ولائقا . ارفعوا هذه المفارش ، واتوني بالطعام . وسترون بعد هذا أنني سأعرف كيف أتخلص من كل الجواسيس ، والسفاحين ، والسحرة الذين تطأ أقدامهم جزيرتي » .

وفي هذه اللحظة دخل غلام ، قائلا إن ثم حراثا يريد الكلام مع سيادته في موضوع

مهم جدا . فقال سنشو : « أمر غريب! هل هؤلاء الناس من فساد الرأي بحيث لا يعرفون أنه في مثل هذه الأوقات لا ينبغي المجيء للكلام في المسائل والمشاكل ؟ ألسنا من عظم ولحم ، معشر الحكام والقضاة ؟ أقل ما ينبغي هو أن يتركوا لنا وقتا للراحة . هل يظنوننا من المرمر ؟ واللّه وحق ضميري! لو استمرت هذه الحكومة ، وهو ما لا أعتقد ، فسأوقف عند حده كثيرا من أصحاب المشاكل . قل لهذا الرجل يدخل ؛ لكن قبل هذا تأكدوا أنه ليس جاسوسا ولا سفاحا .

فقال الغلام : آه ، لا يا سيدي ، إنه رجل بسيط ؛ إنه رجل طيب مثل الخبز الطيب . فأضاف الناظر : لا داعي للخوف ؛ ألسنا جميعا هنا ؟ فقال سنشو : يا حضرة الناظر ، هل من الممكن ، الآن والدكتور بدرودثيو ليس هنا ، أن أكل شيئا جوهريا ، ولو خبزا وبصلة ؟ فقال رئيس الطهاة : في هذا المساء ، عند العشاء ، ستعوض سيادتكم الغداء ؛ وستكون راضيا ، أعدك بذلك .

فقال سنشو : سمع الله منك . وفي هذه اللحظة دخل الحراث ، وهو رجل حسن السيماء ، يستدل على بساطته من ربع فرسخ . وكان أول كلمة قالها هي : « من فيكم السيد الحاكم ؟ » - فقال السكرتير : « ومن عسى أن يكون غير هذا الذي تراه جالسا على هذا الكرسي ؟ » - فقال الحراث : « إنني أركع أمامه » . وجثا ، وطلب يد سنشو ليقبلها . فرفض سنشو وطلب منه النهوض ، وأن يعرض طلبه . فقال الفلاح وهو ينهض : « سيدي! أنا حراث ، من قرية ميجيل تره ، على فرسخين من ثيودا ريال » - فقال سنشو : « آه! وهذا رجل آخر من تريتافويرا ، قل ما تريد أن تقوله يا أخ ، أنا أعرف جيدا قرية ميجيل تره ، إنها قريبة جدا من قريتي » . - فتابع الفلاح قائلا : « سيدي ، بحق رحمة الله ، أنا رجل متزوج في هدوء ، وأمام الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرومانية ؛ ولي ولدان يتعلمان ، الأصغر يتعلم للحصول على درجة البكالوريا ، والآخر للحصول على الليسانس ؛ وأنا أرمل ، لأن زوجتي ماتت ، أو بتعبير أدق قتلها أحد الأطباء الجهلة ، وذلك بإعطائها حقنة مسهلة بينما كانت حاملا ؛ ولو أذن الله لجنيها أن يتم ويولد ، وكان ولدا ، لجعلته يتعلم للحصول على الدكتوراه ، حتى لا يحسد أخويه : حامل البكالوريا وحامل الليسانس » . - فقال سنشو : « أي أنه لو لم تمت زوجتك ، أو لم تقتل ، لما كنت أرمل ؟ » - فأجاب الحراث : « لا طبعا » . - فقال سنشو : « لقد تقدمنا ، استمر ، يا أخ ؛ إن الوقت وقت نوم ، لا وقت نظر في المسائل » . - فقال

الفلاح : « أقول إذن ، يا سيدي . إن ولدي ، الذي يتعلم للحصول على البكالوريا ، عشق في قريتنا فتاة تدعى كلارا برلرينا ، بنت أندريه برلرينو ، وهو فلاح غني جدا . وهذا الاسم « برلرينو » ليس لقب أسرة ، ولكنهم لقبوا به لأنهم « مشلولون » أبناء عن أب ، ولتغير اسمهم بعض الشيء لقبوا بلقب : « برلرينوس » ومع ذلك ، ولأقول الحق ، إن الفتاة التي أتكلم عنها هي في الحقيقة لؤلؤة شرقية : إذا نظر إليها من ناحية اليمين ، تشبه زهرة الحقول ، لكن لو نظر إليها من ناحية اليسار ، تكون أقل جمالا ، لأنه ينقصها عين ، أطاح بها الجذري : وعلى الرغم من كثرة المنقر في وجهها ، فإن الذين يحبونها يقولون إن المنقر في وجهها هي بمثابة حفر تدفن فيها نفوس عشاقها ، وهي نظيفة إلى درجة أنها من أجل ألا تدنس وجهها ، تحمل منخريها مشمرين حتى ليبدو كأنهما يهربان من الفم ، وما يزيدها جمالا هو أن هذا الفم كبير ، ومشقوق شقا كبيرا ، ولولا أنه ينقصه من عشر إلى اثنتي عشرة سنة لأمكن عده نموذج الكمال . ولن أحدثك عن شفيتها ، فإنهما نحيلتان دقيقتان حتى أنه لو أمكن إدارتهما على مكب لعمل منهما كبة غزل ، ولولهما مختلف عن لون الشفاه العادية ، إنهما يختلط فيها الأخضر والأزرق والبنفسجي ، وهذه معجزة حقا . ومغفرة يا سيدي إذا كنت أصف بالتفصيل كمالات تلك التي ستكون كنيتي ، لكنني أحبها ، ولا أظن أنني أخطئ في هذا .

فقال سنشو : ارسم كل ما تريد ، فإن كل هذه الرسوم تسرني ، ولو كنت تناولت عشائي ، لما كان ثم أنسب لي من الصورة التي رسمتها . فأجاب الحراث : إنها في خدمتك ، لكن سيأتي الوقت الذي سنكون فيه ما لسنا نحن إياه . فإذا كنت أستطيع أن أرسم لك يا سيدي ، لطافتها وأناقته قوامها ، لامتألت إعجابا ، لكنني لا أستطيع ذلك ، لأنها مقوسة وركبتها تمان ذقنها ، ومع ذلك فمن السهل أن نرى أنها إذا كانت تستطيع النهوض والوقوف ، فإنها تمان سقف البيت ، وكانت ستعطي يدها لابني المتقدم للبكالوريا ، لو كان في وسعها ، ولكن يدها ملتوية ومنعقدة . ومع ذلك فإن أظافرها واسعة ومجوفة وهذا دليل على سلامة تكوينها الجسماني .

فقال سنشو : يكفي هذا يا أخ . لقد رسمتها من رأسها حتى قدميها فقل الان ماذا تريد ، بغير لف ولا دوران ولا التواء ، ولا زيادة ولا نقصان .

فقال الفلاح : أود يا سيدي أن تتفضل علي بالكتابة لصالح ابني - إلى والد الانسة ، لحشه على إتمام هذا الزواج ، لأن الطرفين متكافئين ليس فقط في المال ، بل وأيضا في المواهب الطبيعية . إذ علي أن أصرح لك بأن ابني يمتلكه الجن ، ولا يمر يوم لا يعذبه

الشیطان الخبیث ثلاث أو أربع مرات ، ثم إنه ، فضلا عن ذلك ، وقع في النار ، حتی إن جلد وجهه أصبح مثل البرشمان ، وعیناه دامتان غمضاوان وهذا لا یمنع من كونه رقیقا كالملك ، ولولا أنه یضرب نفسه ویلكم جسمه ، لعد رجلا سعیدا .

فقال سنشو : هل تطلب شیئا آخر ؟

فأجاب الفلاح : نعم یا سیدی ، عندي شيء آخر ، لكنني لا أجرؤ على التصريح به . ومع ذلك ، ولیحصل ما یحصل ، لأنه على قلبي ، وعلي أن أتخفف منه . أود من سیادتك أن تعطیني ثلثمائة أو ستمائة دوقة لتساعد في مهر طالب البكالوريا ، أي من أجل مساعدته في تأیث بیته ، إذ لا بد على كل حال أن یستطیع الزوجان العیش دون أن یكونا عرضة لأهواء أبویهما .

فقال سنشو : هل هذا هو كل شيء ؟ لا تدع الحياء والانقذاع یمنعانك من القول .

فقال الفلاح : نعم یا سیدی .

ولم یكد ینطق بهذه الكلمات ، حتی نهض سنشو ، وأمسك بالكرسي الذي كان جالسا علیه ، وقال : « أقسم بالله ، یا جلف ، یا فاسد الرأي ، یا مغفل ، إذا لم تخرج من هنا وتغرب عن وجهي ، لكسرت رأسك بهذا الكرسي . یا متشرد ، یا صعلوك ، یا رسام الشیطان ، اتصل بك الوقاحة إلى حد أن تأتي لتطلب مني ستمائة دوقة ؟ ومن أين تريدني أن آخذها ، كي أعطيك إياها ؟ قل ، یا أحمق ، یا معتوه ، ماذا یهمني من مجيل تراه وكل جنس برلرینوس ؟ إمش قلت لك ، وإلا أقسم لك بحق الدوق مولاي ، فعلت بك ما قلت لك ، أنت لست من موالید مجيل تراه . بل أنت جني خبیث بعثت به الجحیم لإغوائي ، لم یمض علي في الحكم غیر يوم ونصف ، وتجرو على أن تطلب مني ستمائة دوقة ؟

فأشار ناظر القصر على الفلاح بالخروج ، فامتثل خفیض الرأس ، وهو یظهر أنه یخشى أن ینفذ الحاكم تهديداته ، لأنه كان یعرف أداء دوره بإتقان .

لكن لندع الان سنشو غاضبا ولیعد الهدوء إلى الجماعة ، ولنعد نحن إلى دون کیخوته ، الذي تركناه ووجهه مغطى بالمراهم لعلاج جراحه التي استمرت أكثر من ثمانية أيام ، وفي أثناء هذه المدة وقعت له مغامرة رواها سیدی حامد بالدقة المعهودة فيه في أدق تفاصيل هذا التاريخ .

الفصل الثامن والأربعون

فيما وقع لدون كيخوته مع دونيا رود ريجث، وصيفة الدوقة
ووقائع أخرى جديدة بخلود الذكر

كان دون كيخوته إذن حزينا كئيبا ، ورأسه مربوط ، ووجهه مخدوش لا من يد الله ، بل بمخلب قط ، وهي بلايا تنفصل عن مهنة الفروسية الجواله . وقضى ستة أيام لم يخرج فيها ، وذات ليلة وهو نائم يحلم بمطارادات التسيدورا ، سمع من يفتح باب غرفته بمفتاح ، فتصور أنها لا بد أن تكون الخادمة العاشقة ، وقد أتت لتهجم على إخلاصه وتجعله يخون العهد الذي قطعه على نفسه بالوفاء لسيدته دلثنيا . فصاح بصوت عال مسموع : « لا ، لا ، إن أجمل امرأة في الدنيا لا يمكن أن تجعلني أنسى ما أدين به لمن أعبدتها ، والتي نقشت صورتها في قلبي . يا سيدة أفكاري ، سواء تحولت إلى فلاحه جلفه ، أو إلى حورية في التاج الذهبي ، تنسجين قماشاً بخيوط الذهب والحريز أو بأسرك موتسنوس أو مرلان وفي أي مكان كنت ، فأنت دائما لي أيتها المعبودة ، دائما ، وفي كل مكان سأكون لك » .

ولما قال هذا الكلام فتح الباب ، فنهض واقفا على سريره متدثرا من أعلى إلى أسفل بملاءة من الساتان الأصفر ، وعلى رأسه قبعة كبيرة ، ووجهه مربوط ، وشارباه ملفوفان بورق ، وبدا في هذا المظهر أغرب شبح يمكن أن يرى . وكانت عيناه مسلطتين على الباب ، وخيل إليه أن التسيدورا الحساسة الرقيقة هي التي ستدخل ، ولكنه رأى بدلا من ذلك وصيفة وقورا تلبس قلنسوة بيضاء ذات تثنيات طويلة تغطيها من الرأس حتى القدمين ، وتحمل في يدها اليسرى شمعة مضيئة ، ويدها اليمنى كانت تحجب عينها حتى لا يبهرها الضوء ، وتلبس نظارة كبيرة ، وتمشي بهدوء وتتقم بخطى محسوبة . فتطلع فيها دون كيخوته من مكانه العالي وتفحصها بإمعان ، ولما رأى صمتها وهندامها ، اعتقد أنها ساحرة تريد أن تؤثر بسحرها فيه ، فأخذ في رسم علامات الصليب مرارا عدة ، واقترب الشبح ، ولما صار في وسط الغرفة ، رفعت طرفها وشاهدت بأية لهفة وحماسة كان دون كيخوته

يرسم علامة الصليب . وإذا كان قد تبدى خانفا من منظرها ، فهي الأخرى لم تكن أقل خوفاً من شكله الغريب ، الطويل الأصفر ، المغطى بالقماش والمرام . فقالت : « بحق يسوع ! ماذا أرى ؟ » وفي الوقت نفسه سقطت الشمعة من يديها وانطفأت . وأرادت الوصول إلى الباب ، لكنها ارتبكت في تنورتها وملأته وسقطت على الأرض بقسوة ، وفزع دون كيخوته وقال : « أستحلفك ، أيها الشبح أو أيا من كنت ، أن تخبرني من أنت ، وماذا تريد مني ! فإن كنت روحا في عذاب فقل لي أعمل ما في وسعي لمواساتك ، إنني مسيحي كاثوليكي ، مستعد دائما لعمل الخير لجميع الناس ، وهذا هو ما جعلني انخرط في نظام الفروسية الجوال ، التي يمتد واجبها إلى حد الصلاة من أجل الأرواح في المطهر » . فلما سمعت السيدة من يستحلفها حكمت بناء على خوفها - على خوف دون كيخوته وأجابته بصوت خفيض : « سيدي دون كيخوته ، إن كنت أنت إياه ، إنني لست شبحا ولا رؤية ، ولا روحا في المطهر ، كما تظن ، بل أنا السيدة رودريجت ، وصيفة شرف السيدة الدوقة ، جئت لأسألك النجدة في مأساة من تلك المآسي التي تقدر أنت على علاجها » . - فقال دون كيخوته : « قل لي ، يا سيدة رودريجت هل أتيت لإيصال رسالة غرام ؟ فإن كان الأمر كذلك ، فأني أنبهك إن قلبي مغلق دون كل النساء ، اللهم إلا المنقطعة النظر دلثيا ، وإذا لم يتعلق الأمر بالحب ، فتستطيعين أن تشعلي الشمعة من جديد ، وتعودي ، وسنتحدث بعد ذلك ما طاب لك من الحديث » .

فأجابت : من ؟ أنا ، يا سيدي ، رسولة غرام ؟ أنت لا تعرفني إذن ! لست بعد في سن متقدمة أتسلى فيها بمثل هذه الترهات . والحمد لله ، فصحتي جيدة ، ولي كل أسناني ، فيما عدا بعض الأسنان التي انتزعتها النزلات وهي شائعة في إقليم أرغون هنا ، لكن انتظرنني قليلا ، سأذهب لاشعال الشمعة ، وأعود حالا لأروي لك أحزاني ، بوصفك تستطيع علاج كل الأدواء .

ودون أن تنتظر جوابه خرجت ، وتركت دون كيخوته مشغولا بهذه المغامرة الجديدة ، وكانت آلاف الخواطر المشتتة تعكر ذهنه . وبدا له أن أخطر ما يعرض له وأدعاها إلى اللائمة ، هي أن يتعرض مريدا مختارا لخطر خيانة عهده لدلثيا . وقال في نفسه : « من يدري ! لعل الشيطان وهو ماكر وخبيث ، أن يكون قد قصد إلى أن يحقق - عن طريق وصيفة - ما لم يستطع الوصول إليه عن طريق الامبراطورات والملكات والدوقات والمركيزات ، والكونتيسات ؟ ! لقد سمعت من قوم حكماء أن الشيطان إذا لم يستطع امتلاكك بطريقة ، فإنه يتخذ طريقة أخرى . ومن يدري ، فلعل هذه الوحدة ، وهذه الفرصة ، وهذا الصمت أن

تثير كلها رغباتي الراقدة وتجعلني أسقط في نهاية عمري ، أنا الذي لم أكب أبدا ؟ في مثل هذه الحالة الفرار أفضل من انتظار المعركة . لكن ماذا أقول ؟ إنني لست في تمام عقلي ما دمت أفكر في هذه الحماقات . ماذا! هل وصيفة بقلنسوة بيضاء ونظارة ضخمة على أنفها ، يمكن أن تثير أية فكرة شهوانية في قلب لا يحسن ؟ هل توجد في العالم وصيفة ليست وقحة ، خبيثة الدخلة ، كذابة ؟ ألا سحقا لكل جنس الوصيفات ، إنهن لا فائدة فيهن للذات الحياة! أوه! كم كانت على حق تلك السيدة التي يقال عنها أنها وضعت ، على طرفي منصتها ، تمثالين لوصيفتين بمنظاريهما ومنواليهما ، وهما تشتغلان . وكان هذان التمثالان يزينان القاعة كما لو كانتا وصيفتين حقيقيتين . وتحقيقا لهذا القرار نهض من سريره ليغلق الباب ، ويمنع السيدة رودريجت من الدخول ، لكنه وجدها لدى الباب ، والشمعة في يدها . ولما رأت دون كيخوته عن قرب ، وهو مغطى بالملاءة ، ويلبس طاقية وعليه أربطة ، انتابها الخوف من جديد ، وتراجعت خطوتين ، وقالت له : « هل أنا في أمان يا سيدي ؟ ليس من الأمانة أن تخرج من سريرك » . - فقال : « وأنا أسألك السؤال نفسه : هل أنا في أمان منك ولن أكره على فعل شيء ؟ »

- من ، من فضلك ، الذي سيكرهك ؟

- أنت يا سيدتي : إنني لست من المرمز ، ولا من البرونز ، إن الساعة الآن ليست العاشرة صباحا ، بل منتصف الليل ، بل بعد هذا فيما يخيّل إلي ، وهذه الغرفة في أمان وأحسن إغلاقا من الكهف الذي فيه تمتع اينبوس الخائن الجسور بالجميلة البائسة ديدون . على كل حال أعطيتني يدك يا سيدتي ، إن أكبر أمان عندي هو فضيلتي ، والاحترام الذي يشيره هذه القلنسوة البيضاء .

ثم أخذ يدها وقبلها ، وأدخلها في الغرفة .

وعند هذا الموضع يفتح سيدي حامد قوسا ، ويقول إنه على استعداد لأن يقدم أحد خير ثوبيه ليستمتع بلذة رؤية هذين الشخصين يمشيان من الباب إلى السرير ، وهما متشابكا الأيدي .

ونام دون كيخوته ولم يظهر من جسمه غير وجهه ، وجلست السيدة رودريجت على كرسي ، على مبعدة من السرير ، دون أن ترفع نظارتها ولا تتخلى عن شمعتها . وبعد وقفة قصيرة ، قطع الفارس الصمت وقال :

- سيدتي ، تستطيعين الآن أن تفتحي لي قلبك ، وترفعي الوزر الذي أنقض ظهري . وأذنأي العفيفتان سترعيانك كل انتباه ، وساعدي سيمنحك النجدة التي تملئها الرحمة للبائسين .

فأجابت السيدة رودريجت : « إنني واثقة من هذا يا مولاي ، وما كان لي أن أتوقع من أدبك ولطف طلعتك غير رد رحيم . ولتعلم إذن يا سيدي أنك وإن كنت تراني هنا في هذه الأماكن في قلب مملكة أرغون ، بزي وصيفة عرضة للاحتقار والاضطهاد ، فإني ولدت في أشتورية^(١) أوبييدو من أسرة من أعرق أسر الإقليم ، لكن سوء الحظ ، وسوء نظام أهلي ، مما جعلهم يفتقرون بعد قليل ، دون أن يعلموا لماذا وكيف ، أفضيا بي إلى بلاط مدريد ، حيث اشتغلت عند سيدة كبيرة ، درءا لبلايا أعظم في وظيفة آنسة غرفة . لأنه فيما يتعلق بأمور الخياطة والغسيل لم أجد قرينة لي . وتركتني أهلي في شغلي ، وعادوا إلى بلدهم ، ثم ماتوا بعد قليل ، وراحوا من غير شك إلى الجنة ، لأنهم كانوا صالحين . فصرت إذن يتيمة ، ليس لي ما أقتات به غير مرتب تافه ، ولا آمال عندي غير المتاعب التي لا حصر لها والتي على خدم القصور أن يعانونها . وفي الوقت نفسه ، وبغير تمكين مني ، عشقني سائس في القصر الذي كنت أعمل فيه . وكان رجلاً ناضج السن ، ذا لحية ، حسن الطلعة ، نبيلاً كأنه ملك ، لأنه كان من سكان الجبل . ولم نستطع كتمان غرامنا ، فوصل إلى مسامح سيدتي فرأت منعا للقليل والقال أن يعقد قراننا أمام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة . ومن هذا الزواج أنجبنا بنتا ، مما زاد في شقائي ، لا لأنني مت أثناء الولادة ، بل تمت الولادة في مياعدها بسلام ولكن لأنني فقدت بعد ذلك بزمان قصير - زوجي الذي مات من خوف ستهش أنت نفسك إذا ذكرته لك » . وهنا أخذت السيدة رودريجت في البكاء بمرارة . واستمرت تقول : « أعذرني يا سيدي ، لكن في كل مرة أتذكر هذا الحادث الأليم تمتلئ عيناى بالعبرات . يا إلهي ! كم كان جميل الطلعة قوي البنية حين كان يحمل سيدته خلفه على بغل قوي أسود مثل الكهرمان الأسود ! لأنه في ذلك الوقت لم تكن سيدات البلاط تستخدم العربات ولا الكراسي مثل اليوم ، بل كن يركبن خلف سواسهن ولا أمكن منع نفسي من رواية هذا التاريخ الحزين ، حتى أعرفك بغيرة واهتمام زوجي العزيز . وعند مدخل شارع سنتياجو في مدريد ، وهو شارع ضيق قليلا ، قابل قاضيا في البلاط ، كان يسير ومعه محضران . وإكرامه له ، أدار زوجي عنان البغل ، وأراد أن يصحبه . فقالت له سيدته بصوت خفيض : « ماذا تعمل أيها الشقي ؟ ألا ترى أن هذا ليس في طريقتي ؟ فتوقف القاضي تأدبا ،

(١) أشتورية : إقليم في إسبانيا ، عاصمته أوبييدو ، يحد شمالا بالبحر ، وجنوبا بمملكة ليون ، وشرقا بقشتالة القديمة ، وغربا بجليقية . وكانوا يميزون قديما بين أشتورية أوبييدو وأشتورية سنتيانا ، نسبة إلى عاصمة كل جزء من الأقليمين . وإلى أشتورية ، وهي منطقة جبلية ، لجأ القوط في سنة ٧١٢ وسنة ٧١٣ بعد أن طردهم العرب من سائر إسبانيا ، وملك عليهم ييلاخيو سنة ٧١٨ . وقد انتصر على العرب في سنة ٧١٩ في معركة كافادونجا (أو كويبا دونجا ، وهي مدينة على مسافة ٤٨ كم جنوب شرقي أوبييدو) .

وقال للسانس : « تابع طريقك يا صاحبي . بل علي أنا أن أصحب دونيا كسلدا (وكان هذا اسم سيدتي) . ومع ذلك أصر زوجي ، والطاقيّة في يده ، على أن يتبع القاضي : فلما رأته ذلك سيدته ، استلت دبوسا كبيرا أو بالأحرى مسلة وغرزتها في أحشاء زوجي الذي راح يصرخ وسقط على الأرض معها . وهرع خادمان لانهاضهما ، وكذلك فعل القاضي والمحضران . وشاع الخبر بين سكان باب وادي الحجارة . وعادت السيدة سائرة على قدميها ، وذهب زوجي إلى حلاق وهو يصيح أنه خرقت أحشاؤه من جنب إلى جنب . وكان أدب زوجي معروفا للناس حتى كانت الأطفال تعدو خلفه في الشوارع . ولهذا السبب ولأنه كان قصير النظر ، طردته سيدته . فحزن لهذا حزنا بالغا ، مات بسببه فيما أعتقد . وبقيت أنا أرملة ، مهجورة ، على عاتقي بنت كان جمالها ينمو مثل زبد البحر . وأخيرا لما كنت مشهورة بأنني أجيد الشغل ، فإن السيدة الدوقة (صاحبة القصر الذي فيه دون كيوته) وكانت قد تزوجت حديثا بسيدي الدوق ، أرادت أن تأخذني معها إلى مملكة أرغون مع بنتي ، التي صارت مع الزمن أجمل فتاة في الدنيا . إنها تغني مثل القطاة (القلندرية) ، وترقص مثل الفكرة ، وتقفز مثل الضائعة ، وتقرأ وتكتب مثل الأستاذ في المدرسة ، وتحسب مثل البخيل . ولا أقول لك شيئا عن نظافتها . فالماء الجاري ليس أصفى منها . وإذا صحت ذاكرتي ، فلا بد أن سنّها الآن ست عشرة سنة ، وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، مع الزيادة أو النقصان . وفي وقت قصير استولت على قلب ابن فلاح غني جدا ، له غير بعيد عن هذا القصر ، أرض يستأجرها من الدوق . ولست أدري كيف حدث ما حدث ، المهم أنه بدعوى الزواج اعتدى عليها ، وهو الآن لا يريد الزواج منها والوفاء بالعهد . وسيدي يعرف ذلك ، لأنني شكوت إليه عدة مرات . وطالبت بالزّام الفتى بالزواج من بنتي . ولكنه لم يعر هذا غير أذن صماء ، ولا يسمع لما أقول . والسبب في هذا أنه يقرض الدوق مالا ، ويضمنه في كثير من الأحوال . ولهذا لا يريد الدوق أن يسخطه أو يضايقه . ولهذا أود منك يا سيدي العزيز أن تتكفل بتصحيح هذا الظلم ، إما باللين والرجاء ، أو بالقوة ، والناس يقولون عنك أنك ولدت من أجل الانتصاف من الإهانات ، وتصحيح المظالم ، وإغاثة البائسين . وضع في اعتبارك شباب ابنتي وكونها يتيمة ، ولطاقتها وكل الصفات الحميدة التي حدثت عنها . والله وبحق ضميمري ، لا يوجد بين كل أوانس سيدتي آنسة واحدة جديرة بأن تخلع لها حذاءها ، ولا حتى تلك التي تدعى التسيدورا ويظن أنها أجملهن . فإنها لو قورنت بابنتي لما قارنتها ولا بفرسخين . وأنت لا تجهل يا سيدي أنه ليس كل ما يلعب ذهابا . فالتسيدورا هذه ادعائها أكثر من حقيقة جمالها ، وخفتها أكبر من حشمتها ، أضف إلى هذا أنها

ليست صحيحة الجسم تماما ، ونفسها شديد حتى أنه ليس من الممكن المكوث إلى جوارها . والسيدة الدوقة... أوه ، صه! لنسكت ، فإن للجدران آذانا كما يقولون » .

فصاح دون كيخوته ، وحياتي ، ماذا بسيدتي الدوقة ؟

فقالت الوصيصة : ما دمت أقسمت ، فلا أملك إلا أن أجيب . سيدي! أنت ترى جمال السيدة الدوقة ، هذا اللون اللامع مثل سيف مصقول حديثا ، وهذان الخدان من العاج والأحمر القاني ، وهاتان العينان التي تبدو إحداهما كالشمس والأخرى كالقمر ، وهذا السيد النبيل الذي يبدو كأنه يترفع عن وطء الأرض ، وهذه النظرة الرائعة التي يبدو أنها تنشر الصحة من حولها في كل مكان ، أعلم أنها تدين بكل هذه الصفات أولا لله ، ثم لنافورتين في ساقها ، منهما تخرج الاخلاط الفاسدة التي يقول الأطباء إنها مملوءة بها .

فصاح دون كيخوته : يا لمريم المقدسة ، أمن الممكن أن يكون للسيدة الدوقة هذه المجاري ؟ لن أصدق هذا حتى لو قاله لي رهبان حفاة . لكن ما دامت السيدة رودريجت تؤكد هذا ، فلا بد أن يكون هذا صحيحا ، لكن مثل هذه النافورات في جسم جميل لا يمكن أن ينبع منها غير العنبر ، لا الأخلاط الفاسدة . وأنا بدأت أعتقد أن هذه الافرازات هي شيء صحي جدا .

ولم يكذب يفرغ من هذه الكلمات حتى فتح الباب بضربة شديدة ، فوثبت السيدة رودريجت ، ووقعت منها الشمعة وانطفأت ، وصارت الغرفة مظلمة سوداء مثل القرن . وشعرت الوصيصة المسكينة بمن يمسك رقبتها بجمع يديه ، وبشدة حتى أنها لم تستطع الصراخ ، بينما رفع شخص آخر تنورتها دون أن ينطق بكلمة ، وضربها بسوط ، فيما يبدو ضربات شديدة كانت تثير الشفقة . وعلى الرغم من حنان دون كيخوته فإنه لم يتحرك من سريره ، لأنه لم يدر ما هذا . ولم يقل كلمة ، بل قبع ساكتا وهو يخشى أن يمتد الضرب إليه هو . ولم يخطئ في ظنه ، فإن الجلادين الصامتين بعد أن أوجعوا السيدة رودريجت ضربا ، دون أن تجرؤ على الصياح ، انقضا على دون كيخوته ، وانتزعا المفارش والأغطية وضرباه بشدة حتى إنه أخذ يدافع عن نفسه باللكمات . وكل هذا قد تم في صمت رائع . واستمرت المعركة نصف ساعة ، ثم انسحب الشبحان . فأنزلت السيدة رودريجت تنورتها ، وراحت تنوح ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة لدون كيخوته ، الذي بقي وحده مرتبكا مفكرا محطما ، يريد أن يعرف من ذلك الساحر النغل الذي نكل به هذا التنكيل . لكن هذا سيتضح في أوانه . فلندع دون كيخوته هناك ، ولنعد إلى سنشو الذي يدعونا . هكذا يقتضي نظام القصة والرواية .

الفصل التاسع والأربعون

فيما وقع لسنشو پنثا وهو يقوم بجولة تفتيشية في جزيرته

تركنا الحاكم الكبير متضايقا غاضبا ضد هذا الفلاح ، المصور من نوع جديد ، والمازح الثقيل الذي لقنه ناظر القصر دوره ، وهذا لقنه الدوق ، فجاء يسخر من سنشو پنثا . ولكن هذا ، وان كان غليظا بسيطا ساذجا ، فقد صمد للموقف ، وقال للحاضرين وللدكتور رثيو ، الذي دخل القاعة مع رسول الدوق : « الآن أقر بأن القضاة والحكام ينبغي أن يكونوا من البرونز لمقاومة أصحاب المطالب ، الذين يأتون في كل ساعة ويطلبون أن يسمع لطلباتهم ونحل مشاكلهم ، دون أن يفكروا إلا في أمورهم الخاصة ، مهما كلف الأمر ، فإذا لم يرضهم الحاكم المسكين ، إما لأنه لا يستطيع ، أو لأن القوت ليس وقت سماع الدعاوي فإنهم يتبرمون ، ويلعنون وينخرون عظامه ، ويقشرون جلد كل أسرته . أيها الشاكي الجاهل ، أيها المطالب الثقيل لا تتعجل هكذا . انتظر القوت المخصص للنظر في الدعاوي ، ولا تأت أبدا في ساعة الطعام أو النوم . فإن القضاة من لحم وعظم ، وهم مضطرون إلى أن يعطوا الطبيعة ما تطلبه ، فيما عداي أنا ، الذي لا أستطيع أن أطعم نفسي ، بفضل الدكتور بدرو رثيو ترتيافورا ، الحاضر هنا ، ويريد أن أموت جوعا ، ويزعم أن الموت هكذا هو الحياة ، وليعيش هو هكذا ، هو ، وكل من على شاكلته أقصد الأطباء الأرياء ، لأن الأطباء الجيدين يستحقون المكافأة وأكاليل الغار » .

وكل الذين عرفوا سنشوپنثا أعجبوا به وهو يتكلم بهذه العبارات الجيدة ، ولم يدروا إلى ماذا يعزون هذا ، اللهم إلا أن المناصب والوظائف المهمة توقف العقول أو تجعلها ثقيلة .

وأخيرا وعد الدكتور بدرو رثيو أجويرودي ترتيافورا - وعد سنشو بأن يسمح له بالعشاء هذا المساء ، على الرغم من كل فصول بقراط . فاغتبط سنشو لهذا ، وانتظر ،

بصبر نافد ، الليل وساعة العشاء ، لأنه بدا له أن الزمان ساكن . وأخيرا جاءت الساعة المنشودة ، فقدما له كفتة من لحم البقر بالبصل ، وزوجا من الأكارع العجالي الكبيرة التي تكاد تعد أكارع ثور ، فالتهمها بشهية شديدة كما لو كان ما قدم له هو دراريح ميلانو وتدرج روما وعجول سورنتو وحجل مورون أو إوز لباخوس . وكان يأكل ويقول للدكتور : « أنت ترى أنه ليس من الضروري تقديم أطعمة فاخرة ولحوم لذيدة لي ، فإنها لا تناسب معدتي ، وهي معتادة على لحم الماعز واللحم البقري ، والشحم ، والمملحات ، واللفت ، والبصل فإن أعطيت أطعمة أخرى ، تلقتها ساخطة ، وأحيانا تلفظها . وخير ما يفعله رئيس الطهاة هو أن يعطيني طوري ، وكلما كانت متعددة الأنواع ، كانت أشهى عندي ، ويستطيع أن يضع فيها كل ما يشاء ، ما دام يمكن أكله ، وسأقدر له مجهوده وأكافئه عليه ذات يوم . وليس لأحد هنا أن يسخر مني ، فإما أن نكون ، أو لا نكون ، فلنعش جميعا ، ولنأكل بسلام وفي صحبة طيبة . إن الله يبعث الضوء (النهار) لجميع الناس ، وسأحكم هذه الجزيرة بالاستقامة دون الإضرار بأحد . ولينفتح كل امرئ عينيه وينظر أمامه ، لأنني أحذركم أن الشيطان منطلق ، ولو أعطيت الفرصة لشاهدتم عجائب . كن عسلا يأكلك الذباب .

فقال رئيس الطهاة : حقا ، يا سيدي الحاكم ، أنت على صواب في كل ما قلته وباسم جميع سكان الجزيرة أضمن لك أن يخدموك جميعا بدقة وحب وإحسان ، والرقعة التي أبديتها في الساعات الأولى من حكومتك لم تمكنهم من أن يعملوا أو يفكروا في شيء يتنافى مع واجباتهم نحوك .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا بسهولة ، ولو فعلوا أو فكروا غير هذا لكانوا حمقى مغلين . ومع ذلك أكرر وأقول احتموا بي وبحماري ، هذه هي النقطة المهمة . وحين يثين الألوان نقوم بجولة تفتيشية ، وفي عزمي أن أنظف الجزيرة من كل أنواع القاذورات ، مثل المتشردين والمتبطلين ، والمتسولين . وأنت تعلمون ، يا أصحابي ، أن المتعطلين والمتشردين هم في الدولة كالزنابير التي تأكل العسل الذي ينتجه النحل المجد . وأريد حماية الحرائث ، وضمان كل الحقوق للنبلاء ، ومكافأة الأفاضل ، وخصوصا احترام الدين ورجاله . فما رأيكم في هذا يا أصحابي ؟ هل أنا على حق أو لا ؟

فأجاب ناظر القصر : سيدي ، إنني معجب برؤية رجل غير متعلم مثلك (لأنني أرى تماما أن ليس عندك أي علم) يقول مثل هذه الأشياء الحسنة ، الحافلة بالأمثال ، وبالتعلم ، وهي بعيدة عن كل ما توقعه من عقلك كل أولئك الذين أرسلوا بنا هنا . كل يوم نرى في العالم أمورا جديدة : الممازحات تتحول إلى حقائق ، والساخرون يصبحون موضوعا للسخرية .

ولما جاء الليل ، تعشى سنشو ، بعد إذن الدكتور رثيو ، ثم خرج ليقوم بجولة تفتيشية ، مصحوبا بناظر القصر ، والسكرتير ، ورئيس الطهارة ، والمؤرخ المكلف بتسجيل أفعاله وأعماله ، وبعدهم الموثقون والمحضرون وكان عددهم كبيرا حتى كانوا يألفون نصف كوكبة . ومشى سنشو في وسطه ، معه عصاه ، وهي علامة السلطة ، ولم يكادوا يجتازون بضعة شوارع حتى سمعوا قعقة سيوف ، فهرعوا ، وشاهدوا رجلين يتعاركان ، فلما رأوا العدالة قادمة توقفا ، وقال أحدهم : « باسم الله والملك هل يجوز السماح بالسرقة في هذه القرية ونهب المارة في وسط الطرقات » ؟

فقال سنشو : إهدأ أيها الرجل الطيب ، وارو لي سبب تضاربكما : فأنا الحاكم عليكم . فقال الخصم الأول : سأذكره باختصار يا سيدي . ستعلم أن هذا الرجل المهذب قد كسب ، في بيت قمار قريب من هنا ، أكثر من ألف ريال ، والله يعلم كيف كسب ، لقد كنت حاضرا ، وحكمت لصالحه في أكثر من دور مشكوك فيه ، ضد شهادة ضميري . ولكنه مضى مع مكسبه ، ولما كنت آمل في أن يعطيني ولو بضعة اسكودوات ، كما هي العادة مع الناس الذين من أسرة هنا ، والذين يقومون بالفصل في الأدوار وتهدئة المنازعات ، فإنه وضع النقود في جيبه ومشى . فاتبعته ، واستحلفتها بالكلمات الطيبة العذبة ، أن يعطيني ثمانية ريات ، وهو يعرف تماما أنني رجل شريف ، وليس عندي منصب ولا ريع مرتب ، لأن أهلي لم يتركوا لي شيئا ولم يعلموني ، لكن هذا اللص ، الأكبر لصوية من كاكوس^(١) ، وأشد غشا من أندراديا^(٢) ، لم يرد أن يعطيني غير أربعة ريات . فانظر ، يا سيدي الحاكم ، أي قلة حياء وانعدام ضمير ! لكنني أقسم بأنه لو لم تجيء سيادتك لكنت قد أرغمته على رد مكاسبه ، وعلمته كيف يسلك معي .

فقال سنشو للرجل الآخر : ما تقول في هذا ؟

فأجاب : إن ما قاله صحيح ، يا سيدي ، وأنا لم أرد أن أعطيه غير أربعة ريات ، لأنني أعطيه نقودا في كثير من الأحيان ، ومن ينتفعون هكذا من القمار ينبغي أن يكونوا قنوعين ويقبلوا عن طيب خاطر ما يقدم إليهم ، دون مفاصلة مع الرابحين ، إلا إذا كانوا يعلمون

(١) كاكوس ف : مارد هائل ، نصف إنسان ونصف ساتور ، ابن فلكان (اله الرعد) وكان يصق دوامات من اللهب والدخان . ويسكن في كهف بجبل أفنتان ، بالقرب من الموضع الذي بنيت فيه روما فيما بعد . وذات يوم سرق من هرقل بعض المعجول ، فقام هرقل ودفع مدخل الكهف بقوة الجبارة على الرغم من أن المدخل كان مسدودا بصخور هائلة ، ثم خنقه . وهذه المعركة أوحى إلى فرجيل بقطعة رائعة في « الأيناذة » (الكتاب السابع) .

(٢) أندراديا : لا بد أنه نصاب مشهور في زمان ثرابانتس أو قبله بقليل . ولكن رودريجت مارين يقول : ربما كان أندرادا Andrada المذكور في إحدى الرومنشات الجرمانية التي ألفها كرسوبال دي تشاباس ، من اشبيلية ، ونشرها خوان خيدلجو في سنة ١٦٠٩ .

أنهم غشاشون ، وكسبهم غير مشروع . وأكبر دليل على أنني رجل طيب ، ولست لصا ، كما يدعي هذا الرجل ، وهو أنني لم أرد أن أعطيه شيئا ، ذلك أن الغشاشين هم دائما تحت رحمة المشاهدين الذين يعرفونهم .

فقال ناظر القصر ، هذا حق ، فانظر يا سيدي الحاكم ماذا تريد أن تفعل بهذين الرجلين ؟

فقال سنشو ، ما أريد أن أفعل ؟ أنت أيها الرابع ، بوجه حق أو بخير وجه حق ، أعط لخصمك في الحال مائة ريال ، وأعط أيضا ثلاثين ريالا للمسجونين . وأنت يا رجل الخير ، يا من لا منصب لك ولا ريع مرتبا ، وتتجول بالليل في هذه الجزيرة ، خذ المائة ريال وارحل ، غدا لا أريد أن أراك في البلد ، ولا ترجع إليها قبل عشر سنوات ، وإلا كانت عقوبتك الاعدام ، وسأعلقك أنا بنفسي في المشنقة ، أو على الأقل سيعلقك الجلاد بأمرى . ولا يردن أحدكما ، وإلا صفعته على أذنيه .

ونفذ هذا الحكم . فأعطى الواحد ، وأخذ الآخر ، وخرج هذا من الجزيرة ، وعاد الأول إلى بيته ، وصاح سنشو ، إما أن تعوزني السلطة ، أو أغلق بيوت القمار هذه ، فإنها تبدو لي مضجرة جدا .

فقال أحد الموثقين ، لا أعتقد أن من الممكن إغلاق بيوت القمار ، لأنها يمتلكها شخص كبير ، يخسر الكثير جدا على مدار العام أكثر مما يربح بالأوراق (الكوتشينة) . لكن سيادتكم تستطيع أن تمارس سلطتكم في أوكار أقل أهمية ، ولكنها أشد خطرا من أن الولع بالقمار قد صار عاما مع الأسف الشديد ، فالأفضل أن يتم القمار في البيوت الكبيرة لا في بيوت بعض الموظفين الصغار ، حيث تسليخ جلود الناس وهم أحياء ، ثم يطردون في وسط الليل .

فقال سنشو ، أيها الموثق ، أنا أعرف أن هناك الكثير مما يقال في هذا الموضوع . وفي هذه اللحظة ظهر رام يقود شابا . فقال الرامي ، « سيدي الحاكم ، لقد التقينا بهذا الشاب وكان قادما علينا ، لكنه حين شاهد العدالة ، فر هاربا ، وأخذ يعدو مثل الأيل الأسمر ، مما جعلنا نشبه في أنه مجرم » فطارده ، ولولا أنه وقع وهو يجري لما استطعت اللحاق به » .

فقال سنشو ، لماذا كنت تعدو يا فتى ؟

- لتجنب مضايقات العدالة .

- ماذا تعمل ؟

- نساج .
- في ماذا ؟
- في حديد الرماح ، مع عدم المواخذه .
- آه ، أنت تسخر ، وتريد أن تمزح ، حسن جدا . وإلى أين كنت ذاهبا الآن ؟
- كنت ذاهبا لاستنشاق الهواء .
- وأين يستنشق الهواء في هذه الجزيرة ؟
- حيث يهب .
- أحسنت الجواب ، يا فتى ، أنت حكيم ، لكن اسمع ، افترض أنني الهواء ، وأناي أهب في المؤخرة ، وأناي أدفعك إلى السجن . يا حراس ، اقبضوا عليه ، ولينم هذه الليلة بدون استنشاق الهواء .
- فقال الفتى : والله إنك تجعلني أنام في السجن كما تجعلني ملكا .
- ولماذا لا أجعلك تنام في السجن ؟ أليس عندي سلطة للأمر بالقبض عليك أو الإفراج عنك ، كما أشاء ؟
- وحتى لو كانت عندك سلطة أكبر ، فلن تستطيع أن تجعلني أنام في السجن .
- لا أستطيع ؟ إذن اقتادوه فورا ، وسيرى أنه يخطئ في هذا الظن . وإذا شاء القاضي أن يتكرم عليه ويسمح له بوضع قدمه خارج السجن ، فإني أحكم عليه مقدما بغرامة قدرها ألفان من الدوقات .
- كل هذا ليس إلا مزاحا ، والواقع أنه لا توجد قوة إنسانية تستطيع أن تجعلني أنام في السجن .
- قل لي ، أيها الجني ، هل عندك روح تأتي لتخليصك وفتح القضبان التي سيلقى بك خلفها ؟
- فقال الفتى : سيدي ، اسمع ، لأفترض أنك بعثت بي إلى السجن ، وأن فيه قضباناً وأقفالا عديدة ، ووضعوني في زنزانة خاصة ، ومنع القاضي من الإفراج عني وإلا عوقب عقابا صارما جدا ، ومع ذلك فإنني إذا لم أرد أن أنام ، وبقيت طوال الليل ساهرا مفتوح العينين ، فهل عندك القدرة على جعلي أنام على الرغم مني ؟
- فقا السكرتير : لا ، طبعا ، هذا الفتى على حق .
- وقال سنشو : إذن لا يمكن أن يرغمك على النوم إلا إرادتك ، بينما إرادتي لا تستطيع ذلك !

فقال الفتى : لا ، طبعاً .

فقال سنشو : إذن ، اذهب في رعاية الله ونم في بيتك ، ولا أريد أن أمنعك من النوم ، لكنني أنصحك ألا تسخر أبداً من العدالة ، إذ قد يتصادف أن تلاقى من يصفعك بسخريتك على أنفك . فامتثل الفتى ، واستمر سنشو في جولته .

وبعد بضع خطوات قابلوا راميين يقتادان رجلاً ، وقال أحدهما : « مولاي ، هذا الشخص الذي تراه ، والذي يبدو أنه رجل ، ليس كذلك ، بل هو امرأة ، وامرأة جميلة ، بزي رجل » . فقاربوا مصباحين أو ثلاثة ، فشاهدوا على النور وجه فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، وكان شعرها محصوراً في شبيكة من الذهب والحريير الأخضر ، وكانت جميلة كآلف لؤلؤة . وفحصت من أعلى إلى أسفل ، فكانت تلبس جوارب من الحرير الأحمر القاني ، مع أربطة للساق من التافهات الأبيض ، محاطة بذهب وجوهر ، وكانت سراويلها من البروكار الذهبي على أساس أخضر وكانت الغلالة من القماش نفسه ، وتحتها صدرية من التيل الرقيق الأبيض والذهبي ، وكان حذاؤها أبيض ويشبه أحذية الرجال ، وبدلاً من السيف كانت تحمل مشملاً (سيفاً قصيراً) غنياً ، وكان في كل أناملها خواتم ثمينة ، وبدت جميلة في نظر الجميع ، لكن لم يتعرفها أحد . وعجب سكان الناحية منها وكذلك من كانوا على علم بالمزاحات التي يضحك بها على سنشو ، لأنهم لم يطلعوا على حقيقة المقابلة ، وكانوا نافذي الصبر يريدون أن يروا نهايتها . ودهش سنشو من جمال الفتاة ، وسألها من تكون وإلى أين هي ذاهبة ، ولماذا خرجت بهذا الزي . فأجابت وعيناها مسلطتان على الأرض ، والخجل يضرجها بالحمرة : « لا أستطيع يا سيدي أن أكشف أمام الناس سرا ينبغي كتمانها ، وأستطيع فقط أن أؤكد لسيادتك إنني لست سارقة ولا امرأة فاسقة ، بل فتاة بائسة ، ألبستها الغيرة إلى تجاوز حدود الحياء » . وعند هذه الكلمات قال ناظر القصر لسنشو : « سيدي أطلب إلى الناس أن ينصرفوا ، حتى تستطيع هذه الفتاة أن تتكلم بحرية » . فانصرف الجميع جانباً ، ولم يبق إلا ناظر القصر ، ورئيس الطهاة والسكرتير . هنالك استأنفت الفتاة الجميلة الكلام قائلة : « سادتي ، إنني بنت بدرو بيرث مثوركا ، ملتزم ضرائب الصوف في هذه القرية ، الذي بنت بدور بيرث مثوركا » . فقاطعها ناظر القصر قائلاً : « ما تقولينه غير مقبول ، فأنا أعرف جيداً بدرو بيرث ، وليس له ولد ولا بنت ، ثم إنك تقولين إنك ابنته ، وبعد ذلك تقولين إنه كثيراً ما يأتي عند أبيك » .

فقال سنشو : أنا لاحظت هذا التناقض .

فقالت الفتاة : يا سادتي أنا الآن في حالة ارتباك إلى حد أنني لا أدري ماذا أقول ، الحقيقة إنني ابنة ديبجو دلا يانا ، ولا بد أنكم جميعاً تعرفونه .

فقال ناظر القصر : ولا هذا أيضا ، فأنا أعرف ديجو دلا يانا ، إنه نبيل وافر الثراء ، وعنده ولد وبنت ، لكن منذ أن صار أرمل لا يستطيع أحد أن يتباهى بأنه شاهد وجه ابنته : لقد أخفاها عن الشمس نفسها ، وفضلا عن ذلك فقد اشتهرت بأنها في غاية الجمال .

فقالت : « إنك تراها حقا أمامك الآن ، وتستطيع أن تحكم هل هذه الشهرة كاذبة » . ثم أخذت في البكاء المر . ولما رأى السكرتير هذه الدموع قال لرئيس الطهاة : « لا بد أنه وقع لهذه الأنسة المسكينة حادث مهم جدا ، لأنها من أصل عريق ومع ذلك تجري في الشارع بالليل في هذا الزي » . - فأجاب الآخر : « لا شك أبدا في هذا ، ودموعها نفسها دليل على ذلك » . فواسها سنشو قدر المستطاع ، ودعاها إلى الإفضاء له بسر أجزائها ، دون خوف ، واعدة بمساعدتها بكل قلبه وبكل الطرق الممكنة .

فقالت أخيرا : « سادتي ، هذه هي الحكاية : منذ عشر سنوات وأبي يحبسني في البيت ، وذلك منذ وفاة أمي . والقداس يحتفل به في البيت في مصلى فاخر ، وطوال هذه المدة لم أر غير الشمس في النهار ، والقمر والنجوم في الليل ، حتى إنني لا أعرف ما هي الشوارع والميادين ، والمعابد ولا الناس ، اللهم إلا أبي وأخي وبدرو بيرث الذي كثيرا ما يأتي إلى بيتنا ، وهذا هو ما دعاني إلى أن أقول عنه إنه أبي ، حتى لا أذكر اسم أبي ، وهذا الحبس وهذا المنع من الخروج ، حتى للذهاب إلى الكنيسة ، يعذبني منذ وقت طويل ، وكنت أود أن أرى الدنيا ، أو على الأقل القرية التي ولدت فيها ، ولم يبد لي أن هذه الرغبة تتنافى مع الحشمة وما ينبغي على الفتاة الطيبة الأعراق . وحين كنت أسمعهم يتكلمون عن مصارعة الثيران ، والكوميديات ، وسائر الملاهي ، كنت أرجو أخي ، وهو يصغرني بعام ، أن يفسر لي بقدر ما يستطيع ، مما كان يلهب رغبتني في مشاهدتها . والخلاصة ، واختصارا لقصة مصائبني ، رجوت وتوسلت إلى أخي (وليتني لم أفعل) - وهنا استأنفت دموعها . - فقال لها ناظر القصر : « سيدتي ، تابعي حديثك بلا خوف ، إنك تثيرين تشوقنا » . فقالت : « لم يبق إلا القليل لأقوله ، وإن كان علي أن أبكي على الكثير ، لأن الرغبات السيئة لا تجر معها غير المتاعب » . وأثر جمال هذه الفتاة في قلب ناظر القصر ، ورفع فانوسه من جديد ليتطلع فيها : فبدا له دموعها كأنها لآلئ شرقية ، أو ندى الحقول ، وود لو كان شقاؤها أقل مما ينبئ عنه تنهداها . وتضايق سنشو من تقطعها المستمر في الكلام ، وقال لها إن الوقت متأخر ، وهو لم يتم بعد جولته . فقالت ، بعد كثير من الزفريات :

- مصيبتني ليست شيئا آخر غير أنني استحلقت أخي أن يعيرني أحد أثوابه ، وأن يأخذني معه ليلا في القرية ، بينما أبي نائم . ومن شدة الحاحي عليه وافق أخيرا ، وأعارني

هذا الثوب ، وأخذ أحد أثوابي ، وكان يناسبه تماما ، لأنه أمرد ، ويمكن أن يعد فتاة جميلة جدا ، وخرجنا هذه الليلة ، منذ ساعة ، وتجولنا في كل القرية بارشاد أحد الخدم . لكن حين فكرنا في العودة إلى البيت شاهدنا عددا كبيرا من الناس : فقال أخي لا بد أن هذه هي الدورية ، وحشني على الجري حتى لا يتعرف من أنا . وسبقني ، وحاولت اللحاق به ، لكن بعد بضع خطوات ، ترنحت وسقطت على الأرض ، فقبض علي واقتادوني أمامكم ، لتظنوا أنني فتاة وقحة .

فقال سنشو : ولم يحدث لك أي شيء آخر ، وهذه الغيرة التي تحدثت عنها أولا ليست السبب في خروجك ؟

فقلت : لا ، يا سيدي ، لم يكن لي رغبة غير أن أرى المعالم ، أو بالأحرى شوارع قرיתי .

وفي هذه اللحظة اقتاد الرماة أخاها ، وكانوا قد قبضوا عليه حين فر ، فأيد رواية أخته . وكان يلبس تنورة ثمينة ، وخمارا (مانتيا) من الداما الأزرق ، المزود بالذهب ، وكان رأسه عاريا ، لا يزينه غير شعره الذي بدا كحلقات من الذهب . فالتحى به سنشو والآخرون جانبا ، واستجوبوه : فكانت أجوبته هي أجوبة أخته نفسها ، لكنها كانت أقل احتجازا ، وأحدث هذا التوافق في الأجوبة ، سرورا كبيرا في نفس ناظر القصر .

وأخيرا قال سنشو : « صديقي ، أنتما مبتدئان : هل كان من الضروري تذارف كل هذه الدموع ونفث كل هذه التنهيدات ، وإبداء كل هذا الارتباك ، من أجل حكاية مثل هذا العبث الصبباني ؟ ألم يكن في وسعكما أن تقولنا نحن فلان وفلانة ، وقد خرجنا من بيت أبينا لمجرد حب الاستطلاع وليس بأي قصد آخر ، إذن لكانت الحكاية انتهت ، ووفرتما كل هذه الزفريات .

فقلت الفتاة : أنت علي حق يا سيدي ، لكن ارتباككي كان شديدا ، حتى لم أستطع حسن التصرف ، كما تعرف .

فقال الحاكم : « لم يضع شيء ، لنستمر في طريقنا ، ولنسلمكما لبيت أبيكما . وكان يجوز أن يحدث لكما ما هو أسوأ . وفي المستقبل لا تكونا طفلين هكذا ، ولا مشتاقين هكذا لرؤية العالم . إن البنت الشريفة تكسر رجلها في البيت ، أما إذا دارت ، فإن المرأة والدجاجة تضعين ، ومن ترغب رغبة شديدة في المشاهدة ترغب رغبة شديدة في أن يشاهدها الناس : ولا أزيد على هذا » .

فشكر الفتى لسنشو لاصطحبهما إلى البيت ، ولم يكن البيت بعيدا . ووصلا ، وشد

الفتى جرسا صغيرا ، فظهرت خادمة ، ودخلا ، تاركين الناس في اعجاب شديد بجمالهما ولطافتهما ، واستطلاعهما ، الذي نسب إلى شبابهما .
 وناظر القصر ، وقد تأثر تأثرا بالغا ، فكر في أن يطلب البنت من أبيها زوجة له ، مقتنعا بأنه لن يرفض ، لأنه من رجال الدوق . وفكر سنشو في مشروع تزويج الفتى بابنته سنتشيكا . ثم أجل المسألة إلى وقت آخر ، مقتنعا بأن ابنة الحاكم لا يمكن أن يرفضها أحد . والخلاصة أن جولة هذه الليلة انتهت ، وانتهت بعد ذلك بيومين حكومة سنشو^(١) مما قضى على مشروعاته ، كما سنرى بعد حين .

(١) في نهاية الفصل ٥٢ يرد أن حكومة سنشو استمرت عشرة أيام ، لكنها لا بد أن تزيد على ذلك ، إذا حسبنا زمن الأحداث التي وقعت لدون كيخوته في نفس مدة هذه الحكومة ، إذ استغرقت ١٤ يوما ، ولهذا يقول كليمنتين أن كل شيء في غاية الاضطراب فيما يتعلق بالمدة التي بقيتها حكومة سنشو .

الفصل الخمسون

حيث يبين من كانوا السحرة الذين جلدوا السيدة رودريجت
وضربوا دون كيخوته، وكيف استقبل الغلام حامل الرسالة
الى تريزة بنا زوجة سنشو بنتا

يخبرنا سيدي حامد ، وهو فاحص دقيق عن تفاصيل هذا التاريخ الصادق ، أنه في اللحظة التي خرجت فيها السيدة رودريجت من غرفتها قاصدة دون كيخوته ، أدركت ذلك وصيفة أخرى تنام معها ، ولما كانت كل الوصيفات متشوقات إلى أن يعرفن ويرين ويسمعن فقد تبعنها باحتياط بالغ حتى أن الطيبة رودريجت لم تفتن لها . فلما رأتها تدخل في غرفة دون كيخوته ، ذهبت - عملا بالعادة الموجودة في طباع كل الوصيفات وهن كلهن مخبرات - بسرعة لخبار الدوقة ، فأنبأت هذه الدوق ، واستأذنته في الذهاب ، مع التسيدورا ، ل ترى ماذا تريد السيدة رودريجت من دون كيخوته . ووافق الدوق . فخرجت السيدتان ، ومشتا مسترقتين الخطى كالذئب إلى أن بلغتا باب غرفة الفارس ، ووقفتا بالقرب بحيث سمعتا عن سر نافورتيها^(١) ، لم تستطع الاحتمال وكذلك التسيدورا فاستبد بهما الغضب والرغبة في الانتقام ، ودخلتا فجأة الغرفة ، وضربتا دون كيخوته والوصيفة كما رأينا . لأنه لا شيء يهين المرأة ويثيرها إلى الانتقام أكثر من الإساءة إلى جمالها ، وإلى الفكرة الحسنة التي لديها عن نفسها . ثم روت الدوقة للدوق ما حدث ، فاغتبط أيما اغتباط . وأرادت الدوقة أن تطيل اللذة التي وجدتتها في التمويه على دون كيخوته ، فأرسلت إلى تريزة بنتا الغلام الذي كان قد لعب دور دلثيا في منظر رفع السحر ، تريزة التي أنست المشاغل الكبرى سنشو إياها ، وحمل الغلام رسالة الزوج ، ورسالة من الدوقة ، وعقدا جميلا من المرجان .

ويقول المؤرخ إن هذا الغلام كان ذكيا بارعا لا يسعى إلا إلى إمتاع أسياده . فلما

(١) في النص الاسباني يتلاعب المؤلف بكلمة «نافورتيها» ، والترجمة الحرفية هي : «ولما سمعت الدوقة أن السيدة رودريجت قد أنفت في الشارع بارنخويث نوافيرها...» . وأرنخويث هي المقر الملكي الذي كان فيه قصر الملك تحيط به الحدائق الغناء المملوءة بالنافورات الرائعة ، مثل قصر فرساي .

وصل إلى القرية ، شاهد عند مدخلها عددا كبيرا من النساء يغسلن الملابس في جدول ماء ، فاقترب منهن ، وسأل إحداهن هل يوجد في هذه القرية فارس يدعى دون كيخوته دلا منتشا . وعند هذا السؤال نهضت فتاة كانت تغسل ، وقالت : « سيدي تريزة هذه هي أمي ، وسنشو أبي ، والفارس الذي تتكلم عنه هو مولانا » . فقال الغلام : « ما دام الأمر هكذا ، فدليني ، من فضلك ، على أمك . فإني أتيت لها برسالة وهدية من زوجها » . - فقالت الفتاة : « سيكون هذا مصدر سرور بالغ لها » وكانت سنها قرابة الرابعة عشرة . وتركت لإحدى صواحبها الثوب الذي كانت تغسله ، وقبل أن تأخذ الفسحة الكافية من الوقت لتلبس حذاءها وقبعتها ، وثبت أمام الفرس ، وقالت للغلام : « تعال يا سيدي ، إن بيتنا عند مدخل القرية ، وأمي في انشغال شديد لأنها لم تتلق أنباء من السيد والدي » . - فقال الغلام : « لقد أتيتها بأنباء سارة ، تجعلها تحمد الله » . واقتادت سنتشيكال الغلام ، وهي تشب ، وتقفز ، وتعدو ، ولما بلغت باب بيتها صاحت : « تعالي ، تعالي ، يا أمي ها هو سيد يحمل رسالة وأشياء أخرى من أبي العزيز » وعند سماع هذه الصيحات خرجت تريزة من البيت ، وهي تحمل حزمة من المشاقة^(١) تغزلها ، وكانت تلبس فستانا رمادياً قصيراً حتى ليدو وكأنه قطع من قدام ، وكورسيه من النوع نفسه وصدرة . ولم تكن عجوزة جدا ، وإن بدا عليها أنها تجاوزت الأربعين ، لكنها كانت قوية ، عصبية ممتلئة . فقالت : « ماذا يا بنيتي ؟ من هذا السيد ؟ » - فأجاب الغلام : « خادمك يا سيدة دونيا تريزة پنشا » . وفي الحال نزل عن فرسه وجثا أمامها بخضوع وقال لها « اسمحي لي يا سيدتي ، أن أقبل الزوجة الشرعية للسيد دون سنشو پنشا ، حاكم جزيرة برتريا » . - فقالت « آه ، يا سيدي ، ماذا تريد أن تفعل ؟ أنا لست امرأة في البلاط ، بل فلاحة مسكينة ، ابنة عامل باليومية ، وزوجة سائس جوال لا زوجة حاكم » . - فأجاب الغلام : « سيدتي اسمحي لي أنت حقا الزوجة الكفء ، لحاكم كفء جدا ، والدليل على ما أقوله ، هو هذه الرسالة وهذه الهدية . وفي الوقت نفسه ، وضع في رقبتها عقد المرجان الذي كان طرفاه من الذهب ، وقدم إليها رسالة زوجها ، ثم رسالة من الدوقة . فارتبكت تريزة كل الارتباك ، وكذلك بنتها ، وهذه صاحت قائلة : « أموت ، إذا لم يكن ذلك من عند مولاي دون كيخوته ، ولا بد أنه أعطى أبي الحكومة أو الكونتيسة التي طالما وعده بها مرارا وتكرارا » فأجاب الغلام : « نعم ، هذا صحيح ، فإنه تكريما للسيد دون كيخوته عين أبوك حاكما على جزيرة برتريا ، كما سترين من هذه

(١) المشاقة (بضم الميم) : ما سقط من الشعر (يفتح العين) أو الكتان أو الحرير عند المشط ، أو ما طار ، أو ما خلص . وقيل : المشاقة ما يبقى من الكتان بعد المشق ، وهو أن يجذب في مشقه - وهي هي ، كالمشط - حتى يخلص خالصة .

الرسالة» . «أوه ، من فضلك يا سيدي الفاضل أن تقرأها لي - هكذا قالت تريزة - لأنني أعرف كيف أغزل ، لكنني لا أعرف القراءة» . - فقالت سنتشيك : «ولا أنا أيضا ، لكن انتظر ، سأبحث عن واحد يقرأها ، إما القسيس أو حامل البكالوريا سمسون كرسكو . وسيأتين عن طيب خاطر ليعرفا أنباء عن أبي» . - فقال الغلام : «لا حاجة إلى البحث عن أحد لأنني إذا كنت لا أعرف الغزل ، فأنا أعرف القراءة» وقرأ الرسالة ، من أولها إلى آخرها ، رسالة سنشو ، التي أوردناها من قبل ، ثم رسالة الدوقة ، وهذا نصها :

«عزيزتي تريزة! إن الصفات الحميدة التي يتحلى بها زوجك سنشو وما يتميز به من جودة الرأي ، قد حملتني على أن أطلب له من زوجي الدوق أن يمنحه حكومة إحدى الجزر التي يملكها . وقد علمت أنه يحكمها كالنسر ، وهذا أمر يبعث في نفسي بالغ الرضا ، وكذلك في نفس الدوق . واني لأشكر للسماء أنني لم أخطئ في هذا الاختيار ، إذ عليك أن تعلمي أن من الصعب العثور على حاكم صالح ، والله يعطيني من الخير بقدر ما يحسن سنشو الحكم في جزيرته . وأرسل إليك يا صديقتي العزيزة ، عقدا من المرجان طرفاه من الذهب . وكنت أود لو كان من اللآلئ الشرقية ، ولكن المثل يقول إن الذي يعطيك عظمة لا يريد موتك^(١) . وسيأتي وقت يعرف كل منا الآخر ويزوره . الله يعلم متى وأحيي ابنتك سنتشيك . وخبريها بالنيابة عني أنني أريد أن أزوجه زوجا عظيما في الوقت الذي تكون هي فيه أبعد ما تكون عن التفكير في ذلك وقد قيل لي إن في نواحيكم ثمار بلوط حلوة . فابعثي إلي بعشرين منها وسأقدرها ، لأنها منك أنت . اكتبي إلي بإسهاب ، وحديثني عن نفسك وحالتك ، وإذا احتجت إلى شيء فما عليك إلا أن تطلبي ، تنالي ، حفظك الله من قصري.....

صديقتك التي تحبك كثيرا

الدوقة

فصاحت تريزة : «آه! يا لها من سيدة طيبة ممتازة لطيفة! بودي أن أدفن مع مثيلاتها ، لا مع نبيلات قريتنا اللواتي يحسبن ، لأنهن نبيلات ، أن الريح لا تجرؤ على أن تمسهن ، ويذهبن إلى الكنيسة بأبهة وكأنهن ملكات ، ويعتقدن أنهن يتدنسن إذا تطلعن إلى فلاحه ، وها هي ذي هذه السيدة الطيبة ، وهي فوق هذا دوقة ، تدعوني بلقب عزيزتي ، وتعاملني

(١) أي أن الهدايا الصغيرة عربون الصداقة .

كما لو كنت مساوية لها : جعلني الله أراها رفيعة المقام عالية المكانة مثل أعلى برج في إقليم المنتشا! أما عن ثمار البلوط يا سيدي العزيز ، فسأبعث إليها بكيلة من أجود الأنواع ، لكن يا سنتشيكا اهتمي الآن بالاحتفاء بهذا السيد ، واهتمي بفرسه ، واذهبي لاحضار بيض من الزريبة ، وشريحة من الجامبون ، ولنعامه كأمير ، إن حسن طلعه والأنباء السارة التي أتانا بها تجعله يستحق كل هذا . وفي تلك الأثناء أذهب أنا لقص هذه الأخبار السارة على الجيران ، والقسيس ، والأسطى نقولا الحلاق ، وكلهم أصدقاء أعزاء لأبيك » .
فأجابت سنتشيكا : نعم ، يا أمي ، لكنك ستعطيني نصف هذا العقد ، فأنا لا أعتقد أن السيدة الدوقة من السوء بحيث ترسله لك وحدك .

فأجابت : هو لك كله يا بنتي ، لكن دعيني ألبسه بضعة أيام ، إنه يسرني حقا .
فقال الغلام : وستزدادين سرورا حين تشاهدين ما عندي في حامل المعطف : إنه ثوب من الجوخ الرقيق جدا لم يلبسه الحاكم غير يوم واحد ، وهو يرسله إلى ابنته .
فقالت سنتشيكا : أطال الله في عمره ألف عام ، هو ومن أحضره!

وخرجت تريزة من البيت وفي عنقها العقد ، وفي يدها الرسائل ، وهي تضرب عليها بأصابعها كما لو كانت طبلية . ولقيت القسيس وسمسون ، وأخذت تقفز ، وقالت لهما :
« الآن لم يعد لي أقارب فقراء حقا ، ونحن الآن في الحكم . فلتأت أكبر متغامزة في القرية ولتقترب مني ، وأنا أريها من هي » .

فقالا لها : ما هذا يا تريزة ؟ أي حماقة تروينها لنا ؟ ما هذه الأوراق ؟
فقالت : ليس هناك أية حماقة غير أن هذه رسالة من الدوقة ورسالة من الحاكم ، وأن العقد الذي في رقبتي من فاخر المرجان ، وفيه حبات كبيرة من خالص الذهب ، وإنني حاكمة .

فقالا : كان الله في العون يا تريزه ، نحن لا نفهمك ولا نعلم ما تتصدين .
فقالت : « ستخبركم هذه » - وأعطتهما الرسالتين . فأخذا في قراءتهما ، ثم تلفت كل منهما للآخر ، وهو لا يدري ماذا يقول . فسأل حامل البكالوريا تريزة من أتاها بهاتين الرسالتين . فقالت : « تعالوا إلى البيت ، وسترون الرسول : إنه شاب جميل كالنهار ، وقد أتاني بأشياء أخرى » . وأخذ القسيس العقد ، وقلبه ، وأعاد تقليبه ، ولما رأى المرجان من نوع ممتاز قال : « بحق الزي الذي أردتيه ، لا أدري ماذا أقول ولا ما أرى في هاتين الرسالتين وهذه الهدايا : من ناحية أنا أرى وألمس هذا المرجان الممتاز فعلا ، ومن ناحية أخرى أقرأ أن دوقة تطلب عشرين من ثمار البلوط » . - فقال كرسكو " سلم بكل هذا إذا

استطعت ، لكن لنذهب لنرى حامل هذه الرسائل ، فربما فسر لنا هذه الصعوبات . فتبعنا تريزة ، ووجدنا الغلام يغربل شوفانا لفرسه ، وسنتشيكنا مشغولة بتقطيع شرائح الجامبون لعمل عجة بيض للغلام . ودهشا من حسن طلعة هذا الغلام وزيه ، وحياء بأدب ، وسأله كرسكو عن أخبار دون كيخوته وسنشو ، وأضاف أنهما منذ أن قرآ الرسالتين لما يستطيعان أن يفهما ما هو المقصود بحكومة سنشو هذه ، خصوصا وجزر البحر الأبيض المتوسط كلها تقريبا ملك صاحب الجلالة » .

فأجاب الغلام : « من المؤكد أن السيد سنشو حاكم حقا وفعلا ، أما أن تكون جزيرة ، أو لا ، ما هو حاكم عليه فلا أقول لكما شيئا عن هذا ، يكفي أن أقرر أنه من ناحية يسكنها أكثر من ألفي نسمة . أما عن ثمار البلوط ، فهذا أمر لا ينبغي أن يثير دهشتكم ، فإن السيدة الدوقة من اللطف والبرقة بحيث لا تترفع عن الإرسال في طلب ثمار بلوط من فلاحه ، ولقد شاهدتها مرارا تستعير مشطا من إحدى جاراتها . وعليكم أن تعلموا أن سيدات أرغون ، وإن كن من سلالة شرف فإنهن لسن متكبرات مترفات مثل سيدات قشتالة ، بل يعاملن الناس بأدب جم » . وفي هذه اللحظة ظهرت سنتشيكنا وفي ميدعتها بيض كثير ، وسألت الغلام . هل أبوها يلبس سروايل واسعة منذ أن صار حاكما . فقال الغلام : « لم أتبّه لهذا ، ولكن لا بد أن الأمر هكذا » . - فقالت : « يا إلهي ! كم أود أن أراه منذ أن ولدت دعوت السماء أن تحقق لي هذا السرور » . - فقال الغلام : « ستظفرين به ، بحق الله لو دامت الحكومة شهرين فسنراه وعلى وجهه نقاب » . فأدرك القسيس والحقاق أن الغلام يمزح ، لكن جمال العقد وحلة الصيد اللذين ارتتهما لهما تريزة حيرهما . وضحكا أكثر حين قالت تريزة : « سيدي القسيس ، ألا تعرف أحدا ذاهبا إلى مدريد أو طليطلة ؟ أريد أن أكلفه بأن يشتري لي تنورة خضراء حسب أحدث الأزياء ومن أجود التفصيلات ، لأنني في الحق أريد أن أشرف حكومة زوجي ، قدر المستطاع ، وإذا غضبت أشتري عربة وأذهب إلى البلاط ، فإن زوجة الحاكم يمكن أن تتخذ هذه المواقف » . - فقالت سنتشيكنا : « أوه يا ماما ، الله يجعل هذا اليوم قبل غدا وحينما يقول الذين يرونني في العربة مع أمي » ، آه ، انظروا فلانة ، انها بنت آكل ثوم ، وها هي ذي تعطي نفسها أهمية وسمت الباباة ! لكن ليذهبوا في الطين ، ما دمت أنا أركب عربة ، ولا تمس قدماي الأرض . لعنة الله على السنة السوء ! ليضحك الناس كما يشاؤون ، ما دامت أقدامي دافئة وأنا مستريحة . ألسنت على حق يا أمي ؟ . - فقالت تريزه : « نعم يا بنيتي وسنشو الطيب تنبأ لي بكل هذه الحظوظ السعيدة ، وبأعظم منها ، حتى تريني كوثيسة . إن الأمور بدأت تسير عجلتها ، وكثيرا ما

سمعت أباك يقول ، وهو كما تعلمين ، أبو الأمثال : إذا أعطوك البقرة ، اجر وراء الحبل . إذا أعطوك حكومة ، خذها ؛ أو كوتيسة ، فاقبض عليها ، وإذا أهداك أحد شيئا ، فاقبله ؛ وإلا فتم وأغلق بابك دون الحظ السعيد الذي طرقة » . - فقالت سنتشيكا : « وماذا يهمني إذا قالوا ، حين يروني فخورا فيأشة ، لقد رأينا الكلب عاريا والآن يحتقر صاحبه » . - وقال القسيس : « الحق أن كل أسرة ينشأ جاءت إلى الدنيا ومع كل من أفرادها كيس من الأمثال في جسمه ، لم أر منهم أحدا لا يلقي الأمثال في كل ساعة وفي كل مناسبة » . - فقال الغلام : « هذا صحيح ، إن السيد الحاكم يذكر أمثالا في كل لحظة ، ومع أنها لا تأتي دائما مناسبة ، فإن سيدي الدوق وسيدتي الدوقة يسران منها كثيرا » . - فقال كرسكو : « لكن يا سيدي هل كل ما تقوله عن حكومة سنشو صحيح ؟ وهل توجد دوقة في العالم تكتلب لزوجة سنشو وترسل إليها هدايا ؟ نحن لا نستطيع أن نصدق هذا ، على الرغم من أننا قرأنا الرسائلتين ولمسنا الهدايا ، ونحن نعتقد أن هذه مغامرة من تلك المغامرات التي يعتد مواطننا دون كيخوته أنها تحدث بالسحر » ونحن نريد أن نلمسك ، ونجسك لنرى هل أنت رسول حقيقي من لحم وعظم ، أو شبح خيالي » . - فقال الغلام : « كل ما أستطيع أن أقوله لكما ، هو أنني رسول حقا وفعلا ، وأن السيد سنشو حاكم فعلا ، وأن الدوق والدوقة ، سيديي منحاه الحكم ، وهو يتصرف في حكومته ، حسب ما سمعت ، بحكمة عجيبة ؛ فإن كان في هذا كله سحر ، فالأمر موكول إليكم ، فبحق أبوي ولا يزالان يعيشان وأنا أحبهما جدا ، لا أعرف شيئا آخر » . - فقال حامل البكالوريا : « هذا جائز ، ولكن أوغسطين يشك » . - فقال الغلام : « ليشك من شاء ، ولكن الحقيقة هي كما قلتها ، والحقيقة تطفو كالزيت على الماء . وعلى كل حال صدقوا الأعمال ، لا الأقوال ، وليأت أحدكما معي ، وسيرى بعينه ما ترفض أذناه أن تصدقه » . - فقالت سنتشيكا : « أنا التي سأسافر معك ، خذني على خلف فرسك يا سيدي ، إنني مشتاقة جدا إلى رؤية أبي » . - فقال الغلام : « إن بنات الحاكم لا يمكن أن يسافرن هكذا وحدهن في الطرقات العامة ، دون أن تصحبهن المحفات والعربات وعدد كبير من الناس » . - فقالت سنتشيكا : « لكن يستوي عندي أن أذهب على حمار أو في عربة ؛ لقد وجدت سيدتك الصغيرة الصالحة » . - فقالت تريزة : « اسكتي ، يا بنت يا صغيرة ، أنت لا تعرفين ماذا تقولين . هذا السيد على حق ، والناس على حسب أزمائهم . حينما كان أبوك هو سنشو ، كنت أنت سنتشيكا ، والان وقد صار حاكما ، فقد صرت أنت على الأقل آنسة » . - فقال الغلام : « إن السيدة تريزة تقول أكثر مما في فكرها ؛ لكن هاتوا لي طعاما ، ولنسرع ، لأنني أريد العودة في هذا اليوم بعد

الظهر» . فقال القسيس : «شرف عندي أنا ولو أنك لن تصيب الكثير ؛ إن السيدة تريزة عندها إرادة خيرة أكثر مما عندها الوسائل لاستضافة ضيف مثلك» . فتمنع الغلام طويلا ، ثم وافق بعد لأي ، واغتنب القسيس من قبوله للدعوة حتى يحدثه عن دون كيخوته ومغامراته . وتطوع حامل البكالوريا أن يكتب لتريزة الرسائل التي تريدها ، لكنها رفضت لأنها تعرف أنه مازح مكرر ؛ وفضلت أن تدفع مبلغا من المال إلي راهب يعرف الكتابة ، ليتولى ذلك ، فأملت عليه رسالتين هي بنفسها ، إحداهما للدوقة والأخرى لزوجها ، والرسالتان ليستا أسوأ ما يقرأ في هذا التاريخ (القصة) العظيم ، كما سنرى بعد حين .

الفصل الحادي والخمسون

في تقدم حكومة سنشو وحوادث أخرى ليست أقل أهمية

وبزغ النهار التالي لليلة التي قام فيها سنشو بجولته . وأمضى رئيس الطهاة هذه الليلة دون أن ينام ، لأن جمال الفتاة المتخفية قد استولى على أفكاره . ومن ناحية كان ناظر القصر مشغولا بالكتابة إلى الدوق عن أعمال سنشو الذي كانت أقواله وأفعاله مزيجا عجيبا من الحكمة والسذاجة . ونهض الحاكم من نومه ، وبأمر من الدكتور بدرو رثيو أحضروا له إفطارا مؤلفا من قليل من المربي وأربع جرعات من الماء العذب ، ولكنه كان يفضل قطعة من الخبز وعنقودا من العنب ، لكنه لما اضطر إلى الخضوع ، قنع بذلك ، مع شديد أسفه وبالرغم من ملاحظات معدته . وجعله رثيو يعتقد أن الأطعمة الفاخرة ، إذا تناولت بكمية قليلة ، فإنها تهيج الأرواح وتوقظها ، وأن هذا هو الطعام الأنسب من غيره للأشخاص المكلفين بوظائف مهمة خطيرة يحتاجون فيها إلى قوة الروح أكثر من حاجتهم إلى قوة البدن . وبواسطة هذه السفسطات الجميلة كان سنشو يتصور جوعا ، حتى إنه كان في قلبه يكره الحكومة ومن منحه إياها . وفي هذه الحال الأسيفة أخذ يدير شئون الحكم والقضاء . وكان أول من حضر للقضاء والخصومة أجنبي قال له في وسط الجلسة : « تفضل يا سيدي بإيلاني كل انتباهك ، لأن القضية التي أعرضها عليك مهمة وصعبة . إن نهرا كبيرا يجري في بلد ما ، ويفصل بين أملاك مالك واحد . وعلى هذا النهر جسر في نهايته مشنقة وقاعة محكمة ، فيها يجلس عادة أربعة قضاة لمراعاة تنفيذ القانون الذي وضعه مالك الناحية والنهر والجسر . وهذا القانون يقرر : « كل من يمر على هذا الجسر عليه أن يقسم ويصرح إلى أي مكان يذهب وما غرضه : فإن قال الحقيقة ، سمح له بالمرور ، وإذا كذب ، علق فوراً في هذه المشنقة^(١) » . ومنذ وضع

(١) هذه الحجة من الألفاظ التي اقترحها سكستوس امبريكوس في كتابه « الأوصاف المؤثرة » .

هذا القانون الشديد حضر إلى الجسر كثير من الناس ، وتبين أن تصريحاتهم صحيحة ، فتركهم القضاة يمرون ، ولكن في آخر مرة جاء شخص وصرح بأنه يريد أن يشنق نفسه على المشنقة الموضوعة علي الجسر ، وليس له أي غرض آخر . فاحتار القضاة أشد الاحتيار ، وقالوا : لو تركنا هذا الشخص يمر فسينتج عن هذا أنه قد كذب ، وتبعاً لذلك فطبقاً للقانون ينبغي أن يشنق ، وإذا أمرنا بشنقه ، فإنه سيكون قد قال الحق ، وطبقاً للقانون له أن يمر . وقد جئت لأسألك يا سيدي ماذا ينبغي على هؤلاء القضاة أن يفعلوه ، لأنهم لا يعرفون ماذا يقررون . ولما كانوا قد سمعوا تمجيذا لحكمتك وحسن تمييزك وفطانتك ، فقد بعثوا بي إليك لأرجوك أن تساعدني بنصائحك في هذه المسألة العسيرة الحل » .

فقال سنشو : « استسمح هؤلاء السادة القضاة أن يعذروني ، فأنا رجل أمتاز بالبلادة لا بالفطنة ، ومع ذلك فأعد ذكر مسألتك ، حتى أعياها تماماً ، ولربما وصلت إلى المطلوب . » - فكرر الرجل ما قاله . فقال سنشو : « يبدو لي أن كلمتين تكفيان لايضاح المسألة . هذا الشخص يقسم بأنه ذاهب ليشنق نفسه على المشنقة ، فإن علق عليها ، فسيكون قد قال الحقيقة ، وسيكون موته ظلماً ، وإذا لم يشنق ، فسيكون قد كذب ، ويستحق الإعدام . » - فقال الرسول : « نعم ، هذه هي القضية ، القضية واضحة تماماً » . - فاستمر سنشو يقول : « إذن فليسمح بالمرور للجزء من هذا الرجل الذي قال الحقيقة ، ويشنق الجزء الذي كذب ، وبهذه الطريقة ينفذ القانون حرفياً . » - فقال الرسول : « لكن يا سيدي الحاكم لا بد إذن من إمكان شطر جسمه إلى شطرين ، أحدهما كاذب والآخر صادق ، ولو قطع جسمه إلى جزئين ، فلا بد أن يموت ، وفي هذه الحالة لن يراعى القانون في أية نقطة من نقاطه . بينما ينبغي مراعاة القانون . » - فقال سنشو : « هذا ما أنتظرته منك أيها الرجل . فإما أني أبله ، أو الرجل ذو المشنقة عنده أسباب للموت بقدر ما عنده من أسباب للحياة ، والحقيقة تنجيه ، بينما الكذب يدينه . ولما كان الأمر هكذا ، فقل للذين أرسلوك إلى أنه ما دامت أسباب الإدانة والبراءة متكافئة ومن الوزن نفسه ، فليتركوا الرجل يمر بحرية ، لأن المرء يمدح أكثر إذا فعل الخير منه إذا فعل الشر . ولو كنت أعرف التوقيع ، لوقعت على ما أقوله لك . على أنني لم أسترشد بنفسي فيما قررت ، بل تذكرت قاعدة ذكرها لي ناس منهم مولاي دون كيوخوته ، في الليلة التي سبقت رحلتي إلى هذه الجزيرة ، فقد قال لي إنه حين تكون العدالة موضع شك ، فعلى أن انحاز إلى صف الرحمة والرفقة . وقد أذن الله لي أن أتذكر هذا الرأي المناسب جداً في هذا المقام » .

فقال ناظر القصر : هذا صحيح ، وإني أقر بأن ليكرجس نفسه ، وهو الذي سن

الشرائع لأهل اسبرطة ، ما كان يستطيع أن يصدر حكما أحسن من الحكم الذي أصدره العظيم سنشو پنثا . ولترفع جلسة الصباح . وسأصدر أمرا بأن يقدم إلى السيد الحاكم الطعام الذي يهواه .

فقال سنشو : هذا كل ما أطلبه ، ولتسر السفينة باسم الله مجراها ، أعطوني طعاما ، ولتنهمر القضايا والشكوك على ومن حولي كالمطر ، فسأقدر على ايضاحها .

ونفذ ناظر القصر وعده ، إذ عز على ضميره أن يدع حاكما حكيما كهذا يموت جوعا ، ثم إنه فكر في أن ينفذ في هذه الليلة نفسها آخر مزحة أمر بتدبيرها لسنشو .

ولما تغدى غداء عظيما وافرا ، رغم نصائح الدكتور ترتيافويرا ، دخل ، حين رفع المائدة ، ساع يحمل رسالة من دون كيخوته إلى الحاكم ، فأمر سنشو السكرتير بأن يقرأها ، وإذا لم يجد فيها شيئا تستحق الكتمان ، فليقرأها بصوت عال . وأطاع السكرتير وقال بعد ذلك : « ما في رسالة السيد دون كيخوته إلى سعادتك يمكن أن يقرأ بصوت عال ، لأن مضمونها يستحق أن يكتب بحروف من ذهب ، وها هي ذي »

رسالة دون كيخوته دلا منتشا إلى سنشو پنثا

حاكم جزيرة برتريا

« عزيزي سنشو

» في الوقت الذي كنت أخاف أن ألتقى فيه أخبارا عن حماقتك أو إهمالك لا يصلني إلا أنباء حكمتك : وهو ما أحمد الله عليه ، وهو الذي يستطيع أن يرقى بالفقراء من الحضيض ، ويصنع من المغفلين قوما عاقلين . ولقد قيل لي إنك تحكم بجلال الإنسان ، ولكنك تنزل إلى مرتبة الحيوان بتواضعك الشديد . وأنبهك ، يا ولدي ، أنه لكي يحتفظ بمهابة منصب ، يحتاج الأمر مرارا إلى المضي ضد تواضع القلب ، واللياقة تقتضي من أولئك المكلفين بوظائف مهمة أن يمثلوا لمهابة وظيفتهم ، لا للدور الضئيل الذي عودتهم عليه خسارة أصولهم . فكن دائما حسن الملبس : فإن الود المتقن الصنع لا يشبه الود . ولست أقصد من ذلك أن تغطي نفسك بالجواهر والحلي والثياب الفاخرة ، ولا وأنت القاضي ترتدي زي الجندي ، ولكنني أريد منك أن تلبس الثياب التي تتناسب مع مكاتك ، وأن تكون دائما نظيفا معتنيا بنفسك .

« ولكي تنال محبة الشعوب التي تحكمها ، عليك بأمرين رئيسيين . الأول أن تكون لطيفا مع كل الناس ، كما قلت لك من قبل ، والثاني أن تعمل على أن تكون مواد التمويل

دائما موفورة : لأنه لا شيء يضايق المسكين أكثر من المجاعة والجوع والنقص . ولا تصدر قرارات كثيرة ، أو على الأقل راح أن تكون جيدة ، وخصوصا أن تراعي ، لأن القوانين التي لا تراعى هي كأن لم توجد ، وتدل على أن الأمير الذي كانت عنده الحكمة والسلطة لإصدارها ، قد أعوزته الشجاعة لحمل الناس على مراعاتها وتنفيذها ؛ والقوانين التي تردع ولا تستعمل ، هي مثل الجذع الذي جعل ملكا على الضفادع ؛ فقد أخافها أولا ، ومع مرور الزمن احتقروه وقفزوا عليه .

« كن حاميا للفضائل ، وبلاء على الرذائل . ولا تكن دائما قاسيا ، ولا دائما متساهلا ، لكن اتخذ بين ذلك سبيلا ؛ فالحكمة في هذا . فتش السجون ، والمجازر والأسواق العامة ؛ فوجود الحاكم في هذه الأماكن أمر في غاية الأهمية . وواس المسجونين الذين ينتظرون الحكم السريع ؛ وكن رهبة للجزارين وكل تجار السوق الذي يبيعون بموازين زائفة .

« وحتى لو كنت كذلك ، وهو ما لا أعتقد ، فلا تظهر بمظهر الجشع ، ولا الشره ، ولا المتهالك على النساء ؛ لأنه لو عرفت رعيته هذا الضعف فيك ، لنصبوا لك الحبال في هذه الناحية وتسببوا في ضياعك .

زن وأعد وزن النصائح التي كتبها لك قبل أن ترحل لتولي الحكم ؛ فإن اتبعتها ساعدتك وخففت عنك المشقات والصعوبات التي تعترض الحكام في كل خطوة .

« أكتب إلى رؤسائك مرتين أنك تعترف بالجميل ؛ إن الجود ابن الكبرياء ، ومن أظفح الخطايا التي يمكن ارتكابها ؛ ومن يقدر النعمة حق قدرها ، يدل على أنه سيشكر نعمة الله الذي يسبغ كل يوم عليه آلاف النعم .

« إن السيدة الدوقة قد بعثت إلى زوجتك تريزة برسول ومعه حلته وهدية أخرى ؛ ونحن في انتظار الرد في كل لحظة .

« ولقد تعذبت بعض العذاب من آثار خدوش حدثت في أنفي ؛ لكنها ذهبت ؛ وإذا كان هناك سحرة يضطهدونني ، فثم آخرون يدافعون عني .

« لاحظ جيدا هل ناظر القصر الموجود معك له نسبة إلى الكونتيسة تريفالدي ، كما توجست أنت ، وأخبرني عن كل ما يقع لك ، لأن المسافة التي تفصل بيننا ليست كبيرة ، خصوصا وقد قررت أن أترك هذه الحياة المتبلة بعد قليل ، فأنا لم أولد لهذا . وقد وقعت لي مغامرة أليمة ستفقدني ، فيما أظن ، رضا السادة الذين أعيش عندهم ؛ لكن في نهاية الأمر هذا لا يهمني كثيرا ؛ فأنا أشد حرصا على مهنتي مني على إرضاء أشخاصهم ؛

افلاطون صديق ، ولكن الحق أصدق منه . وأورد لك هذه العبارة بنصها اللاتيني ، لأنني أظن أنك تعلمت اللاتينية منذ أن أصبحت حاكما . حفظك الله من كل سوء!

صديقك

«دون كيخوته دلا منتشا»

استمع سنشو إلى قراءة هذه الرسالة باهتمام كبير ، وكل الذين سمعوها وجدوها حكيمة جدا . ونهض من المائدة ، ونادى سكرتيره ، واختلى به ليجيب فوراً على رسالة دون كيخوته ، فأمره بأن يكتب ما سيمليه ، دون أن ينقص أو يضيف شيئا . وهذه هي الرسالة ، رسالة سنشو پنثا إلى دون كيخوته دلا منتشا

«إن ما يقتضيه منصبى من شغل قد جعلني لا أجد الفراغ لحك رأسي ولا لقرض أظافري ، ولهذا نمت كما شاء الله . أقول لك هذا ، يا مولاي العزيز ، حتى لا تغضب مني لأنني لم أخبرك حتى الآن بحال حكومتي ، التي فيها أحتمل من الجوع بقدر ما احتملت أثناء تجوالنا في الغابات والقفار .

«ولقد كتب إلي الدوق ، سيدي ، منذ أيام ، ليخبرني أنه دخل الجزيرة بعض الجواسيس بقصد اشتهالي . وحتى الآن لم أكتشف وجود أحد ، اللهم إلا طبيب مستخدم في هذه الجزيرة من أجل إهلاك كل من يولونهم من الحكام ، ويدعى بدور رثيو ، ومن مواليد ترتيافويرا . فانظر أي شخص هذا ، وهل ليس عندي الحق في أن أخشى الموت على يديه . وهذا الدكتور يقول هو نفسه إنه لا يشفي الأمراض حين تصيب الأشخاص ، ولكنه بقي منها ويمنعها من المجيء ، وأدويته هي الحمية ، ثم الحمية ، إلى أن لا يكون على الناس غير الجلد على العظام ، كما لو لم يكن النحول مرضاً أشد خطراً من الحمى . والخلاصة أنه يقتلني بالجوع ويميتني بالحنق والغيب : وأنا الذي اعتقدت أنني جئت إلى هذه الحكومة الجميلة من أجل أن أكل الساخن ، وأشرب البارد العذب ، وأتقلب على ريش النعام والملايات الهولندية ، هكذا أتقشف كالراهب ، ولما كان هذا على غير إرادتي ، فإني أعتقد أن الشيطان سيطوح بي .

«وحتى الآن لم أفرض أية ضريبة ، ولم أتقاض أي مكسب ، ولست أدري من أين حدث هذا ، لأنهم قالوا لي هنا إن الحكام الذين يأتون إلى هذه الجزيرة يقبضون مبالغ كبيرة من المال ، قبل بدء عملهم في مناصبهم يتقاضونها من الأهالي الذين يعطونها له أو يقرضونها إياها ، وإن هذه هي عادة كل الحكام .

« وفي أثناء جولة تفتيشية في الليل لقيت فتاة جميلة تلبس زي الرجال ، وأخاها وهو يلبس زي امرأة ؛ وقد صار رئيس طهاتي عاشقاً للفتاة ، وفكر في ذهنه أن يتزوجها ، كما يقول ، وعلينا أن نتحدث مع أبيهما اليوم ، وهو نبيل ورع ، اسمه ديبجو دي لا يانا » .

« وقد زرت الأسواق كما نصحتني ، ووجدت بائعة تباع البندق الجديد ، واكتشفت أنها تخلطه بندق قديم فارغ متعفن ؛ وقد صادرت البضاعة كلها لصالح أبناء المذهب ، وسيعرفون جيداً كيف يميزون بينها ، وحكمت عليها بعدم الدخول في السوق لمدة خمسة عشرة يوماً ، وقالوا لي أنني أحسنت صنعا » .

« ويؤكدون هنا أن أسوأ الناس في هذا الاقليم هم البائعون بالتجزئة ، إنهم جميعاً وقحاء لا روح لهم ولا شرف . وأنا أعتقد هذا خصوصاً أنني لاحظت الشيء نفسه في أماكن أخرى » .

« وقد شرفني كثيراً أن تكتب السيدة الدوقة إلى زوجتي وترسل إليها ، وسأعمل على التعبير عن امتناني لها في الوقت والمكان المناسبين . وأرجوا منك أن تقبل يديها باسمي ، وأن تؤكد لها أن نعمتها لم تقع في كيس مثقوب ، كما ستعرف ذلك من أعمالي . وأود ألا يكون بينك وبين أسيادي نزاع مؤسف ، لأنك إذا تنازعت معهم فمن المؤكد أن مغبة ذلك ستقع علي . ثم أنه ليس من الخير أنك وأنت الذي تأمرني بعرفان الجميل ، تقصر في ذلك نحو أولئك الذين أحسنوا استقبالك ومعاملتك والاحتفاء بك وتوفير النعيم لك في قصرهم » .

« ولا أفهم ماذا تعني بالخدوش في وجهك ، ومع ذلك فأنا أتصور أنها لا بد أن تكون نتيجة مكيدة من المكائد التي اعتاد السحرة الخبثاء أن يضعوها لك ، وسأعرف ذلك حين نلتقي . ويودي أن أرسل إليك شيئاً ، لكنني لا أدري ماذا ، اللهم إلا بعض أنايب حقن مرتبة على كاسات ، تصنع هنا وهي جميلة جداً . وإذا استمرت الحكومة ، فسأبحث عن شيء آخر جدير بأن يهدي إليك . وإذا كتبت إلى زوجتي تريزة فأرجوا أن تدفع أجرة البريد وترسله إلي . وعندني رغبة شديدة في الحصول على أنباء عن بيتي ، وزوجتي وأولادي . حفظك الله يا مولاي من مكائد السحرة الأشرار ، وهيانني لإدارة شؤون حكومتي في سلام ، وهو أمر أشك فيه كثيراً ، وإنني أعتقد أنني سأهلك فيها ، بفضل الدكتور بدور رثيو » .

خادم سيادتكم
سنشو پنشا ، الحاكم

وأغلق السكرتير الرسالة وسلمها إلى الساعي . ثم إن العاشرين بسنشو قررا أن يضعوا حدا لحكومته . أما هو فقد أمضى الليلة في وضع أوامر للشرطة . ومنع تجار التجزئة في المأكولات من الوجود في الجزيرة ، لكنه سمح باستيراد النبيذ من أي مكان ، بشرط أن يحدد المكان الوارد منه ، حتى تحدد الأسعار وفقا للنوع ، وأن يعاقب بالإعدام كل من يقدم بيانات غير صحيحة في هذا أو من يضع ماء على النبيذ . ونزل أسعار كل أنواع الأحذية ، وخصوصا النعال ، لأنها بدت له غالية جدا . وحدد أجور الخدم وكانت مطالبهم لا تنتهي عند حد . وفرض عقوبات شديدة على من يغنون أغاني خليعة فاضحة في النهار أو في الليل ، ومنع العميان من إنشاد المعجزات الشاكية ، إلا إذا أثبتوا صحتها بشهادة صادقة ، لأنه بدا له أن معظم المعجزات التي ينشدها هؤلاء زائفة وكاذبة ، وتسيء إلى المعجزات الصادقة . وأنشأ وظيفة محضر للفقراء ، لا لمطاردتهم ، بل للتحقق من أنهم فقراء فعلا ، لأنه كثيرا ما يرى متسولون لصوص وسكIRON ، ذوو جروح أو عاهات مزعومة ومصطنعة . وأخيرا وضع قرارات حكيمة ومفيدة حتى أنها لا تزال سارية المفعول حتى الآن في تلك الناحية ، وتسمى (نظم الحاكم العظيم سنشو پنثا) .

الفصل الثاني والخمسون

وفيه تروى المغامرة الثانية للمكروية الثانية

واسمها دونيا رودريجت

يروى سيدي حامد أن دون كيخوته ، لما رأى أنه شفي من خدوشه ، وجد أن الحياة المتبيلة التي يعيشها في قصر الدوق ليست جديرة أبدا بنظام الفروسية الذي يدين به ويمتثنه . فقرر إذن أن يودع أصحاب القصر ، ويرحل إلى سرقسطة وقد اقترب ميعاد الاحتفال بأعيادها ، وهو يأمل في الظفر بالعدة التي كانت تعطى جائزة للمنتصر الفائز . وذات يوم كان يجلس لتناول الطعام مع الدوق ، فتهيا ليقدم إليه رغبته في الرحيل ، حين دخل فجأة في القاعة امرأتان مجلستان بالسواد من الرأس إلى القدمين ، وتقدمت إحداهما إلى ناحية دون كيخوته ، وارتمت على قدميه وراحت تقبلهما ، وهي تتنهد تنهدات حزينة أليمة ، رقت لها قلوب جميع الحاضرين ، وعلى الرغم من أن الدوق ظن أن هذه مزحة جديدة دبرت لدون كيخوته ، فإن حزن هذه السيدة بدا عميقا وصادقا ، وزفرائها وعبراتها طبيعية إلى درجة أنه لم يدر ما في الأمر . فأنهض دون كيخوته السيدة ، وهو متأثر متألم ، واستحلفها أن ترفع نقابها الذي يغطيها . وأطاعت ، وظهر ما لم يظنه أحد أبدا ، وهو أن هذه السيدة هي دونيا رودريجت ، وصيفة الدوقة . وكانت تصحبها بنتها ، وقد غرر بها ابن ذلك الفلاح الغني الذي تحبنا عنه . فأدهش هذا المنظر كل الحاضرين ، وخصوصا صاحب القصر ، لأنهما وإن حسبا الوصيفة ساذجة بسيطة ميالة إلى اعتقاد أي شيء ، فإنهما لم يظنا أبدا أنها قادرة على مثل هذه الأعمال الجنونية . وتلفتت دونيا رودريجت إلى سيديها ، وسألتهاما الإذن في أن تتقدم بالتماس إلى دون كيخوته لأنها في حاجة إلى معونته للخروج من المأزق الذي وضعتها فيه وقاحة قروي شرير . فقال لها الدوق : « تكلمي مع السيد دون كيخوته فيما تشائين » - فقالت لدون كيخوته : « أيها الفارس المغوار ، لقد أخبرتك منذ مدة بالإهانة التي أصاب بها ابنتي العزيزة فلاح شرير . ها أنذا أقدم إليك هذه اليانسة . وقد

وعدتني بحمايتها وتصحيح الظلم الذي وقع لها . وقد علمت أنك تتهيا لمغادرة هذا القصر ، سعيا وراء المغامرات ، وفقك الله في سعيك . لكن قبل أن ترحل أتيت لأرجو أن تتحدى ذلك الجلف ، وأن تذكره بأن ينفذ الوعد الذي قطعه على نفسه لابنتي ، قبل أن يغرر بها . لأن التفكير في الحصول على العدالة من سيدي الدوق ، هو كالرغبة في جني الكمثرى من شجرة الدر دار ، وأنت تعلم السبب في ذلك كما أخبرتك . والله يباركك ويتم نعمته عليك ، ولا يتخلى عنا » .

فأجاب دون كيخوته على هذا الالتماس بجذ وكبرياء : « أيتها الوصيصة الطيبة ، هدني من عبراتك ، أو بالأحرى أرقنيها ، وضعي حدا لزفرتك وإني آخذ على عاتقي أن أتصف لابنتك ، وقد كان الأحرى بها من غير شك ألا تصدق بسهولة دعاوي العشاق ، لأن معظمهم متأهبون لبذل الوعود ، متلكنون في تنفيذها . وبعد إذن سيدي الدوق سأذهب فوراً للبحث عن هذا الشاب الفاسد ، وأتحده وأقتله إذا رفض تنفيذ ما وعد به . إن النقطة الأساسية في مهنتي هي العفو عن المتواضعين وعقاب المستكبرين ، أي إغاثة الملهوفين وعقاب الظالمين . »

فقال الدوق : لا داعي أن تتحمل مشقة الذهاب للبحث عن هذا الفلاح الذي تشكو منه هذه الوصيصة الطيبة ، ولست في حاجة إلى استئذاني وموافقتي من أجل تحديه . فأنا أعده متحد ، وأتكفل بإبلاغه هذا التحدي ، وجعله يقبله ، ويحضر في هذا القصر . وسأهني لكل منكما الحلبة المأمونة للمبارزة ، مع توفير كل الظروف المطلوبة في مثل هذا الموقف ، وسأحكم بينكما ، كما ينبغي أن يفعل كل الأمراء الذين يوفرون الحلبة للذين يتبارزون في أملاكهم . » - فقال دون كيخوته : « بهذا التوكيد ، وبإذن عظمتك ، أعلن هذه المرة أنني أضع جانباً نبالي ، وأتنازل إلى حقارة الفاعل للإهانة ، وأجعل نفسي كفاءه ، وأمنحه شرف مبارزتي . ولما كان غائباً ، فإني أتحده هنا رسمياً ، وأقرر أنه أخطأ في التعبير بهذه البريئة المسكينة التي كانت عذراء ولكنها بخطيئته لم تعد بعد عذراء . وأقول أن عليه أن يفي بالوعد الذي قطعه لها بأن يكون زوجاً شرعياً لها ، أو يستعد للهلاك . » ولما أتم هذه الكلمات ، انتزع قفازه وألقى به في وسط القاعة ، فأخذه الدوق وقال أنه يقبل التحدي بالنيابة عن تابعه (الفلاح) . وحدد ستة أيام لقيام المبارزة ، وأن تكون الحلبة في ميدان القصر ، وبالأسلحة المعتادة للفرسان : الرمح ، والترس البيضاوي ، والعدة المختبرة كل أصناف القطع ، بلا غش ولا تدليس ولا أي سحر^(١) ، وكلها ستخضع لتفتيش وفحص حكام

(١) أي بدون حمائل وتماثيل وطمائم وطمائم وما إليها .

الحلبة . ثم قال له : «لكن قبل كل شيء ، لا بد أن تضع هذه الوصيفة الطيبة وبنيتها الطائشة
حقهما رسميا بين يدي السيد دون كيخوته ، وإلا لا يمكن إجراء أي شيء ، وبعد التحدي
باطلا .» - فقالت الوصيفة : «إني أضع حقي بين يديه وأוכלه إليه .» - وقالت البنت :
«وأنا أيضا» ، وكانت تبكي ويعلوها حمرة الخجل .

ولما تم هذا الاتفاق ، وأفكر الدوق فيما ينبغي في هذه المسألة ، انسحبت السيدتان .
وأمرت الدوقة ، بأنه منذ الآن ، لن تعامل بوصفهما خادمتين بل سيدتين مغامرتين ، جاءتا
لطلب الانتصاف للزوج . فأعطيتا مسكنا خاصا على حده ، وعوملتا كفريبتين ، مما أثار
دهشة سائر الخدم ، وهم كانوا يجهلون إلى أي غاية ستنقضي حماقة وطيش دونيا
رودريجت وبنيتها الطائشة .

وفي هذه اللحظة ، واتماما للاحتفال المسلي وإنهاء للملهة ، دخل القاعة الغلام الذي
عاد من عند تريزة پنثا ، وقد قدم ومعه رسائل وهدايا وأثار وصوله متعة بالغة عند الدوق
والدوقة ، وهما متلهفان لمعرفة ما جرى له في رحلته . ولما سألاه عن ذلك أجاب بأنه لا
يستطيع ، بقليل من الكلمات ، ولا أمام كل الناس أن يقدم تقريرا عما يسألان عنه ، وأنه
يمكن الآن السيدين أن يقرأ الرسائل التي يحملها ، وقد أعطاهما للدوقة . وكانت إحدى
الرسائل تحمل العنوان التالي : «إلى السيدة الدوقة فلانة ، لست أدري من أين» ، والثانية
تحمل العنوان التالي : «إلى زوجي سنشو پنثا ، حاكم جزيرة برتريا ، مد الله في عمره
أكثر مني» ، وبلغت اللفة بالدوقة مبلغها ، فكانت على أحر من الجمر . ففضت الرسالة
الخاصة بها ، ووجدت أن من الممكن قراءتها علنا ، فقرأتها بصوت عال ، وهذا نصها :

رسالة تريزة پنثا إلى الدوقة

«سيدتي ، إن الرسالة التي تفضلت عظمتك بإنائها إلي بعثت في نفسي من اللذة بقدر
ما كنت أتحرق شوقا إليها : وعقد المرجان حسن جدا ، وحلة صيد زوجي لا تقل عنه
جمالا . وكل القرية في حبور لأن سيادتك عينت زوجي سنشو حاكما ، وإن كان هناك من لا
يصدقون ذلك ، ومنهم القسيس ، والأسطى نقولا الحلاق ، وسمسون كرسكو حامل
البكالوريا ، لكن هذا لا يهمني ما دام الأمر صحيحا ، وليقل من شاء ما شاء ، وإن كنت
أعترف لك بأنه لولا عقد المرجان وحلة الصيد لما كنت صدقت أنا الأخرى : لأن كل أهالي
الناحية يعدون زوجي دابة : ولا يستطيعون أن يتصوروا أن من كان يرعى الماعز يمكن أن
يصبح راعيا للناس . والله يحفظه ، ويهديه لما فيه الخير ، كما يحتاج إليه أولاده . أما عن

نفسي ، يا سيدة روحي ، فقد قررت أن أترك بيتي ، وأن أذهب إلى البلاط ، تحملني
عربة ، حتى أثير غضب الحاسدين ، وما أكثرهم هنا . وأتوسل إلى سعادتك أن تبغني زوجي
أن يرسل إلي نقودا ، نقودا كثيرة ، لأن النفقات كثيرة في البلاط . فالبخز هناك يساوي
ريالا ، ورطل اللحم يساوي ثلاثين مرابطيا ، بأمر من القاضي . أما إذا كان سنشو لا يريد
مني الذهاب إلى هناك ، فليخبرني بذلك فوراً ، لأن أرجلي تحترق شوقاً للذهاب . وأصدقائنا
وجيراننا يقولون لي إننا إذا ذهبنا إلى البلاط ، بنتي وأنا ، في احتفال فاخر ، فإن زوجي
سيتعرف بي ، لا أنا الذي سأعرف به ، لأن كل إنسان سيسأل : من السيدات اللواتي في
العربة ؟ وسيجيب أحد خدمني : هذه زوجة سنشو بنتا ، حاكم جزيرة برتريا . وبهذه
الطريقة سيكون سنشو معروفاً ، وسيحتفون بي في روما وفي كل مكان . وإنني في غاية
الضيق من أنهم لم يقتطفوا ثمار بلوط هذا العام في قريتنا . لكنني أرسل إلى سيادتكم نصف
كيله منها ، انتقيتها أنا بنفسي واحدة واحدة في الجبل . ولم أجد خيراً منها ، وكنت أود لو
كانت كبيرة مثل بيض النعام .

« ولا تنسين فخامتكم أن تكتبني إلي . وسأبادر بالرد عليك وإبائكم بأخبار صحتي ،
وبكل ما يجري ها هنا . وأدعو الله أن يحفظ عظمتكم ، وألا تنسيني . بنتي سنتشكا وابني
يقبلان يدي سيادتكم .

« من تود أن ترى سيادتكم أكثر من أن تكتب إليكم »

خادمتكم

« تريزة بنتا »

أحدثت هذه الرسالة سرورا عظيما في نفوس الجميع ، وخصوصا الدوقة . وطلبت
الدوقة من دون كيخوته ألا يمكنه أن يفتح الرسالة الموجهة إلى الحاكم ، قائلة إنها لا بد
رسالة ممتازة . فقال دون كيخوته إنه سيفتحها إرضاء لها . وهكذا فعل ، وقرأ ما يلي :

رسالة تريزة بنتا إلى سنشو بنتا زوجها

« تلقيت رسالتك ، أي سنشو روحي ، وأقسم لك ، بإماني الكاثوليكي ، بأني أوشكت
أن أجن من الفرح . إنني حين علمت ، يا أخي ، أنك أصبحت حاكما ، كدت أموت من
السرور ، لأنك تعلم أن السرور المفاجئ يقتل كما يقتل الألم الكبير . وسنتشيكا ابنتك
بللت تنورتها دون أن تشعر ، لأنها طارت من الفرحة . وأمامي الآن الحلة التي أرسلتها

إلي ، وعقد المرجان في عنقي ، وحملت الرسالة بين يدي ، وكان الرسول حاضرا ، ومع هذا كله ، فأني كنت أحسب أن كل ما كنت ألمسه هو ليس إلا حلما . من كان يظن أن راعي الماعز سيصير حاكما على جزر ؟ لقد أصابت أمني حين قالت : من يعيش طويلا ير ، أقول هذا لأنني إذا عشت بعد ، فأني آمل في أن أرى ما هو أعظم . وآمل أن أراك مستأجرا أو ملتزم ضرائب . فهذه وظائف تلقي إلى الشيطان بمن يسيئون استخدامها ، ولكنها تهية للمرء أن يمسك في يديه بالمال باستمرار . وستخبرك السيدة الدوقة برغبتني في الذهاب إلى البلاط . فانظر ، يا عزيزي ، هل هذا يرضيك . وسأشرفك ، لأنني سأذهب في عربة .

«والقسيس والحلاق وحامل البكالوريا وخازن الكنيسة لا يصدقون أنك حاكم . ويقولون إن هذه أوهام وألوان من السحر ، كما هو الشأن في كل ما يحدث لمولوك دون كيخوته ، وسمسون يقول إنه يريد أن يذهب إليك ليخرج من رأسك فكرة الحكم ، ومن رأس دون كيخوته جنون المغامرات . وأنا أسخر من كلامه ، وأتطلع في عقدي ، وأفكر في حلة الصيد التي سأفصلها لبنتنا ، وأرسل إلى السيدة الدوقة بثمار من بلوط ، وكان بودي أن تكون من ذهب . أرسل إليّ بعض عقود من اللؤلؤ ، ان كانت مستعملة في جزيرتك . أما عن الأخبار هنا فإن السيدة برويكا زوجت بنتها إلى نقاش شرير ، جاء واستقر في القرية وقد كلفه المجلس البلدي برسم شعار الملك على باب دار البلدية . وطالب بمقدم قدره دوقتان ، فأعطيتا له ، واشتغل ثمانية أيام ، في نهايته لم يكن قد أنجز شيئا ، وقال إنه لم يكن مستعدا لرسم مثل هذه التفاهات ، وأعاد المبلغ . ومع ذلك فقد تزوج كما لو كان عاملا جيدا . والحق أنه ترك الفرشاة ، واتخذ الفأس ، وهو يذهب إلى الحقول مثل رجل شريف . وابن بدرولوبو قد دخل في نظام الاكليروس ويريد أن يصبح قسيساً . وقد عرفت هذا منجيا ، حفيذة منجو سلفاتو ، فأقامت الدعوة ضده ، قائلة أنها وعداها بالزواج . وألسنة السوء تقول انها حبلى منه ، لكنه ينكر ذلك كل الانكار . لم يشمر الزيتون هذا العام ، وليس في القرية كلها قطرة واحدة من الخل . مرت من هنا فرقة من الجنود أخذت معها ثلاث بنات من هنا . ولا أسميهن ، اذ يمكن ان يرجعن ، وبالرغم من هروبهن يمكن ان يجدن من يتزوجهن . سنتشيكنا تغزل شبكة دنقلة ، وتكسب كل يوم ثمانية مرابطيات صافية ، وتدخرها في حصالة لتساعد في نفقات تزويجها ، ولكن وقد أصبحت الان ابنة حاكم ، فإني ستعطيها بائنتها بغير حاجة منها الى أن تشتغل . النافورة التي في الميدان جفت . وسقطت الصاعقة على العمود . وهكذا الامر في سائرنا .

«اني في انتظار ردك على هذه الرسالة ، وعلى طلبي الذهاب الى البلاط . وأسأل الله أن يمد في عمرك أكثر مني ، أو على الأقل بقدره ، لاني لا أريد أن أتركك في هذه الدنيا من غيري .

زوجتك

« تريزه بنتا »

وقرئت هاتان الرسالتان ، وأعيدت قراءتهما ، وأطريتا ، واحتفل بهما ، وضحك الكل منهما كثيراً ، واثماماً للفرحة جاء الرسول الذي يحمل رد سنشو على دون كيخوته . فقرأ علناً هو الآخر ، فجعل الناس يتشككون في سذاجة الحاكم . وانسجبت الدوقة مع الغلام الرسول ، ليروي لها كل ما رآه في قرية سنشو ، فرواه ولم يهمل أي تفصيل ، وقدم اليها ثمار البلوط وجبناً ، أكدت تريزه أنه أحسن جداً من جبن ترنتشون ، وتلقته الدوقة بلذة كبيرة ، لكن لنتركها الآن في هذه اللحظة ، لنروي كيف انتهت حكومة العظيم سنشو ، زهرة ومراة كل حكام الجزر .

الفصل الثالث والخمسون

النهاية الأليمة لحكومة سنشو بنتا

من الخطأ الفاحش الظن أن كل الأمور ينبغي أن تظل في هذه الحياة على حالها . بل الأمر بالعكس ، كل شيء يدور : فالربيع يتلوو الصيف ، وهذا يتلوو الخريف ، والخريف يتلوو الشتاء ، وبعده يعود الربيع من جديد . وهكذا يدور الزمان على نفسه باستمرار ، كعجلة متحركة أبداً . والحياة الإنسانية هي وحدها التي تجري الى نهايتها ، أخف وأسرع من الزمان نفسه ، دون أمل في التجدد ، اللهم الا في الحياة الآخرة التي لا حد لها ولا نهاية . هكذا تكلم سيدي حامد ، هذا الفيلسوف المسلم . وهو يريد أن يذكرنا بعدم استقرار هذه الحياة وخفتها ، وبأن الحياة الآخرة هي الحيوانات وهي الخالدة أبداً ، وقد أقر بها الكثيرون دون مبعونة الإيمان ، مسترشدين بنور العقل وحده . ولكنه يريد خصوصا أن يوجه انتباهنا إلى السرعة التي بها انتهت ، وتحطمت واحترقت ، واختفت كالظل - حكومة سنشو .

في الليلة السابعة من حكمه كان نائما في سريره ، شعبان لا من الخبز والخمر ، بل من إصدار الأحكام ، والقرارات ، والقوانين ، واللوائح . وبدأ النوم ، رغم الجوع ، يغمض جفنيه ، وإذا به يسمع ضجة نواقيس وأصوات مروعة ، وكأن الجزيرة كلها غارت وغاصت : فنهض قاعدا ، وأرعى سمعه ليحاول أن يحزر سبب هذه الضجة ، لكن عبثا ، ولكن ضجة الأبواق والطبول ، التي اختلطت بالصيحات وبصوت النواقيس زادت من خوفه . فقام ، ولبس النعل بسبب رطوبة الأرضية ، ودون أن يلبس عباءة الغرفة ولا أي ثياب أخرى ، فتح باب غرفته ، في اللحظة التي رأى قادما في الدهليز قرابة عشرين شخصا معهم المشاعل ، والسيوف مشهرة ، وهم يصرخون بصوت يصم الأذان : « إلى السلاح ! إلى السلاح ! يا سيدي الحاكم ، لقد دخل الجزيرة جمع من الأعداء ، ضعنا ، إن لم تنجدا بنا بسالتك

وفطنتك» . واقتربت الجماعة في اضطراب من المكان الذي وقف فيه سنشو حائرا لا يحرك ساكنا ، وقال أحدهم : « لتتسلح سيادتك بسرعة إذا أردت ألا تهلك ، وتهلك معك كل الجزيرة » . - فأجاب : « وما الفائدة في أن أتسلح ؟ هل أنا أعرف ما السلاح وما النجدة ؟ الأولى بكم أن تتوجهوا إلى مولاي دون كيخوته ، وبضريتين من كفه يشئت الأعداء ويجعلكم في أمان . أما أنا ، الخاطئ المسكين ، فإني لا أفهم في هذا شيئا . » - فقال آخر : « آه ، يا سيدي الحاكم ، أي جبن ! تسلح ، وسنأتي إليك بالأسلحة الدفاعية والهجومية . أخرج إلى الميدان ، وكن مرشدنا وقائدنا ، فهذا من حقك ، ما دمت حاكمنا » . فقال سنشو : « حسن ، سلحوني ! » وفي الحال وضعوا على قميصه ترسين كبيرين ، واحد من أمام ، والآخر من خلف ، يخرج منهما الذراعان من تجويفين فيهما ، وربط هذان الترسان بحبال ، بحيث انحصر بينهما مستقيما كأنه مغزل ، دون أن يستطيع ثني ركبتيه ولا أن يسير خطوة ، وزود برمح يستند إليه . ولما هبى هكذا طلب إليه أن يمشي ، وأن يقود رجاله ، ويحثهم ، فهو بوصلتهم ، ومشعلهم ونجمهم ، وستسير الأمور بعد ذلك سيرا حسنا . فقال : وكيف تريدون مني أن أمشي ، أنا المسكين ؟ إني لا أستطيع ثني ركبتي ، وأنا محصور بين هذين اللوحين اللذين خيطا على لحمي . إن ما تستطيعون عمله هو أن تأخذوني بين أذرعكم ، وأن تضعوني ، بالعرض أو على قدمي ، في أي وضع كان ، أحافظ عليه بواسطة هذا الرمح . » - فقال أحد رجال الفرقة : سر ، سر ، سيدي الحاكم ، إنه الخوف لا اللوحان هو الذي يمنعك من المشي ، ولنسرع ، فقد تأخرنا ، والعدو يتزايد عدده ، والضجة تنمو ، والخطر يصبح داهما » .

فتأثر الحاكم المسكين من هذه التنبيهات وأراد أن يخطو خطوة ، ولكنه سقط على الأرض بتمامه ، واعتقد أنه تمزق إربا إربا . وبقي مثل سلحفاة محصورة في ذبلها ، وجامبون بين معجنتين ، أو سفينة جنحت في الرمل وساخت ، لم تبعث سقطته أي شفقة في نفوس هؤلاء الساخرين . وأطفأوا مشاعلهم ، وضاعفوا صرخات الحرب ، ومروا من فوق جسم سنشو المسكين ، وهم يضربون على ترسيه بضربات شديدة ، حتى أنه لولا أنه أدخل رأسه ، لكان قد أصابه عذاب شديد . والبعض عشروا بجسمه ، والبعض الآخر تجندلوا ، وركب عليه أحدهم ، وراح وكأنه فوق برج ، يصدر الأوامر ويصيح : « تعالوا هنا أنتم ، هناك يتكاثر الأعداء ، احرسوا هذه الطاقة ، أغلقوا هذا الباب ، حطموا هذه السلالم ، أحضروا قدور النار ، والقطران ، والصمغ ، وغلايات الزيت المغلي ، وأغلقوا الشوارع بالحشايا » . ثم ذكر بسرعة كل المعدات ، وآلات الحرب التي تستخدم للدفاع عن مدينة محاصرة ،

وستنشو المسكين ، الممزق ، المطحون ، كان يسمع هذا كله ويقول في نف
فليهلك الله هذه القرية ، ولأمت ، أو أنقذ من هذا العذاب الأليم» واستجاب
لدعائه . ففي اللحظة التي بلغ فيها اليأس به أشده سمع من يصرخ : «النصر! هز
تعال يا سيدي الحاكم ، قم ، وتعال استمتع بالانتصار ، وشارك في الغنائم التي
العدو بقوة ساعدك الذي لا يقهر!» - فقال بصوت نائح : «أنهضوني إذن» .
وأوقفوه على قدميه . فقال : «العدو الذي أنا هزيمته أريد أن تسمروه على ج
الغنائم فلا شأن لي بها . لكن إن كان هنا إنسان يهتم بأمرى ، فأرجوه أن ينالني
النبيد ، وأن يساعدني على تجفيف نفسي ، لأنني مبتل وكلّي ماء» . فجففو
النبيد ، ورفعوا عنه ترسيه ، وأرقدوه على السرير ، فأصيب بإغماء ، من ف
واضطرابه ، وخوفه ، وندم الساخرون منه على أنهم دفعوا المزاح إلى هذا ال
استرد وعيه بعد قليل ، مما طمأن نفسه . وسأل عن الساعة ، فقيل له أن الفجر
البروز . هنالك دون أن يقول كلمة أخذ يلبس ملابسه : ونظر الجميع إليه في ص
يتلهفون لمعرفة ماذا سيفعل ، ولماذا هو متعجل هكذا . وأخيرا وبعد تعب ومش
من ارتداء ثيابه ، وكان مرهقا جدا ، ومضى فورا إلى الاسطبل ، يتبعه كل ال
وهناك عانق حماره ، وقبله على جبهته قبلة السلام ، وقال له والدموع في عينيه
هنا ، يا صاحبي ، يا رفيقي ، يا سند أعمالي وشقواتي . حينما كنا معا لم يكن
اهتمام إلا العناية بعدتك ، وتغذية جسمك . وكانت ساعاتي وأيامي وسنواتي هادئ
لكن منذ أن تركتك ، وأرعت سمعي إلى صوت الطموح والكبرياء ، دخلت نف
البلايا ، وآلاف المشاغل وآلاف أنواع القلق» . وفي الوقت نفسه الذي كان فيه ي
الكلمات كان يربط البرذعة على حماره ، دون أن ينطق أحد بكلمة . ولما شدت
ركب عليها ، بمشقة غير قليلة ، ثم تلفت إلى ناظر القصر ، والسكرتير ، ورئيس
والدكتور بدرو رثيو ، وكل الحاضرين ، وقال لهم : «امسحوا لي الطريق» ،
واتركوني أرجع إلى حريتي السابقة . واسمحوا لي أن أبحث عن حياتي الماض
تبعثني من الموت الحاضر . إنني لم أولد لأكون حاكما ، للدفاع عن الجزر وال
الأعداء الذين يقدمون لمهاجمتنا . ولكنني أحسن الحرث ، وتقليب الأرض
الزرجون^(١) خيرا من اصدار القوانين ، والدفاع عن الأقاليم والممالك . إن القديس :

(١) لروع الكرم .



سَنَشُو لَمَّا وَقَعَ فِي الْحَفْرَةِ هُوَ وَحِمَارُهُ حِينَ كَانَ عَائِدًا مِنْ حَكَمِ جَزِيرَةِ بَرْتَرِيَا

روما ، وأقصد أن على كل إنسان أن يبحث عن المهنة التي خلق لها . إن محفرا في اليد أنسب لي من صولجان الحكم . وأفضل أن أتغذى من حساء الحراث ، على أن أكون تحت رحمة طبيب وقح يجعلني أموت من الجوع . وأفضل أن أنام في ظل شجرة سنديان في الصيف ، وأن أعطي نفسي كما أشاء بدفية ذات وبر في الشتاء ، على أن أخضع نفسي لمقتضيات الحكم ، وأنام بين ملاءات هولندية ، أو ألبس فرو السمور . كان الله معكم ، قولوا لسيدي الدوق أنني ولدت عاريا ، وأجد نفسي من جديد عاريا ، وصرت لا علي ولا لي ، أقصد أن أقول أنني دخلت الحكم وليس معي ملين ، وأخرج منه وليس معي ملين ، على عكس سائر حكام الجزر . فدعوني أمضي لشأني ، وسأضع مراهم ، لأنني أعتقد أن كل ضلوعي رضى ، بفضل الأعداء الذين تجولوا طوال الليل على جسمي . » - فقال الدكتور رثيو : « لا ، يا سيدي الحاكم ، لن يحدث هذا ، سأعطي لسعادتك شرابا ضد السقطات والوطآت ، يرد إليك صحتك بسرعة ، أما عن الغذاء فإني أعدك بالتعويض وأن أسمح لك بأن تأكل كل ما تريد بوفرة . » - فأجاب سنشو : « لقد جئت متأخرا جدا ، سألقي هنا كما سأصبح تركيا . إنني لا ألدغ مرتين ، وهذه الحكومة أو أي شيء آخر قد يعرض علي ، ولو بين طبقيين ، أقبله كما أطيير إلى السماء بدون أجنحة . إنني من آل پنشا ، وكانوا جميعا عنيدين ، إذا قالوا مرة لا ، فهي لا إلى الأبد ، على رغم أنف جميع العالم . وإني أترك في هذه الزريبة أجنحة النملة التي رفعتني في الهواء ليأكلني السنونو وسائر الحيوان ، لنكن متشبهين بالأرض ، إذا لم تزين قدمي أحذية مضرية بالقرطبي ، فإني على الأقل لن أعدم نعالا من الحبال . كل نعجة وشبيبتها ولا نمدن الأرجل إلى أبعد من طول الملاءة . لقد صار الوقت متأخرا ، فدعوني أمر .

فقال ناظر القصر ، سيدي الحاكم ، إننا نتركك تذهب ، وإن كان يعز علينا كثيرا أن نفقدك ، لأن حسن تمييزك ونزاهتك يجعلاننا نأسف على تركك إيانا . لكن عليك أن تعرف أن كل حاكم ، قبل أن يترك المنصب الذي يشغله ، ملزم بتقديم حساب عنه . فقدم حسابك ، واذهب بعد هذا في سلام .

فقال سنشو : لا يملك إنسان أن يطالبني بحساب ، إلا ذلك الذي سيتحمله الدوق نفسه . فأنا ذاهب إليه ، وسأقدم الحساب إليه ، خصوصا وقد خرجت من هنا عاريا تماما ، وهذا دليل قاطع على أنني حكمت مثل الملاك .

فقال الدكتور رثيو : والله إن العظيم سنشو على حق ، ومن رأيي أن ندعه يرحل ، لأن الدوق سيتنبط كثيرا لرؤيته .

وكان الباؤون جميعا على الرأي نفسه ، فتركوه يرحل ، وعرضوا عليه أن يرافقه ، وكل التسهيلات التي ربما يحتاج إليها في السفر . فأجاب سنشو بأنه لا يريد غير القليل من الشوفان لحماره ، ونصف قطعة جبن مع رغيف خبز له ؛ ولما كان الطريق قصيرا ، فليس في حاجة إلى مزيد من الزاد . وعانقه الجميع ، وبادلهم العناق وهو يبكي . ثم رحل ، تاركا إياهم في دهشة بالغة من حكمته وسرعة قراره .

الفصل الرابع والخمسون

ويبحث في أمور تتعلق بهذا التاريخ، ولا تتعلق بغيره

قرر الدوق والدوقة أن التحدي الذي وجهه دون كيوخته إلى تابعه سينفذ . لكن لما كان الحزاث الشاب قد هرب إلى الفلاندر تجنباً لأن تكون دونيا رودريجت حماته ، فقد قررا أن يحل محله خادم جستوني أطلقوا عليه اسم توسيلوس ، لقناه كل ما عليه أن يفعله . وبعد يومين قال الدوق لدون كيوخته ، أنه عند انقضاء مهلة الأربعة أيام الباقية التالية ، سيأتي خصمه إلى الحلبة ، مسلحاً فارساً ، ليقرر أن الانسة كذبت ، قسماً بحق نصف لحيته ، بل ولحيته كلها ، حين ادعت أنه وعدها بالزواج . فاغتنبط دون كيوخته كل الاغتياب لهذه الأنباء ، ومنى نفسه بالقيام بالأعاجيب في هذه المنازل ، سعيداً لأنه وجد الفرصة ليبرهن لِسادة القصر على مدى قوة ساعده . فانتظر إذن ، بصبر نافذ ولهفة بالغة ، انقضاء هذه الأيام الأربعة ، حتى بدت له أربعة قرون . وسندعها تمر كما ندع أموراً أخرى كثيرة تمر ، ونعود إلى سنشو الذي عاد راكباً على حماره ، نصف راض ، ونصف حزين ، ليجد مولاه ، الذي كانت تسره صحبته أكثر من حكم كل جزر العالم .

ولم يتعد كثيراً عن الجزيرة ، أو بالأحرى عن مكان حكومته ، لأنه لم يستعلم أبداً هل هي جزيرة حقاً ، أو مدينة ، أو قرية ، حين أبصر على الطريق ستة حجاج قادمين بعصيهم ، وهم من أولئك الغرباء الذين يسировون في الطرقات يطلبون الصدقات وهم ينشدون . فلما اقتربوا منه أحاطوا به ، ورفعوا أصواتهم معاً ، وأخذوا ينشدون بلغتهم ، حتى أنه لم يفهم شيئاً مما قالوا ، اللهم إلا كلمة « صدقة » التي كانوا يكررونها باستمرار ، مما جعله يفهم أنهم يطلبون صدقة ، ولما كان رجلاً محسناً جداً ، كما يلاحظ سيدي حامد ، فإنه أعطاهم جبنه وخبزه ، وأفهمهم بالاشارات أنه ليس لديه شيء آخر يقدمه اليهم . فقبلوا هذا

الاحسان عن طيب خاطر ، لكنهم كانوا يكررون دائما كلمة^(١) Guelte فأجابهم سنشو : « أنا لا أفهم ماذا تقصدون ، يا ناس يا طيبون » . هنالك أبرز أحدهم كيس نقود وأراه له ، مما جعله يفهم أنهم يريدون نقودا . فوضع سنشو إبهامه على عقدة حلقه ، وفرد باقي أصابعه ، ليفهمهم أنه ليس معه مال ، ونخس حماره ، وأراد أن يسبقهم . فركض أحد هؤلاء البوهيميين وراءه ، وكان ينظر إليه باهتمام ، وارتمى على عنقه ، وقال له بلغة اسبانية صحيحة : « يا لله ! من ذا أرى ؟ أمن الممكن أن أمسك بين ذراعي صديقي العزيز ، وجاري الطيب سنشو بنثا ؟ نعم ، لا شك في ذلك ، إنه هو ، لأنني لست سكران ولا أحلم . » فدهش سنشو من سماع اسمه وتفرس في الحاج بكل عينيه ، دون أن ينطق بكلمة ، لكن عبثا كان يتفرس فيه ، فإنه لم يتبين من هو . ولما شاهد الآخر ارتباكاه ، قال له : « كيف يا سنشو ؟ ألا تتعرف جارك ريكوته ، المورسكي تاجر الخردوات في قريتك ؟ » فتفرس فيه سنشو مرة أخرى ، وبدأ يتعرفه ، ثم تعرفه أخيرا ودون أن ينزل عن حماره ، مد إليه ذراعه وقال له : « ومن ذا الذي يمكنه أن يتعرفك بهذا الزي العجيب ؟ ومن الذي جعلك بوهيميا متشردا ، وكيف تجرؤ على الرجوع إلى اسبانيا ، ولو عرفوا من أنت لأصلوك شديد العذاب ؟ » - فقال المورسكي : « إني متأكد أنه لن يعرفني أحد في هذا الزي . لكن لنبتعد عن الطريق ، ولنذهب إلى غابة الحور هذه ، حيث يأكل أصحابي ويستريحون . وستغدى معهم ، إنهم أولاد طيبون ، وسيكون عندي من الفراغ ما يكفي لأن أقص عليك كل ما وقع منذ أن غادرت قريتي ، تنفيذا للقرار الملكي بنفي أبناء أمتي ، وإلا نالهم عقاب شديد » .

فتبعه سنشو ، وأخبر ريكوته رفاقه بمن لقيه ، ودخل الجميع الغابة ولما بعدوا عن الطريق العام ، ألقوا بعصيتهم وأرديتهم ، واستراحوا . وكانوا جميعا من الشباب ، فيما عدا ريكوته الذي كان متقدما في السن وكان مع كل واحد منهم حافل بكل ما يثير شهية الشراب . وجلسوا على الأرض ، وجعلوا من العشب الأخضر مفرشا ، ومدوا الخبز والملح والسكاكين والجوز ، وقطع الجبن ، وبقايا جامبون لا يزال فيها ما يمكن أكله . وكان معهم أيضا طعام مسود اللون ، يسمى « كبيال »^(٢) ، مصنوع من بيض السمك ، ويهيج الشهية تماما ، وزيتون وإن كان جافا وبدون ماء مملح فإنه كان مع ذلك لذيذا . ولكن أكثر ما شرف هذه الوجبة الريفية هو ست زجاجات من النبيذ ، لأنه كان مع كل واحد منهم زجاجة ، حتى ريكوته الذي كان مغربيا (مسلم) فصار ألمانيا ، وكانت زجاجته تساوي الخمس

(١) تحريف في الكلمة الألمانية Geld = نقود .

(٢) نوع من البطارخ المصنوع من بيض سمك الاسترجون والزيت .

الأخرى نظرا لكبر حجمها . فأكلوا طويلا وبشهية شديدة ، متذوقين كل قطعة تناولوها من كل شيء على طرف السكين . ورفعوا جميعا أذرعهم وزجاجاتهم في الهواء ، وحنوا رؤوسهم ونظروا إلى السماء ، وشربوا طويلا ، وهم يتمتعون بما يشربون . وتطلع سنشو في كل شيء ، ولم يحزن من شيء ، بل بالعكس ، عملا بالمثل الذي يعرفه جيدا : « حين تكون في روما ، اعمل كما ترى الناس يعملون » ، استعار زجاجة ريكوته وأخذ يشرب بلذة كالآخرين . وأربع مرات متواليات عانقوا الزجاجات ، لكن في الخامسة كانت فارغة ، مما أنهى مسراتهم . وبين الحين والحين كان أحد هؤلاء الرجال يمسك بيد سنشو ، ويقول له في اسبانيا وألمانيا : « نحن صاحبان » . - فيجيب : « نحن صاحبان جيدان » ، ثم يأخذ في الضحك لمدة ساعة ، دون أن يتذكر شيئا يتعلق بحكومته ، إذ في العادة حين يأكل الإنسان ويشرب ، فإن الهموم لا تؤثر فيه . ولما انتهى الطعام ، أنامهم النيبذ ، وصار المكان الذي استخدموه مائدة ومفرشا - صار سريرهم . ولم ينم ريكوته ولا سنشو وحدهما لأنهما أكلا أكثر مما شربا . فالتحيا ناحية ، وجلسا عند جذع شجرة زان وتركا الحجاج في شخيرهم ، وتحدثا باللغة الاسبانية .

قال ريكوته لسنشو : « أنت تذكر جيدا ، يا عزيزي ، كيف نشر المرسوم الملكي الخاص بطرد أهل أمتي^(١) الذعر بيننا . أما أنا فقد بدا لي أنه حتى قبل المدة المقررة لنا للخروج من اسبانيا ، كان هذا العقاب يقع على أولادي وعلي أنا . فاعتقدت إذن أنه ما دمت مضطرا إلى ترك مسكني واتخاذ مسكن آخر ، كان من الحكمة أن أرحل وحدي دون أسرتي ، وأن أبحث عن ملجأ مناسب أسكنها فيه ، دون أن أتعب في هذا الموضوع كما تعجل غيري ، لأنني كنت أرى ، وكان شيوخننا من الرأي نفسه ، أن هذه المنشورات ليست مجرد تهديدات زائفة ، كما اعتقد الكثيرون ، بل قوانين حقيقية ، لا بد من تنفيذها في وقت معلوم . ولم أكن على جهل بالتدابير السرية والمؤامرات التي كان يدبرها أهل أمتي ، وقد وصلوا إلى حد من التطرف جعل الملك يتخذ هذا الموقف الصارم بنوع من الإلهام الإلهي ، لا لأننا جميعا كنا مشتركين في التمرد والعصيان بل كان بعضنا مسيحيين حقا وبإخلاص ، لكن عدد هؤلاء الآخرين كان من القلة بحيث لم يكن في وسعهم أن يعارضوا مشروعات الآخرين . ثم أنه من عدم الفطنة أن يغذي المرء في داره الأفعى والإبقاء على الأعداء داخل

(١) المرسومان الملكيَّان الرئيسيان المتعلقان بطرد المسلمين من اسبانيا ، صدر أولهما في ٩ ديسمبر سنة ١٦٠٩ متعلقاً بممالك شرناطة ، ومرسيه ، والأندلس ، وناحية هورناتشوس وصدر الثاني في ١٠ يوليو سنة ١٦١٠ متعلقاً بقتالة بتسميها الجديدة والقديمة ، واسترمدرا والمنتشا .

البلاد . والخلاصة أننا عوقبنا بالنفي جزاءً وفاقاً ، وهي عقوبة بدت للبعض سارة خفيفة ، لكنها بدت لنا نحن أقسى عقوبة . وفي كل موضع نكون فيه ، نتحسر على اسبانيا ، ففيها ولدنا وهي وطننا الطبيعي . ولا نجد في أي مكان الاستقبال الذي يقتضيه شقاؤنا . وكنا نأمل في أن نتلقى بأذرع مفتوحة في المغرب ، وكل أفريقيا ، ولكننا لقينا هناك خصوصاً أسوأ معاملة . إننا لم نعرف الخير إلا بعد أن فقدناه . ثم أن رغبتنا في العودة إلى هذه البلاد كانت من القوة بحيث أن أولئك الذين يعرفون مثلي لغة البلاد ، وهذه حال العدد الأكبر ، يتركون هناك زوجاتهم وأولادهم ويعيدون إلى هنا ، ذلك بسبب حبهم الشديد للأندلس . والآن أعرف بالتجربة صدق ما يقال من أنه لا شيء أجمل من حب الوطن .

تركت إذن ، كما قلت لك ، قريتي ، وذهبت إلى فرنسا ، ولئن كنت نعمت فيها بحسن اللقاء ، فقد أردت أن أرى بلاداً أخرى . فارتحلت إلى إيطاليا ، ثم ألمانيا ، حيث وجدت أن من الممكن أن أعيش بحرية أكبر ، لأن الأهالي هناك ليسوا متعنتين ، فكل إنسان يتصرف كما يريد ، والعدد الأكبر يعيش في حرية ضمير كاملة . فأقمت في قرية قريبة من أوجسبورج ، ثم التحقت بهؤلاء الحجاج ، الذين اعتادوا أن يسافروا كل سنة إلى أسبانيا لزيارة الأماكن المقدسة ، التي يعدونها كهنهم^(١) الكبرى ، ومصدر ربح مؤكد ، وهم يذهبون في كل مكان ولا يخرجون من قرية إلا وهم شعبون ، ومعهم ريال من الفضة على الأقل . حتى إذا انتهت الرحلة ، يكونون قد حصلوا أكثر من مائة إسكودو يحولونها إلى ذهب ويخفونها في تجويف عصيهم أو في ثيابا ملابسههم . وبهذه الوسيلة يخرجون ذهبهم من المملكة ، رغم تفتيش حرس الموانئ والثغور والحدود الذين يفتشونهم ، ثم يعودون إلى بلادهم . وعندي الآن ، يا سنشو ، نية الذهاب لاستخراج كنز كنت أخفيته . وهذا أمر أستطيع أن أفعله بغير حرج ولا خوف ، لأنه في البرية . ثم أكتب بعد ذلك ، أو أذهب بنفسني من بلنسية إلى الجزائر ، حيث تركت زوجي فرنشكا وبنتي ريكوتا ، لإيصالهم إلى ميناء في فرنسا ، ومن هناك إلى ألمانيا ، حيث ننتظر ما يريد الله أن يفعله بنا ، وكلاتهما مسيحية كاثوليكية ، ولو أنني لست مثلهما في هذا فإن في قلبي من النصرانية أكثر مما فيه من الإسلام ، وإنني أدعو الله أن يفتح بصري ، ويهديني إلى الصواب . وما لا أستطيع تصوره هو أن زوجتي وبنتي فضلتا الذهاب إلى المغرب على الذهاب إلى فرنسا ، حيث كان في وسعهما أن تعيشا مسيحيين .

(١) أي مثل الهند (الغربية = أمريكا) كمصدر للثروة .

فقال سنشو ، اسمع يا ريكوته ، هذا المسلك لا بد أنه ليس من تلقاء نفسيهما ، بل خوان تيوبيو ، أخو زوجتك ، هو الذي أخذهما ، ولما كان مسلما حقا ، فإنه لم يفكر إلا فيما يناسبه هو . لكنني أريد أن أقول لك شيئا آخر ، إنني أعتقد أنك ستذهب عبثا للبحث عما دفنته ، لأننا عرفنا أنه نزع من زوجتك وأخيها كثير من الذهب واللآلئ التي حملوها للتفتيش والتسجيل .

فأجاب ريكوته ، يجوز ، لكنني متأكد أنهما لم يمسسا كنزي ، لأنني لم أخبر أحدا بمكانه ، خوفا من وقوع أي سوء ، وهكذا يا سنشو إذا أردت أن تأتي معي وتساعدني في استخراجها ، فسأعطيك ماتتي إسكودو تستعين بها في معاشك ، لأنني أعرف تماما أنك لست غنيا .

فأجاب سنشو ، بودي أن أفعل هذا ، ولكنني لست شرها ، وإلا لما تركت في هذا الصباح وظيفة كنت أستطيع عن طريقها أن أعطي جدران بيتي بالذهب ، وقبل مضي ستة أشهر أكل في آنية من الفضة . وبهذا السبب ، ولأنني أتصور أيضا أن من الخيانة لملكي أن أساعد أعداءه فإنني لن آتي معك حتى لو عرضت علي أربعمئة إسكودو .

فقال ريكوته ، وأية وظيفة تلك التي تركتها ؟

- تركت وظيفة حاكم على جزيرة ، لا نظير لها في كل الناحية .

- وأين توجد هذه الجزيرة ؟

- على مسافة فرسخين من هنا ، وتسمى جزيرة برتريا .

- أسكت يا سنشو ، إن الجزر في البحر ، ولا توجد جزيرة في اليابسة .

- كيف لا يوجد ؟ أقول لك أنني رحلت عنها في هذا الصباح ، وبالأمر كنت أحكمها

كما أشاء . وبالرغم من ذلك فقد تركتها لأنه ظهر لي أن منصب الحاكم مخوف بالكثير من الأخطار .

- وماذا كسبت من هذه الحكومة ؟

- كسبت أنني تعلمت أن أعرف أنني لا أصلح لتولي شئون الحكم إلا على قطيع من

الدواب ، وأن الثروة التي يكتسبها المرء في هذه المناصب تتم على حساب الراحة ، والنوم ، بل والحياة ، لأن الإنسان فيها يأكل قليلا ، خصوصا إذا وجد أطباء يسهرون على صحته .

- إنني لا أفهمك يا صاحبي! إن كل ما تقوله يبدو لي مجنونا . أي شيطان يمكن أن

يعطيك جزرا لتحكمها ؟ هل افتقر العالم ممن هم أكفا منك للحكم ؟ أسكت يا سنشو ، عد

إلى صوابك ، وانظر هل تريد أن تأتي معي ، كما قلت لك ، لتساعدني على استخراج الكنز ، وهو كنز هائل ، بحيث يمكن أن يسمى كنزا حقا ، وسأعطيك ما يعينك على المعاش .

فقال سنشو ، أكرر وأقول إنني لا أريد ، واقنع بتوكيدي لك أنني لن أبلغ عنك . وتابع سبيلك ، والحظ معك ، ودعني أسلك سبيلي . إن ما يكسب حلالا غالبا جدا ما يضيع ، ولكن المال المكسوب بالحرام يضيع ويضيع معه صاحبه .

فقال ريكوته ، لن أحدثك في هذا بعد الآن ، لكن خبرني هل كنت في قريتنا حينما رحلت زوجتي وابنتي ، وأخو زوجتي ؟

– نعم كنت موجودا ، وأستطيع أن أقول لك أن ابنتك كانت جميلة جدا حتى أن كل الناس خرجوا إلى الشارع لرؤيتها ، وكانوا يقولون جميعا أنها أجمل مخلوقة في العالم . وقد رحلت وهي تذرف العبرات ، وعانقت صديقاتها ومعارفها ، ورجتهن أن يدعن لها الله والعذراء . وكانت متأثرة ، إلى درجة أنها أثارت الدموع في عيني ، أنا الذي لا أبكي كثيرا ورغب الكثير منا في إخفائها أو اختطافها على الطريق ، لكن الخوف من مخالفة أمر الملك روعهم . وكان أشدهم حماسة السيد بدرو جريجوريو هذا الوارث الشاب الغني الذي تعرفه ، وكان مولها بحبها ، ولم يشاهد بعد ذلك في القرية منذ رحيلها . وقد ظننا كلنا أنه جرى في أثرها لاختطافها لكننا لم نعرف شيئا عنه حتى الآن .

فأجاب ريكوته ، لقد كنت على علم دائما بأن هذا الفتى يحب ابنتي لكن لما كنت واثقا من فضيلتها ، فإني لم أقلق . ولقد سمعت يا سنشو أن المسلمين لا يتزوجون أبدا أو نادرا جدا ، من النصارى ، وابنتي ، التي أعدها نصرانية أكثر منها عاشقة ، أظن أنها لن تحفل بملاحقات هذا الفتى .

فقال سنشو ، سمع الله منك ، لأن هذا لا يتفق مع أي منهما . لكن دعني أرحل يا صديقي ريكوته ، فإني أريد أن أصل في هذا المساء إلى الموضع الذي فيه مولاي دون كيخوته .

فقال ريكوته ، في رعاية الله يا أخ سنشو ، هؤلاء هم رفاقي يستيقظون وقد حان الوقت لمتابعة سيرنا .

وتعانقا ، وركب سنشو حماره ، وأمسك ريكوته بعصاه ، وانفصلا .

الفصل الخامس والخمسون

هيما وقع لسنشو في الطريق وأمور أخرى شائقة

تسبب لقاء سنشو بريكوته في عدم وصوله إلى قصر الدوق في ذلك اليوم . فقد فاجأه الليل على نصف فرسخ تقريبا من ذلك القصر ، وكان الظلام حالكا كثيفا ، لكن لما كان ذلك في وقت الصيف ، فإنه لم يهتم بهذا كثيرا ، وانحرف عن الطريق انتظارا لبروغ النهار . ولكن يا له من احتياط شؤم! لقد شاء سوء حظه أن يسقط في حفرة عميقة هو وحماره وهو يبحث عن مكان ملائم للراحة ، حفرة في وسط أنقاض عتيقة . ولم يجد من الوقت غير اللحظة التي فيها أسلم أمره إلى الله من أعماق قلبه وقد ظن أنه سقط في أعماق الهاوية . لكن على مسافة ثماني عشر قدما تقريبا لقي القاع ، وهو راكب دائما على حماره دون أن يصاب بأي أذى فتحسس كل جسمه ، وملك نفسه ليرى هل جرح في أي موضع ، ولما تيقن أنه سليم معافى ، لم يكف عن حمد الله على هذه النعمة غير المنتظرة لأنه تخيل أنه مزق ألف مزق . ثم تحسس جدران هذه الحفرة ، ليرى هل يمكن الخروج منها بيديه وقدميه دون مساعدة أحد ، لكنه وجدها ملساء بغير بروزات مما أحزنه كثيرا ، خصوصا حين سمع حماره يشكو بلفته الخاصة . وكان لشكواه ما يبررها لأنه أصيب من جراء السقطة فصاح سنشو :

آه! كم من أحداث غير منتظرة تعترض في كل خطوة من يعيشون في هذا العالم الحقير! من كان يظن أن من كان بالأمس يجلس متربعا على عرش حكومة جزيرة ، محاطا بالخدم والحشم والأتباع الذين تحت إمرته ، سيجد نفسه اليوم مدفوعا في حفرة عميقة ، بغير معين من الخدم والأتباع ؟ هنا حماري وأنا سنموت جوعا بعد قليل ، إن لم نمت قبل ذلك ، وهو من الرضات ، وأنا من القلق والملال . ويا ليتة كان لي حظ مولاي دون كيخوته ، حين نزل في كهف مونتسينوس ذلك المسحور ، فوجد رجلا استضافوه ، خيرا مما لو كان في بيته ، إذ وجد المائدة منصوبة والسرير مفروشا ، وشاهد مناظر جميلة رائعة ، أما أنا في

هذا الجحر فإني لن أرى غير العلاج والأفاعي . ما أشقاني إلى أين اقتادني جنوني وخيالاتي الحمقاء ؟ حين يعثرون علي سيخرجون من هنا عظامي جافة ، نظيفة ، هي وعظام حماري ، وهذا سيعترف الناس بأمرنا ، على الأقل أولئك الذين يعلمون أن سنشو بنتا لم يفارق حماره أبدا ولم يهجر حماره . ما أشقاني هذه بلية أخرى ولماذا لم يشأ الحظ القاسي أن يمكننا من أن نموت في وطننا ، بين أهلنا ؟ لو كانت مصيبتنا بغير علاج ، فقد كنا نستطيع على الأقل أن نجد ناسا يغمضون عيوننا ، ويبكون علينا . إيه أيها الصديق العزيز ، أيها الرفيق المخلص ، أي جزاء رديء أقدمه لك عن خدماتك الطيبة إغفر لي ، وادع الحظ ، بكل قواك ، ليستنقذنا من هذا الجحر الحقير الذي نجد أنفسنا فيه وإني أعذك أن أعقد على جبهتك إكليل غار ، يجعلك شبيها بشاعر نال الجائزة ، وأن أعطيك علفة مزدوجة .

وهكذا كان سنشو يتشكى ، وكان حماره يصغي إليه دون أن يجيب بكلمة واحدة ، لشدة فزع هذا المسكين وبؤسه . وبعد أن قضى الليلة كلها في مثل هذه الشكايات ، بزغ النهار ، وتبين سنشو أن من المستحيل عليه كل الاستحالة أن يخرج من الجحر الذي وجد فيه ، بغير معونة أحد . فاستأنف النواح ، والصراخ مناديا بالنجدة ، لكنه كان يصرخ في البرية ، لأنه لم يكن في كل النواحي من يستطيع أن يسمعه ، هنالك اعتقد أنه بغير أمل وكان حماره راقدًا ، ورأسه معلق . وأفلح سنشو في جعله يقف على أقدامه ، وإن كان الحمار قد وجد مشقة كبيرة في الوقوف . واستخرج من الخرج ، الذي لم يضعه أبدا أثناء السقطة ، قطعة من الخبز ، قدمها إلى رفيق محتنه «الحمار» وهو يقول له وكأنه يمكنه أن يسمعه ، « مع الخبز يبدو أن الآلام تخف » . فأكلها الحمار راضيا . وفي هذه اللحظة اكتشف سنشو في أحد جوانب الحفرة نفرة كبيرة يمكن أن يدخل فيها الإنسان ، ويمر منها وهو منحني ، فدخلها وهو يحبو ، ووجد تفعيرا واسعا فسيحا ، مكنه من تمييز شعاع شمس يمر من خلالي ما يمكن أن يسمى سقفا . ثم عاد إلى الحفرة ، وأخذ حجرا ، وبعد وقت قصير وسع الخرق ليمر منه حماره ، ثم أخذ من خطامه ، واقتاده في هذا الخندق ، وهو يرجو دائما أن يجد مخرجا . وقال : « يا إلهي القديرا كم كانت هذه المغامرة ، التي تبدو لي كئيبة ، ستبدو لذيذة لمولاي دون كيخوته إنه لن يعدم أن يحسب هذه الأنفاق حدائق غناء وقصور جليانة^(١) . وعند نهاية هذا النفق كان يستوقع أن يعثر

(١) يشرحها كوياردبيوس فيقول : « إنه بناء قديم جداً يقوم عند مصب نهر تاجه ، بالقرب من طليطة ، في المنطقة التي تسمى بستان الملك ، أما جليانه Galliane فكانت أميرة مسلمة... ومن هنا جاء المثل ' ينشر قصور جليانه ' . ويقول الدكتور فرنشيسكو دي بيزا في وصفه لطليطة (سنة ١٦٠٥) أن هذا القصر كان يقوم في بستان الملك . والواقع أنه كان قصراً ريفياً للترويح ، كانت تأوي إليه الأميرة جليانه .

على مرج أخضر ، أما أنا المسكين الذي لا أملك مثل هذه التخيلات الجميلة ، فإنني أعتقد أنه عند كل خطوة ستنتفتح عند أقدامي حفرة أخرى أعمق من الأولى ، تبتلعني نهائيا ، لأنه كما يقول المثل « الشر يكون هينا إذا جاء وحده . » هكذا كان سنشو يفكر ، وبدا له أنه سار أكثر من نصف فرسخ من الطريق حين أبصر نورا غامضا ، بدا له أنه نور النهار ، مما جعله يؤمل في الخروج من هذه الهاوية والعودة إلى طريق الحياة .

ويتركه سيدي حامد هاهنا ، ليعود إلى دون كيخوته الذي كان ينتظر بلهفة وسرور ، يوم المباراة مع المغرر ببنت دونيا رودريجث ، وكان يؤمل أن يستطيع بقوة ساعده أن يكشف الظلم عنها .

وحدث أنه في عشية يوم المباراة خرج في الصباح لاختبار قوة نفسه ، وأطلق العنان لفرسه روئيناته ، ووقعت أقدامه على فتحة كبيرة ، ولولا أن دون كيخوته شد العنان بقوة ، لسقط كلاهما في الحفرة . فدهش مما رأى ، واقترب دون أن ينزل عن فرسه وفحص الحفرة ، وخيل إليه أنه يسمع صرخات عالية تخرج منها . فأصغى بانتباه ، وتبين هذه الكلمات : « وا أسفاه ألا يوجد أي رجل طيب هناك في أعلى يسمعي ، أو أي فارس محسن يشفق على خاطئ مسكين مقبور حيا ، وحاكم بائس لم يستطع أن يحكم ؟ » وخيل إلى دون كيخوته أن هذا صوت سنشو ، مما أدهشه كثيرا . فرفع صوته بأقصى ما يستطيع ، وأخذ يصيح : « من هناك في أسفل ؟ من ذا الذي ينوح ؟ » - فأجاب : « ومن عسى أن يكون غير سنشو التعيس ، الحاكم ، لسوء حظه ، على جزيرة برتريا ، وكان قبل ذلك سائسا للفارس دون كيخوته دلا منتشا ؟ » وعند هذه الكلمات ازدادت دهشة دون كيخوته ، وخيل إليه أن سنشو مات ، وأن روحه في عذاب ، وأنها هي التي تتكلم . وبناء على هذه الفكرة : « أستحلفك بكل قسم مسموح ، لمسيحي كاثوليكي ، أن تقول لي من أنت ، إن كنت روحا في عذاب ، فقل لي ماذا تريد أن أفعل من أجلك . إن مهنتي هي إغاثة الملهوفين والباكين في هذا العالم ، وبالأحرى سأفعل ذلك بالنسبة إلى الملهوفين والبائسين في العالم الآخر ممن لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم . » - فأجابه الصوت : « أنت إذن السيد دون كيخوته دي لا منتشا ، لأنني أعرفك من صوتك » - فقال دون كيخوته : « نعم ، إنني هو ، ومهنتي أن أهب لنجدة الأحياء والأموات في محتهم ، ولهذا فإنك إذا كنت سائسي سنشو ينثا ، بشرط ألا يكون الشياطين قد أخذوك ، وأن تكون بلطف من الله ورحمته في المطهر ، فإن كنيستنا أمنا المقدسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية عندها الصلوات الكفيلة بتخفيف آلامك ، وسأتشفع لديها بكل ما أملك من أجلك ، قل لي إذن من أنت . » - فقال الصوت : « أحلف يا

سيدي دون كيخوته ، بميلاد من تشاء ، أنني سانسك سنشو پنتا ، وأنني لم أمت أبدا في عمري . لقد تركت الحكم هناك لأسباب سأفضي بها إليك في فرصة أخرى . وفي هذه الليلة وقعت في هذه الحفرة ، أنا وحماري ، وها هو ذا ليكذبني إن كنت من الكاذبين . » وفي هذه اللحظة ، وكأنه فهم ما قاله سنشو ، أخذ الحمار في النهيق بصوت تردد في جوانب الكهف . فصاح سنشو : « شاهد لا ترد له الشهادة . » - فقال دون كيخوته : « إنني أتبين هذه الصيحة ، وأتعرّف صوتك أيضا ، يا عزيزي سنشو ، إنتظرنني ، سأعود إلى قصر الدوق ، وهو غير بعيد ، وآتي ببعض الناس لاستخلاصك من هذه الحفرة ، التي لاشك في أن من أوقعك فيها هو خطاياك . » - فقال سنشو : « إذهب بسرعة وعد بسرعة ، لأنني لا أستطيع احتمال أن أرى نفسي مقبورا حيا ، وفضلا عن ذلك فلنني أموت من الخوف » .

فذهب دون كيخوته إلى القصر ، وروى لمضيفه حادث سنشو ، فدهش الدوق والدوقة كل الدهشة ، وإن كانا قد فهما أنه لا بد وقع في بئر سرداب موجود منذ الأزل لكنهما لم يستطيعا أن يفهما لماذا . لقد ترك سنشو الحكم دون أن يخبروه بعودته . وأخيرا نقلوا إلى المكان حبالا ، وبقوة السواعد أمكن أولا إخراج الحمار ، وبعد ذلك سنشو ، من حفرة الظلمات هذه ، وكان طالب شاب حاضرا فقال : « الله يخرج كل الحكام الأردباء من حكوماتهم مثل المذنب التعس وهو يخرج أعماق الهاوية ، يموت من الجوع ، شاحبا ، وبدون أي فلس ، كما أعتقد . » - فأجاب سنشو : يا أخي السليط اللسان ، طوال الثمانية أو العشرة أيام التي توليت فيها الحكم الموكول إلى ، لم أستطع أن أشبع مرة واحدة من الخبز ، الأطباء اضطهدوني ، والأعداء رضوا عظامي ، ولم يكن عندي وقت لفرض ضرائب ولا لجبايتها . وهكذا فلنني أستحق أبدا أن أخرج منها على هذا النحو . لكن العبد في التفكير والرب في التدبير . والله يعرف الأصلح والأوفق لكل إنسان . ولا بد من أخذ الزمان على علاقته ، ولا أحد يستطيع أن يقول : أيتها النافورة ، لن أشرب من مائك . حيث يعتقد الإنسان أنه يوجد شحم لا يوجد فقط أوتاد .

فقال دون كيخوته : لا تغب يا سنشو ولا تنزعج مما تسمع الناس يقولونه ، وإلا لما فزعت منهم . ما دام ضميرك صافيا ، فليقولوا ما يشاؤون . ومحاولة ربط لسان النميمة كمحاولة وضع أبواب للحقول والبراري . وإذا اغتنى الحاكم من حكومته ، قيل إنه لص ، وإذا خرج منها فقيرا ، قيل إنه مبذر أو مجنون .

فقال سنشو : آه صحيح ، يمكنهم أن يقولوا عني هنا إنني مجنون ، لا سارق . وهما في هذا الحديث إذ بلغنا القصر ، وسط حشد من الأطفال وسائر الناس . فوجدنا في

البهو الدوق والدوقة ينتظران . وبدأ سنشو بأن اقتاد حماره إلى الزريبة ، لأنه قال إن حماره أمضى ليلة سيئة ، وبعد ذلك ذهب إلى سيدي ، وجثا على ركبتيه أمامهما ، وقال : « سيدي ، بأمر منكما ، ودون استحقاق مني ، ذهبت لتولي حكم جزيرتكم برتريا . دخلتها عاريا ، وخرجت منها عاريا ، ولم أكسب منها ولم أخسر . وثم شهود ليقولوا هل أحسنت في الحكم أو أسأت . أصدرت أحكاما ، وكنت أتصور جوعا باستمرار ، بناء على رغبة الدكتور بدرو رثيو ، من مواليد تريتيافويرا ، والطبيب الجزيري للحكام . وهاجمنا الأعداء إبان الليل ، وطاردونا بشدة ، وأهل الجزيرة يقولون إنهم خرجوا من المعركة ظافرين بقوة ساعدي ، هداهم الله لقول الحق . ثم إنني طول هذه المدة استطعت تقدير الأعباء والالتزامات التي يفرضها منصب الحاكم ، فوجدت أنها ثقيلة جدا على كفتي ، إنها ليست أحمالا يقوى عليها صلبي ، ولا سهاما لحقيبتني ، ولهذا ، ولكيلا تسقط الحكومة معي ، أردت تركها ، وبالأمر صباحا ، خرجت من الجزيرة وتركتها بالشوارع نفسها ، والبيوت نفسها والسقوف نفسها التي كانت لها من قبل . لم أقترح شيئا من أحد ، ولم أكسب شيئا . وكان في نيتي إصدار بعض القرارات المفيدة ، ولكنني لم أصدر^(١) شيئا . خوفا من عدم مراعاتها ، إذ يستوي عندئذ أن تصدر أو أن لا تصدر . وقد تركت ، كما قلت لكم ، الجزيرة بغير رفيق إلا حماري ، وسقطت هذه الليلة في حفرة ، وسرت مسافة طويلة تحت الأرض ، وفي هذا الصباح شاهدت نور النهار ، لكن لو لم تقد السماء إلى سيدي دون كيخوته ، لبقيت في هذه الحفرة حتى نهاية العالم . وهكذا يا سادة ، ها هو حاكمكم سنشو ، الذي تعلم ، خلال الأيام العشرة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم ، أن يعد حكومات العالم باطلا ولا شيء . وبهذا الشعور ، أقبل أقدام سيادتكم ، ومثل الأطفال الذين يقولون وهم يلعبون : اقفز أنت وأعطني أنت ، فإنني أقفز من الحكم وأعود إلى خدمة مولاي دون كيخوته ، الذي معه سأكل على الأقل خبزا حتى أشبع ، فإن تعبت فما دمت شعبان ، فلن يهمني إن كان الطعام فاصوليا أو فجلا » .

وهكذا انتهى من خطبته . وكان دون كيخوته يخشى دائما أن تبدر عنه آلاف الكلمات النابية ، ولما رأى أنه أجز في كلامه ، حمد السماء على ذلك . وعانق الدوق سنشو ، وقال له إنه غاضب لأن سنشو ترك الحكومة بسرعة ، لكنني سيعمل على أن يعطيه منصبا آخر أقل أعباء وأكثر مكسبا . عانقته الدوقة أيضا ، وأوصت بحسن معاملته ، وبذل الرعاية له ، لأنه بدا في حال زرية .

(١) هذا يخالف ما ورد قبل ذلك .

الفصل السادس والخمسون

في المعركة الرهيبة التي لم يسمع بمثلها والتي وقعت بين دون كيخوته
دلامنتشا والخادم توسيلوس بشأن بنت الدونيا رودريجت

لم يندم الدوق والدوقة على المزحة التي دبراها لسنشو بمنحه الحكم في الجزيرة ،
خصوصا وقد جاء ناظر القصر في اليوم نفسه ، وروى بالتفصيل كل ما قاله وما فعله سنشو ،
خصوصا حكاية الهجوم على الجزيرة وفزع الحاكم ، مما ألهاهما كثيرا . ويروي التاريخ بعد
ذلك أنه قد حان يوم المباراة ، وكان الدوق قد لقن خادمه توسيلوس الوسائل التي ينبغي
عليه أن يستخدمها للانتصار على دون كيخوته دون جرحه ولا قتله ، وأمر بإزالة سنان
الرماح ، قائلا للفارس إن المشاعر المسيحية التي يدين بها لا تسمح بتعريض المقاتلين ،
وعليه ، دون أن يدفع الأمور إلى شدتها ، أن يقنع بأنه تركت له الحرية في المنازلة ، لأنه
بالسماع بهذا قد خالف مراسم المجمع^(١) المقدس ، الذي يمنع مثل هذه التحديات . فأجاب
دون كيخوته قائلا إن الدوق هو صاحب الأمر والنهي ، وله أن يأمر بما يشاء ، وسيمثل
لإرادته في كل شيء .

وأمر الدوق بنصب منصة في ميدان القصر للحكام ، ولأصحاب الدعوى وهما الأم
والبنت . وتجمعت جمهرة غفيرة من القرى المجاورة وقد جذبتهم جدة المشهد الذي لم
يعرف له التاريخ مثيلا . وكان أول من تجول في الساحة هو مدير المراسم ، فقد فتش
الميدان والحاجز ، ليرى هل يوجد بعض القش ، أو الكمين الذي يمكن أن يسقط فيه أحد .

(١) الإشارة إلى مجمع ترنتو (مدينة في التيرول على بعد ١٦٣ كم جنوبي اسنبروك) الذي عقد بين سنة ١٥٤٥ و ١٥٦٣ ، وهو المجمع
المسكوني التاسع عشر . وقد اجتمع بناء على طلب البروتستنت ، ولكنهم لم يشرطوا مقدما بسلطته . وتوقفت اجتماعاته مرارا إما
بسبب معارضة شارلكان أو البابا وفي هذا المجمع حددت العقيدة الكاثوليكية ، وأعلن تكفير المنشقين (البروتستنت) وأصدر عدة
قرارات تأديبية . منها ما ورد في الفصل ١٩ من الجلسة ٢٥ خاصة بالمبارزة الفردية إذ يعلن « حرمان الابطرة والملوك والدوقات
والأمراء... والحكام الزميين الذين يسمحون بأماكن للمبارزة الفردية بين المسيحيين في أراضيهم » .

ثم ظهرت الوصيفة وبنتها ، يغشيهما غلالة طويلة حتى العينين ، وجلستا على الكراسي المخصصة لهما ، والأسى باد على وجهيهما ، وكان دون كيخوته عند الحاجز ، وبعد ذلك بقليل ، وعلى صوت الأبواق ، دخل الحلبة الخادم العظيم توسيلوس راكبا على جواد قوي ، وحافة الخوذية مرخية ويلبس أسلحة قوية لامعة ، وكان الفرس رماديا كابيا ، وبدا أنه من فريزلند ، وأقدمه فيها وبر طويل كث . وكان الدوق قد لقن بطلنا المغوار الطريقة التي يسلكها مع دون كيخوته .

وأمره خصوصا بتجنب أول صدام مع الفارس ، حتى يجنبه موتا محققا .
فقام توسيلوس بجولة في الميدان ، ثم اقترب من السيدتين ، وتطلع خصوصا في تلك التي كانت تدعي المطالبة بالزواج منها ، وسألها هل توافقان على أن يتولى الفارس الدفاع عنهما . فأجابتا بنعم ، وأنهما توافقان على كل ما يفعله . وكان الدوق والدوقة في مقصورة بنيت فوق الحاجز ، أمامهما اصطاف جمهور المتفرجين المتلهفين لمعرفة نتيجة المعركة وكانت شروطها هي أنه إذا انتصر دون كيخوته ، فإن خصمه يكون ملزما بالزواج من بنت السيدة رودريجت ، أما إذا انهزم ، فإن المدافع (دون كيخوته) سيتحلل من وعده ، دون أن يلزم بالوفاء بأي شيء . وقام مدير المراسم بتوزيع الشمس بينهما بالتساوي ، وعين لكل واحد منهما المكان الذي عليه أن يحتله . ودقت الطبول ونفخ في الأبواق ، واهتزت الأرض تحت أقدام الخيول ، واحتبست أنفاس المتفرجين ، منتظرين إعلان من الفائز . وتوكل دون كيخوته على الله وعلى سيدته دلثيا ، وانتظر إعطاء إشارة البدء . لكن خادمنا كان يفكر تفكيراً آخر . فإنه حين تقدم ليتطلع فيمن تبدو خصيمته ، بدت له أجمل امرأة شاهدها في حياته ، والفتى الأعمى الذي يسمي الحب لم يشأ أن يضيع فرصة الاستيلاء على نفس خادم ، وأن يزيد في غنائمه ، فاقترب الحب منه ، برقة ، دون أن يراه أحد ، ورماء في الجانب الأيسر بسهم حاد ، طوله ذراعان ، ونفذ في صميم قلبه من جانب إلى جانب . وهذا أمر سهل على «الحب» ، لأنه غير منظور ، ويدخل في كل مكان ، ويخرج منه ، دون أن يطالبه أحد بالحساب عن أفعاله . فلما أعطيت إشارة البدء ، كان خادمنا في نشوة ، يفكر مثل دون كيخوته الذي ركض بالسرعة التي أمكنت روئيناته ، وانقض نحو خصمه . ولما رآه سنشو يركض صاح «هناك الله يا زهرة الفرسان الجواله وزيدتهم ، حقق الله لك النصر ، لأن الحق في جانبك» . ولما شاهد توسيلوس أن دون كيخوته مقبل عليه ، لم يتحرك خطوة واحدة ، بل نادى رئيس الحكام وقال له : «أليست المعركة من أجل أن أنزوج هذه الأنسة أو لا أتزوجها» ؟ - فأجاب الآخر «نعم» - فقال الخادم : «إن ضميري

يؤنبني ، وسأنوه به لو أنني استمررت . ولهذا أعلن أنني مهزوم ، وأطلب الزواج فوراً من هذه الأنسة . فارتبك رئيس الحكام من اقتراح توسيلوس هذا - كل الارتباك ، ولما كان أحد المشتركين في هذه المزحة فإنه لم يستطع أن يجيب بكلمة . وتوقف دون كيخوته في وسط الحلبة ، ورأى أن خصمه لا يريد القتال .

ولم يستطع الدوق أن يفهم لماذا لا يريد المتحاربان القتال ، ولكن رئيس الحكام ذهب لإبلاغه نوايا توسيلوس ، مما جعله يتضايق كثيراً . وفي هذه الأثناء ، اقترب توسيلوس من دونيا رودريجت ، وقال لها : « سيدة ، إنني أود بإخلاص أن أتزوج ابنتك ، ولا أريد أن أشتري بالمعارك والكدمات ما أستطيع الحصول عليه بالسلام ودون خطر الموت » . ولما سمع دون كيخوته هذا الكلام قال : « ما دام الأمر هكذا ، فإنني خرجت من تعهدي الذي بذلته لك ، فليتزوجا بالرفاء والبنين ، والله يوفقهما ، وبطرس يبارك عليهما » .

ونزل الدوق إلى الميدان واقترب من توسيلوس وقال له : « هل صحيح أيها الفارس أنك تقر بهزيمتك ، وأنت مدفوعاً بتأنيب ضميرك تريد الزواج من هذه الأنسة ؟ » - فأجاب : « نعم ، يا سيدي » . - فقال سنشو : « إنه أصاب جداً ، أعط القط ما أردت إعطائه إلى الفار ، تنشأ لك المتاعب » .

وأخذ توسيلوس يحل خوذته ، وسأل المساعدة في خلعه بسرعة ، لأنه شعر بأنه على وشك الإغماء ، لأنه لم يعتد الانحباس طويلاً في هذا الحبس الضيق ، فرفعت خوذته ، وكشف عن وجهه خادماً .

فلما شاهدته السيدة رودريجت وبنتها صاحت : « هذا غش ، لقد أحلوا توسيلوس ، خادم سيدي الدوق ، مكان الزوج الحقيقي » ، إنني أطالب بعدالة الله والملك ، بسبب كل هذا الخداع أو الاحتيال » .

فقال لهما دون كيخوته : « لا تغضبا يا سيدتي ، لا خداع ولا غش ، وإن كان ثم شيء من هذا فإنه ليس من عمل الدوق ، بل من عمل السحرة الأشرار الذين يطاردونني » لقد حسدوني على المجد الذي نلته بانتصاري ، فحولوا شكل زوجك إلى الإنسان الذي تقولين إنه خادم الدوق ، اتبعني نصحي ، وعلى الرغم من خبث أعدائي ، تزوجي من هذا الرجل ، وهو من غير شك الرجل الذي تريدينه » . فلما سمع الدوق هذا الكلام لم يملك نفسه من الضحك ، وزال غضبه وقال : « إن الأمور التي تحدث للسيد دون كيخوته عجيبة جداً حتى إنني محمول على الاعتقاد أن هذا الرجل ليس خادمي ، وعلى كل حال ، فلنجأ إلى الحكم » ونؤجل الزواج خمسة عشر يوماً ، وفي أثناء هذه المدة لنحبس هذا الذي أدهشنا ، وربما

استعاد شكله الأول في هذه الفترة ، لأن حقد السحرة على السيد دون كيخوته لا يمكن أن يستمر طويلا ، خصوصا إذا شاهدوا أن مكائدهم وتحويلاتهم لا تفيدهم » . - فقال سنشو : « آه يا مولاي ! إن هؤلاء الأوغاد تعودوا أن يحولوا كل الأشياء المتعلقة بمولاي دون كيخوته ، لقد هزم في الأيام الماضية فارسا يدعى فارس المرايا ، فحوله السحرة إلى شكل حامل البكالوريا سمسون كرسكو ، المولود في قريتنا ، وصديقنا الكبير ، والسيدة دلثنيا دل توبوسو لقد حولوها إلى فلاحه دميمة ، وهكذا أعتقد أن هذا الخادم سيظل خادما طول حياته وسيموت خادما » وهنا قالت بنت السيدة رودريجت : « ليكن من يكون ، فما دام يريد الزواج بي ، فإني موافقة ، وأفضل أن أكون زوجة شرعية لخادم على أن أكون الخليفة المغرر بها لفارس ، ومن غرر بي هو الآخر ليس فارسا » . وأخيرا تقرر حبس توسيلوس إلى أن يتبين الأمر في تحوله . وهتف الكل بانتصار دون كيخوته ، لكن الكثيرين أسفوا من أعماق قلوبهم على أن هذه المعركة التي طالما انتظروها بصبر نافذ لم تقع ، وأن البطلين لم يمزق كل منهما الآخر . وهكذا الأطفال لا ينبسطون حينما لا يشنق المجرم الذي ينتظرونه ، لأنه صدر عفو عنه . وعاد كل امرئ إلى بيته ، ودخل الدوق والدوقة ودون كيخوته القصر ، وحبس توسيلوس ، ورضيت السيدة رودريجت ونبتها لأن الأمر انتهى إلى الزواج ، على نحو أو آخر . ولم يكن الخادم العاشق أقل منهما اغتباطا .

الفصل السابع والخمسون

كيف ودع دون كيخوته الدوقة، وما وقع له من الوقحة
الخبیثة التسيدورا، خادمة الدوقة

كان دون كيخوته يلوم نفسه في قلبه على البطالة التي استسلم لها في قصر الدوق ، واعتقد أنه مذنب بالبقاء وقتاً طويلاً غارقاً في الحفلات والملذات التي أفاضها سادة القصر عليه ، بوصفه فارساً جوالاً ، وبدا له أنه سيكون ملزماً بتقديم الحساب عن ذلك الكسل أمام الله . ولهذا طلب رسمياً من الدوق أن يأذن في الرحيل . فأذن له ، وهو يعبر له عن أسفه ، وسلمت الدوقة إلى سانشو رسالة زوجته . فأخذ يبكي وهو يقول : « من كان يظن أن الآمال العظيمة التي بعثتها في نفس تريزة المسكينة أخبار حكومتي ، لن تؤدي إلا إلى العودة إلى البحث عن المغامرات مع مولاي دون كيخوته ؟ ومع ذلك فلنني راض لأنها كشفت عن نفسها بإرسالها ثمار بلوط إلى السيدة الدوقة ، ولو كانت لم ترسلها ، لاتهمتها بالجحود . ومن ناحية أخرى ، فإن ما يواسيني هو أنه لا يمكن تسمية هذه الهدية رشوة ، لأنني كنت فعلاً حاكماً حينما أرسلتها ، وأقل الهدايا تدل علي العرفان والإقرار بالجميل . عارياً دخلت هذه الحكومة ، وعارياً خرجت منها ، وهذا قول أستطيع أن أردده باستمرار ، وأنا مستريح الضمير ، وهذا ليس بالقليل ، عارياً ولدت ، وعارياً أجد نفسي ، لم أربح شيئاً ولم أخسر شيئاً » .

هكذا كان سانشو يكلم نفسه يوم الرحيل . ودع دون كيخوته الدوق في العشية ، وفي الغداة الباكرة ظهر في ميدان القصر مدججاً بالسلاح . وكانت المقاصير مملوءة بالناس لمشاهدته وهو يرحل ، وجاء الدوق بنفسه .

وكان سانشو على حماره ، ومعه خرجه وحقيبه ، وبدا عليه الفرح ، لأن ناظر قصر الدوق ، الذي لعب دور الكونتيسة تريفالدي ، أعطاه كيساً فيه مائة اسكودو من الذهب ، للانفاق منها في أثناء السفر ، وكان دون كيخوته يجهل هذا . وبينما تدافع الكل حواليهما ، رفعت التسيدورا الوقحة الخبيثة صوتها ، وبصوت نائح قالت :

« أصغ ، أيها الفارس القاسي ، وأمسك بعنان فرسك ، ولا تدفع جوانب دابتك الجامحة .
« أنت تعلم ، أيها الغدار ، أنك لا تهرب من حية متوحشة ، بل من خروقة ليست نعمة
بعد ، فهيئات أن تكونها .

« لقد غررت ، أيها الوحش الرهيب ، بأجمل فتاة شاهدتها ديانا (القمر) على سفوح
الجبال وفيئوس في الغابات .

« أي بيرينو القاسي ، أي اينويوس الهارب ، ليصحبك برأبا^(١) ، ويحدث ما يحدث .
« إنك تحمل ، ويا له من اختطاف فاجر ، بين مخالبك حشايا عاشقة رقيقة متواضعة .
« إنك تحمل ثلاث قبعات وربطات سيقان تساوي أصفى المرمر انصقلا ، وبياضا ،
وعروقا زرقا .

« إنك تحمل ألفي زهرة ، لهيبها يمكن أن يحرق ألفي طروادة ، لو وجدت ألفان
منها .

« أي بينو القاسي ، أي اينويوس الهارب ليصحبك برأبا ويحدث ما حدث .
« ولتكن أحشاء سائسك سنشو صلبة لا تشعر ، ولا تخرجن دلثيا من انسحارها .
« ولتحمّل البائسة وزر غلطتها ، لأنه في وطني العادلون يدفعون أحيانا ثمن جرائم
الخطئين .

« ولتتحول أجمل مغامراتك إلى مصائب ، ولذاذك إلى أحلام ، وإخلاصك إلى نسيان .
« أي بيرينو القاسي ، أي اينويوس الهارب ، ليصحبك برأبا ويحدث ما يحدث .
« وليعدوك غادرا ، من أشبيلية إلى مرشانة ، ومن غرناطة إلى لوشه ، ومن لندن إلى
انجلترا .

« وإذا لعبت بالورق ، فلتهرب منك الملوك ولا تر أبدا الآس ولا السبعة .
« وإذا قطعت الأبواق ، فليخرج منك الدم ، ولتبق الجذور في فمك إذا حلفت
أسنانك .

« أي بيرينو القاسي ، أي اينويوس الهارب ، ليصحبك برأبا ، وليحدث ما يحدث » .
وبينما كانت التسيدورا النائحة تتشكى على هذا النحو ، كان دون كيخوته يتأملها

(١) برأبا : رجل من اليهود « كان قد ألقى في السجن لاجل فتنة حدثت في المدينة » (إنجيل لوقا ، الفصل ٢٣ ، الجملة ١٨) وقد طالب اليهود من بيلاطس أن ينفو عنه ، وأن يصلب المسيح . ورغم تكرار بيلاطس أن المسيح بري ، اضطر أن يستجيب لطلب اليهود ، وأن يفرج عن برأبا ، ويأمر بصلب المسيح . وأصبح برأبا يستخدم في اللغات الأوروبية للدلالة على شخص كرهه متوحش الطلعة شرير .

دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم تلفت إلى سائسه وقال : « يا صاحبي ! أستحلفك ، بحياة أجدادك ، أن تعترف لي هل أخذت القبعات الثلاث وربطات السيقان التي تطالب بها هذه الأنسة العاشقة » ؟ فقال سنشو : « نعم ، القبعات ها هي ذي ، أما ربطات السيقان فلا^(١) » .

ودهشت الدوقة من وقاحة التسيدورا : لأنها ، وإن كانت تعرف أنها تحب المزاح والعبث ، فإنها لم تستبح مثل هذه الحريات ، ثم إنها لم تخبر مقدما بهذه المزحة الجديدة . لكن الدوق ، وقد سرته هذه اللعبة ، أراد أن يمضي في العملية ، فقال لدون كيخوته بلهجة جادة : « سيدي الفارس ، يبدو لي غريبا ، بعد حسن اللقاء الذي نعمت به في هذا القصر ، أن تجرؤ على أخذ ثلاث قبعات على الأقل ، وربطات سيقان أيضا من إحدى السيدات ، وهذه فعلة غير جديرة برجل شريف ، خصوصا شخص له سمعتك اللامعة . أعد ربطات الساق فورا ، وإلا تحديثك أنا ، لمبارزة عفيفة ، دون أن أخشى أن يحول السحرة الأشرار وجهي ، كما فعلوا مع خادمي توسيلوس الذي تقدم لمبارزتك... » فأجاب دون كيخوته : « لا قدر الله ، أن أسحب السيف على شخصك العظيم جدا ، الذي منحني كل هذه الأفضال وعاملني معاملة حسنة . سأعيد القبعات ، لأن سنشو يقول إنها معه ، أما ربطات السيقان فهذا مستحيل ، لأنها ليست معه ولا معي ، فلتفتش هذه الأنسة حقائبه ، وهي ستجدها قطعاً . سيدي الدوق ! إنني لست لصا أبدا ، ولم أكن كذلك أبدا ، ولا أفكر أبدا أن أكونه طالما كان الله يعينني ، إن هذه الأنسة تتكلم كفتاة والهة ، وهي نفسها تصرح بذلك ، ولا أستطيع أن أفعل لها شيئا ، ولست مضطرا أبدا إلى طلب المغفرة منها ، ولا من سعادتك ، وأرجوك أن تحسن الظن بي ، وأن تأذن لي مرة أخرى في الرحيل ، لأتابع طريقي » .

فقالت الدوقة : وفقك الله إلى سواء السبيل ، ونرجو أن نلتقى دائما أنباء سارة عن مغامراتك . امض ، يا سيد دون كيخوته ، في رعاية الله ، لأن بقاءك هنا لن يفعل أكثر من أن يزيد في وجدان هؤلاء الأوانس اللواتي يتأملنك . أما هذه - وأشارت إلى التسيدورا - فإني سأعاقبها عقابا لن تضل بعده لا في نظراتها ولا في كلماتها .

فقالت الخادمة الآثمة : لا أرجو منك غير أمنية واحدة يا مولاي ، هي أن تعفو عني لاتهامك : لأن أربطة السيقان معي على سيقاني ، إنني مثل من يبحث عن حمامه وهو راكبه .

(١) في النص حرفيا : « أما ربطات السيقان فأمرها مثل الذهاب في روابي أبدة » - وهذا تعبير عن يغفل في كلامه ويأتي بأقوال غير معقولة أو كاذبة أو مستحيلة .

فصاح سنشو : ألم أقل لكم ؟ وهل يمكن أن أتهم بإخفاء أشياء مسروقة ، أنا الذي كنت أقدر على فعل الكثير من هذا لما أن كنت حاكما ؟
فانحنى دون كيخوته ، وحيا الدوق بلطف ، وكذلك الدوقة وسائر الحاضرين ، ثم أدار عنان روئينانته ، وخرج من القصر ، يتبعه سنشو راكبا على حماره ، واتخذ طريق سرقسطة .

الفصل الثامن والخمسون

كيف انهمرت المغامرات على دون كيخوته
بحيث لم تترك له فراغاً

لما أصبح دون كيخوته في العراء ، وتخلص من مضايقات السيدورا أحس بأنه استرد نفسه ، وشعر بتجدد قواه وحماسته ، وقال لسنشو ، وقد تلفت إليه ،
- يا صاحبي ، إن أئمن ما منحه السماء للإنسان من نعم هو الحرية لا ريب في ذلك ، وكل الكنوز التي تنطوي عليها الأرض أو التي دفنت في البحار لا يمكن أن تساويها . ومن أجلها ، ومن أجل الشرف ينبغي أن نخاطر بالحياة . وضد الحرية ، وهو العبودية الخائفة ، هي أكبر الشرور . لقد شهدت ما كان في ذلك القصر من رخاء وثراء ووفرة ، والحفلات الفاخرة التي كانت تقام ، لكنني أحسست ، في وسط هذه الأطايب من الطعام الفاخر ، ومن الشراب المنعش الممتاز ، أنني خاضع لقلق الجوع ، لأنني لم أنعم بكل هذه النعم بالحرية نفسها التي كانت ستكون لي لو أن كل هذه الألفاظ كانت ملكي . والعرفان بالجميل عن النعم التي تلقيناها رباط يقيدنا ويمنعنا من أن نكون أحراراً . ما أسعد من منحه السماء كسرة من الخبز ، دون أن يضطر إلى الاعتراف لأحد بجميل عليه غير الله تعالى .
فقال سنشو : ومع هذا كله ، أليس من الملائم أن نكون عارفين بشيء من الجميل بسبب المائتي اسكودو من الذهب التي أعطاني إياها ناظر القصر في كيس ، وأحملها على قلبي ، كبلسم ممتاز ضد كل الأحداث التي قد تعرض لنا ؟ إننا لن نصادف دائماً قصورا ترحب بنا ، بل يجوز أن نمر بفنادق نعامل فيها أسوأ معاملة .
وأثناء هذا الحديث كان المولى والسائس يسيران . وبعد قرابة فرسخ أبصرا اثني عشر شخصا تقريبا ، بزي الفلاحين ، يأكلون على العشب ، وهم جالسون على أرديتهم . وأمامهم مدت مفارش بيض كبيرة بدا أنها تغطي شيئا . فاقترب دون كيخوته منهم ، وحياهم بأدب ، وسألهم عما تحت هذه المفارش . فأجاب أحدهم : « سيدي ، هذه صور بارزة من

أجل تشييد مذبح مزين في قرينتنا : وقد غطيناها حتى لا تتسخ ، ونحملها على أكتافنا خوفاً من أن تنكسر . فقال دون كيخوته : « أن سمحتم ، فإنني أود أن أراها : هذه الصور التي تغطي بكل هذه العناية لا بد أنها جميلة » فقال أحد هؤلاء الرجال « جميلة ، كيف ؟ تستطيع أن تحكم عليها من ثمنها . ليس من بينها واحدة لم تكلف خمسين دوقية ، لكن حتى تحكم بعينيك ، هأنذا أريك إياها » . ووقف وكشف عن الصورة الأولى ، وكانت تمثل القديس جورج (مار جرجس) راكباً فرساً ، وهو يطأ الشيطان على هيئة ثعبان ، وبشقه برمح ، مع التعبير عن الغضب المألوفة في صوره . وكانت هذه الصورة رائعة اللمعان . فقال دون كيخوته : « هذا المحارب كان من أشجع الفرسان الجواله في الجيش السماوي ، والمدافع عن الفتيات وكان يسمى القديس جورج (مار جرجس) ، فلننتقل إلى الثانية » . وكانت صورة القديس مرتينوس (مارتان) ، راكباً فرساً هو الآخر ، وهو يعطي نصف رداؤه لأحد الفقراء . فقال دون كيخوته : « هذا الفارس كان من بين النصارى ، وأعتقد أنه كان محسناً أكثر منه شجاعاً ، كما تستطيع أن تحكم يا سنشو وأنت تراه يقتسم رداؤه مع أحد الفقراء ، كان ذلك في الشتاء من غير شك ، وإلا لكان قد أعطاه الرداء كله » . فأجاب سنشو : « أشك في ذلك ، ولا بد أنه سيتذكر المثل الذي يقول : لتعطي وتمسك لا بد من مخ جيد » . فتبسّم دون كيخوته وأمر برفع المفروش الثالث ، وكان يغطي ولي أسبانيا راكباً فرساً ، والسيف مسلول ، والدماء تسيل عليه ، وهو يدوس على المغاربة . فقال دون كيخوته : « إن هذا الفارس كان أحد المدافعين عن الصليب ، وكان اسمه القديس يعقوب متمورس ، وكان من أشجع جيش السماء » . وتحت المفروش التالي كان القديس بولس وقد انقلب عن فرسه ، مع كل التفاصيل المتعلقة بتحوّله إلى المسيحية : وكان مرسوماً بإتقان ، حتى يقال إن يسوع المسيح كان يكلمه وهو يجيب عنه . فقال دون كيخوته : « لقد كان هذا من ألد أعداء كنيسة الله ، ثم صار بعد ذلك من أشد المدافعين عنها حماسةً وغيرةً ، كان فارساً جوالاً في حياته ، وقديساً راسخاً في موته ، وعاملاً لا يكل في كروم الرب ، عالم الوثنيين ، مدرسته السماء ، وأستاذه ومعلمه هو يسوع المسيح نفسه » .

وانتهت الصور . وأعاد دون كيخوته تغطيتها ، وقال للفلاحين : « إني مبسوط جداً لمشاهدة هذه الصور ، يا إخواني ، لأن هؤلاء القديسين كانوا يمارسون المهنة نفسها التي أمارسها ، وهي مهنة السلاح ، وكل الفارق بينهم وبينني هو أنهم كانوا قديسين ، وقاتلوا وفقاً للشرائع الإلهية بينما أنا خاطئ وأقاتل على طريقة بني آدم . لقد غزوا السماء بفضل قوة سواعدهم ؛ لأن السماء هي الأخرى تحتمل العنف ، أما أنا فلست أدري ماذا غزت حتى

الآن ، بفضل أعماله ، لكن لو كانت دلشنيا دل توبوسو قد تخلصت من العذاب الذي تعانيه ، لانصلح حاله ، وتقوت روحي ، واستطعت أن أسلك سبيلا أفضل من ذلك الذي سلكته حتى الآن » . فقال سنشو : « سمع الله منك ، وأخرس الخطيئة! » .

فنظر الفلاحون إلى دون كيخوته باندهاش ، متعجبين من شكله ، ومن أقواله أكثر من شكله ، إذ لم يفهموا نصفها . وفرغوا من طعامهم واحتملوا صورهم ، وودعوا الفارس ، وتابعوا طريقهم . أما سنشو فبقي حائرا ، وكأنه لم يعرف مولاه أبدا ، إذ أدهشه علمه العميق ، إذ بدا له أنه لا يوجد في العالم تاريخ ولا مغامرة لا يعرفها دون كيخوته ولم ترسخ في ذاكرته . وقال له : « آه يا مولاي! إذا كان ما وقع لنا الآن يمكن أن يسمى مغامرة ، فالحق أنها من أمتع وأعذب ما لاقيناه أثناء رحلاتنا ، لقد خرجنا منها بغير خوف ولا ضربات عصي ، ولم نمسك شيئا ، ولم تمس أجسامنا الأرض مسأ ، ولم نشعر بأي جوع . الحمد لله الذي أراني بعيني كل هذه الأمور » فقال دون كيخوته : « أنت على حق يا سنشو ، وأنت تعلم جيدا أن الأزمنة ليست كلها من نوع واحد ، وأن الأيام تتوالى ولكنها لا تتشابه . وما يسميه العام باسم الفأل ، والطيرة ، وهو أمر لا يقوم على النظام الطبيعي للأشياء ، لا ينبغي أن يعده العاقل الحكيم إلا صدفة سعيدة وحسن اتفاق . وأحد هؤلاء الكهان المزعومين خرج يوما في وقت مبكر من بيته ، فلقى راهبا من طريقة القديس فرنسيسكو الطوباوي ، فأدار كتفيه وعاد إلى بيته ، وكأنه لقي تينا . ورجل آخر قلب الملاحه في مائدته ، فاكتأب لهذا جدا ، وكان الطبيعة ملزمة بأن تنبها إلى مصائبنا المقبلة ، وكان مثل هذه الأحداث القليلة الأهمية يمكن أن تعد ندرا . والرجل الحكيم التقي ينبغي عليه ألا يبحث أبدا للنفوذ في أسرار السماء . جاء شبيون إلى أفريقيا ، وسقط حين أراد أن ينزل عن ركوبته ، فعد جنوده هذا الحدث نذير شؤم ، لكنه مد ذراعيه كأنه يريد أن يعانق الأرض وقال : « إيه يا أفريقيه! لن تفلتي من قبضتي ، فإني ممسك بك بين ذراعي . وهكذا يا سنشو ، التقاؤنا بهذه الصور يعدنا بحظ سعيد جدا » . فأجاب سنشو : « وأنا أعتقد مثلك يا مولاي ، ولكني أريد منك أن تخبرني لماذا - حين يريد الأسبان أن يخوضوا معركة ، ويدعون القديس يعقوب متمورس - فإنهم يصبحون : شنت يعقوب وأغلق اسبانيا^(١) ! هل اسبانيا مفتوحة بحيث تحتاج إلى أن تغلق ؟ أو ما المقصود بهذه العبارة ؟ » . فقال دون كيخوته : « كم أنت ساذج يا سنشو! ألا تعلم أن الله قد جعل ولي اسبانيا

(١) معنى هذه العبارة هو : يا قديس يعقوب أغلق اسبانيا دون الأعداء ، اجعلها حصينة لا ينفذ فيها عدو . ولكن دون كيخوته لا يجيب عن سؤال سنشو عن القسم الأخير من العبارة : « وأغلق اسبانيا » .

وشفيهما وحاميهما هو شنت يعقوب متمورس ، ذلك الفارس الكبير ذو الصليب القرمزي ، خصوصا في الحروب الطاحنة التي خضناها ضد المسلمين . نحن نناديه ، ونهيب به ، وندعوه بوصفه حامينا ، في كل المعارك التي نخوضها ، وقد شوهد مرارا والسيوف في يده يهاجم وينقض ويشنت جيوش المسلمين . وأستطيع أن أذكر لك كثيرا من الأمثلة التي أوردها أصدق تواريننا .

فغير سنشو مجرى الحديث ، وقال لمولاه : « الحق لا أني أستطيع أن أنسى وقاحة التسيدورا هذه ، خادمة الدوقة : لا بد أن ما يسمونه « الحب » قد جرحها جرحا بالغا . إن هذا العفريت ، وإن كان أعمى ، فإنه يتخذ من القلوب أهدافا ، ولا يخطئ واحدا منها مهما كان صغيرا ، وينفذ فيه بسهامه . ولقد سمعت أن هذه السهام تنثلم إذا اصطدمت بالحكمة والعفة عند الفتيات ، لكنها بالنسبة إلى التسيدورا كأنها تشحذ وتزداد حدة .

فقال دون كيخوته : يا صاحبي إن الحب لا يعتدل أبدا في أفعاله ولا في أقواله . إنه كالموت ، يصيب قصور الملوك الشامخة وسقوف الرعاة الواطنة ، وحين يستولي الحب على قلب استيلاء تاما فإن أول شيء يفعل هو أن يطرد منه الخوف والحياء ، ولهذا فإن التسيدورا قد كشفت عن حبها بغير حياء ، مما أثار في نفسي من الارتباك أكثر مما أثار من الرحمة .

فصاح سنشو : يا لها من قسوة بالغة ، ويا له من جحود لم يسمع بمثلها ! أكان عن نفسي فإني كنت سأعلن استسلامي ، وخصوصي لأول كلمة حب أسمعها من هذه المرأة . يا لقلبك الذي من المرمر يا لأحشائك التي من البرونزا يا لنفسك التي من طين ! لكنني أعتزف لك بأنني لا أستطيع أن أفهم ماذا عسى أن يكون قد أعجب هذه الفتاة فيك وسحرها هكذا ، وأي أناقة ، وأية قوة ، وأي لطف ، وأي طلعة وضيئة لديك حتى تجعلها عاشقة لك ؟ الحق ، الحق ، أنني تأملتكم مرارا عديدة ، من أعلى شعرك حتى أخمص قدميك ، فلم أجد فيك شيئا لا يثير الرعب أكثر من أن يثير الإغراء . ولما كان من العادة أن يقال إن الجمال هو أكثر الأمور إغراء واجتذابا ، فإني لا أفهم كيف تولدت الفتاة غراما بك .

فأجاب دون كيخوته : يا صاحبي ! ألا تعلم أن الجمال جمالان : جمال الروح وجمال الجسم ؟ وجمال الروح يظهر في التقدير ، والأمانة ، والسلوك الحسن ، والكرم ، وجودة التربية ، وكل هذه الصفات يمكن أن توجد في رجل دميم ، فإذا كانت المرأة أكثر إحساسا بهذا الجمال ، جمال الروح ، منها بجمال الجسم ، فإن الحب يشتعل عندها أسرع ويعنف

أشد . وأنا أعلم يا سنشو أنني لست جميلا ، لكنني على كل حال لست ممسوخا ، ويكفي الرجل الفاضل ألا يكون مسخا من أجل أن ترغب فيه النساء ، إذا كانت فيه صفات القلب التي حدثتك عنها .

ودخلا ، وهما يتحدثان هكذا ، في غابة تحف بالطريق ، ودون أن يتنبه اشتبك دون كيخوته في شبك خضراء ممدودة بين الأشجار . ودون أن يدري ماذا عسى هذه الشباك أن تكون ، قال لسنشو : « هذه الشباك هي من غير شك من أغرب المغامرات التي وقعت لنا . ولأمت ، إن لم يكن السحرة الذين يطاردوني قد فكروا في اصطيادي في هذه الحبال ، لمنعي من متابعة طريقتي ، انتقاما من قسوتي على السيدورا هذه ، لكنني أحذرهم أنه حتى لو كانت هذه الشباك من الماس ، وأقوى ألف مرة من تلك التي نصبها إله الحدادين الغيور (فولكان) للمريخ وفينوس ، فإني سأحطمها بسهولة كما لو كانت من اليراع البحري أو من خيوط القطن » . وفعلا أخذ يشق طريقه ويقطع كل شيء حين شاهد راعيتين فاتنتين تخرجان من بين الأشجار ، أو في القليل سيدتين تلبسان زي راعيتين ، اللهم إلا أن صديريتيهما كانتا من الديباج (البروكار) الناضر ، وتنورتيهما من التافتاه الموشاة بالذهب . وكانت شعورهما تتماوج على كتفيهما ، وتنافس أشعة الشمس في لألألهما ، وعلى رأسيهما إكليان من الغار الأخضر النضر والدلاق الأحمر ، وبدا أن سن كليهما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة . فلما شاهدهما سنشو فتح عينيه واسعتين ، وبقي دون كيخوته حائرا ، وأوقفت الشمس أفراسهما ليعجبا بهما طويلا . وكان الأربعة في صمت رائع . وقطعت الصمت إحداها وقالت لدون كيخوته : « قف ، ولا تقطع الشباك التي نصبناها لمتعنا ، لا لإيذائك ، وكما أنك تستطيع أن تسألنا لماذا هذه الطعوم ، ومن نحن ، فإني أستطيع أن أجيب عليك بكلمات قليلة » .

« في قرية ، تبعد فرسخين عن هنا ، يسكن كثير من النبلاء والأغنياء وكثير منهم فكروا في المجيء هم وأصدقائهم وأهلهم وجيرانهم ونسائهم وأولادهم - للاستمتاع والنزهة في هذا المكان ، وهو من أحسن منازة الاقليم ، وتكوين نوع من أركاديا جديدة فتلبس الأوانس ملابس الراعيات ، والشباب ملابس الرعاة . ودرسنا نشيدين رعويين : أحدهما لجرثيلاسو الشهير ، والثاني هو الذي ألفه باللغة البرتغالية كمؤنس الممتاز ، لكننا لم نمثلهما بعد . وكان أمس هو أول يوم جئنا للاقامة هنا . وأمرنا بنصب خيام تحت هذه الأغصان المتشابكة ، على شاطئ جدول صاف يروي هذه المروج . وفي الليلة الماضية نصبنا هذه الشباك لاصطياد الطيور الصغيرة الواثقة التي تلاحقها وتحوشها أصواتنا المتوالية . فإن

سنت أن تكون ضيفا علينا فعلى الرحب والسعة ، وستعامل خير معاملة ، لأنه في هذه اللحظة الحزن والملال لا يسكنان ها هنا .

فأجاب دون كيخوته : صحيح ، يا سيدتي الجميلة ، إن أكتيون لم يكن أكثر دهشة حين تراءت له ديانا في الحمام فجأة ، مني حين لقيت في هذا المكان فتاة جميلة مثلك . وإني أنني ثناء جما على فكرة استمتاعكم هكذا ، وأشكر لك عرضك الكريم . وإذا كنت أستطيع أن أخدمك ، فاعتمدي على حماستي وخضوعي وطاعتي ، لأن مهنتي هي أن أكون لطيفا ومحسنا قبل جميع الناس ، خصوصا قبل الناس ذوي المكانة مثلك ولو كانت هذه الشباك التي تشغل مكانا صغيرا - تغطي كل سطح الأرض لذهبت لشق طريق لي في العوالم الأخرى أفضل من أن أقطعها . وحتى تصدقي كلامي ، اعلمي أنني دون كيخوته دلا منتشا ، الذي ربما وصل اسمه إلى مسامعك .

فقالت الراعية الأخرى : أوه يا عزيزتي ، ما أعظم سعادتنا إعلمي أن هذا السيد الذي يكلمنا هو أشجع وأعشق وأرق فارس في العالم ، إذا صدقنا تاريخ أعماله العظيمة ووقائعته المشهورة ، وهو مطبوع وقد قرأته . وإني أراهن أن هذا الرجل الساذج الذي يتبعه هو سنشو پنشا سائسه ، وأمتع شخص يمكن العثور عليه .

فقال سنشو : أنت على حق يا سيدتي ، فأنا السائس المازح الذي تتكلمين عنه ، وهذا السيد ، مولاي ، هو دون كيخوته دلا منتشا الذي يتحدث عنه التاريخ .

فقالت الأخرى : آه لا بد أن نستحلفه أن يبقى معنا هنا فترة . وأنا متأكدة أن أهلنا سيجدون متعة بالغة في مشاهدته . ولقد سمعت ، منك المديح والثناء الجم على أدبه وشجاعته ، وقيل لي خصوصا إنه أوفى وأثبت عاشق ، وأن سيدته تدعى دلثنيا دل توبوسو ، التي منحتها أسبانيا كلها لقب ملكة الجمال .

فقال دون كيخوته : لقد نالته عن جدارة واستحقاق ، وجمالك وحده يا سيدتي ، هو الذي يمكن أن يلقي ظلا من الشك على هذا . ولكن لا تكلفوا أنفسكم مؤونة لا فائدة منها . فإن الواجبات الدقيقة لمهنتي لا تسمح لي بالراحة في أي مكان .

وفي هذه اللحظة وصل أخو إحدى الراعيتين ، لابسا زي راع ، ولكن بوفرة وسراوة . وقالت له إن الفارس الذي يراه أمامه هو المغوار دون كيخوته دلا منتشا ومعه سائسه سنشو پنشا ، وهو يعرفهما جيدا لأنه قرأ تاريخهما . فدعا الراعي الكريم دون كيخوته إلى المجيء ، إلى خيامهم فلم يستطع هذا أن يرفض . وفي الوقت نفسه تمت المطاردة بصيحات قوية فامتلا الشباك بالطيور ، التي انخدعت بألوانها فسقطت في الخطر الذي ظنت أنها تجنبت .

فهرع أكثر من ثلاثين شخصا ، وكلهم يرتدون أزياء الرعاة والراعيات على أنحاء مختلفة . وعرفوا في الحال أن هذا هو دون كيخوته وسائسه سنشو ، ففرحوا فرحا عظيما ، لأنهم عرفوا قصته . وتحت الخيام وجدت الموائد منصوبة والطعام عليها بنظافة وأناقة . وأعطى دون كيخوته مكان الشرف . وكانت كل العيون مسلطة عليه ، كلهم أعجبوا بشخصه . ولما فرغوا من الطعام ، رفع دون كيخوته صوته بلهجة جادة ، وخطب في الجماعة هذه الخطبة :

« بين مختلف الذنوب التي يرتكبها البشر ، بعض الناس ، يا سادة ، يرون أن الكبرياء هو أعظمها . أما أنا فأرى أنه نكران الجميل ، وإنني أستند في هذا إلى ما يقال عادة من أن النار مأهولة بالجاحدين . ومنذ أن بلغت سن الرشد ، بذلت كل جهودي من أجل تجنب هذه الخطيئة . وإذا لم أستطع أن أرد على الجميل بمثله ، فإني أستعير عن ذلك بحسن النية وإرادة الخير على الأقل ، فإن لم تجزئ ، نشرت ذكر النعم التي لقيتها ، لأن إذاعتها تنطوي على الاعتراف بها والرغبة في الرد عليها إن أمكن . ومن يتلق أدنى ممن يعطي^(١) . ولهذا كان الله فوق الجميع لأنه هو المعطي بالمعنى الكامل ، وعطايا الناس لا تداني عطايه . وهكذا فإن الاعتراف بالجميل يعوض بعض الشيء عن عجز الوسائل ، وأما عن نفسي فإني لما كنت لا أستطيع أن أعوضكم ، العوض المكافئ ، عن حسن استقبالكم لي ، فأنا لم أحصر نفسي بين الحدود الضيقة لملكاتي الضيقة ، وأقدم إليكم ما أستطيع وما أملك . وهو أنه طوال يومين كاملين سأقف وسط الطريق العام الذي يؤدي إلى سرقسطة ، وأقرر ضد كل قادم أن السيدات الحاضرات هنا اللابسات ملابس الراعيات ، هن أجمل سيدات الدنيا وأكثرهن أدبا ، باستثناء المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو وحدها سيدة أفكاري الوحيدة ، ولا يتضايقن أحد من عباراتي » .

فصاح سنشو ، وكان قد أصغى إليه بانتباه : « هل من الممكن أن يوجد أشخاص في العالم يقررون ، ويحلفون أن مولاي مجنون ؟ أخبروني أي سادتي الرعاة ، هل يوجد قسيس قرية ، مهما يكن علمه وحكمته يستطيع أن يتكلم مثله ، وهل يوجد فارس جوال ، مهما تكن بسالته ، يعرض عليكم ما يعرضه مولاي عليكم ؟ » .

فاستشاط دون كيخوته غضبا ، وتلفت ناحية سنشو وقال له : « هل من الممكن يا سنشو أن يوجد أشخاص في العالم يقولون إنك لست أحقق خبيثا ؟ من كلفك بالتدخل في شئونني ، والتحقيق في هل أنا عاقل أو مجنون ؟ أخرس ، ولا ترد علي ، واذهب لشد السرج

(١) مثل الحديث النبوي المشهور : اليد العليا خير من اليد السفلى .

على روثيناته إن لم يكن مسرجا ، حتى أمضي لتنفيذ العرض الذي عرضته منذ قليل . ولما كان الحق في جانبي ، فأبنيك تستطيع أن تعهد مهزومين مقدماً أولئك الذين يريدون أن يناقضوني في هذا » .

ونهض واقفا مهتاجا ، وترك الحاضرين مشدوهين ، لا يدرون هل يعدونه عاقلا أو مجنونا . واستحلقوه ألا يشق على نفسه هكذا ، وأضافوا أنهم واثقون من سلامة طويته ، وأنهم ليسوا في حاجة إلى شواهد جديدة على بسالته ، بعد تلك التي قرأوها في تاريخ أعماله المجيدة . وعلى الرغم من توسلاتهم ، فقد أصر على تنفيذ عزمه ، ووثب على روثيناته ، ولبس ترسه البيضاء ، وأشرع رمحه ، ووقف في وسط الطريق العام ، ولم يكن بعيدا عن المروج . وتبعه سنشو على حماره ، وكذلك سائر جماعة الرعاة ، وهم مثلهمون لمعرفة مصير تحديه المتعظيم المتكبر الذي لم يسمع بمثله . وضرب فارس الأسود الهواء بهذه الكلمات الرائعة :

– أنتم جميعا ، أيها المسافرون والفرسان والسواس ، والخيالة ، والمشاة ، يا من تمررون أو عليكم أن تمرروا من هذا الطريق في خلال يومين اعلموا أن دون كيخوته دلا منتشا ، الفارس الجوال ، واقف ها هنا ليقدر للجميع وضد الجميع ، أن كل جمال وأدب في العالم لا بد أن يتضاءل أمام جمال وأدب هؤلاء الحوريات الساكنات هذه الخمائل والمروج ، باستثناء دلثنيا دلا توبوسو وحدها ، سيدة روجي . ومن يرد أن يقرر العكس ، فليقترب ، فأني هنا في انتظاره . » – وكرر دون كيخوته التحدي نفسه مرتين ، ومرتين ردد الصدى وحده صوته وأجاب عليه . .

لكن يشاء الحظ ، الذي يواتي مقاصده ، أن يأتي على الطريق عدد كبير من الناس الراكبين الخيل ، وكانت كثرتهم مسلحين بالرماح . وكانوا يسيرون في جماعة وبسرعة . ولما شاهدتهم الرعاة أداروا أكتافهم وابتعدوا خوفا من أن ينالهم شر إذا بقوا . لكن دون كيخوته بقي وحده ثابتا على قربوس فرسه بشجاعة جريئة ، وتحصن سنشو بمؤخرة روثيناته واقترب الرجال ذوو الرماح ، وصاح من كان في مقدمتهم – صاح في دون كيخوته : « ابتعد إذن عن الطريق ، يا رجل الشيطان ، وإلا مزقتك هذه الثيران اربا اربا . » – فأجابه دون كيخوته : « ماذا تقصد ، أيها الوغد ؟ لا توجد ثيران تخيفني ، حتى لو كانت أظفح الثيران التي يغذيها نهر خرما على شطآنه . واعترفوا جميعا ، أيها اللصوص قطاع الطرق ، أن ما أعلنته صحيح ، وإلا فتهيأوا للقتال . » ولم يكن عند راعي البقر الوقت الكافي للرد ، ولا عند دون كيخوته للانحراف حتى لو أراد . وكل قطع الثيران السائقة والغاضبة ،

ورعاة الثيران وسائر من معهم الذين كانوا يقتادون الثيران للمصارعة في المدينة ، هؤلاء ، جميعا مروا على جسم دون كيخوته وروثينانته والحمار وسنشو معه ، وتركوهم مجندلين على الأرض . كان سنشو مطحونا ، ودون كيخوته مذهولا ، والحمار مرضوضا ، وروثينانته في أسوأ حال ، وأخيرا نهض الأربعة . وكان دون كيخوته يعرج ويترنح ذات اليمين وذات الشمال ، وأراد الركض وراء رعاة الثيران ، وصاح فيهم « انتظروا يا أوغاد ، إن فارسا واحدا يتحداكم إنه ليس من أولئك الذين يقولون للعدو الهارب اصنع جسرا من الفضة . » ولكن رعاة الثيران لم يتوقفوا ، ولم يحفلوا بتهديداته إلا احتالهم بغيوم العام الماضي . فجلس دون كيخوته في وسط الطريق ، محطما مطحونا ، غاضبا ، منتظرا سنشو وروثينانته والحمار . وركب كل منهما على دابة ، ودون أن يتلفتا إلى الخلف لتوديع رعاة أركاديا المزعومين . تابعا طريقهما ، مسربلين بالعار غير راضيين .

الفصل التاسع والخمسون

اللقاء العجيب، الذي يمكن أن يعد مغامرة
وقعت لدون كيخوته

وجاءت في أوانها نافورة صافية وجداها في خميلة خضراء ليشربا منها وينظفا التراب الذي ألقاه عليهما الشيران . فجلسا بالقرب منها ، وأطلقا الحرية للحمار وروثيناته . ولجأ سنشو إلى الزاد الذي في خرجه ، واستخلص منه ما اعتاد أكله مع الخبز . ومسح فمه ، وغسل دون كيخوته وجهه ، وهذا الانتعاش جدد نشاط نفسيهما المتعبتين . ولم يأكل دون كيخوته ، لأنه كان حزينا ، ولم يجزؤ سنشو ، أمانة منه ، أن يمس ما كان أمامه منتظرا أن يبدأ مولاه . لكنه لما رآه مستغرقا في أفكاره لا يفكر أبدا في طعام ، خلع حياته ، وبدأ يلتهم في أحشائه الخبز والجن اللذين كانا معه . فقال له مولاه : « كل يا سنشو ، واسند حياة أعز عليك مما هي علي ، ودعني أمت من أحزاني وغمومي . لقد ولدت لأعيش وأنا أموت ، وأنت تموت وأنت تأكل ، ولأبرهن على صدق ما أقوله لك ، تأمل مولاك مطبوعا في التواريخ ، شهيدا في السلاح ، مصقولا في أفعاله ، يحترمه الأمراء ، ويهواه الأوانس ، وحين كنت لا أتوقع غير الجوائز والتهيجان والانتصارات ، رأيتني في هذا الصباح أداس بالأقدام ، وأحطم وأطحن بواسطة حيوانات خسيصة . وهذه الفكرة تجمد أسناني ، وتشل فكي وتغل يدي وتنتزع مني كل شهية للطعام ، حتى إنني قررت أن أترك نفسي أموت جوعا ، وهو أقصى أنواع الموت » .

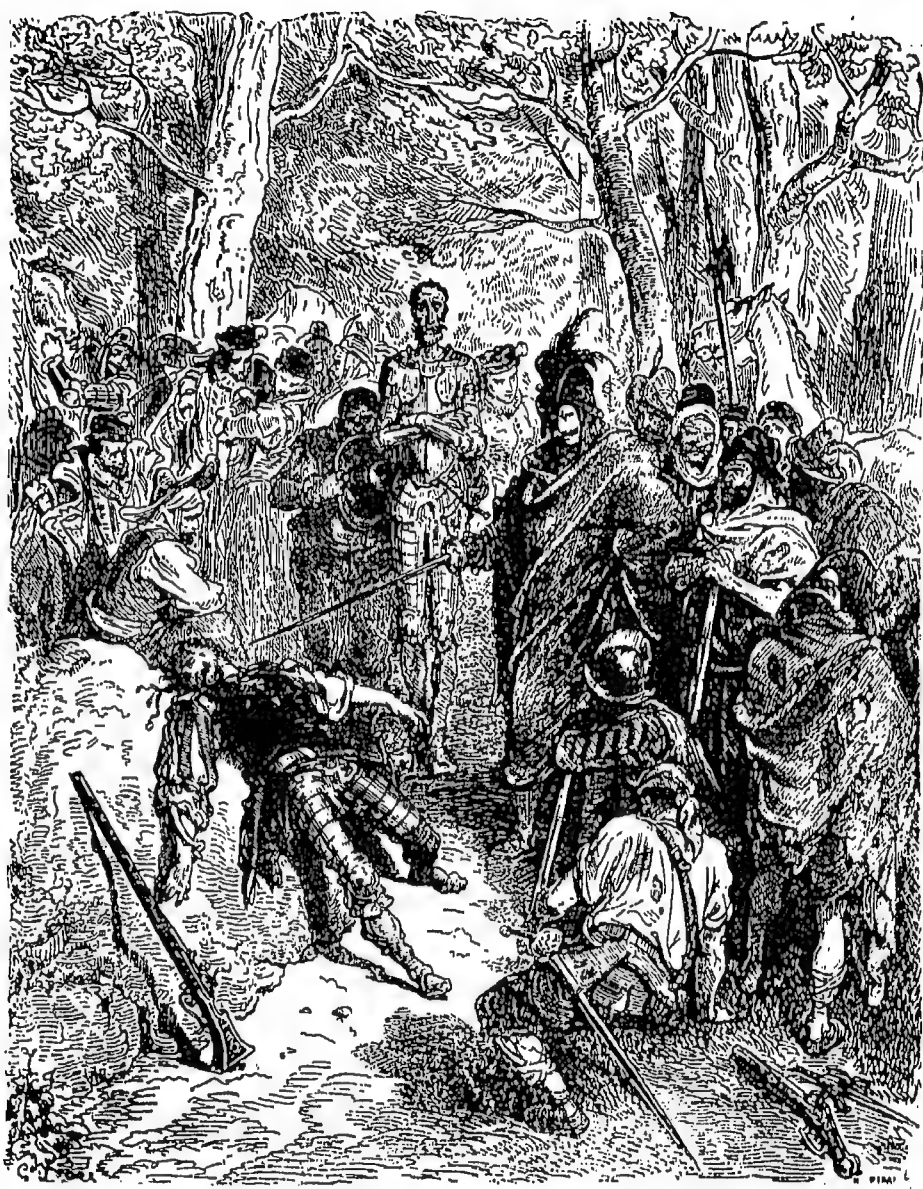
فقال سنشو ، وهو لا يكف عن المضغ ، أنت إذن لا توافق على المثل الذي يقول ، لتمت مرتا بشرط أن تكون شيعي . أما أنا فلا أريد أن أموت مثلك ، بل أريد أن أفعل مثل الاسكافي ، الذي يجز الجلد بأسنانه حتى يأتي به إلى حيث يريد . وأنا سأجر حياتي وأنا أكل حتى تصل إلى النهاية التي قدرها لها الله . صدقني يا مولاي ، أنه لا يوجد جنون أكبر من اليأس الذي أنت فيه . كل قليلا ، ثم نم على الحشايا الخضرة التي يمثلها هذا العشب النضير . وسترى حين تستيقظ أن مزاجك سيعتدل .

فوافق دون كيخوته ، مقتنعا بأن حجج سنشو صدرت عن حكيمة لا عن مجنون . ثم قال له : « يا عزيزي سنشو ، إذا أردت أن تصنع من أجلي ما أقوله لك ، فإنك ستخفف آلامي ومتاعبي . وهو أنه بينما أنام أنا ، تبتعد أنت قليلا ، وتعرض أردافك للهواء ، وتضرب نفسك بلجام روئينانته ، ثلثمائة أو أربعمائة ضربة خصما من حساب الثلاثة آلاف ضربة وكسر التي يجب عليك أن تضرب نفسك بها من أجل رفع السحر عن دلثنيا . أليس مما يثير الشجن أن تظل هذه الفتاة المسكينة مسحورة كل هذا الوقت الطويل بسبب إهمالك ؟ » .

فأجاب سنشو : « هذه مسألة فيها نظر كثير ، يا مولاي ، لننم الآن قليلا والله بعد هذا يصنع الباقي . وإنني أعترف لك بأنه من القسوة أن تجلد شخصا وأنت ساكن الإحساس ، خصوصا إذا نزلت الضربات على جسم قليل الشبع سيئ الغذاء . فلتصبر السيدة دلثنيا . وفي الوقت الذي يكون الأمر بعيدا جدا عن فكرها ، ستراني والضربات تنهمر علي كالأمطار حتى الموت يكون المرء في قيد الحياة . أقصد أنني أريد بإخلاص أن أنفذ ما وعدت به » . فشكر له دون كيخوته ، وأكل قليلا ، وأكل سنشو كثيرا ثم ناما ، تاركين صاحبيهما ورفيقيهما الدائمين ، روئينانته والحمار يرعيان بحرية في هذه المروج المخضوضرة .

ثم أفاقا بعد حين ، وركبا دابتيهما وتابعا طريقهما ، وأسرعوا للوصول إلى فندق يبعد قرابة فرسخ . وأسميته فندقا لأن دون كيخوته نفسه سماه كذلك وهو الذي اعتاد أن يسمى كل الفنادق قصورا . ووصلا أخيرا ، وسألا صاحب الفندق هل يستطيعان المبيت . فأجاب : « بكل ارتياح وراحة وستعاملان كما في أفخر فنادق سرقسطة » . فنزلا عن دابتيهما ، ووضع سنشو حقيبته في غرفة أعطاه صاحب الفندق مفتاحها ، ثم اقتادا الدابتين إلى الاسطبل ، وضمروهما ، ثم عاد ليرى هل مولاه في حاجة إلى شيء ، وهو راض لأن مولاه لم يظن الفندق قصرا . فوجده جالسا على دكة من الحجر . وجاءت ساعة العشاء ، فصعدا إلى غرفتهما . وسأل سنشو صاحب الفندق عما لديه من طعام . فأجاب : كل ما تريد ، فأنت هنا حيث تجد ما تشتهي . اطلب ما تريد : كل طيور السماء ، وأسماك البحر ، والحيوانات البرية توجد في بيتي هذا .

فقال سنشو : لسنا في حاجة إلى كل هذه الأشياء ، بل يكفيننا زوج من الفروج المحمر ، إن مولاي رقيق المعدة ، يأكل قليلا ، وأنا لست شرها . فقال صاحب الفندق : ليس عندي فروج لأن الحداة أهلكتها كلها . - إذن آتينا بدجاجة ، ولكن رقيقة اللحم .



روك يفلق رأس أحد أفراد عصابته

- دجاجة ، يا أخي لقد أرسلت خمسين دجاجة بالأمس لبيعها في السوق ، لكن فيما عدا هذا ، أطلب ما تريد .

- على الأقل لن تعدم لحم العجل أو الماعز ؟

- ليس عندي منه الآن ، لأنه انتهى ، وفي الأسبوع القادم سيكون عندي منه .

- يا لله! أراهن أن كل هذا الاستعراض للزاد سيختصر إلى الشحم والبيض .

- أحسنت الإدراك ، يا ضيفنا ، لقد قلت لك إنني ليس عندي فروج ولا دجاج ، وها أنت تطلب مني بيضا . فلندع الدجاج جانباً ، واطلب أطايب أخرى .

- بحق الله لئننته من هذا الموضوع ، وخبرني بكل بساطة ماذا عندك ؟ .

- سيدي الضيف! ما عندي حقاً وفعلاً هو أكارع بقرة يمكن أن تعدها أكارع عجلة أو إذا فضلت هي أكارع عجلة ويمكن أن تعدها كوارع بقرة ، وقد طبخت مع بازلاء ويصل وشحم خنزير . ومن مجرد رؤيتها تشتهي أكلها .

- احجزها لي ، ولا يمسه أحد ، وسأدفع فيها أكثر من غيري ، ولا شيء أشهى عندي منها ، ولا يهمني إن كانت من عجلة أو بقرة .

- لن يمسه أحد يا سيدي ، لأن سائر النزلاء عندي من ذوي المكانة ، وعند كل منهم طبّاخه ، ورئيس الطهاة وموظفوه .

- أما عن المكانة فلا مكانة أرفع من مكانة مولاي . لكن مهنته لا تسمح له بأن يكون له خادم غرفة ولا رئيس طهاة ، فنحن نبيت في وسط البراري ، وهناك نأكل الزعرور أو ثمار البلوط .

تلك كانت المناقشة التي جرت بين صاحب الفندق وسنشو الذي لم يرد الاستمرار فيها ، ولا أن يجيب على سؤال الآخر الذي سأله عن مهنة مولاه . وكانت الساعة ساعة العشاء ، وحمل صاحب الفندق إلى غرفة دون كيخوته الأكارع كما وجدها ، وأخذ الفارس في تناول طعامه .

لكن دون كيخوته سمع في الغرفة المجاورة ، التي لا يفصلها عن غرفته غير حاجز رفيع ، من يقول : « بحياتك يا دون خيرونيمو ، لتقرأ إذن فصلاً آخر من القسم الثاني من دون كيخوته دلاً منتشاً » .

ولم يكذب دون كيخوته يسمع من ينطق باسمه ، حتى نهض وأرعى سمعه وانتباهه لما يقال عنه . نسمع دون خيرونيمو هذا يقول : « لماذا تريد ، يا سيدي دون خوان ، أن تقرأ هذه الترهات ؟ كل من قرأ القسم الأول من تاريخ دون كيخوته دلاً منتشاً لا يمكن أن يجد

أية متعة في قراءة هذا القسم الثاني» . فقال دون خوان : « ومع ذلك فنحن نحسن صنعا بقراءته ، لا يوجد كتاب رديء لا يحتوي على بعض الخير . إن أكثر ما ينفرنني في هذا الكتاب ، هو أن يصور دون كيخوته وقد برئ من حبه لدلثنيا دل توبوسو^(١) » .

فلما سمع هذا دون كيخوته ، صاح غاضبا محنقا : « من يزعم أن دون كيخوته دلا منتشا قد نسي أو يمكن أن ينسى دلثنيا دل توبوسو أخبره ، بسلاح متكافئ ، أنه كاذب وبعيد من قول الحق ، لأن دلثنيا دل توبوسو لا يمكن أن تنسى ، ولا دون كيخوته قادر على النسيان . إن شعاره هو الثبات ، وأمنيته هي أن يظل مخلصا ، دون أن يتحمل أي إكراه » .

فسأل من في الغرفة الأخرى : « من يرد علينا ؟ » .

فأجاب سنشو : « ومن عسى أن يكون ، غير دون كيخوته دلا منتشا بشخصه ، وهو مستعد أن يدافع عما يقول ، وأيضا عن كل ما سيقول ؟ لأن الذي يدفع جيدا لا يندم على إعطاء رهون . ولم يكذ سنشو يتم كلامه ، حتى فتح سيدان مهذبان ، تدل على ذلك ملامحهما - باب الغرفة ، وأمسك أحدهما بخناق دون كيخوته وقال له : « مظهرك لا يمكن أن يكذب اسمك ، واسمك لا يمكن أن يكذب مظهرك . نعم يا سيدي ، أنت دون كيخوته دلا منتشا الحقيقي ، على الرغم من ذلك الذي أراد أن يسلبك اسمك ويعدم أعمالك المجيدة ، كما حاول ذلك مؤلف هذا الكتاب الذي أضعه بين يديك » . وقدم إليه كتابا يحمله صاحبه . فأخذه دون كيخوته ، وأخذ يتصفحه دون أن يجيب بكلمة ، وبعد لحظات أعاده إليه قائلا : « في القليل الذي قرأته وجدت عند هذا المؤلف ثلاثة أمور جديرة باللوم : الأول بضع كلمات^(٢) قرأتها في الاستهلال ، والثاني أن لفته بلهجة أرغون ، إذ تعوز الأدوات النحوية أحيانا ، والثالث ، وهو يدل خصوصا على جهل المؤلف ، هو أنه يخطئ ويبتعد عن الحقيقة في الجزء الرئيسي من التاريخ ، حين يقول إن زوجة سنشو پنثا ، سانشي ، تسمى ماريه جوتيرث ، مع أن اسمها هو تريزه پنثا ، ومن يخطئ في نقطة أساسية جدا مثل هذه يخشى منه أن يكون قد أخطأ في سائر التاريخ » .

فقال سنشو : « عجيب أمر هذا المؤرخ ، إن عليه أن يكون على علم بأمورنا ، ما دام يسمى تريزه پنثا ، زوجتي ، باسم ماريه جوتيرث . استعد كتابك ، يا سيدي ، وانظر قليلا هل أنا موجود فيه ، وهل غيروا اسمي أنا أيضا » . فقال دون خيرونيمو : « بحسب ما

(١) الإشارة هنا طبعا إلى القسم الثاني الذي نشر باسم مستعار هو حامل الليسانس الونسو فرنندو دي أبينيدا .

(٢) يرى كليمنثين أنه ربما كان المقصود هو الكلمات التي تظن على ثربانتس بأنه عجوز ، أقطع (بيد واحدة) ، حسود .

قلت يا صديقي ، لا بد أنك سنشو پنثا ، سانس السيد دون كيخوته ؟ » - فقال سنشو : « نعم ، أنا سنشو ، وأنا فخور بذلك » .

- فاستمر الرجل المهذب يقول : « إذن ، هذا المؤلف الحديث لا يعاملك بالاحترام الذي يتراءى على شخصك . إنه يصورك شرها ، أبله ، غير مسل أبدا ، وبالجملة مختلفا تماما عن سنشو الآخر الذي نجده في القسم الأول من تاريخ مولاك » .

فأجاب سنشو : « غفر الله له ! كان الأولى به أن يتركني في زاويتي ، دون أن يتذكركني ، لأن الثقليل الوزن لا يمكن أن يرقص كما ينبغي ، والقديس بطرس لا يرتاح إلا في روما » . ودعا الرجلان المهذبان دون كيخوته إلى الانتقال إلى غرفتهما ليتعشى معهما ، لأنهما يعلمان تماما أنه لا يوجد في هذا الفندق شيء يليق بمقامه . ووافق دون كيخوته على دعوتهما ، وهو اللطيف المهذب دائما وتعشى معهما . وظل سنشو سيد الطاجن ، فجلس في طرف المائدة ، وجلس صاحب الفندق إلى جواره ، لأنه لم يكن أقل اشتهاً لأكارع البقر .

وأثناء العشاء ، طلب دون خوان من دون كيخوته أن يخبره بما عنده من أنباء السيدة دلثنيا دل توبوسو ، هل تزوجت ، هل ولدت أو حملت ، أو حافظت على عفافها وراحت تتذكر أفكار دون كيخوته الغرامية . فأجاب دون كيخوته : « إن دلثنيا لا تزال بكرا لم يمسسها أحد ، وقلبي ثابت على حبها أبدا ، وليس بيننا تراسل كالعادة ، وقد تحول جمالها إلى قبح فلاحه حقيرة » . ثم روى لهما بالتفصيل انسحار دلثنيا ، ومغامرته في كهف مونتسينوس ، والوصفة التي أعطاها إياه مرلان الحكيم من أجل رفع السحر عن سيدته ، وهذه الوصفة هي جلد سنشو . فسر السيدان سرورا بالغا من روايته وهو يرويها بنفسه ، للحوادث الغريبة في تاريخ حياته . ودهشوا من أعماله الجنونية بقدر ما دهشوا من أناقته في التعبير عن قصة حياته . ولهذا كانوا أحيانا يعدونه فكها عاقلا ، وأحيانا أخرى يرونه يستسلم للتهاويل ، ولم يدريا في أي موضع يضعانه بين الحكمة والجنون .

وأتم سنشو عشاءه ، وترك صاحب الفندق ، وانتقل إلى غرفة مولا ، وقال وهو يدخلها : « ليشنقوني ، يا سادة ، إذا كان مؤلف هذا الكتاب الذي معكم يريد أن نبقي معا وقتا طويلا . ولكني أود منه ، على الأقل ، ما دام يدعوني شرها ، كما تقولون ، أن يتمتع من تسميتي بالسكير » . - فقال دون خيرونيمو : « نعم ، هكذا يسميك ، لكني لا أتذكر تماما كيف ، وإن كنت أعلم أن الأقوال التي يعزوها إليك غير مناسبة وكاذبة أيضا ، بحسب ما أقرأ في سيماء سنشو الطيب الذي أراه أمامي » . - فقال سنشو : « صدقاني يا سيدي ،

إن سنشودون كيخوته في هذا التاريخ غير ذينك اللذين في التاريخ الذي وضعه سيدي حامد بن الأيل ، فهذان هما كلانا ، مولاي شجاع ، فطن ، عاشق ، وأنا بسيط ، مسل ، ولست شرها ولا سكيراً . - فقال دون خوان : « أعتقد هذا ، ويجب إصدار أمر - إن كان هذا ممكناً - يقضي بالأل يتجرأ على وصف مغامرات العظيم دون كيخوته غير سيدي حامد ، مؤلفه الأول ، تماماً كما أمر الاسكندر بالأل يتجرأ أحد على رسم صورته غير الرسام أبلس » .

- فقال دون كيخوته : « أما صورتني فليرسمها من شاء ، لكن لا يسينن أحد إلي ، لأن صبري ينقد إذا حملوه بالاهانات » . - فأجاب دون جوان : « أية إهانة يمكن أن توجه إلى السيد دون كيخوته ، لا يستطيع أن ينتصف منها بسهولة ؟ اللهم إلا إذا اتقاها بترس الصبر ، وهو ترس واسع شديد ، كما أتخيل » .

وفي هذه الأحاديث وأمثالها ، أمضوا شطراً كبيراً من الليل ، وعلى الرغم من أن دون خوان وصديقه حثا دون كيخوته على قراءة المزيد من الكتاب ، ليرى ما فيه ، فإنه لم يوافق ، وأجاب بأنه يعد أنه قرأه كله ، ويقرر أنه حقير من أوله إلى آخره ، ولا يريد لو عرف مؤلفه أنه وضع بين يديه ، أن يعطيه سروراً لاعتقاده أن دون كيخوته قرأه . وقال إن الفكر ينبغي أن ينصرف عن الأمور الفاجرة^(١) المضحكة ، فما بالك بالعيون ؟ وسألاه إلى أين يريد السير فقال إنه ذاهب إلى سرقسطة ، ليشهد الاحتفالات المسماة باسم « مباريات العدة » ، والتي تقام كل عام في هذه المدينة . فقال دون خوان إن هذا التاريخ الجديد يروي كيف أن دون كيخوته ، أو من سماه بهذا الاسم ، قد شهد في هذه المدينة نفسها ، مباراة خاتم ، ليس فيها أي اختراع ، وفقيرة في الأسلوب ، وبائسة في وصف الشارات ، ولكنها على العكس غنية بالترهات .

فأجاب دون كيخوته : « في هذه الحالة ، لن أضع قدمي في سرقسطة وسأذيع على الملأ كذب هذا المؤرخ الجديد ، مما سيقتنع الناس بأنني لست دون كيخوته الذي تحدث عنه » . فأجاب دون خيرنيمو : « أنت على حق ، ثم إنه توجد مباريات أخرى في برشلونة ، فيها يستطيع السيد دون كيخوته أن يكشف عن بسالته » . - فقال دون كيخوته : « هذا ما أظن أنني فاعله ! ولتسمح لي يا سيدي أن أغدو للرقاد الآن ، إذ أظفت ساعة النوم ، ولتفضلًا بحسابني من بين أكبر أصدقائكما وخدامكما » .

(١) هذه المواضع الفاجرة والمضحكة توجد خصوصاً في الفصول ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٩٠ من كتاب أبيانيدا .

وقال سنشو : «وأنا أيضا ، ربما كنت لكما مفيدا في شيء» .
وهنالك غدا كل من دون كيخوته وسنشو إلى غرفته ، تاركين دون خوان ودون
خيرنيمو مشدوهين من الكيفية التي أمتزج بها في عقل فارسنا التميز والجنون ، واقتنعا أن
هذان هما دون كيخوته وسنشو ينشأ الحقيقيان ، لا ذينك اللذين وصفهما كاتبهما
الأرغوني ، واستيقظ دون كيخوته مبكراً جدا ، وقرع حاجز الغرفة الأخرى ، مودعا ودفع
سنشو أجرة المبيت بسخاء ، ونصح صاحب الفندق ألا يسرف في المستقبل في تمجيد ما
في فندقه من زاد ، أو يزوده بطعام أفضل .

الفصل الستون

فيما وقع لدون كيخوته وهو في الطريق الى برشلونه

كان الصباح منعشا ويعلن عن نضرة اليوم ، حين ترك دون كيخوته الفندق ، بعد أن استعلم جيدا عن الطريق المؤدي مباشرة إلى برشلونه ، دون أن يمر بسرقسطة ، لأنه كان يود من صميم قلبه أن يكذب هذا المؤرخ الذي أهانه كل هذه الإهانات . وحدث أنه طوال ستة أيام كاملة لم يقع له شيء يستحق أن يذكر كتابة . وبعد هذه الأيام الستة وقد انحرف عن الطريق الرئيسي ، فاجأه الليل في أجمة كثيفة من الزان أو الفلين لأنه في هذه النقطة ، لم يدقق سيدي حامد تدقيقه المعتاد في كل الأمور . ونزل المولى والسائس عن ركوبتهما ، وسنشو ، وكان قد أكل وجباته الأربع في ذلك اليوم ، رتب أمره عند جذع شجرة ، ودخل في النوم مباشرة ، لكن دون كيخوته ، الذي أسهرته أفكاره أكثر من جوعه لم يغمض له جفن . بل بالعكس ، تجول خياله في كل مكان . فكان مرة يظن نفسه في كهف مونتسينوس .

ومرة أخرى يشاهد دلثنيا وهي تقفز على حمارها وقد تحولت إلى فلاح ، ومرة ثالثة يسمع كلمات الحكيم مرلان وهي تطن في أذنيه وهو يذكره بالشروط التي ينبغي تنفيذها والاهتمام من أجل رفع السحر عن دلثنيا . وقنط بسبب تراخي سائسه سنشو وعدم إحسانه ، لأنه بحسب ما يعتقد لم يضرب نفسه غير خمس جلادات ، وهو مقدار تافه وضئيل جدا بالنسبة إلى ما بقي عليه . وأحدثت هذه التأملات ألما وحنقا شديدا في نفسه حتى قال : « إذا كان الاسكندر الأكبر قد حل العقدة الغوردية وهو يقول : القطع مثل الحل ، ومع ذلك كان سيدا على آسيا كلها ، فلن يحدث غير هذا لو أنني من أجل رفع السحر عن دلثنيا ، جلدت بنفسي سنشو على الرغم منه وما دام العلاج هو أن يجلد سنشو ثلاثة آلاف جلدة وكسرا ، فماذا يهم لو جلد هو نفسه بنفسه أو جلده غيره ؟ المهم هو أن يضرب ، بأية يد كان الضرب » .

ويناء على هذه الفكرة اقترب من سنشو ، بعد أن أخذ أولا عنان روئينانته ، وسواه بحيث يستطيع أن يضرب به وأخذ يحل تكته ، لأن الرأي الشائع هو أن صاحبنا (سنشو) لم يكن يلبس غير رباط من أمام للإمساك بسرأويله . ولكنه لم يكد يبدأ العمل حتى أفاق سنشو وهو يقول : « من هناك ؟ ومن يلمسني ويحل سراويلي ؟ » - فقال دون كيخوته : « إنه أنا ، وقد جئت لجلدك ، يا سنشو ، وتدفع قسما من الدين الذي عليك . إن دلغيا تهلك ، وأنت تعيش دون أن تهتم بشيء ، وأنا أموت ياسا ، وإذن حل سراويلك بإرادتك ، لأن إرادتي هي أن أضربك في هذا الخلاء ألفي ضربة على الأقل » .

فصاح سنشو : « أما أنا فلا ، لتهدأ سيادتك ، وإلا فبحق الله إلا أحدثت ضجة يسمعها الصم . إن ضربات السوط التي وافقت عليها ينبغي أن تعطى بإرادتي أنا ، لا بالقوة . والآن ليس عندي رغبة في أن أجلد ، ويكفي أن أعدك بأن أجلد نفسي وأطرد الذباب حين أرغب في ذلك » .

فقال دون كيخوته : « إنني لا أستطيع أن أكل إلى تطفك هذا الأمر ، لأن قلبك قاس ، ولحمك طري ، وإن كنت وغدا » . وكان وهو يتكلم هذا الكلام يصبر على أن ينتزع تكته . فلما رأى هذا سنشو وقف ، وانتفض على مولاه ، وأمسك به ، وأخذ يديه بيديه ، بحيث لم يمكنه من الحركة ولا التنفس . فصاح فيه دون كيخوته بصوت مختنق : « كيف تتنمر ، أيها الخائن على مولاك وسيدك الطبيعي ؟ أنت تهجم على من يعطيك الخبز » - فقال سنشو : « إنني لا أنصب ملكا ولا أعزل^(١) ، ولكني أساعد نفسي بنفسي ، وأنا سيد نفسي . لتعدني سيادك بأن تسكت ، ولا محل لجلدي الآن ، حينئذ أخلي عنك وأتركك وشأنك ، وإلا فسأقتلك هنا ، أيها الخائن ، يا عدو سنتشا^(٢) » .

فوعده دون كيخوته بما طلبه منه . وأقسم بحياة هذه الأفكار ، أنه لن يمس شعرة من صدره ، ويدع له ولرغبته مهمة جلد نفسه حين يرى ذلك مناسبا .

فنهض سنشو من عليه ، وابتعد مسافة عنه ، ولكن لما كان مستندا إلى شجرة أخرى ، فقد أحس بشيء يمس رأسه ، فرفع يديه ، ومس رجلي إنسان منتعل . فخاف ، وعدا ليلتجئ إلى شجرة أخرى حدث له فيها الشيء نفسه . هنالك نادى دون كيخوته لنجدته .

(١) إشارة إلى العبارة التي قالها ديجساكلان في النزاع بين دون بدرو القاسي وأخيه دون أنريك ، لا أنصب ملكا ولا أعزل ، بل أساعد مولاي » .

(٢) هنا يطبق سنشو على مولاه العبارات التي قالتها السيدة زوجة النفل لدون رودريجت دي لارا ، الذي أهلك أخوتها بالخيانة والندر . كما تروي ذلك رومانفة اسبانية متعلقة بأولاد لارا .

فرخص دون كيخوته ، وسأله ماذا حدث له ، وماذا يخيفه . فأجابه سنشو بأن كل هذه الأشجار مملوءة بأرجل وسيقان ناس . فتحسسها دون كيخوته ، وفهم في الحال ماذا عسى أن تكون ، وقال لسنشو : « ليس في هذا ما يخيفك ، لأن هذه السيقان والأقدام التي تمسها ولا تراها هي من غير شك أقدام بعض اللصوص وقطاع الطرق المشنوقين في هذه الأشجار ، لأن العدالة اعتادت أن تشنقهم ، حين تأخذهم ، ها هنا بالعشرين والثلاثين . وهذا يدل على أننا لا بد بالقرب من برسلونة » . وهذا صحيح ، وكما قرر تماما . وعند شروق الشمس ، رفعوا أبصارهما وشاهدوا العناقيد التي حملت بها الأشجار ، وقد كانت أجسام قطاع الطرق .

وكان النهار قد طلع ، وإذا كان الموتى أخافوهما ، فإنهما ازدادا خوفا حين شاهدوا حوالي أربعين من قطاع الطرق الأحياء ، سرعان ما تحلقوا حولهما ، آمرين إياهما بلغة قطالونية أن يسكنا ، وألا يتحركا إلى أن يصل القائد (زعيم العصابة) . وكان دون كيخوته على قدميه ، وفرسه بغير لجام ، ورمحه مستند إلى شجرة ، والخلاصة أنه كان بدون أي دفاع . فكان عليه إذن أن يقاطع بين ذراعيه ويحني رأسه ، وأن يحتفظ بنفسه لمناسبة أفضل . وعدا قطاع الطرق لتفتيش الحمار ، ولم يتركوا شيئا مما يجمله دون أن يأخذوه ، سواء ما كان في الخرج ، وما كان في الحقيبة . ومن حسن الحظ أن سنشو كان قد وضع النقود التي أعطاه إياه ناظر الدوق وما حمله من قرينه - وضع هذا كله في حزام حول بطنه . لكن هؤلاء الناس الشهوم كانوا سيفتشونه لولا أن زعيمهم جاء في هذه اللحظة . وكان رجلا في سن الرابعة والثلاثين تقريبا ، قويا ، طويل القامة ، أسمر البشرة ، يلبس درعا من الزرد ، ويحمل في منطقتة أربعة مسدسات كبيرة الحجم .

ولما شاهد أن سواسه ، كما يسمى الذين يخدمون في مثل هذه العصابات ، على وشك أن يسلبوا سنشو ينثا ما عليه ، طلب منهم ألا يفعلوا شيئا ، فامثلوا لأمره ، مما أنقذ بطن سنشو . ودهش من رؤية رمح مستند إلى شجرة ، وترس بيضاوي على الأرض ، ودون كيخوته مسلحا بأبأس وجه يمكن أن يصنعه الحزن نفسه . فاقترب منه ، وقال له : « لا تحزن هكذا ، يا رجل ، إنك لم تقع بين أيدي أوزيريس متوحش ، بل بين أيدي روك جينارت ، وهي أميل إلى الرحمة منها إلى القسوة .

فأجاب دون كيخوته : « حزني لا ينشأ عن كوني وقعت في قبضة يدك ، أي روك المغوار ، الذي طبقت شهرته الآفاق ، وذاعت في العالم كله ، بل عن إهمالي الذي جعل جنودك يفاجنوني بغير لجام في فرسي ، بينما أنا ملزم ، بحسب قواعد نظام الفروسية الجواله ، التي أمتنها مهنتي ، أن أعيش دائما في انتباه ، وأن أكون دائما ديدبان نفسي .



سمنشو یجلد نفسہ بالسوط ، ودون کیخوٲہ یعد

وعلي أن أخبرك ، أي جينارت العظيم ، أنهم لو وجدوني على فرسي ومعهم رمحي وترسي البيضاي ، لما استطاعوا التغلب علي بسهولة ، لأنني أنا دون كيخوته دلا منتشا ، الذي ملأت الدنيا ضجة أفعاله المجيدة » .

ففهم روك جينارت فورا أن مرض دون كيخوته أقرب إلى الجنون منه إلى الشجاعة ؛ ولئن كان قد سمع أحيانا باسمه ، فإنه لم يصدق أبدا صحة تاريخه ، ولم يقدر على الاقتناع بأن مثل هذا الخيال يمكن أن يستولي على قلب إنسان . ولهذا كان سرورا بالغا له أن يلقاه ، وليمس عن قرب ما سمع به من بعيد . وقال له : «أيها الفارس المغوار ، لا تقتنط ، ولا تحسبن سوء الحظ هو الذي أتى بك إلى هنا . فربما على العكس ، في هذه اللقاءات الشائكة ، يجد حظك الضال سبيله المستقيمة هنا ، لأن السماء اعتادت أن تثقل عثرة العاثرين وتغني الفقراء بطرق غريبة ، وانحرافات لم يسمع بمثلها ، لا يستطيع البشر التنبؤ بها » .

وكان دون كيخوته على وشك أن يشكر له ، حين سمعوا خلفهم ضجة عظيمة ، كضجة كوكب من الخيل . ومع ذلك لم يكن ثم غير فرس واحد يركبه ، مطلقا العنان ، شاب في سن العشرين ويلبس صديرية من الداما الخضراء ، المزينة بهدايا من الذهب ، ويلبس سراويل واسعة ، وقبعة مشمرة على الطريقة الثالونية ، وأحذية محكمة مدهونة ، وسيفه وصفيحته (سيف عريض قصير) والمهمازان كلها مموهة بالذهب ، وفي يده بندقية ، وفي منطقته مسدسان . فتلفت روك ناحية الضجة ، ورأى هذا الشخص الأنيق الذي قال لما اقترب منه : «لقد كنت أبحث عنك ، أي روك المغوار ، لأجد فيك ، إن لم يكن دواء ، فعلى الأقل مهدئا لمصائبي . وحتى لا أجعلك في لهفة مدة أطول ، لأنني أتبين جد أنك لم تتعرفني ، فإني أريد أن أخبرك من أنا . أنا كلوديا خيرونيميا ، بنت سيمون فورتني ، صديقك الحميم ، والخصم اللدود لكوكل تورياس ، وهو خصمك أنت أيضا ، لأنه يخدم في صفوف أعدائي . وأنت تعلم أن تورياس هذا له ولد يدعى دون بيثنته تورياس ، أو على الأقل كان يدعى بهذا الاسم منذ ساعتين . واختصارا لرواية مصائبي ، أقول لك بإيجاز أن هذا الشاب رأيي ، وغازلني ، وأصغيت إليه ، وهمت حبا له ، لأنه لا توجد امرأة ، مهما تكن حكيمة ، ومنعزلة ، لا تجد الوسيلة لاشباع رغائبها الجامحة . وأخيرا وعدني بالزواج ، وأعطيته كلمتي ، دون أن تمضي الأمور إلى أبعد من هذا . وبالأمر ، جاء من يقول لي إنه نسي ما قاله لي وإنه عازم على الزواج بأخرى هذا الصباح . هذا النبأ جعلني أضطرب ، وفقدت صبري . ولما لم يكن أبي في البيت ، فقد لبست هذا الزي ، وعدوت في آثار دون بيثنته ،

وقابلته على مسافة فرسخ من هنا ، ودون أن أتوقف عند اللوم ، ودون أن أسمع منه ، أطلقت عليه النار من هذه البندقية وهذين المسدسين ، وأعتقد أنني أودعت في جسمه أكثر من رصاصتين ، وفتحت مخارج خرج منها شرفي مع دمه . وتركته بين أيدي خدمه ، الذين لم يجروا على الدفاع عنه ، وأسرعت إليك لأستنجدك لتساعدني على الانتقال إلى فرنسا ، حيث لي أقارب أريد أن ألتجئ، عندهم ، وفي الوقت نفسه لكي أستحلفك أن تدافع عن أبي ، وتنقذه من انتقام أهل دون بيشنته » .

فأعجب روك من حسن طلعة ، وشجاعة ، ومغامرة كلوديا الجميلة ، وقال لها : « تعالي يا آنستي ، لنرى أولا هل خصمك مات ، وسنرى بعد ذلك ما بقي علينا أن نفعله » . وكان دون كيخوته قد استمع إلى رواية كلوديا وجواب جينارت بانتباه ، فقال : « لا حاجة إلى أن يشغل أحد نفسه بالدفاع عن هذه السيدة ، فإني آخذها تحت حمايتي ، أعطوني فرسي وسلاحي ، وانتظروني هنا ، وأنا ذاهب إلى هذا الفارس ، وسواء أكان حيا أم ميتا ، فإني سأقدر على إرغامه على تنفيذ ما وعد به هذا الجمال الفاتن » . - وأضاف سنشو : « لا يشك أحد في هذا ، فإن مولاي موفق في أمور الزواج ، إذ لم يمض وقت طويل على إرغامه شابا رفض أن ينفذ وعده ، وبدون خبث السحرة ، أعدائنا ، الذين حولوا هذا الشاب إلى خادم ، لما كانت الأنسة التي أتحدث عنها عذراء في هذه الساعة » . وكان روك مهتما بأمور كلوديا أكثر من اهتمامه بأقوال المولى والسائس ، فقال لرجاله أن يردوا إلى سنشو كل ما أخذوه منه ، وأمرهم أن ينسحبوا إلى المكان الذي أمضوا فيه الليل . وفي الحال ركض هو وكلوديا ، بحثا عن دون بيشنته ، حيا أو ميتا ، وتلفتا في كل ناحية فأبصرا على رابية بعض الناس ، فظنا أنهما سيجدانه بينهم . وكان هو فعلا الذي حمله خدمه لتضميد جراحه أو لدفنه . فحشا الخطى للحاق بهم ، ولم يكن هذا صعبا ، لأنهم يسيرون ببطء ، هؤلاء الناس . فوجدا دون بيشنته بين أذرع رجاله . وبصوت ضعيف طلب منهم أن يتركوه يموت في هذا المكان ، لأن آلام جراحه لا تمكنه من السير . ونزل روك وكلوديا عن فرسيهما . ولما شاهد الخدم روك ، فزعوا ، واضطربت كلوديا لما شاهدت دون بيشنته . واقتربت يقتسمها الغضب والرحمة ، وأمسكت يده وقالت له : « لو كنت نفذت ما تعهدت به لما كنت فيما أنت فيه الآن » .

ففتح الجريح المسكين عينيه بصعوبة وقال لها : بعد أن تعرفها : « إنني أتبين جيدا ، أيتها المرأة المغرر بك ، أنك أنت التي قتلتي . وهذه عقوبة لا تستحقها أمانتي التي لم تشأ ولم تقدر لا هي ولا أعمالي أن تصيبك بالإهانة » . - فصاحت كلوديا : « ألم تكن عازما على

الزواج من ليونورا ، بنت بريسترو الغني ، هذا الصباح ؟ » - فأجاب بيثنته : « لم يخطر ببالي ، وإنه سوء حظي هو الذي أبلغك هذه الأنباء الكاذبة ، حتى تقتليني في نزوة من غيرتك ؛ وعلى كل حال فإن تلقي الموت من يدك هو مصير جميل عذب ، ولأبرهن لك على ذلك ، صافحيني ، وإذا شئت ، أقبليني زوجا لك . وإن أعز أمانني هي أن تنالي ترضية عن الإهانة التي تزعمين أنني أصبتك بها » .

فصافحته كلوديا ، ولكن قلبها ضاق إلى حد أنها غشى عليها ووقعت على صدر حبيبها الدامي ، الذي اشتد عليه الوجع كل الاشتداد . ووقف روك حائرا لا يدري ما يفعل . وهرع الخدم للبحث عن ماء يضعونه على وجه الحبيين ، وعادت كلوديا إلى وعيها ، أما بيثنته فلم يعد ، لأنه لفظ النفس الأخير . ولدى هذا المنظر راحت تملأ الهواء بصراخها ، وتشد شعورها ، وتمزق وجهها بيديها ، وتوجه إلى السماء شكايات مرة ، تشهد بالحزن الشديد في نفس لا يواسيها شيء . وصاحت تناجي نفسها : « أيتها المرأة القاسية الطائشة ! بأية سهولة انسقت لتنفيذ خطتك المروعة ! أيتها الغيرة اللعينة ، إلى أية غاية يائسة تقودين من يستسلمون لك في قلوبهم ! إيه أيها الزوج العزيز ، أية مقادير رهيبة قادتك من فراش الزواج إلى القبرا ! » وكانت شكاياتها مؤثرة جدا إلى حد أن انتزعت الدموع من عيني روك ، وهو الذي لم يعتد البكاء . وبكى الخدم أيضا ، وكانت كلوديا يغمى عليها في كل لحظة ، والخلاصة أن هذا المكان بدا أنه المقام الخاص للحزن والشقاء . وروك جينارت أمر الخدم بحمل جثمان بيثنته إلى بيت أبيه ، وكان قريبا ، ثم دفنه بعد ذلك . وقالت له كلوديا أنها صممت على الاعتزال في دير ، رئيسته هي خالتها (أو عماتها) ، لتقضي فيه بقية أيام عمرها بصحبة زوج أقدس وأخلد . وأثنى روك على عزمها هذا ، وعرض عليها أن يرافقها ، ووعدها بالدفاع عن أبيها ضد أقارب دون بيثنته وضد الناس جميعا . ولكن كلوديا رفضت أن يصحبها روك ، وعاد روك إلى عصابته . هكذا كانت نهاية غراميات كلوديا خيرونيما . لكن هل ندهش لهذا ، إذا كان عنف الغيرة الذي لا يقاوم هو الذي نسج خيوط هذه الحكاية المحزنة ؟ .

ولما عاد روك جينارت إلى سواسه وجد دون كيخوته راكبا فرسه وسطهم ، وهو يعظمهم ليقلعا عن حياتهم وسلوكهم هذا ، هذا السلوك الخطر على الروح وعلى الجسم معا . لكن لما كان من الجسقونيين ، وهم قوم غلاظ معربدون ، فإن موعظته لم تحدث أثرا يذكر . وسأل روك سنشوا هل ردت إليه أشياءه ، التي أخذوها منه ، فأجاب بنعم ، لكنه ينقصه ثلاث طاقيات للنوم تساوي ثلاث مدن . فقال أحد رجال روك : « ماذا تقول ، ثلاث مدن ، إنها

معي ولا تساوي ثلاثة ربات . - فقال دون كيخوته : « أنت على حق ، لكن سانسبي
يقدرها هذا التقدير نظرا إلى الشخص الذي أعطاها » . فردها روك إليه ، ثم نظم عصابته
صفوفا ، وأمر بإحضار كل الأتواب والحلي والنقود التي نهبها منذ آخر تقسيم . وأحصاها ،
وقدر بالمال ما لا يمكن تقسيمه ، ووزع الجميع على عصابته بحكمة ومساواة ، فلم يتجاوز
بمثقال ذرة قواعد العدالة التوزيعية . ولما تم له هذا ، ودفع لكل نصيبه ، راضيا ، قال روك
لدون كيخوته : « إذا لم أراع الدقة مع هؤلاء ، فسيكون من المستحيل العيش معهم » . -
فقال سنشو : « بحسب ما أرى فإن العدالة أمر حسن جدا حتى أن من الواجب اتباعها حتى
مع اللصوص » . فسمعه أحد أفراد العصابة ، فطرحه على خده ببندقيته ، وكان سيكسر له
رأسه من غير شك ، لو لم يمنعه جينارت . فارتعد سنشو خوفا ووعده نفسه بألا يفتح فمه
طالما كان مع هؤلاء الناس .

وفي هذه اللحظة وصل بعض الذين وضعوا حراسا على الطرق ، ليراقبوا ويببلغوا زعيم
العصابة بما يجري . وقال أحدهم : « سيدي ، لقد لمحننا على طريق برشلونة مجموعة من
الناس » . - فقال جينارت : « هل هم ممن يبحثون عنا ، أو ممن نبحث نحن عنهم ؟ » -
فأجاب : « هم ممن نبحث نحن عنهم » . - قال جينارت : « إذن أخرجوا جميعا ، وأعملوا
على الاتيان بهم جميعا بدون استثناء » .

وبقي وحده مع دون كيخوته وسنشو ، وقال للفارس : « إن طريقتنا في العيش لا بد قد
بدت لك جديدة جدا ، إن هذه مغامرات من نوع جديد عليك لكنها ليست أقل خطرا من
مغامراتك . ولا أدهش من كونها تبدو لك غريبة ، لأنني أقر بأنه ليس ثم حياة أشد قلقا
واضطرابا من حياتنا . والانتقام يقدر على أن يبيث الانتقام في أشد النفوس هدوءا وسكونا ،
ولقد كنت ذا طبع خير متعاطف ، بيد أنني أكرر فأقول إن الرغبة في الانتقام من إهانة لحقت
بي قد قضت على ميولي الخيرة ، حتى أنني أستمر في هذه الحال ، وإن كنت أتبصر كل
نتائجها . وكما أن الهاوية تدعو الهاوية ، والخطيئة تدعو الخطيئة ، فقد توالى سلاسل
الانتقام ، حتى أنني قمت بالانتقام ليس فقط من الإهانات التي لحقت بي ، بل وأيضا من
سانرها . ومع ذلك فالشكر والحمد لله ، وإن كنت ضالا في تيه هذه الاضطرابات ، ولكني لا
أفقد الأمل في الخروج منه وبلوغ مرقأ أهدأ » .

ودهش دون كيخوته من سماع روك يتكلم على هذا النحو ، لأنه كان مقتنعا تماما بأن
الذين يمتنون مهنة نهب السابلة وقطع الطريق والقتل والسرقة لا يمكن أن يكون لديهم
فكرة حسنة واحدة .

وقال لقاطع الطريق : « سيدي روك ، إنه بداية الصحة هي معرفة المرض ، والموافقة على استعمال الأدوية التي يشير إليها الطبيب . وسيادتك مريض ، وتعرف مرضك ، والسماء ، وبعبارة أصح ، الله طيبنا جميعا ، سيقدم إليك الأدوية الناجعة التي ستشفيك شيئا فشيئا ، لا مرة واحدة ، ولا بمعجزة ، خصوصا والخطاة العقلاء الفطنون أقرب إلى إصلاح أنفسهم من الجهلة والحمقى ، وما دمت تكشف عن كل هذه الإرادة الطيبة ، فتشجع وأمل في علاج ضميرك . وإذا شئت أن تختصر الطريق ، وتدخل بسهولة في طريق الصحة والنجاة ، فتعال معي ، وسأعلمك مهنة الفارس الجوال ، وهي معرضة لكثير من الأعمال والمشقات ، حتى إنك لو لم تتخذها إلا من أجل الثوبة ، فكن واثقا أنك ستمضي قدما إلى السماء » . فأخذ روك يضحك من نصيحة دون كيخوته ، وغير مجرى الكلام بأن روى له مصير كلوديا خيرونيما الحزين . فتأثر سنشو خصوصا أيما تأثر ، لأن جمال الفتاة ولطفها وملاحظتها مست شغاف قلبه .

وفي هذه اللحظة عاد سواس جينارت ، واقتادوا معهم خياليين ، وحاجين راجلين ، وعربة مملوءة بالنساء ، وستة خدم يصحبهن على فرس أو على الأقدام ، وسائسي الخياليين . وأحاطت العصابة بالمسافرين ، والتزم الظافرون والمهزومون الصمت التام ، في انتظار ما يقرره رئيس العصابة . فسأل روك جينارت الخياليين عن هويتهما وماذا يحملان من نقود . فقال أحدهما : « نحن نقيبان في المشاة الإسبانية ، وفترقتنا في نابلي ، وسنبحر على أربع جاليرات موجودة في برشلونة ، مع المرور بصقلية . ومعنا مائتي أو ثلثمائة اسكودو ، بها نظن أننا غنيان ، لأن مهنة الجندي لا تمكن من جمع مال كبير » . وبعد ذلك سأل روك الحاجين ، فأجابا أنهما سيركبان السفينة إلى روما ، ومعهما معا حوالي ستين ريالاً . كذلك سئل أصحاب العربة فأجاب أحد الخدم الراكبين أفراسا أن في العربة سيده ، دونيا جيومار دي كنيونس ، زوجة الوصي على نائب الملك في نابلي ، وحفيده ، وأنسة قهرمانة ووصيفة ، يصحبهن ستة من الخدم ، ومعهم جميعا ستمائة اسكودو ، فقال جينارت : إذن معنا هنا تسعمائة اسكودو ، وستون ريالاً . وجنودي ستون تقريبا ، فانظروا نصيب كل واحد ، لأنني لست ماهرا في الحساب » .

ولدى سماع هذه الكلمات صاح كل اللصوص : « يحيا روك جينارت ، يعيش ، يعيش ، على الرغم من كل الأشرار الذين أقسموا على إهلاكه » . فلما رأى النقيبان ، والوصية ، والحاجان أن أموالهم صودرت ، اكتأبوا واغتموا غما شديدا . فتركهم روك معلقين فترة ، لم يشأ أن يطيلها ، فقال : متلفتا إلى النقيبين : « سيدي النقيبين ! أرجوكم أن تتفضلا

بإقراضي ستين اسكودو ، وأنت يا سيدتي الوصية تكرمي بإقراضي ثمانين ، لارضاء الجماعة التي تصحبي ، لأن القسيس يتعيش مما ينشد . وبعد ذلك تستطيعون أن تتابعوا طريقكم في كل حرية وأمان ، بواسطة جواز أمان أعطيكم إياه ، حتى إذا قابلتم جماعة أخرى من رجالي لم يصيبوكم بأي أذى ، لأنه ليس من نيتي أن أضهد الجنود ولا النساء ، خصوصا ذوات المكانة . فشكر له النقيبان شكرا بالغا أدبه وكرمه ، وأرادت السيدة جيومار النزول من العربة لتقيل أقدام وأيدي روك العظيم ، لكنه أبى ، وعلى العكس ، سألها الصفح عن الاضطراب والحيرة اللذين سببهما لها ، مضطرا بحكم مهنته الشريرة . وأعطته الوصيفة الثمانين اسكودو ، وكان النقيبان قد أعطيا الستين اسكودو ، وقدم الحاجان كيسهما الفقير ، لكن روك طلب إليهما الهدوء ، ثم تلفت الى رجاله وقال : « هذا المبلغ يخص كلا منكم منه اسكودان ، فلنعت منها عشرة لهذين الحاجين ، والعشرة الأخرى لهذا السانط الطيب^(١) ، حتى يذكر هذه المغامرة بالخير . وفي الوقت نفسه أخذ قلما ، لأنه كان يحمل قلما باستمرار ، ثم كتب جواز أمان موجهها إلى رؤساء رجاله ، وأعطاه للمسافرين ، وأطلق سراحهم ، وهم معجبون كل الإعجاب بنبالته وحسن طبعه وكرمه ، ويعدونه كأنه الاسكندر الأكبر لا رئيس عصابة من قطاع الطريق .

وإذا بأحد رجال عصابة جينارت يستبيح لنفسه أن يقول باللغة الجسقونية : « إن قائدنا خلق ليكون راهبا لا قاطع طريق ، إذا كان يريد أن يظهر كرمه ، فليكن ذلك من ماله الخاص لا من مالنا نحن » . ورغم أنه قال ذلك بصوت خفيض فإن روك سمعه ، وفي الحال استل سيفه ، وشج رأسه إلى نصفين قائلا : « هكذا أعاقب الوقحاء والمتهورين » . وبقي الآخرون في ذهول ولم يجرؤوا على التنفس ، لأن جينارت كان قادرا على إثارة الرعب في نفوسهم . ثم انتحى جانبا ، وكتب لأحد أصدقائه المقيمين في برشلونة رسالة يخبره فيها أن عنده دون كيهوته دلا منتشا ، ذلك الفارس الشهير الذي تروى عنه الأعاجيب ، وأكثر الناس علما وإضحكا في آن معا ، وأنه ، بعد أربعة أيام ، أي في يوم عيد^(٢) ذبح القديس يوحنا المعمدان ، سيأتي به إلى وسط شاطئ المدينة ، مدججا بكامل سلاحه ، راكبا فرسه

(١) يقصد سنشو پشا .

(٢) عيد قطع رأس يوحنا المعمدان هو ٢٩ أغسطس . ولكن الاختلافات التي سيرد ذكرها وكلها سرور وبشر تدل على أن المقصود هو عيد ميلاده ، ويقع في ٢٤ يوليو . ولكن هذا يصطدم بصعوبة ، إذ أن الرسالة التي كتبها سنشو من قصر الدوق بتاريخ ٢٠ يوليو سنة ١٦١٤ فلا بد أن يقع العيد بعد ذلك ، أي في ٢٩ أغسطس كما ورد في النص . ولكن هذه الاضطرابات في التواريخ كثيرة في قصة دون كيهوته .

روثينانتته ، ومعه سانس سانشو پنتا راكبا حماره . وطلب من صديقه أن يبلغ هذا الخبر إلى آل نيرو^(١) ، أصدقاؤهما ، ليستمتعوا به ، ولكنه يود أن يحرم من هذه اللذة آل كاديل أعداؤهما . لكنه أقر بأن هذا الأمر مستحيل ، لأن حكمة وجنون دون كيخوته ، مضافين إلى مزاح سانشو ، لن تعدم أن تضحك الناس جميعا دون استثناء . ولما ختم الرسالة أعطاها لأحد جنوده ، الذي اتخذ زي فلاح ، ودخل برشلونة ، وأوصلها إلى المرسل إليه .

(١) كانت برشلونة في عهد ثريانتس مقسمة بين آل كاديل وآل نيرو . وكان بدورو روكا جينردا ، لا روك جينارت كما حرف اسمه فيما بعد ، من أنصار آل نيرو . واضطر إلى الهرب ، لمصار رئيس عصابة من قطاع الطرق ، وكانت أخلاقه تماما كما وصفها ثريانتس .

الفصل الحادي والستون

فيما وقع لدون كيخوته وهو يدخل برشلونه
وامور أخرى تمتاز بالصدق أكثر من المعقولية

أمضى دون كيخوته ثلاثة أيام وثلاث ليال عند روك ، ولو بقي عنده ثلثمائة سنة لما عدم أن يرى أمورا مدهشة . كانوا ينامون في مكان ، ويأكلون في مكان آخر ، ويهربون دون أن يدروا لماذا ، ويتوقفون من غير داع ، وينامون وهم واقفون ، ويقطعون نومهم ليغيروا مخابثهم ، ويضعون الحراس في كل مكان ، والجواسيس ، وينفخون في ذبالات بنادقهم ، وإن كان معهم القليل لأنه كان معهم جميعا مسدسات . وأمضى روك الليالي مفصولا عن رجاله دون أن يعرفوا مكانه ، لأن نائب الملك في برشلونه أعلن عن مكافأة كبيرة لمن يقبض عليه ، ولم يجرؤ على الثقة بأحد . وكان يخشى حتى من جنوده أن يقتلوه أو يسلموه إلى العدالة . ويا لها من حياة حزينة بائسة وأخيرا سلك روك ، ودون كيخوته ، وسنشو بنشا منعرجات مخبئة ، ووصلوا إلى ساحل برشلونه في عشية عيد حز رأس يوحنا ، في الليل . وعانق روك دون كيخوته وسنشو ، وأعطى هذه العشرة اسكودو التي وعده بها ، وتبادلا آلاف التحيات ، وانفصلوا ، وبقي دون كيخوته على فرسه في انتظار بزوغ النهار . وبعد قليل خرج الفجر الأبيض من أبواب المشرق ، ونشر حياة جديدة على النبات والأزهار ، وفي الوقت نفسه سمعت ضجة مختلطة مؤلفة من أصوات مزامير ، وطبول ، وشخاشيخ ، وسعاة يخرجون من المدينة . وأخلى الفجر مكانه للشمس ، فظهرت في الأفق ، أكبر من الترس ، وبدأت تعلو شينا فشينا ، وكان دون كيخوته وسنشو يتطلعان في كل مكان ، فأبصرا البحر ولم يكونا قد شاهداه قبل ذلك . فبدا لهم واسعا هائلا ، أكبر من برك رويديرا ، التي زاروها في إقليم المنتشا . وشاهدوا الجاليرات وهي على الساحل ، وكانت أشرعنها مطوية فشوهدت عليها الشعلات والأعلام وكانت السفن تسبح على هوى الريح وتمسح وجه الماء والأمواج . وكانت نغمات الأبواق والبوريات والمزامير ترن في كل النواحي ، وتملأ الهواء بأصوات شجية . وبدأت تتحرك وترنح على الأمواج الهادئة .



دون کيخوته وسنشو یدخلان برشلونه في موكب

وخرج عدد لانهاية له من الخيالة - خرجوا من المدينة وهم يرتدون ملابس بشارات متعددة غنية ، وهم يركبون خيولا جميلة ، ويحاكون بحركاتهم مناورات الجاليرات ، وكانت هذه تطلق طلقات تجيب عليها قلعة المدينة بالضجيج نفسه . وبدا البحر فرحا ، والأرض ينعشها السرور ، وكان الجو صافيا ساجيا ، وإن عكره أحيانا دخان المدافع ، وفي كل مكان ساد الابتهاج الصريح . وفي هذه اللحظة هرع الخيالة المتعدو الشارات ، وهم يصيحون ويهللون ويكبرون ، إلى المكان الذي وقف فيه دون كيخوته مدهوشا : وصاح أحدهم ، وهو الذي بلغه روك من قبل : « مرحبا ، في مدينتنا ، بمرأة ، ومصباح ، ونجم وبوصلة وسند الفروسية الجواله : مرحبا بالمغوار دون كيخوته ، لا ذلك الزائف ، المنتحل ، الذي نشر علينا تاريخه الكاذب ، بل دون كيخوته الحقيقي ، الشرعي ، الأمير الذي روى سيدي حامد بن الأيل ، زهرة المؤرخين ، تاريخ مغامراته وأفعاله » .

فلم يجب دون كيخوته بكلمة ، على أنهم لم يتركوا له فرصة للإجابة بل أحاط به الخيالة وقد توالوا جماعات ، وأخذوا في المناورة من حوله . فقال لسنشو ، وقد تلفت إليه : « لقد تعرفونا ، وإني أراهن أنهم قرأوا تاريخنا ، وذلك التاريخ الذي طبعه الأرغوني منذ قليل » . واقترب الفارس الذي كلمه من قبل وقال له :

« سيدي دون كيخوته ، استحلفك أن تأتي معنا ، فنحن جميعا خادموك ، وأصدقاء حميمون لروك جينارت » . - فأجابه فارسنا : « إذا كان الأدب يولد الأدب ، فإن أدبك يا سيدي الخيال ، ابن أو قريب حميم لأدب العظيم روك . فلنذهب إلى حيث تشاء ، فليس لي إرادة غير إرادتك ، خصوصا إذا كنت تريد استخدامها لخدمتك » . فأجابه الخيال بعبارة مصقولة كهذه ، وأحاطت به الجماعة كلها ، واتخذوا طريق المدينة على صوت المزامير والصنجات .

وعند أبواب المدينة ، أرادت الروح الشريرة ، التي عنها يصدر كل الشر ، والأطفال وهم أشد خبثا ، أرادوا أن يدبروا مزحة لدون كيخوته . فاندس اثنان منهم بين الخيالة ، رفعوا ذيل روثيناته والحمار ودسوا فيها حزمة من الشوك فشعر الحيوانان المسكينان فورا بهذا النخاسات فيهما من نوع جديد ، وكلما ضغطا على ذيلهما زاد ألمهما ، حتى أنهما بعد قمصات عديدة سقطا على الأرض هما ومن عليهما . وغضب دون كيخوته وأخذ ينسل الشوك من روثيناته ، وفعل سنشو الشيء نفسه بالنسبة إلى الحمار . وأريد معاينة الأطفال على وقاحتهم ، لكن لم يتيسر ذلك ، لأنهم اختبأوا دائما في الجمهور . وركب دون كيخوته وسنشو دابتيهما ، والموكب والموسيقى نفسيهما ، وصلا إلى بيت مضيبيهما ، وكان بيتا واسعا جميلا ، إذ كان يملكه فارس غني . فلنتركما هناك الآن ، لأن ابن الأيل يريد ذلك .

الفصل الثاني والستون

مغامرة الرأس المسحور وترهات أخرى

لا بد من روايتها

كان دون أنطونيو مورينو (وهذا هو اسم مضيف دون كيخوته) فارسا غنيا عاقلا ، محبا للمسرات ، لكنه كان لطيفا وأميناً . وإراد أن يستمتع بجنون دون كيخوته ، دون أن يضايقه ، لأن المزحات التي تؤذي لا يمكن أن تعد مزحات ، ولا قيمة لتسليه من شأنها أن تضرب بالغير . وكان أول شيء فعله هو أن يخلع السلاح من دون كيخوته ، وأن يعرضه بصديريته الهزيلة الضيقة المصنوعة من جلد الشمواه التي وصفناها من قبل ، على شرفة تطل على أحد الشوارع الرئيسية في المدينة ، وعلى مرأى من عدد لا يحصى من الناس ، والأطفال الذين أخذوا يتطلعون فيه كأنه قرد ، بينما الذين كانوا يلبسون الثياب ذوات الشارات يحومون حوله ، وكأنهم ما لبسوها إلا من أجله هو ، لا من أجل الاحتفال بالعيد . أما سنشو فقد كان في غاية من السرور ، إذ اعتقد ، دون أن يعرف كيف ، أنه عثر على زفاف آخر من نوع زفاف (عرس) كمتشو ، وببيت آخر من نوع بيت دون ديججو دي ميرنده ، أو قصر الدوق . وفي هذا اليوم تغدى مع دون أنطونيو بعض أصدقائه ، واحتفلوا جميعا بدون كيخوته أيما احتفال ، وعاملوه كفارس جوال ، مما بعث في نفسه رضا لا مزيد عليه وكانت نكات سنشو تسر الجميع ، وخصوصا خدم البيت . بينما كانوا على المائدة ، قال دون أنطونيو لسنشو : « علمنا يا صاحبي ، أنك تحب كثيرا اللحم الأبيض المبرد والسنبوسك^(١) ، وما لا تستطيع أكله تضعه في عبك إلى اليوم التالي . » فأجاب سنشو : « لقد خدعوك يا سيدي ، فأنا رجل نظيف أكثر مني شراً ، وسيدي دون كيخوته ، الحاضر هنا ، يعرف جيدا أننا لا نأكل طوال ثمانية أيام غير قبضة يد من ثمار البلوط أو الجوز .

(١) ورد في الفصل ١٢ من دون كيخوته تأليف إيبانيدا أن دون كارلوس قدم إلى سنشو ٢٤ قطعة من الكفتة وست لفات من اللحم الأبيض ، فلما لم يستطع أن يأكل هذا كله دفعة واحدة وضع الباقي في عبه ، للإفطار في اليوم التالي .

صحيح أنني إذا شاء حسن حظي أن أحصل على حجلة فإني أجري بالجبل ، أقصد أنني أكل ما أعطى ، وآخذ الزمان على علاته . لكن من يرد أن يقول إنني شره ، وإنني لست نظيفا فليؤكد أنه يخدع نفسه - وكنت أريد أن أفيض في هذا المعنى ، لولا احترامي للحى الشريفة الجالسة إلى هذه المائدة . » - فقال دون كيخوته : « من المؤكد أن العفة والنظافة اللتين يتصف بهما سنشو وهو يأكل جديرتان بالنقش على ألواح من البرونز ، ليخلد ذكرهما على طول القرون . صحيح أنه حين يجوع يعتقد أنه شره ، لأنه يبتلع لقما كبيرة ويمضغ بالفكين ، لكن النظافة تصحبه دائما ، ولما كان حاكما تعلم كيف يأكل بلطف ، حتى أنه يأكل حبات العنب والرمان بشوكة . » - فقال دون أنطونيو : « كيف ، هل كان سنشو حاكما ؟ » - فأجاب سنشو : « نعم ، حاكما على جزيرة تسمى برتريا ، توليت الحكم فيها عشرة أيام ممتعة ، خلالها فقدت الراحة والنوم ، وتعلمت ازدرأ كل الحكام . ولما رجعت من هذه الجزيرة وقعت في حفرة ، اعتقدت فيها أنني مت ، ولم أخرج منها إلا بمعجزة . » وهناك أخذ دون كيخوته يروي بالتفصيل تاريخ حكم سنشو ، مما سر السامعين .

ولما انتهى الطعام ، أخذ دون أنطونيو بيد دون كيخوته ، واقتاده إلى غرفة أخرى ، لم يكن فيها من زينة غير منضدة بدت أنها من اليشب ، محمولة على قاعدة من الحجر نفسه ، وعليها رأس ، على هيئة التماثيل النصفية الرومانية ، بدا أنه من البرونز . فاجتاز دون أنطونيو هذه الغرفة مع دون كيخوته ، واستدار حول المنضدة عدة مرات ، ثم قال له : « سيدي ، الآن وأنا واثق أنه لا يسمعنا أحد ، والباب مغلق ، فإني أريد أن أخبرك بمغامرة من أندر المغامرات ، أو شيء جديد كل الجدة ، بشرط أن تكتف هذا السر في أعماق أعماق نفسك .

فأجاب دون كيخوته : أقسم لك على ذلك ، ولزيادة الأمان ، سأضع عليه حجرا . واعلم يا سيدي الدون إنطونيو (وكان قد عرف اسمه) إنك تكلم رجلا له عينان ليرى ، وليس له لسان ليتكلم . وهكذا تستطيع أن تفتح قلبك لي بكل أمان ، وأحسب سر مدفونا في أعماق هاوية الصمت .

فقال دون أنطونيو : بعد هذا الوعد ، أريد أن أقول لك وأعرض عليك أشياء ستملوك إعجابا ، وسأخفف الألم الذي استشعره من كوني لا أجد أحدا أستطيع أن أفصي إليه .

وانتظر دون كيخوته بصبر نافذ ، ولم يدر إلى أي شيء ستنتهي كل هذه المقدمات . فأمسك أنطونيو حينئذ بيده ، وجعله يلمس رأس البرونز ، والمنضدة ، ورجل المنضدة ، وقال له : « هذا الرأس الذي تراه قد صنعه ساحر من أكبر السحرة في العالم ، وهو من

بولنـدة ، فيما أعتقد ، وتلميـذ اسكونيو^(١) الشهير الذي يروى عنه العجائب . وهذا الساحر أقام عندي ، ودفعت له ألف اسكودو ثمنا لهذا الرأس ، الذي يستطيع أن يرد على كل الأسئلة التي توجه إليه . لقد رصد النجوم ، واتجاهات الرياح ورسم الأخلاق ، ورقم النقط الأوفاقية ، والخلاصة أنه استطاع أن يضفي على عمله كما لا تستطيع أن تتأمله غدا ، لأنه في يوم الجمعة صامت ، ولا نستطيع أن نستخرج منه شيئا اليوم . وهكذا تستطيع منذ الآن حتى الغد أن تفكر في الأسئلة التي تريد أن توجهها إليه ، وأنا أعرف بالتجربة أنه يقول الحق دائما » .

وعجب دون كيخوته من الصفات التي نسبها دون أنطونيو إلى هذا الرأس ، ولم يكن يصدق ذلك . لكنه ، ولم يبق إلا وقت قصير لإجراء التجربة ، فإنه اكتفى بالشكر له لأنه كشف له عن هذا السر العظيم . وخرج من الغرفة ، وأغلق دون أنطونيو الباب بالمفتاح ، ثم عاد إلى القاعة التي كان فيها سائر الخيالة . وفي هذه الأثناء كان سنشو قد روى لهم مختلف مغامرات مولا .

وفي هذا المساء اقتادوا دون كيخوته ليجوس خلال المدينة ، بغير سلاح ، ووضعوا على كتفه معطفا من الوبر الأشقر ، قادرا على جعل العرق يتصبب ، في مثل هذا الحر القاطئ ، من الثلج نفسه ، وطلب من الخدم أن يشغلوا سنشو بحيث لا يخرج من البيت . وكان دون كيخوته راكبا لاعلى روثينانته ، بل على بغل ضخـم بطيء الخطى . وخاطوا على المعطف ، دون أن يلمح هو ذلك ، برشمانا كتب عليه بحروف كبيرة : « هذا هو دون كيخوته دلا منتشا » حتى أن دون كيخوته دهش من أن كل الناس عرفوه ونادوا باسمه ، فقال لدون أنطونيو ، وكان يسير إلى جواره : « لا بد من الإقرار أن الفروسية الجوالـة لها مزايا عظيمة ، لأن من يمتـهـنـها مهنة له يعرف ويشتهر أمره في جميع الأمم أنظر يا سيدي ، حتى الأطفال أنفسهم يعرفونني مع أنهم لم يروني أبدا » فأجاب دون أنطونيو : « أنت على حق يا سيدي ، فكما أن النار لا يمكن أن تستر ولا أن تحبس ، فكذلك الفضيلة لا يمكن أن تظل وقتا طويلا مجهولة ، والفضيلة التي تتحصن في مهنة السلاح ، تلمع وتسمو فوق سائر الفضائل » .

(١) ولد في بارما ، وعاش في الفلاندر في عصر اسكندر فارينزي . واشتغل بالرياضيات وعلم النجوم ، مما جعل الناس يعدونه ساحرا . ويروى من نوادره أنه كان يلذ له مرارا أن يدعو أصدقاءه ، فإذا جاءوا لم يجدوا شيئا في المطبخ ، ولا نار ولا أي شيء يؤكل ، حتى إذا جلسوا إلى المائدة امتلأت بأفخر الأطعمة ، التي أتت بالسحر . وكان يقول لهم : هذا الطبق جاء من ملك فرنسا ، وهذا الصحن من مطبخ ملك اسبانيا ، وهكذا .

وبينما كان دون كيخوته يسير هكذا ، فخورا بنفسه ، مر قشتالي قرأ البطاقة ، وأخذ يقول : « إلى الشيطان فليذهب دون كيخوته دلا منتشا كيف يتأتى لك أن تكون باقيا في قيد الحياة بعد ضربات العصي التي انهالت عليك ؟ أنت مجنون ، ولو كنت وحدك المجنون لهان الخطب لكن جنونك معد ، ولديك القدرة للاصابة بالجنون كل من يتصلون بك ولا أريد دليلا على ذلك غير الذين يصحبونك . فاذهب أيها المجنون ، وعد إلى بيتك ، واهتم بأموالك ، وزوجتك ، وأولادك ، ودع كل هذه الترهات التي تخلط عليك عقلك وتعكر ذهنك » .

فقال دون أنطونيو يا أخ ، سر في طريقك ، ولا تسد النصائح إلى من لم يطلبوها منك ، إن السيد دون كيخوته دلا منتشا في تمام عقله ، ونحن الذين في صحبته لسنا مجانين . وينبغي على المرء أن يوقر الفضيلة أينما وجدها ، إمض لحال سبيلك منحوسا ، ولا تتدخل فيما لا يعنك .

فأجاب القشتالي ، والله أنت على حق ، إن إسداء النصيح إلى هذا الغر هو كالتصادم مع الشوكة . وعلى الرغم من هذا ، فإنها لخسارة حقا أن حسن العقل ، الذي يكشف عنه في كل شيء ، يزول حين يتعلق الأمر بالفروسية الجواله . وليلحقني النحس ، الذي تتكلم عنه ، أنا وكل ذريتي ، إذا أسديت نصائح لشخص ما حتى لو سألني النصيح ، وذلك طول حياتي ولو عشت عمر نوح (متوشالح) » .

وهناك ابتعد ، واستمر الآخرون في طريقهم . ولكن جمهور الناس والصبيان الذين كانوا يقرأون البطاقة ازداد زيادة هائلة حتى اضطر دون أنطونيو إلى انتزاع البطاقة ، بحجة أخرى .

ثم جاء الليل ، وعادوا إلى البيت ، حيث تجمعت جماعة كبيرة من السيدات ، لأن زوجة دون أنطونيو ، وكانت من أبرز سيدات المدينة ، جميلة ، عاقلة مرحة ، قد دعت الكثيرات من صديقاتها لتكريم ضيفها ، والتسلية ، في الوقت نفسه ، بأعماله الجنونية التي لم يسمع بمثلها . وكان العشاء فاخرا ، وبدأ الرقص في العاشرة ليلا ، ومن بين السيدات كانت اثنتان ذواتا مزاج يحب المزاح الشديد ، وإن كانت شريفتين ، وقد تعودتا المزاح غير المؤدي إلى نتائج أخرى . فاستولتا على دون كيخوته وجعلتا يرقص رقصا شديدا ، حتى لم يعد في وسع المسكين الاستمرار ، وكان من المضحك جدا أن يرى هذا الوجه الهزيل النحيل المتوتر وهذه البشرة السمراء ، وهذا الثوب الضيق ، وهذه المشية الثقيلة التي لا رشاقة فيها . وكانت كل منهما تنافس الأخرى في إغرائه وملاطفته ، وبدا هو أنه

يزدريهما ويترفع عنهما . ولما تضايق من ملاحقتهما صاح : « أغربوا عني أيها الخصوم ^(١) » ، دعيني في سلام ، أيتها الأفكار الخائبة : لقد أسأتم المجيء بهذه الرغبات ، أيتها السيدات : إن من استولت على أفكاري المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، لا تسمح أن يتغلب علي أفكار غير أفكارها . » وفي الوقت نفسه جلس وسط القاعة ، وهو محطم من هذه التمرينات العنيفة .

وأمر دون أنطونيو بحمله إلى سريره ، وكان أول من تقدم لمساعدته هو سنشو ، فقال هذا له : يا لله ! يا مولاي ! هل رقصت إذن ؟ وهل تظن أن كل الشجعان يحسنون الرقص ؟ وأن كل الفرسان الجواله هم مهرجون ؟ إن ظننت هذا ، أخطأت كل الخطأ ، إن منهم من يفضل أن يهاجم ماردا على أن يثب وثبة كاملة . ولو كان الأمر أمر وثب ، بضرب الردفين بالحذاء ، فإني أستطيع أن أحل محلك ، لأنني أقوم بذلك مثل الشاهين ، لكن الرقص على الأرض هذا أمر لا أحسنه . » فضحك كل أصحاب الرقص من كلام سنشو . وحمل هو سيده إلى غرفته ، وأرقده على الفراش ، وغطاه بغطاء ثقيل ، حتى يجعله يعرق الرطوبة التي تلقاها من الرقص .

وفي اليوم التالي ، أراد دون أنطونيو أن يجرب الرأس المسحور فراح إلى الغرفة التي فيها الرأس ، ومعه دون كيخوته وسنشو ، وصديقان ، والسيدتان اللتان أرهقنا دون كيخوته ، وكانت قد نامتا في البيت مع زوجة دون أنطونيو . وأخبر الجميع بخواص هذا الرأس ، وأوصاهم بكتمان السر ، وقال إن هذا هو أول يوم مناسب لإجراء التجربة ، وأنه باستثناء الصديقين الحاضرين هنا ، فإن أحدا لا يعرف سر هذا السحر ، ولو لم يخبرا لاندعشا كالباقين ، لأن العملية متقنة .

وكان أول من سأل الرأس هو دون أنطونيو نفسه ، الذي قال له بصوت خفيض ، لكن مسموع : « قل لي أيها الرأس ، بما فيك من موهبة خاصة ، في أي شيء أفكر أنا الآن ؟ » . فأجاب الرأس : « أنا لا أعرف قراءة الأفكار » ، قال الرأس هذه العبارة دون أن يحرك شفته وبصوت واضح متميز ، سمعه الجميع . فبقي الكل حيارى ، وهم ينظرون في الغرفة هل حول المنصدة شخص يجيب بالنيابة عن الرأس .

فسأله أنطونيو بعد ذلك : « كم عددنا هنا » فأجاب الرأس : « أنت وزوجتك ، وصديقان ، وصديقتان لزوجتك ، وفارس شهير يدعى دون كيخوته دلا منتشا ، وسائسه

(١) قالها باللاتينية ، وهي جملة تستخدمها الكنيسة في طرد الشر . وانتقلت إلى اللغة المعتادة .

سنشو پنثا . « فاندھشوا جميعا مرة أخرى وشعر بعضهم بأن شعره يقف . فقال أنطونيو وهو يبتعد : «أيها الرأس العاقل ، المتكلم ، المجيب ، الرائع ، هل يكفيني لأحكم على أن من صنعك لم يغشني . ليقرب شخص آخر وليسأله ما يريد » .

ولما كانت النسوة قليلات الصبر مستطلعات ، فإن إحدى صديقتي صاحبة البيت هي التي سألت الرأس فقالت : « قل لي ، أيها الرأس ، ماذا ينبغي أن أفعل لأكون جميلة دائما ؟ » فأجاب الرأس : « أن تكوني دائما مخلصه شريفة » . فقالت : « هذا يكفي وحسبي هذا » . واقتربت الصديقة الأخرى وسألت : « أريد أن أعرف هل يحبني زوجي ؟ » - فأجاب الرأس : « لاحظي سلوكه معك تعرفي » . فانسحبت هذه السيدة وقالت : « الواقع أن الأفعال تتكلم بنفسها ، وسؤالي لم يكن له فائدة » .

وسأل أحد صديقي أنطونيو : « من أنا ؟ » - فقال الرأس : « أنت تعرف » . - « ليس هذا قصدي ، هل تعرفني ؟ » - « نعم ، أنت دون بدرو نورث » - « كفى! هذا الجواب يدلني على أنك تعرف كل شيء » .

وسأله الصديق الآخر : « قل لي ، أيها الرأس ، ماذا يرغب أكبر أولادي ؟ » . - « لقد سبق أن قلت إنني لأقرأ الأفكار ، ورغم ذلك فإني أحذرك أن ابنك يفكر في دفنك » . فقال الصديق : « أنت على حق ، وأنا أرى في عينيه ، وألمسه باصبعي ، ولا أريد أن أعرف المزيد » . وقالت زوجة دون أنطونيو : « لست أدري ماذا أسألك عنه ، أريد فقط أن أعرف هل أستمتع طويلا برفقة زوجي » - فقال الرأس : « نعم ، لأن عفته وصحته تعدانه بعمر طويل ، والعمر في العادة يخترمه الاسراف والافراط » .

واقترب دون كيخوته بدوره وقال : « قل لي ، أنت يا من تحسن الجواب هكذا ، هل كان حلما أو حقيقة ما شاهدته في كهف مونتيسينوس ؟ وهل سنشو سيجلد نفسه حقا الجلدات المطلوبة ، وهل سيرفع السحر عن دلثنيا ؟ » - فأجاب الرأس : « أما عن كهف مونتيسينوس فثم الكثير الذي يمكن قوله في هذا الموضوع ؛ وأما سانسك سنشو فسيجلد نفسه فعلا ، ودلثنيا سيرفع السحر عنها » . - فقال دون كيخوته : « لا أريد أن أعرف المزيد ، بشرط أن يرفع السحر عن دلثنيا ، وأنا متأكد أن كل المغامرات المقبلة ستنجح » .

وكان سنشو آخر السائلين فقال : « قل لي ، أيها الرأس ، هل سأحصل على حكومة أخرى ؟ وهل سأخرج من مهنة سانس الهزيلة ؟ وهل سأرى زوجتي وأولادي ؟ » - فقال الرأس : « ستكون حاكما في بيتك ، وإذا عدت إليه ، فستري زوجتك وأولادك ، وحين تكف

عن الخدمة ستكشف عن كونك سائسا» . - فقال سنشو : «والله لقد أحسن الجواب ، وأنا قدرته من قبل ، والنبي بيروجرويو^(١) ما كان يمكن أن يقول أحسن من هذا» .

فقال دن كيخوته : «أيها المغفل ، أي سنشو ، ماذا كنت تريد من الرأس أن يجيب عليك ؟ ألا يكفي أن تتناسب الأجوبة مع الأسئلة ؟» .

فقال سنشو : «لا شك في هذا يا مولاي ، ولكنني كنت أود أن يقول المزيد» .

وهكذا انتهت الأسئلة والأجوبة ، ولم تنته دهشة الحاضرين ، الذين لم يكفوا عن الإعجاب بالرأس المسحور ، ما عدا صديقي دون أنطونيو ، لأنهما كانا يعرفان الحيلة .

وقد أراد سيدي حامد أن يعرفنا هذه الحيلة ها هنا ، حتى لا يترك القارئ معلقا يظن أن الرأس يحوي سرا خارقا . وهو يقول إذن إن دون أنطونيو أمر بصنع هذا الرأس على غرار رأس آخر صنعه نحاس ، وذلك من أجل لذة دون أنطونيو ولمفاجأة الجيلة . لقد كانت المنضدة من الخشب المدهون على الشب ، والرجل التي تحملها كانت من المادة نفسها ، مع أربعة مخالب نسر تخرج منها لزيادة تثبيتها . والرأس ، الذي بدا شبيها برأس امبراطور روماني ، وبدا أنه من البرونز ، كان أجوف فارغ الداخل تماما ، وكذلك داخل المنضدة ، وكان معشقا فيها بطريقة بارعة بحيث لا يرى أي لحام ، وكانت رجل المنضدة جوفاء هي الأخرى ، وتتجاوب مع فتحة مصنوعة في سقف الغرفة السفلى . وثم أنبوبة من الصفيح تمتد من فم وأذن الرأس ، وتخرق المنضدة ، والرجل ، والسقف ، دون أن ترى ، وفي الغرفة السفلى يوجد من سيتولى الرد على الأسئلة . فكان يضع فمه في الأنبوبة (الماسورة) التي كانت مثل الماسورة تردد الصوت من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، بالفاظ واضحة متميزة ، وبهذه الطريقة كان من المستحيل معرفة الحيلة . وكان يقوم بالجواب عن الأسئلة ابن أخي دون أنطونيو ، وهو فتى ذكي ، تعرف من عمه من الذين سيدخلون معه الغرفة ، فكان من السهل عليه أن يرد على السؤال الأول . أما الأسئلة الأخرى فقد رد عليها بالحذر وعلى نحو مناسب ، كما رأينا ، بفضل ذكائه . ويروي سيدي حامد أن عرض هذه الأعجوبة استمر من عشرة إلى اثني عشر يوما ، لكن لما انتشر الشائعة في المدينة أن عنده رأسا مسحورا يجيب عن كل الأسئلة ، خشي أن تبلغ الإشاعة مسامع رجال التفتيش ، ففضل أن يخبرهم هو بنفسه . فنصحوه بأن يحطم هذه الآلة ، حتى لا يثير البلبل في نفوس الجيلة والدهماء . لكن في رأي دون كيخوته وسنشو بقي الرأس دائما مسحورا ، يجيب عن الأسئلة بما فيه الكفاية .

(١) Pero Grullo هوما يقابل في الفرنسية M. de la Palisse فيقال ، هذه حقيقة من حقائق بيروجرويو (والفرنسيون يقولون ، من حقائق لابليس) ، أي معروفة لجميع الناس ، بديهية .

ولكن أعيان المدينة ، من أجل إرضاء دون أنطونيو والاحتفال بدون كيخوته وتحقيق الفرصة لإظهار أعماله الجنوبية ، قرروا أن يقيموا مسابقة خواتم بعد ستة أيام ، لكن هذا لم يتم لأسباب سنذكرها بعد قليل .

ورغب دون كيخوته في أن يتجول في المدينة على قدميه ، خوفاً من أنه إذا ركب فرسه ، فإن الأطفال سيخرجون وراءه . فخرج مع سنشو وخادمين أعطاهما له دون أنطونيو . وممر بشارع فوجد مكتوبا على أحد البيوت فيه ما يلي : « هنا تطبع كتب » . فأحدثت هذه المصادفة لذة بالغة في نفسه لأنه لم يشاهد مطبعة في حياته ، ولم يعلم كيف يتم الطبع .

فدخل ومن معه ، وشاهد كيف تصف الحروف في ناحية ، ثم يصصح المجموع في ناحية أخرى ، وتطبع الملازم بعد التصحيح ، وبالجملية كل ما يمكن أن يرى في مطبعة كبيرة . واقترب من صندوق ، وسأل الجماع ماذا يعمل ، فشرح له العامل ذلك ، واستمر وسأل السؤال نفسه عاملا آخر ، فقال مشيرا إلى رجل حسن الطلعة وقور « هذا الرجل المهذب الموجود أمامك قد ترجم كتابا تسكانييا (إيطاليا) إلى اللغة القشتالية (الاسبانية) ، وأنا أجمع حروفه لطبعه بعد ذلك » - فقال دون كيخوته : « وما عنوان هذا الكتاب ؟ » - فأجاب المترجم بنفسه : « الترهة » . - « وماذا ترجمت هذه الكلمة إلى اللغة القشتالية ؟ » - « كلمة مثل Los Juguetes (= الألعاب ، اللعب) ، وعلى الرغم من العنوان المتواضع الذي يحمله هذا الكتاب ، فإنه يتضمن أشياء حسنة وجادة » . - فقال دون كيخوته : « أنا أعرف قليلا من اللغة التوسكانية (الإيطالية) ، وأشعر بلذة كبيرة في إنشاء بعض أشعار أريوستو . لكن اعدرتني عن هذه الأسئلة ، فإن حب الاستطلاع هو الذي يملئها علي ، لا الرغبة في امتحانك ، لا شك في أنك مررت عدة مرات في النص بكلمة Pignata ؟ - كثيرا » . - « وكيف تترجمها ؟ » - « كما ينبغي ، أي بكلمة Olla (= قدر) » - فقال دون كيخوته « أوه ، كم أنت متضلع في اللغة التوسكانية! وأنا أراهن أنك تترجم Piace بـ Placa (يسر) ، و Pui بـ Mas (أكثر من) ، و Su بـ Arriba (فوق) ، على) ، و Mas بـ Abajo (= تحت ، أسفل) . » - فقال المترجم : « طبعا ، فهذه هي الكلمات المقابلة » . - فقال دون كيخوته : « إنني أتجراً على القسم بأن سيادتكم غير معروف بين الناس ، وهم أعداء باستمرار للعقول اللامعة والأعمال الجيدة . كم من مواهب مدفونة في المجتمع! وكم عقول مغمورة! وكم فضائل مزدراة! ومع هذا كله ، فيبدو لي أن الترجمة من لغة إلى أخرى ، حين لا تكون من اليونانية أو اللاتينية ، وهما ملكتا اللغات ،

تشبه من ينظر في سجاجيد الفلاندر من ظهرها ، لأنه وإن كان لا يزال من الممكن تمييز الصور والأشكال ، فإنها مملوءة بالخيوط التي تتشابك فيها ، ولا يمكن أن ترى بتمام بهاها . والاشتغال بالترجمة من لغة سهلة لا يدل على مزيد من الذكاء ولا الأسلوب أكثر من النسخ من ورقة على ورقة أخرى ما هو مكتوب فيها^(١) . ولست أقصد بهذا أن مهنة المترجم ليست جديرة بالتقدير ، لأن الإنسان يمكن أن يشتغل بأمور أسوأ ذات عائدة أقل . ولكنني أضع خارج هذه الفئة مترجمين شهيرين هما : الدكتور كريستوبال دي فيجروا في « الراعي فيدو »^(٢) ، ودون خوان دي خوريجي في « أمتا »^(٣) . فكلهما قد أثار الشك في أيها الترجمة وأيها الأصل . لكن قل لي ، يا سيدي ، هل تطبع هذا الكتاب على حسابك ، أو بعته لأحد الناشرين ؟ - فقال المترجم : « إنني أطبعه على حسابي ، وأقدر أن أربح منه ألف دوقية ، على الأقل ، في الطبعة الأولى ، التي ستكون من ألفي نسخة ، سعرالنسخة ستة رياللات ، وستباع بسرعة مذهلة » .

فقال دون كيخوته : كم أنت بعيد عن الواقع أنت لا تعرف إذن مداخل الناشرين ومخارجهم ، والمراسلات التي تجري بينهم ؟ وأنا أتوقع لك حين ترى نفسك محملا بألفي نسخة ، أنها ستبهظ كاهلك فلا تستطيع أن تتحرك ، خصوصا إذا لم يكن الكتاب لا ذعا . فقال المترجم : لماذا ! هل تريد مني إذن أن أتنازل عن حقوقي لصاحب مكتبة ، يعطيني ثلاثة مرابطيات ، ويعتقد أنه أحسن مكافأتي ؟ إنني لا أطبع من أجل الشهرة ، لأنني معروف لدرجة كافية ، بل أسعى إلى الربح ، وبدون الربح لا تساوي الشهرة عندي فلسا واحدا .

فقال دون كيخوته : أنجح الله سعيك .

وانتقل إلى غير آخر رأى فيه تصحيح تجارب كتاب عنوانه « أنوار الروح »^(٤) . فلما رآه قال : « هذه هي الكتب التي ينبغي طبعها ، مهما يكن من نوعها الكثير ، لأن الخاطئين كثيرون ، ولا بد من نور كثير لإضاءة نفوس كل هؤلاء العمي » . ثم انتقل إلى مكان آخر ، فرآهم يصححون كتابا آخر عنوانه : « القسم الثاني من الباربع النبيل دون كيخوته دلا

(١) هنا ينقد ثريباتس طريقة المترجمين في عصره ، وقد كانوا يعتمدون على نقل الكلام حرفيا كلمة مقابل كلمة دون فهم المعنى الأصلي أو روحه .

(٢) نشرت هذه الترجمة في بلنسية سنة ١٦٠٩ ، والمترجم أصله من مدينة بلد الوليد .

(٣) نشرت في إشبيلية ، وقد ولد فيها المترجم ، وكان شاعرا ورساما أيضا .

(٤) « أنوار الروح المسيحية ضد العمي والجهل » تأليف الأخ فليپ دي منيسس ، شلمنقه . سنة ١٥٥٦ . المؤلف من ترجماله . ومن أتباع طريقة القديس دومينيك . وكان أستاذا في القلمة .

منتشا» تأليف فلان ، من تورديسياس . فقال دون كيخوته : « لقد عرفت هذا الكتاب من قبل ، وأنا أقسم بشرفي وضميري أنني كنت أعتقد أنهم أحرقوا هذا الكتاب وأحالوه إلى رماد ، إنه كتاب سيئ . لكن عيد القديس مرتان سيمر عليه كما يمر على كل خنزير . إن التواريخ المتخيلة تكون أحسن وأمتع كلما اقتربت من الحقيقة ، والتواريخ الحقيقية تكون أكمل كلما كانت أكثر انطباقا على الواقع » . ولما قال هذه الكلمات خرج من المطبعة غاضبا . وفي اليوم نفسه قرر دون أنطونيو أن يصطحبه لرؤية الجاليرات التي كانت على الشاطئ ، مما سر له سنشو كل السرور ، لأنه لم يرها من قبل . فأخطر دون أنطونيو قائد الجاليرات بأنه سيأتي هذا المساء ومعه صيفه ، الشهير دون كيخوته دلا منتشا الذي يعرفه بالشهرة ، هو وجيرانه . وسترى في الفصل التالي ما سيحدث .

الفصل الثالث والستون

في النتيجة السيئة التي كانت لزيارة سنشو بنشا
للجاليرات، والمغامرة الجديدة للمورسكية الجميلة

حار دون كيخوته في تفسير جواب الرأس المسحور دون أن يهتدي إلى الرأي الصحيح . ولم يتمسك إلا بما وعد به من رفع السحر عن دلثنيا ، وكان يغدو ويروح فرحا في داخل نفسه ، وهو يؤمل أن يرى بعد قليل تحقق أمانيه . أما سنشو ، وإن كان قد كره الحكم ، فإنه كان سيسر لو أنه تولى مقاليد الحكم وصار يأمر ويطاع مرة أخرى ، لأن للحكم سحره وإغراؤه ، حتى لو لم يكن غير العوبة . وفي مساء هذا اليوم نفسه ذهب دون أنطونيو وصديقه ودون كيخوته وسنشو إلى الجاليرات . وكان القائد قد بلغ مقدما بمجيء هذين الأخيرين ، ولهذا فإنه لم تكذب الجماعة تأتي إلى الميناء ، حتى أرخت الجاليرات كل خيامها وأطلقت صفاراتها . وألقى بالقارب في الماء ، وكان مفروشا بأبسطة فاخرة ومربعات من القطيفة القرمزية . ولم يكذب دون كيخوته يضع قدمه في داخل الزورق حتى سمع مدفع القائد ومدافع سائر الجاليرات ، وحياء كل البحارة ، كما هي العادة حين يأتي شخص ممتاز ، وعلت الهتافات به . وعانق القائد وهو من أعيان بلنسية ، دون كيخوته ، وأعطاه يده ، وهو يقول : « إن هذا اليوم ينبغي يا سيدي أن يخلد ذكره على حجر أبيض ، بوصفه يوما من أجمل أيام حياتي ، إذ شاء حسن الحظ أن أرى الشهير دون كيخوته دلا منتشا ، الذي يحوي في داخله هو وحده خلاصة الفروسية » . ورد عليه دون كيخوته بتحية لائق لطفًا وقد رأى نفسه يعامل كأمر . وتقدموا إلى المؤخرة وكانت مزوقة كل التزييق ، وجلسوا على المقاعد . وصعد رئيس الملاحين على الجسر الأوسط ، وأعطى الإشارة ليخلع كل المحكوم عليهم ملابسهم ، وتم هذا في الحال . ودهش سنشو من مشاهدة هذا العدد الكبير من العراة ، وخصوصا وهو يراهم يمدون الشراع بكل هذه السرعة ، حتى لتكاد الشياطين نفسها أن تشارك في العملية ، لكن هذا لم يكن شيئا إذا ما قورن بما سيحصل له .

كان جالسا على عامود الكوثل بالقرب من المجذفين الأولين ناحية اليمين ، وقد لقنا ماذا يفعلان ، فأمسكا به ، ورفعاه ، وكان كل الطاقم مستعدا لبدء الإشارة . وأمر المجذف الأول سنشو إلى جاره وهذا إلى جاره ، وهكذا جرى من يد إلى يد ، ومن مقعد إلى مقعد ، ودار في الجاليرة كلها واستقر على المؤخرة في الموضع الذي أمسك به عنده أولا ، وتم هذا كله بسرعة هائلة أذهلته ، حتى ظن أن الجن والعفاريت هم الذين حملوه هكذا وتبادلوه . وصار محطما تماما ، يتصبب العرق منه قطرات غليظة ، وهو لا يفهم ما وقع له .

فسأل دون كيخوته ، حين رأى سنشو يطير هكذا ، سأل القائد هل هذا هو المرسم الذي يجرى للذين يزورون الجاليرات لأول مرة ، وأضاف ، إذا كان الأمر كذلك ، فإنه لما كان لا يريد أن يصبح بحارا ، فإنه لا يريد القيام بمثل هذا التمرين ! وقال ، « أقسم بالله لو تجرأ أحد ووضع يده علي ليرقصني هكذا ، فإني سأنتزع روحه من بدنه » . ولما قال هذه العبارة نهض واقفا وأمسك سيفه . وفي الوقت نفسه أرخيت الشرع ، وأنزلت القرية بصوت هائل ، فاعتقد سنشو أن السماء انفصلت عن مفصلاتها ، وسقطت على رأسه ، فارتاع ، وخفض رأسه وأخفاه بين ساقيه . ولم يكن وحده الذي ارتاع ، بل ارتاع أيضا دون كيخوته ، وشحب لونه وشد كتفيه . ثم رفعت القرية بضجة شديدة ، وتم كل هذا دون أن ينطق الطاقم بكلمة . وأشار رئيس الملاحين برفع المرساة ، ووثب في الوقت نفسه على الجسر الأوسط وأخذ يضرب أكتاف المحكوم عليهم بواسطة سوط ، وفي الحال دخلوا البحر .

ولما أبصر سنشو كل هذه السيقان تتحرك ، لأنه ظن المجاذيف سيقانا ، قال في نفسه : « هذه أشياء مصابة بالسحر فعلا ، وليست الأشياء التي يتباهى بها مولاي . لكن ماذا فعل هؤلاء المساكين ليضربوا بالسياط هكذا ؟ وأني لرجل واحد ، يصفر هكذا ، أن يكون له من الجرأة ما يجلد به كل هؤلاء الناس ؟ لا شك أن هنا الجحيم ، أو المطهر على الأقل » . ولا حظ دون كيخوته شدة اهتمام سنشو بكل ما يراه ، فقال له : « يا صاحبي ، ما أسهل أن تتعري مثل هؤلاء ، وتنحرف في صف المجذفين وتصنع بهذا رفع السحر عن دلثنيا ! انك لن تحس بعذاب هؤلاء الأشقياء ، وربما حسب لك الحكيم مرلان كل جلدة بعشر ، لأن اليد التي أعطتها جيدة » .

وأراد القائد أن يسأل عن هذه الجلدات ورفع السحر عن دلثنيا ، لكن المرشد قاطعه يقول له أنه من برج مونتجوتيش لوحظ قدوم باخرة من الغرب . فوثب على الجسر الأوسط وصاح : « هيا يا أولادي ، هذه سفينة قرصان من الجزائر رصدها الديديبان ، فاعملوا على الا تهرب منا » . واقتربت الجاليرات الثلاث الأخرى من جاليرة القيادة لتستعلم عما ينبغي

عمله . فأمر القائد بأن تتقدم اثنتان منها الى عرض البحر ، أما هو فيساحل ، مع الجاليرة الأخرى ، حتى لا تهرب السفينة . وأخذ المجذفون يجذفون بشدة حتى بدا كما لو كانت الجاليرات تطير ، ولمحت الجاليرتان اللتان تقدمتا في عرض البحر بعد ميلين سفينة فيها أربعة عشر أو خمسة عشر من المجاذيف ، ولما شاهدت سفينة القرصان الجاليرات ، أخذت في الهروب ، وهي تؤمل في النجاة نظرا إلى خفتها ، لكن خاب ظنها ، لأن جاليرة القائد كانت من أخف المراكب ، وهنالك رأى العدو أنه لن يفر من حتفه ، ولهذا أمر رئيس القرصان بالكف عن التجديف ابتغاء عدم إثارة قائد الجاليرات ، لكن القدر دبر غير ذلك . لقد كانت جاليرة القائد قريبة جدا حتى أن رجال سفينة القرصان كانوا يسمعون دعوتهم إلى التسليم ، وقام تركيان مخموران ، فأطلقا الرصاص من اسكوبتهما على جنديين اسبانيين على الافريز فقتلاههما . ولما رأى قائد الجاليرة ذلك أقسم أن هذا سيكلف العدو حياته .

فهاجم سفينة القرصان ، ولكنها فرت تحت المجاذيف ، غير أن الجاليرة قطعت عليها الطريق . ورأى العدو أنه هالك فرأوا أن يفرّوا بينما الجاليرة تلف ، واشتد تجذيف السفينة ، لكن اجتهدهم لم ينجحهم من العقاب عن جسارتهم . فبلغهم القائد على مسافة نصف ميل ، وألقى بالمجاذيف عليهم ، وأسرههم جميعا أحياء .

وتجمعت الجاليرات الأربع وعادت بغنيمتها إلى الساحل ، وكان يعج بعدد كبير من المشاهدين ، الذين جاءوا ليروا سفينة القراصنة . وألقى القائد مراسيه ، ولما علم أن نائب الملك^(١) على الشاطئ ، أرسل إليه الزورق ، وأمر في الوقت نفسه باللاتيان بالقرية وشنق رئيس القراصنة فيه ، وسائر الأتراك وكان عددهم قرابة ستة وثلاثين وكلهم رماة مهرة نشطون . وسأل القائد عن رئيس سفينة العدو . فقال أحد الأسرى بالاسبانية ويبدو أنه مرتد أسباني ، إنه هذا الشاب الذي أمامك ، وأشار إلى فتى من أجمل ما يرى من الفتيان ، عمره حوالي عشرين سنة ، فناداه القائد وقال له : « خبرني أيها الفاسد الرأي ، ماذا حملك على قتل جنديين من جنودي ، حين رأيت أنك لن تستطيع الفرار ؟ هل هذا هو الاحترام الواجب للقادة ، وهلا تعرف أن التهور ليس من الشجاعة في شيء ؟ إن الامال المشكوك فيها يمكن أن تجعلنا جمهورين ، لا متهورين » .

وكان الرئيس على وشك أن يجيب ، لكن لم يكن عنده متسع من الوقت ، لأن نائب

(١) وهو دون فرنثيسكو هورتادو دي مندوتا ، مركز المخزن ، ومحارب شجاع .

الملك كان قد نزل الجاليرة ومعه رجاله وبعض أشخاص آخر . وسأل القائد : « هل ظفرت بغنيمة عظيمة ؟ » - فقال القائد : « ولماذا ؟ » - « لأنهم ، ضد كل عرف وقانون حرب ، قتلوا اثنين من خيرة جنودي ، وقد أقسمت أن أشنقهم جميعا ، خصوصا هذا الفتى الذي هو رئيس سفينة القراصنة ، » هكذا قال ، وأشار إلى هذا الفتى الموثق اليدين ، والحبلى في عنقه ، ولا ينتظر إلا الموت .

فألقي نائب الملك نظرة عليه ، ورآه جميلا شديد الأسر متواضعا ، ففكر في إنقاذه ، لأن جمال الفتى بمثابة خطاب توصية به . فقال للفتى : « يا رئيس ، هل أنت تركي العنصر ، مسلم أو مرتد ؟ » - فأجاب الفتى باللغة الاسبانية : « لا هذا ، ولا ذاك » . - « فمن أنت إذن ؟ » - « أنا امرأة نصرانية » . - « امرأة نصرانية بهذا الزي ، وفي هذه المصادمة ؟ هذا أمر عجيب عسير التصديق » . - فقال الفتى : « يا سادتي ، أجلوا قرار إعدامي لوقت قصير ، ولن يخسر انتقامكم شيئا ، وسأقص عليكم قصة حياتي » .

أي قلب من البرونز لا يرق لهذه الكلمات ، أو على الأقل لا يوافق على سماع قصة هذه المخلوقة البانسة ؟ ولكن القائد كان مهتاجا غاضبا فقال لها : تستطيعين أن تقصي ما تشائين ، لكن لا تؤلمي في الصفح عن جريمتك .

فقالت : « سادتي ! إني بنت لأبوين مغربيين ، من تلك الأمة التي كان حظها من البؤس أكثر من حظها من الفطانة ، والسماء منذ مدة تصب عليها بحارا من المصائب . وأتى بي اثنان من أعمامي إلى بلاد البربر (المغرب) ، دون أن يفيدني شيئا أن أقول بأنني نصرانية ، وأنا بالفعل كذلك ، ولست من أولئك اللواتي يتظاهرن بذلك ، بل أنا في صميم قلبي كاثوليكية . والذين كلّفوا بطردنا البائس أصموا آذانهم عن هذه الحقيقة ، ورفض عملي تصديق ذلك ، مقتنعين بأن هذا كذب من جانبي ابتغاء البقاء في أرض ميلادي ، حتى إنني اضطررت رغما عني إلى الذهاب معهما وكان أبي وأمي نصرانيين ، وعاقلين فطنين . ورضعت لبان الإيمان الكاثوليكي وريت تربية حسنة ، ولم يكن ثم مظهر يدل على أنني مغربية (مسلمة) . ونما جمالي ، إن كان لي جمال ، في ظل هذه الفضائل ، لأنني أعدهما كذلك ، وعلى الرغم من كوني عشت عيشة منعزلة ، بيد أن فارسا شابا أبصرني ، اسمه دون جيسبار جريجوريو^(١) ، الابن الأكبر لرجل من الأفاضل ، وكان يعيش بالقرب منا . وسيطول بنا الكلام لو أنني رويت لكم كيف رأيته ، وكيف كنا نتكلم معا ، وكيف هام حبا

(١) «دون جريجوريو» هذا يسمى «دون جيسبار» في أحد الفصول السابقة . وريكوته في نهاية الفصل الرابع والخمسين . سماه «دون بدرو» . واسمه في الفصل الخامس والستين «دون جريجوريو» .

بي ، كما أحبته أنا . والحبل المهلك الذي يهددني لا يعطيني مهلة من الوقت . ولهذا يكفيني أن أقول أن دون جريجوريو أراد أن يصحبنا في المنفى . فاختلط بالمغاربة وكان يعرف لغتهم جيدا ، وفي أثناء الرحلة صادق عمي اللذين يصحباني ، لأن أبي ، وهو رجل متبصر حكيم ، حين عرف قرار نفينا ، ارتحل ليجد لنا في البلاد الأجنبية ملجأ . وقد دفن في مكان ، لا يعرفه غيري ، كثيرا من الآلئ والأحجار الكريمة الغالية الثمن ، وقطع نقود ، وأمرني ألا أمسها إذا اضطررت إلى الرحيل قبل عودته . فأطعت أمره ، وكما قلت لكم ، انتقلنا إلى العدو مع عمي وسائر أقاربي . وكان المكان الذي استقرنا فيه هو الجزائر ، وكان ذلك جحيما لنا . لقد سمع الداي عن جمالي ثم عن ثروتي . فأمر بإحضاري للمثول بين يديه ، وسألني من أي مكان في أسبانيا أنا ، وأي كنز أتيت به . فذكرت له البلد الذي ولدت فيه ، وقلت له أن الكنز قد دفتته ، ولكنني سيسهل علي العثور عليه بشرط أن أذهب أنا للبحث عنه . وكان كلامي هذا بقصد إثارة جشعه وطمعه ، وإغماض عينيه عن جمالي . وفي هذه اللحظة أخبروه بأنه جاء معي شاب من أجمل الشباب . فحزرت في الحال أنهم يقصدون دون جريجوريو ، وكان جماله غير عادي ، واضطربت وأنا أفكر في الخطر الذي يهدد هذا الشاب ، لأن الأتراك الهمج يولعون بالشباب الجميل أكثر من ولوعهم بأجمل فتاة في الدنيا . فأمر الداي بإحضاره ، وسألني هل ما يقال عنه صحيح . فأجبت : نعم ، هو جميل ، ما في ذلك ريب ، - وكان السماء ألهمتني - ، ولكنه ليس فتى ، بل فتاة مثلي وأرجوك أن تأذن لي بالذهاب لإعطائها ملابسها لكي تبدو أمامك بخجل أقل وروعة أكثر . فوافق على ذلك ، وقال أنه في اليوم التالي سنفكر في كيفية عودتي إلى اسبانيا للبحث عن كنزي . فذهبت للبحث عن جسبار ، ونبهته إلى الخطر المحدق به إذا ظهر أنه شاب ، فألبسته ثياب سيدة مغربية ، وفي المساء قدمته إلى الملك ، فأعجب بجماله لما رآه ، وقرر الاحتفاظ به ليهديه إلى السلطان الأعظم . ولتجنب خطر وإغراء وضعه بين النساء في الحريم ، أرسله إلى إحدى السيدات أرسله إلى الكبار ليحرس ويخدم حتى الرحيل . وأترك لأولئك الذين يعرفون عذاب الغياب أن يحكموا على الألم الذي أحدثه الفراق . وأمر الداي بإعادتي إلى اسبانيا في هذه السفينة ، بصحبة التركيين اللذين قتلوا جندييكم ، وهذا المرتد الاسباني الذي تروته ، قد جاء أيضا معي . وأنا أعرف أنه مسيحي مؤمن في قلبه وأنه يفضل البقاء في أسبانيا على العودة إلى بلاد المغرب : أما المجدفون فهم مغاربة وأتراك مهمتهم أن يجدفوا فقط . أما التركيان ، وكانا وقحين جشعين ، فإنهما لم يحترما الأمر الصادر إليهما بإنزالني أنا وهذا المرتد على أول شاطئ أسباني نصادفه ، وبملابس النصراري التي كانت

معنا ، بل أرادا أولاً أن يتجولا على هذا الشاطئ ليحاولا الاستيلاء على غنائم ، وهما يخشيان أن نكشف عن السفينة بحادث عرضي ، مما يمكن الجاليرات الأسبانية من الاستيلاء عليها ، وهذا ما حدث فعلاً . فاقتربنا من الساحل هذه الليلة ونحن لا ندري الخطر الذي ينتظرنا ، ولكنكم اكتشفتمونا ، والخلصة أن دون جريجوريو ، وهو يلبس ملابس امرأة ، بقي عند امرأة في وسط أخطار من كل نوع ، وأما أنا فإني هنا موثقة اليدين ، لا أنتظر غير نهاية حياة صارت كريهة عندي . تلك ، يا سادة ، هي قصتي الحزينة . والفضل الوحيد الذي أطلبه منكم هو أن تتركوني أموت مسيحية ، فأنا لست مذنب ، ولا مسنولة على الغلطة التي ارتكبتها أبناء قومي » .

وسكتت ، وأثرت دموعها في كل السامعين . ورق قلب نائب الملك ، فاقترب منها ، وحل وثاق يديها . وطوال الوقت الذي كانت تتكلم فيه ، كان حاج عجوز ، دخل الجاليرة مع نائب الملك ، يتطلع بنظراته فيها . ولم تكذ تفرغ من كلامها حتى سقط عند قدميها ، وقبلهما وعانقهما ، وقال لها ، بين آلاف الزفرات : « أي آنة فليكس Ana Felix ، بنتي الشقية ، أنا أبوك ريكوته ، وقد كنت على وشك السفر للبحث عنك ، لأنك روحي ، ولا أستطيع أن أعيش بدونك » .

وعند هذه الكلمات فتح سنشو عينيه ، ورفع رأسه ، الذي أرغمته النزهة على الجاليرة أن يخفضه ، وحدق في الحاج ، وتعرف فيه نفس ريكوته الذي لقيه حين خرج من الجزيرة ، وابنته البائسة ، التي ظلت تعانق أبيها منذ أن فك القيد من يديها ، مازجة دموعها بدموعه . وقال ريكوته مخاطباً القائد ونائب الملك : « نعم يا سادة ، هذه البائسة هي ابنتي ، الجديرة بالثناء لما أصابها من بلواء . إن اسمها آنة فليكس ، واسم أسرتها ريكوته ، وثراؤها يعدل جمالها . وقد خرجت من بلدي للبحث عن ملجأ في الخارج . ولما وجدت ملاذاً في ألمانيا ، عدت إلى وطني بزي الحاج ، وبصحبة بعض الألمان ، للعثور على ابنتي واستخراج كثير من الثروة التي خبأتها . غير أنني لم أجد ابنتي ، بل وجدت كنزي ، الذي أحمله معي ، وفي هذه اللحظة ، بالمصادفة العجيبة التي تشهدونها ، أرى من جديد هذه البنت البائسة ، هذا الكنز الآخر الذي يجعلني أكثر ثراء ، فإن استطاعت دموعها ودموعي والدليل على براءتنا أن تستدر عطفكم ، فافتحوا باب الرحمة ، وأشفقوا على أولئك الذين لم يقصدوا أبداً إلى إهانتكم ، ولم يشتركوا في أية تدابير قام بها أبناء قومهم الذين نفيتوهم عن عدل . » فقال سنشو : « نعم ، أنا أعرف ريكوته ، وأعرف أن آنة فليكس ، الحاضرة هنا الآن ، هي ابنته ، أما عن رحلته وغدواته ، ونواياه الحسنة أو السيئة ، فهذا أمر لا شأن لي به » .

ودهش جميع الحاضرين من هذه المصادفات العجيبة ؛ ورق قلب القائد ، فقال للفتاة :
« لقد انتصرت دموك ، أي أنه فليكس الجميلة ، لن أتمسك بقسمي ؛ كوني سعيدة وانعمي
بالأيام التي تهبك السماء ، وأولئك فقط الذين بلغت بهم الوقاحة أن ارتكبوا هذه الخطيئة هم
وحدهم الذين سيعاقبون . » وفي الوقت نفسه أمر بشنق التركيين اللذين قتلوا الجنديين
الأسبانيين ، شنقهما في الدقل ، لكن نائب الملك طلب العفو عنهما ، قائلا إن فعلهما يدل
على الجنون أكثر مما يدل على التهور . فوافق القائد ، لأن الرغبة في الانتقام اختفت بزوال
الغضب . ثم اهتموا بالتفكير في الوسائل التي يمكن بها إنقاذ دون جريجوريو من الأخطار
الموجد فيها . وعرض ريكوته تقديم ألفي دوقية ثمن لآلى وأحجار كريمة يحملها ، من أجل
بذلها في هذا الغرض . وكانت أحسن الأفكار فكرة المرتد ، التي تحدثنا عنها وهي أنه
عرض أن يعود إلى الجزائر في مركب صغير ذي ستة صفوف من المجاديف ، بحارته
نصارى . وهو وحده الذي كان يعرف أين وكيف يمكن النزول ، وكان يعرف البيت الذي
يقيم فيه دون جريجوريو ، ووجد القائد ونائب الملك صعوبة في الثقة بالمرتد أول الأمر ،
وأن يضع بين يديه مجدفين نصارى ، لكن أنه فليكس أكدت أن من الممكن الثقة به ،
وتعهد ريكوته بدفع فدية النصارى لو أخذوا أسارى . ثم عاد نائب الملك إلى الشاطئ ، يتبعه
دون أنطونيو مورينو ، الذي اقتاد معه الموريسكية وأباها . وأوصاه نائب الملك برعايتهما ،
وقدر لهما كل ما يتعلق به ، لأن جمال أنه فليكس ألهمه الاهتمام بها والإحسان .

الفصل الرابع والاستون

في أسوأ مغامرة وقعت لدون كيخوته

يروى التاريخ أن زوجة دون أنطونيو موريانو لقيت آفة فليكس بسرور بالغ ، وبذلت لها كل تكريم وحفاوة ، معجبة بحكمتها وجمالها ، وجاء كل أشراف المدينة لزيارتها والإئتناس بها . أما دون كيخوته ، فإنه قال لدون أنطونيو أن الرأي الذي أخذوا به ، من أجل تحرير دون جريجوريو ، لا يسره أبدا ، لأنه ينطوي على خطر أكثر مما ينطوي على أمل في النجاح ، وأن الأفضل هو أن يقاد هو نفسه إلى بلاد البربر بسلاحه وفرسه ، وسيبذل سعيه من أجل تخليص زوجته ميلسندره . فقال سنشو : « خذ حذرک ، لقد كان ذلك على البر لما اختطف دون جاييفيروس زوجته ، لكن ها هنا ، حين تخلص دون جريجوريو ، فكيف تعود به إلى أسبانيا ، ما دام البحر بيننا وبين المكان الذي هو فيه ؟ » - فأجاب دون كيخوته : « لكل داء دواء ، إلا الموت ، سنترك مركبنا عند الشاطئ ، ونستطيع أن نبحر فيه رغم أنف الجميع . » - فقال سنشو : « أنت تسهل الأمر جدا ، لكن بين القول والفعل مسافة طويلة ، أنا من رأيي أن نثق بالمرتد ، وهو يبدو لي رجلا طيبا حسن الخلق . » هنالك قال دون أنطونيو أنه إذا لم ينجح المرتد في خطته ، فسيلجأ إلى دون كيخوته .

ويعد يومين سافر المرتد ، مصحوبا بفتية شجاعان ، في مركب خفيف ذي ستة مجاديف في كل صف ، ويعد يومين من ذلك اتخذت الجاليرات طريقها إلى المشرق ، ورجا القائد من نائب الملك أن يخبره بنتيجة مغامرات أنه فليكس وتخليص جريجوريو .

وذاث صباح كان دون كيخوته يتريض على الشاطئ ، مدججا بالسلاح من قدمه إلى رأسه (إلا أنه ، كما كان يقول مرارا ، السلاح زينتي والكفاح راحتي ولهذا لم ير أبدا بغير سلاحه) ، ورأى فارسا مدججا بالسلاح مثله مقبلا عليه ، ويحمل على ترسه رسما لقمر باهر . ولما اقترب هذا الفارس صاح : « أي دون كيخوته دلا منتشا المغوار ، أيها الفارس

الشهير الذي لا يفنيه الثناء حقه ، أنا فارس القمر الأبيض ، التي ربما بلغت مسامعك أخبار أعمالتي المجيدة ، وقد أثبت لامتحان قوة ساعدك ومنازلتك ، لأرغمك على الاقرار بأن سيدتي ، أيا من كانت ، أجمل من دلثنيا دل توبوسو صاحبك . فإن أقررت بذلك عن رضا ، أفلت من الموت ووفرت علي مشقة إصابتك به ، أما إذا شئت القتال ، فهذه هي شروطي ؛ إذا انتصرت أنا ، فإني لا أطلب منك غير أن تلقي سلاحك ، وتتوقف عن الجري وراء المغامرات ، وأن تعتزل في بيتك طوال عام ، حيث تعيش في سلام وراحة دون أن تمسك بسيف كما يقضي عليك بذلك المحافظة على مالك ونجاة روحك . وإن انهزمت أنا ، فإن حياتي بين يديك ، بين يديك ، وأسلحتي ، وفرسي ملك لك ، ومجد أعمالتي العظيمة ينسب إليك . فانظر ما تختار ، وأجبني في الحال ، إذ لا وقت عندي للانتهاة من هذه المسألة غير اليوم » .

فدهش دون كيخوته من صلف فارس القمر الأبيض وموضوع تحديه ، وأجاب بلهجة جادة قاسية : « أي فارس القمر الأبيض التي لم تصل إلى مسامعي أخبار أعماله ، سأجعلك تقسم بأنك لم تر أبدا دلثنيا الشهيرة ، لأنك لو كنت رأيتها ، لما كنت طلبت هذا الطلب ، وستدرك غلطك ، وأنه لا جمال يعدل جمالها . ولهذا لا أقول إنك كذبت ، بل أقول إنك على خطأ ، وأنا أقبل تحديك بالشروط التي اقترحتها ، ولا استثنى منها إلا مجد أعمالك التي تريد أن تنسبها إلي ، لأنني لا أعرف ما هي مغامراتك هذه ، وأكتفي بمغامراتي أنا كما هي . وأوافق على أن يتم القتال في الحال ، حتى تسوى هذه المسألة في اليوم الذي اخترته . فأفسح لنفسك كما تشاء ، وسأفعل المثل ، والله يعين من يشاء » .

وقد شوهد من المدينة فارس القمر الأبيض وعرف نائب الملك أنه في نقاش مع دون كيخوته ، واعتقد أن هذه لا بد أن تكون مغامرة جديدة دبرها دون أنطونيو ، أو أحد أعيان المدينة ، وتقدم إلى الشاطئ ، يتبعه دون أنطونيو ، وعدد كبير من أصدقائه ، في اللحظة التي أدار فيها دون كيخوته عنان روثيناته لاتخاذ المسافة المناسبة . ولما رأى أن الفارسين تأهبوا للانقضاض كل منهما على الآخر ، حال بينهما ، وسألهما عن السبب في هذا القتال المفاجئ . فأجابه فارس القمر الأبيض أن الأمر يتعلق بتفضيل في الجمال ، وبإيجاز قص عليه ما قال لدون كيخوته ، وكيف أن شروط التحدي قد قبلها الطرفان .

واقترب نائب الملك من دون أنطونيو ، وسأله بصوت خفيض هل يعرف المتحدي ، وهل هذه لعبة جديدة يراد تدبيرها لدون كيخوته ؟ فأجاب دون أنطونيو بأنه لا يعرفه ، ولا يدري هل هذه مزاحة أو لا . فربك هذا الجواب نائب الملك ، ولم يدر هل يأذن بالقتال أو



دون كيخوته بعد أن صرعه فارس القمر

لا . ولما لم يستطع الاقتناع بأن هذه ليست مزاحة ، تراجع قائلاً : « سيدي الفارسان ، ما دام ليس هنا علاج غير الاعتراف أو الموت ؛ وما دام السيد دون كيخوته لا يقبل التروي ، وسيادتك يا صاحب القمر الأبيض ، لا تريد أن تتراجع ، فهيا إلى الأمام ، في رعاية الله واهجما » .

فشكر البطلان بأدب جم لنائب الملك إذنه لهما بالقتال ، وتوكل دون كيخوته بكل قلبه على الله وعلى سيده دلثيا ، كما كانت عادته حين يبدأ في خوض المعارك ، واستدار ليتخذ مسافة ، لأنه رأى خصمه يفعل الشيء نفسه ، ثم ، وبدون إشارة ، وبدون آلة حربية تعطي إشارة البدء ، أطلق كل منهما العنان لفرسه . لكن لما كان فرس الفارس المجهول (ذو القمر الأبيض) أسرع من روئيناته ، فإنه أخذ وحده ثلثي الميدان ، وانقض على دون كيخوته باندفاع شديد جدا ، دون أن يستخدم رمحه ، بل رفعه عن قصد ، حتى أن روئيناته وصاحبه تجندلا على الأرض بقسوة في أسوأ حال . هنالك اقترب الفارس المجهول من دون كيخوته ، ووضع سن رمحه في حافة خوذته ، وقال له : « أنت مهزوم ، أيها الفارس ، ستموت إن لم تقرر بما طلبته منك » .

ودون كيخوته ، دائخا ، محطما من سقطته ، ليست لديه القوة لرفع حافة خوذته ، أجاب بصوت ضعيف متكسر كأنه يخرج من قبر : « دلثيا دل توبوسو هي أجمل النساء ، وأنا أشقى الفارسان . وشقائي لا يحملني على خيانة الحقيقة ؛ إدفع رمحك ، أيها الفارس ، وانتزع مني حياتي ، ما دمت قد سلبتني الشرف » .

فأجاب فارس القمر الأبيض : كلا ، لن أفعل . ليظل جمال السيدة دلثيا ، ومجدك ، سالمين ، ويكفييني أن يعتزل العظيم دون كيخوته في بيته طوال عام ، أو طوال المدة التي أفرضها عليه ، كما اتفقنا قبل المعركة .

وسمع نائب الملك ودون أنطونيو وكثيرون هذه العبارات ؛ وسمعوا قول دون كيخوته أنه ما دام لا يطلب منه شيء يضر بدلثيا فإنه سينفذ كل ما يطلب منه بدقة الفارس الصادق الأمين . وبناء على هذا التوكيد ، أدار الفارس المجهول لجامه ، وحيا برأسه نائب الملك ، ودخل المدينة راكضا ركضا قصيرا . وفي الحال طلب نائب الملك من دون أنطونيو أن يتبعه ، ليعرف بأي ثمن من هذا الفارس .

وأنهض دون كيخوته ، وكشف عن وجهه ، فوجد شاحبا يتصبب عرقا وكان روئيناته مطحونا بحيث لم يستطع الحراك . وسنشو بقي حزيننا مفكرا ، لا يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وبدت له هذه المغامرة حلما ، وآلة صنعها السحر . وشاهد مولاه مهزوما ، مرغما

على البقاء طوال عام بغير سلاح . وبدأ له مجد أعماله مظلماً ، وآمال وعوده الجديدة زالت كال دخان الذي تبدده الريح . وخشي أن يكون روثيناته قد جرح وتكسرت أضلاع سيده . وأخيراً حمل دون كيخوته على كرسي ذي ذراعين ، أرسله نائب الملك ، الذي أسرع بدخول المدينة ، لأنه كان متلهفاً لمعرفة من فارس القمر الأبيض هذا الذي سام دون كيخوته العذاب والإهانات .

الفصل الخامس والستون

في التعريف بفارس القمر الأبيض، وتخليص
دون جريجوريو، وحوادث أخرى

تتبع دون أنطونيو مورينو آثار فارس القمر الأبيض الذي كان يلاحقه الأطفال حتى باب البيت الذي أوى إليه . ودخل دون أنطونيو البيت معه ، وهو متشوق لمعرفة من هو . فوجده في قاعة واطئة ، وسائسه يخلع له سلاحه . فلما شاهد أنه يلاحق على هذا النحو قال لدون أنطونيو : « إنني أرى جيداً أنك متلهف لمعرفة من أنا . ولن أكتم الأمر عنك ، وبينما خادمي يخلع عني سلاحي ، سأرضى استطلاعك . اعلم أن اسمي سمسون كرسكو ، وأنا حاصل على البكالوريا ، ومن قرية دون كيخوته نفسها ، التي تثير أحواله الجنوبية الرحمة في نفوس كل من يعرفونه . وأنا من أولئك الذين تأثروا لها أيما تأثر ، ولما كنت أعتقد أن الراحة وحدها هي التي يمكن أن ترد إليه عقله ، فقد بحثت عن الوسائل لاعادته إلى بيته ، وإقراره فيه . ومنذ ثلاثة أشهر تقريبا ، قمت بجولة كفارس جوال ، وأطلقت على نفسي إسم فارس المرايا ، بقصد منازلته وقهره دون الاضرار به . وقد وضعت شرطا للقتال أن يكون المهزوم تحت رحمة الظافر ، ولما كنت أظن أنني سأنتصر عليه بسهولة ، فقد أردت منه أن يعود إلى بيته ولا يخرج منه لمدة عام ، مؤملاً أن يشفى في خلال هذه الفترة . لكن شاء القدر شيئا آخر ، لأنه هو الذي انتصر علي ، وأنزلني عن قريوس فرسي ، وهكذا تبدد مشروعي . وعدت خجلان محطما من السقطة ، وكانت شديدة . لكنني لم أياس ، وأقسمت أن أعود وأنتصر عليه ، وهو ما فعلته اليوم . ولما كنت أعلم دقته في مراعاة قواعد الفروسية ، فإني لا شك أبدا في أنه سينفذ ما تعهد به . هذا يا سيدي ، بغير أدنى تحفظ ، ما أردت أن تعرفه ، وأرجوك ألا تكشف عن هويتي ، وألا تقول لدون كيخوته من أنا ، حتى لا تضيع جهودني ونواياي الحسنة سدى ، وأن يستطيع هذا الرجل المسكين أن يسترد صوابه وعقله ، وان عقله ممتاز حين لا تعكره تهاويل الفروسية الجواله » .

فأجاب دون أنطونيوس : « آه يا سيدي ! سامحك الله على ذنبك في حق الناس جميعا
برغبتك في أن ترد عاقلا أمتع المجانين . ألسنت ترى أن كل الفائدة التي يمكن استخلاصها
من حكمة دون كيخوته لا تساوي أبدا المتعة التي يمكن أن توفرها أحواله الجنونية ؟ أما أنا
فأتخيل أن كل قريحة السيد حامل البكالوريا لن تستطيع أبدا أن ترد إلى العقل رجلا مجنوننا
كل الجنون ، ولولا المحبة المسيحية ، لتمنيت ألا يشفى أبدا ، أنه بشفائه نفقد ليس فقط
تهاويله ، بل وأيضا حماقات سنشو ، التي تكفي إحداها لتسلية الكآبة عينها . ومع ذلك فأنا
سأسكت ، ولن أقول كلمة لأحد ، لأرى هل أنا على خطأ في رأيي حين أعتقد أن اهتمام السيد
كرسكو لن تكون له نتيجة » . فأجاب هذا بأن المسألة تبدو له سائرة في طريقها الحسن ،
ويرجو منها النجاح والتوفيق . وبعد أن عرض دون أنطونيوس عليه استعدادة للقيام بأية خدمة ،
ودعه كرسكو . وربط سلاحه على بغل ، وركب الفرس الذي استخدمه في النزال ، وخرج من
المدينة في اليوم نفسه ، وعاد إلى قريته دون أن يقع له شيء يستحق الذكر .

وأنا دون أنطونيوس نائب الملك بما أخبره كرسكو . ولكن نائب الملك لم يسر بهذا
أبدا ، لأنه بالنسبة لدون كيخوته سيذهب كل استمتاع يؤمل من أحواله الجنونية .

وبقي فارس الأسود المسكين (دون كيخوته) ستة أيام في فرشاء ، حزينا ، مهموما ،
محطما الأعصاب ، سيئ المزاج ، مشغولا دائما بهزيمته وحاول سنشو أن يواسيه ، ومن
بعض كلامه له قال : « سيدي ، ارفع رأسك ، وافرح ما استطعت ، وأحمد الله على أنك على
الرغم من جندلتك على الأرض فإنه لم يكسر لك ضلع . ألا تعلم أنه حيث يعطى المرء
يتلقى ، وحيث يوجد كعب فلا يوجد شحم بالضرورة ؟ لا تحفل بالطبيب ، ما دمت لست
في حاجة إليه لشفاء هذا المرض . ولنعد إلى قريتنا ، ولا نبجث عن المغامرات في أراض
مجهولة . ولو قمنا بالحساب الدقيق لتبين أنني أنا الخاسر أكثر ، وإن كنت أنت تلت المعاملة
الأسوأ . لقد تركت مع الحكومة الرغبة في أن أكون حاكما ، لا في أن أكون كوتشا ، وهو ما
لن يتحقق أبدا إذا تخليت عن وسائل الوصول إلى عرش الملك ، بترك مهنة الفروسية . »

فقال له دون كيخوته : « اسكت ، يا سنشو ، أنت ترى أن اعتزالي لن يستمر إلا سنة
واحدة . وبعد هذه المدة سأستأنف أعمالي المشرفة ، ولن تعوزني مملكة لغزوها ، ولا
كونتيسة لأهيك إياها » .

فقال سنشو : « سمع الله منك ، وتخرس الخطيئة ! لقد سمعت دائما أن الأمل الحسن
أفضل من الامتلاك الرديء » .

وفي هذه اللحظة دخل دون أنطونيوس وهو يطير فرحا ، وقال : « أنباء طيبة يا سيد دون

كيخوته ، لقد وصل المرتد دون جريجوريو إلى الميناء ؟ لماذا أقول الميناء ؟ إنهم عند نائب الملك وسيحضرون هنا في الحال » . - فقال دون كيوخوته وهو يتسم بصعوبة : « هذا أمر يسرني جدا ، لكنني أعترف بأنني كنت أود أن تتخذ الأمور وجهة أخرى إذ سيكون في وسعي حينئذ الانتقال إلى العدو ، وبقوة ذراعي أحرر ليس فقط دن جريجوريو ، بل وأيضا كل المسيحيين الأسرى . لكن ماذا أقول أنا البائس ! أأست مهزوما مهانا محكوما علي بعدم حمل السلاح طوال عام كامل ؟ أي وعد أستطيع أو أعد وبأي شيء ، أفتخر إذا كان علي أن أستخدم المغزل لا السيف ؟ » .

وقال سنشو : « سيدي ، دع عنك كل هذه الشكايات . تحيا الدجاجة وإن كان في لسانها جلدة . يوم لك ويوم عليك . في كل المصادمات والمعارك لا يمكن الوثوق بشيء ، لكن من يسقط اليوم يمكن أن ينهض غدا ، اللهم إلا إذا كان يفضل ملازمة الفراش ، أي يقنط بحيث لا يستطيع أن يكتسب قوى جديدة لمعركة جديدة . انهض إذن لاستقبال دون جريجوريو ، لأن الناس يظهرون ، ولا بد أنه وصل فعلا » .

وكان سنشو قد قال حقا ، لأنه بعد أن روى المرتد ودون جريجوريو لنائب الملك نجاح الحملة تلهف الفتى على رؤية أنه فليكس فجاء إلى بيت دون أنطونيو . وفي أثناء اجتياز البحر غير ملابس النساء بثوب بحار ، وفي هذا الثوب الزري كان أيضا جديرا بالحب والخدمة والتقدير ، لأنه كان ذا جمال مفرط مدهش ، وبدا أن سنه بين السابعة عشرة والثامنة عشرة . وهرع ريكوته وابنته لملاقاته ، وبكى الأب فرحا ، أما أنه فكانت رزينة . ولم يتعانق العاشقان ، لأن العشق المفرط يطرد الحركات المنطقية ، ولم يتكلما إلا بالصمت ، وكانت عيونهما المترجمان الوحيد لسرورهما وعواطفهما الشريفة . وأعجب الكل بهذا الزوج الجميل . وروى المرتد الوسيلة التي استعان بها على تخليص دون جريجوريو ، وروى هذا بإيجاز ما مر به من أخطار في بيت الحرير ، وأبدى عن حكمة لا تنتظر أبدا ممن في مثل سنه ، ثم دفع ريكوته للملاحين والمرتد مبلغا كبيرا . وعاد هذا إلى حضن الكنيسة ، وصار سليما تائبا بعد أن كان شريرا .

وبعد هذا بيومين ، فكر دون أنطونيو ونائب الملك في الوسيلة للحصول على إذن لبقاء أنه فليكس وأبيها في أسبانيا ، إذ وجدا في ذلك عملا كريما ، نظرا إلى تقوى البنت واستقامة الأب . وكانت لدون أنطونيو مسائل في البلاط ، فتطوع للمفاوضة في الحصول على هذا الإذن ، وألمح إلى أنه بالهداية والشفاعات يمكن حل كثير من المسائل الصعبة . فقال ريكوته وكان حاضرا : « لا ، لا أمل من وراء المال ولا الشفاعات ، فلا قيمة لها في نظر برنردينودي

بلاسكو ، كونت سيلثار ، الذي كلفه الملك بالإشراف على طردنا من أسبانيا . وعلى الرغم من أنه جمع الرحمة والعدالة ، فإنه وقد رأى جسم أمتنا كله مصاب بالغنغرينة ، فإنه يفضل استعمال الحجامة التي تحرق على المرهم الذي يخفف . ولهذا فإنه بفطنة وحكمة واجتهاد ، ومستعينا بالمهابة التي يثيرها ، أخذ على عاتقه القوي تنفيذ هذه العملية الكبيرة ، دون أن تستطيع حيلنا ومكاندنا ، ومناوراتنا وخططنا ، ومجهوداتنا وكل اجتهدنا أن ينيم عينيه الساهرتين المفتوحتين دائما حتي لا يبقى هنا أحد منا ، ولا يختبأ مثل النبات المختبئ ، الذي مع الزمن يمكن أن يتكاثر وينتج ثمارا سامة في أسبانيا التي تخلصت اليوم من كل خوف من ناحيتنا . إنه قرار هائل من فليب الثاني العظيم وفطنة بالغة أن وكل إلى بلاسكو العاقل مهمة تنفيذه^(١) .

فقال دون أنطونيو : « على كل حال سأبذل كل ما في وسعي ، وليكن ما يكون بعد ذلك . وسيأتي معي دون جريجوريو لمواساة أهله ، وهم لا بد محزونون على غيابه . وأما فليكس فستبقى في بيتي مع زوجتي أو في دير ، وأنا أعلم أن نائب الملك سيسره جدا أن يبقى ريكوته عنده حتى تنتهي مسألته » .

وفعلا وافق نائب الملك ، لكن دون جريجوريو رفض في البدء أن يترك أنه فليكس . فلما بينوا له أن عليه أن يزور أهله ، ويعود بعد ذلك إلى حبيبته ، وافق . وأقامت أنه فليكس عند زوجة دون أنطونيو ، بينما أقام ريكوته عند نائب الملك .

وجاء يوم سفر دون أنطونيو ، ثم رحيل دون كيخوته وسنشوبعد ذلك بيومين ، لأن السقطة لم تمكن الفارس (دون كخوته) من السفر قبل ذلك . وكان ثم كثير من التهنيدات ، والزفرات ، والعبرات المسفوحة لما اقترق المحبان . وعرض ريكوته ألف اسكودو على دون جريجوريو ، ولكن هذا رفض ، واقترض من دون أنطونيو ما يحتاج إليه . وهكذا اتخذ كل وجهته ، دون كيخوته أعزل من السلاح ، وسنشو ماشيا على قدميه ، لأن الحمار حمل السلاح .

(١) يعلق ديولويه المترجم الفرنسي على هذا الكلام فيقول : « من الغريب أن يوضع هذا الفناء المبالغ فيه على لسان المثريي . وأنه لشاهد بانس على عبودية الفكر في هذا العصر المتوحش » .

وشهد شاهد من أهلها ، فضلا عن التمعص البشع الذي يبديه ثربانتس في كل ما يتصل بهذه الناحية ، وكان الأولى به أن يدافع عن هؤلاء الأبرياء الذين أجلوا عن ديارهم - نعم ، ديارهم رغم أنف فليب الثاني ، الأجنبي العنصر ، إذ هو من آل هابسبورج النمساويين ، وخفيد المجنونة حنة ، بنت ايزابلا ، فهو طارئ متعصب ، أجنبي عن أسبانيا ، بينما أولئك المسلمون استقروا في أسبانيا ثمانية قرون بل تسعة ، إذ بقوا حتى صدور هذا القرار الإجرامي القاضي بطرد من بقي من المسلمين ، وقد أصدره خلفه فليب الثالث ، ابنه ، في سنة ١٦٠٩ فهاجر المورسكيون (وهم المتتمرة الذين بقوا في أسبانيا) . ولكن ثربانتس انساق وراء عمي بني جنسه فكان في هذا الأمر أعمى وأضل سبيلا .

الفصل السادس والستون

فيما سيراه من يقرؤه، أو يسمعه من يصغي لقراءته

ولدى خروج دون كيخوته من برشلونه ، تلفت ليرى مكان هزيمته وصاح : « هنا كانت^(١) طروادة ، هنا سلبني سوء الحظ ، لا الجبن ، كل المجد الذي اكتسبته ، هنا الآلهة الطائشة كشفت لي عن عدم إخلاصها ، وهنا فقدت كل أعمالي قيمتها ، وسقط شرفي صريعا لن ينعشه من صرخته شيء » .

فقال سنشو : سيدي إن القلب الكريم ينبغي أن يعرف كيف يحتمل الهلايا كما يفرح بالسعادة . وأنا أحكم بحسب ما حدث لي ، فلو كنت سعيدا ، فرحا حين كنت حاكما ، فإني ، وقد أصبحت سائسا ماشيا على قدمي ، لست حزينا ، وقد سمعت أن البخت عرييد ، هوائي ، وأعمى خصوصا ، فهو لا يرى ما يفعل ، ولا يدري من يخفض ومن يرفع .

فأجابه دون كيخوته : أنت فيلسوف يا سنشو ، وتتكلم بحكمة بالغة ، ولست أدري من علمك هذا كله . أما أنا فأقول لك انه لا توجد في العالم بخت ولا حوادث ، حسنة أو رديئة ، تأتي مصادفة ، بل كل شيء يأتي بعناية السماء وتدبيرها ، ومن هنا جاء قول^(٢) من يقول إن كل امرئ صانع بخته . وأنا كنت صانع بختي وحظي ، لكن لا بما ينبغي من فطنة ، وادعاءاتي قد أضاعني ، لأن علي أن أعتقد أن ضعف روئيتاته لا يمكن أن يقاوم ضخامة ركوبة فارس القمر الأبيض . لقد خاطرت ، وفعلت ما استطعت ، وجندلت على الأرض ، وإذا كنت قد أضعت الشرف ، فإني على الأقل لم أضع شجاعة التمسك بالعهد . وحينما كنت فارسا جوالا ، جسورا ، مغوارا ، شهد ساعدي وشهدت أعمالي على بسالتي ، والان ، أيها

(١) هذه الجملة معناها : « هنا انتهى مجدي » . وأصلها في « الإنياذة » ١٠١ ٢ .

(٢) هو أبيوس كلوديوس الأعمى ، كما ورد في رسالة « في الجمهورية » إلى فيسر « ١٠ ٢ » ، وتنبأ خطأ إلى سالوستيوس .

السائس البسيط الماشي ، سأبرهن على أمانتي بالتمسك بكلمتي . فلنمض إذن يا سنشو ، ولننقض في بلدنا سنة المحنة ، وفي هذه العزلة نستمد قوة جديدة ، لنعود إلى مهنة السلاح ، التي لن أنساها أبدا .

فقال سنشو : سيدي ، ان السير على الأقدام ليس مريحا أبدا ، ولا يحث على قطع مسافات طويلة . فلنترك هذه الأسلحة معلقة على شجرة مكان مشنوق ، وحينئذ أركب حماري ، وسنسير كما نريد أما ان تعتقد أننا سنقطع شوطا طويلا وأنا أسير على قدمي ، فهذا اعتقاد في المستحيل .

فأجاب دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو ، فلنعلق هذه الأسلحة كأنها شعار ، ولننقش على الأشجار النقش الذي كان يخمله شعار أسلحة أورلندو (رولدان) :

لا يحركها

من لا يقدر على منازلة أورلندو

فقال سنشو : كل هذا يبدو لي لآلىء منضودة ، ولولا اننا في حاجة إليه للسير في الطريق ، لكان من رأيي أن نعلق روثيناته أيضا على شجرة فقال دون كيخوته اذن لا روثيناته ولا سلاح ، لا أريد أبدا تعليقها ، حتى لا يقال : عن الخدمة الطيبة مكافأة سيئة .

فقال سنشو : أحسنت ، لأنه في رأي الحكماء ، البرذعة ليست السبب في أخطاء الحمار ، وما دمت أنت يا مولاي السبب في كل البلاء ، فعليك أن تعاقب نفسك بنفسك ، لا أن تلقي الهم على طيبة روثيناته ، وعلى الأسلحة الدامية المحطمة ، وعلى رقعة قدمي ، ويرغبك في جعلهما يمشيان أكثر مما تستطيعان .

ومضت سحابة النهار وهم في هذا الحديث ، ومرت أربعة أيام أخرى دون أن يصادفوا أية عقبة . وفي اليوم الخامس ، عند مدخل قرية ، وجدوا على باب منزل كثيرا من الناس يفرحون ، لأنه كان يوم عيد . فلما اقتربا ، قال حراث بصوت عال : « أحد هؤلاء السيدين ، وهما لا يعرفان الطرفين ، سيقول لنا ماذا ينبغي أن نفعل برهاننا . » - فأجاب دون كيخوته : « نعم ، سأقول بكل انصاف ، بشرط أن أفهم ما هي المسألة . » - فقال الفلاح : « يا سيدي الكريم ، هذه هي المسألة : ان رجلا من أهل القرية ، بدين يزن احدى عشرة ربة ، تحدى في السباق فلاحا آخر لا يزن أكثر من خمس ربات . وكان الرهان على الجري مائة خطوة . وسألنا المتحدي كيف يريد أن يتعادل الوزن ، فأجاب بأن من يزن خمس ربات يجب عليه أن يحمل على ظهره ست ربات من الحديد وبهذه الطريقة يتعادل الوزن . »

فقال سنشو ، قبل أن يفتح دون كيخوته فمه : لا ، علي أنا الفصل في هذه المسألة وتبديد شكوككم ، لأنني كنت حاكما وقاضيا .

فقال دون كيخوته : حسن ، يا صديقي سنشو ، خصوصا وأنا لا أستطيع أن أعطي فتاتاً لقط ، بسبب اضطراب عقلي .

فقال سنشو للفلاحين الذين أحاطوا به فاغرين أفواههم منتظرين حكمه : « بعد هذا الإذن أقول لكم يا إخواني أن ما يطالب به الرجل السمين ليس عدلا ولا ظل من الانصاف فيه . وإذا صدق ما يقال من أن من حق من يتحدى أن يختار السلاح ، فينبغي ألا تختار بحيث تثقل عليه ونمنعه من الانتصار . وهكذا فإن رأيي هو أن المتحدي يقطع من نفسه ، أو يشذبها أو يسويها ، كما يشاء ، باستقطاع ست ربعات من لحمه ، وبهذه الطريقة سيكون وزنه خمس ربعات مثل خصمه ، وبذلك يستطيعان أن يتسابقا في العدو معا دون انتهاك للعدالة » .

فقال فلاح يسمع : « أحلف بالله أن هذا السيد تكلم مثل ولي ، وحكم مثل كاهن قانوني ، لكن من المؤكد أن الرجل السمين لن يقبل أن يقطع درهما من لحمه ، وبالأحرى لن يرضى باستقطاع ست ربعات » .

وقال فلاح آخر : « أفضل شيء هو ألا يتسابق هذان الرجلان في العدو ، لأن النحيل لن يستطيع احتمال ثقل الحديد ، والسمين لن يرضى باستقطاع شيء من لحمه ، ولهذا لنضع نصف الرهان في النبيذ ، ولنأخذ معنا هذين السيدين إلى الحانة التي يباع فيها نبيذ جيد ، وأنا المسؤول » .

فقال دون كيخوته : أشكركم يا سادة ، فإني لا أستطيع التوقف لحظة واحدة ، إن أفكارا حزينة ، وأحداثا أليمة تجعلني أبدو غير مهذب ، وترغمني على السير بأسرع مما أود .

ولما قال هذه الكلمات نخس روئينانته بالمهماز ، ومضى لسبيله ، تاركا كل هؤلاء الفلاحين مشدوهين من غرابة شكله ، وحكمة من حسبوا أنه خادمه (سنشو) . وقال أحدهم : « إذا كان الخادم حكيما ، فما بالك بالسيد ؟ أراهن أنهما ذاهبان للدراسة في شلمنقة ، وفي دورة يد يصبحان قاضيين (عمدتين) في البلاط . إذ لا ينبغي إلا أن يتكلم الإنسان جيدا ، ويكون له بخت ووساطة ، ودون أن يشعر الإنسان يكون صولجان المنصب في يده أو تاج الأسقف على رأسه » .

وأمضى السيد والخادم ليلتهما وسط الحقول وتحت النجوم الجميلة . وفي الغداة تابعا

طريقهما ، فشاهدا قادمًا نحوهما رجلا ماشيا على رجليه ، ويحمل في رقبته خرجين ، وفي يده مزارق كأنه رسول يمشي على قدميه . ولما اقترب هذا الرجل من دون كيخوته أسرع الخطى ، وعدا ليعانق فخذة الأيمن ، لأنه لم يستطع الوصول إلى أعلى من هذا ، وقال بلهجة السرور :

« إيه يا مولاي دون كيخوته دلا منتشا ، أي سرور سيشعره مولاي الدوق حين يعلم أنك رجعت إلى قصره ، حتى لا يزال مع السيدة الدوقة » .
فأجاب دون كيخوته : أنا لا أعرف يا أخي ، ولا أستطيع أن أعرف من أنت ، إلا إذا أخبرتني .

فقال الرسول : سيدي ، أنا توسيلوس ، خادم مولاي الدوق ، وأنا الذي رفضت منازلتك ، بشأن زواج بنت دونيا رودريجت .

فصاح دون كيخوته : يا الله! هل من الممكن أن تكون أنت ذلك الشخص الذي حوله السحرة أعدائي ، إلى الخادم الذي ذكرت اسمه ، من أجل انتزاع شرف القتال مني ؟
فقال الرسول : اسكت ، يا مولاي الطيب ، لم يكن هناك سحر ولا تحول . لقد كنت أنا توسيلوس خادم الدوق ، قبل أن أدخل الحلبة كما كنت كذلك بعد أن خرجت منها . لقد أردت أن أتزوج منها دون قتال ، لأن البنت أعجبتني ، لكن خدعت في آمالي ، لأنك لم تكذب ترحل من القصر حتى انهال علي الدوق ضربا لأنني لم أنفذ الأوامر التي أعطانيها قبل دخول الحلبة . والفاتة دخلت الرهينة وعادت دونيا رودريجت إلى قشتالة . أما أنا فإني ذاهب إلى برشلونة حاملا رسائل من مولاي إلى نائب الملك هناك . ومعني دن مليء بالخمر المعتقد ، فإن شئت منها جرعة ، وإن كانت ساخنة بعض السخونة ، مع قطعة جبن من ترونتشون ، فثم ما يشير العطش إن كان نائما » .

فقال سنشو : أوافق على عرضك بغير تكليف . فليسقنا توسيلوس الطيب ، على الرغم من كل سحرة الهند .

فقال دون كيخوته : سنشوا! أنت أكبر شره في الدنيا وأكبر جاهل على ظهر الأرض ، لأنك لا تدرك أن هذا الرسول مسحور ، وأنه توسيلوس مزيف : ابق معه ، ما دمت تريد ذلك ، وعب من الخمر ماشئت ، أما أنا فأسير الهويني ، حتى يلذ لك أن تأتي .

فأخذ توسيلوس في الضحك ، وأتى بدنه واستخرج الجبن والخبز من الخرج ، وجلس هو وسنشو على العشب النضير . وهناك في سلام وصدائق ، هاجما وأجهزاعا الزاد بشجاع وشهية هائلتين حتى أنهما لعقا حزمة الرسائل لأن فيها رائحة الجبن : وكان توسيلوس يقول

لسنشو وهو يأكل : «أعتقد يا صديقي أن سيدك لا بد أنه مجنون إلى حد ما» .
 فأجاب سنشو ، كيف ، لابد ؟ انه فعلا كذلك ولا يدين^(١) بشيء لأحد . بل يدفع كل
 ما عليه خصوصا إذا كان ذلك بتقود الجنون . ومن ذا الذي يعرف هذا خيرا مني ؟ إني أقول
 هذا له صراحة ، لكن ما الفائدة ؟ خصوصا الآن وقد ضاع لأنه هزمه فارس القمر الأبيض .
 فأراد توسيلوس من سنشو أن يروي له هذه المغامرة ، فقال سنشو إنه من سوء الأمانة
 أن يجعل مولاه ينتظر ، وسيرويها له في فرصة أخرى إذا التقيا . ثم نهضا ، ونفضا ثوبيهما ،
 ونظفا لحيتهما ، وركب سنشو حماره ، وودع توسيلوس ، وجرى ليلحق بمولاه ، وكان هذا
 ينتظره تحت ظل شجرة .

(١) هنا تلاعب على اللفظ ، Debe بمعنى ، لابد ، يجب ، وبمعنى يدين ، عليه دين . ولم نستطع إيراد هذه التورية في العربية
 فتصرفنا في العبارة .

الفصل السابع والستون

في قرار دون كيخوته أن يصير راعياً، وأن يحيا حياة الرعاة أثناء
سنة اعتزاله الاجباري وحوادث أخرى سارة

لئن كان دون كيخوته ، قبل هزيمته ، مسرّحاً لحشد من الأفكار التي اضطربت في ذهنه ، فلا بد أن نعتقد أنها زادت في تعذيبه منذ الحادث الأليم . فتحت تلك الشجرة التي تركناه يستقي بظلها ، ثارت الخواطر المروعة في نفسه ، وظلت تلدغه كأنها خلية نحل . بعض هذه الأفكار كان يتعلق برفع السحر عن دلثنيا ، والبعض الآخر يتعلق بالحياة التي ينبغي عليه أن يتخذها أثناء زمان التوبة المفروضة عليه . وجاء سنشو في تلك اللحظة ، وأثنى على سخاء توسيلوس . فقال لدون كيخوته : « هل من الممكن أن تتخيل أنه خادم حقا ؟ يبدو لي أنك نسيت دلثنيا وقد تحولت إلى فلاحه وفارس المرايا الذي اتخذ شكل حامل البكالوريا كرسكو ، وكلها من أعمال السحرة الذين يضطهدونني . لكن قل لي ، هل سألت توسيلوس المزعوم هذا ماذا فعل الله بالتسيدورا ؟ هل بكت على فراقي ، أو جرت ذيل النسيان على أفكارها الغرامية ؟ » .

فأجاب سنشو : مؤكد ، لقد كان لدي متسع من الوقت لتتحدث في الترهات يا لله يا مولاي ، هل أنت في مقام السؤال عن أفكار الغير ، خصوصاً الأفكار الغرامية ؟ فقال دون كيخوته : اسمع يا صاحبي ! ثم فرق كبير بين الأعمال التي يأمر الحب بها ، وتلك التي يملئها عرفان الجميل . وألتسيدورا كانت تهواني ، وقد أعطتني القبعات الثلاث التي تعرفها أنت ، وبكت عند رحيلي ، ولعننتني ، وصبت الشتائم والإهانات ، وشكت بصوت عال دون أن يردعها الحياء ، وكل هذه علامات على أنها تعبدني ، لأن غضب العشاق ينفث لعنات . وما كان لي أن أزودها بالأمل ، ولا عندي كنز أقدمه إليهم لأن كل آمالي معقودة بدلثنيا ، وكنوز الفرسان ، مثل كنوز الجن ، ظاهرة زائفة . فلا أملك إعطاءها غير الذكرى التي أحتفظ بها لها ، طبعاً مع عدم الإضرار أو الإساءة إلى دلثنيا ، التي تسيء أنت

إليها إساءة بالغة بتراخيك وتأجيلك لجلد نفسك وعقاب لحمك الذي أود أن أرى الذناب تأكله ، لأنك تفضل أن تحافظ عليه للدود ، على أن تجعله يستخدم في التخفيف عن هذه المرأة المسكينة » .

فأجاب سنشو : مولاي! إذا أردت مني قول الحق فأني أقرر لك أنني لا أستطيع أن أقتنع بأن جلدات أردافي لها أي شأن مع سحرات المسحورين . إن هذا كمن يقول في رأسك ألم ، إذن حك ركبتك . وعلى الأقل أستطيع أن أقسم أنك لم تجد ، في كل تواريخ الفروسية الجواله التي أقرتها أنه تم رفع السحر بضربات الجلدة أبداً . وعلى كل حال فسأضرب نفسي حين أريد ، ويتسع لي الوقت ، ويلذ لي الفعل .

فقال دون كيخوته : فليشأ الله ذلك ، وليلهمك تنفيذ ما التزمت به قبل سيدتي ، التي هي أيضا سيدتك ، لأنك تابعي .

واستمر في السير وهما في حديث متصل ، حتى بلغا المكان الذي قلبهما فيه الثيران وداست عليهما . تعرف دون كيخوته الموضع وقال : « هذا هو المرج الذي التقينا فيه ، منذ مدة ، بالراعيات الرفيعات والرعاة الظرفاء الذين أرادوا محاكاة وتجديد الحياة الرعوية التي كانت في إقليم أركاديا ، وهو مشروع جديد حكيم . فإن أعجبك هذا المشروع يا سنشو ، فمن رأيي أن نصير رعاة طوال مدة توبتي . وسأشتري بعض النعاج ، وكل الأشياء الضرورية لمعيشة الرعاة ، وسأطلق على نفسي اسم الراعي كيخوتيث ، وأطلق عليك اسم الراعي بنشينو . وتجتول في الجبال ، والأحراش ، والمروج ، نغني هنا ، وتنتهد هناك ، ونرتوي من ماء الينابيع البلوري ، وعلى شاطئ الجدول الصافية ، والأنهار الرائقة . هناك ، يجود السنديان المحسن بثماره العذبة الرقيقة على كل الناس ، والفلين القاسي المتعرج يزودنا بالمقاعد المريحة ، والصفصاف يلقي ظلا ظليلا ، وتنتشي الحواس من شذى الورد العاطر ، وبساط المروج السندسي يعرض على العيون المسحورة سجادة حافلة بأجمل الألوان ، والأنفاس البليلة ينعشها النسيم العليل ، وظلام الليل تخففه إنعكاسات القمر الفضية ، ولمعان النجوم الثاقبة . وستكون متعتنا الأناشيد الرعوية ، وحتى الزفرات ستفعل فينا فعل السحر ، وأبولون يملئ علينا القصيد ، « والحب » يشعل خيالنا ، ونصبح محمودي الشهرة ، ليس فقط بين المعاصرين ، بل وأيضا في القرون المقبلة .

فصاح سنشو : يا لله! هذا لون من الحياة يرضيني كل الرضا ، وكأنه خلق لي . ولا بد أن الأسطى نقولا وسمسون كرسكو لم يفكروا فيه أبدا ، ولا شك أنهم سيقبضون جدا

بأن يصبحوا رعاة معنا . والله يشاء أيضا أن يجعل القسيس معنا ، لأنه رجل فكه الأخلاق يحب المرح » .

فقال دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو ، لو صار حامل البكالوريا سمسون راعيا ، كما لا أشك في ذلك ، فإنه يمكن أن يسمى سمسونينو ، أو كرسكون ، ويسمى الحلاق نقولا ، نقولوسو ، كما أن بوسكان القديم سمي غوروسر . أما عن القسيس فلست أدري أي اسم يمكن أن نطلقه عليه ، اللهم إلا أن نلعب باسم منصبه فندعوه : الراعي كوريمبرو . أما الراعيات اللواتي سنكون عشاقا لهن ، فسندع لهن أسماء بسهولة ، وكما أن اسم سيدتي يناسب راعية كما يناسب أميرة ، فلست في حاجة إلى البحث عن اسم . أما أنت يا سنشو فستعطي لحبيبتيك الاسم الذي تريده أنت .

فقال سنشو : لا أظن أنني سأعطيها اسما آخر غير تريزونا ، الذي يتناسب تماما مع بدانتها واسمها الحقيقي لأن اسمها هو تريزه . وحين أغنى بها في أشعاري ، فإن رغباتي الطاهرة ستبرهن جيدا على أنني لن أذهب لاستجداء خبزها في بيت الآخرين . أما القسيس فمن المستحسن ألا تكون له راعية ، لأنه لا بد أن يعطي القدوة الحسنة ، أما حامل البكالوريا ، فليفعل ما يشاء .

فقال دون كيخوته : بحق الله أي حياة سنحيهاها وكم سنعزف نغمات من الشبابات ومزامير القرب السموريات ، والطبول والزمارات والربابات . ولو كان معنا أيضا بوقات ، فلن تعوزنا أية آلة موسيقية رعوية .

فقال سنشو : وما هي «البوقات» ؟ إنني لم أسمع بها أبدا ولم أرها . فأجاب دون كيخوته : البوقات صفائح من الصفر محنية مثل قاعدة الشمعدان ، تضرب بعضها ببعض في الهواء ، وتؤلف صوتا ، إن لم يكن منسجما ولا لذيذا جدا ، فإنه لا يضايق ، ويتفق تماما مع ريفية مزار القربة والطبلة . وهذا الاسم Albogues اسم عربي ، شأنه شأن كل الألفاظ التي تبدأ في اللغة الأسبانية بالحرفين^(١) Al مثل^(٢) ،

(١) هذه ليست قاعدة صحيحة ، بل يوجد مئات من الكلمات الأسبانية التي تبدأ بالحرفين AL وليست عربية الأصل - فضلا عن أن معظم الكلمات العربية الأصل تتغير معانيها تغيرا شديدا جدا حين تنتقل إلى الأسبانية .

(٢) الكلمات العربية المقابلة لها هي على التوالي :
المخدة - ؟ - الحمرة (= السجادة لأن لونها في الغالب كان أحمر) - الوزير (= بمعنى المُحضر ، رجل الشرطة المكلف بتنفيذ الأوامر) - الخزامى - المخزن - الكنز .

أما الكلمة التي وضعنا مكانها علامة استفهام وهي Almorzar فهي ليست عربية ، بل لاتينية الأصل من Admorsus من الفعل Ad-mordere .

وما Almohaza, Almorzar, Alhombra, Alguacil, Alhucema, Almacen, Alcancia شابهها ، وعددها أكثر قليلا ، وليس في لغتنا الاسبانية غير ثلاث كلمات عربية تنتهي بالحرف (١) i هي : borcegui, zaquizami, maravedi ، أما الكلمتان (٢) Alfaqui, Alheli فالبدائية AI والنهاية بحرف I يدلان على أنهما عربيتان .

إن «البوقات» هي التي ذكرتني بما قلته الآن . أما عن مهنة الراعي فسأقوم بها قياما حسنا خصوصا وأنا شاعر إلى حد ما ، وسمسون كرسكو شاعر إلى أعلى درجة . أما القسيس فلا أقول عنه شيئا ، غير أنني أعتقد أن فيه قليلا من النفحة الشعرية مثل الأسطى نقولا ؛ لأن كل الحلاقين القيثار (الجيتار) يؤلفون أغاني . وسأغنى بعذاب الفراق ؛ وأنت ستغنى بالإخلاص في الحب ؛ والراعي كرسكون سيشكو ما يشاء ؛ وهكذا يسير كل شيء سيرا رائعا .

فقال سنشو : «آه يا سيدي ، إنني قليل البخت إلى حد أنني أخشى من الخشب سأضع حين أصبح راعيا كم من فطة وقشدة ، وأكاليل ، وألعيب رعوية إن لم تكن حكيمة فهي ستجعلني أعد بارعا وستحضر لي بنتي سنتشيكما الطعام في الزريبة . ومع ذلك فينبغي الاحتياط . فبعض الرعاة خبثاء وليسوا بسطاء ، ولا أريد أن تأتي بوبرها وتعود مجزوزة... والحب والشهوات الدنيئة تتدخل في الحقول كما في المدينة ، في أكواخ الرعاة كما في قصور الملوك . لكن ارفع السبب ، تنته الخطيئة . إذا لم تر العين شيئا لم يفضل القلب . القفز للهرب خير من وساطة أصحاب النفوذ » .

فقال دون كيخوته : «يا عزيزي سنشو ، كفى أمثالا ، أرجوك ، لأن واحدا مما قلته يكفي لشرح فكرتك . ولكم نصحتك أن تقتصد في الأمثال ، لكن صوتي ضاع هباء » كصوت صارخ في البرية «وأمي تضربني ، فأضرب بغلي» .

فقال سنشو : «سيدي يقول التنور للقدر : «امش من هنا ، يا أبا عين سوداء» - وأنت تفعل الشيء نفسه ، تلومني على التفوه بالأمثال وها أنت ذا تسلكها اثنين اثنين» . فأجاب دون كيخوته : يا صاحبي إنني حين أضرب أمثالا ، فإنها تأتي في محلها ، كالتخاتم في الإصبع ، أما أنت فتجرها من شعورها وتجرجرها . وإذا صحت ذاكرتي ، إنني قلت لك إن الأمثال جمل قصيرة مستمدة من التجربة ومن ملاحظات الحكماء الأوائل .

(١) مقابلاتها العربية هل هي على التوالي : بوشركي - سقف السماء - مرابطي وفي قاموس الأكاديمية الاسبانية أن Borcegui من اللغة الفلمنكية Brosekin ومعناها في الاسبانية حذاء يصل إلى أعلى الركبة مفتوح من أمام ويمسك برباط أو خيط .
(٢) يتألفان في العربية هما : الفقيه - الخيري (وهو المنشور الأصفر ، نوع من الزهر) .

والمثل الذي لا يأتي مناسباً هو تخريف وليس مثلاً . لكن لندع هذا ، فالليل أقبل ، ولنبتعد قليلاً عن الطريق الرئيسي ، ولنختار مكاناً ملائماً نمضي فيه الليل . الله يعلم ما يخبئ لنا في الغد .

وجلسا ، وتعشيا في وقت متأخر عشاء ردينا ، مما تضايق له سنشو الذي راح يلعن قناعة الفرسان الجواله ، وسط الأحراش والجبال ، ويأسى على وفرة الطعام في القصور ، وفي بيتـدون ديجو ميرنده ، وعرس الغني كمنتشو ، وقصر دون أنطونيو مورينو . لكن لما تأمل أن من المستحيل أن يكون ثم نهار باستمرار أو ليل باستمرار ، فإنه أمضى هذه الليلة في النوم بينما أمضاها مولاه في السهر .

الفصل الثامن والستون

مغامرة الخنازير

ادلهم الليل وإن كان القمر في السماء ، لكنه كان في موضع لا يرى منه ، لأن السيدة ديانا (القمر) كثيرا ما تذهب لزيارة النواحي المقابلة وتدع في الظلام جبالنا وأوديتنا . وأطاع دون كيخوته الطبيعة بأن نام نومة أولى ؛ لكنه لم يستمر في النوم ، بعكس سنشو الذي كان لا ينام إلا نومة واحدة متصلة من المساء حتى الصباح ، مما يدل على سلامة صحته وعلى قلة الهموم التي تشغله . أما هموم دون كيخوته فكانت تعذبه حتى انه لم يتمالك من أن يوقظ سنشو قائلا : « يا صاحبي ، اني معجب بصحتك ، الممتازة . كأنك من المرمر أو البرونز ، لا حركة فيهما ولا عاطفة . أنت تنام وأنا ساهر ، وأنت تغني وأنا أبكي ، وأنا منهوك القوة ، بينما الإفراط في الطعام يجعلك ثقيلا كسولا . ومن شأن الخادم الأمين أن يشارك في آلام سيده ، ويشاطره الانفعالات . تأمل سكون هذا الليل والوحدة التي نحن فيها . ألا يدعوك سكون الهواء إلى أن تمزج نومك ببعض السهاد ؟ انهض ، أستحلفك ، وانت ناحيته ، وعن طيب خاطر وشجاعة ، أجد نفسك ثلثمائة أو أربعمائة جلدة ، من حساب رفع السحر عن دلشنيا . ولا تضطرنني ، أرجوك ، إلى العراك معك مثل ذلك اليوم ، فيداك غليظتان . وحين تفرغ من جلد نفسك ، سنقضي بقية الليل في الغناء ، أنا أتغني بالفراق ، وأنت بالثبات في الحب ، مبتدئين هكذا التمرينات الرعوية التي سنأخذ فيها في مزرعتنا » .

فأجاب سنشو : سيدي ! اني لست راهبا يستيقظ في وسط الليل ليجلد نفسه بالسياط ، وآلام الجلادات لا تبدو لي فاتحة سارة للغناء . دعني أنم ، من فضلك ، ولا تعذبني من أجل جلد نفسي ، وإلا أقسمت ألا أمس شعرة من ثوبي . فصاح دون كيخوته : أيتها الروح القاسية ! أيها السائس الذي لا يرحم ! أيها الخبز

المُساء الاستخدام ، أيتها المكافآت التي أعطيت في غير محلها ، تلك التي تلقيتها وتلك التي أردت أنا أن أعطيك إياها ، بفضلتي أنا أصبحت حاكما ، وبفضلي أنا عليك أن تؤمل في أن تصير كوتتا أو شيئا مثل هذا ، ولن يتأخر هذا عن سنة توبتي واعتزالي ، لأنه « بعد الظلام أمل في النور^(١) » .

فقال سنشو ، أنا لا أفهم هذه اللغة^(٢) ، وكل ما أعرفه هو أنه حين أنام فإنني لا أخاف ، ولا أرجو ، ولا طموح عندي ولا هموم . ألا بورك مخترع النوم ألف مرة ! إنه المعطف الذي يغطي كل الأفكار الإنسانية والطعام الذي يهدئ غائلة الجوع ، والشراب الذي يروي من الظمأ والنار التي تدفئ الصقيع ، والبرد الذي يخفف من حمارة القيظ ، والنقد العالمي لكل ما يشتري ويباع والميزان الدقيق الذي به يزن الراعي والملك الجاهل والعالم . وليس في النوم شيء رديء غير كونه يشبه الموت ، فيما سمعت ، لأنه ليس ثمّ فارق كبير بين النائم والميت .

فقال دون كيخوته ، « سنشو ، الحق أني لم أسمعك أبدا تتكلم بمثل هذه الأناقة ، مما يدل على صحة المثل الذي تكررته أنت باستمرار وهو : لا مع من تولد ، بل مع من ترعى » .

فقال سنشو ، يا لله ! يا مولاي ! لست أنا الذي أطلق الأمثال ، بل هي تخرج من فمك اثنين اثنين ، صحيح أن أمثالك أفضل من أمثالي لأنها مناسبة للمقام ، بينما أنا التي بها خبط عشواء ، ولكنها على كل حال أمثال .

وفي هذه اللحظة سمعا ضجة خرساء مختلطة تملأ جنبات الوادي . فدهش دون كيخوته ونهض فوراً ، ووضع يده على سيفه ، وارتعدت فرائص سنشو فتكور تحت حماره ، جاعلا من برذعته متراساً وكذلك من أسلحة مولاه . وازدادت الضجة وعلت ، وأوقعت الفرع في رجلينا الخائفين ، أو على الأقل في أحدهما ، لأن الآخر معروف بالجسارة . وكان مصدر هذه الضجة أكثر من ستمائة خنزير يقتادها رجال إلى السوق أثناء الليل ، وكانت صيحاتها وقبايعها تحدث ضجة بالغة ، أصمت مسامع دون كيخوته وسنشو دون أن يتبيننا ماذا عسى هذه الضجة أن تكون . واقتربت الجماعة الصاخبة باستمرار ، ودون احترام للسيد والسائس مرت على جسميهما بسرعة شديدة ، حتى أن هذه الحيوانات النجسة قلبت دون كيخوته ،

(١) كانت هذه الجملة شعار خوان دلاكوستا ، أول ناشر لدون كيخوته ، وصديق ثريباتس ، وكانت باللاتينية حول رسم كركي (طائر) . وهي في الأصل مأخوذة من سفر « أيوب » في الكتاب المقدس .
(٢) أي اللاتينية .

روثينانته ، والحمار وسنشو ، والمتراس الذي كونه ، وجعلت كل شيء مقلوبا في اضطراب .

تبين سنشو أخيرا أنها خنازير ، فنهض قدر المستطاع ، وطلب من سيده سيفه ليذبح ستة على الأقل من هذه الحيوانات القليلة الأدب . فأجابه دون كيخوته : «دعها يا صاحبي ، فإن هذه الاهانة عقاب على خطيئتي وجزاء عادل من السماء ، فالفارس الجوال الذي ينهزم ينبغي أن تأكله الكلاب ، وتلسعه الزنابير ، وتطأه الخنازير» .

فقال سنشو : ويبدو أنه عقاب من السماء أيضا إذا سواس الفرسان الجواله المهزومين لسعهم الذباب ، وأكلهم القمل ، وعذبهم الجوع . وإذا كنا نحن السواس أبناء من نخدمهم ، أو على الأقل أقاربهم القريبين ، فلن يكون غريبا أن نحمل نحن عقوبة ذنوبهم حتى الجيل الثالث . لكن ما شأن آل پنتا في الأمور التي تخص آل كيخوته ؟ لنجلس ، ولنتم البقية القليلة الباقية من الليل . وغدا صباحا سيطلع النهار وسيكون الله في العون» .
فأجاب دون كيخوته : ثم أنت ، إن شئت ، أنت يا من خلقت من أجل النوم ، أما أنا الذي خلقت للسهر ، فإنني سأطلق العنان لأفكاري ، وأنفس عنها بمديرجال نظمته في هذه الليلة .

فقال سنشو ، فيما اعتقد أرى أن الهموم التي تمكن من نظم الشعر لا يمكن أن تكون هموما كبيرة ، فأطلق القوافي كما تشاء ، أما أنا فسانام ملء جفوني كما أستطيع .
وفي الحال اتخذ مكانا واسعا يكفيه للنوم ، وتمدد وراح يغط في النوم دون أن يمنعه منه ديون ، ولا رهون ، ولا هموم . أما دون كيخوته فقد جلس على جذع فيقس أو سنديان (وسيدي حامد لا يميز أي شجرة كانت) ، ومزج الأصوات بالزفرات ، وراح ينشد :

أيها الحب ، أيها الحب ، حين أفكر

فيما تصيبني به من عذاب رهيب

لا أفكر إلا في الموت

لأتخلص من هذا العذاب

لكن في النقطة التي عندها أخطو

الخطوة التي ستخلصني من عذاب الحياة

تأتي لذة مفرطة تخلص نفسي

فتسلبني من الموت

وهكذا لا أستطيع الحياة ولا الموت

وأشعر في كل لحظة بقلق قاتل
وليس عند القدر ما يقدم إليّ
غير حياة وموت كليهما رهيب

وكان يصحب كل بيت بما لا نهاية له من الزفرات والعبرات ، وقد كان قلبه متضايقا من هزيمته ، وغياب دلثنيا . ثم طلع النهار ، وضربت أشعة الشمس عيني سنشو فهب من نومه ، وتمطى وتمدد ، وحرك أعضائه الكسول . هنالك شاهد الأضرار التي أحدثتها الخنازير في حقائبه وراح يلعن عن طيب خاطر هذا القطيع النجس .

ثم استأنفا السير ، وفي المساء رأيا عشرة رجال يركبون الخيل وأربعة أو خمسة مشاة قادمين عليهم . فدهش دون كيخوته ، وخاف سنشو ، لأن هذه الجماعة كانت مسلحة بالرماح والتروس ، ومدججة بالسلاح للحرب .

فقال دون كيخوته لسنشو : « آه ، يا صديقي! لو أذن لي أن أستخدم سلاحي ولم يقيّد العهد ساعدي! إذن لما كانت كل هذه الجماعة التي تزحف نحونا تحتاج مني لأكثر من إفطار . لكن يجوز أن تكون غير ما نخشاه . » وفي هذه اللحظة اقتربت الجماعة الخيالة وأحاطت بدون كيخوته ، ووضعت سنان الرماح في ظهره وصدره ، وهددته بالقتل إذا قاوم . ووضع أحد المشاة إصبعه على فمه إشارة بالسكوت ، وأمسك بلجام روثينانته ، وانحرف به عن الطريق ، كما فعل الباقون الشيء نفسه بالنسبة إلى حمار سنشو ، وكل هذا دون أن ينطق أحد بكلمة .

وحاول دون كيخوته أن يفتح فمه مرتين أو ثلاثة ليسأل عما يريدون أن يفعلوا به ، وإلى أين يقتادونه ، لكنه ما يكاد يحرك شفته حتى يهدده الآخرون بسنان رماحهم . واستعملوا الطريقة نفسه مع سنشو : انفتح فمه ، عاجلوه بنخسة هو وحماره ، وكأنه أراد الكلام هو الآخر . ولما دخل الليل أسرعوا في السير ، وزاد خوف الأسيرين (دون كيخوته وسنشو) خصوصا حين قيل لهما : « سأوا يا سكان الكهوف^(١) ، اخرسوا يا همج تألموا ، يا أكلة لحوم البشر ، كفوا عن الشكاية أيها الأشقوزيون ، لا تفتحوا أعينكم ، أيها السفاحون أشباه بوليفيموس أيها الليوث أكلة اللحوم » ، وتحيات أخرى من النوع نفسه كانت تعذب اسماعهما . وقال سنشو في نفسه : « نحن ، وهمج ، وخرق ، وجراء ،

(١) في النص Trogloditas ويشرحها كوياروبيا بقوله « إنهم شعب يعيش في الحبشة ، عند الخليج العربي ، وهم همج جدا ، ويعيشون على لحم الصائين ، ويسكنون الكهوف » .

ونؤمر : بسرعة سرا! كل هذه الالقاب لا تسرنى ولا تبشر بأي خير . إن الشقاء يريد الإطاحة بنا مثل ضربات العصي بالكلاب ، والله يجعل الأمر ينتهي عند ضربات بالعصي نختم بها هذه الحياة الحافلة بالعذاب . « وكان دون كيخوته مندهشا هو الآخر من هذه الشتائم التي انهالت عليهما ، ولا تبشر بأي خير لهما ، وتوقع من ورائها الشر الكثير . وبعد ساعة من السير ، وصلوا في الليل إلى قصر تبين لدون كيخوته أنه قصر الدوق ، الذي أقام عنده . فصاح : « يا إلهي! ما هذا ؟ أليس هذا هو المكان الذي رحبوا بي فيه أجمل ترحيب وعاملوني خير معاملة ؟ لكن بالنسبة إلى المهزومين ينقلب الخير إلى شر ، والشر إلى ما هو أسوأ من الشر . » ودخلوا في الفناء الرئيسي للقصر ، والمنظر الذي تجلى للأسيرين زاد من دهشتهم وفزعهما ، كما سنرى في الفصل التالي .

الفصل التاسع والستون

في أغرب مغامرة وقعت لدون كيخوته
طوال هذا التاريخ العظيم كله

نزل الخيالة عن أفراسهم ، وبالاتفاق مع المشاة حملوا دون كيخوته وسنشو إلى البهو ، وكان يشعل في نواحيه أكثر من مائة شعلة ، وفي الأروقة خمسمائة مصباح ، بددت ظلمة الليل ، وأشاعت في كل مكان نورا ساطعا . وفي وسط الفناء ، على علو مصطبتين من الأرض ، أقيم قبر يعلوه قطيفة سوداء ، وعلى درجاته شموع بيض ، تشتعل في أكثر من مائة شمعدان من الفضة . وعلى القبر شوهد جسم فتاة ، جميلة جمالا أضفى على الموت سحرا . وكان رأسها مسنودا على وسادة من البروكار ، وعليه تاج من الأزهار العطرة . وكانت ذراعاه متقاطعتين على صدرها ، وتحمل سعفا ، رمزا للنصر . وفي أحد جوانب الفناء ارتفع مسرح مزود بكرسيين جلس عليهما شخصان ، على رأسيهما التاج ، وفي يديهما الصولجان ، مما يؤذن بأنهما ملكان حقيقيان أو متخيلان . وإلى جانب المسرح ، الذي يصعد إليه بدرجات ، كان ثم كراسي أخرى أجلس عليها دون كيخوته وسنشو . وتم كل هذا في صمت وبالإشارات ، وأشار على الأسيرين بعدم الكلام ، وما كانا في حاجة إلى ذلك لأن الدهشة عقدت لسانيهما . وصعد على المسرح شخصان كبيران ، معهما حاشية عديدة ، أدرك دون كيخوته فورا أنهما الدوق والدوقة ، مضيفيه السابقين وجلسا على كرسيين فاخرين جدا ، بالقرب من كرسي الملكين . مما زاد في دهشة الأسيرين خصوصا حين تعرف دون كيخوته أن الجسم الممدد هو جسم الجميلة التسيدورا . ولما ظهر الدوق والدوقة ، وقف دون كيخوته وسنشو وانحنيا انحناء عميقة ، فأجابا بهزة رأس خفيفة . وفي هذه اللحظة جاء ضابط اقترب من سنشو ، وألبسه رداء من البوكاسان الأسود ، المزين بالمشاعل ، وخلع طاقيته ، ووضع على رأسه قبعة محدودة مثل تلك التي يلبسها التوابون في الديوان المقدس ، وهمس في أذنه قائلا أنه لو فتح فمه لوضعوا فيه خنجرا أو قتلوه . فتأمل

سنشسو نفسه من أعلى إلى أسفل ، ورأى نفسه مغطى بالشعلات ، لكن لما كانت غير
محرقة فإنه لم يهتم بها . ورفع قبعته ، ولما رآها مغطاة بالعفاريت ، قال ، وهو يعيد وضعها
على رأسه : « من حسن الحظ أنها لا تشتعل ولا تحملني بعيدا . » وتأمله دون كيخوته
أيضا ، وعلى الرغم من قلقه فإنه لم يتمالك نفسه من الضحك من غرابة وجهه .

وفي هذه اللحظة سمع يخرج من تحت القبر صوت عذب لطيف من شبابات ، وإن لم
يخالطه أي صوت إنساني (لأن هذا المكان بدا أنه ملاذ الصمت) فإنه كان رقيقا ممتعا أكثر .
وفي الحال شوهد فتى جميل بالقرب من الوسادة التي ارتاح عليها الجسم . وكان يلبس زيا
رومانيا ، ويمسك بهارب ، وأنشد بمصاحبة ، وبصوت عذب رنان ، الشعر التالي :

بينما التسيدورا العاشقة الحزينة

ترقد في هذا النعش

وبينما نحن لا نزال نشاهد

صواحبها ينحن ويتنهदन في حداد

أريد ، كأني أوفريوس آخر ،

أن أغنى في شعري بمناقبها .

ولأذيعها في العالم ،

وأملأ بشهرتها الأسماع ،

فإني لا أزعم فقط

أنني سأنشرها أثناء حياتي ،

بل أريد ، بعد الوفاة ،

أن تنشرها روحي ، وقد تحررت من بدنها .

ليعلم الكل بلاياها

وتبكي الدنيا عليها .

وحتى في المقام المظلم

يسفح يلوئون وبلاطه الدموع^(١)

فقال أحد الملكين : حسبك أيها المنشد الإلهي . إن هذا تعلق باللانهاية أن تريد تمجيد
موت ومناقب التسيدورا ، التي لم تمت في فم الشهرة ، وكما يظن العامة الجهلاء ، بل لا تزال

(١) هذه القلعة هي الثمانية الثانية من الرعوية الثالثة لجريلاسو ، وفيها استلهم لخرافة أرسيتو في رعوية فرجيل الرابعة .

تعيش ، وستعيش بيننا ، بفضل العقاب الذي سيفرضه على نفسه سنشو پنثا الحاضر هنا . ولهذا ، أي رومانتو ، القاضي معي في المقامات المظلمة لبلوتون ، أنت يا من تعرف كل ما قررتَه المقادير الثابتة من أجل بعث هذه الأنسة ، صرح فوراً ، حتى لا يتأجل الخير الذي ننتظره » .

هكذا تكلم مينوس . وفي الحال وقف رومانتو وقال : « هيا ، أي ضابط هذا المنزل ، الأعلون والأسفلون ، الكبار والصغار تعالوا واضربوا وجه سنشو أربعمئة صفة ، وأقرصوه اثنتي عشرة قرصة ، وشكوه ست شكات بالإبر في ذراعيه ويطنه . وعلى هذا المرسوم يتوقف نجاته التسيدورا . » وعندما سمع سنشو هذه الكلمات قطع الصمت صائحا : « أقسم بالله أنني سأسمح بلطم وجهي وتحطيم ذراعي بقدر ما أود أن أكون مغربيا . ما شأن ضربي ببعث هذه الفتاة ؟ عادت ريمة إلى عاداتها القديمة . تسحر دلثيا ، وعلي أنا أن أجلد نفسي لرفع السحر عنها . والتسيدورا تموت من الداء الذي أصابها الله به ، ولكي تبعث علي أنا أن يصفع وجهي أربعاً وعشرين صفة ، وأن يخرق جسمي بشكات الإبر ، وذراعي أيضا . على غيري هذا ، فأنا كلب عتيق لا أحتمل المساخر . » فقال رومانتو : « ستموت ، اهدأ . أيها النمر ، تواضع ، أيها المتكبر النمرود^(١) تعذب واسكت ، لأنه لا يطلب منك المستحيل ، ولا تسع لاكتناه أسرارنا ستصفع وتشك ، وتقرص ، وستنوح . هيا ، أيها الضباط ، نفذوا أوامري وإلا فوحق شرفي لعلمتكم واجبك » .

وعند هذه الكلمات شوهد موكب من ست وصيفات ، تحمل أربع منهن نظارات ، وأيديهن مرفوعة في الهواء ، ورسوغهن مكشوفة بطول أربعة أصابع لتظهر طويلة ، كما هو البدع السائد اليوم . ولم يكذب سنشو يبصرهن حتى أخذ يخور كالثور ويقول : « من الممكن أن أسمح للناس جميعا بقرصي ، أما أن أسمح لوصيفات بأن تمسنني فهذا لن يكون أبداً ، من فضلك . اخدشوا وجهي ، كما فعلوا مع مولاي في هذا القصر ، وانخسوا بدني بخناجر حادة ، وضعوا ذراعي بين كماشيتين مشتعلتين ، فسأتحمل هذا كله من أجل إمتاع هؤلاء السادة ، أما أن تمسنني وصيفات ، فلن أوافق على هذا أبداً ، حتى لو اختطفني الشيطان » .

فقال دون كيخوته وهو يقطع الصمت : « اصبر ، يا ولدي ، أرض هؤلاء السادة ، واحمد الله كثيرا على أنه وضع فيك هذه القوة والميزة ، وهي أنك بتعذيبك نفسك ترفع السحر عن المسحورين ، وتبعث الموتى وفي تلك الأثناء كانت الوصيفات قد أحطن بسنشو ، وهذا أخيرا ، وجلس ، وقدم وجهه إلى الأولى فصفعته صفة شديدة ، ثم حيثه

(١) نمرود بن حام ، أول من تجبر على الأرض ، كما ورد في سفر « التكوين » الفصل العاشر ، الجملة ٨ .

تحية عميقة . فقال سنشو : « قللوا في التحية وزيدوا في الرقة ، فوالله ان في أيديكم رائحة الخل . » وهكذا قامت الوصيفات الأخريات بقرصه وصفعه ، لكن لما لم يستطع احتمال شكات الإبر ، وقف منفعلا غاضبا وأمسك بمشعل محترق بالقرب منه ، وانقض على الوصيفات ومساندبهن وهو يصيح : ابتعدن ، يا وريثات الشيطان ، إنني لست من البرونز حتى لا أحس بهذا العذاب الشديد العجيب » .

وفي هذه اللحظة تقلبت السيدورا على جنبها ، لأنها لا شك قد ملت من طول موتها ، فلما رآها المشاهدون صاحوا : « السيدورا في قيد الحياة » . وطلب روماتو من سنشو أن يهدأ ، لأن المعجزة تحققت . ولما رأى دون كيخوته السيدورا تتحرك ، هرع وجثا على ركبتيه أمام سنشو وقال له : هذه هي اللحظة المناسبة ، يا ولد أحشائي ، لا سائسي هذه هي اللحظة المناسبة التي يجب عليك فيها أن تجلد نفسك من أجل رفع السحر عن دلثنيا ، فالآن القوة التي عندك في تمام نشاطها ، وتؤذن بنتيجة سعيدة . » - فأجاب سنشو : « سيدي ! هذا يسمى وضع المر على المر ، لا العسل على الفطائر . فبعد أن قرصوني وصفعوني وشكوني ها أنت ذا تريد مني أن أجلد نفسي ؟ لماذا إذن لا تضع جبلا كبيرا في عنقي وتلقي بي في البئر ؟ إنني لن أحفل إذا كان علي ، من أجل شفاء أمراض الغير ، أن أكون بقرة العرس . دعني في هدوء ، أستحلفك بالله ، وإلا ضربت بكل شيء عرض الحائط » .

وكانت السيدورا قد جلست على قبرها ، وصاحبت النيات والمزامير الهتافات التي تقول : « تحيا السيدورا ! لقد بعثت ! » ووقف الدوق والملك ، والقضاة ، ودون كيخوته وسنشو لاستقبالها ، ومساعدتها على النزول من قبرها . وبوجه شاحب حيث الدوق ، والدوقة ، وتطلعت في دون كيخوته عن عرض ، وقال له : « عفا الله عنك ، أيها الفارس العديم الإحساس ، إذ بسبب قساوتك أقمت أنا في العالم الآخر ألف سنة على الأقل ، أما أنت ، يا أرحم سائنس في الدنيا ، فإني أشكر لك الحياة التي استرددتها . وإني أهبك ، أي سنشو العزيز ، ستة من قمصاني لتصنع منها غيرها . وإن لم تكن كلها جيدة ، فهي على الأقل نظيفة . » فقبل سنشو يديها ، وقبعته في يده ، وركبته على الأرض . وأمر الدوق بخلع رداؤه وقبعته المحدودة ، لكن سنشو طلب أن يعطوهما له ، ذكرى لأغرب مغامرة .

فقال الدوقة : « أنا موافقة ، وسنشو يعلم جيدا أنني صديقه . » ثم أمر الدوق بعد ذلك بإخلاء البهو ، وانسحاب الجميع ، واقتياد دون كيخوته وسنشو إلى الجناح المخصص لهما .

الفصل السابع

وهو يتلو الفصل التاسع والستين ويبحث
في أمور مهمة لفهم هذا التاريخ

قضى سنشو ليلته على سرير في غرفة دون كيخوته ، مما لم يسره أبدا ، لأنه كان متأكدا أن مولاه لن يترك له فرصة للنوم بما سينهال به عليه من أسئلة ، وهو لم يكن مستعد المزاج للمناقشة ، لأن الآلام التي عاناها عقدت لسانه ، حتى أنه كان يفضل أن ينام وحده في كوخ حقير على أن ينام مع دون كيخوته في غرفة فاخرة . وكان لمخاوفه ما يبررها حقا ، لأنه لم يكذب يرقد على سريريه ، حتى قال له دون كيخوته : « ما رأيك يا سنشو في أحداث هذه الليلة ؟ ما أكبر قوة التعالي في الحب ؟ لقد رأت عينك التسيدورا ميتة ، لا بسهام حادة ، أو بالسيف ، أو بأي سلاح فتاك ، ولا بفعل السموم المدمرة ، بل بفعل احتقاري وتعالى عليها وما أبديته دائما من قسوة نحوها » .

فأجاب سنشو : فلتمت متى وكيف شاءت ، وتتركني في سلام ، أنا الذي لم أعشقها ، ولم أزرها أبدا طول حياتي . ولم أفهم بعد ، كما قلت من قبل ، ما هي الصلة بين حياة التسيدورا ، هذه الفتاة اللعوب العابثة ، وبين عذاب سنشو بنثا . الآن أقر بوضوح وتمييز أنه يوجد سحرة في العالم ، نجاني الله منهم ، لأنني لا أستطيع بنفسني أن أخلص منهم . ومع هذا ، يا سيدي ، أرجوك أن تتركني أنام ، ولا تسألني بعد الآن إذا أردت مني أن أقذف بنفسني من النافذة » .

فقال دون كيخوته : نم يا صديقي سنشو ، إذا مكنتك القرصات والشكاك من النوم . فقال سنشو : سيدي ! إنني لم أعرف ألما يساوي إهانة الصفعات ، خصوصا إذا صدرت عن نسوة عجوزات ، والعياذ بالله . لكن لما كان النوم فيه نسيان كل الآلام ، فإنني أستحلفك مرة أخرى أن تتركني أنام . فقال دون كيخوته : ليكن ، والله معك .

ونام كلاهما . واستغل سيدي حامد ، مؤلف هذا التاريخ العظيم ، نومهما ليروي كيف رتب الدوق الأمور وصنع المغامرة التي أتينا على وصفها . إن حامل البكالوريا كرسكو ، وهو لم ينس أن دون كيخوته هزمه وهو باسم فارس المرايا ، وقلبت هزيمته كل مشروعاته رأسا على عقب ، فإنه قرر أن يعاود الهجوم ، مؤملا في النجاح هذه المرة . فاستعلم من الغلام ، الذي حمل الرسالة إلى تريزه سنشو ، عن موقع القصر الذي كان يقيم فيه دون كيخوته ، وحصل على أسلحة جديدة ، وفرس ، وأمر برسم قمر أبيض على ترسه . وحمل بغل حنانه ، وقاده فلاح غير توميه ثشيل ، سانس الأول ، خوفا من أن يتعرف عليه دون كيخوته ، الذي كان يريد آنذاك أن يذهب إلى مباريات سرقسطة . كذلك أخبره الدوق عن كل الألاعيب التي دبروها لدون كيخوته ، واختراعهم لفكرة رفع السحر عن دلثنيا بواسطة جلد سنشو على أردافه ، وأن الانسحار المزعوم كان من اختراع سنشو نفسه ، الذي جعل مولاه يعتقد أن دلثنيا تحولت إلى فلاحة ، وأن الدوقة أقنعت سنشو بأنه هو الغالط وأن دلثنيا مسحورة فعلا . لم يملك كرسكو نفسه من الضحك على مكر وسذاجة سنشو ، وجنون دون كيخوته البالغ . ودعا الدوق إلى العودة إلى قصره ، هازما أو مهزوما إذا أدرك دون كيخوته ، فوعده حامل الاجازة ، واستأنف طريقه لكنه لم يجد الفارس في سرقسطة ، فاستمر في سيره ، وجرى له ما قرأته . ثم عاد ومر بقصر الدوق ، وأخبره نتيجة معركته مع دون كيخوته ، بوصفه فارسا أمينا مخلصا ، سيعود تنفيذًا للعهد الذي قطعه على نفسه بالاعتزال سنة في بيته ، في أثنائها يمكن أن يشفى من جنونه ، وأن هذه هي الغاية التي من أجلها تخفى كل هذه الألوان من التخفي ، لأنه من الحزن جدا أن نبيلًا مثقفا جدا مثل دون كيخوته يصير مجنونا . وبعد ذلك ودع حامل البكالوريا الدوق ، وعاد إلى قريته في انتظار دون كيخوته القادم في أثره .

وهذه الأفكار أوحى إلى الدوق بفكرة تدبير ألعية جديدة ، لأنه كان مسرورا جدا بالتسلي بدون كيخوته وسنشو . فأمر كل رجاله باحتلال كل الطرق المحيطة بقصره ، وتلك التي ظن أن الفارس لا بد سيمر منها . وتلقى عدد كبير من الخدم ، راكبين الخيل ومترجلين ، أمرا بالقبض عليه واحضاره طوعا أو كرها . وأخيرا وجدوه ، فأخبروا الدوق ولما علم بقدمه أمر بإشعال كل مصابيح الفناء ، ووضع التسيدورا على القبر ، بكل الجهاز الذي وصفناه لك ، وتم كل شيء ، بإتقان بحيث لم يكن من الممكن التمييز بين الظاهر والواقع . بل يذهب سيدي حامد إلى أبعد من هذا فيقول إن الساخرين لم يكونوا أقل جنونا ممن سخر منهم وأنه ليس من جودة الرأي الاهتمام بتعذيب مجنونين ، أحدهما كان ينام ملء جفنيه ، والآخر كان مطمورا بين خواطره .

وفاجأهما النهار ، واستعدا للنهوض ، لأن دون كيخوته ، ظافرا أو مهزوما ، كان لا يحب أبدا كسل الفراش .

والتسيدورا التي اعتقد دون كيخوته جازما أنها بعثت من الموت - لبست - من أجل إرضاء سيدتها - التاج الذي كان عليها وهي على القبر ، ولبست غلالة من التافتاه الأبيض المنقوش بالأزهار الذهبية وأرسلت شعرها ، واستندت إلى عصا من الأبنوس ، ودخلت غرفة دون كيخوته الذي لم يكذب يراها حتى ارتبك ، فدرس نفسه في السرير ، واختفى في الأغطية والملاءات ، دون أن ينطق بكلمة ، أو يبذل أية تحية . فجلست التسيدورا على كرسي بالقرب من المخدة ، وأطلقت زفرة حارة ، ثم قالت بصوت ضعيف ناعم : « حين تدوس السيدات ذوات المكانة والبنات المتواضعات الشرف بأقدامهن ، وتسمحن لألسنتهن بالافصاح عن أسرار قلوبهن ، فإنهن يكن في مأزق حرج جدا . وأنا إحدى هؤلاء البائسات يا سيدي دون كيخوته ، مضطهدة ، مقهورة ، مدلهة بالغرام ، لكنني شريفة وإن آلامي - من شدة كتمانها والصمت الذي فرضته على نفسي - من شأنها أن تجعل روحي تفر وأفقد الحياة . ومنذ يومين تسببت قسوتك في موتي ، أيها الفارس العنيد الذي لا يلين ، الصلب أكثر من المرمر بالنسبة إلى شكاياتي^(١) ، أو على الأقل الذين رأوني حكموا علي بأنني مت ، ولولا أن « الحب » ، وقد تأثر لبلاياي قد وضع الشفاء في استشهداء وعذاب هذا السائس الطيب ، لما كنت غادرت العالم الآخر وأتييت إلى هذا العالم » .

فقال سنشو : كان في استطاعة « الحب » أن يضع الشفاء أيضا في عذاب حماري ، وكنت شكرت له ذلك . لكن قل لي يا سيدتي (والسما توفئك إلى عاشق أكثر حساسية من مولاي) ماذا رأيت في العالم الآخر ؟ وماذا في الجحيم الذي لا بد لمن يموتوا قانطين أن يتخذوا السبيل إليه ؟ » .

فأجابت التسيدورا : الحق أنني لم يظهر أنني لم أمت تمام الموت ، لأنني لم أدخل الجحيم ، ولو كنت دخلته لما كنت أستطيع الخروج منه كما أشاء . أنني لم أصل إلا إلى الباب ، حيث رأيت عشرة من الشياطين يلعبون الكرة وعليهم شارات وصديريات ذوات دلايات من دنتلة الفلاندر ، وأكمام من القماش نفسه ، على بعد أربعة أصابع من الرسغ لاطهار اليد أطول . وكانت معهم مرزبات من نار ، وما أدهشني أكثر ، هو أنهم بدلا من أن يستخدموا كرات ، كانوا يستخدمون كتباً ، بدت مملوءة من الهواء والوبر ، وهو أمر جديد

(١) هذه الجملة من قصيدة لجريلاسو دلا بيجا .

عجيب . لكن أشد ما أدهشني هو أنه بينما اللاعبون عندنا الذين يكسبون ويفوزون يغبطون ، والذين يخسرون يسخطون ، وهو أمر يبدو لي طبيعيا ، هم هناك جميعا يصرخون ويسبون ويلعنون .» - فقال سنشو : « هذا ليس بعجيب ، فإن الشياطين سواء أكانوا يلعبون أم لا ، وسواء كسبوا أو خسروا ، لا يمكن أن يكونوا راضين أبدا » .

فأجابت التسيدورا : لا بد أن الأمر هكذا ، لكن ثم شيء آخر بدا لي عجيبا ، وهو أنه من أول وثبة لا تصلح الكرة ، ولهذا كانوا في كل ضربة يغيرون الكتب ، القديمة أو الجديدة ، على هواهم . وأحد هذه الكتب - وكان حسن التجليد - أصيب بضربة أخرجت أحشاءه وشتت أوراقه . فقال أحد الشياطين لآخر : « أنظر ما هذا الكتاب ! » فقال الأخير : « القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا ، وهو ليس من تأليف سيدي حامد ، مؤلفه الأول ، بل من تأليف أرغوني يدعي أنه من مواليد تورديسياس . » - فقال الأول : « اطرده من هنا ، وألق به في هاوية الجحيم حتى لا أراه . » - فقال الآخر : « هل هذا الكتاب سيء إلى هذا الحد ؟ » - فقال الأول : « سيئ جدا بحيث لا أستطيع أن أجعله أسوأ من ذلك . » واستمر الشياطين في لعبهم ، ويضربون كتبها أخرى ، ولما سمعت اسم دون كيخوته الذي أعزه كثيرا انتقشت هذه الرؤيا في ذاكرتي .

فقال دون كيخوته : « نعم لا شك في ذلك ، لا بد أن هذه الرؤيا ، لأنني أنا وحدي الذي أحمل هذا الاسم في العالم ، وهذا التاريخ يجري متنقلا من يد إلى يد ، ولا يتوقف أبدا في أية يد ، لأن كل إنسان يركله بقدمه . ولم أتضايق من القذف بي في ظلمات الهاوية ، أو إلى نور السموات لأنني لست أبدا ذلك الذي يتحدث عنه هذا التاريخ . ولو كان جيدا أمينا صادقا لعاش أجيالا وأجيالا ، لكن إذا كان ردينا ، فإن الطريق بين ميلاده ودفنه ليس طويلا » .

وكانت التسيدورا بسبيل الاستمرار في شكاياتها الغرامية ، حين قال لها دون كيخوته : « لقد أنبأتك مرات عديدة ، يا سيدتي ، أنه يؤلمني جدا أنك اخترتني موضوعا لأفكارك ، لأنني لا أستطيع أن أقدم إليك غير عرفان بالجميل عقيم . لقد ولدت من أجل دلثنيا دل توبوسو ، والقدر ، إن وجد ، قد كرسني لها ، والاعتقاد أن جميلة أخرى يمكن أن تقتصب المكانة التي لها في نفسي هو من باب الرجاء في المستحيل . وما أقوله يجب أن يكفي لإزالة الغشاوة عن عينيك وإدخالك في حدود الشرف ، لأنه لا أحد ملزم بالمستحيل » .

ولدى سماع هذه تظاهرت التسيدورا بالغضب ، وقالت : « الله حي ! يا دون بكلاه ، ياروح الأسمنت ، ونواة البلح ، يا من هو أعند وأقسى من الشرير الذي يترجى حين يصوب

إلى الهدف ؛ لو ارتميت عليك لاقتلعت عينيك . هل تعتقد ، أيها الدون المهزوم ، الدون المضروب بالعصى ، أنني تركت نفسي أموت من أجلك ؟ أعلم إذن أن كل ما شاهدته هذه الليلة لم يكن إلا تمثيلا . لست أنا المرأة التي تحمل ، من أجل هذا البعير ، أقل ألم في إصبعي ، وبالأحرى أنا أدع نفسي أموت » .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا ؛ إن كل موتات العشاق ما هي إلا هزل في هزل ؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا ذلك ، أما أن يفعلوه فليصدق هذا يوداس^(١) !

وفي هذه اللحظة دخل الشاعر الموسيقار الذي تغنى بالقصيدة على شرف التسيدورا . وحيا دون كيخوته تحية عميقة وقال له : « سيدي الفارس ، أرجوك أن تتنازل وتعدني من بين خدامك المخلصين كل الاخلاص ؛ منذ وقت طويل وأنا معجب بك ، من أجل شهرتك ومن أجل أعمالك الحربية المجيدة » .

فأجاب دون كيخوته : سيدي ! تفضل فخيرني من أنت ، حتى يتناسب أدبي مع فضلك .

فأجاب الشاب : أنا الموسيقار المادح في الليلة الماضية .

فقال دون كيخوته : أعترف بأنك أجدت الغناء ، لكن يبدو لي أن الكلمات ليست

منتقاة جيدا . فما الصلة بين أشعار جرثيلاسو وبين الموت المزعوم لهذه الأنسة ؟

فأجاب الموسيقار : أولا لا تعجب من هذا أبدا ، ولكنها العادة بين شعراء الشباب في هذا القرن جرت أن يكتب كل بحسب ما يفهم ، وينهب ما يعجبه ، سواء جاء في محله أو لا ، وبهذه الوسيلة تعزى كل الحماقات التي تنشدها أو يكتبونها إلى الرخص الشعرية » .

وكان دون كيخوته على وشك أن يجيب ، ولكن منعه من ذلك مجيء الدوق والدوقة لزيارته . ودارت بينهم محادثة طويلة عذبة ، في أثناءها قال سنشو الكثير من النكت والملح المأكرة واللذيذة ، حتى أعجب الدوق بخفة روحه وسذاجته معا . وطلب دون كيخوته من الدوق أن يأذن له بالرحيل في اليوم نفسه ، ملاحظا أن الفرسان المهزومين مثله ينبغي عليهم بالأحرى أن يقيموا في الاسطبلات لا في قصور الملوك . ووافق صاحب القصر عن طيب خاطر ، وسألاه هل هو راض عن التسيدورا .

فأجاب دون كيخوته : « سيدتي ! داء هذه الأنسة مرده كله إلى البطالة . والعلاج هو في أن تشتغل في عمل شريف ومتواصل ، لقد قالت لي أنهم في الجحيم يلبسون الدنتلة ؛ ولا

(١) أي ليصدقه من شاء . ويقول كليمنثين أن هذه الجملة ترجمة ساخرة لعبارة هورس « هجانيات » ١ ٦٠٠ Credat Iudaeus Apella (مصدق أبلا اليهودي) .

شك في أنها تعرف صنع الدنتلة ، وإذا اشتغلت في الغزل بالمغزل ، لم يرسم عقلها باستمرار صورة من تعشق . هذه نصيحتي ، ورأبي ، وأعتقد أنه مطابق للحق » .

فقال سنشو : وهذا رأيي أيضا ، لأنني لم أر في حياتي عاملة في شغل الدنتلة قد ماتت من الحب . والأنسات المشغولات يفكرن في الانتهاء من شغلهن أكثر من التفكير في الحب ، وأنا نفسي ، حين أفلح الأرض لا أفكر أبدا في جوهرتي ، أقصد تريزتي ، وهي أعز عندي من حدقة عيني .

فقالت الدوقة : أنت على حق ، وأنا أريد من الآن فصاعدا أن تشتغل التسيدورا في أشغال البياضات ، وهي بارعة فيها .

فقالت التسيدورا : لا جدوى ، يا سيدتي ، في استعمال هذا الدواء ، فإن ذكرى القسوة التي أبداها نحوي هذا الصعلوك الجوال ستكفي لا تتزاع صورته من قلبي ، بغير حيلة أخرى . واستسمح عظمتك في الأذن لي بالانسحاب ، حتى لا أرى بعد أمام عيني ليس فقط الفارس الحزين الطلعة ، بل وسيماء الكريهة المنفرة .

فقال الدوق : هذا يشبه المثل الذي يقول :

من يصب عليك الشتائم

قريب من العفو عنك

وتظاهرت التسيدورا بأنها تمسح دموعها ، وحيث سيديها وخرجت .

فقال سنشو : أيتها الفتاة المسكينة ، اذهبي إلى الشيطان ، لأنك توجهت إلى روح من اليراع ، وقلب من الزان . لو كنت اخترتني ، لوجدت ديكا يغني بطريقة أخرى .

وانتهت المناقشة ، وليس دون كيخوته ثيابه ، وتغدى مع الدوق ، وارتحل في المساء .

الفصل الحادي والسبعون

فيما وقع لدون كيخوته وسائسه سنشو
وهما في الطريق الى قريتهما

ارتحل دون كيخوته وهو بين التفكير والسرور . كانت هزيمته سببا في حزنه ، وكان مصدر سروره قوة سنشو السرية على بعث التسيدورا ، وإن لم يكن مقتنعا تماما بأنها كانت قد ماتت فعلا . أما سنشو فلم يكن مسرورا أبدا ، لأن التسيدورا لم تعطه القمصان التي وعدته بها . وعذبه هذا الخاطر فقال لمولاه : « الحق إنني أبأس طبيب في العالم ، فمن الأطباء من يطالبون بالأجر ، مع أنهم قتلوا المريض الذي يعالجه ، وكل علاجهم يقتصر على كتابة بطاقة صغيرة فيها بعض الأدوية التي لا يصنعونها هم ، بل الصيدلي ، وهو الآخر لا بد من دفع أجرة ، أما أنا ، الذي كلفني علاج الغير وشفأؤهم ، دما ، وصفعات ، وقرصات ، وشكات ، وجلدات ، فهذا كله لا يعود علي بفلس واحد . ولكني أقسم بالله لو وقع مريض آخر بين يدي فلا بد أن يدفع الثمن غاليا قبل أن أعالجه . إن الراهب يعيش من إنشاده ، ولا أعتقد أن السماء وهبني القدرة التي عندي من أجل إعطائها للغير مجانا وبغير مقابل » .

فأجاب دون كيخوته : « أنت على حق يا سنشو ، وقد أساءت التسيدورا جدا ، بعدم إعطائك القمصان التي وعدتك بها . لأنه على الرغم من أن القوة التي عندك قد وهبت لك مجانا وبغير مقابل ، ولم تكلفك أية دراسة ، فإن عذاب شخصك فوق كل دراسة . أما عن نفسي فأني أستطيع أن أقول لك أنك لو كنت أردت مني أن أدفع لك الضربات اللازمة لرفع السحر عن دلشنيا ، لكنت قد حصلت فعلا على الثمن . ولست أدري هل الأجرة تمنع من الشفاء ، ولا أريد أن أضع العراقيل . وعلى كل حال فلن نخسر شيئا إذا جربنا ، انظر يا سنشو ماذا تطلب ، واجلد نفسك بسرعة ، وادفع لنفسك أجرتك بيدك ، لأن النقود معك » .

ففتح هذا العرض عيني سنشو وأذنيه بطول شبر ، ووافق في قلبه على جلد نفسه عن طيب خاطر ، وقال لسيده : « الآن يا سيدي أشعر بأنني مستعد لإرضائك ، لأنني أجد في

ذلك مكسبا لي . إن حبي لزوجتي وأولادي يجعلني أظهر بمظهر الرجل النفعي ، انظر ماذا تريد أن تعطيني عن كل جلدة » .

فأجاب دون كيخوته ، « لو كان علي أن أدفع بما يناسب عظمة الخدمة التي ستسديها لما كانت كنوز البندقية ومناجم بوتوسوي كافية للوفاء بالثمن . انظر أنت ما معك لي ، وحدد أنت بنفسك الثمن لكل ضربة » .

فأجاب سنشو ، « على ثلاثة آلاف وثلثمائة ضربة وكسور ، وقد ضربت نفسي خمسا ، لكنني لا أحسبها ، لأنها ضمن الزيادة . فلنأخذ في النظر في الثلاثة آلاف وثلثمائة . إذا كانت كل ضربة بربع ريال (ولن أخفض أي شيء مهما كان) فهذا يساوي ثلاثة آلاف وثلثمائة ربع ريال . الثلاثة آلاف تساوي ألف وخمسمائة نصف ريال ، أو سبعمائة وخمسين ريالا ، والثلثمائة تساوي مائة وخمسين نصف ريال ، أي خمسة وسبعين ريالا ، فإذا أضفت هذه إلى السبعمائة وخمسين كان المجموع الكلي ثمانمائة وخمسة وعشرين ريالا . وسأخصم هذا المبلغ مما معي لك من نقود ، وأعود إلى بيتي غنيا راضيا وإن كنت جلدت جلدا عظيما . لا تصطاد القراميط... ولا أقول أكثر من هذا » .

فأجاب دون كيخوته : بوركك ألف مرة ، أي سنشو المحبوب . كم ستكون دلثيا وأنا مدينين لك طوال عمرك ، إذا استعادت حالتها الأولى ، ومن المستحيل ألا تستعيدها : شقاؤها سيصبح سعادة ، وهزيمتي تصبح انتصارا . انظريا سنشو حين تريد أن تبدأ سأعطيك مائة ريال ، إذا نفذت ذلك حالا .

فقال سنشو : متى ؟ هذه الليلة وبدون إبطاء . اعمل على أن نبيت في العراء ، تحت النجوم الجميلة ، وأنا أفتح لحمي .

وجاء الليل الذي انتظره دون كيخوته بصبر نافذ . وبدا أن أبولون قد كسر عجلات عربته ، وأن النهار كان أطول من المعتاد ، كما يحدث للمحبين ، الذين يتلهفون على تحقيق أمانهم .

ثم دخلا تحت الظلال البليلة لبعض الأشجار البعيدة بعض البعد عن الطريق . وخلع سنشو عن الركوبتين ما عليهما ، ثم جلسا على العشب الرقيق ، وتعشيا مما كان في خرج سنشو . ثم صنع سنشو من حظام حماره مقرعة ، ودخل في الأيكة على مبعدة عشرين خطوة . فلما رآه دون كيخوته ذاهبا عاري الكتفين قاصدا أن يقوم بهذه العملية ، عملية الضرب ، قال له : « يا صاحبي حذار أن تمزق نفسك إربا إربا ، ولتكن الضربة بعد الضربة بمدة ، ولا تتسرع في العملية ، ولا تذهبن أنفاسك في وسط الطريق ، أقصد أنه ينبغي عليك

ألا تضرب نفسك بشدة حتى لا تفقد حياتك قبل بلوغ الهدف المقصود . لكن ، حتى لا تخطئ في العدد فتضرب نفسك أكثر أو أقل ، فأني سأقف في ناحية هنا ، وأعد على مسبختي الضربات التي تسدها إلى جسمك . كانت السماء في عونك ، كما تستحق سلامة طريقك » .

فقال سنشو : « إن الدافع الجيد لا يخشى أن يعطي رهونا . سأضرب نفسي بحيث لا أنتزع حياتي ، ولكن تحس بالضرب أكتافي ، وفي هذا يقوم جوهر المعجزة من غير شك » . وتعزى من خصره حتى قدميه ، وأمسك بالسير ، وبدأ يضرب نفسه بينما دون كيخوته يعد . وبعد ست أو ثماني ضربات ، بدأ سنشو يشعر بأن العملية شاقة ، والشم زهيد ، فقال لمولاه إن ثم سوء استغلال ، وأن كل ضربة كما أعطاه لنفسه ، تساوي نصف ريال ، لا ربع ريال .

فأجابه دون كيخوته : استمر يا عزيزي سنشو ، لا تقلق فسأضعف الثمن .
فقال سنشو : إذن فلتنهمر الضربات

لكن هذا الماكر كف تسديد الضربات إلى كتفيه ، وأخذ يسدها إلى الأشجار ، معقبا إياها بين الحين والحين بزفرات بحيث يود أن الضرب يوجهه وتسيل روحه . ولكن دون كيخوته ، وهو بطبعه رجل حساس ، خاف أن يموت سنشو ، فلا يتحقق انتظاره ، بسبب عدم احتياط سنشو . فقال لسنشو : « باسم الله ، توقف الآن . إن هذا الدواء يبدو لي قاسيا ، عليك بالاستراحة ، إن سمورة لم يستول عليها في ساعة . لقد ضربت نفسك أكثر من ألف ضربة ، إذا صح حسابي ، وهذا يكفي . إن المثل المبتذل يقول إن الحمار يتحمل الحمل ، لا ما زاد على الحمل » .

فأجاب سنشو : لا يا مولاي ، لا أريد أن يقال عني : الأجرة مدفوعة ، والذراع مكسورة . ابتعد قليلا ، وسأضرب نفسي ألف ضربة أخرى ، وفي شوطين ، تنتهي الشغلة ، ويكون لي باق أيضا .

فقال دن كيخوته : ما دمت بهذا الاستعداد الجيد ، فسأبتعد ، أعانتك السماء وجازتك خير الجزاء .

وعاد سنشو إلى عمله بحماسة شديدة حتى أنه نزع لحاء عدد كبير من الأشجار لأن شعوره وهو يضرب نفسه كان قاسيا ، ثم أخيرا رفع عقيرته وضرب الأيكة بضربة هائلة وقال : « هنا سيموت سمسون وكل الذين معه » .

فهرع دون كيخوته عند سماع هذه العبارة ، ولدى سماع ضربة السوط الهائلة هذه ،

وأمسك بالمقرعة وقال لسنشو : « يا صديقي ، إن السماء لا تسمح بأن تفقد أنت الحياة الضرورية لزوجتك وأولادك تفقدها من أجلي أنا . فلتنتهز دلثيا فرصة أخرى ، وسأقتصر على حدود أمل مقبل قريب ، وانتظر حتى تسترد قوتك من جديد لإنهاء هذه المسألة بما يرضي الجميع » .

فقال سنشو : « ما دامت سيادتك تريد هذا ، فليكن ، لكنني أرجوك ، أن تلقي على كتفي بمعطفك . فأنا أتصيب عرقا ، وأخشى من البرد ، والتوابون المحدثون معرضون لذلك » .

فخلع دون كيخوته معطفه ، وغطى به سنشو ، وثام هذا نومة واحدة متصلة حتى مطلع الشمس . وأفاقا ، واستأنفا السير إلى قرية تبعد بثلاثة فراسخ .

وتوقفا في فندق ، ورضي دون كيخوته أن يتعرف أنه فندق ، وليس قصرا محاطا بالخنادق ، والأبراج ، والمسالف ، والجسور القابلة للرفع ، لأنه منذ هزيمته أخذ يتكلم عن الأمور بعقل ، كما سنرى بعد قليل .

وأدخل في قاعة سفلية ، غطيت جدرانها « بالسرج »^(١) الملون ، كما هو المعتاد في الفنادق . وفي إحدى هذه القطع رسم اختطاف هيلانة في اللحظة التي انتزعها ضيفا الجسور من منيلاوس^(٢) ، وكان رسما ردينا جدا . وعلى قطعة أخرى شوهة تاريخ إينيوس وديدونه ، وكانت هذه على برج عال ، تلوح بشال كبير لتنادي على عاشقها الخائن ، الذي فر في البحر على سفينة صغيرة أو فرقاطة . ولاحظ أن هيلانة تركت نفسها تختطف عن طيب خاطر وهي تبسم لمختطفها ، بينما كانت ديدونه الجميلة تذرف أحر العبرات . وتأمل دون كيخوته هذه السجاجيد الجدرانية وقال : « هاتان الامرأتان كانت بانستين لأنهما لم تولدا في هذا القرن . ، أو لأنني أنا لو أولد في زمانهما . لأنني لو كنت قابلت هذين الرجلين لكنت كلمتهما بحيث لا تحرق طروادة ، ولا تحطم قرطاجة . ولو قتلت باريس وحده ، لكنت قد صرفت كل هذه الشرور » .

فقال سنشو : « أراهن أنه لم يمض وقت طويل حتى يرسم تاريخ أعمالنا في كل حانة ، وفندق ودكان حلاق ، لكنني أود أن ترسم بيد أفضل من التي رسمت هذه اللوحات » .

(١) = Sarga قماش من الحرير عليه رسوم ترين به جدران الغرف والقاعات .

وفي النص : « قاعة سفلية ، تقوم مقام الغدامسيات فيها قطع من السرج... » والغدامسيات نسبة إلى واحة غدامس في طرابلس الغرب (ليبيا) وهي جلود مصقولة ومزينة بالرسوم ، كانت تستخدم في تغطية جدران الغرف .

(٢) أي حين اختطفها باريس من زوجها منيلاوس .

فقال دون كيخوته : أنت على حق يا سنشو ، لأن هذا الرسام يشبه أوربينخا ، رسام أبذه ، الذي كان إذا سئل ماذا يرسم يجيب : « ما سيخرج من فرشاتي » ، وإذا تصادف ورسم ديكا ، فإنه يكتب تحته : « هذا ديك » حتى لا يظن أحد أنه ثعلب . ولا بد أن الرسام أو الكاتب (وكلاهما واحد) الذي نشر تاريخ دون كيخوته الجديد هو من هذا النوع ، لأنه رسم أو كتب حيثما اتفق ، أو فعل مثل شاعر اسمه موليون كان في الأعوام الماضية في البلاط . وكان يجيب فوراً عن كل ما يسأل عنه . فسئل ذات يوم ما معنى Deum de Deo فأجاب de donde diere لكن لندع هذا ، وقل لي يا سنشو هل لديك رغبة في شوط آخر هذه الليلة ؟ وهل تريد أن يكون ذلك في العراء أو تحت سقف ؟ » .

فأجاب سنشو : والله بالنسبة إلى الضربات التي أظن أنني سأضرب بها نفسي فإنه يستوي أن يكون ذلك في البيت أو في الحقول . لكنني أفضل أن يتم ذلك تحت أشجار ، إذ يبدو لي أنها تصحبنني وتساعدنني مساعدة ممتازة في عملي .

فقال دون كيخوته : لا يا سنشو ، الأفضل أن تترك نفسك لتسترد قوتك ، وتحفظ بإرادتك الطيبة إلى حين نصل إلى بيوتنا ، وسيكون ذلك ، فيما أعتقد ، بعد غد .

فقال سنشو : كما تشاء يا مولاي ، لكنني أفضل أن أطرق الحديد وهو ساخن ، وأن أطحن حين يدار الحجر . والخطر دائماً أو غالباً في التأخير . لا بد أن تضرب بمطرقة الخشب ، وأنت تدعو الله . واحد في يدك خير من اثنين في غدك . عصفور في اليد خير من الرخم الذي يطير » .

فقال دون كيخوته : بحق الله ألا أوقفت سيل هذه الأمثال ، يا سنشو ، يبدو كما لو كنت ستعود إلى : « هكذا كان »^(١) . تكلم بوضوح ، ونصاعة ، بغير مجاز ، كما قلت لك من قبل : وسترى أن رغيفاً يعود عليك بمائة .

فأجاب سنشو : مولاي ، لا أدري أي نحس يلاحقني ، لكنني لا أستطيع أن أسوق حجة بدون مثل ، ولا مثلاً يبدو لي حجة ، لكنني سأصلح نفسي إذا استطعت . وهكذا انتهت محادثتهما .

(١) أي ستعود « إلى ما كان من قبل » أي إلى عادتك القديمة ، وتماها « هكذا كان في البدء » ، وهي مأخوذة من جملة لي صلاة : « المجد للأب » .

الفصل الثاني والسبعون

كيف وصل دون كيخوته وسنشو الى قريتهما

أمضى دون كيخوته وسنشو نهارهما كله في الفندق ، انتظارا لليل ، أحدهما لاتمام الجلد في العراء ، والثاني ليرى النتيجة ، التي أودع فيها كل آماله . وفي تلك الأثناء وصل إلى الفندق مسافر يركب فرسا ، يتبعه ثلاثة أو أربعة خدم ، وقال له أحدهم : «مولاي دون البرو طرفيه ، تستطيع أن تتوقف هاهنا ، للقبولة ، بالفندق يبدو نظيفا طريا » . وعند سماع هذه الكلمات قال دون كيخوته لسنشو : « يا صاحبي ، عندما تصفحت كتاب القسم الثاني من تاريخي ، اعتقد أنني رأيت اسم طرفيه هذا » . - فقال سنشو : « يجوز ، لتركه ينزل ، وبعد ذلك نكلمه » . فنزل الراكب عن فرسه ، وأدخلته صاحبة الفندق في قاعة واطئة ، إلى جانب قاعة دون كيخوته ، وجدرانها عليها سرج عليه رسوم . وتخفف من ملابسه ، وجاء ليستنشق الهواء على باب النزل ، وكان واسعا ، وعنده كان دون كيخوته يتريض . فقال له : « سيدي ، هل أستطيع أن أسألك إلى أين أنت ذاهب ؟ » - فأجاب دون كيخوته : « يا سيدي الفاضل ، أنا ذاهب إلى قرية قريبة من هنا ، هي مسقط رأسي ، وأنت ، يا سيدي ؟ » .

فقال المسافر : « أنا ذاهب إلى غرناطة ، بلدي » .

- إنها بلد جميل ، لكن من فضلك قل لي ما اسمك ، إذ يهمني أن أعرفه أكثر مما تظن .

- اسمي دون البرو طرفيه .

- أنت لا شك ذلك الطرفيه الذي يتحدث عنه القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا

منتشا ، الذي نشره حديثا مؤلف جديد ؟

- نعم هو أنا ، وهذا الدون كيخوته ، بطل هذا التاريخ ، هو صديقي العزيز وأنا الذي

جررته من بلده ، وحملته على المجيء ، إلى المباريات التي تقام في سرقسطة وقد حضرتها .
والحق أنني أسديت إليه خدمة جليلة ، لأنني منعت الجلال من حك كنفه بشدة بسبب تهوره
المفرط^(١) .

- وهل يبدو لك يا سيدي أنني أشبه ذلك الدون كيخوته الذي تتكلم أنت عنه ؟
- لا ، أبدا ، بأي حال من الأحوال .
- وهل كان معه سانس يدعى سنشو بنشا ؟
- نعم ، حقا ، لقد قيل إن هذا السانس فكه جدا ، لكنني لم أسمع منه أبدا شيئا
حسنا .

فقال سنشو : وأنا أعتقد هذا تماما ، لأنه ليس في مقدور كل انسان أن يكون فكها ،
وأنا أراهن أن هذا السنشو ، الذي تتحدث عنه سيادتك ، لا بد أن يكون صعلوكا ، أو لصا ،
أو أحمق . أما أنا فأنا سنشو الحقيقي الذي يقول من المُلح أكثر مما في المطر من قطرات
ماء . وما عليك إلا أن تجرب ، اتبعني طوال عام ، تر أن المُلح تصدر عنه كالفيض الزاخر
حتى أنني أحيانا ، وبدون أن أدري ما أقول ، أضحك كل الذين يصغون إلي . أما دون كيخوته
دلا منتشا الحقيقي ، الشهير ، المغوار ، الحكيم ، العاشق ، رافع المظالم ، الوصي على
القصر واليتامى ، سند الأرامل ، محطم قلوب الأوائس ، الذي لا تسيطر على أفكاره سيدة
غير المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، فهو السيد الذي تراه أمامك ، وهو سيدي ، وغير
سنشو ، وغير دون كيخوته هذين الماثلين أمامك أحلام وأوهام .

فأجاب دون البرو : « بحق روحي أنا أصدقك ، لأنه بأربع كلمات قلتها كشفت عن
لطف وظرف لم يكشف عنهما سنشو الآخر في كل الأحاديث التي سمعته يقولها . لقد
كانت عليه سيماء النهم الشره ، لا سيماء المتحدث الجميل اللفظ ، المجنون لا الفكه . وأنا
عن نفسي أعتقد أن السحرة الذين يلاحقون الطيب دون كيخوته يطاردونني أيضا ، لأنهم
جعلوني أعرف دون كيخوته الرديء ، وعلى ذلك فلا أستطيع أن أتكلم عنه ، لكن أجرؤ على
القسم بأنني تركت هذا الأخير في بيت المندوب الطليطي ، ليعالج من الجنون ، والآن لقيت
دون كيخوته آخر ، مختلفا تمام الاختلاف عن ذاك » .

فقال دون كيخوته : لست أدري هل أنا خير ، ولكنني أعرف على الأقل أنني لست دون
كيخوته ذلك الرديء ، والدليل على هذا ، يا سيد دون البرو ، أنني لم أذهب في حياتي كلها

(١) راجع الفصول ٨١ ، ٢٩ ، ٢٦ ، من «دون كيخوته» تأليف أبيانيدا .

إلى سرقسطة . ولما علمت أن هذا الرديء قد ظهر على أبواب تلك المدينة ، فإنني لم أر دخولها ، حتى أكذب ذلك المحتال النصاب المزور . فتابعت طريقي حتى برشلونة ، مقام الأدب ، ومأوى الغرباء ، ومستشفى الفقراء ، ووطن الشجعان البواسل وملاذ المظلومين ، والمركز المشترك لكل الصداقات المخلصة ، والخلاصة أن هذه المدينة في أجمل بقعة في العالم . ولئن لم تكن الأحداث التي وقعت لي هناك سارة ، فإن لذة رؤيتها جعلتني أتحملها . وأخيرا ، يا سيدي طرفيه ، أنا كيخوته الذي ذاع صيته في العالم ، لا ذلك البائس الذي أراد اغتصاب اسمي والتشرف بأفكاري . إنني أسألك فضلا لا تستطيع أن تأباه علي بوصفي فارسا ، وهو أن توقع لي ، عند قاضي الناحية ، على إقرار تقر فيه أنك لم ترني طول حياتك قبل الآن ، وإنني لست ذلك الدون كيخوته الذي يتحدث عنه ذلك الكتاب الجديد ، ولا سنشو سانشي هو ذلك السنشو الذي تعرفه .

فأجاب دون ألبرو : « سأفعل هذا حبا وكرامة ، لأنه من الأمور الجديرة بالإعجاب أن يرى المرء في وقت واحد دون كيخوتيين وسنشوين ، متطابقين في الاسم ، مختلفين في الأفعال . وأنا أشك فيما رأيته عينا ، وأرى أن الأحداث التي وقعت لي خيالية وهمية » . فقال سنشو : « أراهن ، يا سيدي أنك مسحور مثل السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وأرجو الله ألا يتعلق رفع السحر عنك إلا بثلاثة آلاف وثلثمائة جلدة ، مثل تلك التي علي أن أجلد نفسي بها من أجلها ، وسأضرب نفسي بها عن طيب خاطر ، وبدون فوائد » . فقال دون ألبرو : لا أعرف ماذا تقصد بهذه الجلدات .

فأجاب سنشو : هذه حكاية شرحها يطول ، وسأخبرك بها إن سرنا في الطريق نفسه . وجاءت ساعة العشاء فتعشى الفارسان معا . ولما كانا على المائدة ، دخل قاضي الناحية الفندق ومعه الموثق . فطلب منه دون كيخوته أن يسجل الإقرار الذي طلبه من السيد دون البرو طرفيه ، الحاضر هنا ، وينص على أن هذا السيد لم ير دون كيخوته قبل الآن ، وأنه ليس دون كيخوته المذكور في كتاب أبيانيدا الذي من مواليد تورديسياس . فقام القاضي بالتوثيق القانوني ، واستوفى الإقرار كل القواعد الشكلية ، واغتبط دون كيخوته وسنشو لهذا كل الاغتباط ، وكان المسألة مهمة كل الأهمية ، وكأنه لم يكن يكفي كلامهما وأعمالهما لتمييزهما تمييزا دقيقا .

وتبادل الفارسان التحيات الحارة المتواصلة ، وكشف بطل المنتشا عن حكمة وعقل أتما رفع الغشاوة عن عيني دون البرو الذي عد من السحر أن يكون قد شاهد دون كيخوتين مختلفين عن بعضهما البعض كل الاختلاف .

وأظلم الليل ، فارتحلا من الفندق ، وافترقا بعد نصف فرسخ ، واتخذ كل منهما طريقه . وكان دون كيخوته ذكر لدون البرو نبأ هزيمته ، وانسحار دلثنيا ، والوسيلة لرفعه ؛ وكانت موضوعات جديدة عليه أثارت إعجابه . وتعانق الفارسان وافترقا .

وأضى دون كيخوته ليلته تحت الأشجار ، ليهيئ لسنشو الوسيلة لمواصلة جلدته . وأخذ هذا ينفذ العملية مثلما فعل في الليلة السابقة ، أي على حساب لحاء الأشجار ؛ أما كتفاه فقد صانهما إلى حد أنه ما كان ليبعد عنهما ذبابة لو حطت عليهما . ودون كيخوته ، المخدوع دائما ، لم يغفل أية ضربة من حساب ، ووجد أنه في هاتين الليلتين مجتمعيتين تمت ثلاثة آلاف وتسع وعشرون جلدة . وفي هذا اليوم بدا أن الشمس قد بزغت قبل أوانها المعتاد ، لتكون شاهدا على تضحية سنشو . فأخذ المسافران في الرحيل ، وتحادثا في الخطأ الذي وجدا عليه دون البرو ، وفي الفكرة البارة التي خطرت ببالهما بجعله يوقع إقرارا صحيحا موثقا مستوفى .

وتابعا المسير طوال النهار دون أن يقع لهما أمر خليك بالذكر . وفي الليل أتم سنشو مهمته ، مما اغتبط له دون كيخوته أيما اغتباط ، وصار ينتظر النهار بصبر نافذ ليرى هل سيلقى في الطريق سيده دلثنيا وقد رفع السحر عنها . ولهذا فإنه لم يطلع النهار حتى كان يتفرس في كل النسوة المارات ليرى لعلها أن تكون إياها ، نظرا لثقتة الشديدة بوعده مرلان ، ووصل مليئا بالأمانى والرجاء ، إلى قمة رابية منها تشاهد قريته . وعند هذا المنظر جثا سنشو على ركبتيه وصاح :

- افتح عيونك ، أيها الوطن الذي طال اشتياقنا إليه ، لترى عودة ابنك سنشو ، لا غنيا ، بل مجلودا خير جلد . وافتح ذراعيك ، واستقبل ابنك دون كيخوته ، الذي وإن عاد مهزوما بواسطة ساعد غريب ، فهو على الأقل قد انتصر على نفسه ، وهذا بحسب ما قال - أعظم انتصار يمكن الظفر به . معي مال ؛ لأنني إذا كنت قد تلقيت جلدات عظيمة ، فإني عوضت عنها خير تعويض .

فقال دون كيخوته : دعك من هذه الترهات ياسنشو ؛ ولندخل قريتنا باحترام ، ولنطلق فيها لخيالنا العنان ، ونشتغل بالحياة الرعوية التي ينبغي علينا أن نسلكها . ولما قال هذه الكلمات نزل السفح واقترب من مكان مولده .

الفصل الثالث والسبعون

النذر التي تجلت لدون كيخوته عند دخول قريته
وحوادث أخرى ترفع من شأن هذا التاريخ العظيم

يروى سيدي حامد أنه لدى مدخل القرية لقي دون كيخوته طفلين يتعاركان ، وأحدهما يقول للآخر : « لا تعذب نفسك كثيرا هكذا . يا بربكيو ، فإنك لن تراها في حياتك » . فصاح دون كيخوته : « هل سمعت يا سنشو ما يقوله هذا الطفل : لن تراها في حياتك . » - فقال سنشو : « وماذا يهم فيما يقوله هذا الطفل ؟ » - فقال دون كيخوته : « كيف ، ماذا يهم ؟ ألا ترى أن هذه العبارة تنطبق على آمالي ، وأن معنى ذلك أنني لن أرى دلثنيا في حياتي ؟ » .

وكان سنشو على وشك أن يجيب حين جاء أرنب بري ، يطارده الصيادون والكلاب السلوقية ، فلطى عند حوافر الحمار . فأمسك به سنشو وقدمه إلى دون كيخوته وكان لا يكف عن ترديد هذه العبارة : « نذير شؤم ، نذير شؤم : أرنب بري يهرب ، والكلاب تطارده ، ودلثنيا لا تظهر » .

فقال سنشو : « الحق أنك رجل غريب . لنفترض أن هذا الأرنب البري هو دلثنيا ، وأن الكلاب التي تطارده هي السحرة الأوغاد الذين حولوها إلى فلاحه ، فهربت ، وأمسكت بها ، وهأنذا أضعها تحت سلطانك ، وها أنت ذا تمسك بها بين ذراعيك ، تلاتفها وتربت عليه ، فأني نذير شؤم في هذا ؟ وأي نذير سوء يمكن أن يستخلص منه ؟ » .

وفي هذه اللحظة اقترب الطفلان المتنازعان ليشاهدا الأرنب البري ، فسألهما سنشو فيم يتنازعان . فأجاب أحدهما أن النزاع يدور حول قفص صراصير أخذه من الآخر ولا يريد أن يرده إليه . فأخرج سنشو من جيبه قطعة صغيرة من العملة النقدية وأعطاهما للطفل الصغير ، وأخذ منه القفص ، وأعطاه لدون كيخوته وهو يقول : « ها هي ذي النذر قد تحطمت ، وهي لا شأن لها بمغامرتنا كما لا شأن للولوج الماضي ، وإلا فأنا مغفل . وإن صدقت ذاكرتي ، فأني

أذكر أن قسيسنا قال إن الأتقياء العقلاء لا يتوقفون عند هذه الترهات . وأنت نفسك قلت لي منذ أيام أن الأتقياء الذين يستشيرون النذر هم حمقى . ولا تتوقف هنا أكثر من هذا ، ولندخل قريتنا » .

وجاء الصيادون ، وطلبوا الأرنب ، فأعطي لهم . وعند مداخل القرية وجد دون كيخوته في مرج القسيس وكرسكو يصليان . وخليق بالذكر أن سنشو ألقى على الأسلحة التي يحملها الحمار الرءاء من البوكاسين^(١) المزوق بالشعلات الذي ألبسوه إياه في القصر ليلة بعث التسيدورا ، وأن الحمار كان يحمل على رأسه القلنسوة المحدودة التي رسمت فيها العفاريث ، مما كان أغرب زينة وضعت على حمار . ولم يكد حامل البكالوريا والقسيس يتعرفان صاحبينا العائدين حتى هرعا مفتوحي الذراعين . وعانقهما دون كيخوته بحرارة . والأطفال ، وعيونهم حادة مثل عيون لنقوس ، شاهدوا في الحال قلنسوة الحمار فتداعوا وقالوا : تعالى ، تعالى ، انظروا إلى حمار سنشو وهو أفخر من منجوا^(٢) ، وفرس دون كيخوته وهو أعجف وأشد نحولا مما كان قبل أن يرحل » .

ثم دخل القرية كل هذا الموكب ، وتوجه إلى بيت دون كيخوته ، فوجدوا لدى الباب بنت أخيه والخادمة ، وقد علمتا بنبا وصولهما . كذلك عرفت تريزه بنتا بالخبر ، فهرعت . نصف لابسة ، وشعرها أشعث ، وتمسك بيدها بنتها سنتشيك . ولما لم تر سنشو بزي الحاكم قالت : ماذا يا عزيزي! لقد أتيت ماشيا على قدميك وببدو عليك التعب والإعياء! عليك سيماء السكران لا السلطان! » .

فقال سنشو : اخرسي يا تريزه ، اخرسي ، كثيرا ما يحدث أنه حيث يوجد كعوب يوجد شحم . لنذهب إلى بيتنا ، وستعرفين العجائب . معي مال ، وهذا هو الأهم ، مال كسبته من اجتهادي ، ودون أن أؤذي أحدا .

فقال تريزه : أتيت بنقود ، أي سنشو الطيب ، على الرحب والسعة ، لا يهم كيف كسبتها ، فأنت لم تأت ببدع جديد .

وعانقت سنتشيك أباها ، وسألته هل أتاها بهدية ، وقالت له أنها كانت تنتظره كندی

(١) نوع من القماش من القطن يستخدم بطانة .

(٢) متجو ربولجو . اسم مستعار لمؤلف بعض الأغاني الساخرة ضد حكم هنريكو الرابع (١٤٥٤ - ١٤٧٤) . وقد نظمت فيه أغنان شعبية من بينها هذه :

آه يا منجو ربولجو ، آه ، آه ، آه

ماذا صنعت بصدرتك من الجوخ الأزرق ؟

ألا تلبسها في أيام الأحاد ؟ .



دون کيخوته يعود مهزوماً الى قريته

شهر أيار (مايو) . وجرته من جانب ، وسحبت الحمار وراءها ، وتريزه من الجانب الآخر ، ومضى الثلاثة إلى بيتهم ، تاركين دون كيخوته بين أيدي بنت أخته وخادمتها ، وبصحبة حامل البكالوريا والقسيس .

ولم يكد دون كيخوته يدخل بيته حتى انتحى بصاحبيه ، وروى لهما بايجاز خبر هزيمته ، والتزامه بالبقاء في بيته طوال عام كامل ، ونيتته في الوفاء بهذا العهد حرفيا ، دون أن يجيد عنه قيد أنملة ، كما هو واجب كل فارس جوال مخلص . ثم أبلغهما مشروعه في أن يصير راعيا أثناء ذلك العام ، وأن يعيش في وحدة الحقول ، حيث يستطيع أن يطلق العنان بكل حرية لأفكاره الغرامية وهو يمارس مهنة الراعي الفاضلة . ورجاهما ، إذا لم تحتجزهما أمور أهم ، أن يكونا في صحبته ، وقال إنه سيكفل بشراء قطيع يكفي كي يطلق عليهم اسم الرعاة . وأضاف أن المهم قد تم ، وذلك أنه وجد أسماء تليق بهم تماما . فسأله القسيس : « وما هذه الأسماء ؟ » - فأجاب : « أنا سادعى الراعي كيخوتيث ، وحامل البكالوريا سيدعى كرسكون ، وأنت يا سيدي القسيس ستدعى كوريمبرو ، وسنشو سيدعى بثنينو » .

ويعلم الله كم دهش حامل البكالوريا والقسيس من الجنون الجديد الذي أصاب دون كيخوته . ومع ذلك ، وحتى لا يعود مرة أخرى إلى فروسياته ، وعلى أمل أن يشفى خلال عام ، تظاهرا بالموافقة على مشروعه وأنه مشروع حكيم معقول ، ووعداه بأن يكونا معه . وقال كرسكو : « أنا ، كما يعرف الناس جميعا ، شاعر ممتاز . وفي كل ساعة أنظم قصائد رعوية ، وشعرا غزليا ، أو كما يأتيني ، وسنتحدث في الخلوات التي سندهب إليها . لكن يا سادتي ، المهم هو أن يختار كل واحد الراعية التي يود أن يتغنى بها في أشعاره ، وألا ندع شجرة ، مهما كانت صلبة ، دون أن ننقش عليها أسماءنا ، كما جرى العرف بذلك بين الرعاة العاشقين » .

فقال دون كيخوته : « هذا مدهش ، أما عن نفسي فلست بحاجة إلى البحث عن اسم راعية خيالية ، لأن عندي المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، مجد هذه الشواطئ ، وزينة هذه المروج ، وسند الجمال ، وزهرة اللطف ، وأجدر الناس بالمديح والإطراء البالغ » .

فقال القسيس : أنت على حق ، أما نحن فسنبحث عن راعيات أقل كمالا ، تناسبنا .

فقال كرسكو : وإذا لم نجد ، فلنستعر الأسماء التي نجدها في الكتب وبها امتلأ العالم : فيليس ، أمريليس ، ديانا ، فلوريدا ، غلاطيه ، بليسارده ، وما دامت تباع في السوق ، ففي وسعنا أن نشترى منها وتتخذها لنا ، فإذا كانت سيدتي ، أو بالأحرى راعيتي ، تسمى أنه ، فسأتغنى بها تحت اسم : أنرده ، وإذا كان اسمها فرنسكا ، فسأطلق عليها

اسم فرنثينا ، وإن كان اسمها لوثيا ، سميتها لوثنده ، وكل هذا يجري من المنع . وإذا دخل سنشو في جماعتنا أطلق على زوجته تريزه بنتا اسم ترزنيا .
فتضاحك دون كيخوته من هذه الأسماء . وأثنى القسيس عليه كثيرا لهذا القرار المخلص ، ووعده مرة أخرى بمرافقته طوال المدة التي تسمح له بها واجبات عمله . وهنالك تركه الصاحبان ، وأوصياه بالاهتمام بصحته ، وبحسن التغذية .
ويشاء الحظ أن تسمع بنت الأخت والخادمة هذا الحديث : فلم يكد الرجلان يذهبان حتى دخلتا على دون كيخوته ، وقالت له بنت أخته : « ما هذا يا خالي ؟ لقد حسبنا أنك عدت على نية البقاء معنا وسلوك حياة هادئة شريفة ، والآن تريد أن تلقي بنفسك في أتاويه جديدة ، وتصبح

راعيًا ، يا من أتيت ،

راعيًا ، هل أنت ذاهب ؟^(١)

الحق أن القصيل^(٢) جاس لا يمكن أن يصنع منه أنابيب القصب .

وقالت الخادمة ، وأنى لك أن تتحمل حمارة القيظ في الصيف وصبارة القر في الشتاء ، وعواء الذئب في تلك البراري ! إن مهنة الراعي للرجال الأشداء الأصلاب الذين نشأوا فيها منذ الصغر . شر بشر ، الأفضل أن تكون فارسا جوالا من أن تكون راعيًا . صدقني يا سيدي ، واتبع نصيحتي ، التي أسديها إليك لا وأنا سكرى ، بل وأنا صائمه ، وسني الخمسون . ابق في بيتك ، واهتم بتثمين مالك ، واعترف بخطاياك ، وأحسن إلى الفقراء ، وإن حدث لك سوء فعلي وزره .

فقال دون كيخوته : اسكتي يا بنتي ، أنا أعرف ماذا أصنع . أرقداني فإني أشعر بوعكة ، وتأكدًا أنه سواء كنت فارسا جوالا أو راعيًا ، فسأوفر لكما ما تحتاجان إليه ، وسترون ذلك بالنتائج .

فوضعت بنت الأخت والخادمة في سريره ، وكانتا فتاتين طيبتين ، وعاملتاه خير معاملة في وسعهما بذلها .

(١) إشارة إلى أغنية من أغاني عيد الميلاد ، أوردها كليمنثن ، وتقول : « أيها الراعي الصغير ، يا من أنت قادم (من حيث تقيم حبيبتك) ، قل ، أية أخبار هناك ؟ »

(٢) الكلمة العربية موجودة في الأصل الأسباني Alencel ، والقصيل هو الشعير يهز أخضر لعلف الدواب ، سمى به لسرعة اقترانه من رخصته ، والفقهاء تسمى الزرع قبل إدراكه قصيلا .

الفصل الرابع والسبعون

مرض دون كيخوته، ووصيته، ووفاته

كل من عليها فان ، ينحل شيئا فشيئا ، من الميلاد حتى النهاية الأخيرة وهكذا الشأن في الحياة الإنسانية . وحياة دون كيخوته لم تظفر من السماء بميزة الامتداد في مجراها ، فبلغت أجلها حين لم يكن ذلك في خاطر أحد . ولست أدري هل هو الحزن بسبب هزيمته ، أو ارادة السماء هي التي اقتضت ذلك ، لقد أصابته الحمى ، فألزمته الفراش ستة أيام . وكان القسيس ، وحامل البكالوريا ، والحلاق يعودونه مرارا ، وسنشو ، السانثس الطبيب ، لم يفارق مخدة فراشه . وكان أصحابه هؤلاء مقتنعين بأن مرضه ناشئ عن ذكرى هزيمته وعن اغتمامه لعدم رفع السحر عن دلثنيا ، ولهذا اهتموا بالترويح عنه وتسليته وصرف الهموم عن خاطره . وحشه كرسكو على أن يتشجع ، وينهض لبدأوا الحياة الرعوية . وقال له انه قد نظم فعلا قصيدة رعوية لا تقل شأوا عن رعويات سنازارو^(١) ، وأنه اشترى من ماله الخاص كلبين عظيمين لحراسة قطيعه ، أحدهما اسمه برثينو^(٢) والآخر اسمه بطرون ، وقد اشتراهما من راع من قنطنار .

لكن لم يفلح شيء في تسرية الأحزان عن دون كيخوته . ودعي طبيب ، فحس نبضه ، ولم يرض عنه . وقال ان على المريض أن يعنى بنجاة روحه ، لأن حياته في خطر شديد . فلتقى دون كيخوته هذا النبأ بهدوء ، وهو ما لم تستطعه بنت الأخت ولا الخادمة

(١) شاعر ايطالي ولد في نابلي سنة ١٥٣٠ ، وكان في رعاية الأمراء الأرغونين . وبعد سقوط فردريجو الأرغوني ، وضم مملكة نابلي الى أسبانية بقي مخلصا لذكراهم ، بالرغم من محاولات غنصالية القرطبي ، قائد فرقتدو الكاثوليكي ، لجذبه الى صفه . وله أشعار باللغة اللاتينية ، كبيرة القيمة ، (منها : في ولادة المذراء ، ثلاث قصائد ، حور ووثاء ، على موت المسيح ، خمس رعويات بحرية) ، وقصائد بالاطالية (أركاديا ، سنة ١٥٠٤ ، سوناتات ، وأغاني . سنة ١٥٢٠) . وقد أطلق عليه اسم فرجيل النصرانية .

(٢) اسم يطلق على الكلب أو الثور ذي اللون الأبيض والأسمر (أو الرمادي) وأحيانا على ذي اللون المحمر .

ولا سنشوا فأخذوا في البكاء ، معتقدين أنه مات فعلا . فقال الطبيب : « هذه الدموع ، وهذا الحزن ، ستجهز عليه » . فطلب منهم دون كيخوته أن يتركوه وحده ، لأنه يريد أن ينام قليلا .

فنام نومة متصلة طوال ست ساعات ، وخشيت السيدتان ألا يفيق أبدا . ولكنه فتح عينيه ، وصاح بصوت قوي : « تبارك الله العلي القدير على من أنعم علي به ! ان رحمته واسعة لا تحد ، وخطايا الناس لا تضعفها ولا تطفئها » . وأصغت بنت الأخت في صمت الى كلام خالها ، وقد بدا موفور العقل أكثر من المعتاد . فقالت له : « ماذا تقصد يا خالي العزيز . وعن أية خطايا ، وأية رحمة تتكلم ؟ » .

فقال دون كيخوته : « عن الرحمة التي وهبني الله منذ قليل ، ولم تمنعها خطاياي وذنوبي . ان تمييزي الآن حر سليم ، دون أية سحابة من ذلك الجهل الذي نشرته على قراءتي المستديمة الخطرة لكتب الفروسية الكريهة هذه ، والآن أقر بما فيها من أكاذيب وأقوال جنونية . ولست آسف إلا على شيء واحد ، هو أن زوال الغشاوة عني قد أتى متأخرا بحيث لن أستطيع تعويض الزمن الضائع ، بقراءة كتب أخرى تلقى النور في عقلي . إني أشعر باقتراب أجلي ، يا بنت أختي العزيزة ، وبودي أن أموت دون أن أحمل معي الى القبر لقب « مجنون » ، وإن كنت كذلك طوال حياتي . نادى ، أي بنت أختي العزيزة ، أصدقائي ، القسيس ، وحامل البكالوريا ، والأسطى نقولا الحلاق ، إني أريد أن أعترف ، وأن أُملي وصيتي » . ولم تحتج بنت الأخت إلى السعي لإحضارهم ، لأن ثلاثتهم جاءوا .

ولم يكد دون كيخوته يلمحهم حتى صاح :
- « هننوني يا أصدقائي ، على أنني لم أعد بعد دون كيخوته دلا منتشا ، بل ألونسو كيخانو الملقب بالطيب . وأعلن أنني عدو أماديس الغالي وكل بني جلدته . وكل الأقايصص الخاصة بالفروسية الجواللة بغیضة عندي ، وأعترف بجنوني وبالخطر الذي أوقعني فيه هذه القراءة المدمرة . لكن برحمة الله أصبحت عاقلا على حسابي ، وصرت أكرهها » .
ولما سمع الأصدقاء الثلاثة هذا الكلام اعتقدوا أنه أصيب بجنون جديد . فقال له سمسون كرسكو : « الآن وقد علمنا أن السحر رفع عن دلثنيا ، نراك تتكلم هكذا ؟ نحن على ثبات أن نصير رعاة ، وأن نعیش ، ونحن نغني ، عيشة الأمراء ، وترید أن تصبح راهبا ؟ اسكت ، وثب إلى رشدك ، ودعك من هذا الكلام » .
فأجاب دون كيخوته : « يا أصحابي ! إن ما تسبب حتى الآن في ضياعي ، سيتحول



دون كيخوته علی فراش الموت

الآن ، بعون السماء ، إلى مصلحتي ، بواسطة موتي . إنني أشعر بالحياة تفر مني ، فلندع هذه المداعبات ، إنني في حاجة إلى من يتلقى مني الاعتراف ، وإلى موثق لإملاء وصيتي . في الموقف الذي أنا فيه ، ينبغي على المرء ألا يسخر من روحه . وهكذا ، أرجوكم أن يذهب أحد لاحضار موثق ، بينما يتلقى القسيس اعترافي » .

فتطلع كل الحاضرين بعضهم في بعض ، مدهوشين من سلامة عقله ، وإن كانوا لا يكادون يصدقون ، وما بدا لهم علامة مؤكدة على وفاته هو السرعة التي بها صار عاقلا . ثم إنه أضاف إلى كلامه الأول كلاما آخر كثيرا كلاما يبين عن عقل وتقوى ، حتى لم يبق ثم شك في شفاء عقله . وطلب القسيس من الجميع أن يخرجوا ، وبقي معه ليتلقى منه الاعتراف . وخرج حامل الاجازة لبحث عن موثق ، وأتى به بعد قليل مع سنشو پنثا . ولما علم سنشو المسكين من كرسكو سوء حال مولاه ووجد السيدتين تبكيان ، بدأ يتنهد ويسفح العبرات . ولما انتهى الاعتراف خرج القسيس وهو يقول : « إنه يموت فعلا ، ألونسو كيخانو هذا الرجل الطيب ، وهو في تمام عقله ، وقد حان الوقت ليملي وصيته » . وأطلقت هذه العبارات السدود عن زفرات المرأتين وسنشو ، وراحوا يسفحون الدمع الهتون ، لأنه ، كما رأينا ، طالما كان دون كيخوته هو ألونسو كيخانو الطيب ، فقط ، وطالما كان دون كيخوته دلا منتشا ، فقد كان دائما رقيق المزاج حلو المعشر ، جميل الشائل . ولهذا أحبه أهل بيته ، وأحبه كل أهالي قريته .

ودخل الموثق يتبعه الجميع ، وأملى دون كيخوته الاستهلال وكل الصيغ المسيحية المستعملة ، ثم أمر بما يلي :

« وكذلك ، كل النقود التي لي وهي في يد سنشو پنثا ، الذي كنت في جنوني أسميه سائسي ، لما كانت توجد بيننا بعض حسابات الداخل والخارج ، فأني أطلب ألا يطالب بأي حساب ، بأية دعوى كائنة ما كانت ، وحين يدفع له كل ما أدين به له ، فالباقى ، وهو قليل ، يصبح ملكا له ، والله يوفقه . ولما كنت في أثناء جنوني ، قد هيأت له الحصول على حكم جزيرة ، فأني أود ، الآن وقد صرت عاقلا ، لو كان في وسعي أن أعطيه مملكة ، لأن إخلاصه وأمانته يستحقان ذلك » .

ثم تلفت إلى ناحية سنشو وقال له : « اغفر لي ، يا صديقي ، الفرص التي هيأتها لك لتبدو مجنونا مثلي ، بجعلك تقع في الخطأ الذي كنت أنا واقعا فيه ، وهو الاعتقاد أنه يوجد في العالم فرسان جواله » .

فصاح سنشو وهو يبكي : « آه ، يا سيدي لا تدع نفسك تموت ، بل اتبع نصيحتي ،

وهي أن تعيش سنوات طويلا . إن أكبر جنون يمكن أن يرتكبه الإنسان هو أن يدع الإنسان نفسه يموت دون أن يقتله أحد . ودون أن يجهز عليه شيء غير الحزن . لا تدع اليأس يتسرب ويستولي على قلبك . انهض وقم ، ولنذهب إلى الحقول ، مرتدين أزياء الرعاية كما اتفقنا . فلربما وجدنا خلف إحدى الخوائل السيدة دلثنيا وقد رفع السحر عنها ، ولن يبقى ثم شيء ينهني فعله . وإذا كان الغم من هزيمتك هو الذي يجعلك تموت ، فسأتحمل أنا الوزر على كاهلي ، بأن أؤكد أنك لم تنهزم إلا لأنني أسأت شد السرج على روئياتته . على أنك قد شاهدت في كتب الفروسية أنه أمر معتاد أن يرى فارس قد صرعه فارس آخر ، وأن المهزوم اليوم ، سيكون غدا الظافر » .

فقال كرسكو ، « سنشوق على حق ، ويروي الأمر على حقيقته كما وقع » .
فقال دون كيخوته ، « سيدي ، لا تتعجلن . لقد كنت مجنونا ، والآن صرت عاقلا . لقد كنت دون كيخوته دلا منتشا ، وأنا الآن ، كما قلت لكم ، ألونسو كبخانو الطيب . ولعل ثوبتي وصدق مشاعري أن يستردا احترامكم السابق لي ، وليستمر الموثق » .
« وكذلك أوصي بأن تكون وريثتي الوحيدة الشاملة لكل أملاكي هي أنطونينا كيخانا ، بنت أختي ، الحاضرة هنا . وبعد خصم مبلغ الوصايا التي قمت بها من أملاكي ، فأول دفع يتم هو دفع ما علي لخادمتي ، وأن يعطي لها ، بالإضافة إلى هذا ، عشرون دوقية لشراء ثوب . وأوصي بأن يكون الوصيان^(١) هما السيد القسيس وحامل البكالوريا سمسون كرسكو الحاضران هنا .

« وكذلك ، في الحالة التي تريد فيها المذكورة أنطونينا كيخانا ، بنت أختي ، أن تتزوج ، فإني أوصي بأن يكون زوجها من رجل يعرف عنه ، بعد العلم الدقيق ، أنه لم يقرأ أبدا كتب الفروسية ، وإذا تبين أنه قرأها وأصرت بنت أختي على الزواج منه ، فإني أقرر أن تحرم من كل الميراث الذي تركته لها ، وأن يتولى منفذا الوصية صرفه في أوجه البر حسبما يريان .

« وكذلك ، أرجو من منفذي الوصية المذكورين ، إذا تصادف وعرفا من هو مؤلف القسم الثاني من تاريخ دون كيخوته دلا منتشا ، أن يستميحاه العذر باسمي ، بغاية الأدب ، من أجل أنني ، دون أن أدري ، هيأت له الفرصة لكتابة كل هذه الترهات الجنونية . وإني أحمل معي التائب على هذه الغلطة غير الإرادية » .

(١) في النص الأسباني هذه الكلمة العربية .

ولما انتهت الوصية ، أصيب بنوبة ، وتمدد في فراشه . فأسعفوه ، وطوال الأيام الثلاثة التالية التي بقي إبانها في قيد الحياة ، كان يصاب بنوبات إغماء باستمرار . وكان البيت كله في حالة طوارئ ؛ لكن هذا لم يمنع بنت الأخت من الأكل ، ولا الخادمة من الشرب ، ولا سنشو من الاغتراب ، لأن الميراث يخفف الآلام التي يستشعرها الإنسان من موت المرحوم .

وأخيرا جاء آخر يوم في حياة دون كيخوته ، فتلقى المراسم الدينية ، بعد أن لعن كتب الفروسية ألف لعنة . وقال الموثق ، وقد حضر وفاته ، إنه لم يقرأ في أي كتاب من كتب الفروسية أن فارسا جوالا مات في فراشه ، بهذا الهدوء وهذه التقوى اللذين أبداهما دون كيخوته ، الذي لفظ النفس الأخير وسط الزفرات والعبرات التي أطلقها الحاضرين . وطلب القسيس من الموثق أن يعطيه شهادة بأن ألونسو كيخانو ، الملقب بالطيب ، والمعروف عامة باسم دون كيخوته دلا منتشا ، قد فارق الحياة ومات ميتة طبيعية ؛ وهذه الشهادة سيستفيد منها ضد كل مؤلف آخر ، غير سيدي حامد بن الأيل ، يدعي زورا بعثه ومتابعة تاريخ أعماله حتى اللانهاية .

تلك هي نهاية البارع النبيل المنتشاي ، الذي لم يشأ سيدي حامد أن يدلنا على بلده بالدقة ، حتى تتنافس كل مدن وقرى اقليم المنتشا وتتنازع شرف مولده ، مثلما فعلت قديما مدن اليونان في تنازعها على مولد هوميروس . لنسحب ذيول الصمت على نواح سنشو وبنت الأخت والخادمة . ونغفل أيضا المراثي التي قيلت في رثائه وعلى شرفه . لكن هذه ، مع ذلك ، مرثية سمسون كرسكو :

«هنا يرقد النبيل الباسل
الذي بلغ الغايات بشجاعته
ولوحظ أن الموت لم يستطع
أن يقهر حياته بالهلاك
تحدى الدنيا بأسرها
وكان مشار الخوف والرهبنة
في العالم في ظروف مواتية
حتى أن ما أمن له السعادة
هو أنه مات عاقلا بعد أن كان مجنونا»

وسيدي حامد ، صاحب العقل الراجح ، يوجه هذه الكلمات إلى قلمه ،
 «أي قلمي الصغير ، جيد البري كنت أو رديئه ، ابق معلقا في هذا المسمار بهذا السلك
 من النحاس . وستبقى قرونا طويلة إذا لم ينتزعك مؤرخون لصوص ليدنسوك . لكن قبل أن
 يمسوك ، تستطيع أن تقول لهم بأعلى صوتك^(١) ،
 «كفوا ، كفوا ، يا أوغاد
 ألا لا يمسسني أحد ،
 لأن هذه المهمة ، بأمر الملك الطيب ،
 مخصصة لي وحدي» .

«نعم ، من أجلي أنا ولد دون كيخوته ، وأنا ولدت من أجله . لقد عرف كيف
 يفعل ، وأنا عرفت كيف أكتب . وكلانا واحد ، على الرغم من ذلك الكويكب الداعي أنه
 من تورديسياس ، الذي تناول ، بقلم غليظ سيء البري ، على أعمال فارسي المغوار
 وأراد وصفها . وما هذا بالحمل الذي ينهض به كتفاه ، ولا بالموضوع الذي يقوى عليه
 عقله الكليل البارد . وقل له ، إن رأيته ، أن يدع عظام دون كيخوته المتعفة ترقد في
 سلام ، ولا يحاول ، ضد قرارات الموت ، أن يعرضه على قشتالة القديمة^(٢) ، وأن
 يخرج من قبره ، حيث يرقد حقا وفعلا بطوله ، عاجزا عن القيام بأية خرجة جديدة
 ويوم ثالث^(٣) .

«وللاستهزاء بكل قصص الفرسان الجواله حسبنا هذان اليومان^(٤) ، اللذان حظيا برضا
 كل الذين قرأوهم ، وحتى في البلاد الأجنبية . وأنت بهذا تؤدي واجباتك في مهنتك

(١) يبدو أن هذه المقطوعة قد صنعت على غرار مقطوعة لخبرت بيرث دي هيتا تقول : «هذه المهمة ، يا سيدي ، ادرت لي . إن
 سيدتي الملكة هي التي أمرتني بها» .

(٢) إشارة إلى ما كتبه ألبانيدا في نهاية القسم الثاني من دون كيخوته الذي ألفه ، حين يقول (ورقة ٢٨٢) إن دون كيخوته ، بعد
 خروجه من بيت المندوب ، الذي حبس فيه مدة بسبب جنونه ، «عاد إلى حالته القديمة واشترى فرسا آخر ، وارتحل إلى قشتالة
 القديمة ، فحرت له فيها منامرات رائحة لم يسمع بمثلها ، وكان سائس فتاة وجدها عند قلعة لودوني تلبس زي رجل... فأخذها هذا
 الفارس الطيب ، دون أن يعلم أنها امرأة ، إلى أن ولدت وهما في وسط الطريق ...، فذهب ، بنير سانس ، إلى شلمنقة ، وأبله ،
 وولد الوليد ، وتلقب بلقب فارس الأعمال ، وهذه لن تقدم قلما أفضل من هذا لتمجيدها» .

(٣) من هذا يتبين أن ثربانتس عد الخرجتين الأولى والثانية الواردتين في القسم الأول خرجة واحدة .
 (٤) أي هذان القسمان اللذان يتألف منهما دون كيخوته . والواقع أن دون كيخوته قام بثلاث خرجات لا باثنتين ، الأولى منها وحده ،
 والاثنتان الأخريان بصحبة سنشو . وهو نفسه يقرر في بداية القسم الثاني من هذا الكتاب ما يلي : «يروى سيدي حامد بن الأيل ،
 في القسم الثاني من هذه القصة ، الذي يتضمن الخرجة الثالثة لدون كيخوته...»

فكيف وقع ثربانتس في هذا الإهمال الواضح ؟ يرى رودريجيث مرين أن ثربانتس سها في لحظة سهو فخلط بين خرجات بطله
 وخرجاته هو ، أعني القسمين الاثنين اللذين كتبهما . غير أننا لاحظنا كثيرا من شواهد سهو ثربانتس في ثنايا الكتاب .

الشريفة التقية ، بإسدائك النصائح السديدة لأولئك الذين يضمرون له الأذى والإساءة : أما أنا فساكون راضيا لأنني لم أقصد إلى غاية ولم يكن لي من رغبة غير أن أبث في رفاقي الفزع الحق من الأكاذيب والترهات الجنونية التي تحفل بها كتب الفروسية ، وهي منذ ظهور دون كيخوته الحقيقي الذي من تأليفي تترنح قيمتها في نظر الرأي العام ، ولا شك في أنها ستسقط إلى الأبد . والسلام! » .

نهاية
القسم الثاني من
دون كيخوته دلا منتشا
وبه
تم الكتاب

فهرس الكتاب

تتمة القسم الأول

5	ويروي حكاية المستطلع الفاسد الرأي	الفصل الثالث والثلاثون:
20	تلاوة حكاية المستطلع الفاسد الرأي	الفصل الرابع والثلاثون:
	في المعركة الدامية الرهيبة التي أثارها دون كيخوته ضد	الفصل الخامس والثلاثون:
34	خوابي النبيذ وتتمة حكاية المستطلع الفاسد الرأي	
41	في الأحداث الغريبة التي وقعت في الفندق	الفصل السادس والثلاثون:
	استمرار قصة ولية العهد الشهيرة ميكوميكونا ومغامرات	الفصل السابع والثلاثون:
48	شائقة أخرى	
	تلاوة الخطبة العجيبة التي أنقأها دون كيخوته في موضوع	الفصل الثامن والثلاثون:
58	الأسلحة والآداب	
61	تاريخ الأسير	الفصل التاسع والثلاثون:
68	تلاوة تاريخ الأسير	الفصل الأربعون:
78	تلاوة تاريخ الأسير	الفصل الحادي والأربعون:
92	أحداث جديدة تقع في الفندق وأمر أخرى خليقة بأن تعرف	الفصل الثاني والأربعون:
97	قصة البغال الشاب ، وأحداث أخرى غريبة وقعت في الفندق	الفصل الثالث والأربعون:
105	تلاوة الأحداث الغريبة التي وقعت في الفندق	الفصل الرابع والأربعون:
	وفيه تم ايضاح الشكوك المتعلقة بخوذة ممبرينو والبرذعة ،	الفصل الخامس والأربعون:
111	مع مغامرات حقيقية أخرى	
	في مغامرة الرماة الفريدة وغضبة فارسنا الطيب دون كيخوته	الفصل السادس والأربعون:
117	غضبة عظيمة	
	في الطريقة العجيبة التي بها سحر دون كيخوته وحوادث	الفصل السابع والأربعون:
124	أخرى عجيبة	
	تلاوة حديث الكاهن عن كتب القروسية وأمر أخرى جديدة	الفصل الثامن والأربعون:
136	بعقله الراجح	
143	محادثة عاقلة بين دون كيخوته وسنشو پنتا	الفصل التاسع والأربعون:
150	مناقشة ممتعة بين دون كيخوته والكاهن ، وأحداث أخرى	الفصل الخمسون:
155	الحكاية التي رواها المعاز لأولئك الذين اقتادوا دون كيخوته	الفصل الحادي والخمسون:
	في النزاع الذي وقع بين دون كيخوته والمعاز ، والمغامرة	الفصل الثاني والخمسون:
159	المذهلة للتوابين ، التي ختمها خاتمة مجيدة بعرق جبينه	

169	القسم الثاني	
171		الى كونت ليموس
173		استهلال الى القارئ
	في كيف كان تصرف القسيس والحلاق مع دون كيخوته ابا	الفصل الأول:
179	مرضه	
	في النزاع الكبير الذي جرى بين سنشو پنشا و بنت أخت دون	الفصل الثاني:
188	كيخوته وخادمته ، وحوادث أخرى	
	في الحديث الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو	الفصل الثالث:
193	پنشا وصاحب الاجازة سمسون كرسكو	
	حيث يجب سنشو عن الأسئلة ، ويوضح شكوك صاحب الاجازة	الفصل الرابع:
200	سمسون كرسكو ، وحوادث أخرى جديدة بأن تعرف وتروى	
	في المحادثة العاقلة الممتعة بين سنشو پنشا وزوجته تريزه	الفصل الخامس:
205	پنشا ، وحوادث أخرى جديدة بالذكرى الطيبة	
	فيما جرى بين دون كيخوته وبنت أخته وخادمته ، وهو فصل	الفصل السادس:
211	من أهم فصول هذا التاريخ	
216	فيما جرى بين دون كيخوته وسانه ، وحوادث أخرى خفيفة بالذكر	الفصل السابع:
	فيما وقع لدون كيخوته ، وهو ذاهب لرؤية سيدته دلثنيا دل	الفصل الثامن:
222	توبوسو	
229	وليه يروي ما سيري	الفصل التاسع:
	في الطريقة الباردة التي لجأ اليها سنشو لسحر السيدة	الفصل العاشر:
233	دلثنيا ، وحوادث أخرى مضحكة ولكنها حقيقية	
	في المغامرة الغريبة التي جرت للفارس دون كيخوته مع عربة	الفصل الحادي عشر:
241	أو عربة الموت	
	في المغامرة الغريبة التي خاضها الفارس دون كيخوته مع	الفصل الثاني عشر:
247	فارس المرايا الهمام	
	تلاوة مغامرة فارس الأيكة ، والحوار الجديد الحكيم السار	الفصل الثالث عشر:
253	الذي جرى بين السانسين	
258	تلاوة مغامرة فارس الأيكة	الفصل الرابع عشر:
267	وفيه يروي من كان فارس المرايا وسانه	الفصل الخامس عشر:
269	فيما وقع لدون كيخوته مع فارس عاقل من المنتشا	الفصل السادس عشر:
	حيث يذكر أعظم دليل على شجاعة دون كيخوته ، والنهاية	الفصل السابع عشر:
276	السعيدة لمغامرة الأسود	

- 284 الفصل الثامن عشر: فيما وقع لدون كيخوته في قصر أو بيت فارس الرداء الأخضر ، وأمور أخرى عجيبة
- 291 الفصل التاسع عشر: حيث يروى مغامرة الراعي العاشق ، وحوادث أخرى صادقة بقدر ماهي ممتعة
- 297 الفصل العشرون: وفيه تروى أنباء عرس كمتشو الغني ، ومغامرة باسيل الفقير
- 305 الفصل الحادي والعشرون: وفيه استمرار عرس كمتشو ، ومغامرات أخرى ممتعة
- 310 الفصل الثاني والعشرون: وفيه تروى المغامرة الكبرى في كهف مونتسينوس الموجود في وسط إقليم المنتشا ، وهي مغامرة اتمها بنجاح الشجاع دون كيخوته دلامنتشا
- 319 الفصل الثالث والعشرون: في الأمور العجيبة التي قالها الراعي دون كيخوته انه رآها في كهف مونتسينوس العميق ، وهي أمور مستحيلة لا تصدق ، حتى ان هذه المغامرة تعد منحولة
- 327 الفصل الرابع والعشرون: وفيه الاف من الترهات غير المقبولة ولكنها ضرورية من أجل الفهم الصحيح لهذا التاريخ الكبير
- 332 الفصل الخامس والعشرون: وفيه تروى مغامرة نهيق الحمار ، والقصة اللطيفة الخاصة باللاعب بالعرانس ، مع التكهات الخليفة بالذكر ، التي قالها النسناس المتكهن
- 339 الفصل السادس والعشرون: استمرار المغامرة اللطيفة لللاعب بالعرانس ، وأمور أخرى من المؤكد أنها لطيفة
- 346 الفصل السابع والعشرون: وفيه يذكر من هو المعلم بطرس ونسناسه ، واخفاق دون كيخوته في مغامرة النهيق التي لم تجر كما اعتقد
- 352 الفصل الثامن والعشرون: في الأمور التي ذكرها ابن الايل ، وسيعرفها القارئ لو قرأها بانتباه
- 356 الفصل التاسع والعشرون: في المغامرة الشهيرة للسفينة المسحورة
- 363 الفصل الثلاثون: فيما جرى لدون كيخوته مع صيادة جميلة
- 367 الفصل الحادي والثلاثون: وفيه كثير من الأمور المهمة
- 373 الفصل الثاني والثلاثون: في رد دون كيخوته على لائمه ، وحوادث أخرى جادة ولذيذة
- 384 الفصل الثالث والثلاثون: في المحادثة الشائقة التي جرت بين الدوقة ووصيفاتها وبين سنشو پشا ، وهي خليفة بأن تقرأ وتسجل
- 392 الفصل الرابع والثلاثون: حيث يروي كيف اكتشفت وسيلة لرفع السحر عن المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، وهي احدى المغامرات الأكبر شهرة في هذا الكتاب

398	الفصل الخامس والثلاثون: حيث يتابع ذكر وسيلة رفع السحر عن دلتنيا وأحداث أخرى رائعة
404	الفصل السادس والثلاثون: وفيه تروي مغامرة غريبة لم يسمع بمثلها وقعت للوصيفة المكروبة ، واسمها الكونتيسة تيفالدي ، والرسالة التي كتبها سنشو پنشا الى زوجته تريزه پنشا
409	الفصل السابع والثلاثون: تلاوة المغامرة الشهيرة التي قامت بها الوصيفة المكروبة
411	الفصل الثامن والثلاثون: وفيه تروي مصائب الوصيفة المكروبة
417	الفصل التاسع والثلاثون: حيث تتابع الكونتيسة تيفالدي تاريخها العجيب الجدير بالذكر
420	الفصل الأربعون: في الأمور المتعلقة بهذه المغامرة وبهذا التاريخ الخالد
425	الفصل الحادي والأربعون: وصول « اللحم » ونهاية هذه الحكاية الطويلة
434	الفصل الثاني والأربعون: في النصائح التي أسداها دون كيخوته إلى سنشو پنشا ، قبل أن يذهب هذا لحكم جزيرته ، وأمور أخرى معتبرة جدا
439	الفصل الثالث والأربعون: تلاوة نصائح دون كيخوته لسنشو پنشا
444	الفصل الرابع والأربعون: كيف تولى سنشو الحكم ، مغامرة غريبة وقعت لدون كيخوته في القصر
452	الفصل الخامس والأربعون: كيف استولى العظيم سنشو پنشا على حكم جزيرته ، وكيف بدأ حكمها
460	الفصل السادس والأربعون: مغامرة غريبة للأجراس والقطط ، وقعت لدون كيخوته أثناء غرامه مع التسيدورا المولدة
464	الفصل السابع والأربعون: كيف تصرف سنشو في إدارة حكومته
471	الفصل الثامن والأربعون: فيما وقع لدون كيخوته مع دونيا رودريجت ، وصيفة الدوقة ، ووقائع أخرى جديرة بخلود الذكر
477	الفصل التاسع والأربعون: فيما وقع لسنشو پنشا وهو يقوم بجولة تفتيشية في جزيرته
486	الفصل الخمسون: حيث يبين من كانوا السحرة الذين جلدوا السيدة رودريجت وضربوا دون كيخوته ، وكيف استقبل الغلام حامل الرسالة إلى تريزه پنشا ، زوجة سنشو پنشا
493	الفصل الحادي والخمسون: في تقدم حكومة سنشو ، وحوادث أخرى ليست أقل أهمية
500	الفصل الثاني والخمسون: وفيه تروي المغامرة الثانية للمكروبة الثانية ، واسمها دونيا رودريجت
506	الفصل الثالث والخمسون: النهاية الأليمة لحكومة سنشو پنشا
513	الفصل الرابع والخمسون: ويبحث في أمور تتعلق بهذا التاريخ ، ولا تتعلق بغيره
519	الفصل الخامس والخمسون: فيما وقع لسنشو في الطريق ، وأمور أخرى شائقة

	في المعركة الرهيبة التي لم يسمع بمثلها والتي وقعت بين دون كيخوته دلا منتشا ، والخادم توسيلوس ، بشأن بنت الدونيا رودريجت	الفصل السادس والخمسون،
524		
	كيف ودع دون كيخوته الدوق ، وما وقع له مع الوقعة الخبيثة التسيدورا ، خادمة الدوق	الفصل السابع والخمسون،
528		
	كيف انهمرت المغامرات على دون كيخوته بحيث لم تترك له فراغا اللقاء العجيب ، الذي يمكن أن يعد مغامرة وقعت لدون كيخوته	الفصل الثامن والخمسون،
532		
	فيما وقع لدون كيخوته ، وهو في الطريق إلى برشلونة	الفصل التاسع والخمسون،
541		
	فيما وقع لدون كيخوته ، وهو يدخل برشلونة ، وأمور أخرى تمتاز بالصدق أكثر من المعقولة	الفصل العاشر والخمسون،
550		
	مغامرة الرأس المسحور ، وترهات أخرى لا بد من روايتها في النتيجة السيئة التي كانت لزيارة سنشو بنتا للجاليات ،	الفصل الحادي والستون،
562		
	والمغامرة الجديدة للمورسكية الجميلة	الفصل الثاني والستون،
566		
	في أسوأ مغامرة وقعت لدون كيخوته	الفصل الثالث والستون،
576		
	في التعريف بفارس القمر الأبيض وتخليص دون جريجوريو وحوادث أخرى	الفصل الرابع والستون،
583		
	فيما سيراه من يقرؤه ، أو يسمعه من يصني لقراءته	الفصل الخامس والستون،
593		
	في قرار دون كيخوته أن يصير راعيا ، وأن يحيا حياة الرعاة ، أثناء سنة اعتزاله الاجباري ، حوادث أخرى سارة	الفصل السادس والستون،
598		
	مغامرة الخنازير	الفصل السابع والستون،
603		
	في أغرب مغامرة وقعت لدون كيخوته طوال هذا التاريخ العظيم كله	الفصل الثامن والستون،
608		
	وهو يتلو الفصل التاسع والستين ، ويبحث في أمور مهمة لفهم هذا التاريخ	الفصل التاسع والستون،
612		
	فيما وقع لدون كيخوته وسائسه سنشو وهما في الطريق إلى قريتهما	الفصل العاشر والستون،
618		
	كيف وصل دون كيخوته وسنشو إلى قريتهما	الفصل الحادي والسبعون،
623		
	النذر التي تجلت لدون كيخوته عند دخول قريته ، وحوادث أخرى ترفع من شأن هذا التاريخ العظيم	الفصل الثاني والسبعون،
627		
	مرض دون كيخوته ، ووصيته ، ووفاته	الفصل الثالث والسبعون،
633		
		الفصل الرابع والسبعون،

أعمال
نائلة

١

ثريانتس

أعمال خالدة ١

دون كيخوته تجسّد للمثال ، وللقيم المجردة ؛ إنه الجانب المثالي من الوجود ، الذي يصرعه الجانب الواقعي ، ويظل الصراع بين كلا الجانبين متصلًا ، لا يفتُ في عضده انتصار الواقع على المثال باستمرار . ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا . ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود ؛ وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الانسانية العليا ، الى جانب پرومتيوس ، وفاوست ، وهاملت ، ودون جوان . إن دون كيخوته يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل بدن الإنسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .